

الأعمال الكاملة

يوسف فخر الدين



الغفلة الفجيرة

دار الشروق

يوسف إدريسي
القلم والفقيرة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حوراد حس - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
 يوتيا شرق - لكس 93091 BHROK UN
 جزوت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣
 يوتيا دافشروق - لكس SHOROK 20175 LE



الهلال للفنان حلمي التوني



بيت من لحم

بيت من لحم

الخاتم بجوار المصباح . الصمت يحل فتعمى الأذان . في
الصمت يتسلل الأصبع . يضع الخاتم .

في صمت أيضاً يطفأ المصباح .

والظلام يعم .

في الظلام أيضاً تعمى العيون . الأرملة وبناتها الثلاث . والبيت
حجرة . والبداية صمت .

الأرملة طويلة بيضاء ممشوقة ، في الخامسة والثلاثين .

بناتها أيضاً طويلات فائرات ، لا يخلعن الثوب الكاسي الأسود
بحداد أو بغير حداد . صغراهن في السادسة عشرة وكبراهن في
العشرين . . قبيحات ورثن جسد الأب الأسمر المليء بالكتل غير
المتناسقة والفجوات ، وبالكاد أخذن من الأم العود .

الحجرة، رغم ضيقها تسعهن في النهار. . رغم فقرها الشديد مرتبة أنيقة، يشيع فيها جو البيت وتحفل بلمسات الإناث الأربع. في الليل تتناثر أجسادهن كأكوام من لحم دافئ حي، بعضها فوق الفراش، وبعضها حوله، تتصاعد منها الأنفاس حارة مؤرقة، أحياناً عميقة الشهيق.

الصمت خيم مذ مات الرجل، والرجل مات من عامين بعد مرض طويل. انتهى الحزن وبقيت عادات الحزاني وأبرزها الصمت. . صمت طويل لا يفرغ اذ كان في الحقيقة صمت انتظار، فالبنات كبرن والترقب طال والعمرسان لا يجيئون. ومن المجنون الذي يدق باب الفقيرات القبيحات، وبالذات إذا كن يتامى؟. ولكن الأمل بالطبع موجود، فلكل فولة كيال ولكل بنت عدلها. فإذا كان الفقر هناك فهناك دائماً من هو أفقر، وإذا كان القبح هناك فهناك دائماً الأقبح، والأمانى تنال. . أحياناً تنال بطول البال.

صمت لم يكن يقطعه إلا صوت التلاوة. . يتصاعد في روتين لا جدة فيه ولا انفعال. والتلاوة لمقرىء، والمقرىء كفيف، والقراءة على روح المرحوم وميعادها لا يتغير. . عصر الجمعة يجيء بعصاه ينقر الباب، ولليد الممدودة يستسلم، وعلى الحصير يتربع. وحين ينتهي يتحسس الصندل، ويلقي بتحفة لا يحفل أحد بردها، ويمضي. بالتعود يجيء. . بالتعود يقرأ. . بالعادة يمضي، حتى لم يعد يشعر به أو ينتبه إليه أحد. .

دائم هو الصمت، حتى وتلاوة عصر الجمعة تقطعه أصبحت وكأنها قطع الصمت بصمت. دائم هو كالانتظار، كالأمل.. أمل قليل ولكنه دائم، فهو أمل في الأقل. دائماً هناك لكل قليل أقل، ومن لا يتطلعن لأي أكثر.. أبداً لا يتطلعن.

يدوم الصمت حتى يحدث شيء.. يجيء عصر الجمعة ولا يجيء المقرء. فلأي اتفاق مهما طال نهاية وقد انتهى الاتفاق.

وتدرك الأرملة وبناتها الآن فقط كنه ما تقدم، ليس فقط الصوت الوحيد الذي كان يقطع الصمت، ولكن أيضاً الرجل الوحيد الذي كان ولو في الأسبوع مرة يدق الباب، بل أشياء أخرى يدركن.. فقير مثلهن هذا صحيح، ولكن ملابسه أبداً كانت نظيفة، وصنذه دائماً مطلى، وعمامته ملفوفة بدقة يعجز عنها المبصرون، وصوته قوي عميق رنان.

والاقتراح يبدأ: لماذا لا يجدد الاتفاق ومنذ الآن؟ ولماذا لا يرسل في طلبه هذه اللحظة؟ مشغول، فليكن! الانتظار ليس بالجديد. وقرب المغرب يأتي، ويقرأ وكأنه أول مرة يقرأ. والاقتراح ينشأ.. لماذا لا تتزوج احداهن رجلاً يملأ علينا بصوته الدار؟ هو أعزب لم يدخل دنيا، وله شارب أخضر، ولكنه شاب. وبالكلام يجر الكلام، ها هو الآخر يبحث عن بنت الحلال.

البنات يقترحن والأم تنظر في وجوههن لتحدد من تكون صاحبة النصيب والاقتراح. ولكن الوجوه تزور مقترحة - فقط مقترحة - قائلة

بغير الكلام: أنصوم ونفطر على أعمى؟ . هن ما زلن يحلمن بالعرسان، والعرسان عادة مبصرون. مسكينات لم يعرفن بعد عالم الرجال، ومحال أن يفهمن أن الرجل ليس بعينه.

- تزوجيه أنت يا أماه. . تزوجيه.

- أنا؟ . يا عيب الشوم! . والناس؟

- يقولون ما يقولون. . قولهم أهون من بيت خال من رنين صوت الرجال.

- أتزوج قبلكن؟ . مستحيل.

- أليس الأفضل أن تتزوجي قبلنا، ليعرف بيتنا قدم الرجال فنتزوج بعدك؟ تزوجيه يا أماه.

وتزوجته. . زاد عدد الأنفس واحدة، وزاد الرزق قليلاً، ونشأت مشكلة أكبر.

الليلة الأولى انقضت وهما في فراشهما، هذا صحيح. ولكنهما حتى لم يجسرا على الاقتراب. . ولو صدفة! فالبنات الثلاث نائمات، ولكن من كل منهن ينصب زوج من الكشافات المصوبة بدقة إلى المسافة الكائنة بينهما. . كشافات عيون، وكشافات آذان، وكشافات احساس. البنات كبيرات، عارفات ومدركات، والحجرة كأنما تحولت بوجودهن الصاحي إلى ضوء نهار. ولكن بالنهار لم تعد ثمة حجة، وواحدة وراء الأخرى تسللن ولم يعدن إلا قرب الغروب،

مترددات خجلات يقدمن رجلاً ويؤخرن رجلاً، حتى يزددن قريباً.
 وحينذاك يدهشهن.. يربكهن.. يجعلهن يسرعن ضحكات..
 قهقهات رجل تتخللها سخسخت امرأة.. أمهن لا بد تضحك،
 والرجل الذي ما سمعنه إلا مؤهلاً خاشعاً ها هو يضحك! بالأحضان
 قابلهن ولا تزال تضحك، رأسها عار وشعرها مبلل ممشط ولا تزال
 تضحك، وجهها.. ذلك الذي أدركن للتو أنه كان مجرد فانوس مطفأ
 عشعش فيه العنكبوت والتجعيدات، فجأةً أنار، ها هو أمامهن كلمبة
 الكهرباء مضيء.. ها هي عيونها تلمع وقد ظهرت وبانت وتلألأت
 بالدمع الضاحك.. تلك التي كانت مستكنة في قاع المحجر.

الصمت تلاشى واختفى تماماً، على العشاء وقبل العشاء وبعد
 العشاء نكت تترى وأحاديث وغناء! صوته حلو وهو يغني ويقلد أم
 كلثوم وعبد الوهاب، صوته عال أجش بالسعادة يلعلع.

خيراً فعلت يا أماه! وغداً تجذب الضحكات الرجال، فالرجال
 طعم الرجال.

نعم يا بنات، غداً يجيء الرجال ويهل العرسان. ولكن الحق
 أن ما أصبح يشغلها ليس الرجال أو العرسان ولكنه ذلك الشاب.
 كفيف فليكن، فما أكثر ما نعمى عن رؤية الناس لمجرد أنهم عميان.
 هذا الشاب القوي المتدفق قوة وصحة وحياة، ذلك الذي عوضها عن
 سنين المرض والعجز والكبر بغير أوان.

الصمت تلاشى وكأن إلى غير رجعة، ضجيج الحياة دب.

الزوج زوجها وحلالها وعلى سنة الله ورسوله، فماذا يعيب؟ وكل ما تفعله جائز، حتى وهي لم تعد تحفل بالمواربة أو بكتمان الأسرار. حتى والليل يجيء وهم جميعاً معاً، فيطلق العقال للأرواح والأجساد، حتى والبنات مبعثرات متباعدات يفهمن ويدركن وتتهدج منهن الأنفاس والأصوات، مسمرات في مراقدهن يحبسن الحركة والسعال. . تظهر الأهات فجأة فتكتمها الأهات.

كان نهارها «غسيل» في بيوت الأغنياء، ونهاره قراءة في بيوت الفقراء، ولم يكن من عادته أول الأمر أن يؤوب إلى الحجرة ظهراً، ولكن لما الليل عليه طال والسهر أصبح يمتد، بدأ يؤوب ساعة الظهر يريح جسده ساعة من عناء ليل ولى واستعداداً لليل قادم. وذات مرة بعدما شبعا من الليل وشبع الليل منهما، سألهما فجأة عما كان بها ساعة الظهر، ولماذا هي منطلقة تتكلم الآن ومعتصمة بالصمت التام ساعتها؟ ولماذا تضع الخاتم العزيز عليه الآن - إذ هو كل ما كلفه الزواج من دبلّة ومهر وشبكة وهدايا - ولماذا لم تكن تضعه ساعتها؟

كان ممكناً أن تنتفض هالعة واقفة صارخة. كان ممكناً أن تجن. كان ممكناً أن يقتله أحد. فليس لما يقوله إلا معنى واحد، ما أغربه وأبشعه من معنى!

ولكن غصة خانقة حبست كل هذا وحبست معه أنفاسها. . سكتت. بأذانها التي حولتها إلى أنوف وحواس وعيون راحت تتسمع وهما الأول ان تعرف الفاعلة. إنها متأكدة لأمر ما أنها الوسطى. إن

في عينيها جراحة لا يقتلها الرصاص إذا أطلق.. ولكنها تسمع! الأنفاس الثلاثة تتعالى عميقة حارة كأنها محمومة.. ساخنة بالصبا تجار، تردد، تنقطع، أحلام حرام تقطعها.. أنفاس باضطرابها تتحول إلى فحيح.. فحيح كالصهد الذي تنفثه أراض عطشى، والغصة تزداد عمقاً واحتباساً. إنها أنفاس جائعات ما تسمع، بكل شحذها لحواسها لا تستطيع أن تفرق بين كومة لحم حي ساخنة مكتومة وكومة أخرى. كلها جائعة! كلها تصرخ وتئن، وأنيبها يتنفس ليس أنفاساً، ربما استغاثات. ربما رجوات.. ربما ما هو أكثر.

غرقت في حلالها الثاني ونسيت حلالها الأول.. بناتها! والصبر أصبح علقماً، وحتى سراب العرسان لم يعد يظهر. فجأة ملسوعة ها هي كمن استيقظ مرعوباً على نداء خفي.. البنات جائعات! الطعام حرام صحيح ولكن الجوع أحرم.. أبداً ليس مثل الجوع حرام! انها تعرفه.. عرفها ويبس روحها ومص عظامها، وتعرفه - وشبعت ما شبعت - مستحيل أن تنسى مذاقه.

جائعات وهي التي كانت تخرج اللقمة من فمها لتطعمهن.. هي التي كان همها حتى لو جاعت أن تطعمهن، هي الأم، أنسيت؟

وألح مهما ألح تحولت الغصة إلى صمت. الأم صمتت ومن لحظتها لم يغادرها الصمت.

وعلى الإفطار كانت - كما قدرت تماماً - الوسطى صامتة.

وعلى الدوام ظلت صامتة.

والعشاء يجيء، والشاب - سعيداً وكفيفاً ومستمتعاً - ينكت لا يزال، ويغني ويضحك ولا يشاركه الضحك إلا الصغرى والكبرى فقط.

ويطول الصبر ويتحول علقمه إلى مرض، ولا أحد يطل.

وتتأمل الكبرى ذات يوم خاتم أمها في أصبعها وتبدي الإعجاب به، ويدق قلب الأم وتزداد دقاته وهي تطلب منها أن تضعه ليوم، لمجرد يوم واحد لا غير. وفي صمت تسحبه من أصبعها. وفي صمت تضعه الكبرى في أصبعها المقابل.

وعلى العشاء التالي تصمت الكبرى وتأبى النطق.

والكفيف الشاب يصخب ويغني ويضحك، والصغرى تشاركه.

ولكن الصغرى تصبح - بالصبر والهم وقلة البخت - أكبر، وتبدأ تسأل عن دورها في لعبة الخاتم، وفي صمت تنال الدور.

والخاتم بجوار المصباح. . الصمت يحل فتعمى الأذان. وفي الصمت يتسلل الأصبع صاحب الدور ويضع الخاتم في صمت أيضاً. ويطفئ المصباح والظلام يعم، وفي الظلام تعمى العيون.

ولا يبقى صاخباً منكثاً مغنياً، إلا الكفيف الشاب.

فوراء صخبه وضجته تكمن رغبة تكاد تجعله يثور على الصمت وينهال عليه تكسيراً. إنه هو الآخر يريد أن يعرف. . عن يقين

يعرف . كان أول الأمر يقول لنفسه إنها طبيعة المرأة التي تنأى البقاء على حال واحد، فهي طازجة صابحة كقطر الندى مرة، ومنهكة مستهلكة كماء البرك مرة أخرى. ناعمة كملمس ورق الورد مرة، خشنة كنبات الصبار مرة أخرى. الخاتم دائم وموجود صحيح، ولكن وكأنما الأصبع الذي يطبق عليه كل مرة أصبع. إنه يكاد يعرف، وهن بالتأكيد كلهن يعرفن، فلماذا لا يتكلم الصمت؟ لماذا لا ينطق؟

ولكن السؤال يباغته ذات عشاء، ماذا لو نطق الصمت؟ ماذا لو تكلم؟

مجرد التساؤل أوقف اللقمة في حلقه.

ومن لحظتها لاذ بالصمت تماماً وأبى أن يغادره.

بل هو الذي أصبح خائفاً أن يحدث المكروه مرة ويخدش الصمت. ربما كلمة واحدة تفلت فينهار لها بناء الصمت كله، والويل له لو انهار بناء الصمت.

الصمت المختلف الغريب الذي أصبح يلوذ به الكل.

الصمت الارادي هذه المرة، لا الفقر، لا القبح، لا الصبر ولا اليأس سببه.

إنما هو أعمق أنواع الصمت، فهو الصمت المتفق عليه أقوى أنواع الاتفاق، ذلك الذي يتم بلا أي اتفاق.

الأرملة وبناتها الثلاث .

والبيت حجرة .

والصمت الجديد .

والمقرئ الكفيف الذي جاء معه بذلك الصمت، وبالصمت راح يؤكد لنفسه أن شريكته في الفراش على الدوام هي زوجه وحلاله وزلاله وحاملة خاتمه، تتصابى مرة أو تشيخ، تنعم أو تخشن، ترفع أو تسمن، هذا شأنها وحدها، بل هذا شأن المبصرين ومستوليتهم وحدهم ! هم الذين يملكون نعمة اليقين، إذ هم القادرون على التمييز. وأقصى ما يستطيعه هو أن يشك، شك لا يمكن أن يصبح يقيناً إلا بنعمة البصر، وما دام محروماً منه فسيظل محروماً من اليقين، إذ هو الأعمى، وليس على الأعمى حرج.

أم على الأعمى حرج؟

أَكَانَ لَابَدُّ يَا لِي لِي أَنْ تَضِيئِي النُّورَ؟

في البدء كانت النكته .

وفي النهاية ربما أيضاً تكون!

والنكته في النكته أنها ليست نكته ، ولكنها واقعة حدثت لأهل النكته ، صناعها المهرة ، ورواتها العتاة .

النكته لم تكن أن يستيقظ هذا العدد الكبير من الناس لأول مرة في تاريخ حي الباطنية ، وكر الحشيش والأفيون والسيكونال ليؤدوا صلاة الفجر ، هو الذين يبدأ نومهم بأذان الفجر .

وليست النكته أيضاً أنهم أدوا الصلاة أنصاف مساطيل ، أنصاف يقظي ، ينسى الواحد منهم أنه قرأ الفاتحة فيقرأها ثانية ويعود ينساها ، أو يعود يتذكر فيعود ينوي للصلاة في منتصف الصلاة .

النكته في الحقيقة حدثت قرب نهاية الصلاة ، نكته لا تزال تتفجر بها صدور «الحشاشين» في الحي . . أولئك الذين تعايشوا مع النكت المبروية حتى ألفوها ، فما كادوا يعثرون على نكته حقيقية

صارخة دارت وقائعها أمام أعينهم حتى تلقفوها كما يتلقفون «الشيشات» الجديدة، وعربات الكارو، والموتوسيكلات والأطفال الجدد، فيظلون يدندشونها، وبمزاج يزخرفونها ويتقنون روايتها ويتفننون في اختراع التفاصيل التي لم تحدث حتى أصبحت أهم وأعز جزء من فولكلور الحي وتاريخه وقصصه، توارت بجانبها في الحقيقة ملاحم بطولة ليس أقلها ملحمة «حتيتة» ونسائه الأربع أمام الضابط والمخبرين في واقعة زقاق التعبان.

النكته أنهم صلوا الركعة الأولى في أمان الله، وكذلك الثانية، ولم يعد باقياً على انتهاء ركعتي الفجر إلا السجدة الأخيرة.. ثم قراءة التحيات والتشهد والتسليم. أما السجود فقد سجدوا.. قال الامام الشيخ: الله أكبر. ثم سجد.. وسجدوا جميعاً وراءه. عشرة صفوف طويلة ملأت الجامع الصغير. أناس ساجدون في خشوع وإن كان سجوداً غير مريح، فمعظمهم كان لم يقرب الصلاة من مدة، ومفاصلهم وعضلاتهم تصلبت حتى لم تعد تقوى على أوضاع الصلاة. ورددوا «سبحان الله» ثلاثاً، ولكنهم حين لم يسمعوا «الله أكبر» من الامام ايداناً بنهاية السجدة بدأ الوسواس يوسوس للكثيرين أنهم أخطئوا العدد ومن جديد، وعلى مهل قالوها، وأيضاً لم تأت التكبيرة المنتظرة، وأقلية هذه المرة هو التي عاودها الوسواس! وأقلية أيضاً هي التي بدأت تستنيم للوضع وتريح رءوسها المتعبة الدائرة لا تزال بما فيها من إرهاق وكيوف.. أما الأغلبية فقد بدأ شيء من الاستغراب القليل يخالجها.. استغراب كان ينهيه احساسهم أن حالاً

سينطق الامام التكبيرة ويعتدل وينتهي الوضع . وكلما أمعنت اللحظة في مضيتها دون أن تأتي التكبيرة بدأت نقطة الاستغراب القليل يخالجهما . . استغراب كان ينهيه احساسهم حقيقة ثم ذهول، حين تأكد للجميع حتى للأقلية الموسوسة والمستنمية أن السجدة طالت حقيقة، وأنها ليست بطأ من الامام أو دعاءً خاصاً اختار لقوله وضع السجود، كما تأكد للجميع أنهم ليسوا أمام شيء عابر إنما هم بالتأكيد يواجهون حدثاً . لا بد أن شيئاً قد حدث ومنع الشيخ من اتمام السجدة . هنا تحركت الدهشة الحقيقية وتوزعت ألف احتمال واحتمال راحت تجوب الأدمغة المنحنية لا تجرؤ على الاعتدال . . رائحة غادية، متماثلة متناقضة . . أمرض؟ أمات؟ أغمي عليه؟ . . أ تكون حشيشة أغراه بها شيطان منهم وبدأت «تكبس» على يافوخه؟

وأيضاً، ورغم هذا كانوا متوقعين في كل لحظة تالية أن يرتفع صوته بالتكبيرة طارداً الهواجس، معيداً الثقة - بأن كل شيء طبيعي ولا غبار عليه - إلى عقولهم التي بدأت تسرح وتمرح وتنطلق إلى ما شاءت من خيال .

ولكن وقتاً مضى، بالضبط لم يستطع أحد تحديده وإنما حسب رواياتهم بين الدقيقتين ونصف الساعة . . إذا تجاوزنا عن مغالاة البعض وقولهم إنه استمر حتى سمعوا أذان الظهر من الجامع الأزهر . . ناهيك عن المهولاتية الذين يصرون على أنهم للآن لا يزالون ساجدين .

ولكن المؤكد أن وقتاً مضى بحيث أصبح مؤكداً حتى لأكثرهم غياباً عن الوعي أن الشيخ ليس أبداً على ما يرام، وأن التكبيرة بالتأكيد لم تصدر عنه وتنتهي سجودهم الذي جعل الشيخير يتصاعد من حلقين على الأقل من الحلق التي تراخت وبدأ لعابها يسيل.

وهنا فقط بدأ يتجسد أمامهم إشكال حقيقي يواجهه كل منهم منفرداً ولأول مرة في حياته. . ماذا بالضبط عليه أن يفعل؟ وما هو حكم الدين في موقف كهذا؟ وهل إذا رفع أحدهم رأسه تفسد صلاته - وربما صلاة الجماعة بأسرها - ويحمل هو وحده ذلك الوزر كله؟ وهل يحتمل أحدهم أن يكون هو دوناً عن الساجدين جميعاً المتسبب في افساد للصلاة؟ العودة الحديثة لله وبيته وحظيرة الدين جعلتهم مرة أخرى يرون الله ماثلاً بجناته وجحيمه ووعدته ووعيدته أمام عيونهم. . هم كالتلاميذ يعودون ومن تلقاء أنفسهم إلى المدرسة بعد طول «بلطجة» و «تزويغ». . الرهبة من الخطأ أو من الإقدام عليه مسألة لا يمكن أن يحتملها نائب حديث التوبة مثلهم. . أو يفكر فيها.

ولكن الوقت يمتد، الوقت الحقيقي يمتد، ووقت كل منهم الخاص الممدود بطبيعته يمتد ويتضاعف وتصبح الدقيقة فيه بعام. . يمتد الوقت حتى لتبدأ أفكار شيطانية خبيثة تخطر لبعضهم أكثرها شراً بالتأكيد فكرة أن يضحك، ليس فقط على الوضع الذي هم فيه وإنما على ما يمكن أن يحدث لو أن الشيخ الامام قد وافته سنة من النوم

مثلاً، أو الأدهى . . لو كان مات! وأنهم سيقنون هكذا ساجدين .
ربما إلى اليوم التالي وربما إلى يوم الدين، دون أن يكتشف أحد من
أهل الحي ما حدث، فالجامع عندهم مكان غير مطروق، مجرد
المرور عليه يوقظ الضمير.

ولكن كل الأفكار الشيطانية هزمت فلم يضحك أحد، وحتى
لم يطل تفكيره في الوضع كوضع مضحك كي لا يخونه صدره العائم
بطبعه ويفلت منه الضحك.

ولم يعد هناك شك لدى آخر المتفائلين فيهم أنهم أصبحوا في
مأزق حقيقي، حين بدأ ضوء الشروق يتسلل وينافس ضوء الكهرباء
القليل، وهم قد بدأوا الصلاة والظلام كامل. الآن بالاستطاعة القسم
أن السجدة طالت طولاً غير طبيعي، وأن السعلات التي بدأت تتكاثر
وتتحشجج بها الصدور المحنية لم تكن كلها سعالاً، أكثرها كان
علامة تملل . . وتملل لا حل له، فمعرفة ما حدث تستلزم رفع
الرأس والاستطلاع، ورفعها نقض للصلاة. فليتنظر إلى أن يفعلها
غيره ليكون البادىء، ويكون ذنبه هو ذنب التابع . . وفرق كبير بين
ذنب الفاعل الأول وذنب التابع.

استمر السجود إذن حتى انتصر حقيقة على كل ما اجتاح
الرءوس من احتمالات أو مخاوف أو ضحكات.

ولأن لا نكتة هنا والضحك الحقيقي لم يبدأ بعد . . فلتتركهم

هكذا ساجدين كل منهم لا يريد أن يكون البادىء بالمعصية .

لتركهم ساجدين !

إذ هكذا بالضبط تركتهم أنا .

أنا الشيخ عبد العال إمام مسجد الشوكشي في الباطنية .

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

أنا قطعاً سبحان فائق الإصباح . النوم في صوتي ، فعيوني لا
تتفتح إلا حين الوصول إلى «استغاثات» الفجر . أنا . أنا صاعد سلم
المثدنة الأفعواني المظلم . أنا . مشفقاً على صدري وصوتي من
الندى . أنا . عيناى تقتحمهما البرودة وتغلقهما العادة والاحساس
بأداء الواجب وإني إنما أؤذن في مالطة ، وإن الأتقياء في الحي
قليلون ، والأتقياء تماماً يفضلون جامع الأزهر القريب . وإجهاذ
الصوت لا فائدة منه فماذا يفعل صوتي وسط غابة المآذن المحيطة
المزودة بحناجر ميكروفونية يفرق بينها صوتي مهما ارتفع . أنا أنا .
أؤذن لنفسي . . ويكفيني أن الله يسمعي ويعرف أني أؤذن الفرض
كما أمر ويغفر لسكان الحي النائمين واليقظان . . فنائمهم
بمعصية ، ويقظانهم لمعصية ، والحظ وحده أو لعلها الحكمة هي
التي دبرت تعييني في جامع أقامه صاحبه وقفاً من قديم الأزل ، تركي
كان هو . . بالسياس سلب وضرب ، واعتقد أنه بالجامع وبضريحه

المقام بجوار القبلة يجني ثمار الدعوات . . ستحملة صلوات الناس
جيلاً بعد جيل لتقربه من الجنة . حتى رحلة الجنة تقطعها على
أكتاف الآخرين يا . . تركي؟

أنا الخريج الحديث من الأزهر، من صفري أحببت الله
وبإرادتي ربطت وجودي بدينه . أكاد أبسم اشفاقاً ممن يتصورون أنني
دخلته لأصبح فقيهاً ومقرئاً ما دام قد وهبني الله هذا الصوت . أعرف
أن صوتي جميل وأني كي أداريه لا أكشف للناس كل جماله . .
ولكن ما لهذا اخترت الأزهر، وما لهذا حفظت القرآن صغيراً، ومن
ابتدائي مدارس حولت إلى ابتدائي أزهر السبب أعمق . . السبب
إلهي . . السبب موقفني من كون ليس فيه ما يستحق الحياة سواء .

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أكان لا بد؟

كم بدا النور باهراً وسط تمام الظلام! مصباح واحد في حجرة
السطوح الواحدة هذا صحيح، ولكنه يكاد يضيء الباطنية كلها . .
قابعة كمعسكر مزدحم نفق قاطنوه أو رحلوا . البيوت مريضة تتساند،
أحشاؤها صغيرة بارزة محشوة كرحم القطط بآدميين . . رعيتي
ومسؤوليتي . . بالأدق فشلي . . بالرغبة المستعرة في إيقاظ الله في نفوس
تريد أن تنسى فكرة وجوده .

قاتلت! بعد أسبوع ظفرت بأول بارقة . . انتعش الأمل . .

استمت . تخلوا عن الوعود الكاذبة والصهينة وبدأ الضيق . . إلحاح آخر . . حمر العيون وبالوعيد جاءوا . . أسمع ! خميرة عكنة مش عايزين ، وحسابنا في الآخرة نحن عارفين . . والحساب يجمع . بأدبك أهلاً وسهلاً ، تدوشنا تاني أنت واللي يصح لك . وبالسليقة عرفت أنهم صادقون ، في أعماقهم أيضاً صادقون . . يرغبون في الله حقاً وفي أعماقهم مؤمنون . . ولكن الحياة . . حياتهم لا تحتل الله الكامل . إما أن يقبلهم هكذا . . وهكذا يعبدونه وإما فلا . لهم دينهم حقاً ، الصلاة فيه ركعتا جمعة كل أسبوع ، والنهار صيام في رمضان هذا صحيح . ولكن المهم أن من الفطار إلى السحور حشيش ، وأيمان بالله ما هو - الحشيش - حرام : اديني آية نزلت تحرمه . الزكاة معظم أغنيائهم يخرجونها فعلاً ، بل إن أحدهم كان عينياً كما أمر الدين ، ومن «بضاعته» كان يزكي . والحج تاج على رؤوس كبار المعلمين وعلى الأقل يتيح القسم ساعة الصفقات بشباك الرسول . كسبت منهم بالكاد خمسة وخسرت الثقة بأني خير مبشر ومبين . . ثم أدركت أن الخطأ خطئي ، وأني قبل أن أهديهم لا بد أن أعرفهم أحياناً لأغيرهم ، أصبح منهم ليصبحوا مني . . إن لهم لغة أخرى وقيماً أخرى ومفاتيح خاصة بغيرها تبقى دائماً خارج السور والصدور . ومن العزلة هبطت . . إلى القهاوي أجلس ، إلى الداعين أزور ، لأدير الوجه لما يحملون أو يدخنون . . أو يفعلون ، بقلبي معهم أرى وأسمع . . وأقترب .

أكان لا بد يا «لي لي» أكان لا بد؟

أم أنه لابد هي أو غيرها لا بدا لم أكن قد عرفت أن العفة معرة إلى هذا الحد، ولا طراً بعقلي أني رغم حب الله شاب في الخامسة والعشرين. أنا متبتل، سعيد حتى بالحي الذي كان قاطنوه القدامي من طوائف «الباطنية» قد اعتزلوا بالحي دنياهم. . ربما نفس عزلة سكانه الحاليين. في «قعداتهم» نفس التأمل. الفرق أنهم يتأملون ما يضحك، بينما الباطنيون الأول كانوا يتأملون ما يحب، وما يقود إلى ينبوع الحب. . الله.

لم أفطن إلا بعد أن تعددت المظاهر، وإلا بعد أن لاحت علامات رغم كل حسن النية. . لا تقبل الشك. قرأت لهم مرة فأعجبهم صوتي واستعادوني، وأحسست فجأة أني دخلت قلوبهم، وأن المغلقين يفتحون الأبواب، ولم يعودوا يريدون مني إلا الصوت والتلاوة. رفضوا الواعظ والمبشر والامام ولم يعد أمامي إلا صوت يجذبهم لما أريد. الله المجرد صعب، ولكن البداية على هدى آية من آياته.

السميعة بقربي دائماً رجال، ولم أكن أعرف أن أعداد النساء خلفهم أكبر! وأنني ما أن أبدأ أقرأ حتى يشيع الخبر في الحي كالموضة، وكالموضة يتزاحمن، ومن صدورهن تتصاعد مع وقفاتي الأهات. متاعب بدأت. . في كل أوبة للمسجد لا بد من حرمة منتظرة، ولا بد من سؤال أو حجة سؤال. عيني أبدأ ما ارتفعت. . أسعد باقتناعهن وأستبشر. الصلاة بين النساء بدأت، وهن اللاتي

يحبين للرجال الصلاة . سؤال زلزل كياني مرة . من شابة كان . .
 الاقدام التي تسمرت عيني عليها كانت بالقطع شابة . المشكلة تبوح
 بها في تردد ، ثم بلا خجل تنطق . . الزوج كف من شهور عن
 معاشرتها ! ولا فائدة فإدمانه السبب ، وإدمانه موثس ، ومحاولاتها
 فشلت وتخاف الفتنة . . ماذا تفعل ؟

بل الأكثر لم تعد هناك أسئلة . . كلها أصبحت اعترافات . .
 - ماذا أفعل وقد راودني الصبي عن نفسي حين أرسله المعلم
 بالخضار وغلبني الشيطان ؟

- ماذا أفعل وقد حلمت بك يا مولانا ؟
 - ماذا أفعل وأخي يأتي عميان من سهراته ، ومهما فعلت لا
 يسكت حتى أذعن ، وكل ليلة أذعن ، وأريد أن أتوب ؟ أتقبل من مثلي
 التوبة ؟ على يدك أتوب . .

وتمسك بيدي امسكة لا توبة فيها ولا رادع .

الشيطان .

هؤلاء أناس انفرد بهم الشيطان طويلاً وكثيراً .
 ولم يعودوا يعرفون طريقاً آخر إلا طريق الضلال .

الشيطان .

حولي وفي كل مكان.. في همسة الحرمة، في النظرة تصوب
إليّ من خلفي لاسعة كسيخ الحديد قادمة لتوها من جهنم. فلأرى
الشیطان وجهاً لوجه! ولا أعود أغض البصر، أصبحت بعينين
واسعتين أحرق، وبما أصبه من خلالهما أنفي من نفسي الخجل
والعفة، وبهما قد أصبحت مركز اغراء.. بعيني أنهر، ومن خلالهما
أصعق السائلة بنظرة تتفجر بإيمان كثيف يضيق به القلب.

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أنا اسمي «لي لي» ما سمعتش عني؟

صوبت عيني.. ارتدت نظرتي بصدام مع نظرة أقوى.

بالطبع سمعت عنها. انها نصف اشاعات وأحاديث
واستنكارات واستحسانات واتهامات وبراءات أهل الحي. «لي لي»
أعجوبتهم بنصفها الانجليزي ونصفها المصري. بشعرها الأحمر
الطويل الكثيف وعيونها العسلية المصرية. «لي لي» ثمرة الزواج الذي
دام أسبوعاً بين أمها وبين عسكري انجليزي اسمه «جونى» قضى مع
«بديعة» الأم ليلة، ولم يفعل كشبابنا «الحدقين» ويكتفي بما أصاب
من متعة ويفر. العبيط طلب منها في الصباح الزواج.. وتم.. وبعد
أسبوع سافر، وبعدها لم يعدا مات في الحرب! وتكفل هذا الأسبوع
الواحد بضممان معاش شهري لم تكن تحلم به «بديعة» ظلت تصرفه
من السفارة البريطانية بشيك يأتي من لندن رأساً لمدى خمسة
وعشرين عاماً.. معاش هو الذي أجرى في يدها النقود وأغراها أن

تكون «بنكاً» يمول صغار تجار المخدرات في حيها. وفي الحي نشأت ليلي كما سميتها أمها، و«لي لي» كما نادتها جدتها لأبيها وجدها حين حضرا من انجلترا بعد الحرب خصيصاً ليريا حفيدتهما. وكم من مبالغ عرضوها لتتنازل أم «لي لي» عن «لي لي»، وكم استعبطوها وشتموها، وكم رفضت وبابتها كروحها تمسكت. وعلمتها، ورغم الرجال الطالعين النازلين من عند أمها الجالسين معظم الوقت على عتبة الشقة - وأحياناً على عتبة باب الشارع - كاشفة كل ما خفي من جسدها لا يهمها من حي هي فيه صاحبة مال، وصبيانها رجال، وعلاقاتها علناً وعلى رءوس المارة والجيران. . . و«لي لي» ستعلمها ولاخر المدى. . . وستجعل منها ست الستات.

والخواجاية مغرية، فإذا كانت الخواجاية مصرية كان الاغراء أكبر. تعلمت «لي لي» أو لم تتعلم، وتعلمت ولم تتعلم. طموحة كانت، من صغرها وهي تحس أنها أرقى، ولا بد أن تكون الأرقى. . . وحتى وهي تعب المشروبات الرخيصة في الكباريهات منضمة إلى الفرق الأجنبية، وتقضي الوقت تتردد على مكاتب ريجسيري الدرجة الثانية، كانت تؤمن تماماً أنها يوماً ما ستصبح ست الستات، وسيسجد لها العالم وتكون أشهر وأمتع امرأة فيه.

- ربنا يفتح عليكى وينور لك طريقك.

- طب ما تنور هولي أنت ينوبك ثواب!

- النور لا بد من الداخل . . من القلب . نورك في ايدك .
- أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أكان لا بد؟!

- عايزاك تعلمني الصلاة .

- عندي كتاب خذيه .

- أنا عايزة درس خصوصي !

- أستغفر الله العظيم . . روجي الله يغفر لك ويسهل لك .

انقطع المعاش وجفت النقود . . وكبرت المعلمة ومرضت ولم
يعد هناك إلا ما تكسبه «لي لي» من قروش .

أكثر من مرة حاولت تفاديها فكانت تقتحمي . عيونها شرارة
كهرباء تخترق الهواء قافزة من قطبها المصري إلى قطبها السكسوني .
جمالها طاغ على الحي محرم . بالقوة حاولوا . . بالنقود . . بالزحف
على البطون . «لي لي» لا تقرب إلا الأجانب . . لم تكن تقول،
ولكنه السر . . سرها الدفين . في النهاية كعهدهم أمام كل مستعص
قبلوها كما هي ! احترموا أنها ليست لأحد، وما دامت كذلك فهي
للكل يحمونها ويوصلونها، أخت الجميع المحرمة المرغوبة .

النور.

نافذة من نور ساطع .

عيني لا تحتمل .

النور قريب .

بيني وبينه فقط الشارع .

مجرد عرض الشارع غير العريض .

دائرة المثدنة في مستوى النافذة . . فركت عيني أتطلع .

نظرة واحدة جذبتني كالعاصفة العاتية من قاع الغفوة إلى قمة
اليقظة . لا شيء كان ينبهني إلا استغاثتي الأولى . انتباهي هذه المرة
انتباه آخر . . انتباه مرعوب . . أنا أمام شيء مروع .

الغرفة بها سرير خشبي مرتفع . . ماذا غيره هناك؟ لا أعرف .

على السرير ترقد امرأة بيضاء . شاهقة البياض ، ممدودة بطولها
وقد أحنت ساقاً ، ولا شيء عليها سوى قميص نوم لا يكاد يكفي
لإخفاء نصفها الأعلى .

أول مرة في حياتي أرى - فجأة - هذا الكم الهائل من جسد
امرأة . أفقت لأجد نفسي في منتصف السلم هارباً . . هابطاً ألث . .
ومن أقصى الرعب اندفعت إلى أقصى الغضب .

أنا في شرك!

أنا الذي جاء يطرد من هنا الشيطان، وتضاءلت طموحاته حتى أصبحت مجرد أن يبعد فقط عن نفسه الشيطان. . وعن أوكاره وتنكراته؟ أجد نفسي هذا الفجر في الشرك. . تماماً في الشرك؟ أنا الذي أردت هزيمته في الناس أجري خوفاً من أن يهزمني في نفسي؟

ولكن عذري يا شيطان أنك كنت تعرف أين كنت أنا؟ ولم أكن أعلم أنا من أنت، ولا أين أنت؟. وكم نقشوا على قلوبنا الأخطاء عنك حتى ارتسمت في أذهاننا دائماً رجلاً. . بشعاً، ولم يفكروا أن يقرنوك بالجمال مرة، مع أنك لا يحلوك التربص إلا محاطاً بالجمال، وإلا على هيئة ست، وإلا في أكثر الأماكن نعومة وإمتاعاً، وفي أحلى البسمات، بل أحياناً في النكتة. . في أروعها تنصب الشباك.

عدت .

ما رأيته محوته من ذاكرتي كأن لم يكن. في عقلي أطفأت نور النافذة، وألغيت الحجرة والشارع والبيت. . بل الحي كله ألغيته. فلتكن حرباً اذن ولتندحر.

يا رب!

استنكرت أن أكون قائلها. . ما هكذا تعودتها وتعودتني. بعد التسايح الخاشعة فجأة أطلقها حادة مدببة لا نهاية لطولها، تقطع في

ومضة كل ما بين الأرض والسماء لتصل اليه في الملاء الأعلى . من
أعماقي تخرج وإلى السماء تصعد، مستحيلة من شيء أرضي إلى
كائن سماوي . أطلقها قوة لتحمل كل ضعف البشر، كل عجزهم
ومحدوديتهم تستغيث بالقادر اللامحدود .

هذه المرة خرجت همساً، لهائاً، مكبلة بالعجز، لا لتصل إلى
السماء وإنما لتتهاوى من فوق المئذنة وعلى الأرض تموت .

خائف أنا . . أنا خائف! لا من الشيطان خائف . . من نفسي
أخاف؟ من نفسي أجل . كم مرة ضبطتها من شكوى المحرومات أو
الفاسقات تصغي بانتباه واندماج أكثر مما يجب . كم مرة ضبطت
داخل نظرتي شعاعاً من حب استطلاع مرة، ومن تلمظ الجائع
الصائم الراغب في الطعام مرة .

يا رب!

أعني . . نعم أنا أعرف . . أحبيتك نقياً كالماء الصافي ،
وحيداً . . كأنك خلقتني وحدي . أعرف أنني كان لابد أن أمتحن .
أعرف أنني لو نجحت فسأعرف أنني أخيراً بالقبول جدير . . وسأجعله
يا ربي امتحاناً صعباً .

لن أهرب .

سأضعف الاغراء .

سأنظر .

وسأعاود النظر.

سأرتكب الذنب الأصغر ليتعظم انتصاري على الذنب الأكبر.
نظرت.

هي «لي لي» بالتمام. هي الشيطان كاملاً غير منقوص.
فالاغراء فيها كامل غير منقوص. نائمة هي تتقلب.. جسدها فائر،
يغلي، وعلى الفراش وفي دفعات يتدفق. هذا صدرها. هذا شعرها
يسبح وعلى موجات يغطي الصدر، والبطن.. وينحسر، وتتقلب!
يا رب.

مستغيثاً صرخت. ليست استغاثة أرض لملأ أعلى، ولا ناطقة
بلسان ضعف البشر. هي استغاثتي أنا. كنت قد بدأت أغرق.
أواصل النظر لا عن رغبة في المجابهة وتصعيب الامتحان، وإنما عن
عجز أن أكف عن النظر. قتل الانسان ما أكفره!

ما أكفرني حين تصورت أنني وحدي أقهر الشيطان. وحدك
أنت لا شيء. وحدك أنت أضعف من دابة، وبالناس وبالله وبما فيك
منه أنت الأقوى.

يا رب!

راجية مستسلمة دامعة أطلقتها.

الشيطان استولى على بصري وعلى جسد «لي لي» سمره،

وبكل قواه يجذب ومن بصري يريد أن يخلق روعي من جذورها،
أحس حقيقة بالجذور تتخلخل.

لم أكن أعرف أنني بهذا الضعف.

يا رب!

يا سميعي ولا مجيب سواك. يا مدرك عجزتي وأنت القوة. يا
مانع العبد الإرادة. يا أنت الذي تعلم ما بي. رحماك... يا رب.

يا رب!

إن كان بصري قد ضاع فلازلت أمتلك الصوت والحنجرة..
بغير أن أسمع نفسي استغيث وأترجى. أنا انتهيت.. فقط ألهج بكل
قواي أعتصر العمر كله وأطلقه مخلصاً صادقاً. أربعتني المفاجأة،
وأذهلني ما اكتشفته في اللحظة الحاسمة من تفاهة ما كنت أسميه
قوتي. بإيمان أصبح وجهاً لوجه في قبضة الشيطان، بإدراك أن هذه
معركة العمر بها أوجد أو بها أمحي. انطلقت بصوتي أقاتل.. الصوت
سلاحي، والصوت أنا، والصوت كل ما تبقى في من ذاتي، والصوت
ألمي الذي لا أمل سواه.. أن أعود أنا.

ولم يعد أذاناً ما أقوله. لم يعد الكلام المنغم المحفوظ. كنت
استغيث حقيقة وأعرف أن لا مغيث لي سواه، ومنه وحده ولما أعانيه
أطلب الغوث.

يا رب!

هل يرضيك أن نسقط؟ هل يرضيك أن نأثم؟ . هل يرضيك أن
يتلبسنا الشيطان ويسود؟ أغثني يا إلهي! أدركني! ساعدني! أنا في
الهاوية . . من ينتشلني سواك؟

أكان لا بد يا «لي لي» أن تظلي تتقلبين حتى ينحسر القميص
إلى أعلى، ويتبدى جسدك تحت وهج الضوء الساطع أبيض يكاد من
بياضه يضيء، عارياً تماماً، ملتوياً في الفراش، ناشراً أطرافه،
قابضها؟ أي حجيم كان في داخلك! لا يطفئه عري ولا فجر ولا
برودة الدنيا كلها!

وكل هذا في النور الساطع .

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

لم يبدأ الناس يستيقظون لأن صوته العالي أقلق منامهم . . فلا
أحد يذكر أنه تنبه من نومه المخدر ضجراً من الأذان المرتفع الذي
أيقظه من أحلى منامة . الحقيقة كان الواحد منهم يستيقظ على شعور
أن ثمة شيئاً جميلاً رائعاً يحدث حوله ولا بد من اليقظة للتمتع به .
كان الصوت قد استحال إلى عطر نفاذ أليف امتلأ به جو الحجرة وراح
يتسرب إلى أنفه النائم، وبرقة زائدة يتسلل إلى خياشيمه تسلاً
ممتعاً، يستيقظ من شدة متعته دافئاً ملتاعاً عميقاً حنوناً . . يسري
كالموسيقى الهفافة المعطرة . يبدأ النائم يعتقد أنه حلم، ولكنه بعد

حين يدرك أنه لا يحلم وأنه استيقظ ومع ذلك لا يزال ينتشي بالصوت الذي يأتيه حقيقة.. لا شك فيها.

يا رب!

كم مرة قيلت، كم مرة تلونت وتنوعت وطالت.. ورقت! كم من المعاني قيلت فيها وبها، كم استعطفت، كم استنجدت، كم غضبت، كم امتعضت، كم تدللت، كم دمعت وابتسمت.. كم جاءت وكأنها آخر الأنفاس، وكم جاءت وكأنها أول علامة حياة، كم صدرت عن طفل وعن رجل وعن خاطيء وعن مستغفر.. وعن تائب وعن مؤمل وعن يائس وعن معلق بين اليأس والأمل.

كلمة.. ولكنها أيقظت الحي كله. حتى من لم تفلح في إيقاظه أيقظه من استيقظ. في أسرته وفي أماكن نومهم راحوا يستمعون. ثم وكأنما أصبح للكلمة قوة جذب استخرجتهم من رقدتهم وغادروا بيوتهم بشعور غريب، يشيع في صدورهم لأول مرة شعور طازج محير لم يألوه أبداً، شعور وكأنهم أصبحوا قريبا جداً من الله وأن الله غير غاضب وأنه رحيم أليف، شعور يملؤهم على الفور بالسعادة، إذ في أعقابه يحسون أنهم وكأنما اكتشفوها للتو يحبون الله، وأن الله يحبهم وأنه جد قريب لم يبق بينهم وبينه سوى خطوة.

وفي الجامع تلاقت الوجوه.. غارقة لا تزال بماء الإفاقة والوضوء. ولأنهم لم يعتادوا التلاقي في زمن كهذا ومكان كهذا فقد

أحسوا أنهم وكأنما يتعارفون حالاً، واليوم فقط يبدؤون. صامتين مذهولين بالنشوة جلسوا يمتصون بآذانهم رحيق الأذان. . يستعذبونه، يختزنونه في أنفسهم كما يختزن غذاء الروح ليوم تجوع فيه الروح.

وتحول الجامع إلى مظاهرة. وغادروا مبنى الجامع إلى الخارج ليصيروا إلى المئذنة والشيخ عبد العال أقرب. . الكلمة تنطلق منه فتكاد بما تحتويه تنير حجب الظلام. يتطلعون، يتأكدون أن من يؤذن حقيقة من البشر وأنه بالتأكيد نفس الشيخ عبد العال، فالحق أن ما يسمعون كان صوتاً لا يمت إلى البشر ولا إلى الأرض وإنما هو قادم مباشرة من السماء.

بل ومن فرط ما سكروا نشوة لم يفطنوا أن الشيخ عبد العال هبط من المئذنة دون أن يؤدي الأذان الشرعي، شاحباً ممصوباً كمن نزع الحياة. . صوتاً ومقاومة هبط. اندفعوا يحيطونه، بإشارة أوقف الاندفاع. من فوره اتجه إلى القبلة ونوى الصلاة.

أجل. نويت الصلاة.

أنا الآن أهل لها؟

أهل لها فقد انتصرت. . بشائر النصر بدأت حين عدت أمتلك بصري. حين استيقظت «لي لي» من نومها على صوتي المدوي المجلجل، وفي الفراش جلست. . مبعثرة جلست نفس جلسة أمها

على العتبة. نحوي سددت البصر مدهوشة.. مدهولة.. ثم مستمتعة
بدأت ترنو. أعتصر نفسي أنا.. أهرب منها وأتلو.. وهي أيضاً
تتلو. أتلو أنا احتراقاً وتمزقاً وألماً.. وتتلو هي جذلاً. حتى
قامت تنظر من النافذة، وحينذاك تحولت ببصري وأصبح ملكي وعاد
لي الوعي. وجدت نفسي حطام بشر.. بقايا حياة.

رفعت عيني إلى السماء ولم أنطق، فقط ملأت ببصري بنظرة
شكر. أحسست أن شيئاً لي قد حدث.. لم أعد أنا. كان في خزين
إيمان قوي ذهب.. قذفت به كله في أتون المعركة.
منتصراً هبطت. مجرحاً. قلت الصلاة بلسم الجراح.
استقبلت القبلة ونويت.

ظل السجود قائماً ومستمراً حتى ملأت الشمس الحديثة صحن
الجامع. نام البعض، وشخر آخرون، وسرح كل منهم في ملكوته
وعالمه، والحجة قائمة وموجودة.. هم في انتظار تكبيرة الشيخ.
فوجئوا مرة بضحك هائل غريب.. خشن.. عرفوه للتو. هو معزة
الأيونجي الذي كثيراً ما تطرده امرأته ويتخذ المسجد منزلاً ومقاماً.
ضحك استمر حتى نفذ كل ما لدى صاحبه من مخزونه لسنوات طوال
مقبلة، وجاء بعده كلام.. كلام فارغ صحيح ولكنه جاء.. شوفوا
الناس المساطيل اللي ساجدة ويتصلي من غير إمام.

منتصراً هبطت.. مجرحاً قلت الصلاة بلسم الجراح..
استقبلت القبلة ونويت.. فتحت عيني.. كانت «لي لي» في منتصف
القبلة نائمة، عارية، مبعثرة، مفتحة، يتموج شعرها على جسدها
وينحسر. عفوك يا الهي! فلقد أخفيت عنك الحقيقة.. الشيطان
انتصر!

وبينما الجميع ساجدون كالقطيع بعد طول ضلالة، كنت قد
تسللت عبر النافذة الملاصقة للقبلة، وفي لمح البصر كنت أدق غرفة
الدور الثاني السطوح في البيت المقابل. «لي لي» وقد لفت نفسها
بملاءة السرير تفتح. بابتسامة مرعوبة قلت لها وأنا أفك أضرار
الكاكولة الأعلى:

- جئت أعلمك الصلاة.

انزلت الملاءة عنها، فضمتها بقوة وهي تستدير توليني الظهر
وتقول:

- أنا اشتريت الأسطوانة الانجليزي اللي بتعلم الصلاة. لقيتني
أفهمها أكثر. متأسفة.
وأطفأت النور.

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

على ورق سيلوفان

من العربة هبطت. فاتنة هبطت. نعنش روحها الغزل الصادر
من عابر سبيل مسرع. دخلت الحديقة. بتؤدة عبرتها. . السلالم
راحت تصعدها، سلمة، وسكتة، وسلمة. في آخر سلمة،
اضطربت. خائفة اضطربت.

ماذا لو عرف؟ ماذا لو كان طول الوقت يعرف؟

ولكن كيف يعرف؟ مستحيل أن يعرف. الهرم بعيد، و«الركن»
الذي كانا فيه لا يقصده أحد في الصباح. سائحان فقط كانتا هناك،
كيف يعرف؟

أمام كشك الاستعلامات الزجاجي وقفت. الموظف العجور
مشغول بمحادثة تليفونية. حلق ناحيتها مرة ولم يرفع عينه. كانت
تزيح عدسة النظارة السميكة وتتحسسها مربعاً مربعاً. كل مساهمته
في الحديث أصبحت: أيوه. . آه. . أيوه. . آه. . فرغ صبرها
وسألت. . وضع السماعة في الحال وانتبه. موجود؟ أيوه موجود. .
دقيقة واحدة نسأل، دقيقة، سرحت.

الأبيض مستشر وكأنه وباء يبيض له كل شيء. الوجوه معظمها أيضاً شاحب أبيض. المرة الأولى التي جاءته هنا لا تكاد تذكرها، من سنين طويلة، عشر سنوات ربما. .

هذه ثاني مرة، ولولا ميعاد اليوم ما جاءت. المضحك أن الاقتراح كان اقتراحه سهل لها المهمة تماماً. مساكين هؤلاء الرجال ونواياهم الحسنة. أيستحق؟ بالطبع يستحق. ليس هناك رجل لا يستحق، حتى المحبون منهم زائفو العيون كذابون حتى وهم يحبون.

ابتلعت ريقها. لماذا يجف حلقها باستمرار هذا الصباح؟ لماذا جف حتى سعلت وهو يمسك بيدها ويضغط عليها بين يديه؟ انفعالها لحظتها لم يكن أنشوباً خالصاً. لا. كان هناك شيء آخر لا تعرف كنهه. وأتتها فكرة أن تجري. تسحب يدها وتظل تجري حتى تجد عربتها وتنطلق عائدة إلى البيت. البيت؟ يا لها من كلمة مضحكة.

الدكتور موجود في حجرة العمليات يا أفندم. مشغول. ولكنه ينتظرنى. بلغوه أني جيت. مش ممكن. قولوا له المدام. المدام؟ سعادتك المدام؟ لماذا سعادتك؟ وماذا يدعش في كونها المدام؟ لماذا الضجة والوقوف والترحيب المبالغ فيه وبصوت عال؟ لماذا تريد الانفراد بنفسها الآن؟ حلمها مكان قصي ليس فيه أحد. تنكفىء على نفسها فيه وتلقي على داخلها كله نظرة، لتدرك - فقط تدرك - كنه ما

حدث . وما يحدث . ما هذا الذي يحدث؟

يا افندم، هو يقوم بإجراء عملية الآن فعلاً، وبلغناه الخبر، وطلب أن تتفضلي وتنتظريه في استراحة العمليات . يوه . تنتظر . . تنتظر . . لقد عاشت طول عمرها تنتظر . ولا ثانية ستنتظر بعد الآن . ولكن كيف تتصرف واستصحابه والعودة به إلى البيت هو سبب خروجها الوحيد اليوم؟ كيف إذن تعود بمفردها؟ فلتكن آخر مرة تنتظر فيها، آخر مرة، هو أو غيره، آخر مرة .

تفضلي . . تفضلي من هنا . هذا الأرجوازا لماذا لم يكف عن الانحناء واختلاس النظر من تحت النظارة؟ إذن هي من جديد ستنتظره . بحق بحق . هل تكرهينه؟ هل تحبين هذا الآخر؟ حين كنت تحبينه ماذا كنت تفعلين؟ هل تحسين بنفس المشاعر الآن تجاه الآخر؟ لطيف شكله . . رياضي . . طويل . . شعر صدره كثيف كالقروة . عن عمد - وله حق - يفتح قميصه . أكبر منك بعام فقط بينما هو أكبر بسبعة أعوام . لماذا يطرأ هذا الخاطر السخيف؟ إذا فعلاً خيرت أن يموت أحدهما، فمن تختارين؟ هو؟ الآخر؟ يموت . هكذا بسهولة . ابتسامته العذبة تموت . ذقنه الغريز؟ غمازته؟ يده الضخمتان الحمراء من باطنهما، الغامقتان من الظهر بالشعر؟ يده الضخمتان جداً إذا قورنتا بيديه هو، القويتان . . أصابعهما غليظة سمكة، من الصعب ثنيها؟ أين هذا من يديه هو؟ يديه الصغيرتين إذا انطبقتا حتى لتبدوان كزوج من الفيران الصغيرة، وأصابعه النحيفة التي توشك أن تنكسر . من اليدين تبدى شخصية الرجل . شبه كبير

بين شخصية الرجل وشخصية سبابته، سبابته هو في طول أصبعه الأوسط، طويلة رقيقة كأنها من عظم كسي بالجلد. سبابة الآخر كما سورة المسدس، قوية دائماً تريد الشيء وتحده ولا تعود إلا به. لماذا إذن تختاره ليموت؟. الآن الزوج هو الذي ينفق ويتيح الفساتين والمتعة والماس، أم لأن العشرة لا تهون؟ أم لأنك لا زلت تحبينه؟ هل لا زلت تحبينه؟ لا تخجلي! اعترفي إن كنت لا زلت. لو لم يكن هناك فمه الواسع المتشاب في الصباح، الجريدة التي يغرز بصره فيها، منظره بينطلون البيجامة والبيجامة مفتوحة والسرورال ظاهر، هذا التجشؤ منه بصوت عال بعد الماء الكثير الذي يشربه! عشر سنوات ومنظره وهو داخل الحمام وهو خارج منه نفس المنظر، نفس الطريقة، نفس الغياب الطويل. عشر سنوات تسمع منه نفس التعليقات عن نفس الأشياء ونفس النبرات. عشر سنوات تعرف عنه كل شيء، كيف كان يعامله أبوه، كيف دلتته أمه، كيف أحب أول مرة، تعرف حتى ماذا يقوله في الساعة الخامسة غداً وبعد غد. لو دق الجرس من طريقته في الدق تعرف ما يريد، وتطلب من السفرجي أن يحضره. البيت! لكم تكره كل ركن فيه، فهي قد رأت آلاف المرات. . موبيلته لم تعد تراها من كثرة ما تعودت رؤيتها، مطبخه يخنقها، صوت أزيز الثلاجة من طول ما سمعته يلسعها ويؤرقها ويملاً جسدها بالشياطين. في التاسعة عشرة حين تزوجت كان الجنة. كان هو أعظم وأجمل وأكرم وأرق رجل في العالم. الخمس السنوات الأولى قضتها لا ترى رجلاً غيره. . الرجال بالنسبة لها لم يكونوا

افراداً، لم تلاحظ أيهم ذات مرة كواحد وحده، كانوا كتلة، أهم شيء فيها أنه - هو - منها .

انفضلي حضرتك . دقائق . حاجة ساقعة؟ قهوة؟ أنا ماشي .
حاضر . متشكر . استراحة هذه أم قبر؟ حاولت فتح زجاج النافذة
الوحيدة، لا يفتح . جلست، تطلعت، ملابس، بدل رجال . أين
بدلته هو؟

هي المطلة من الدولا ب . . معلقة بعناية شديدة كالعادة .
الأحذية الطويلة الرقبة هذه . هذه الآثار . دماء؟ دم! بشع، جزارين!
قامت . دارت . أمسكت بقميص عمليات أبيض دمور رخيص .
البنطلون دمور أيضاً . أقدر دمور . الأبيض . لماذا كل شيء أبيض؟
حتى الأحذية الطويلة كاوتش أبيض . ألا يملون هؤلاء الأطباء؟ هي
ملت . الملل . أبشع أنواع الملل . الملل من شيء لا تستطيع
الاستغناء عنه كأنما تمل من نفسك . عشر سنوات ملل . لن تبالغ . .
ساعات وأيام صحيح كانت خالية من الملل ، ولكن يوم ملل واحد
يجعلك تمل من العام كله . إنه كالسم ، أقل القليل منه يقتل . أياكون
هو الذي جعلها بدلاً من التجاهل تبسم للآخر؟ كان قد سبقها إلى
العربة بعد جلسة استمرت ثلاث ساعات في النادي لم ينطق خلالها
إلا بثلاث كلمات . أين ذهب الكلام من فمه؟ ثاني أو ثالث مرة ترى
هذا الشاب يتابعها . هذه المرة تجرأ . . حياها . كان ممكناً أن تزجره
ولو بالاهمال . . لماذا ابتسمت؟ لماذا أحس أنها ابتسمت؟ حتى قبل

أن ينطق في التليفون عرفت أنه هو الآخر، وأنه اختار الصباح ليحدثها حيث البيت خال. مغامرة؟ ولم لا؟ كل صديقاتها يغامرن. لماذا لا تجرب هي؟ المهم ألا يعرف أحد. تصنع الدهشة لم يعد يجدي، ولا كذلك تصنع الغضب. انتهت المكالمة مفتوحة.

ثاني يوم، ثالث يوم، رابع يوم، كان صوته هناك. كان الخوف أقل. التطلع لشيء مثير جديد أكثر. بماذا تجيبه لو طلب للمرة المائة أن يقابلها؟

وجدت جرساً. دقت عليه. لم يحدث شيء. دقت أكثر. سمعت أقداماً. ظهرت على الباب ممرضة سمينه جداً وصغيرة في السن ربما لا تتجاوز السابعة عشرة. لا تعرف ما قالت. فقط قالت بصوت عال جداً شحب له وجه الممرضة الملظظ وانسحبت بسرعة. هدأت. صفر خاطر مروع كالصرخة الأولى التي تنطلق في سكون الليل ونعرف بها أن ساكناً في الشارع مات لتوه، كيف فعلت ما فعلت؟ كيف انسأقت؟ كيف سقطت الملكة أيضاً، ولم يعد أحد أحسن من أحد؟ خيانة؟ لا، لم يحدث. كلام مجرد كلام. لقاء، كأنه كلام. والموعد القادم؟ لن أذهب. لا، ليست خيانة. كل الخائنات لا يعترفن. يفعلن أي شيء ويسموننه أي اسم إلا الاسم الحقيقي. كرهتيه؟ اتركه. أليس هذا ما كانت تردده. الاشمئزاز الذي كان يعتريه جسدها حين تتأكد أن صديقها أو فلانة هي الأخرى قد سقطت. إن اشمئزازها الآن من نفسها. لماذا هي باردة هكذا؟ أين تأنيب الضمير؟ لكان شيئاً قط لم يحدث. فقدت حتى الاحساس

بالذنب. أنا لم أجرم.. لو تركته.. ولم أعد أحبه. النتيجة أنني فقدت العقل! جنون. أنا مضطرة لإخفاء كل شيء لأن ضميري يأبى عليّ تركه. يموت ما فعلته. اعترفي أنه ادعاء للجنون فأنت استاذة في تعليق كل شيء تفعليه على شماعة من خطأ الآخرين، أو خطئك. الجنون. الكره. الضيق، حتى حب الاستطلاع، شماعة، مجرد شماعة.

عادت الممرضة السمينية. هبت واقفة.. ماذا يقول؟ مرة ثانية يرجوني.. أمامه نصف ساعة؟ وماذا أيضاً؟ مسكين والله. في قمة مشغوليته يفكر في، يقترح أن أذهب لحجرة العمليات لأتفرج على العملية وأتسلى. يريد تسليتي ولو بحجرة العمليات. هل ممكن أن أذهب إلى هناك؟ ارتدي هذه المريلة وهذا الحذاء وقناع؟ فقط. لا.. أشكرك وأشكره. أنا لا أضمن نفسي. الجراحة تثيرني. صحيح هو جراح أطفال مشهور ولكني أنا أخاف من نقطة الدم. أحسن أنتظر. طبعاً تنتظرين.. وحبذا لو تألمت وأنت تنتظرين. فأنت في الواقع تريدين أن تتألّمي، ويكون هو بالذات مبعث ألمك حتى تشعرني ببعض من راحة الضمير. هذا الذي طول الوقت رابض داخلك يراقب ولا يتكلم تريدين رأيه وتخافينه. ولهذا تريدين أن تتحركي وتشغلي نفسك عن السؤال باستمرار. السكون مؤلم. الضمير يتكلم حين نسكت. الممرضة لم تبتعد كثيراً. ربما قريباً من باب الحجرة تجلس. لا بد أنه هو الذي طلب منها أن تسهر على رعايتها. يدلّني كثيراً. لو يكف عن تدليلي. لو يفعل شيئاً يجرحني

ويغضبني ويجنني ، حتى لا أحبه لأنه لا يفعل شيئاً أبداً. يا لهذا الاحتكاك الأليف الدائم! الرجل حين شيئاً فشيئاً تتساقط عنه مظاهر الرجولة واحدة بعد الأخرى، الهبة التي تمضي وتذهب، الأسد وهو يتحول إلى جرو يؤثر السلامة ويقنع بوضع ذيله بين رجله. بشع هذا الاحتكاك الدائم الأليف! المرأة المطلوبة المشتهاة التي لا يلقاها أحد إلا بميعاد واستعداد، حين تصبح بضاعة حاضرة في متناول كل ليلة وكل لحظة. بطاقة تموين عائلية تصرف في كل أسبوع مرة! الحب. . من رغبة متأججة إلى واجب كزيارات رد الزيارة، كالتعازي في المآتم والتهاني في الأفراح. لابد أن طول الاحتكاك هذا يجعل الرجل أقل رجولة، تعديه أنوثة المرأة وتظل تؤنثه أكثر وأكثر، ولابد أنه هو الآخر يعديها برجلته فتسترجل أكثر وأكثر، ويكادان في النهاية أن يتقاربا ويصبحا بطول الزمن وكأنهما من نفس جنس آخر ثالث.

هل تترك نفسها تموت؟ هي تموت. هو يموت. كل شيء يبهت. . يموت ويبهت. حتى الألوان نفسها تتلاشى وتموت وتبهت ولا يبقى سوى ذلك اللون المستشري الواحد. . الأبيض، الأبيض. الأسود، هناك شيء أسود، حذاء أسود، حقيقة حذاء أسود، بين الدولاب والحائط محشور، طويل الرقبة ومحشور. قامت. . بيد ممتعة أخرجته. لا دماء عليه. صغير هذا «البوت»، فلتجربه. خلعت حذاءها، أدخلت قدميها، ارتدته. أما من مرآة ترى نفسها فيها؟ فتحة الضلفة المواربة. وهنا مرآة أيضاً. لم يبد الحذاء بشعاً. طويلاً يصل إلى ما دون الركبة بقليل ولكنه جميل وغريب. تمشت،

استدارت. ادارت عنقها بقوة لتري كيف يبدو من الخلف. انتقل بصرها فجأة إلى المريلة البيضاء المعلقة ومنها إلى الحذاء. إلى المريلة! ومدت يدها، ارتدتها وفتحتها إلى الأمام كالبالطو. فطنت للخطأ، قلبتها، أمسكت بالفتحة من الخلف وضمتها بيدها بشدة، ظهر وسطها، نفر صدرها رغم صدر المريلة الواسع. إلى اليمين واليسار خطت. أصبح منظرها في المريلة والبوت أهم ما يشغلها. حزام.. تريد حزاماً.. اسمعي يا! جاءت اليا. الحزام رباط شاش. عقدت لها الحزام. الرباط عريض، منظره كحزام رائع. ثبتت المريلة بزرار من أسفل الرقبة. برز صدرها أكثر. أجيب «الماسك»؟ نعم، هاتي القناع، والله فكرة. غابت ثانية، عادت، حاولت ارتدائه بمفردها، لم تعرف.. تركت البنت تفعل. نظرت في المرأة فجأة. يا للروعة! عيناها مدهشتان من خلال فتحة القناع كأنها لأول مرة تراهما. شكلها طيبة، طيبة رائعة الجمال. لا فرق! حلمت يوماً أن تكون طيبة، فشل الحلم، ربما لهذا الشبب فضلته. يجنن هذا الزى، يجنن. حضرتك ح تروحي أوضة العمليات؟ أنا؟ توقفت. تذهب؟ أنا بخاف م الدم. مفيش دم أبداً دي حاجة نضيضة خالص. تذهب؟ ترى ماذا يقول وهو يراها هكذا؟ لم يتمالك نفسه، سيجن. كلما ارتدت شيئاً جديداً رغم ثقتها من امتعاضه الباطن. ففي الظاهر يجنن ويطري ذوقها، وأحياناً لا يتمالك نفسه نفاقاً ويقبلها. حتى النفاق أنا في حاجة اليه. أذهب. بجوارها تمضي السمينة، يدها اليمنى مدلاة، فيها دبلة. حتى هذه الأخرى مخطوبة! الزواج لا

يصلح إلا للحمقى والمفلسين فهو قلة حيلة. لمثل هذه البنت نعمة فهي بغيره حتماً الخاسرة. لمثلي أنا جنون. الرجال تحت أقدامي، في تناول أصبعي وحسبما أريد. هو أيضاً جراح مشهور، ورغم جسده القصير النحيل وسيم. وألف مريضة وألف حكيمة وقريبة وزائرة وبنت عائلة يتمنيه. ليت في موقفي. على الأقل أستمتع بكوني المظلومة. أجد مبرراً كي أبكي وأشكو وأخون أنا الأخرى. ولكنه دائماً يفعل الصواب، حتى اطراء النساء له يعيده أمامي ليغظني أو يبتعث غيرتي. . ليت! إنما بدافع من ارضاء ضميره. ربما لو كان صوته مختلفاً، لو كان أكثر خشونة، لو كان أطول أو أضخم، أخبر حتى، لو يضحك عليّ مرة، لو يشككني فيه لحظة، لو كان «مردحاً» مثل أيام زمان. . الأيام التي ذهبت ولم يعد لي من عمل إلا التحسر عليها، بينما الحاضر ينزلق. . بسرعة مخيفة ينزلق. في العام القادم ستكون أكبر بعام جديداً! سنتقص أنوثتي بمقدار عام كامل. الزمن يتسرب ويحول الحاضر إلى ماضٍ، ويلتهم المستقبل. وأنا لم أعش. ما كدت أبدأ أرى وأتلفت حولي وأعي أني فتاة حتى قابلته. بهرني، خلّب لبي، الأحلام ازدحمت في عقلي، على الفور استجبت. . المقاومة كانت عبثاً.

كانت الاستجابة حلمي. الآن أحلم بأشياء أخرى، أحلم أن أقابل الآخر، أحبه، وليكن الخطأ خطئي أو خطاه أو خطأ الاحتكاك الممل المستمر أو العمر الذي يجري. غير مهم، المهم أن أعيش أولاً، أولاً أعيش، يعود قلبي يدق، أعود أهيم وأسرح! أحس أن لي

شيئاً خاصاً، سرّاً حبيباً، أكتمه، أخاف أن يعرفه أحد. أعود أكذب، أخلق الحجج والمناسبات، أنتظر، أستمتع أني على الجمر أنتظر. لأعش أولاً، وليحرقوني بعد هذا ساعة الحساب فأنا لا أعيش.. لا أعيش.

تفضلي! مؤدبون جداً هؤلاء الناس. أدب القروء لا بد. ستنتظرنني هنا، فالدخول بالنسبة إليها محرم. أأدخل وحدي؟ وماذا فيها؟ الدكتور هو اللي أمر، وما دام أمر مين يقول لا. أتنافقها بالتضخيم في منزلته؟ دخلت.

للحظة ضاعت. أين تنظر؟ كان مفروضاً أن يكون على الباب ينتظرها. فتشت، الغرفة واسعة جداً تصلح صالوناً لسراي، أو صالة معيشة كبيرة مذهشة. في الركن الأقصى هناك كمية أبيض كثير لا تخطئه العين، متجسدة على هيئة أشباح بيضاء كثيرة. داخل الأشباح منضدة ملحق بها أجهزة كثيرة خضراء وبنية، ومن طرفها يطل رأس أسود صغير مغطى بالشعر. رأس طفل لا بد. يا للبشاعة! أكل هذا التجمع ينهش في لحم ذلك الطفل؟ الجوقابض قاتل، الرائحة خانقة لا تحتمل، رائحة ماذا؟ فينيك؟ يوسول؟ أحماض لا تعرف لها أسماء؟ أم صبغة يود؟ أم هذا كله معاً؟ أم هي بالذات رائحة اللون الأبيض؟ يا لبشاعته حين يتحول إلى رائحة! لماذا لم ينتبه أحد لدخولها؟ لماذا هم متزاحمون حول الصبي المسكين، صامتون ذلك الصمت المستمر المريب، وكأن مؤامرة تدور؟

بدوار قليل بدأت تحس. أتخرج؟ أتصرف النظر عن المفاجأة.. مفاجأته؟ ولكن مفاجأته مهمة، ستتفرقه تماماً وتستغرق أسئلته ولن يلتفت أبداً إلى مغادرتها البيت من ساعتين مضتاً، فلو حتى عن طريق الخطأ سألها لانهارت وقالت كل شيء. إنها لم تتعود أن تكذب. لا عودة إذن، فلتستمر.

انتظرت.. نط عقرب الدقائق في الساعة المثبتة في الحائط عدة مرات. كل مرة بدقة لها دوي وسط بحر السكون الشامل. لا بد أن هناك خطأ ما. المجموعة واقفة كما كانت وكأنهم صورة فوتوغرافية لم يتغير فيها وضع ولا يتحرك داخلها أحد. لم يلتفت واحد إلى الباب وهو يفتح، ولا ناحيتها، ولها زمن تنتظر وما ألقى أحدهم بنظرة. ماذا تفعل الآن؟ إنها تريده أن يراها عن بعد فمنظرها بالمريلة و«البوت» عن بعد أفضل، وشيء فيها صغير لا يزال يحاول أن يأسره، رغم كل شيء لا يزال فيها شيء يحاول أن يأسره. كيف تلفت بصره والصمت لا يجرؤ شيء ولا مخلوق على خدشه؟ صمت يبدو كصمت الصلاة خدشه حرام. تسير؟ خطواتها حتماً ستجذب الانتباه. سارت.. بلا صوت سارت رغم محاولاتها أن تحدث سيرها صوتاً. قطعت أكثر من نصف المسافة.. لا صوت. البوت اللعين من المطاط والأرض مطاطية لعينة هي الأخرى. مهما دقت وخبطت فلا صوت.

قطعاً حين تصل سيفسحون لها مكاناً، لتختر حينذاك المكان المواجه له مباشرة. وصلت. حتى التومرجي الذي يروح ويحمل

أشياء وينقلها ويعود بأخرى لم يلق ناحيتها نظرة. لا بد حسبوها
طبيبة لا تستدعي التحقق أو تلفت الانتباه. قريباً من طرف
المنضدة وقفت. عيونها تتفحص الواقفين من خلال فتحات
أقنعتهم. لا عين من عيونهم أخطأت ورنّت بنظرة. تنحنحت أيضاً.
كأن شيئاً لم يحدث. أين هو فيهم؟ لا أحد من الموجودين جميعاً
يشبهه، فأين هو؟ أيكون هذا الواقف في الوسط منهمكاً في شيء
أمامه؟ بالضبط هو. رغم الطاقة ذات الحافة والقناع، فقد عرفته من
أذنيه. هو ذا إذن، والباقون حوله لا حراك. مدت يدها تعدل المريلة
وتضبط فتحة القناع، استعداداً للحظة التي يرفع رأسه المنحني فيها
ويقع عليها بصره. قطعاً سيهلل للمفاجأة حتى لو كان هنا، فهو يلقاها
دائماً بترحاب من لم يرها من عام.. حتى لو كان غادرها من ساعة.
الدقائق تمضي ولا ينظر، لا يحرك عيناً عن البقعة المثبتة عليها
عيناه. تنحنحت مرة أخرى. غمغمة.. سمعت غمغمة لا مجاملة
فيها: اللي عايز يكح يمشي يطلع بره يكح. صوت من هذا؟ أيكون
صوته؟ ألم تعرفه لأنه منحن ويتحدث من خلف قناع؟ أم لأن هناك
شيئاً آخر.. بالتأكيد ثمة شيء آخر. يا.. وجدت نفسها تهتف.
كانت تظن أنه ما أن تفتح فمها حتى تستدير الأعين كلها لتراها. حين
لم يتحرك أحد.. حين ظل الصمت ثقيلاً رابضاً لزجاً حتى لتكاد إذا
مددت يدك تلمسه، خانتها شجاعته. لم تكمل النداء، سكنت،
تبلدت ملامحها وسكنت. أترأه عرف؟ أيكون التجاهل عن عمد؟ لو
فقط يكف هذا الصوت المنتظم، لو تكف الحشرة.. حشرة لها
وقع كأنها حنجرة ذات جسد يزحف على أربع، وبين كل نقلة لساق

من سيقانها ونقله وقفة، وتعود تزحف. الرائحة القابضة تجثم على الصدر توقف حركته، تمسك الهواء أن يدخله، وتمنعه أن يخرج. ماذا أتى بها؟ مالي ولحجرة العمليات التي يدوشونها بها في سهراتهم هؤلاء الأطباء والجراحون؟ هذا هو العالم الذي يقضون فيه ساعة إذن ويجمعون بما حدث فيه ألف ساعة. لها حق إذا كانت تكره العمل وحديث العمل، هي وكل صديقاتها. ما يكاد الرجال يبدؤون فيه حتى تكون البداية اشارة البدء لهن. الحلقة تتكون وبسرعة مذهلة تتفاهم. من يراهن لأول مرة يحسبهن شقيقات معاً نشأن، وبعضهن لم يعرف الآخر إلا من لحظة. قبيلة الإناث تتجمع، شفرة النوع الواحد بينهم كالسحر تسري، متراثيات متحاسدات متذاكيات متغاييات، أبداً لا يختلفن، ولا صوت لهن يرتفع. بالعكس كل دقيقة أخرى ينخفض الصوت ويصبح التفاهم أشمل، وبالأزياء كموضوع لجس النبض يبدأ الحديث، وينخفض وهو ينتقل إلى فلانة وكيف تلبس وفلان وكيف يلبس فلانة؟ وينخفض الحديث أكثر اذ لا بد قد وصل الاتفاق حد النسيمة وتبادل آخر أخبار الفضائح، وينتهين بحديث لا بد يחדش الحياء ولهذا يقلنه همساً. ويظل الهمس المتوافق المنسجم يخفت ويخفت حتى يستحيل الحديث إلى اشارات وغمزات وقد أصبح التفاهم تاماً وكاملاً، بينما الرجال العبط قد أخذتهم الحماسة، ودب بينهم في الحال مهما كانوا أصدقاء أو أقارب الخلاف، وبالاختلاف والزعيق ينتقلون من العمل إلى مشاكل العمل، إلى السياسة بالطبع، إلى الخناق. فلا بد أن لأحدهم رأياً يخالفه فيه الآخر بشدة، ويأبى تماثماً الانتقال إلى موضوع آخر، ولا بد أن

تضييع الليلة وكل منهم يحاول افهام الثاني أنه الأذكي والأصح .
 العمل ! زمان كانت تغار منه ، تعتبره كالزوجة الأولى صاحبة النصيب
 الأكبر . تحول مجرى الحديث إذا حاول هو جرّها اليه . وكيف لا
 تحوله ومعنى اشتراكها فيه اعتراف بشرعية «الضرة» وحققها في
 ساعاتها هي ؟ الساعات التي يقضيها معها في البيت والمفروض أن
 تكون خالصة لها . كثيراً ما سمعت الشناء عليه حتى من حساده . . عن
 شطارته ، عن نبوغه ، تبسم مجاملة وقد تعلق بكلمة . إنها في
 أعماقها كانت تتمنى لو لم يكن له بالمرة عمل ، لتصبح هي عمله
 الوحيد الأوحده . ولكن هذا كان أيام الحب زمان . في السنين الأخيرة
 لم تعد تغار ، بل أصبحت تشجعه على العمل أكثر . العمل أكثر يعني
 دخلاً أكثر . النقود أهم وليس مهماً كيف يأتي بها .

فجأة شعرت بغربة . هنا لا مكان لها . شيء في صدرها
 كالروح المختنقة يرفرف . شتان بينها الآن وبينها من ساعة مضت
 حين كانت حواسها تتدغدغ تحت وقع حديث الآخر الرخيم المتعمد
 البطء . عما فعلت به ، عن عيونها حدثها ، عن جلدها ونعومته طال
 حديثه ، عن رقبتها ، عن . . عن شفيتها ، عن شعرها المنساب انسابت
 كلماته ، عن قوامها وجسدها وعدوبة روحها والرجل السعيد الحظ
 الذي يملك هذا كله مضى يتكلم ، وهي تقشعر لوقع كلماته . وربما
 لهذا بدأ يتصاعد بحديثه خطوات أخرى . . ألفاظه بدأت تتعري ،
 لمساته طالت ، الجرأة في عينيه بدأت . . بدأت تشع وقاحة . خدودها
 هي أيضاً بدأت تلتهب ونبضها يسرع . الخوف ، الخوف بلا سبب ،

راح كالشهب يتساقط ويغور في صدرها ويصنع حفرة بالغة العمق لا قاع لها. مرعوبة صارت ولم تعد تحتمل. الآن تذهب، في الحقيقة تهرب.

جسدها يسخن لمجرد أنها تتذكر. هو لا يزال لم يلتفت، يتركها هكذا صامتة ساكنة. الشيطان يتحرك حين نسكت. لو ظلت هكذا ساكنة ساكنة فلن يكون لتفكيرها حد. ستسبح كما يهوى الشيطان ويريد. ستندم على المقاومة التي ظل جسدها يبديها لكلمات الآخر ولمساته، ستضيق بهذا الصوت الذي يهتف لها. لا، لا، لا يمكن، مستحيل، الموت أهون. لماذا لم تستسلم كاملة للحظة المتعة؟ لماذا حتى بكلماته بدأت تضيق؟ للمساته تفشعر انكماشاً ورفضاً؟ بالموضوع كله تستسخفه وتنفر منه؟

تحركت. . اقتربت من الرأس الأسود المسجي وعلى فمه وأنفه قناع التخدير المتصل بالجهاز. رثة الجهاز صغيرة كرثة الصبي. الولد قمحي، شعره غامق السواد لامعه، ملامحه نائمة. صعب عليها! هو ذا الصبي إذن الذي استمر حديثه عنه وعن رثته ساعة وهي تشاءب ولا تفقه من حديثه حرفاً، غير مهتمة أبداً أن تعرف. كلمات تطن في أذنها عائدة. . أخطر عملية، الأولى في الشرق. لا مناص، لو لم أقم بها مات. هو الآن يفعلها. ماذا بالضبط يفعل لا تجرؤ على النظر. . إلى مستوى عينيها فقط نظرت. . سيده هي لا تشك، الواقفة بجواره تناوله الآلات قبل أن يطلبها، سيده. . صغيرة في السن ولكن يا لكائها! تتابع ما يفعله وقبل أن ينطق تكون قد

استعدت بالآلة التالية. غريبة هذه الآلات، معقدة! يبدو أن الجراحة ليست مجرد مشروط وملقط.. شيئاً فشيئاً تخفض رأسها إلى أسفل. لا دم إلى أكثر.. لادم مرة أخرى. لا شيء! قطعة قماش مبللة بسائل باهت كماء البطيخ.. ولا شيء! لا، إنهما قطعتان بينهما فاصل كالخندق المحمر، أيكون هو الجرح؟ أجرح بلا دم؟ نظيف كأنه مبطن بجلد داخلي؟ كم تخذعنا الكلمات! على أية حال لم يخرج عن حدود الأدب.. احترمني وقدر شعوري، وربما إذا لم أره طعني في ظهري! كسبه أحسن. أروضه حتى يذهب بريق الرغبة في عينيه.. ويحل بريق الهيام. قادرة أنا، وليكن اختباراً لمقدرتي.. وعلى أسوأ فرض لو حدث شيء رغماً عنا.. أو رغماً عني! فسيكون درساً أول وأخيراً لا أطمئن بعده لأحد.. حتماً سأعرف. وجهه صريح يظهر رغباته، وبمجرد أن يفكر سأعرف، وفي الوقت المناسب.. أهرب. وإلى أن يحدث أنا أتسلى، أقطع الوقت، أحبي قلباً لم يعد ينبض.. فلا تسلى. لماذا ببطء ببطء يعمل؟ له ساعة وهو يدخل أصبعين في الخندق ويرفع الرأس إلى أعلى ويتحسس شيئاً في الداخل. يا لطول باله! يمرضني طول باله! وهو يخلع ملابسه، قطعة قطعة يساويها ويعلقها ويظل دهوراً يجيء ويروح، ويروح ويجيء حتى من الغيظ أنام، وما أكاد أفعل حتى أشعر به يسحب الغطاء ويمد يداً ناحيتي أبادر بدفعها.. من لحظات وبلكاعته ذهبت رغبتني. أنا الآن جثة. أصرخ. جثة.. يرضى بالجثة. ما إن أصبح أحيا ويتنفض في دم طال عليه الركود حتى يكون هو قد أفلس. لم

يكن أبداً كذلك. معاً كنا دائماً. الآن افترقنا. أنا افترقت. هو باق لا شك.

- عرق ..

دوى الصوت، انتفضت، لم تفهم. . في آخر لمحة أدركت أنه صوته. . لا بد صوته. . ما هذا العرق؟ آلة جديدة؟ تعبير طبي؟ بدأت تفهم. «السستر» بجواره تختار شاشاً مطبقاً بعناية من مجموعات الشاش بجوارها. دون أن يحرك وجهه أو يستدير تتخلع هي «السستر» وبكل دقة وحرص حتى لا تلمس بأصابعها جبهته تجفف عرقه. عيناه لا تريان أو تشعران بما تفعله، كأنه لأول مرة يعرق. . في البيت لم تره أبداً يعرق. دائماً هو مستريح جداً، مثقل الجفون تهاماً، لا يتحرك من مكان لآخر إلا بدافع حياة أو موت. كيف تطيع هذه المرأة بجواره أمراً يصدر بهذه الطريقة الحادة الباترة، كالسبة، وحتى من غير «من فضلك»؟ لو كانت هي اصدر لها أمراً بهذه اللهجة لصفعته. إنه اهانة وليس أمراً. الغريب هو صوته، رفيع كما تعرفه، لا يرن كصوت الرجال ولكن فيه أشياء أبداً لم تكن فيه.

- امسك كويس. . إذا فلتت ح أخط المشروط في عينك.

قال هذا و صوب عينيه أمامه مباشرة إلى حيث المساعد. عينان رأتها بزاوية ولكن حتى نظرت من الجانب تبدو مختلفة. مائة في المائة ليست نظرت. هذه تملكها شخصية طاغية آسرة لا تملك إلا طاعتها. نظرة كأنها لرسول مؤمن برسالته إلى حد الجنون والبطش،

مليئة بالثقة وكأنها تصدر عن فيض من امتلاء النفس بالثقة . . إن لها شهراً وأكثر لم تر عينيه ولم تحس أن له نظرة . نظراته دائماً كقطة أليفة تتبعها، توجهها حيث تشاء . . من خلال عينيها يرى . عيناه حين تواجهها دائماً ما تكون البادئة بالانسحاب وقصر الشر . نظرة تشفق على ما تحفل به من مسكنة دائمة، وكأنه الطفل يذوب باستمرار، وباستمرار يطلب الغفران .

لا بد أنه يمثل أمامها، يريد اغاظتها . هنا مملكته وعبيده وهنا لا بأس من مزاوله سلطان مؤقت أمامها . ولكن كيف عرف أنها أصبحت بالحجرة، ومد دخلت لم يرفع عينه عن مكان العملية ولا همس في أذنه أحد أو أخبره؟

لا هو، ولا الموجودون جميعاً، لا أحد شعر أو يشعر بها . هم في ملكوت آخر، هم قد امتصهم شيء مذهل محير ألهامهم حتى عن أنفسهم وعن الزمان والمكان . . وأيضاً عن الآخرين . ما هذا الذي يدور؟ هي لا ترى شيئاً، لا ترى إلا أصابعه وهي غادية رائحة من الجرح . . إلى الآلات . . إلى الجرح . لا شيء هناك سوى أصابع تتحرك في قفاها المطاطي، أصابع طويلة نحيفة مركبة في يد ملساء صغيرة تعرفها أيضاً . ما هذا المعجز فيها الذي يمتص وعي هؤلاء الناس وانتباههم، كما لو كان أعظم عازف كمان في العالم يعزف والأنفاس معلقة بأنامله؟

- لا . . قلنا إبرة أرفع .

وطار ملقط مركبة فيه ابرة فوق الرؤوس، وسقط على الأرض
غير بعيد عنها. دق قلبها في عنف.. من الشخطة قبل أن يدق من
السقطة.

ماذا حدث له؟ لم تره هكذا أبداً. إن شخطة مرعب.. على
الأقل يرعبها. إنها لا تخاف من الرجال إلا شخطاتهم فقد عاشت
طول عمرها مدللة ملفوفة بورق سيلوفان، يتناولونها بحرص،
وبحرص بالغ يربونها ويعلمونها.. ويعاملونها. وما عليها إلا أن
ترغب وليس أمامهم سوى اجابة الرغبة.. لم يقل لها أحد في
حياتها.. لا.. لم يشخط فيها أحد.. حتى هو، كانت الرقة تذوب
من صوته إذا تحدث إليها. لماذا يشخط الآن هذا الشخط
المرعب.. الشخط الذي يجعلها تحس بالذعر، وبأنه رجل آخر
غريب تهابه، تحس أمامه أنها فعلاً امرأة ضعيفة خائفة؟ ما هذا
الاهتمام الصارم المركز على وجهه؟ لم تشهد حتى وهي تناقش معه
أخطر ما دار في حياتهما أو يدور؟ وما هذا الاهتمام العظيم الذي
يبيده الآخرون بأصابعه.. أصابعه الدقيقة ويده الصغيرة التي تشبه
الفأر؟ لا يمكن أبداً أن تكون هذه أصابعه. إنها يد وأصابع مختلفة
تماماً. هذه كائنات رفيعة طويلة أخرى بالغة الحذق والنشاط تلتف
على بعضها البعض، تستدير، تنحني، تلتقط، تلتصم، تخطط،
تمسك، تجفف، تفرق، تتجمع، تتحسس، تتداخل، تندس،
الآلات في قبضتها تتحول كائنات حية، وكأن أصابعه تتشكل على
هيئة الآت. لا يمكن أن تكون هي نفس الأصابع التي ما رأتها إلا

مرتخية، أو مغطية فمه المثنائب، أو حتى إذا نشطت فإنما تنشط لتبعث - في أحيان نادرة - بشعرها هي، وكأنما تؤدي واجباً مدرسياً، أو لتضغط على أذنها وكأنما لتقرصها حيث لا تدري ماذا غير هذا بوسعها أن تعمل. بالتأكيد ليست هي أبداً الأصابع التي تعرفها ويشير مرآها بعض اشمزازها. . هذه أصابع تتعلق بها الأنفاس ولا بد أنها تقوم بأخطر عمل. . فالصمت المخيم ليس صمت مؤامرة أو ضجر. إنه صمت الترقب الأعظم وكان في الحجرة تدور مغامرة كبرى، الخطأ الصغير فيها قد يكلف حياة. من المحتم أن الصمت المقدس هذا يخيم على معجزة تحدث، وهو الذي يقوم أمامهم وأمامها بالمعجزة، وهو «بتاعها». أهو «بتاعها» لا يزال؟ هذه النظرة المحددة الشاقبة التي تنفذ في أعماق مساعديه ومن حوله من الرجال فتَهز أعماقهم، هذا العرق الغريب الذي يبدو لفرط نظافته معقماً طاهراً، هذا الوجه الذي لم يستطع حتى القناع الشامل أن يخفي الشخصية الطاغية التي تملكه، هذه الملامح التي يسيطر عليها تماماً، المحددة متى وكيف تتحرك، هذا «هو» لم تره أبداً، «هو» آخر لا يمت إليها. . هو مخيف، مرعب، ذكر. رجل يمثل ما لم تحس به كرجل وهو في قمة مزاولته للرجولة معها. أمامه وعن عمد تضع الآخر في مواجهته، بشعر صدره، بيديه الكبيرتين، بذقنه الغزير، بقامته. غير معقول هذا أبداً غير معقول! إنه يتضاءل، إنه يصبح أقل شباباً وأهمية. كل ما فيه من مزايا وخصال تذوب وتتلاشى كفقاعات من صابون أمام هذه الإرادة الحديدية التي لا تقهر، والتي تنبعث منه هو

وتأمر الحياة في أعماق الطفل المريض أن يستيقظ، أن تنشط، أن تبدأ وتستمر وتظل حية مستمرة. كادت تبكي. . لم يتضاءل الآخر وحده، هي نفسها بدأت بكل رغباتها وغيظها، بكل أحلامها وضيقها، بكل دلالها وأنوثتها تتضاءل. . تتضاءل، وهو يكبر ويكبر وتحيطه هالة مقدسة لا تجرؤ على خدشها حتى بالنظر، هالة الرجل وهو يعمل، هالة لم ترها أبداً، وما كان مقدراً أن تراها لولا الحجة. والمضحك أنها حجة لخداعه. . الدموع تجمعت فعلاً في عينيها. إن كل ما تتمناه الآن أن يحدثها هذا الرجل المقدس أن يعترف أمام الناس أنها له زوجته، وأنه لمروع أن يعترف بها فعلاً كحبيبته. غفرانك وعفوك! لو تسمح لي بتقبيل يديك الصغيرتين وكل أصابع من أصابعك! لو تسمح لي بتقبيل أقدامك! يا الهي وأنت الاله الآن. انحنت فعلاً ونظرت أسفل المنضدة تريد أن ترى قدميه، تريد أن ترى كل شيء فيه من جديد. عرفتهما. . رغم «البوت» والرقبة الطويلة فهذه العزيزة أقدامه. اعتدلت، أحست بالقناع مبتلاً حول أنفها وفمها، كانت الدموع تتكون بسرعة وتنهمر، وكان بصرها مضطرباً ولم تعد ترى وكأنها في حلم من ضباب، رأت الباب وأسرعت وكأنما تنقذ نفسها. وعند الباب وقفت، ومن خلال فتحته الزجاجية راحت تجفف دموعها وتكمل النظر. . يا لصوته وهو حتى يأتيها غير آمر، وهو يشرح لزملائه ما يفعله. كل كلمة منه تستثيرها وكأنها لمسة حبيب راغب. . حتى سكوته مثير وهائل. في حنجرتة زئير رجال، في حنجرتة أسد هي أمامه غزال لا حول لها، والحجرة غابة، ولو

بحاجبه . . بمجرد حاجبه أشار، لطاوعته في الحال هنا وأمام الملاء .
 انتهت العملية وبدأت اجراءات حمل الطفل . أزاح قناعه
 إلى أسفل وخلع قفازيه ، كذلك فعل مساعده وزملاؤه وهم يحضرون
 اليه يضافحونه ويهنتونه . وجهه حافل بابتسامة لا حدود لسحرها . ثم
 من أين جاء هذا الاكتفاء ، هذه السعادة كلها . . كيف طفرت من
 ملامحه ؟ سعادة أكثر بكثير من أية ليلة حب قضياها معاً ، حتى وهما
 في شهر العسل ؟
 وأحست ، فجأة ، أن قلبها بدأ يفوص .

أكبر الكبائر

لا يخيفنكم الاسم فالقصة* نفسها تميت من الضحك، ولو أن محمد حسين حين يرويها لا يضحك أبداً، ولا يرى فيها ما يبعث حتى على الابتسام. بالعكس، يتهدج صوته كثيراً حتى يكاد يبكي وفي أحيان يسأل السامع، إن كان السامع من العارفين أو المتنورين، سؤال المستغيث، أن كل ما فعله وما يزال يفعله حراماً، وهل ممكن أن يدخل النار بسببه؟ وحقيقة كان محمد يفاجأ حين يجد السامعين يضحكون، ويفرقون في الضحك، ولا يكفون إلى الآن عنه. . محمد من هؤلاء الفلاحين الذين يطلق عليهم نساء القرية «الجدعان» لا من الجدعة، ولكن من حوادث السن والعزوبة وخلو البال.

(*) «لهذه القصة قصة، لقد كتبتها ونشرت بجريدة الجمهورية في أغسطس ١٩٦٣ ولكنني نسيت أنني كتبتها فلم تضمها مجموعة آخر الدنيا أو لغة الآي أي أو النداهة، ولولا الصديق الناقد صبري حافظ وسؤاله مؤخراً عنها وعن سبب إهمالي لها ما تذكرتها، ولولا الصديق الناقد عبد الرحمن أبو عوف وأرشيفه الكامل لوجدت صعوبة شديدة في العثور عليها إذ حتى كنت قد نسيت العام الذي كتبتها فيه، فإليهما وبكل العرفان أهديتها.

ولكنه جدع ولا يلبس جلباباً من السكرتة، وعمره ما جلس على قهوة، ولا ذهب أبداً إلى البندر. . فلاح من هؤلاء الفلاحين الذين حملوا عبء اخضرار بلادنا لسبعة آلاف عام أو تزيد، فهو مهما اشتغل في الغيط لا يتعب، ومهما نام لا يستريح، ومهما أكل لا يشبع، وأبداً لم يرتد في حياته جلباباً، فهو دائماً بلباسه وفانلته وفوق الفانلة صديري لم يحل لونه فقط، ولكن انمحي «وجهه» اللامع تماماً وبقي على البطانة الدمور، والفانلة متآكلة مثقوبة في أكثر من موضع، واللباس به رقعة غير جيدة الصنع فقد صنعتها له أمه، وأمّه نظرها ضعيف وتزهق من لضم الابرّة.

ولكن محمد على أية حال شاب في الثامنة عشرة وإن كان يبدو في الثامنة والثلاثين، وله أيضاً كل نزوات الشباب، بل ويعرف البصبصة، ويغني أحياناً، ويلقح بالكلام على البنات إذا عملن معه في الحقل أو ضمته وياهن ما كينة الطحين. ولكن تجاربه في الحقيقة بدأت مع الحيوانات، كل الحيوانات من الماعز إلى الأبقار والجواميس، وانتهت إلى المشهورات جداً من النساء، أولئك اللاتي يقعن بمجرد وقوع النظر، بل أحياناً بالسمع. . ولم يكن أبداً في حياته يحلم بما حدث، بله أن يحدث في يوم صيف حار كافر كهذا اليوم، قضى كل صبحه يجري خلف حمار «القنادلة» الذين يعمل عندهم، حاملاً نقلات السباخ إلى الغيط البعيد، وقد أتم الثلاثين نقلة أي ما يوازي بلغتنا نحن الستين كيلو متراً قطع نصفها جرياً وراء الحمار، ونصفها الآخر راكباً إياه تكاد سلسلته الظهرية العجفاء

البارزة تقسمه إلى نصفين، ركوبة أسهل منها بكثير الجري أو السحل . . في ذلك اليوم عطش واستبد به العطش إلى درجة أصبح يحلم فيها بالماء، ومن شدة ظمئه نفى من خاطره أن يشرب من بيت القنادلة، فالماء لديهم يحتفظون به في البلاليص وهو دائماً ساخن ودائماً فيه عكار. الشربة الحقيقية لا تكون إلا من بيت الشيخ صديق، ومن زير أم جاد المولى النظيف ومائها البارد المقطر الذي تضع فوق فتحة زلعتة شاشة بيضاء تمنع الواغش والغبار، ويرد منظرها الروح. هكذا صمم محمد وهو يلكر الحمار الكسول وينخره ليسرع به إلى أول البيوت حيث بيت أم جاد المولى .

وما يكاد يطل من الباب وتتعود عيناه رؤية ما يغلفه شبه الظلام في الداخل حتى تسمر محمد في وقفته خجلاً واحتراماً وأدباً . . فقد وجد أم جاد المولى تصلي وبالذات تركع، وقد أعرض جسدها بطريقة لم يملك معها محمد إلا أن يقف خجلاً واحتراماً وأدباً. ولم تطل الصلاة فسرعان ما جاءت التحيات، وحين التفتت بوجهها لتسلم زادت من التفاتتها لترى من الواقف. وعافى عليها محمد وسألها إن كانت تسمح له بشربة ماء؟ وهزت أم جاد المولى رأسها موافقة دون أن تنطق بحرف واحد فقد كانت تتمم بختام الصلاة. وأشارت إلى الزير الذي كان محمد من فوره قد توجه إليه وأمال الزلعة وملاً الكوز وشرب . . شرب كوزين، وارتوى. أحس بجسده يلهث من فرط الري والاكتفاء، وأحس أنه مدين لأم جاد المولى أو كما تعودوا تسميتها الشيخة «صباحة» لا لأنها زوجة الشيخ صديق ولا لأنها

تصلي وتداوم على الصلاة ولا تسلم عليك مرة إلا وقد أحاطت يدها بثوبها حتى لا تنقض الوضوء، ولكن لأنها دوناً عن النساء جميعاً كانت تفضل أن تلف رأسها بطرحة بيضاء. أحس أنه مدين للشيخة صابحة بدين كبير حاول أن يرد بعضه، فسألها وهو في طريقه إلى الباب إن كان باستطاعته أن يؤدي لها خدمة؟ وقالت الشيخة أم جاد: كتر خيرك يا خويا. . كتر ألف خيرك.

وكاد يدلف مسرعاً إلى الخارج ليلحق بالحمار الذي تركه ومضى، حين سمع كلمة: بس! والتفت خلفه ليلمح ابتسامة أم جاد المولى المعوجة قليلاً والتي لا تظهر من خلالها سوى أسنان قصيرة، ويجدها تطلب منه في تردد إن كان باستطاعته أن يصنع لها معروفاً ويرفع بلاص الماء الاحتياطي ويدلقه في الزير الذي انخفض ماؤه. بس كده؟ ويجذبة واحدة رفع البلاص، ودون حتى أن يسنده على حافة الزير أمامه ومضى الماء يخرج من فتحته على دفعات ضخمة هادرة.

في ذلك الوقت لم يلحظ محمد أن الشيخة صابحة ترمقه للمرة الأولى منذ أن دخل البيت، وفي الحقيقة لم تكن ترمقه كله كان بصرها مستقراً على ساقيه السوداوين المجرحتين بالشقاء والمبلدتين بالشعر، وليس على ساقيه بالذات بالدقة على ذلك الشيء الذي انتفخ فجأة في سمانة كل من ساقيه وهو يشب ليسيطر على البلاص ويصبه. شيء بدا صلباً وكأنه كتلة حديد قد تكونت من تلقاء نفسها تحت الجلد، شيء لا يمكن أن يحدث أبداً إلا من جسد رجل، وهو

شيء ليس غريباً على أم جاد المولى فلزوجها الشيخ صديق شيء مثله . ولكن سيقان زوجها هزيلة رفيعة كالبوصة ، إذا شب أو سار تصلبت سماته أيضاً ولكنه تصلب لا ينتج إلا كتلة صغيرة مفرطحة لا تكاد تظهر من الجلد . ولم تكن تلك المرة الأولى التي تعقد فيها أم جاد المولى مقارنة بين زوجها وبين أي رجل تراه أو تلقاه ، فلها سنين وهي تعقد تلك المقارنات . . بالضبط أربع سنوات منذ هذه الطوفة التي جاءته وجعلته يبدأ يغالي في التدين وصلاة الضحى والتراويح ويسهر الليالي في الموالد يذكر ويجعل من نفسه إماماً للذاكرين ، ويؤمن بتلك الطريقة الدمرداشية ويتروحن ويحدثها عن الوصول ، والسادة والأولياء والامام الغزالي وكبار الواصلين ويفرض عليها الطرحة البيضاء والسبحة .

في الحقيقة لم تدهش أم جاد المولى لهذا التحول ، فالشيخ صديق طول عمره نحيف ضعيف خفيف الصوت شاحب اللون قليل الطعام كثير نوبات حرقان القلب والمغص ، لا يقطع فرضاً ، ولا يؤذي نملة . حتى في صباه كان الشبان جميعاً يكتفون بارتداء طواقيمهم وهو وحده الذي ينفرد بالتعمم عليها . ولكنه كان فلاحاً خبيراً بالفلاحة يحب الأرض والزرع ويجن شغفاً بالمواشي ويفرح بولادتها ربما أكثر من فرحه بولادة الابن ، والقراريط التي يزرعها دائماً فيها خضرة أو شيء لا يزرعه الناس . ولكن تلك الروحنة لم تأت إلا من أربع سنين لكأنما كانت و «بلوغ» ابنهم اسماعيل على ميعاد ، وكأنما جاءت ليصب هو نقمته عليها لأنها لا تصلي ، فإذا صلت ظل يواصل نقاره حتى تصوم «السته» ولم يتركها إلا وقد ألبسها الطرحة البيضاء ، وهي

قابلة على مضض الضيق أول الأمر بكل الهلوسة التي اجتاحتها وعلى تركه للأرض مهملة لا تجد من يعتني بها ويسقيها، وعلى إهماله لها وللدار ولكل شيء، وتفرغه تماماً لنوبات العبادة التي تبدأ مع العشاء ولا تنتهي إلا بعد الفجر حيث يصلي وينام للضحى، ويروح منهم «دور» الماء في الساقية، ويعطش القمح وتفضى سنبله، ولا يصح لهم من الفدان إلا أردبان..

قابلة على مضض الضيق أول الأمر، ثم على مضض الصابر، ثم على يأس المستسلم، ثم على محاولة للترويض وللوصول إلى عزاء لا أكثر وطلباً للسلوى. ولكن نوبات النقاش والمناكفة ومحاولة تذكيره بترك المسبحة جانباً وامسك الفأس كثيراً ما كانت تراودها وتجعلها تعقد بينه وبين غيره من الرجال المقارنات أمامه وخلفه، ولكنها المرة الأولى التي تعقد مقارنة بين سمانة رجله وسمانة إي رجل آخر. كل هذا لم يلاحظه محمد، وحتى لو كان قد لاحظها لما فهمه. كل الذي لاحظته حقيقة أنه وجد أم جاد تقوم فجأة وتأتي لتقف بجواره أمام الزير وتمد يدها تريد انتزاع البلاص منه وهي تقول: عنك انت يا خويا بقى.. كفاية عليك.. زمانك تعبت.

وهو يجذب البلاص ناحيته ويتشبث به: والله أكبر كلمة لا يمكن.. تعبت ايه هو ده اسمه كلام؟

- والنبي يا محمد الهي يخليك لشبابك. هاود بس!

- واللي نبي النبي لا يمكن.

وجذبة إلى هنا وجذبة إلى هناك احتك كوعه بطرحتها البيضاء

فأزاحها قليلاً، واحتك ذراعه بذراعها وفانلته بثوبها وبالذات سمانة ساقه بجانب ساقها.

وفجأة دق قلب محمد وكأن أحدهم ساهاه وقذفه فجأة في التربة، فقد أحس - هكذا - أن الشيخة أم جاد المولى امرأة. لم تكن جميلة ولا صغيرة ولا تعوج القمطة، بل لونها كزوجها يميل إلى الصفرة، وعيناها صغيرتان، وصوتها ناعم مسلوخ وكأنما يخرج من فتحة في ظهرها، ورائحتها كلون رائحة طرحتها بيضاء ذلك الأبيض الشاحب الرمادي. ولكنه أحس بها كامرأة.

كيف أحس بهذا رغم طرحتها، والفرض الذي كانت من هنية تؤديه؟ رغم ابنها الأفتس الأنف الذي يحوم حوله ذباب خاص دائم والذي لا يمكن أن تصدق أن أمه امرأة؟

كيف أحس بأم جاد كامرأة، ومن المسئول عنه؟ لا يعرف. وحين وجد شاش الطرحة من الشد والجذب ينزلق من فوق رأسها، ثم يراها ويرى رأسها ووجهها بشعر وبلا طرحة. . حين رأى هذا أحس أن كل شيء قد انتهى، وبدلاً من أن يمسك بأذن البلاص مباشرة لف ذراعه - بلا خبث أو تدبر، بالغريزة - وراء رقبتها، وقبض على البلاص بقوة، فأصبحت هي بقوة أيضاً في حضنه.

وحاولت أن تتملص قائلة: أوعى بقى نقضت وضوي يا شيخ . .

ولكنه لم يفعل إلا أن شدد من التفاف ذراعيه ليجبرها على السكوت التام، ولحفظتها لم يكن يريد لها أو لنفسه أكثر من مجرد

السكوت التام والثبات، مجرد الثبات على هذا الموقف . .
وكانت كلمتها التالية: لا لا، أنا في عرضك . . الشيخ صديق
زمانه جاي .

وقال لها بصوت مبحوح متحشرج وكأنما مصدره صراخ داخلي
ينبع منذ الأزل: هوفين؟
فقالت: زمانه بيصلي الظهر وجاي .
فقال: آمال وقتيه؟
فقالت: بعد العشاء .

وارتجفت ركب محمد وكأنما غشاها زلزال لم يلبث أن اجتاحت
صوته فقال بشقة عليا ترتعش: هومش حا يكون هنا؟
فقال: لا، حداه الليلا دي مولد .
وفي نوبة جنون حاد ضمها محمد حتى كاد يحطم ضلوعها،
ورفعها ودار بها هي والبلاص فرحاً، أكبر وأعظم وأروع فرحة مرت
بحياته .

وعلى السطح، سطح كبيت الشيخ صديق نفسه، كمعظم
البيوت، كله فتحات ومساقط وصوامع وقش وأرز وحطب وغرابيل
قديمة وأسلحة محاريث صدئة وسحالي . . على هذا السطح كان
الميعاد . . وبرغم خوفها الشديد ورعبها، ورغم سبها لنفسها وتفكيرها
ألف مرة في الاحجام، إلا أن أم جاد وضعت لمحمد سلمها الناقص

بضع سلالم المصلوب بحبل، وجلست تنتظر، وألف هاتف تطالبها بالقيام وسلاسل من حديد تربطها إلى المكان. قوة القاهرة كالزمن والأقدار تجعلها تصمم آذانها وعيونها عن كل شيء وهاتف، وتمضي تضع السلم أو تحبك الطرحة البيضاء وتدللك وجهها بقطرات اقترضتها من ماء الورد وتفعل هذا كالمنومة كالمسوقة إلى قدر محتوم.

والغريب أن محمد لم يستعمل السلم أبداً في صعوده إلى السطح، فالسطح لم يكن عالياً، وبقفزة واحدة كقفزة جن كان قد صعد الحائط الواطي. ولم ير جيداً، فهو لا يجيد الرؤية بالليل ولا حتى بالنهار، وعيونه لا ترى إلا إذا دعكها، وإذا دعكها احمرت، وإذا احمرت رأى الصومعة صومعتين، وفي الحقيقة لم تكونا صومعتين، احدهما فقط كانت كذلك، والأخرى كانت أم جاد. وقد رآته ورأت حيرته ولكنها قبع في مكانها ساكنة لا تتحرك ولا تفتح فماً. وبدلاً من أن يبدأ محمد بحثه عنها قبع هو الآخر بجوار الصومعة من ناحيتها الثانية، ولو ترك العنان لنفسه لدخلها واختبأ فيها، فقد كان خائفاً جداً، خائفاً من الشيخ صديق أن يعود فجأة، ومن الله أن يغضب، ومن الجيران أن تحس أو تعرف. ولكنه رغم ذلك الخوف كان الدق الذي في قلبه دق فرح، فرح غامر دافق حينما زهق من معرفة سببه قال لنفسه لا بد أنه الحب الذي يتكلمون عنه، فهو لأول مرة في حياته يواعد امرأة في بيتها وتواعده لا عن طمع أو من أجل بضعة كيزان أذرة تشويها، ولكن من أجله هو فقط ومن أجل

سواد عيونه، رغم أن سوادها أبيض بما فوقهما من سحبات تمنع الرؤية، وحتى لو كان أعمى كلية وكانت أم جاد مشلولة تماماً لالتقيا في تلك الليلة، فكل ما فيه كان مرهفاً إلى كل ما فيها مشدوداً إليه بقوة لا يمكن أن يوقفها ظلام أو تحول بينه وبينها صوامع أو حطب..

وكان لقاء هو بنفس الفائلة واللباس وبوجه خشن حافل بالبقع والثقوب، وهي بجسدها القصير الأصفر صفرة لا سبب لها ولا تفسير، وبابتسامتها المتدلّية إلى ناحية تدلياً لم يلحظه محمد ولم يره فقد كان مشغولاً عنه تماماً، عقله مع الخوف من عودة الشيخ صديق والله والجيران، وجسده مشغول تماماً بجسدها، وكلاهما واقف، وكلاهما يرتعش، والدنيا مظلمة ظلاماً ليس فيه بارقة أمل.

ومن بعيد جداً، وكأنما من بين النجوم جاءهما صوت الشيخ صديق وقد بدأ يمسك بحلقة الذكر ويلعلع، وعلى وقع لعلته المتقطعة التي لا يمكن التمييز بين كلماتها كانت أجساد الذاكرين تمايل، وتتهدج الأصوات الخارجة من صدور تخفق بالخوف والأمل، بالمعصية والحاجة، بالارادة والاستحالة، بالصبر الشديد وطول ضيق البال.

وتقريباً، وعلى نفس الوقع بدأ سقف البيت المعرش بأشجار وسدد يهتز، ويخفق خفقات كنبض القلب، كلهث المحموم، بلا معنى وبلا هدف إلا أن تظل تخفق، وتظل الأفرع تزيق وعيدان الحطب وقش الأرز توشوش وتتغامز وتسري بينها الاشاعات الصوتية

والهمسات الأثمة. صوت الشيخ صديق المنغم نفس نغمة صوت محمد وتمايل الأجساد وتمايل الأعواد، وتهدج أصوات الذاكرين وتهدج أصوات الملتقين، نغمة واحدة تكاد تشمل الكون كله، وعلى وقعها خفق وعلى وقعها مستمر يخفق، أما السحالي فقد توقفت ذلك التوقف الغريب الذي يحدث لها أحياناً، توقف تام وكأنما ترد به على الحركة الكونية الهائلة من حولها، وتشاهده وتشهد إذا لزم الأمر عليه. لم تتحرك إلا هناك حين بدأت أصوات الذاكرين تضطرب، وبدأ بعضها يرطن بالسريانية ويصل ويغيب عن الوجود، والحركة أيضاً تغيب عن السقف، وتموت الهمسات والاشاعات في مهدها على أطراف عيدان الحطب.

وفقط كانت تلك هي المرة الأولى، ولم تكن أبداً الأخيرة. فقد عرف محمد الطريق إلى بيت الشيخ صديق، وبالذات إلى سطح البيت وكان مستحيلاً أن يكف عن التردد عليه. كان كلما سمع الشيخ صديق يؤذن أو يحيي مولداً أو ليلة يترك ما في يده ويتجه إلى البيت وبقفزة واحدة كان يصبح على سطحه، ودائماً وهذا هو الأغرب كان يجد الشیخة صابحة هناك بنفس طرحتها البيضاء وكأنها وصوت زوجها على ميعاد.

وفي تلك الأيام بالذات كان الشيخ صديق في أسعد حالاته، فقد كفت زوجته تماماً عن مناقشته الحساب وتذكيره بالفأس والأرض

واكتفت بإلقاء نصائحها لابنها جاد الذي بدأ هو يخرج الفأس من مكنها ويسرح بها الغيط، بل الأكثر من هذا أنه بدأ يلاحظ أن زوجته قد أصبحت شبيخة بحق وحقيق كما يناديها الناس، ففي صلاتها إخلاص حقيقي، وفي دعواتها إلى الله أن يغفر لها ما تقدم من ذنوبها وما تأخر تبتهل بصوت خارج من أعماق نفسها، ولم تعد أبداً في حاجة إلى أن يذكرها بالنوافل أو توزيع الحسنات.

وهكذا ترك لنفسه العنان وارتفع آخر حاجز كان يحول بينه وبين التفرغ كلية للتبتل والوصول، واستبدل السبحة المائة التي كان يسبح بها بسبحة ذات ألف حبة، وعدية يس كان يقرأها كل ليلة وفي كل مساء أيضاً لأبد من ذكر. وكلما تطور الشيخ صديق في وصوله وانغماسه واندماجه وتفرغه، كان محمد هو الآخر يتطور ويتهور حتى إنه كان يذهب إلى سطح البيت مرتين في الليلة أحياناً أو حتى في النهار. بل تطور الأمر بمحمد إلى الحد الذي جاء عليه وقت أصبح مجرد سماعه لصوت الشيخ صديق وهو يؤذن أو وهو يضرع مستغيثاً في مولد يجعله يحس بذلك الشيء في جسده يدق وينتشر الدم الفائز يعمي عينيه.

ولكن التعود كالزمن يقتل الأشياء، وبالتعود لم يعد محمد شديد الحماس لترك ما في يده كلما سمع صوت الشيخ مناجياً أو مستغيثاً بعيداً عن الدار ويقفز إلى سطح أم جاد، بل ربما نوبات قلة الحماس تلك التي أصبحت كثيراً ما تتأبه، هي التي بدأت تحل

عقدة لسانه وجعلته مستعداً لفتح مكنون قلبه ومكنون سره - ربما سره الأوحى - لأصدقائه، ثم لمعارفه، ثم بناء على طلب السامعين حتى أصبحت القصة كلها كمصير أي سر معروفة مشهورة لا تضر أحداً أو تجرح أحداً، مثلها مثل أي كلام، كل الفرق أن محمد في نهاية حكايته كان صوته يتهدج ويمتلئ بالتأثر إلى حد يوشك أن يستحيل معه إلى بكاء وهو يتساءل: ترى.. هل حقيقة سيدخل النار جزاء ما فعل؟

ومن ناحيتنا كثيراً ما تداولنا نحن الصغار القصة، وكنا حين نأتي إلى النقطة التي تهتم الصغار كثيراً، نقطة الجنة والنار ومن سيدخل ماذا؟ كنا نؤكد لبعضنا البعض ونجمع بكلمات عالية باترة أن اللذين سيدخلان النار حتماً هما محمد وأم جاد.. ولكن.. ربما هذا الاجماع الغريب هو الذي كان يجعلني أفكر في الأمر بيني وبين نفسي أكثر، وأكاد أضحك على هاتف ساخر عرييد كالبلياتشو يتصب أمامي فجأة ويؤكد لي ويقسم أن الشيخ صديق هو داخل النار حتماً، ومن أوسع الأبواب.

العُصفور والسُّلك

اختار أعلى بقعة وحط* . كانت سلكاً . مكاناً بين عمودين من سلك تليفون . مخالبه تشبث برفق . هبت الريح وصفير السلك . تمايل ، تشبث أكثر . هو لا يكف عن الحركة ، والحركة عنده مفاجئة ، فجأة تأتي ، فجأة تحدث ، فجأة تبلغ أقصى المدى . فجأة شقشق ، فجأة تلفت ، فجأة رفر ، فجأة صوصو . انتشى فجأة ، طار ، حام ، حوم ، حط ، تشبث ، تلفت . على مقربة لمح الأليفة ، رفر ، رفر . اقترب ، اقترب . صوصو ، شقشقت . حك المنقار بالمنقار ، حك . أمال رأسه ، أرقدت رأسها فوق رأسه . انتشى ، نط . بالقفزة أحب بالقفزة هبط . بالنشوة تبرز ، بصقة براز أبيض لونت السلك .

السلك صدى قديم غير سميك . يحمل في هذه اللحظة بالذات - وفي نفس الوقت - سبع مكالمات معاً . لا شيء في الظاهر يحدث ، في الداخل تدور عوالم وأكوان . . سلامات ، احتجاجات ،

(*) كتبت في مايو ١٩٧٠ ولم تنشر .

تحيات، صفقات، وداعات، استغاثات، أرض تباع، بلاد تباع، أصوات غلاظ، صوصوات رقيقات، تختلط الكلمات، تمازج، تتوحد، كلها في النهاية تصير - مادياً - الكثرونات. شحنات متجانسات، متشابهات، كلمة الحب لها نفس شحنة البغض، كهارب الصدق هي كهارب الكذب، الصراحة كالنفاق، اللوعة كاللعنة، الليل كالصبح كالنهار، الحرام كالحلال، النضال كالخيانة كالکفاح، البطولات كالنذالات. كلمات! شحنات! الكثرونات متحفزات متحركات! في ومضة بحركتها تتغير مصائر، تجهز مشاريع، تنتهي وتبدأ حيوات واتجاهات. ومضات وتتم موافقات، وتبرم صفقات، وتدبر مؤمرات، بالكلمات، بنفس الكلمات الطيبات.

والسلك قديم صدىء صامت داكن، لا ينم مظهره عن شيء مما في داخله يعتمل ويدور، ولا يبدو منه أو عليه أقل تغيير، مستمر في وجوده الظاهر الطويل الممتد.

والعصفور متشبث بالسلك، بمخالبه البريئة يمسك بهذا كله ويحتويه، في ملكوته الخاص يحيا، لا يدري حتى بأن السلك سلك، بله بأن ما يسري فيه يسري فيه. إن هو إلا مكان عال للوقوف. . وقوف كلما فرغ صبره منه فجأة يتقافز، يرفرف، يشقشق، يطير، يحوم، بالقفزة يزاول مع وليفته الحب، وبنفس القفزة يهبط، وبالنشوة يصوصو، وبالنشوة خالي البال يتبرز، بصقة براز صغيرة بيضاء على السلك، نفس السلك، كالزمن، كالصدأ تتراكم.

الرحلة

أنت وأنا ومن بعدنا طوفان* لا تخف! سنرحل حالاً، سنرحل إلى بعيد بعيد. إلى حيث لا ينالك أو ينالني أحد. إلى حيث نكون أحراراً تماماً نحيا بمطلق قوتنا وإرادتنا وبلا خوف. لا تخف! لقد اتخذت الاحتياطات كلها. لا تخف! كل شيء سيتم على ما يرام. أعرف أنك تفضل اللون الكحلي. ها هو البنطلون إذن. ها هي السترة. بالتأكيد ربطة العنق المحمرة فأنا أعرف طبعك.. لست بالغ الأناقة نعم ولكنك ترتدي دائماً ما يجب، ما يليق. سأساعدك في تصفيف شعرك. أنت لا تعرف أنني أحب شعرك. خفيف هو متناثر وكأنما صنع خصيصاً ليخفي صلعتك ولكنه أبيض كله سهل التمشيط. بيدي سأمشطه. بعدها وبالفرشاة نفسها أسوي شاربك. حتى هذا النوع من الشوارب أحبه. هكذا رأيتك مئات المرات تفعل، وهكذا أحببت كل ما تفعل. كل ما أصبح لك عادة، حتى كل ما يصدره كنزوة. أتعرف أنني فرحان فرحة لا حد لها. فرحة الإقدام

(*) هذه القصة بالذات كتبت في يونيو ١٩٧٠.

على أمر لن يعرفه سوانا . لست مريضاً هذه المرة وأستصحبك كالعادة إلى طبيب، ولسنا في طريقنا لزيارة أقارب مملين . فليظل الأمر إذن سرّاً بيني وبينك .

باب المصعد يغلق . . من أسفل يسحب . لا بد أن أحداً في القاع ينتظر . لا يهملك أرح جسدك . . اتكئ عليّ ولا يهملك . ما أكثر ما اتكأت عليك أنا، ما أكثر ما حملتني وأنا صاح ومدعي النوم، فقط كي تحملني، كي أحس أنني على كتفك أنت أستقر وأن ذراعك هي التي تحوطني وأنا أشعر بالأمان . . أحلى وأعذب وأمتع أمان . اتكئ ولا تخف، ولينظر لنا الداخولون إلى المصعد بريّة، وليظنوا بي أو بك الظنون . إنها أول مرة نراهم فيها وآخر مرة . البواب سهل أمره، بيدي وبالنصف ريال يا عم عبد الله افتح العربة . ها هو يجري ويسبقنا . ها هو يساعطني في اراحتك على المقعد . الآن استرح واجلس . ضع ساقاً فوق ساق كما يريحك دائماً أن تفعل . أشكو من ضيق عربيّ الصغيرة ومن طول ساقيك، فلکم أحب دائماً أن أبتسم لك وأسمع . المارش والفيتس والأول . . العربة تنطلق . الثاني . . غادرنا الشارع . الثالث . . نلف حول الميدان . وحدنا أنت وأنا والعربة تستقيم وتنطلق . لقد نجحنا! بضربة حظ جبارة نجحنا! والعربة ها هي بنا أخيراً، ووجدنا، تنطلق .

تعرف أنها ليست المرة الأولى التي أجلستك في عربيّ وأسوق أنا، ليست الأولى التي ننفرّد فيها معاً، ولكنك لا تعرف أنني هذه المرة أحس بحق أنني لأول مرة ربما أكون معك . . بكل كياني معك،

ولك، بكل كيائك لي ومعى . الآن لا شريك لك فى ولا شريك لي
فيك . أنت لي تماماً كما أنا لك . والأجمل أنا - تصور - سنظل هكذا
إلى الأبد .

الشوارع مزدحمة، الناس محيط، العربية جزيرتنا، العيون
تنصب كزواحف ديناصورية رهيبه تقتحم الجزيرة، تملؤها، تغرقنا،
تلتهمنا . يا سيدة، يا عانس، انظري أمامك . ألم تري أبداً شاباً
يسوق بجواره رجل يرتدي بدلة كحلية ورباط عنق محمر . أعجوبة
هي . أظاهرة؟

يا خسارة! الإشارة أغلقت، النور أحمر، الحمرة طالت،
امتدت، أصبحت زمناً . الزمن يحمر ويتوهج، الزمن يحترق، اشم
رائحته . . رائحة جلد آدمي يحترق . . جلدي أنا . الأصفر يومض،
الحريق يلتهم . الأخضر، السهم المنطلق الأخضر، النور المخضر
يمتد يصبح مساحات . . زرعاً ونباتاً وأشجاراً . النور يحيا، يتجسد،
يزهر . الأصفر، اللا أحمر، الأصفر قمح، القمح يتماوج، الموج
يعلو، قمم الأشجار تتمايل، رأسك أيضاً يتمايل . أنت موافق اذن؟
أنا سعيد . أحسب أنك تهورت الآن مثلي أو أنا تعقلت مثلك .
صغرت أنت أم كبرت أنا لا أعرف، ما أعرفه أن كل ما أردته فيك
وأردت أن أكونه، هأنذا الآن فيه . كل ما كرهته لم أعد أكرهه . كل
ما كان يعجبك فيّ قد أصبح بمعجزة يعجبك، تريد أن أكون أنت،
وأريد أن تكون أنا، تطابقنا وها نحن نطير، وبالعربة وبك أطيّر،
الأمس الأرض وأطيّر، أثلوى جذلاً وأسوق . أنت لا تعرف كيف

تسوق، أنت من جيل القطار. . القطار الذي لا خيار فيه، لا تختار إلا عبوديتك، أنا من جيل العربة، الحرية عربة، الرأي عربة، وحدك تحدد متى وأين، وحدك تعدل، تمضي، تلف، تدور، النهاية في يدك لحظة تريد.

- قف. .

لا بد أن نقف؟ نحن في طريقنا إلى خارج المدينة، وهنا تفتيش. نعم يا سيدي، البطاقات. هذه بطاقتي، وهذه رخصة قيادتي. من هذا؟ أين بطاقتي؟ أنا بطاقتي. ألا ترى أنفي من أنفه؟ حواجبي لها استدارة حواجه؟ عرقي حتى له طعم عرقه؟ شكراً يا سيدي العسكري، شكراً! جميل شاربك والله العظيم جميل.

لننطلق! وقد أصبحت بطاقتك. أحبك وأنا مسئول عنك، نفس حبي لك وأنت في طريقك إلى النوم، وأنت في طريقك إلى اليقظة، أحبك عائداً من العمل، متعباً، نخلع عنك الحذاء والجورب، ونضمخ أنوفنا الصغيرة برائحة أقدامك، ونفصل أصابعك الملتصقة تعباً ووقوفاً عن بعضها البعض، وأتولى أنا توزيعها على اخوتي وأختص نفسي بالأصبع الأكبر.

ولكن ألد من الذكرى الحاضر، وألد من الحاضر أننا كالسهم ننطلق. طبعاً أنت لا تريد أن تعرف إلى أين، متعتك الكبرى مثل متعتي أن تفاجأ. انك لا تعرف. . المعرفة قيد، طبعاً في رأيك المعرفة قيد، المعرفة وصول، وأنت وأنا لا نريد أن نصل. أنا

شخصياً باستمرار أريد أن أبدأ، حتى نهايتي أريدها بداية، فأنا لا أحب النهاية. . النهاية سخف وضيق أفق. ما أروع أن نبدأ دائماً، وأن نبدأ بأن نبدأ، وأن تكون البداية بداية لبداية أجد وأمتع.

رجل بوليس آخر يقترب. كشك. أنا لا أخاف شيئاً ما دمت معي. أنت الوحيد في الدنيا الذي كنت أخافه. . كنت دائماً هناك في بيتنا تربطني، تشدني أني أذهب، ألف وأعود وكأن لي في بيتنا جذر. . الآن جذري معي. أنا النبات الذي تحرر وانطلق. رجل البوليس يشير، بيده كالسيمافور الأبيض والأسود تشير. لم أضق قبلاً برجال البوليس مثل أن أضيق بهم الآن. لماذا هم كثيرون؟ لماذا دائماً يقطعون الطريق؟ أفندم! الرقم والرخصة والبطاقة. أفندم! لماذا تمد أنفك في العربة وتشتم؟ وتبلغ بك الجراءة أن تسأل؟ لماذا يا سيدي لا أشم رائحة، لا رائحة هناك. أين هي الرائحة؟ وداعاً يا سيدي يا ذي الأنف الطويل وداعاً.

بالطبع هو لا يفهم. . كيف يسمي رائحتك رائحة. . هو لا يعرفها، لا يدرك انتماءها اليه مثلما أدرك وأحس أنا. تطابقنا تماماً أيها العزيز حتى أصبحت رائحتك نفسها هي رائحتي.

الآن أنا في حاجة إلى سيجارة. ألا تلاحظ أننا لا نختلف وأنت لأول مرة توافق أن أدخن أمامك؟ لماذا كنا نختلف؟ لماذا كنت تصر وتلح أن أتنازل عن رأيي وأقبل رأيك؟ لماذا كنت دائماً أتمرد؟ لماذا كرهتك في أحيان؟ لماذا تمنيت في لحظات أن تموت لأتحرر؟

مستحيل أن أكون نفس شخصي الآن الذي يدرك أنه حر الحرية الكاملة بوجودك معه، إلى جواره، موافقاً على كل ما يفعل.

املاً يا فتى خزان البنزين إلى آخره، وضع زيتاً أيضاً وافحص الاطارات. أجل، نحن على سفر. . سفر طويل لسو علمت كم يطول. هذه هي النقود. . خذ. رائحة؟ رائحة البنزين على ما أعتقد؟ ماذا تقول؟ ميت؟ فلتمت أنت! اخل الطريق يا وغد، ولا أراني الله وجهك.

تصور: السافل يظن أن معنا ميتاً في حين ليس معي سواك، أمؤامرة هي بين رجل البوليس وعامل البنزين، مؤامرة طولها مائة كيلومتر؟

لقد خدعناهم جميعاً. . أليس كذلك؟ ما أجمل أحياناً أن ينخدع بكلامنا الآخرون!

هذه المدينة فقدت العقل. أنى نذهب يفتح الناس أفواههم خلفنا دهشة، ويمدون عيونهم إلى آخر المدى يبصرون. قبل أن نصلهم أنوفهم تستنشق الهواء البعيد وتتشمم. بعد أن يغادرهم يسرعون خلفنا يصرخون. . الجنة! تصورا! يريدونك أنت الحي جثة

يدفنونها. مستحيل، يقتلونني قبل أن يأخذوك، ففي أخذك موتي،
في اختفائك نهايتي، وأنا أكره النهاية كما تعلم.. أكرهها أكرهها.

المدينة التالية هجرها سكانها قبل أن نصل، لابد أن الرائحة
كما يزعمون وصلتهم قبل أن نصل. جميل هذا جميل. يكفي أن
تكون معي ليكون العالم كله معي، يكفي هذا وليهجر المدن
سكانها، ولتحترق القرى والنجوع، يكفي أنك معي. أنت أنا..
أنت تاريخي وأنا مجرد حاضرك.. والمستقبل كله لنا. مستحيل أن
أدعهم يأخذونك، يميئونك، يقتلونك.

يبدو أن هناك خطأ ما، فأنا في الحقيقة بدأت أشم الرائحة.
لا، ليست رائحة حذائك وجوربك فلقد خلعتكما وألقيت بهما من
النافذة. إنها أقوى من رائحة الربيع والزهر ومساء الصيف. أقوى
منك، ومني، ربما أقوى من أي كائن حي.

عفوك! ولكني لم أعد أستطيع.. الرائحة تخترق خياشيمي،
وتتلوى مع تلافيف أنفي وعقلي وتكتم أنفاسي. والمرعب أنك أيها
العزيز الغالي مصدرها. الناس من حولنا يهربون، كل الكائنات
الحية، حتى الذباب، تهرب، من حولنا تهرب. أنا نفسي لم أعد
أستطيع.

لابد - حتى لو كنت أكرهها وتكرهها أنت - من النهاية . ولا بد من أن أختارها أنا . صحيح لا قلب لي ، لا عقل ، لا ارادة ، ولكن الرائحة أبشع من الموت . أموت ولا أشمها . وإذا شممتها أموت ، أنفاسي تختنق ، الروح بلغت الحلقوم . لم يعد هناك مناص ، إما حياتي أو موتك . لم يعد هناك مناص ، لابد أن تنتهي أنت لأبدأ أنا .

ولقد تركتك . . عامداً في الطريق تركتك . . في العربة نفسها تركتك وتركته لك قبراً ولحداً . وهأنذا أكملها وحدي ، وعلى قدمي أسير ، حزين للفراق تماماً . ولكن ، وهذا هو المؤلم سعيد بالخلاص منك ، سعيد أنني تركتك وتركك العربة لك . سعيد أنني حتى على أقدامي أسير ، وأستنشق الهواء ، الهواء النقي الذي ليس فيه أبداً تلك الرائحة الملعونة الغالية . . رائحتك .

حَلَاوَةُ الرُّوح (*)

في لحظة واحدة كثر الماء، أصبح أكثر وأكثر. الشاطئ
قريب.. أمتار. الشماسي ملونة مبعثرة، منارات مبعثرة تحتها
الأجساد مرصوفة بلا نظام.

أنا في طريقي إلى الشاطئ بعد حمام منعش.. الشاطئ
والاسترخاء والأمان. السجارة بعد الحمام.. الأحلام. الماء يكثر
أكثر، فلاخذ إلى الشاطئ الطريق الأقصر، ولكن الماء يظل يكثر.
صدري يختفي رويداً رويداً ورثاي بدأنا تحسان بضغط الماء. التيار
السلفي أشعر به الآن أوضح.. الماء الجاري بخبث تحت الماء..
الماء بريء الهدوء من فوق والتيار يجذب من أسفل. اللعبة مسلية أنا
أجذب والتيار يجذب، وأنا مطمئن فأنا قاب قوسين من الشاطئ
والمنطقة بالتأكيد ضحلة. يجذب وأجذب، يسحب فأشد، يشد
فأسحب، أقدامي تتعثر، التيار يقاوم وإلى الخلف يجذب، أقاوم
وأتقدم. كل شيء هادئ على سطح الماء، والجذب لا يرى

(*) كتبت في شتاء ١٩٧٠.

فالمعركة اللعبة تدور من أسفل. قبلت اللعبة يا بحر. اجذب من أسفل وسأبقى صامداً من أعلى. «شكّل» فأنت تعبت وسوف أرد عبثك بعبث.. عبثاً بعبث يا بحر اعبث، العب! الدنيا أمان والشاطئ قريب، العب! أنت تغالي في اللعبة يا بحر فمأوك يكثر ويضغط وصدري رغم استماتتي يغوص أكثر وأكثر، والماء يقوى على الدوام أكثر. حذار أن تقلبها جداً فأنا أعبث، أو أقلبها إن كنت قادراً فأنا أقدر، وحتماً سأقدر. لا تفرقني يا بحر أرجوك فأنا الغريق وما عاد يخيفني بللك.. الدنيا غريقة يا بحر فهل أنت أغرق؟ أنا الأعرف، أنا الانسان يا بحر، أنا البحر الأكبر، أنا بحرك.

التيار يجذب، الماء يكثر، اللعبة تسخن. الموج يقبل، يهدر، يعلو، يكتسح، ثم يرق ويتبدد. أنا أثارجح، هات أمواجك نفسها يا بحر واجذب، وادفع، هاتها وادفع، فشاطئي ها هنا قريب وأنا أشطر. ادويا بحر وغن! ارغ وازبدا العب لعبتك العجوز اليتيمة وقلص مياهك وتمددا انتشر وتجمع! ارض واغضب! تقدم حتى تتقهقر. والآن كفى! اتركني فأنا أريد الشاطئ.. أريد أن أرجع.

ولكن الماء لا يريد.. ضغطه يتزايد ويشدد، السحب من أسفل يتعاضم حتى يشل خطوي، الماء الشفاف الواهن المتناهي الضعف.. الماء الذي استأنسناه طويلاً وغليناه وشربناه وبصقناه ومن فرط إفتنا له نسيناه، الآن وهو ملايين ملايين من البصقات والقبصات والأكواب ها هو يحاول أن يرينا عينه الحمراء. على الصدر يضغط، بقوة يسحب. الماء وصل إلى رقبتني، لم أعد أتقدم تجاه الشاطئ

خطوة، بل هو التراجع بدأ والجذب السفلي يشتد ويقوى. اللعبة
سخفت قليلاً.. العبث طال عليه صبري.

فلتوقف اللعبة!

واستدعيت إلى الوجود قوتي الأقوى، بدأت تغوص رقبتني.

واستدعيت القوة الأكبر، الشماسي صغرت.

فلاستدع القوة الأعظم، الشاطئء أصبح مجرد خط.

إني أشم رائحة الغدر، أفينا الخيانة يا بحر! أتغدر؟

أرجوك! ليس منك.. أنت يا بطلي العنيف العريبد الرقيق
الشاعر الصاخب الأحمق الأهوج المغتر المقطر عذوبة الجالس على
عرش الجلال. وليس لي.. فليس في نفسي موضع لغدر جديد. أنا
معك ها هنا وحدي، نحن وحيدان معاً، أنت بلا نهائيتك وأنا
بمحدوديتي. لا تخن لا تغدرا!

رفعت ذراعي.

الرابعة تماماً.

تشاءمت.

من النادر أن ترى ساعتك فجأة فتجد أنها أمامك، حتى لو
كانت الرابعة.

وصل الماء إلى ذقني .
 أنا في بئر مائي لا شك .
 الشاطئ يبتعد أفقياً ورأسياً إلى أعلى وإلى أبعد ، لم يعد ثمة
 بحر .

ماء . . فقط ماء ! كم هائل الحجم والضخامة من الماء الذي لا
 شاطئ له ولا حافة ولا حد . النمل حين يصنع بمجموعه جبلاً
 هائلات من النمل . الصرخة الواحدة حين ترددها مئات آلاف
 الملايين من الحناجر فيهتز الكون .

التيار السفلي نما حتى وصل إلى السطح ولم يعد للماء من
 فوق براءة .
 كشر عن أنيابه تماماً .
 الجذب . تاماً وكاملاً .
 إذا قاومته غصت أكثر .
 إذا سكت ابتلعني أسرع .

الشاطئ أصبح أبعد من السماء . . مجرد سراب سماوي غير
 كائن . وبكف في حجم الصخرة لطمت رأسي موجة ، رأسي البارز
 في حجم عقلة أصبع ، وعلى أثرها لطمة .
 ثم دفعة .
 ثم جذب لا يقاوم .

وانسحقت .

الماء طغى وتجبر، الماء أصبح له صوت، الماء رعد، الرعد
أصم، الرعد أخرس، أعمى .
هذا ماء غريب من كون آخر، بحر لا أعرفه أبداً .
هذا عدو .
دوامة العدو تبدأ .

الدوامة كفم حوت فاغر الفم، أنا في قلبها حشرة .
الدوامة تدور .

كل الدوائر إلى أعلى، دائرتها إلى أسفل . أعلاك يا بحر
أسفل، قمتك قاعك . . أنا في الطريق اذن لقاعك القمة .
يا لثيم ! لقد غدرت وانتهى الأمر .

البرق يخيفنا وهو في سماه بعيد وبيننا وبينه ما بين الأرض
والسما . القيامة تروعننا حتى في الأساطير .
أنا في قلب الظاهرة الكونية نفسها . البحر استحال إلى تمرد
كوني، تمرد موجه لي وحدي، أنا وحدي أواجه يوم القيامة .

ولكنني لم أفقد الأمل بعد .

أنا وحيد ولكنني أقوى . . أعتى . أستطيع أنا الآخر أن أتجبر ،
جسدي هذا فيه ماردي أنا ، فيه القوة الأقوى ، فيه مدخر الحياة كلها
من الطاقة .

والحياة أقوى .

ان الحياة لأقوى .

المستحمون حولي كثيرون ، حتى وأنا مخضوض ألمحهم .
أقربهم إليّ سيدة ، ترمق بإعجاب ما تخيلته من جرأتي على خوض
المياه الأعمق .

صخرة مائية أخرى تنهار فوق رأسي . . أغوص أكثر ، الماء
فوق أنفي . صخرة أخرى تنهار ، الجبل كله بدأ ينهار ، العالم المائي
حولني كله ينهار ويتفجر . والمرعب في براكينه وانفجاراته وجباله أنها
مائية ، مائية لكنها أعتى من الصخر . . الصخر أرحم .

لاني أغطس .

أغوص وأغطس .

رأسي أصبح تحت الماء .

بجنوني كله أقاوم لأعلو كي أتنفس .
 يصعد رأسي ليواجه بجبل موجي قادم .
 أريد أن أتنفس .
 أتنفس .

ماء . . ماء أتنفس . أحس بطعمه القابض يملأ جوفي وينفخ
 بطني ، الجذب يشتد إلى أعمق وأعمق ، إلى أعمق وأعمق وأعمق .
 أنا حقيقة أغرق .

ضربت الماء بأقوى ذراعين كانتا لي . بأقوى ساقين وفخذين
 حشدت القوة كلها .
 طفوت .

السيدة القريبة ترمقني بإعجاب ، ابتسامتها بلهاء . يا سيدتي
 إني أغرق ، إني أموت وأغرق ، إن كل ما فيّ يستنجد بأي شيء
 فيك . أمددي يدك وسأمدد يدي وفي لقاء اليدين نجاتي . إني أغرق ،
 إني فقط خجل أن أصرخ ، سأموت شهيد خجلي يا سيدتي فامددي
 يدك لأنجو .

مستحيل ! بإرادتي أنا لا بد أن أنجو .

غصت .

حين حاولت أن أطفو وجدت الغابة . . غابة امتلأت بوحوش
 مائية مصنوعة من ماء ، الرعب منها يجمد القلب . وحوش تزار ،

وحوش تنهش، وحوش خرافية هائلة الضخامة بأقدامها الأسطورية تطأ وتضغط. ضاق الخناق، جذبت نفساً عميقاً لأتنفس.. حتى وأنا أعلم أنه ماء جذبت نفساً لأتنفس. امتلأ رأسي بالهدير، اختفت الألوان والكتل والأحجام، صار كل شيء هلاماً ضبابياً رمادياً متغامقاً مؤدي حتماً إلى السواد الكامل. أنا مرعوب رعباً يحدث لي لأول مرة، رعب من نوع آخر، رعب لا يحدث في العمر إلا مرة، ولا يحدث إلا وفي أعقابه موت.. عزرائيل هو ذلك الرعب.

طفوت.

من فرحتي لم أتنفس.

غصت.

من رعبي تنفست ماء.. ماء أكثر. الوحش البحري يريد أن يحولني ماء، يهضمني، يتمثلني، يقتلني حياً، ويحييني ماء. بلورة ذاتي المركزة تتخفف. أنا أذوب في الماء، والماء يخترق مسامي ويدوب جسدي.. بإجرام وإصرار سادر في تذويبي. ارادتي تتميع، تتراخي، طعم البحر يتغير، يمسخ، حماسي لها يفتر ويصبح ما له طعم ماء البحر المالح.

تخدر الزمن وتوقف.. سألت نفسي: لماذا التحدي؟ لماذا لا أستسلم وأموت؟

ليس الموت هو التجربة التي ندخرها لتكون آخر تجاربنا.
لماذا لا تكون الآن؟

لقد عشت كثيراً، ودهشت كثيراً، وأحببت كثيراً، وضحكت
قليلاً، وبكيت كثيراً وكثيراً، وما تبقى من حياتي لن يكون سوى تكرار
ممل، وما لم أفعله قط أني لم أمت فلماذا لا أموت؟
انطلق من جوفي الرعب الأعظم.

العقل توقف، طار شعاعاً.

الارادة غير الواعية قفزت، تفجرت، تعاظمت، أصبحت
وحشاً. من داخلي غابة بدائية انطلقت، مليئة بوحوش شديدة الفتك.

العناد البدائي الغاني تماماً.

وحدي أنتصر، بقوتي أعيش.. سأعيش.

غصت.

معركة الوحوش مع الوحوش، الغابات مع الغابات، يوم قيامة
البحر مع يوم قيامتي أنا، الانسان مع القوة الغاشمة.

رغم إرادتي طفوت لثاني مرة.

السيدة قريبة لا تزال ولكني لن أستنجد. أبدأ لن أصرخ، حتى
ولولم يبق على الموت إلا طفوة أخيرة واحدة.

غصت.

الماء الماء! الماء يمور ويدور وأدور به وفيه . . لا شيء ثابت!
القبضة تستमित على اللاشيء. الرمادي يزرق، والزرقة تغمق. ومن
الأفق يطل الرهيب الأسود.

الفقايع حولي تتكاثر! غربان المأساة، ضياع الجثث الغرقى.
جسدي تفتحت بواباته، الماء يدخل، الحياة تخرج، الطعام يتقارب،
اللون يتمثل، المعالم أفقدها، أتكور، قطرة ماء كبيرة أصبح، ماء
ملون بالحياة، معلق في كون مائي. أرضي ماء، سمائي ماء، هوائي
ماء. ماء ألمس، ماء أرى، ماء أسمع، حواسي كلها ماء، عيوني
بالذات ماء. أستنجد بالارادة، إرادتي ماء. أستغيث بالوعي، الوعي
ماء. لا مستيقظ أنا ولا أنا نائم وأحلم، الزمن كله ماء أصبح.
ذبالة وعي أخير قبل الظلام التام. . هذه آخر مرة إذن أعي فيها
بالموت القادم.

حين كنت أغادر المياه بأسرع ما أستطيعه، والبحر ينحسر تماماً
حتى يسلمني إلى الرمال، لم أنتبه إلا وقدماي بعد أول خطوة تتوقفان
أمام الاحساس المروع الجديد. . إنهما ثابتتان فوق أرض ثابتة.
الاحساس الحبيب بالثبات! إنها الأرض من جديد. . إنها الثبات
الأم.

لا أذكر شيئاً.

وكأن أول ما فعله العقل حين عاد أن محا الحادث تماماً من
الذاكرة.

ولكن رغم الضباب فهناك ثبات آخر أكاد أذكره .
إنه يبرق في الذاكرة الواهنة المُلغاة .

ثبات بالقطع أحسنه الأصابع . . أصابعي ، وهي تنقبض في
تشنج قاتل أخير حول أصبعين طريتين نحيلتين مترددتين . . أصبعي
سيدة .

ثبات من نوع آخر . . قبله أو بعده أو على أثره أو لم تحدث
إطلاقاً أصداء صرخة . . صرخة أعرفها تماماً . . صرختي أنا وإن لم
تعد تصدر عني أبداً . بالتأكيد لم أصرخ ، أم أكون رغم أعتى
الارادات صرخت؟

وقفت إلى بعيد داخل الرمل لا أجسر أن أرمق البحر .
أوليه ظهري .
أبقايا رعب؟
أم هو الخجل؟

٩٩

أني هزمت وحدي .
وأن نصري جاء باستماتة الأصابع على الأصابع .

نظرت في الساعة .
كانت الرابعة ودقيقة .

بيت من لحم

٩٥

الخِدعة(*)

لابد لكل مرة من أول مرة . وأول مرة كانت ليلاً وهناك قمر ينشر سلاماً فضياً، والنبع صاف يتدفق ماؤه على مهل وبخير حنون، ولا تملك حين ترى الماء وقد ذاب فيه القمر ذوباناً طازجاً يحدث أمامك، وفي الحال، إلا أن تظماً وتحاول أن تشرب أو على الأقل تتذوق، وملت بجسدي كله، ومددت يدي وما كادت القطرات المتلاثة الباردة تصل إلى فمي، ما كدت أستمتع بلذة التذوق الأول حتى رأيت، بجوار صورتي المهتزة اهتزاز درجات الأبيض والأسود فيها واهتزاز القمر، صورة رأس آخر . رأس طويل ممتد إلى الأمام وكأنما امتدت يد جذبت ملامحه كلها بعنف إلى خارج وجهه، رأس طويل ينتهي بشق عرضي واسع سعة لا حد لها، وكأنما لا يكفي هذا فأيضاً شق بالطول . رأس جمل لابد، بلا صوت، بلا ضجة، بلا حركة . . فجأة كان الرأس . لم أذعر ولا صرخت، فقط التفت لا شيء إلا لأتأكد . كان قد ذهب القمر واختفى النبع والخرير ولا

(*) كتبت في إبريل ١٩٦٩ وكانت أول قصة نشرت بعد التحاق الكاتب بالأهرام .

فضة. كنت وحدي وأمامي غير بعيد عني ذلك الرأس يطل عليّ من فوق، لا أرى له جسداً وإنما فقط رقبة غليظة طويلة مقوسة، حادة من أسفل كأنها مخرطة. . . رقبة تنتهي من أمام برأس. . . ذلك الرأس، ولا جسد، والأغرب أنني لا أعجب ولا أتساءل كيف يمكن لرقبة أن تنبع من لا جسد، فهمي كله كان ذلك الرأس المطل عليّ من أعلى، فهو حتى لم يكن يطل عليّ وكأنه لا يري أو لست هناك بالمرة، وخوفي كان أن يراني فجأة فينقض ويعض. ولكن أبداً! لا غضب في عينيه، لا انفعال، لا شيء، إنما عينان كبيرتان مستقرتان على الأمام، ولا شيء أمام.

وكأنما رداً على تساؤلاتي وظنوني التي تنشأ وتدور بلا حماس، في ركن المنظر الأيمن وفي برواز صغير مربع وكما يحدث في برامج التلفزيون وعلى شاشته، حدث بدأ يدور، غامضاً كتمثيلات الكهنة في حجرات المعابد الخلفية، كالتشخيص الصامت الذي يعيد به القسس العشاء الأخير وصلب المسيح، رأيت ذلك الجمل مسحوباً وساحبه صاحبه، وعلى وقع متشد وكأنما كل خطوة حدث وتاريخ يمضيان. ثم بلا مقدمات، بلا معركة، بلا فاعل أو طلقة أو سلاح، بلا شيء على الإطلاق يسقط الرجل ذو الجلباب الأبيض والعمامة. سقط الصاحب، سقط قتيلاً فحول رأسه المطروح فوق الأرض ورغم ظلام المشهد كانت بركة دم. وأيضاً لا انطلق الجمل هارباً ولا جمعجع ولا نار أو «ضرب بالقلّة». ظل واقفاً وقد تدلى مقوده في الهواء ينظر من عل أيضاً إلى الأمام، نظرة مليئة بكل

شيء إلى درجة اللاشيء، ثابتة مستمرة وكأنما كانت أبداً وستظل تكون.

ورغم تأكدي أنني لا أحلم وأن ما حدث رأيته، قلت: حلم يقظة، رؤيا، تخريف.. أبداً لن تعود.

وفي الصباح - أي صباح - فلا زمن، كنت أستحم تحت الدش حولي ستارة تمنع تسرب الرذاذ، مستمتعاً إلى أقصى حد بأني داخل الحمام الخالي، وداخل الستارة النيلونية المزركشة مع نفسي تماماً. وإذا بشيء يداعب الستارة النيلونية المزركشة ثم يزيحها، وتظهر الشفتان الضخمتان أو بالأحرى الثلاث شفاه، منفرجة ومفتوحة وكأنما تنوي ابتلاع كل شيء، بينها تبدو الأسنان كبيرة مطبقة محكمة وكأنما تخاف إذا فتحت أن تفلت شيئاً أي شيء.

ثم أصبح الرأس كله معي داخل الستارة، تحت الدش. دهشت قليلاً ولكنني واصلت الاستحمام، ورحت من خلال أسلاك الماء الرفيعة أتطلع ملياً إلى العينين لعلي ألمح شيئاً، لعلي أعرف لماذا أطل وماذا يريد، لعلي أدرك للحظة أنه يراني حتى، ولكن أبداً! كان يطل من عل، وأيضاً إلى أمام.

فتحت الجريدة أقرأها، ولم أدهش حين شعرت بحركة، ولا حين اهتزت السطور ثم تباعدت، وبلا صوت تمزيق اخترق الرأس الجريدة، وأصبحت لا أرى سوى شفاهه الثلاث، بشع منظرها قريبة جداً من وجهي. فتحات أنفه الواسعة أراها بكل شعرة داخلها،

والأسنان كبيرة منظمة منطبقة ليس بينها فرجة . .

ركبت الأتوبيس والازدحام واصل حد الاختناق، ولا هم لكل منا إلا المحافظة على كيانه. وفجأة وجدت الرأس الصامت الصائم عن الحركة يطل، كان مشهده كفيلاً بإثارة الذعر أو على الأقل التطلع. ولكن الغريب أن النادر من الركاب هو الذي انتبه، وحتى لم يطل انتباهه، إنما هي نظرة ألقاها كأنما تعود أن يلقيها ثم عاد إلى معركة المحافظة على ذاته. . الأغلب الأعم لم يحفل حتى بمجرد الانتباه.

وفي المساء داخل غرفة النوم المغلقة، ولا شيء هناك سوى الحب والرغبة، إذا بي أكتشف أن شيئاً يتسلل بغلظة بيننا، بلا عنف وبلا حياء وربما بلا وعي بما يدور ولكنه أصبح في النهاية بيننا. ولم تحتمل هي، بكل عنف وغضب واستنكار أزاحت جانباً فانزاح، ولكنه بتؤدة وبصبر وبإصرار عاد يتسلل بين صدرينا وبطريقة بدا معها أن لا فائدة من إزاحته.

ورغم أنني لم أكن مندهشاً أو غاضباً بشدة أو مستنكراً، إلا أن شعوراً ما بدأت أحسه، شعوراً لا أجد له وصفاً، فالقدماء ربما لم يعرفوه ولم يكتشفوا له اسماً، لكنه أصبح موجوداً وملحاً. وهكذا أخبرت زملائي في المكتب وأصدقائي، وواحداً منهم فقط هو الذي أبى أن يصدق أما الباقون جميعاً فقد ضحكوا وظلوا يشيرون حيالي ويضحكون وكأنني - أخيراً - رويت نكتة قديمة. كان واضحاً أنهم من

زمن يعانون نفس الشعور، وأن رأس الجمل يظهر لهم في كل مكان وفي أي ساعة. ولكن السؤال أهو نفس الرأس يظهر للجميع؟ أم أن لكل منا رأس جملة الخاص، كما يقولون في الأساطير أن لكل منا أخته تحت الأرض أو فوقها، أو ككتابه يوم القيامة الذي يعلق في عنقه؟

تشعبت المناقشات وامتدت، والغريب أن الجزء الأكبر منها كان في حضوره وقد أطل علينا من الباب المؤدي لمكتب المدير، أطل بنفس طريقته.. من فوق، أمامنا يحدق، صامت لا يتحرك، عيناه حافلتان بكل شيء إلى درجة اللاشيء، والمناقشات حامية صارخة أحياناً قد تؤوب إلى هدوء حين يتخذ أحدهم وضع العالم العارف، وبصوت خافت يتكلم ويحلل، بينما رأس الجمل يطل عليه من فوق. مناقشات كالزوابع الصغيرة أو الكبيرة لا تلبث أن تذوب في بحر ساكن تماماً كأن سطحه من زجاج.. بحر واسع لا حد له ولا شاطئ.

أنا شخصياً رغم أنه يظهر لي أحياناً أكثر من مرة، وفي آخر الأماكن توقعاً أن أراه، أحياناً أكاد أشك في عقلي وفي حواسي وأرفض أن أصدق ما أرى.. بل حتى ما يراه الآخرون معي. هناك خطأ ما لا بد! أثور وأرفض ما تشاء لي الثورة والرفض، ولكنها نوبات.. ليست سوى نوبات لا تلبث بهدوء أن تذوب بنفس التؤدة التي يظهر بها رأس الجمل. كل ما يحدث أنه لدى كل نوبة - خاصة إذا أدت بي إلى غيظ أو انفعال - تزداد بشدة مرات ظهوره بحيث أراه

كلما تلفت، أينما سرت، أينما ذهبت، من أمامي وورائي ويميني ويساري، بل - وهذا هو المرعب - أحياناً أراه داخلي أنا، موجوداً بتحديثته الأمامية التي لا تطرف داخل ذاتي الخاصة تماماً وأسراري، بل أحياناً أراه في طفولتي يطل على أمي وهي تضعني، أو ربما على أبي وهو يخلفني. أحياناً وأنا أرنو إلى المستقبل، ومن خلال أكوام المشاريع والخطط، بأذنيه الصغيرتين الغريبتين تزيجان الأكوام جانباً ليظهر الرأس ويعلو، ويبدأ يأخذ وضعه التقليدي.

ماذا أفعل؟

كلما سألت الناس قالوا افعل مثلما يفعل الناس. وأسأل ماذا يفعلون؟ فأجدهم لا يفعلون شيئاً بالمرة. أحياناً يحاول البعض لمسهم والتلميس عليه وهددهته، أحياناً يشور البعض ويغضب ويسبه، بعض آخر يركله وينطحه. ولكن رأس الجمل يبقى دائماً كما هو، ويبقى الناس كما هم، يبدو لهم بطريقة يعجبون لها أول الأمر، ثم يتحدثون فيها، ثم يملون الحديث، ولا يعود ذلك الوجود الغريب لرأس الجمل ظاهرة قابلة للتوقف أو حتى النظر. بل تتحول على يد الناس - وهم في هذا عباقرة - إلى ظاهرة مفيدة، مرة في الاعتذار عن تأخير، في تبرير اشتداد الحرارة في الصيف، في التبشير بحلول النعمة إذا حلت أو العثور على علامة للنقمة.

ويتم هذا كله دون أن يثير دهشة أحد أو استغرابه، أو حتى يفكر لحظة ويتأمل. وربما لهذا فرأس الجمل لا يكف عن الظهور ربما لو اندهشنا، فقط اندهشنا، كلنا اندهشنا كلما ظهر، لما ظهر.

ربما نحن مرضى . . كلنا مرضى قد أصبنا يوماً بمس في خيالنا ترك
 آثاره على هيئة رأس جمل، أو ربما الإصابة قضت فينا على مراكز
 الدهشة والعجب، أو ربما شيء آخر، ربما التطور . . أجل التطور قد
 وصل بنا إلى مرحلة الانسان الذي لابد أن يظهر له رأس الجمل،
 بحيث تكون الكارثة لا أن يظهر، وإنما أن نستيقظ ذات صباح فنجد
 لا يظهر. أي مصيبة ساعثٍ وأي ضياع! وماذا نفعل ونحن قد
 أصبحنا لا نحيا الحياة أو نزاولها لأننا لا نريدها وإنما لأنه يطل علينا
 كلما شرعنا في عمل الشيء أو مزاوله الانفعال؟ لولا إدراكنا أنه سيطل
 لما أقدمنا أبداً على شيء، ولولا إدراكي لوجوده ما كنت أبداً قد
 أقدمت على ما أقدم عليه الآن. فالآن وبلا ذرة دهشة أو غرابة ودون
 أن أرفع رأسي، متأكد أن رأس الجمل يطل عليّ، ذلك الرأس
 العالي الطويل، وكأنما مطت ملامحه كثيراً إلى أمام والشفاه الثلاث
 الكبيرة إلى حد الورم، والأسنان المتراسة، سنة كبيرة بجوار سنة
 كبيرة، منطبقة تماماً ولا فرجة بينها، إلى أمامه يتطلع ولا يتحرك، لا
 يغضب ولا يرضى، لا يحفز ولا يثبط، لا يفعل شيئاً أبداً إلا أن
 يطل، مجرد طل . .

سِنُو بَزْم (*)

حكاية الدكتور عويس حكاية . الأغرب أنه لم يحكها ولا يحكيها . ولا تزال لا تحتل من اهتمامه أي مكان بالمرة . حكاية هايفة في رأيه . فالموضوع المهم هو اللائحة . واللائحة هي «جنونة» الدكتور عويس هذا الموسم . فهو له في كل موسم أو كل شهر أحياناً «جنونة» .

صدفة رأيتُه يعبر ميدان التحرير بأقصى سرعة . كدت أضحك لمجرد أنه يجري ، فهو ليس وقوراً فقط ولكنه من النوع الذي يراعي الوقار حتى في غير حضرة الناس . وقار زائد مبالغ فيه وجدية خطيرة تكسو ملامحه ، حتى إنني كلما رأيتُه تساءلت كيف يستطيع التخلص من هذا كله وهو مع زوجته في الفراش ، أو الأدهى ، كيف يتصرف معها بكل هذا الوقار ؟

لم يرني . . أنا رأيتُه وصحت به . توقف ، تلفت ، تخرج ، مسح العرق ، أنا ذهلت . كان لأول مرة بلا نظارة - نظارته التاريخية التي لا

(*) كتبت في أوائل سبتمبر ١٩٧٠ .

يغيرها - بدأ وجهه كالعورة حين يخلع عنها السروال . سلامات وأنت
 فين وكيف حالك ولا مؤاخذه وعامل ايه ، وأنا أتطلع وأكتم شيئاً
 كبركان الضحك يدمدم في صدري . . لا لملامحه بغير نظارة فقط ،
 وإنما لعينه اليسرى وقد أزيلت تماماً ومعها جزء من الوجنة
 والحاجب . لم تزل وإنما ارتطمت بها كرة من «البلا» الأزرق سدت
 عينه ومحجرها واستقرت بارزة زرقاء نائمة كفانوس عربية نقل مطلى
 باللون الأزرق . كدمة ! كدمة لا بد سببتها «بونية» صويت بمهارة ومن
 بطل ملاكمة محترف من الوزن الثقيل على الأقل . المسألة فيها علقه
 إذن . انفجر البركان وضحكت بأعلى وأبشع ما ضحكت في حياتي .
 كان لا يزال يتحدث ولا أسمع ، سادر في الضحك أكاد أسقط فوق
 الرصيف . أخيراً لمحت فمه يغلق ، ويتلفت ، ثم يواجهني بعينه
 السليمة مليئة بحيرة طفولية حقيقية ربما يتساءل بها عما يضحكني ،
 أو ربما يحاول تشخيص حالة عقلية حادة أصابتنني وجعلتني أضحك
 بلا سبب معقول . وفقدت السيطرة على نفسي وانشيت واعتدلت
 أضحك وأضحك وأضحك . وربما تخلصاً من حيرته لما اعتراني بدأ
 يشاركني في الضحك بطريقة واضحة الافتعال . ثم لما لاحظ أنني
 كلما نظرت إلى وجهه الأيسر ضحكت فطن أخيراً فابتسم لشدة
 بلاهتي ربما وقال : آه . . عشان دي يعني ؟

وأشاح بيده كمن يطرد ذبابة غير مهمة ، وقال : يا أخي خيلنا
 في المهم . عارف حصل ايه الأسبوع اللي فات ؟ اكتشفت أن ثلاثة
 على الأقل من أعضاء هيئة التدريس يدبرون مؤامرة صغيرة ضد

مشروع اللائحة .

وبالقوة كتمت الضحك بيد وأشرت متسائلاً عن سبب تورم عينه وفقده نظارته بهذه الصورة . أشاح أيضاً بلا اهتمام قائلاً : أبدأ . . .
حادثة بسيطة من الأسبوع اللي فات . المهم أن المؤامرة ضد اللائحة
هذه بدأت من عشرة أشهر . تصورا عشرة أشهر .

أخيراً نطقت أنا :

- الأسبوع اللي فات امتي وازاي؟

- بقول لك من عشرة أشهر، اللائحة .

- أنا أقصد عينك .

- لا دي حكاية بسيطة لا تذكر . حادثة كده، ناس أوباش،

سنوبز . .

المسألة إذن فيها علقه أخذها الدكتور عويس . . وفكرة ضربه
علقة ليست غريبة، كثيراً ما خطرت لزملائه في الجامعة أو لبعض
تلاميذه أولي حتى شخصياً . ترى من سبقنا جميعاً ونفذها؟

أستاذ . . أي نعم أستاذ . رئيس قسم «الأثربولوجي» على عيننا
ورأسنا . التفكير في الضرب سببه الاحساس المبالغ فيه بهذا كله،
والمبالغ فيه كلمة متواضعة لا مبالغة فيها . البارانونيا أو جنون العظمة
ربما أصلح . . الاحساس بأنه مبعوث العناية الالهية ليس لإصلاح
الكون الفاسد وإنما ليعين وبواسطة حق سماوي مطلق ومن جهة

بيت من لحم

كونية عليا مصلحاً للكون الفاسد. الحرية تؤمن بها صحيح، ولكن ويلك إن استعملتها في مناقشة رأي له. الحرية هي حريته أن يقول الرأي، وحريتك أن تقتنع به. فإذا لم تفعل، إذا كان لديك رأي آخر فأنت من الأوباش الذين يسميهم الـ «سنوبز».

- تصور عشرة أشهر وأنا أكافح من أجل اللائحة.

- إذن هي السبب في الخناقة؟

ببراءة سألت وأنا أشير لعينه اليسرى البارزة كعين ضفدعة وحيدة العين.

أحسن لتساؤلي بنوع من التقزز. وفي عز الحر، وعلى رصيف مزدحم بالمارة يتخبطون بنا مضى يحكي لي في تدفق قصة كفاحه من أجل وضع لائحة تنظم سلوك الطلبة وهيئة التدريس في كليته، ربما تمهيداً لتطبيقها في الجامعة كلها ثم بواسطة هيئة الأمم في العالم أجمع. ولساعة ونصف ظللت أستمع، لكي أنتهز فرصة يلتقط فيها نفسه أو يحاول تذكر اسم وأسرع بتوجيه سؤال صغير أستفهم به كنه «العلاقة» التي نالها الدكتور عويس، وعن هذا المجهول الذي استطاع أن يقتحم الهالة العلمية التي يحيط بها نفسه، وحصانة الأنبياء التي تبدو بها وسط الناس ويصل إلى عين ذاته المصونة تلك، ويهدلها على هذا النحو.

وقصة اللائحة مسلية تماماً أنبتت في ذهني أكثر من فكرة مسرحية، فقد جسدها لي بنفس الأهمية والدقة التي جسدها بها شكسبير مسرحيته المشهورة يوليوس قيصر، والمؤامرة التي حيكت

ضده، وكل التيارات الخفية والظاهرة، وحتى بروتس كان هناك، ولا تنس خطبة مارك أنطوني، وسداجة الجماهير، والخنجر، والخنجر هنا كان آدمياً، بل شخص العميد بذاته.

ولكن العلقه ظلت - ربما على رأيه لتفاهتي - هي محور اهتمامي، ومن الأسئلة المختلصة والاجابات السريعة المشمشة التي يلقيها لي كالفئات حتى أستطيع أن أواصل الاستماع لقصة اللائحة، من هذا كله أدركت ما حدث، ويا له من حدث.

الدكتور عويس لا يملك عربية، ومع أنه مساعد أستاذ ورئيس قسم إلا أن ماهيته لا تكفي كي يستعمل التاكسي في مشواره الطويل بين بيته وبين الجامعة. . وفي أوتوبيس ٩٩٩ وقعت الواقعة.

من أسبوع مضى كانت الكتلة البشرية المعتادة يمتلىء بها الأوتوبيس، وكان الدكتور عويس ومحفظة أوراقه الرهيبية رافعاً بها يده كالراية السوداء، فقد كانت تحوي أهم الأشياء في حياته. . محاضر وتقارير ومذكرات ومسودات موضوع اللائحة. كان بلا هيلمان، بلا قدسية، بلا نفخة صدر، قد تضاعل حتى احتل مكاناً لا يكفي «للبنشة» قصب تحوي عشرة عيدان وسط هذا الحشد من أجساد فقد كل منها كيانه الخاص، وتداخلت انبعاجات أحدها في التسواءات الآخر لتصنع خليطاً من الأجساد البشرية المدكوكة بإحكام، كما يدك الشاري الطماع «الكيلة» بالقمح ليجعلها تحوي - جوراً وحراماً - فوق طاقتها بكثير.

يبدو أن السؤال التالي السريع استفزه، فعقد ملامحه لأول مرة، ونسي اللاتحة لبرهة وانفجر مجيباً: اسمع! على لساني قل ولك حق أن تقول، وانشرها في الصحف التي لك بها صلة، قل لركاب أوتوبيس ٩٩٩ الذي غادر ميدان التحرير الساعة التاسعة يوم تسعة في الشهر الحالي أنهم أبداً لن يفلتوا من العقاب.. عقاب التاريخ أقصد وضمير البشرية العام. فالفرد حين يرتكب جريمة مسألة تدخل في نطاق العقل، أما الجماعة حين تجرم هكذا، وبالتلقائية وبدون اتفاق سابق وبالإجماع الذي لا يشذ عنه أحد عن عمد وبلا تردد وفي وضوح النهار تجرم، حين تفعل هذا فنحن أمام أنثروبولوجية لم تعرفها البشرية من قبل.. ظاهرة قد أعهد ببحثها إلى أحد تلاميذ الدكتوراه عندي، ولكن قل لهم - وهنا ولصوته المرتفع كان قد تجمع حولنا بعض المارة فبدأ كما لو كان يخاطبهم، ومبهورين مشدهورين غير فاهمين وقفوا يستمعون - قل لهم أيضاً وعلى لساني أنهم لن يفلتوا من العقاب.. ليس عقاب القانون ولا الدولة، ولكن عقاب الأنا الكبرى.

واستجابة للكزاتي وغمزاتي فطن إلى المجتمعين، فالتفت إلى الناحية الأخرى ونطق كلمة واحدة «سنوبز». والتفائته جعلت كرة «البلا» الأزرق تواجهني، وجعلته يبدو كما لو كان يحدق فيّ بها. وشعرت وكأنما بإلهام أن هذه ليست ربما المرة الأولى التي أشعر أنه ينظر إليّ أو إلى الآخرين - أو أحياناً لبعض الحوادث - من خلال هذه العين الوارمة الزرقاء البارزة إلى أمام. أدركت وكأنه كثيراً ما كان

يستعملها ليعطي أو ليستقبل وجهة نظر. كل ما في الأمر أنها كانت واردة إلى الداخل، ولم تفعل «البونية» التي تلقاها أكثر من أنها «نطرتها» وجعلتها بادية للعيان.

«سنوبز»! ولكن هذا كله ليس مهماً. هذه حكاية هاييفه جداً. المشكلة أن المشروع الأول للائحة كنت قد قدمته بديمقراطية شديدة.

ولكن. . فلنعد نحن إلى موقف الدكتور عويس في ٩٩٩، وقفته بالضبط جاءت بجوار العمود الفاصل بين الدرجة الأولى والثانية. وكان كعادته قد قرر أن يهرب بأفكاره من مضايقات البيئة الموقوتة إلى خططه ومشاريعه لتفويت اللائحة، إلى أن حدث وأجبرته هزة قيام الأوتوبيس أو وقوفه لإدراك أن من يقف أمامه سيدة. و«يقف» أيضاً ليست الكلمة الدقيقة لوصف ما اكتشفه، فقد اكتشف أن جسديهما في حالة تقارب لا تسمح به الحرمة البشرية. فلكل جسد بشري في رأيه حرمة وحد أدنى من المسافة الواجب توافرها لكي تحفظ كيانه كوحدة انسانية مستقلة. ولم تكن هذه أول مرة في ركوبه للأوتوبيس يحدث شيء من هذا، وكانت طريقته لحل هذا الاعتداء على حرمة جسده واعتداء جسده على حرمة غيره أن يتحرك حتى يولي السيدة ظهره.

ولقد حاول هذه المرة فوجد أن تحريك رقبته نفسها أو إدارة وجهه فقط عملية تبدو مستحيلة. ولم يكن ثمة بد مما ليس منه بد،

وأستطيع أن أتصور الكفاح الرهيب النفسي والعصبي والجسماني الذي بذله الدكتور عويس ليستعمل حقيقته التي تعادل قدس الأقداس في نظره، وليهبط بها من مكان الراية السوداء التي يرفعها كالغريق ليفرضها بالقوة القاهرة حائلاً بين جسده وجسد السيدة، التي لا بد وأنها شكت في نواياه وتحركاته أول الأمر، ولكنها حين أدركت في النهاية هدفه بدأت تبذل المستحيل لمساعدته - مشكورة لا شك - فجسدها كان سميناً كثيراً الانبعاجات صعب الحركة، وحين - بعد جهد جهيد - تمت العملية بنجاح وأصبحت كل وثائق اللائحة وأسرارها مضغوطة بشدة وقائمة - ليس بمعناها كلائحة لتنظيم السلوك وإنما بمادتها كورق ودوسيهات - قائمة لتصنع سوراً يحافظ على الحد الأدنى لحرمة جسده، بصعوبة لفت السيدة رقبته الممتلئة، وبالكاد لف هو إحدى عينيه، ومن خلال التقاء البصرين قالت له كلمة امتنان صامت أرضت كبرياءه التي نادراً ما ترضى. ومن خلالها أيضاً أدرك أنه كان على صواب، فالسيدة بدت وقورة من النوع الذي لا يعجبه سواه، وجهها أبداً لم يتعود الابتسام وإنما يطفح بشيء آخر كالإيمان. حدث نفسه بأنها ربما متدينة، ربما زوجة محترمة لرجل دين، ربما هي من عائلة أجادت تربيتها حتى أشرفت على الثلاثين كما بدت له سنّها.

حاولت سبق الأحداث وأنا أستمع طوال ربع الساعة المستمر التالي لأعرف كيف نشأت المشكلة، فواضح الآن أن كل شيء على ما يرام. وبلهفة متزايدة كنت أسأل وأنتظر وقصة اللائحة دائرة بأقصى

سرعتها، وأعود أسأل لأعرف في النهاية أنه الكمساري. المشكلة بدأت بمجيء الكمساري. كيف جاء؟ كيف تسرب؟ كيف أمكن ويمكنه أن يتحول إلى كائن أثري يخترق الأجساد؟ لا أحد يعرف. المشكلة أنه مر ولكي يمر أحدث في الأجساد المدكوكة في فراغ العربدة بقوى قاهرة ثابتة.. أحدث خللاً كالخلل الذي يحدث لأوضاع النجوم والكواكب إذا مرق بينها نجم هوى وتغيرت به قوانين الجاذبية. إذ في لحظة اكتشاف الدكتور عويس أن من أمامه أصبح رجلاً، وأصبح بقامته الأقصر الحائل بين الدكتور وبين السيدة. ولابد أن ارتياحاً عظيماً انتاب الدكتور عويس وأعفاه من كل الضغوط وجعله مرة أخرى يرفع المحفظة إلى أعلى.. رايته السوداء الخفافة. المحتويات اللائحية في أمان الآن.

- أوباش مدعون! أوغاد منافقون!

- لم أفهم.

- أوباش!

- ماذا حدث.

- اعفني أرجوك من هذه التفاهات.. دعنا في المهم.

والتفاهات بدأت بتحركات لهذا الراكب القصير غير مفهومة للدكتور عويس، ثم حين تكررت أوحى إليه بفكرة النشل. استبعدها. نقوده في جيب السترة وموضع الجيب فوق كتف الرجل تماماً، ومن المحال أن يستطيع لوي أي من أذرعتيه ليصل إلى

العجيب. آه.. كده؟ إنه يعرف أن أشياء كهذه يقال إنها تحدث، لها عنده تفسيرات سيكولوجية وحضارية وأخلاقية - وبالطبع وعلى رأس القائمة - أنثروبولوجية. هوبكنز تحدث عنها، أدوارد. ج. أدوارد له فيها بحث طويل، الألماني ريخته أضافها إلى الطبعة الجديدة من كتابه.

ولكن هذا الرجل المتحرك القصير الواقف أمامه الآن لا شك خبيث، ولا شك لم يحط بهذا المكان صدفة. انتهاز فرصة التخلخل الحادث لمرور جسد الكمساري واحتل هذا الموقع الاستراتيجي خلف السيدة. وحتى هذا كله ليس مهماً، كل هذه السفساف سيجرها التحضر يوماً. حتى لو كان الدم قد غلا لوقت عابر في عروقه البعراوية، فما يجب أن يشغل به نفسه أهم.

ولكن الدكتور عويس اضطر لأن يؤجل انشغال نفسه بما هو أهم.

فالسيدة قد بدأت تتململ، وبقوة خارقة تتحرك محاولة أن تستدير بجسدها وتأخذ وضعاً أفضل. وأخيراً حين بدا أنها مجبرة على الثبات في مكانها لا تتحرك شعرة، لوت بكل ما تملك من قوة عنقها وقالت: بلاش مضايقة بقى. اتاخر اتاخر شوية.. الله.

ولأن وجهها بدا كما لو كان يوجه الكلام للدكتور عويس الأطول، ففجأة وجد عويس نفسه محط أنظار العيون كلها وكل نساؤها. طارت المشاغل وحتى اللائحة من رأسه فوراً وسألها

بحماس وسرعة :

- حضرتك بتوجهيلي أنا الخطاب؟

بصوت أعلى قالت :

- لا أنا بكلم الجدع اللي ورايا ده .

وتنفس الدكتور عويس في ارتياح بعد أن كان قد فقد النفس .
أما الرجل القابع خلفها فقد بدأ يتكلم . كلماته صف طويل من
صفائح «الجاز» الفارغة التي تهاوت تفرقع وتتخبط وتصنع زعيقاً
صفيحياً أجوف أكثر منها كلمات مفهومة .

- ولزومه ايه الكلام الفارغ ده؟ مانا غصب عني ، أنا قادر
أتحرك؟ ما هو لازم نستحمل بعضينا ، ولكها محطة وكل واحد يروح
لحاله . ما الناس كلها مستحيلة بعض انت يعني اللي على راسك
ريشة !

أوهكذا قال .

السيدة المؤدبة المترية سكنت . العيون انصرفت . الدكتور
عويس قرر أن يقاطع ما يحدث أمامه فكراً تماماً وأن ينصرف إلى ما
سوف يقوله في الاجتماع الخطير الذي سينعقد بعد ساعة واحدة .

كل ما في الأمر أن الرجل الدمهوري فيه كان بين الحين
والحين يطل برأسه ويدفعه إلى العودة لمتابعة المشهد ليطمئن إلى أن
الرجل قد كف تماماً عن مضايقة السيدة ، ولكن اطلالات الرجل

الدمنهوري كثر حتى طردت تماماً اهتمامات أستاذ الأنثروبولوجي وصاحب مشروع اللائحة . الرجل رغم كل ما حدث استأنف المحاولات وبجراحة أكثر، حتى والسيدة بين الحين والحين تجبر عنقها المكتنز على الالتواء وتصويب نظرات صاعقة هلعة مستبشعة راجية، أخيراً بدأ يطفر منها دمع متحجر صامت . نظرات كان واضحاً منها أنها تتعذب عذاباً لم تذقه في عمرها، إذ كانت تتألم ذلك الألم القاتل الذي لا يستطيع فيه المرء أن يصرخ أو ينطق أو يقول لا . والرجل وكأنه فقد الإنسانية والحيوانية معاً لا يولي شيئاً من هذا كله أي اعتبار، مندمج بكليته في متعته الدنيئة الغارق فيها لا يرى سواها ولا يهيمه إي ألم هائل تعانيه السيدة لقاء لحظة المتعة تلك . كان على الدكتور عويس أن يستحضر ذاته العلمية بكل قواه وقواها حتى لا يندمج ويقوم من فوره بمهمة المصلح الاجتماعي الأخلاقي المباشر، هذه الأعمال والتدخلات المباشرة اليومية ليست مهمة رجل علم مثله . رجل العلم مهمته أشمل بكثير، أن يغير البشرية كلها، فإذا تناولها فرداً فرداً وحالة حالة غرق فيما يغرق فيه انسان الحياة اليومية وضاعت رسالته إلى الأبد . عالم هو وعالم فليراقب بلا أي انفعال وكأنه يراقب فئران تجارب، وهمه كله أن يستخلص من التجربة مغزاها ليكتشف للظاهرة حلها العلمي الصحيح لا أن يتدخل لرفع ظلم مؤقت تعانيه فأرة من فأر . هذه مهمات الفتوة والقانون ورجل البوليس والجدة الشهم ، وكلهم أيضاً في التجربة العلمية فئران . .

وهكذا لم يبد غريباً للدكتور عويس - وإن كان قد اعتبره اكتشافاً جديداً حقاً - أن يلحظ أنه لم يعد وحده الذي يتابع ما يجري، وأن أكثر من عين تختلس النظر، بل وهذا مدهش حقاً في بعض النظرات متعة وترقب وحماس من حماس المتفرج أو المتابع، يكاد يقترب الأمر من المتعة.

نظرات كثرت، والرجل قد بدأ يمد يديه، وبأصابع ترتجف انفعالاً لا خوفاً يرفع ثوب السيدة شيئاً فشيئاً، مجمعاً قماش الثوب في قبضتيه اللتين يستعملهما في نفس الوقت لزيادة احتضانه لها.

الأوتوبيس مشحون صامت، يخترق شوارع ضيقة تنفذ ضجتها إليه وتغرق كموجات البحر صمته. الركاب كل في ملكوته، حتى القليلين الذي يتبعون الجاري بما فيهم عويس قد احتواهم هذا الملكوت الخاص المفاجيء حقاً، هو هذه الكلمة التي خرجت مجرحة بالغیظ مخنوقة بالدموع مكتومة وكأنها تتصاعد من أظافر القدم:

- الحقوني يا ناس.. دا بيقلعني هدومي.

صرخة.. شبه صرخة! ذهول مؤقت.. صفارة طويلة من الكمساري. فرامل سريعة من السائق. تحرك اللحم في العربة مندفعاً بتأثر الوقفة المفاجئة اندفاعاً شديدة كادت تدلّقه إلى أمام، ثم دلقة أشد حين تم الوقوف إلى الخلف. وهكذا تغير الحال تماماً ولم يعد أحد في مستقره، حتى الدكتور عويس وجد نفسه في قلب

الدرجة الثانية وفوق رأسه تماماً سبت يتساقط من شقوقه ماء سمك طازج .

- مالك يا ستي؟ حصل ايه .

في انفجار باكية مغيظة، أشارت السيدة إلى الرجل الذي كان واقفاً خلفها والذي كان قد أصبح في الدرجة الأولى بينه وبينها ركاب .

- دهه . . ابن الـ . . دهه . . كان .

- أنا؟

لا قرعة صفائح هذه المرة، وإنما عواء ذئب صارخ، أوريما زئير ضبع أو أسد. أنا؟ واندفع ناحيتها. أنا يا قليلة الأدب. وبكف صغيرة جافة هوى قلم، وقلم . .

وسأل السائل الأول:

- حرام تظلمي الناس. انتي متأكدة؟

وفتحت فمها لترد.

وطويل، هائل الطول هذه المرة، واحد من ذوي الأعين التي رآها الدكتور عويس ومتأكد أنها ترى كل شيء وتعرف، جمعهم:

- ده كان بينه وبينك سبع ركاب. وأنا كنت واقف وراكي وانتي اللي عمالة تتحككي . . بقى . .

وصفحة أخرى.. ودفعة، وكوع لكز وركبة، بغل ضربت،
أصوات تداخلت:

- تستاهل! يعملوا العملة وبعدين يعملوا شرفا.

سيدة تعلق:

- ويعني الشرف حبك قوي؟ كانت استحملت وبلاش
الفضائح.

زغدة، كتف، دفعة أشد، أكثر من ذراع، السلم. دفعة ظهر
إلى الأرض لا حراك بها فوق الرصيف، حزام الفستان مفكوك،
أزراره تفتحت، شرابها تهدل، شعرها انفكت الشريطة التي تضمه،
تبعثر كهشيم في كل اتجاه. وما أن استقرت في الخارج حتى هدأت
الأصوات الزاعقة، وبدأ كل منهم يتنفس في ارتياح.. الحمد لله.

احتاج الأمر ارادة من حديد كي يحول الدكتور عويس بين نفسه
وبين أية انفعالات ذاتية. فليرتفع ضغط دمه! فلينفجر غيظاً! فليقطع
قلبه اشفاقاً! ولكن فليبق هو المراقب في حدود دوره كعالم، يرى
ويلحظ ويسجل. لتبق له مساحة عقلية تكفي ليعرف أيضاً ويتساءل..
والتساؤل الذي يلح عليه قاس لا يرحم. حادثة السلوك الشاذ من
الراكب تفسيرها واضح، مريض الرجل لا بد في حاجة لعيادة
وطبيب. حادثة العيون التي ضبطها تختلس المتعة تفسيرها أبسط.
المذهل المحير ليس أن تستغيث فلا تجد المغيث، السؤال الملح هو
هذه الرغبة التي لا بد أنها نبتت بتلقائية - وفي كل نفس على

حدة لإثبات كذب المرأة ونفي الموضوع وكأنه لم يكن . بل والأكثر عقابها الجماعي على تلك الصورة لأنها فتحت الفم ونطقت، وبلغت بها الجراءة أن استغاثت وحددت الفاعل .

في ثوان طاف عقل الدكتور عويس بحصيلة ثلاثين عاماً من المعرفة والقراءة وحتى التخصص . . في ثوان وبكل قوة توهجت كل قدرته على الاستنتاج والجشالت، وفي ثوان أيضاً أدرك أن لا جواب لديه ولن يقدر بذكائه وحده أن يصل إلى جواب .

ولأول مرة مذ وقعت الواقعة وركب الأوتوبيس يبدأ الموضوع يتخذ في عقله خطورة ما، فقد أدرك فجأة أنه أمام ظاهرة تحدث أمامه، بل وربما في صميم اختصاصه، ولا يملك لها أي تفسير .

وإذا كانت الرغبات هي محركاتنا الأساسية للفعل، فرغبة الدكتور عويس للمعرفة كانت هي قوته الدافعة الأولى . . أقوى رغبته جميعاً . يكفي أن يحس بها حتى ينسى أي شيء وكل شيء ويتصب أمامه ذلك الهدف الساحر الذي لا يقاوم . . أن يعرف . بعد ثوان ستكون الفئران قد اختفت والاجابة ضاعت، وهي لحظة واحدة وعليه أن يختار .

وفجأة وسط جو لا يزال مشحوناً ملبداً تنحج صوت لا علاقة بين نبرته ومقامه وبين كل ما سمع من أصوات وضجيج . . بنفس طريقته وهو يرفع الكلفة مع تلاميذه ليأخذهم تحت ابطه ويحظى منهم بالاعتراف قال: اسمحوا لي بكلمة . أقدم لكم نفسي أولاً . . أنا الدكتور فلان الفلاني الأستاذ بكلية كذا بجامعة كذا، وعديد آخر

من الأوصاف، وأرجوكم لا تعتقدوا أنني أقصد التدخل في شئونكم الخاصة. (حب الاستطلاع وصل في جو العربة هنا إلى حد مخيف) وإنما أنا أستاذ مادة الانثروبولوجيا ولا يهمني ما حدث أبداً من الناحية الأخلاقية أو القانونية. أنا يهمني الناحية العلمية. (تحول حب الاستطلاع إلى شك). لقد أتاحت لي وقفتي قريباً من هذه المرأة التعسة - كاد سائق الأتوبيس يضغط على البنزين ويمضي ولكنه عدل، الكمساري كف عن عملية الاطمئنان على نقوده - أن أرى كل شيء وأن أرى أن آخرين غيري يرون نفس الشيء.. وليس هذا مهماً أبداً عندي.

رمقه الرجل مفلفل الشعر بالمشيب مرتكزاً على عمود الوسط وبنوع من الاستغراب المشبع بالانذار سأله: انت عايز ايه يا أستاذ بالضبط؟ عايز تقول ايه احنا مش فاضيين؟ بصوت عال واضح قال:

- عايز أعرف ايه اللي ضايحكم أنتم في تصرف السيدة وفي اتهامها للأفندي؟ زعلتوا ليه؟ حتى الستات.. ضايقت ليه؟ لأسباب علمية محضة أرجوكم أن تجيبوني لأن هذا مهم لي في مادتي جداً. سكت الجميع ينظرون في استغراب ويقررون إن كان مهفوفاً أولاً أو عليهم أن يعاملوه كالعاقليين؟ وإن كان يسأل حقيقة أو أنه ينصب بسؤاله مصايد وفخوخاً؟ وفجأة قال مفلفل الشعر:

- أنت بتقول انك شفت واننا شفنا. هو ايه اللي شفته وشفناه؟

ببلادة قال:

- شفت اللي حصل.

- وهو حصل ايه؟ انت شفت حاجة حصلت؟ إحنا ما شفناش
انت شفت؟

- الله . كل ده وما حصلش حاجة؟ آمال الست . .

- كذابة!

- والأفندي؟

- ما عملش حاجة.

- وأنا.

- وأنت نصاب باين عليك.

قالها شاب كان ضمن الكتلة الملتصقة التي تسد الباب
الخلفي، وما لبث أن انخلع منها وتقدم في اتجاه الدكتور عويس
مستمراً بصوت يتزايد علواً:

- على فكرة أنا طالب في كلية كذا بجامعة كذا اللي بيقول
عليها دي . وأعرف كل الأساتذة والمعيدين ويمين بالله ما في كليتنا
أستاذ بالاسم ده ولا شفت الخلقة دي قبل كده من أصله . ده شكل
أستاذ جامعة ده؟

وفعلاً كان المتحقق في ملابس الدكتور عويس وهيئته التي لا
تترك له اهتماماته الأستاذية الأنثروبولوجية وجنونهاته وقتاً للعناية بها،

يستطيع ببساطة أن يجزم أنها قد تكون لأي انسان إلا لأستاذ أو
مدرس أو أي شيء له صلة بالجامعة .

صرخة أخرى :

- وعلى فكرة . دا هو اللي كان واقف وراها .

- تمام تمام دا باين عليه ديوس قارح .

الله الله ! المسألة تتطور بسرعة مخيفة .

- يا حضرات أنا ما بالومشي أنا بسأل سؤال علمي .

- علمي يا ابن ال . .

وبالفاظ الدكتور عويس نفسه :

- أحسست بمساحة لها كثافة الكاوتشوك وصلابته وكأنما من
ارتفاع برج الساعة ، وترتطم برقبتي من الخلف . كان أول «قلم»
أثلقاه على قفائي في حياتي . والألم الجسدي لم أشعر به ، إذ فجأة
شعرت أن آدميتي كلها تبعثرت . كل شيء يكون ذاتي تشتت وسال
تحت الأقدام . كرامتي تاريخي ، كل ما هو أنا انهيار ومضت الأحذية
تطؤه . القفا أعقبه ثان وثالث ، وعلى الوجه والرأس وبالشلايط ، وآخر
ما شعرت به نظارتي وهي تتدشش وينغرز بعض زجاجها في جلدي
ثم عيني اليسرى وقد أخذت تتنفخ بسرعة خارقة وتوشك كالبالونة
على الانفجار . يا أخي هذا موضوع هايف كنت نسيتَه وخلّاص .
لماذا تلح في تذكيري به؟

لم أعد أستطيع . . وبحسب أوقفته مستعملاً لهجة الأمر الذي لا يقبل النقاش لأول مرة، أريد أن أعرف بقية ما حدث .
 - لا بقية ولا شيء! لقيت نفسي متمدّد جنب الست ع الرصيف والأوتوبيس مشي من زمان وجه غيره، وانتهى الموضوع .

- انتهى ازاي؟
 - أخيراً قررنا عمل اجتماع عشان اللائحة عند العميد .

عميد ايه؟ ولائحة ايه؟ ماذا بعد الضرب؟ ماذا فعلت؟ هل أبلغت البوليس؟ هل شكوت؟ هل كتبت للجهات؟ . . هل؟
 - ولا هل ولا شيء . أشكي مين؟ أوتوبيس؟ وأشكي ليه؟ المسألة سوء تفاهم لا غير . أنا كان قصدي سؤال علمي هم افتكروا حاجة تانية . . مجرد سوء تفاهم . شوية «سنوبز» إذ المجرمين الحقيقيين المتآمرين هم الناس اللي وقفوا ضدي في الاجتماع . دول عارفهم كويس وعارف وقفوا ليه ووراهم مين والهدف من المؤامرة ايه؟

لم أستطع إلا أن أفقد السيطرة وأنفجر وقد فاض بي الكيل، وأستمع إلى كلمات اللوم والغضب وهي تتدفق بحرارة من فمي، استمع بلا أي لوم أو غضب . فقط ظل ينظر لي مشفقاً وكأنه أرسطو يتأمل قروياً يونانياً ينقذه بشدة ويشتمه على «مربعه» الفلسفي المشهور الذي ابتلى به البشرية .

ظل يستمع حتى - من نفسي - سكت، وطبطب على كتفي

وكأنه يرضي طفلاً أضع معه وقته وقال :

- أنا متأسف لأنني مضطر أسبيك عشان الحق الاجتماع . . أنا دلوقتي بس أدركت أنني ضيعت وقتي معاك، أنا بقالي ساعة أحاول أقنعك أنك - بصفتك راجل مهتم بالمشاكل العامة - تقف مع قضية عادلة زي قضية لائحة السلوك العام، إنما الظاهر أنني ضيعت وقتنا نحن الاثنين . عن اذنك الحق الأوتوبيس .

- الله . انت لسه بتركبه؟

- طبعاً .

- ٩٩٩ برضه .

- هو وغيره . ليه لأ؟

- ويتشوف برضه تجارب علمية وتسأل . . . و . . .

- ماباشوفشي حاجة أبداً . أنا صحيح جبت واحدة جديدة صحيح إنما عشان أستعملها بس في الحرم الجامعي . إنما خارج كده، أنا لا أرى زي ما أنت شايف .

- ولا بتسمع استغاثات .

- أبداً . . أبداً . . الظاهر أن الست دي كانت آخر واحدة تشد وتستغيث، وأنا كنت آخر أحرق يقول أنا شفت . . يعني كانت آخر علقه . دلوقتي تركب ٩٩٩ أو غيره تلاقي كله تمام . . اللعبة بتتم في صمت ولا أحد يخرج على قواعدها، والقاعدة إنك ما تشوفش، وإذا

شفت كأنك ما شفتش . وإذا حصل لغيرك مال كش دعوة وحتى إذا حصل لك أنت ولا كأنه حصل لك . حل عبقرى مش كده؟

نظرت اليه مذهولاً، ليس إلى عويس «الجنونة» أو رسول العناية للإصلاح، أو بطل الكفاح من أجل اللائحة. كان ذهولي ربما أكثر بكثير من ذهوله حين وقعت له منذ أسبوع الواقعة.

- عن إذنك . . ٩٩٩ بتاعي جه . ولا يهكم بكره لما اللائحة تقرر حتشوف .

وعلى طريقته تخلى عن وقاره العظيم للحظة، وانطلق يجري ولسانه رغماً عنه يفلت كلمة «سنوبز» وبقفزة هائلة وضع قدمه فوق السلم، وما كاد يستقر ويمسك العمود بيد وقد اندش بين الممتشعبطين، حتى استدار ناحيتي وأشار إليّ بمحفظة أوراقه السوداء مودعاً وعلى فمه نفس ابتسامة أرسطو المشفقة وهو يرمق بها ثورة القروي الجبلي على «مربعه» المشهور.

حمّال الكراسي

صدقوا أو لا تصدقوا فمعدرة* لا يهمني أبداً رأيكم يكفي أنني رأيتته وحادثته وقابلته وشاهدت الكرسي، فاعتبرت أنني رأيت معجزة. ولكن المعجزة الأكبر، الكارثة، أن لا الرجل ولا الكرسي ولا القصة كانت تستوقف أحداً من المارة في ميدان الأوبرا لحظتها ولا في شارع الجمهورية ولا في القاهرة أو ربما الدنيا كلها. كرسي هائل تراه فتظن أنه قادم من عالم آخر أم أقيم من أجل مهرجان.. ضخم كأنه مؤسسة، واسع القاعدة، ناعم، فرشته من جلد النمر، ومسانده من الحرير. وحلمك كله إذا رأيت أنه أن تجلس عليه مرة أو لحظة.. كرسي متحرك، يتقدم بتؤدة كأنه موكب المحمل حتى لتظن أنه يتحرك من تلقاء نفسه، وتكاد من الرعب أو الدهول تختر أمامه وتعبده وتقدم له القرابين. ولكن في آخر وقت ألمح بين الأرجل الأربعة الغليظة المنتهية بحوافر مذهبة تلمع، ساقاً خامسة ضامرة غريبة على الفخامة والضخامة، ولكن لا لم تكن ساقاً، كانت انساناً نحيفاً

(*) كتبت في أواخر ١٩٦٨.

معروفاً قد صنع العرق على جسده ترعاً ومصارف وأنبت شعراً
وغابات وأحراشاً. صدقوني فأنا بالأمانة المقدسة لا أكذب ولا أبالغ،
بل أنقل في عجز ما رأيت. كيف استطاع نحيف هش كهذا الرجل
أن يحمل كرسيّاً كهذا لا يقل وزنه عن الطن أو ربما أطنان؟ ذلك هو
المذهب للعقل وكأنه شغل حواة، ولكنك تتمعن وتعود تتفحص فتجد
أن ليس في الأمر خديعة وأن الرجل حقيقة يحمل الكرسي وحده
ويتحرك به.

والأعجب والأغرب والمثير للذعر أن لا أحد من المارة في
الأوبرا أو في شارع الجمهورية أو ربما القاهرة كلها يندهش أو
يستعجب أو يعامل الأمر إلا وكأنه مسألة عادية مفروغ منها، وكأنه
كرسي فراشة يحمله صبي ويمضي به. أنظر إلى الناس وإلى
الكرسي والرجل عليّ ألمح ارتفاعه حاجب، مصمصة شفاه، أو
صبيحة عجب.. لا شيء مطلقاً.

وبدأت أحس أن الموقف كله شيء من المرعب استمرار التفكير
فيه. وفي تلك اللحظة كان الرجل بحمله قد أصبح على قيد خطوة
مني وأصبحت أرى وجهه الطيب رغم كثرة ما فيه من تجاعيد، ومع
هذا لا تستطيع أن تحدد له عمراً. ورأيت ما هو أكثر، فقد كان عاري
الجسد لا يغطيه إلا حزام وسط متين يتدلى منه ساتر أمامي وخلفي
من قماش قلوع المراكب، ولكنك لا بد تتوقف وتحس بعقلك قد بدأ
كالغرفة الخالية يصنع صدى، إنه يبدو في لباسه غريباً ليس على
القاهرة وإنما على العصر كله. تحس أنك رأيت له شبيهاً في كتب

التاريخ أو الحفريات، وفوجئت هكذا بابتسامة فيها ذلة السؤال، وبصوت وبكلام.

- الله يرحم والديك يا بني - شفتش عمك بتاح رع؟
أهو هيروغليف منطوق بالعربية، أم عربية منطوقة
بالهيروغلفية؟ أيكون الرجل من المصريين القدماء؟
وهجمت عليه :

- اسمع . . أوع تقول إنك من المصريين القدماء .
- لهوفيه قدماء وجداد؟ أنا من المصريين وبس .
- واية الكرسي ده؟
- شيلتي . . أمال أنا بادور على عمك بتاح رع ليه؟
- عشان زي ما أمرني أشيله يؤمرني أني أنزله ، أنا اتهد حيلي .
- أنت بقالك كتير شايله؟
- كتير قوي ما تعدش .
- من سنة؟
- سنة إيه يا بني؟ قول من ييجي سنة وشوية الآفات .
- الآفات ايه؟
- سنين . .
- من أيام الهرم يعني؟

- من قبل، من أيام النيل .

- نيل ايه؟

- من أيام ما سمو النيل، ونقلوا العاصمة من الجبل للضفة
جانبي عمك بتاح وقال لي يا شيال شيل! شلت، وأدور عليه في
سلقط في سلقط بعد كده عشان يقول لي حط . من يومها للنهارده
مش لاقيه .

وتماماً توقفت كل قدرة أو رغبة في الدهشة عندي . إن من
يحمل كرسيّاً بهذه الضخامة والثقل للحظة، ممكن أن يحمله لآلاف
السنين . لا دهشة ولا اعتراض كل ما في الأمر سؤال :

- وافرض مالقيتشي عمنا بتاح رع تفضل شايله؟

- أعمل ايه؟ أنا شايله ودي أمانة، خدت الأمر أني أشيلها
أحطها ازاي من غير أمر؟
ربما غضب .

- تحطهازهق يا أخي ! تعب . ترميها، تكسرها، تحرقها، دا
الكراسي اتعملت عشان تشيل الناس مش عشان الناس تشيلها .

- ما اقدرش . هو أنا شايله غية؟ أنا شايله أكل عيش .

- ولوا ما دام هادد حيلك وقاطم وسطك يبقى ترميه، ومن زمان
ترميه .

- دا عندك أنت لأنك ع البر مش شايل ما يهكمش . أنا شايل

١٣٣

ودي أمانة وشايل الأمانة مستول عنها .
 - لغاية امتى إن شاء الله ؟
 - لما يجيني الأمر من بتاح رع .
 - دا مات وشبع موت .
 - من خليفته - من وكيله ، من ولد ولاد ولاده ، من حسد معاه
 أمانة منه .
 - طيب أنا بأمرك أهه انك تنزله .
 - أمرك مطاع وكتر خيرك . . بس انت تقرب له ؟
 - للأسف لأ .
 - معاك أمانة منه ؟
 - ما معايش .
 - يبقى عن اذنك .
 ولكني صرخت - وقد بدأ يتحرك - أوقفه ، فقد لاحظت شيئاً
 كالاعلان أو اللافتة مثبتة في مقدمة الكرسي ، بالضبط كانت قطعة من
 جلد غزال وكان عليها كتابة قديمة وكأنها النسخ الأولى للكتب
 المنزلة ، وبصعوبة طالعت :
 «يا حمال الكراسي
 »لقد حملت ما فيه الكفاية .

١٣٤

«وآن لك أن يحملك كرسي . .

«هذا الكرسي العظيم .

«الذي لم يصنع مثله .

«لك أنت وحدك .

«احمله

«وخذه إلى بيتك

«وضعه في الصدر

«وتربع فوقه طول عمرك .

«وحين تموت

«يكون لأبنائك .

وهذا هو أمر بتاح رع يا سيادة شيال الكراسي . أمر صريح صادر في نفس اللحظة التي أمرك أن تحمل فيها الكرسي ، وممهور بأمضائه وخطوشه .

بفرح عظيم قلت له هذا ، فرح متفجر كمن كاد يختنق . فمئذ رأيت الكرسي وعرفت القصة وأنا أحس وكأنني أنا الذي أحمله وحملته عبر آلاف السنين ، وكأن الذي انقضم ظهري أنا ، وكأن الفرحة التي انتابتنني هي فرحتي للخلاص يأتي أخيراً .

برأس منكس استمع الرجل ولا اختلاجة ، انتظار منكس أيضاً

١٣٠

أن أنتهي ، وما كدت أفعل حتى رفع رأسه . كنت أتوقع فرحة مماثلة ،
انفراجة حتى ، ولكنني وجدت لا شيء .

- الأمر مكتوب فوق راسك أهه ومن زمان مكتوب .

-بس أنا ما باعرفش اقرأ .

-مانا قرينه لك .

- أنا ما باصدقش إلا بأماره . . معاك أماره؟

ولما لم أجب ، غمغم غاضباً وهو يستدير :

- أهو ما بينوينش منكم غير العطلة . . يا ناس ، والشيلة ثقيلة
والنهار الواحد يدوبك لفة .

ووقفت أرقبه وقد بدأ الكرسي يتحرك ، حركته الممتدة الوقورة
التي تظن أنها من تلقاء نفسه ، والرجل قد أصبح مرة أخرى ساقه
النحيلة الخامسة القادرة وحدها على تحريكه .

وقفت أرقبه وهو يتعد ، لاهثاً يثن وعرقه يسيل .

وقفت حائراً أتساءل أألحقه وأقتله لأنفس عن غيظي؟

أأندفع أسقط الكرسي عن كتفه بالقوة وأريحه رغماً عنه ، أم
أكتفي بالسخط المغيظ منه؟

أم أهدأ وأرثي لحاله؟

أم أصب اللوم على نفسي أنا لأنني لا أعرف الأماره؟

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ما كادت الفاتحة تقرأ ويسترد يده من يد الرجل، ومبروك!
ويتأمل ملياً البقرة التي حصل عليها، ثم يتوكل ويسحبها خارجاً،
حتى بعد خطوات قليلة وضع فلاح شاب طويل مهول يده فوق اليد
الممسكة بالحبل، وبقوة الضغط والعضلات أوقفه قائلاً: ألا قول لي
يا شيخ . . بالذمة والأمانة والديانة . . وقعت بكام؟

وحتى لو لم يذممه فقد كان يريد قول الحقيقة، لكي يعرف من
وقع الرقم إن كان هو الخاسر أم الكاسب في الصفقة، أجاب:

- بالذمة والأمانة والديانة بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة
للسمسار . .

ولم ينح له أن يقرأ في وجه الشاب الضخم، فما كاد يقول
الرقم حتى كان الشاب وكأنما انتهى غرضه منه تماماً، فسحب يده
ومضى إلى حاله مغمغماً بكلام مدغوم لا يلوي على شيء.

وبعد باب السوق بخطوة اندفع ناحيته رجل بشارب هائش
وصوت مزعج عال وكرش، قائلاً: سلام عليكم.

- سلام ورحمة الله .

- بالذمة والأمانة يا شيخ بكام؟

وبصوت واضح وحرص شديد هذه المرة على ألا تفوته بادرة،
فالبقرة أيام جده كانت بثلاثة جنيهاً، وكان أبوه رحمة الله عليه يقول
له إن أول بقرة اشتراها في حياته كانت بخمسة، قال: بالذمة والأمانة
بسبعة وثمانين وربع وبريزة للسمسار.

قال الرجل من تحت شاربه المهوش: هم . . هيه . . فيها لبن؟

أجاب وأمره إلى الله: ما فيهاش.

- وراها عجل؟

- ما وراهاش.

- معشرة؟

- طالبة عشر.

ومرة أخرى قال الرجل بغیظ مكتوم لا يعرف سببه، وبحزن لا
يعرف سببه أيضاً:

- هم . . هيه . . مبروكة عليك.

ومشى .

وعند أول منعطف للطريق الجانبي الماضي إلى الطريق
الزراعي العام، رفع فلاح كان يعزق الأرض المجاورة صوته سائلاً:

- بتقول بالذمة والأمانة بكام؟

١٣٨

فقال : بسبعة وثمانين جنية وربع وبريزة للسمسار .

فعاد الفلاح يصيح مرة أخرى :

-بتقول بكام؟

ورفع صوته عالياً جداً أعلى بكثير مما يجب ، لا يسمعه
الفلاح فقط وإنما ليصل إلى كل الرجال القرييين والبعيدين حتى
يكفوه مئونة رد آخر :

-بسبعة . . وثمانين . . جنية . . وربع . . وبريزة . . للسمسار . .

وقبل أن يسمح لنفسه أن يسمع الرد أو التعليق كان قد أغلق
أذنيه ومشى .

وحين وصل إلى الطريق الزراعي الموصل إلى بلده كان قد
سئل ثلاث مرات ، وأجاب ثلاث اجابات ، نقص الذمة والأمانة في
ثالثتها حين كسل أن ينص على بريزة السمسار .

كانت الدنيا لا تزال ضحى والسوق منتصبة منذ الشروق هذا
صحيح ، ولكن كان هناك على الطريق قادمون كثيرون ، أولئك الذين
لا يريدون ضياع اليوم فأنهوا بسرعة أعمالهم ثم أقبلوا مهرولين
يلحقون السوق .

وعلى أول الطريق الزراعي سألته شيخ معمم بجبة كالحة
وقفطان :

-دفعت فيها كام الذمة والأمانة والديانة إن شاء الله؟

١٣٤

فقط لو أنهم لا يذممونه ويستحلفونه بالأمانة والدين!

- سبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

وبعد خطوة واحدة وإذا برجل وكأنه عمدة، يمتطي ركوبة
ويستظل بشمسية يزق بصوت مسلوخ: بتقول بكام؟
- غالية شوية إنما تتعوض.

- وما كاد يخرج علبة الدخان ويبدأ في لف السيجارة حتى حودء
عليه رجل مسن له لحية اختلط فيها السواد بالبياض:
- سلام عليكم.

- سلام ورحمة الله.

- دستورك مين؟

- من هرية.

- شاري والا بايع؟

- مانتاش شايفني راجع؟ شاري.

- واصل ع الشيخ منصور؟

- واصل إن شاء الله.

- طب بدمتك وحياة الشيخ منصور على قلبك، بكام؟

- بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

- يا راجل أنا ذممتك وحلفتك بالشيخ منصور؟

- وحياء الشيخ منصور والذمة والأمانة والديانة ، وحياء شيخ العرب السيد بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار .

- يا راجل انت اشتريت خلاص ، برىء ذمتك وقول الحق .

- وأنا يعني ح أكذب عليك ليه؟ ما قلت لك الحق .

- بقى بذمتك وديانتك والأمانة عليك وبركة الشيخ منصور وديتها رقبته بسبعة وثمانين جنيه وربع؟

- وديني وما أعبد وحياء ربنا اللي أكبر من الشيخ منصور ومني ومنك ومن الدنيا كلها بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار .

- طب روح يا شيخ الهى إن كنت كذبت ما توعى تعلقها في المحرات .

وتركه ومضى . ولو كان قد بقي أمامه لحظة أخرى لما كان قد استطاع كبح جماحه الخاطر الذي كان يلح عليه باستمرار . أن ينتف ذقنه شعرة شعرة .

وما كاد يمشي أربع أو خمس قصبات حتى - برجاء حار - استوقفه شخص كان منتحياً جانباً، يعمل مثل الناس على حافة الخليج الموازي للطريق، وحتى قبل أن ينتهي وهو لا يزال القرفصاء لوى رقبته وسأل :

- بالذمة والأمانة بقدايه؟

- بسبعة وثمانين وربع بريزة .

- ايه اللي سبعة وتمانين وربع بريزة. هم مش يبقوا سبعة وتمانين وخمسة وتلاتين صاغ؟
- طب يا سيدي ماتزعلش سبعة وتمانين وخمسة وتلاتين صاغ.
- آمال الأول قلت وبريزة ليه؟
- عشان هي بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.
- بقى أبقي محلفك بالذمة والأمانة وتكذب؟
- أنا كدبت؟
- مش قلت بريزة للسمسار. هي البريزة تخش في التمن؟
- ما دام دفعتها تخش.
- لا ما تخشش.
- تخش.
- لا ما تخشش.
- تخش.
- أنت كداب.
- أنت بارد.
- تفوه عليك نفر.
- تفوه عليك وعلى اللي خلفوك.

وهو لا يزال متشبهاً باستماتة في جبل البقرة اندفع ناحية الرجل

يريد أن يطبق عليه وينتهي منه، وكان الرجل هو الآخر قد أوقف ما كان يقوم به واندفع ناحيته ويده مستميتة هي الأخرى على «دكة» السروال المفكوك، ويبد متشبثة والأخرى طليقة تريد أن تغور في زمارة رقبة الآخر. كادا أن يتماسكا لولا أن أولاد الحلال وما أكثرهم على الطريق حالوا بينهما في آخر لحظة، وبعد محاولات لصلح فاشل اندفع كل منهما، الرجل إلى حافة الخليج وهو ناحية بلده، وبينهما جبل طويل غليظ من الشتائم ظل يمتد ويرق كلما ابتعدا حتى انقطع وصار مخنوقاً. ومد يده يبحث عن العلبة ليلف السيجارة غير أنه اكتشف أنه فقدتها في الخناقة، وبلغ به الغيظ حد أنه لم يحتمل مجرد فكرة العودة والبحث عنها في مكان الخناقة.

وهو في قمة غيظه إذا برجل يرتدي في عز الحر عباءة، مؤدب وقصير، ما كاد يفتح فمه ويقول: بالذمة والأمانة عليك. حتى كان قد رفع يده إلى آخرها دون أن يدري ثم هوى بها على صدغ صاحب العباءة الممددة في أدب ووقار.

وارتاع الرجل حتى سقطت العباءة من فوق كتفه، وفكر أن يمسك بخناقة ولكنه في اللحظة التالية كان قد راجع نفسه، وحين تلفت حوله فلم يجد أحداً من المحتمل أن يكون قد رآه وهو يصفعه عاد للسير وكان شيئاً لم يحدث وهو يقنع نفسه أن الرجل لابد مجنون هارب من مستشفى المجاذيب.

وما كاد هذا يحدث حتى وجد صاحب البقرة نفسه يضحك ضحكاً عالياً متواصلاً وكأنه قد جن فعلاً، وبلغ به الاستهتار حد أنه

حين سمع السؤال يلقي عليه من جانب الطريق أندفع ناحية السائل ورفع يده يحاول أن يهوي بها على صدغه، ولكنه فوجيء بيد حديدية تقيد يده في مكانها، وبكف كأنها من بلوط تهوي على صدغه هو بأربعة أقلام سخنة نظيفة جعلت عينيه تقدحان شرراً، بل أعمته إلى درجة لم ير معها ضاربه، ولا فطن إلى أنه ضرب إلا بعد أن أصبح بينه وبين المعتدي مشوار ومشوار.

وعند كشك المرور تماماً سأل تاجر قمح تخين كان يفرش على جانب الطريق يشتري بالاقداح والشروات من الداهبات إلى السوق: إلا قولي يا شيخ العرب، بالذمة والأمانة بكام؟

ولم يكن عربياً أو شيخاً عرب، ولكنه بمنتهى التأدب أو بهدوء غريب لا أثر مطلقاً لأية ثورة فيه أجاب: بسبعة وثمانين وربع وبريزة للسمسار.

وكأنه لأول مرة يدرك - وبصفاء أيضاً - أنه باع كل شيء ليشتري هذه البقرة بعدما ماتت جاموسته في أول شعبان، بل فطست ولم يلحقها الجزار بالسكين حتى، ولثلاثة أشهر وهو يدبر، وعلى المحصول الذي لا تزال أمامه أربعة أشهر طويلة، ومحفظته إن كانت لم تسرق في الخناقة فليس بها غير جنيه وربع هي آخر ما تبقى معه من نقود في الحياة.

- بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

قالها مرة أخرى، وبصوت مخنوق أعلى حتى حدق فيه التاجر

مذهولاً لا يستطيع النطق .

وما كاد يلتفت حتى هبط من فوق جسر السكة الحديد رجل
كان يحمل عنزة على كتفه، وما أن فتح فمه لينطق حتى قال :

- بسبعة وثمانين وربع وبريزة للسمسار .

وبعد برهة قابلته امرأة تحمل مقطفاً ثقيلاً وتنوء بحمله، وقبل
أن يصلها أو تدرك وجوده رفع صوته وقال :

- بسبعة وثمانين وربع وبريزة للسمسار .

-وقالت المرأة: «يه؟» ثم حثت الخطو وكأنها تهرب من شبح .

وعند التابوت كانت جماعة قادمة من طريق التوت بعضها
راكب وبعضها ماش، ورفع صوته إلى أقصى ما يستطيع وقال :
- بالذمة والأمانة بسبعة وثمانين وربع وبريزة للسمسار .

وضحكوا وقال واحد: الناس انهبلت، بينما تخلف ولدان راحا
يشبعانه تريقة وسخرية .

وعلى مدخل البلدة رأى جاموسة ترعى على حافة «القيد»
فصرخ فيها :

- بسبعة وثمانين وربع وبريزة للسمسار .

واستدارت الجاموسة ناحيته ورمقته في بلادة وكسل، ثم عادت
تعسّس بشفتيها وأسنانها على الحشيش .

وحين دخل بلده كان يصيح سواء سأله أحدهم أم لم يسأله،
قابل شخصاً أم لم يقابل، يقولها هكذا للزرع وللحيطان، وللحر أو
للسما وللأوز وللجنيه وربيع، وللأربعة أشهر والأربعة أولاد والولية،
وللبهيمة التي ماتت، وللبقرة التي يسحبها، وللشيخ منصور، ولنفسه،
وللدنيا كلها:

- بالذمة والأمانة والديانة، وبكل كتاب أنزل، بسبعة وثمانين
جنيه وربيع وبريزة للسمسار.

١٤٦

هي

- هوووه(*)

مبكراً وقبل يقطتي التامة جاءني الصوت منخفضاً قوياً فيه
همس «الفانفار»

أقشعر جسدي قلت:

- هوووه.

عاد يقول:

- قوم.. عندك ميعاد في العتبة.

استيقظت تماماً. نسيت الشاي، غادرت البيت، أصبحت في
العتبة. عندك ميعاد في العتبة. أين؟ لا جواب. متى؟ لا جواب. مع
من؟ لا أعرف. انتصف النهار، بدأ اليقظ، ضوء الشمس اشتد
وكأنما شحنت بطارياتها إلى آخرها. كثر الدباب، تزاخم الناس أكثر
وعزلتهم وضحت. عندك ميعاد في العتبة، أنا في العتبة، القلب
القديم لقاهرة قديمة. القاهرة واحدة كان لها قلب واحد.. اليوم بمائة

(*) كتبت في مايو ١٩٦٩.

١٤٢

قلب، بلا قلب، الميعاد في العتبة. كيف أطيع الصوت وأنا العلمي الذي لا يؤمن بالدجل؟ حاولت العودة، فشلت، أصبحت لا أعرف كيف. مقيداً حبس الميدان وحولى سور خفي مكهرب لا أستطيع اجتيازه. الميعاد متى ومع من ولماذا؟ لا أعرف. الميعاد في العتبة.

مر أسبوع وأنا سجين القهوة واللوكاندة والميدان، حدودي فتحات شوارع محمد علي والعباسية ومسرح الازبكية والمطافي. البنايات القديمة حراسي. الناس، النظرات، أجنحة الذباب، مقيدة مثلي بقوى القاهرة. كل شيء قديم تهب منه رائحة الزمن كجو مقبرة تفتح بعد مائة عام. الميدان يضيق، خطواتي فيه تتحدد أكثر، لم يعد باستطاعتي إلا أن ألف حول عربة الترام الثابتة في الميدان. في نهاية اليوم العاشر لم أعد أستطيع التحرك شددت قدمي بطريقة حاسمة ومجهولة إلى جوار العربة. ظللت في مكاني يومين بلا نوم أو طعام. في الضحى، وفي موكب أقبلت عربة «بويك» زرقاء من آخر موديل حلياتها النيكل مصنوعة من ذهب، العيون والأنفاه المفتوحة حولها وتتبعها، قائدها كالسائقين لدى العائلات الكبيرة يرتدي معطفاً أبيض وقفازاً أبيض وقبعة ذات حافة. . توقف أمامي وقال:

- اركب.

لمحت خيبة الأمل في كل العيون المعششة حولنا وكأن كلاً منهم كان يتوقع نفس الدعوة.

- أنا.

١٤٨

- أيوه أنت .

- متأكد؟

- أنت مش عندك ميعاد في العتبة؟ اركب .

أأركب .

سألت : على فين؟

قال : هي عايزاك .

- هي مين؟

- اركب .

أأركب؟

خفت .

التقت عينانا .

لم أجسر على المعارضة .

ركبت .

انطلقت العربة .

غادرنا العباسية في اتجاه ترب الخفير . بدأ طريق يصعد بنا ،
كان واضحاً أنهم انتهوا من رصفه من لحظات وأنه يطوى طياً بعد أن
تمر به العربة .

- أحنا في المقطم؟

١٤٤

سألت وقد بلغنا أعلى نقطة . لم تستدر الرقبة الغليظة ، لم أظفر بجواب . أعدت السؤال مجدداً وبصوت أعلى . لم يأتني إلا الصمت . سكت ، أتكون هي ؟ هي هي ؟ أتكون هي ؟ أم تراها أسطورية كعائشة التي قرأت عنها صغيراً . ولكننا لسنا في رواية . أعرف الفرق تماماً بين الاحلام والواقع وبين الاساطير والحقيقة . العربة حقيقية والسائق حقيقي وهضبة المقطم حقيقية ، حتى «فانفار» هوووه لا يزال يرن في أذني رنيناً حقيقياً له وجود كوجود حركة عقرب الثواني في ساعة معصمي . معصمي حقيقي ومستيقظ ويؤلمني حين أعضه .

- انزل .

كانت العربة دون أن أشعر قد وقفت ، وكان عقرب الثواني لا يزال يتحرك ولكن الزمن توقف . . مع العربة توقف لم أنزل .

- انزل .

الأمر صريح . . نزلت . انطلقت العربة بسرعة خاطفة ، أختفي هيكلها قبل أن يختفي صوتها . عدت إلى ما حولي ، صحراء واسعة ممتدة ، صحراء غير مستوية ، لا شيء هناك ولا في أي اتجاه . لا أحلم ، قطعاً لا أحلم . خلعت الساعة ، قربتها من أذني ، التكتكة . مسموعة . أنا لا أحلم ، أنا موجود والقاهرة مخفية في مكان ما ولكنها قريبة وموجودة .

سرت خطوات . . عشر خطوات كيفما اتفق . فجأة وجدت

أمامي . . بوابة بالتأكيد من زمن فعمرها لا يقل عن نصف قرن . بابها من حديد هائل الضخامة قد تراكمت فوقه طبقات الصدأ ، عليه زرع أخضر له سيقان غليظة عمرها أكثر بكثير من عمر الرجل ، وزهورها حمراء طازجة نبتت من ساعات . البوابة مغلقة لم تفتح من أحقاب . الظل جميل بعد لفح الشمس ، الخضرة تجعل من الظل جنة ، البوابة من جماد ولكنها أشعرتني بالونس . افتح يا سمسماً تفتح البوابة . واضح أنها مستحيل أن تفتح .

جلست أنتظر . . لم يكن أمامي إلا أن أنتظر . غابت الشمس نمت ، صحت . أشرقت الشمس ، مالت ، غابت . نمت ، حلمت أني أمثل دوراً في السينما وجني احتضن البطلة أمام مخرج عجوز . عيون الكاميرا كانت تضايقني . صحت ، أنا جوعان ، بدأت أمضغ الأغصان الجافة ، أحسست لها بلذعة كفت أن تكون نباتات سامة أو مخدرة ، أخطأت وألقيت ناحية الشمس نظرة . لم أستطع سحب نظرتي ، جذبتها الشمس تماماً وابتلعت وعيي . عميت . . عمي أبيض مليء بحرة كالدم . حين غربت الشمس عدت للوعي والرؤية ووجدت البوابة مفتوحة . دخلت ، انطلقت بكل قواي أجري . الحديقة واسعة ، مزدحمة بالأشجار . الظلام يتكاثف ، أنا جوعان والأشجار أشجار جوافة . أكلت ، عاودت الجري في خط مستقيم ربما أصل إلى هدف . شعشع الفجر ، أحسست بطريقة ما أنني محاصر . توقفت ، من خلف كل شجرة برز مارداً أطول مني بكثير ، ربما مائة أو أكثر . أحاطوني ، اكتشفت حين اقتربوا أنهم عرائس

خشبية ضخمة وأن مفاصلها من خيوط وأسلاك. تحركنا، أنا في الوسط وهم حولي. طال المشوار، غابت الشمس. لم أنم، ظل حراسي مستيقظين. في منتصف الليل سمعهم يتحدثون وقد انقلبوا من عرائس رجال إلى عرائس نساء.

سألت أقرب جاراتي الحارسات:

- من تكون هي؟ أتكون هي هي؟

لم تجبني. غمغمت لجارتها:

- هذا الجلف.. إنها أجمل من كليوباترا.

- أكثر أنوثة من أفروديت.

- ساقاها أمتع من وليمة جنسية.

- فخذها غيبوبة أروع من الوعي.

- هذا الجلف.

أشرقت الشمس.

كنت وحدي بلا حراس ولا عرائس.

في مواجهتي تماماً باب أنيق لقصر، القصر مبني بطريقة حديثة كأنه ديكور فيلم من أفلام المستقبل.

كان الباب مفتوحاً.

دخلت.

الصالة مساحتها عشرة فدادين، السجادة كيلو متر مربع، في
 الصالة ثلاثة كراسي في ثلاثة أركان.
 كنت متعباً، جلست على أقرب كرسي، نمت. استيقظت
 لأجد الجدران قد حفلت بألف باب.
 عرفت أن أضمن وأختار.
 اخترت أبعد الأبواب.
 دخلت.
 مشيت عاماً.
 أين تراها؟
 تعبت.
 حاولت العودة.
 وجدت نفسي في منتزه واسع مفتوح، والدنيا ربيع وفي الوسط
 «بيسين» يتسع لمدينة تستحم، وكانت فيه امرأة واحدة عارية تماماً
 وبعيدة جداً.
 كانت هي.
 وكان عليّ أن أنتظر.
 وانتظرت أنا والشمس، هي تشرق وتغيب وأنا لا أتحرك. وبعد
 أيام عرفت أنها غادرت الحمام وأنها في طريقها إلى التعطر والمنام.

وانتظرت .

- هوووه!

هوووه!

- ادخل .

بعد أحقاب .

دخلت المخدع .

السريـر كرسـي عرش ممدود، والجدران لوحات بانورامية حية،
والنور المصنوع مختلط بنور القمر بلا تفرقة، وبأصبعها أشارت
وسرت، وبأصبعها أشارت وتوقفت عند قدمي السريـر وخلعت
ملابسي، وأشارت وأقبلت جوارـي حملتني إلى الحمام، وأشارت
وجيء بي وقد أعددت تماماً، وأشارت وأصبحت بجوارها تماماً في
الفراش . وجيء بالطعام، وأكلت . . لي أعوام وأنا جوعان .
وبالشراب، وشربت . لي أعوام لم أغب عن الوعي . وفعلت كل هذا
وأنا ذاهل، فقد كانت هي أجمل وأروع من كل ما حلمت وتصورت،
لكأنما كل نساء العالم قشور وهي قلبهن جميعاً، أعماقهن، كل ما
فيهن من رقة وحنان وأنوثة .

وجاءت اللحظة واسترخت فوق الفراش تنادينـي، ولبيت
النداء . وأشارت وأطفئت الأنوار، وأشارت وانطفأ القمر . وتحسست
جسد ـا وأنا ذائب معها في قبلة، واقشعرت يدي وهي تلامس

فخذها. كانت خشنة مليئة بالشعر رفيعة طويلة كساق المعزة تنتهي
بحافر كحافر الحمار. اكتشفت أن الأنثى التي أنا غائص فيها كانت
مؤخرة رجل فاجر الشذوذ. غاص قلبي وانطلقت أجري أبحث عن
باب المخدع. . أتعثر في غثياني وأبحث عن باب المخدع ولا باب.
أجري ولا باب، وأتعثر في غثياني ولا باب.



لغة الآي آي

حالة تلبس

حينما ضبط المنظر . لم يكن عميد الكلية هو الذي غضب والتهبت الدماء في عروقه ، ولكنه الطفل الذي ولد وترى في « سوهاج » ومنذ أن بدأ يعي فهم أنه قد يكون مباحاً للرجل وعيباً للشباب ومحرمًا تحريمًا قاطعاً على الأطفال ولكنه للنساء جريمة ، أكثر من جريمة ، قد يوازي هتك العرض ، فما بالك وهي ليست رجلاً ولا طفلاً ولا حتى سيدة ولكنها فتاة ، بنت لا تتعدى السابعة عشرة بأي حال .

وحين وصل الغضب قشرة العقل المكتسبة ، وانفعل العميد الذي فيه ، كان أكثر ما ضايقه أنها لا بد في السنة الأولى ، طالبة جديدة ، يعني بالأمس فقط كانت طفلة في ثانوي .

ورغم كل غضبه لم يتحرك إلا حينما تحرك الوالد الذي فيه وتململ ، وأدرك كالمدهوش ، أنها تكاد تكون في سن ابنته (لمياء) ، حينما فقط استدار مغادراً النافذة في طريقه إلى حيث أضرار الجرس الموضوعة في مكانها الخالد الذي يتوارثه العمداء فوق المكتب .

وربما لو كان في الحجرة أحد .. أستاذ أو لجنة أو حتى لو كانت في انتظار مقابلة كائن ما لكانت الحركة قد اكتملت وكانت يده حتماً

قد وصلت إلى الزر :. والساعي المربط أمام الباب حضر والفصل لأسبوع أو لأكثر من الكلية أو حتى الزجر والضرب قد حدث .

ولكنه كان وحده في حجرة العميد الواسعة المهولة ذات النافذة الجانبية الضيقة . والحجرة تغري بالترث ، والنافذة الضيقة تغري بتدقيق النظر . وفي حالته كان الإغراء كبير بإعادة النظر . وعاد إلى إستمرار النظر .

الحجرة في دور أول لا يرتفع عن الأرض قليلاً . والفناء الخلفي الذي تطل عليه النافذة الجانبية خال تماماً من الطلبة فهو في العادة مكان غير مرغوب من الطلبة ، والساعة اقتربت من الثالثة . واليوم الدراسي انتهى ولولا مراجعة جدول الامتحان لما كان هو نفسه قد بقى إلى هذا الوقت ولما قام من النافذة منهكاً يتشاءب ويتمطى ويأخذ فكرة عن الجو بالخارج . ولما شاهدها ، تلك الطالبة الصغيرة التي ما أن بدأ عقله يتساءل عما أتى بها إلى هذا المكان المهجور ، وبعد انتهاء الدراسة . حتى كان الغضب قد اجتاحه . وجدها بكل بساطة وتحت أنف نافذته تخرج بل أخرجت فعلاً علبة سجائر من حقيبة يد مستطيلة ضخمة وعبثت بكراريس المحاضرات المختلطة بأدوات التجميل قليلاً وما لبثت أن أخرجت علبة كبريت أيضاً .

طالبة . واضح تماماً أنها لا بد في السنة الأولى . تدخن وتحمل معها في الحقيبة علبة سجائر وعلبة كبريت ؟! هكذا من النظرة الأولى تفجر الغضب .

ولكن النظرة التالية كانت نظرة مذهولة يستبعد تماماً أن يصدق أن

شيئاً كهذا ممكن أن يحدث ، مؤجلاً التصديق إلى أن يراها فعلاً وهي تدخن .. خاصة والفتاة كانت لاتزال ممسكة السيجارة في يد والكبريت في يد أخرى وكأئنا لم تقرر بعد ماذا تفعل بشأنهما .

وتأملها العميد ، كانت طالبة عادية لا يمكن إذا رآها في مجموعة أن تستوقف النظر ، شعرها مهوش على طريقة الجيل الجديد في الأناقة وعيناها ذابلتان لا بد من المذاكرة والسهر . متكئة تكاد تكون مستلقية بعد يوم متعب حافل على الأريكة المهيمة التي لا يستعملها أحد ، ولكن شبابها الفائز يكاد يقفز من وجنتيها المحمرتين رغم قمحية بشرتها ، ومن جسدها البارز في أكثر من مكان من ملابس الطالبة الرخيصة التي ترتديها .

وبوغت العميد حقيقة وهو يلحظ فجأة أنها بأصابع اليد الواحدة .. أصابع تلون سبابتها آثار الخبر قد فتحت علبة الكبريت ، وباليد الأخرى ، بيد ثابتة لا اضطراب فيها ولا خوف وبحركات تلقائية ليس فيها من مجهود الإرادة شيء ثبتت السيجارة في فمها وادارتها دائرة كاملة بين شفتيها وكأئنا لتبلل ، كالمدخنين العتاة ، فمها (الفلتر) ، وبنفس التؤدة والتلقائية وبضربة لا أثر للتدبير فيها أشعلت العود ولم تقربه من السيجارة في الحال ، أهملته بين اصبعيها قليلاً وكأئنا تستمتع برؤيته يحترق . ثم ما لبثت ببطء ، ودون أن تنظر ، وبعينين هائمتين في جدار الفناء البعيد ، أن قربت العود بحيث لامست شعلته طرف السيجارة دون أن تحيد يميناً أو يساراً وكأئنا يدها مدربة على الطريق . وجذبت نفساً واحداً اشتعلت بعده السيجارة . وبالمدخان الخارج . بعد ابتلاعه ، من

فمها ، أطفأت العود ، ثم لم تلبث أن القته في إهمال غريب فوق عشب
الممشى القريب .

وجن جنون العميد ، أنها مدمنة داعرة الإدمان أيضاً ، أنه هو نفسه
يدخن ولا يفعل شيئاً كهذا ، أنه يشعل السيجارة كلشنكان وبدخنها
كيفما اتفق ، ولكن هذه ، متى وكيف وفي أي بؤرة فساد قد تعلمت
كل هذا . أنها حتى لا تشعل الكبريت كالنساء التي قرأ مرة أنهم يشعلن
العود من الناحية البعيدة عنهن خوفاً غريزياً من ناره على ملامحهن
وشعرهن ، وفقط بعد الاطمئنان إلى شعلته بعد خفوتها يجروُن على تقريبه
منهن أما هذه الـ .. الطالبة . طالبة أولى هذه .. لا تخاف العود ولا النار
ويبدو أنها لا تخشى شيئاً في الوجود .. إنها لا يمكن أن تكون في السابعة
عشرة .. سن ابنته .. لا بد أنها أكبر بكثير .. بسنتين لا بد أو حتى بأيام
.. إنها جرثومة ، ان الفصل أسبوعاً واحداً لا يكفي أبداً .. الرfid النهائي
هو ما يجب عمله لا أقل من الرfid النهائي .

ولكنه لم يعرف كيف حدث هذا فقد وجد شيئاً أكبر بكثير من
كل غضبه وكل حماسه للضغط على الجرس واستدعاء الساعي واتخاذ
بقية الإجراءات ، شيئاً أجبره على أن يقف في مكانه لا يتحرك وينتظر
ويراقب ويعاود الرؤية .

ورفعت الفتاة يدها إلى فمها مرة أخرى ، ولكنها انتظرت قليلاً بفم
السيجارة قريباً من فمها ثم بدا وكأن الوقت قد حان وهكذا يبطء لا
تلكؤ فيه أسبلت جفونها حتى كادت تغلقان تماماً ثم ضمت شفيتها حتى

ضاقت الفتحة بينهما وتكرمش غشاؤهما ومن الفتحة الضيقة أدخلت فم السيجارة ، وجذبت نفساً ، لا لم يكن جذاباً ، كان إمتصاصاً ، ليس امتصاص دخان ، لكأنه رشف أعظم سعادات البشر ، رشفة ببطء وباستعذاب وبملايين الأفواه ، كل خلية من خلاياها بدت وكأنها أصبح لها فم تجذب به وترتشف ويتموج جسدها كلها تموجاً غير منظور ، وعلى دفعات وكأنه عطشان يجرع أعذب الماء ويريد أن يستمتع بكل قطرة من قطراته ، حتى إذا ما بدا أن كل دقيقة فيها قد أخذت كفايتها وظفرت بسعادتها الخاصة ، رفعت السيجارة عن فمها ببطء ، وكبرياء وعينين قد فتحتا ببخل شديد وكأنها تخاف أن تهرب من فتحتيهما النشوة .

واستحال غضب العميد إلى لحظة صدمة مفاجئة تكان تتحول إلى زعر .. خوف شديد أن يستمر في الرؤية ، خوف الخائف على نفسه هو من استمرارها ، والفناء بدا له كالبقعة المهجورة المقطوعة عن العالم ، يحفل بسكون ، وزمته ، ورائحة ربيع مقبل مخيف ، وقرب أيام نهاية العام والامتحان ، والفتاة كأنها جنية من جنيات الظهر انشقت عنها خرابة الفناء فجأة ، متكئة تكاد تكون مستلقية فوق الأريكة ذات الحديد المتراكم فوقه الزمن والصدأ ، الناقص مقعده خشبة الوسط .

وبرهة المذهول هذه المرة راح يترقب كيف تخرج النفس .. فمها المضموم أبقت مضموماً هنيئة ، ثم فتحت نصف فتحة وبحركة فيها كسل أنثوي ضاقت له عيناه راحت توسع من فتحته قليلاً قليلاً في نفس الوقت الذي كان صدرها قد بدأ يتسمع وكأنها بسبيلها إلى التهد حرقه ولوعة ،

ربما على فراق تلك السحابة الدخانية الصغيرة التي فجرت في جسدها المستلقي تعباً واسترخاء حيوية وأضافت إلى صباها صبا . يتسع حتى ليجذب الدخان إلى أعماق أعماقها ، ليلامس أقصى أرجائها وليلتقي بكل جزء من صميم صميمها لقاء الوداع وفي نفس الوقت الذي يعود فيه الصدر إلى وضعه الطبيعي وحجمه ، يكون الدخان هو الآخر قد بدأ يخرج ، من الشفتين المنفرجتين أضيق أوسع إنفراج .. تخرج دفعاته الأولى مرسله على سجيتها دون ضغط أو إكراه ، تصنع دوائر لولبية وضبابات ثم تتلوها الدفعات الخارجة بالإرادة متأنية موجهة قد شحت دخانها وتغير لونه وكأنما امتصت منه كل النظرة والحياة .

قطعاً لا بد من فصلها . في منتصف السجارة تماماً والجريمة سيدق الجرس ويهمس إلى الساعي ويذهب الرجل ويطبق عليها وساعتها سيرف اسمها ويفصلها .

ذلك كان قراره ولكن ما ضايقه في الحقيقة أنه بدا وكأنه قرار شخص آخر ، بعيداً عنه جداً ، ذلك البعد الذي أصبح بين عقله وإرادته ، إرادة لا يدري لماذا هي رخوة لا تستطيع أن تنفذ أمراً وكأنما هي واقعة تحت تأثير مخدر سخيّف ملعون لا يعرف كنهه ، إدارة لم تعد تستطيع أن تفعل إلا أن تنظر وتستمر تنظر .

وأخذت الفتاة نفساً آخر ، وهذه المرة أخرجت دخانه من فمها وأنفها معاً ، أنف فتحاته صغيرة دقيقة كأنها براعم فتحات يخرج منها الدخان باهتاً معتصراً ليصطدم بالدخان الخارج من الفم الضيق المضموم المكرمش ..

وأحس العميد بأشياء داخله تتنبه . وتلفحه سخونة ليس مبعثها الجو .. وبسرعة في دقات القلب لا علاقة لها بمرض الضغط ..

وتوالت الأنفاس ، وفي كل مرة تجذب النفس على مهلها وبتلذذ سعيد تنغلق له عينها ، وكأن شفتيها المضمومتين على فم السيجارة تبتلان لشيء أو ترشفان شيئاً ، رحيق السعادة ربما أو أكسير الحياة ويسترخي جسدها ويتدغدغ للنفس ثم تبدأ عملية الإخراج ، وتفعل هكذا كله بإندماج شامل تام وبلا إرادة .. وبطبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع ، والأنفاس تتوالى ويستحيل ما يحسه العميد إلى تيار غريب يجوب جسده كله مع كل نفس ، ولا يوقظه من تعب يوم أو إنهاكه ولكن يوقظ أجزائه وأجهزته من رقدة عمر طويل ، ويمحو هكذا في ومضة آثار سنين وأمراض ومشاكل وحياة تصلبت وجفت واستحالت إلى درب ضيق محدود من ناحية منه زوجة جف منها ماء الحياة ولم تعد تفعل إلا أن تناكف وتضايق وفي الناحية الأخرى عمل وروتين لاجدة فيه ولا أمل . وصراع ، وما بينه وبين رئيسه مدير الجامعة من حزازات ، وهو كالبنديل رائح غاد بينهما ، الكلية تدفعه إلى البيت والبيت يدفعه إلى الكلية ، بندول عجوز مصاب بأكثر من مرض ووجع وفي صدره أحقاد .

ومنتصف السيجارة الذي كان قد حدده وصلته الطالبة ولكنه كان في حال لم يعد يعرف أن كان ما يحسه سخطاً أم إعجاباً أو أن كان إنفعاله إنفعال نشوة أم إشمئزاز ، كل ما أصبح يفعله ، حتى ولو لم ترض إرادته ، أن يظل يرى الفتاة ويراقبها .. جسده نفسه ، عيناه ، أنفاسه ،

لسانه الذي بدأ يجف في حلقه ، ساقاه اللتان شدت عضلاتهما واشربأت ، كلها تراقب ، كلها مع الفتاة وسيجارتها في التحام لا يمكن فصله أو إنهاؤه ، التحام متواصل حي ينبض نفس نبضها حين تطبق بفهما الضيق على فم السيجارة وتجذب وتدوخ بالنشوة ثم حين تفتحه نصف فتحة وبه أو بأنفها أو بهما معاً تخرج اللوعة والحرقه والنفحات الهاربة وفي أعقابها تلك التي تدفعها لتخرج برفق وحنان وتؤدة .. نبض متوال متسارع ، والتحام ذو حرارة مستمرة متزايدة تتصاعد إلى أعلى مراتب عقله وتذيب ، تذيب أشياء كثيرة ، تذيب أفكاراً تحجرت كالومياء المصيرة وأصبحت حكماً وعقائد ، وتفتح مناطق حاصرتها التقاليد وعزلتها ، وتفقد الأفكار بسهولة وتنطلق بسهولة ويبدو المستحيل ممكناً ، ولماذا الحرس والساعي والتأنيب والفصل ؟ لأنها تدخن وسنها سبعة عشرة عاماً ولأنها طالبة وما الفرق بين أن تدخن وهي طالبة وتدخن وهي خريجة وكله تدخين في تدخين ، ولماذا نحرمه على جسد شاب فائر ، ونحلله لسيدة أو لعجوز تسعل وتكح وتبصق كلما جذبت نفساً ، أليس هو قائل نفس المبادئ وهو في العشرين والثلاثين حين كان في بعثته يرى أن مشكلة مجتمعه الأساسية أن أفراده يحبون في عصر بتقاليد قرون مظلمة مضت ، وأن بلاده لا يمكن أن تصل إلى أي تقدم علمي أو صناعي أو حضاري إلا إذا تم التحرر وعاش الناس فيه بتقاليد عصرهم نفسه وقيمة وأنواع حرياته .. بإعطاء أفرادهم حتى حرية الخطأ وألا نمنعهم بالنصح والزجر عن خوض التجارب ونورثهم صوابنا نحن وخطأنا بل نتركهم لكي يستخلصوا هم من تجاربهم ما يرون أنه الصواب وما يرون أنه الخطأ .

وبدأ جسد الطالبة الصغيرة يتململ ويتلوى ، ونهمها إلى جذب الأنفاس يشتد ويتلاحق وكأن في داخلها تحفر فجوات هائلة تحدث فراغات سريعة مذهلة تطلب الإمتلاء لا بالدخان ولكن بالمتعة الحادثة من حريتها في أن تنفرد بنفسها وبالسيجارة وتمتص منها ما تشاء وتبتلع ما تشاء ، والعميد يحس بجفاف ريقه يزداد وحنجرته تتسع وتزداد قدرتها على الرنين وكأنها تستعد لإطلاق صرخة العمر ، وعرق غريب ذو رائحة نفاذة لم يشمها من سنين ينبت تحت ابطيه ، وعرق آخر أكثر غزارة يبلل وجهه ويضرب زجاج نظارته حتى ليخرج منديله بسرعة المحموم ويمسح زجاجها لكي لا ينقطع أبداً إبصاره والدنيا حافلة بمؤامرة صمت تام ، سكون غريب لا يمكن أن يكون إلا بفعل قوة خارجية قاهرة ، سكون مركز في تلك البقعة من الفناء الخلفي ، سكون ليس خارجه سوى العدم ، سكون عالم خال من الحياة تماماً ليس فيه حياة سواء وسواها ، هي في أقصى درجات الاستمتاع وهو في أقصى درجات الإنفعال .. وبينهما ، تفصلهما تماماً ، وتربطهما تماماً ، تلك السيارة . والحياة تبدو حلوة جداً ، كل لحظة فيها عمر بأكمله ، وإرادته قادرة على اكتساح الجبل ، ولا شيء في الوجود مستحيل ولن يرضى بأقل من أجمل وأغنى بنات العالم زوجة له ، وخمس سنوات فقط يصبح فيها أعظم علماء مصر بل الشرق والغرب معاً وماذا تكون جائزة نوبل مكافأة له . وحقيقة ما هذه الحزازات بينه وبين المدير أليس هو أكبر منها وأقدر بكثير ولماذا الحزن والمرارة لكل ما فات والآتي أروع منه بكثير ولماذا التعتت مع أستاذ القسم المساعد ، لماذا لا يعطيه الفرصة أنه شاب ومن حقه أن يطمح إلى كرسي الأستاذ .. المشاكل نحن نخلقها

حين نفتقر إلى التفاؤل والتفاؤل هو الإرادة ، وبالإرادة القوية تصبح الحياة كالبساط الممهد ، بساط الريح .. عش واضحك وامرح واطلب القمر يأتيك .. أردته إرادة قوية حقيقية يأتيك .. وكله .. كل ما في الحياة آت لا ريب فيه ..

واقتربت السيجارة من نهايتها ، وتلاحقت أنفاس الفتاة في صعود القمة ومضى جسدها يتهدج وقد أصبح كله صدراً يلهث وشفافاً بدأت من الجرعات المتلاحقة ترتعش وتضطرب ، اضطراب الحمى ، حمى شملته هو كله .. والينبوع الخفي فيه يتفجر بأقصى قوته ويصل به إلى قمة الانفصال تلك التي ينتهي معها الزمن ، ولو للحظات يتوقف الزمن ، يغرب إلى ما وراء الإدراك ، ويصبح الحاضر مجرد لون . لون أحمر مدمم في لون الشفق .

وأخذت الفتاة من السيجارة التي كادت تارها تحرق الأصابع نفساً ، كآخر شهقة ثم سكنت تماماً وكأنما غابت عن الوجود . ومن بين أصبعيها اللذين انفرجا استرخاء انفلتت بقية السيجارة واستقرت ذابلة ممصومة مغضنة على الأرض .

وأحس العميد بعد الرعود والانفجارات والحمى بسلام مفاجيء ممتد كأنه سيبقى إلى الأبد ، يشمله ويجعله يتمنى أن يكف الكون عن حركته لتبقى اللحظة في ديمومة لا تنتهي ..

ولكن الديمومة انتهت فلأمر ما بدت الفتاة وكأن العيون المستترة التي تحس الخطر دون أن تراه قد أدركت شيئاً فقد ضمت جفنيها بشدة ثم

فتحتهما على آخرهما ليلتقيا ، هكذا ، كالطلقة المصوبة بدقة ، يعني العميد في تطلعهما من خلف زجاج النظارة .

وللأزمن التقت النظرات ، ولكنه لم يكن لقاء ولا وقتاً ، ولا شيء يقاس ، كان إرتطاماً ، سقوطاً من حالق ربما ، ماء بارداً كالثلج ، برودة الواقع الذي ترتجف لهوله المدارك ، الثلج الصاعق .

وتكهربت النظرتان بحجل ، لا قبل لأيهما به ، بحجل سريع مغور ، جارح .

وفي جزع هائل انتفضت الفتاة جالسة وقد غاص قلبها وييد ترتجف بالرعب دلقت كل محتويات حقيبتها لتستخرج في لمح البصر كتاباً ، تعود معه تنكب ، كالطالبة المجتهدة على صفحاته .

وكانت حركته ليعود عميداً أبطاً .. ممزوجة بحجل أعظم وبتأنيب أشد هولاً ، وتحرك خافض البصر طويلاً نحيلاً عجوزاً مخني الأكتاف حاملاً متاعب الدنيا كلها من جديد ، وليس في رأسه واضحاً سوى الواجب ، ومالابد من عمله .. والدائرة البيضاء الملساء الصغيرة فوق مكتبه ، والعقاب .

وبأصبع عادت إليها كل عصبيتها وكأنما تمتد من صدر ضاق بالدنيا ، ضغط على زر الجرس .

ولكن أصبعه كانت لا تزال بها بقية من ارتعاش ، ارتعاش ليس بالكبير أو الضغط سببه .

ديسمبر ١٩٦٢

الزوار

ما كاد آخرهم يخرج ، ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة بالقطار المزدهم حين يصل إلى محطة النهاية ، حتى التفت « مصمص » (وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقي) إلى سكينه التفاته حادة ، وقالت بصوت عالٍ :

— بقى اسمعي يا ..

واحتارت قليلاً هل تقول لها يا بت يا سكينه ، أم سكينه فقط .. وسكينه كان اسمها سكينه وهي سكينه فعلاً . وهو اسم قد يبدو ريفياً ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح . كانت من مدينة ما ، واحدة من عشرات مدنناً أنصاف الكبيرة مؤدبة جداً خجولة جداً ورقيقة أيضاً . وكانت تحتل السرير المجاور لمصمص المرأة الضخمة الكبيرة الصدر والثدين التي يميل لونها إلى السمرة ، ودائماً ترتدي قميص نوم أبيض .

والسريران كانا في عنبر واحد من العنابر الكبيرة التي تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية ، العنبر المعهود ذو

الإثنين والعشرين سريراً .. عنبر الحريم. يسمونه .. له تومرجية سليطة اللسان ومنفوخة الجسد مكورة كالبطة . وتومرجي أعمش مفروض أن لا يدخل العنبر وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه ، ولكن أحداً لم يعلن يوماً هذا المفروض وأحداً لم ينفذه .

وكانت سكينه الضعيفة الرقيقة الخنونة تحس إذا أطلت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلاً أناساً ضعفاء محتاجين إلى الشفقة ، كانت مريضة بمرض مزمن ولها في المستشفى ثلاثة أشهر وأمنيتها الكبرى أن تغادره وتخرج ، ولكنهم لا يخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض ، أنهم يفعلونه بأنصاف الابتسامات أحياناً وبهز الرعوس والطبوبة أحياناً أخرى ... وأحياناً بمجرد القول : حالاً .. إن شاء الله تخرجي .. أما سبب بقائها أو إبقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطباءه الصغار عليه .. وأن يريه لزملائه الكبار ، كما لو كان يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع يريد يقتنيها ..

وسكينه لم تكن مقطوعة من شجرة .. كان لها إخوة . في الحقيقة أخ واحد غير شقيق واختان . وكان لها خالات وعمات وقريبات كأخي إنسان منا وكل إنسان . ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة . طوال الأشهر الثلاثة التي مكثتهم بالمستشفى لم يزرها أحد .. من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه . تلك حقيقة تعرفها هي .. ويعرفها الجميع حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها .. وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينه في أحيان كشيء لا بد منه ولا بد من حدوثه ولا بد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه ، ولكن مشكلتها الأكثر

حدة في الواقع أن يزورها أحد .. أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يداً توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها : قومي يا سكينه .. جالك زوار ..

طوال أيام الجمع والاثنين ، والحقيقة طوال أيام الأسبوع يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابره ثم على أسرته وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة .. ماعدا سريرها هي لم يكن يهوب ناحيته أحد ، أو للدقة كان زوار جارتها مصمص يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها وهي من خجلها لا تعترض أو تأتي بحركة تسبب حرجاً لأحد كانت تغادر الفراش نهائياً وتذهب تتمشى في الطرقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القدرة هناك حيث تتخذ مستودعاً لأكوام الزباله وقشر البرتقال والموز واليوسفندي الآتي لابد مع كل زيارة .

وهناك .. في تمشيها هذا كانت سكينه تحزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة وأن لابد ثمة خطأ في الكون جعلها تبقى بغير زوار .. إن أخاها باستطاعته أن يخطيء مرة يزورها وكم زارت هي أخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم في هذه الحالة أن يردوا الزيارة . ماذا حدث حتى جمد قلوبهم ، وقساها ؟ ماذا حدث حتى نسيتها الجميع هكذا ونسوا أنها في مستشفى ! ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها وأقربائها وحتى بصديقاتها وبالدينا كلها ؟ لم تكن تدري حتى مجرد إرسال خطاب .. ما أرسل لها أحد خطاباً أو بعث بسلام ..

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد .. كانت أعمق أعماق قلبها هي

التي تكتئب وتحزن فقط .. أما كل ما على السطح من وجه وملاح فقد كان يلتف دائماً بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذي تتلفع به ..

وطالت المدة ثلاثة أشهر .. وأربعة وخمسة ، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها مصمص والوضع على ما هو عليه ، وضع عجيب غريب . فهي صحيح ضيقة بالمستشفى والبقاء فيه تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره . ولكنها في نفس الوقت ، وإذا ما سألت نفسها لا تعرف أبداً لمن وإلى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل .. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه في انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هي عريس ، ولكنها مرضت وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ وانتهر أول فرصة أدخلها المستشفى ربما كي لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات أنفاسها . بل انها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت .. وشقيقاتها كلهن متزوجات ، وهي ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أي أخت بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فألى من تذهب وإلى أين ؟

وضع عجيب غريب ، فهي ضيقة بالمستشفى ضيقاً لا حد له ومستسلمة لهذا الضيق والحياة في المستشفى استسلاماً لا حد له أيضاً كالسجين الذي يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية ولكنه حين يجد أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك ، يستسلم للسجن . يضيق به ويستسلم له ويكاد يجن بين الضغطين ..

ولم تأت المسألة فجأة .. بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكونية تفكيراً

جدياً أو تدبرت ما فعلت ، ولكنها هكذا جاءت .. مصمص كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذين لا يقل عدد أقربائهم وأنسابهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأي حال من الأحوال ، ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور مصمص لا أقل من خمسة أو ستة زوار .

يوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يصل إلى الخمسين .. وكان يبدو على مصمص أنها في الوقت الذي تعتب فيه على فلانة الفلانية لأنها لم تزرها ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعباً وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار ، والمسألة بدأت بأن راحت سكينه تسأل مصمص عن الزوار إذا قدموا ، من هم . وما هي درجة قرباهم لها . وماذا يشتغلون ، ولم يكن الأمر مجرد سؤال . دأبت سكينه على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لمصمص بعد خروج زائر ..

— مش ده كان مصطفى ابن خالتك اللي بيشتغل في السكة الحديد ..

فتبته مصمص وتقول :

— الله .. وانتني إيه اللي عرفك ؟

حيثُ تحس سكينه الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها .. غير معقول بالمرّة أو مقبول فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت من الزائر وخمنته وجاء تخمينها بالضبط مطابقاً للحقيقة .

ولكن هذه السعادة ، بالتكرار . لم تعد تحدث ووجدت سكينه نفسها مدفوعة إلى خطوة أخرى كي تحس بنفس سعادتها السابقة .

فبدأت تقدم مساعدات وتسرع مثلاً وتحضر كراسي لزوار مصمص — أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاي أو الغازوزة أسرعت سكينه إلى البوفيه .. تحضر الطلبات بنفسها .. وكانت مصمص تأخذ الأمر في أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينه لا أكثر ، ولكنها بدأت تعجب فعلاً وقد راحت سكينه تقوم بأعمال غير معقولة أبداً تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتدايهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه ، وتلعب مع الأبناء الكبار وتقول لهذا الزائر .. والنبي وحياتك ابقى سلم على فلانة وفلان وكأنهم أقرباؤها هي ..

بدأت مصمص تستعجب ، ومصمص لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينه أبداً أنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت في الأمر ما يريب .. وكانت سكينه قد زودتها في نظرها كثيراً وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير ، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة . ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم يتحدثون عن أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تحجل ولا تبتعد . بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناشئة المتحمس الغيور ، وتبدأ الآراء أيضاً .. وتنتظر مصمص على أحر من الجمر أن « تحس » سكينه مرة فتقوم أو تغادر الفراش أو على الأقل تولى إنتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة إذ كانت سكينه لا تفعل شيئاً من هذا أبداً ، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضاً تتحدث وتعقب وتحاول أن تدخل مع مصمص في أخص الشئون وفي الغويط . ومصمص . تكظم وتكظم . فصحيح أن سكينه تتدخل ولكنها تفعل هذا وهي راقدة في نفس فراشها لا تغادره . بالعكس أن زوارها هم

الذين يجلسون على فراش سكينه وبهذا يعطونها الفرصة للإندماج والتدخل ..

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر وبدأت سكينه تقتنص زائراً أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط في حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهي الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم مصمص وكأنهم جاءوا لزيارة سكينه أصلاً ..

ولقد تكرر الأمر مرة ومرة ، ومصمص صابرة تكظم إلى أن كان هذا اليوم الذي قررت أن تفجر فيه ، وهكذا ما كاد آخر زائر في يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظمة كقطار وصل إلى محطة النهاية حتى التفتت مصمص إلى سكينه التفاتة حادة ، وقالت بصوت بالغ العلو ..

— بقى اسمعي يا ..

واحتارت قليلاً .. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينه ، أم تكتفي بنهرها وتقول يا سكينه فقط ، فإذا قالت لها يا سكينه فيكيف تستطيع أن تصب عليها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالي الأسمر من غضب وضيق ، احتارت مصمص .. وكالبندقية صوبت عينها إلى سكينه وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف إنفجارها .. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها إذا استمرت في اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا فسوف ترمط الأرض بزوارها . زوار سكينه إذا جاءوا والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم ..

صوبت مصمص عينيها إلى سكينه لتجدها راقدة في سريرها نصف مغطاة الجسد تحمق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظة سعيدة مرت .. وفجأة اكتشفت مصمص الجهنمية أن تهديدها الذي يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرّة . أجل هكذا . في وضمة مفاجئة اكتشفت مصمص أن سكينه لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد .. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها وقالت : بقى اسمعي يا ..

وحين التفتت سكينه بدهشة ونوع من الذعر تسأل : نعم يا ست مصمص .. لم تغير مصمص رقدتها ولا رفعت عينيها عن وجه سكينه .. كل ما في الأمر أن صوتها إنخفض فجأة حتى كاد لا يسمع ..

وقالت :

لا .. ولا حاجة .. ده كانت كلمة كدة وعدت ..

قالت هذا وهي ترمق الفتاة بعينين مشتتين فوق وجهها . يكاد يطفر منهما الدمع .. وظلت مثبتة عينيها فوق وجه سكينه لا ترفعهما وكأنها تراها لأول مرة .. رفعية نحيلة مقطوعة من شجرة ...

ديسمبر سنة ١٩٦٢

معاهدة سيناء

الأبطال هنا ثلاثة .. لا بل أربعة ، إذا حسبنا « المكينة » التي كان لها دور لا يقل خطراً عن دور الإنسان .. وأول الثلاثة هو « ماشنسكي » الروسي الذي يسميه العمال في المعسكر « ماشا » وهو أحمر الوجه فاقع الحمرة ، تلك التي تميز وتقف حداً فاصلاً بيننا نحن شعوب آسيا وأفريقيا وبين الأوربيين .. والثاني كان « بيل » أو إذا أحببت الدقة « وليم » الأمريكي المعظم . ذو القتب والنظارات والجسد الرشيق النحيل الذي ربما طال في الهواء لو نفخته . أما الثالث فلم يثن بعد أوان الحديث عنه .. أما رابعة الأربعة ، المكينة . فهي آلة ضخمة جداً في حجم البيت الصغير أو أكبر قليلاً وثمنها كذا عشرة آلاف جنيه ، وأصلها روسي . انتجتها مصانع ليننجراد وجاءت إلينا كجزء من القرض . وجاء معها ماشنسكي لديرها ويشرف عليها ومن أول يوم له في المعسكر ألغى العمال والموظفون كلمة ماشنسكي نهائياً واستبدلوها بوعي أو لا وعي بكلمة « ماشا » .. والكينة وماشاشا والمعسكر كله .. هناك .. على مدد السفر .. بعيداً جداً ، قرب حدودنا الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر .

و ذات يوم حدث للمكنة . مثلما يحدث لأي مكنة في الدنيا أن تعطلت ووقف ماشا أمامها يدور حولها ويفتح مفاتيح ويغلق صمامات . ويختبر ويحس . وأخيراً نطق وقال للمهندس المصري المشرف على المعسكر (وهو رجل في حوالي الأربعين وشعره أسود تماماً وله كرش وكان زمان يعتبر نفسه دون حوار) قال ماشا بوجه صارم مبمبس : إن الآلة قد كسرت فيها قطعة مهمة جداً ، ولا يمكن أن تعمل إلا إذا جىء لها بقطعة الغيار تلك ..

وهكذا أرسل إلى مركز المؤسسة رسالة مستعجلة بطلب النجدة .. وبقي هو والخمسائة عامل والخمسون موظفاً وتكنولوجيا في إنتظار رد القاهرة .. وهدأت الحركة في المعسكر فلا حفر ولا ضوضاء آلات ولا أصوات مكن . ولا أغاني عمل . لا شيء سوى مواويل الحظ والكسل تنطلق خافتة من عقيرة حمدان أبو طالب صعيدي قنا القح والمغنى شبه الرسمي للمعسكر .

هدأوا جميعاً ينتظرون . ولكنه انتظار بلا أمل . فلم يكن أحد منهم يتوقع أو يصدق أن الروتين في المركز سيحقق المعجزة وأن قطعة الغيار ستصل بأسرع وقت كما طلب السيد عبد الحميد في استغاثة ..

ورغم أن رسالته أو قعت مركز المؤسسة بالقاهرة في دوامة حرج شديد إذ أن قطع غيار هذه الماكينة بالذات لا توجد إلا في روسيا ودون إحضارها من هناك مصاعب نقدية ومصرفية وإقتصادية لا تعد ولا تحصى بحيث لا أمل في حضورها قبل ستة أشهر أو سنة ..

رغم هذا ، إلا أن قطعة الغيار أحضرت على وجه السرعة ، وجاءت في وقت كان المعسكر كله قد جاءه أمر بالاستعداد للرحيل وإنهاء العملية وقد رأى المركز أن يستغني عن الحفر في تلك المنطقة كلها .

أما كيف أحضرت تلك القطعة فلا أحد يدري للآن ، ولا أحد يدري كيف تسرب الخبر إلى شركة « إنترناشيونال » الأمريكية ولا كيف استطاعت بين يوم وليلة أن تتصل بالمركز وتخبره أنها على إستعداد لتوريد قطعة الغيار اللازمة ، وفي الحال .

وبين تهييص وطبل وأغان وفرحة وصلت قطعة الغيار إلى المعسكر ووصل معها المستر « وليم » أو كما أصبح هو يطالب الذين يعملون معه بأن يطلقوا عليه الاسم الذي تعود الناس أن ينادوا به وليم وهو « بيل » . ما كاد يظهر المستر بيل بالعربة وفوقها الصندوق الخشبي الضخم الذي يحوي قطعة الغيار حتى اعتقد الجميع أن خلاص ، المشكلة انتهت ، وليس هناك سوى بضع ساعات يتم فيها تركيب قطعة الغيار ويستأنف العمل سيره .

وبأنفسهم ذهب العمل وعلى رأسهم السيد عبد الحميد يزفون الخبر لماشا الذي لم يكن قد غادر من لحظتها حجرتة . وكانوا يتوقعون أي شيء إلا ما حدث ، إلا أن يزجرهم ماشا ويهب في وجوههم ثم ينطلق خارجاً ذاهباً إلى حيث قد تجمع حول المكنة عدد كبير من الناس يحيطونها ويحيطون بيل وصندوقه الخشبي معها . وما كاد يصل حتى صرخ ماشا في الجميع قائلاً : لا .. لا يمكن ..

— لماذا يا ماشا ؟

— مستحيل أن تصلح قطعة غيار أخرى غير القطع الروسية للمكنة .

— ولماذا لا نجرب ونرى ؟

— لا .. لا يمكن .

وقلت اننا لا نياأس ، وعلى هذا بينما كان ماشا يرفض ويصر على
الرفض كان العمال يفكون الأسلاك من حول الخشبة ويخرجون قطعة
الغيار من الصندوق ويضعونها أمام ماشا قائلين : فلنجرب .

ولكن ماشا أصر على الرفض قائلاً :

إن المكنة السوفيتية لا تصلح لها إلا قطع غيار سوفيتية ..

قال هذا وهو يشد على كلمة سوفيتية الأولى والثانية .

وانقضى يوم ، وكاد يوم آخر ينقضي والتوتر لا يزال قائماً على
أشده ، والعمل معطل تماماً ، والعمال جالسون القرفصاء ورءوسهم بين
ركبهم يسلون بعضهم البعض ويضحكون ، وكلما خرج ماشا من
حجرته أو دخل لا بد يلمح هذا العدد الضخم من العمال ، والظاهر
أن شيئاً قد تغير في تفكيره . إذ فوجيء الجميع به يخرج إليهم قائلاً لأجل
خاطرهم فقط ولأجل أن يثبت لهم أنه على حق وأنه على خط سيجرب
أمام أعينهم قطعة الغيار الأمريكية ..

وهاص المعسكر فجأة .

وكان لابد لاختبار قطعة الغيار الجديدة من عقد (كونسنتو)
هندسي من ماشا وبيل والمهندس المصري المختص . مؤتمر ظل ماشا في

أوله ينظر شزراً وباحتقار شديد إلى بيل ، وبيل يقابل نظراته بعينين كأنهما فوهتا مسدسين من مسدسات رعاة البقر في أفلام السينما . ولكن الحقيقة أن تلك النظرات لم تستمر كثيراً فسرعان ما أدرك ماشا أن بيل يفهم حقيقة الميكانيكا وأن الناس في الولايات المتحدة ليسوا جهلة كما كان يظن ، واكتشف بيل هو الآخر أن ماشا الروسي ليس مجرد اسطوانة مسجل عليها أقوال ماركس ولينين ، وإنما هو آدمي أيضاً يغضب أحياناً ويثور ، وأحياناً يرضى ويتسم ، ابتسامة صافية جداً كابتسامات الأطفال .

وكان عمل المهندس المصري أول الأمر أن يمنع الاحتكاك المباشر ، ويلطف الكلمات الحادة ، ويقول لبيل : طب امسحها في دفتي أنا ، ويقول لماشا : معلشي عشان خاطري ، إلى أن بلغ مراده وبدأ الجو يهدأ ، وبدأ الاثنان يتناقشان المناقشة الهندسية الخالصة .

وثبت من المناقشة ومن الاحتكام للمقاسات ، ومن التجربة العملية أن قطعة الغيار الأمريكية تصلح لتحل محل القطعة الروسية .

وتهلل وجه المهندس المصري طرباً للنتيجة ، النتيجة التي كان مفروضاً أن يسرها ماشا وبيل ، ولا أحد يدري إن كان أيهما قد تولاه السرور ، إنما الذي لاشك فيه أن أحداً لم يكن ليستطيع أن يمنع الصدام الذي نشب حالاً .

فما دامت قطعة الغيار قد أثبتت صلاحيتها فلا بد إذن من تركيبها وتسيير المكنة بها ، من يركبها ؟ ذلك هو الصدام المروع الذي نشأ .

ماشيا يقول : إن المكينة روسية وأي تغيير فيها أو تبديل يجب أن يتم بمعرفته هو . وبيل يقول هذه المكينة كانت روسية وهي الآن وبغير قطعة غيار الأمريكية مجرد كتلة من الحديد الخردة ، ولا بد له هو أن يتولى عملية التركيب والتشغيل .

ويثور ماشا ويقول لا يمكن أن أسمح لمندوب شركة أمريكية احتكارية رأسمالية متعفنة أن يعيث فساداً في مكينة أنتجتها أيدي الطبقة العاملة السوفييتية .

ويستشيط بيل غضباً ويقول : أيها الشيوعي ..

وترتفع أكثر من مائة يد صعيدية وبحراوية ، أيد مشققة وأيد ناعمة مثقفة ، تحول بين الاثنين وتطلف الموقف .

ويعود العبوس العظيم يحتل وجه السيد عبد الحميد ، فخلاف ماشا وبيل ليس نقمة ولكنه نعمة تهبط أول ما تهبط فوق رأسه .

وتطور الخلاف وتبدلت الكلمات الزاعقة الطائشة حتى عاد المعسكر إلى إنقسامه فلزم ماشا غرفته ، وجلس بيل جلسة المتحضر أمام بابيه ، ووقف السيد عبد الحميد ينقل بصره بين المكينة المفتوحة البطن وبين قطعة الغيار الراقدة بجوارها ، وهو لا يحس مطلقاً بالشمس المنصبة فوق رأسه . وبآخر ما يستطيع من جهد حاول مرة أخرى أن يجمع ماشا وبيل كي يتفقا ويركب أحدهما أو كلاهما القطعة ويستأنف العمل ، ولكنه ما كان يجمعهما إلا ليتشادا ويتفرقا ..

وكل منهما يقف موقفاً صلباً عنيفاً وكأنما قد استحضر في جسده

الواحد عناد أمته بأسرها كل طاقتها على القتال . أجل .. في تلك البقعة النائية من شبه جزيرة سيناء ، وتحت لفح نيران حامية تتأجج من صفرة الأرض وزرقة السماء ، هناك حيث لا حياة ولا جمال ، ولا شيء سوى الرمل والصحراء والجبل والعمل ، هناك حيث المعسكر مقام ، كان يقف ماشا وبيل وجهاً لوجه ، شابان متقاربان في السن ، لهما نفس المهنة وربما نفس الهوايات ولكن كلا منهما مستعد أن يقتل الآخر مثلاً لو ظل الآخر على صلفه وعناده .. كل منهما عنيد صلب يريد أن يذبح الآخر ويصفي دمه ، كل منهما يعتقد أنه على حق وأنه لو تراجع قيد إنملة فكأنما كرامة بلده وشعبه هي التي تتراجع .

والحقيقة أن السيد عبد الحميد لم يكن يقف يرقب المكنة وقطعة الغيار وحده ، كان يقف معه محيي الدين ، أو كما يسميه العمال « الشمس » وهو رغم نهمه الشديد وحبه لالتهام الطعام ، رغم تزويغه من الشغل كلما عنت له فرصة إلا أنه دائماً جلاب المشاكل ، عمل مع ماشا فالتقط منه الصنعة وعمل مع الألمان فتعلم الميكانيكا . ورغم هذا فيدوبك كان يفك الخط . ولكنه كان يقرأ الصحف بمهارة ، متحمساً . أثمر . مبتور البنصر الأيمن غزير العرق ، شعره أكرت قد أصبح له لون الصحراء الأصفر من كثرة ما علق به من تراب وغبار . ولكن أحداً في ذلك الوقت لم يكن يلقي بالا كثيراً إلى الشمس أو إلى السيد عبد الحميد ، فالجميع ، حلقات ، حلقات ، مشغولون بتتبع أخبار المعركة الدائرة بين ماشا وبيل وآخر أنواع الشتائم التي كان يطلقها كل منهما خلف الآخر وأمامه .. وعدد صفائح البيرة التي يقذفها ماشا ، وعدد جرعات بيل .

واستمر الأمر هكذا ، طيلة اليوم ، وحتى غربت الشمس . وجزءاً
لا بأس به من الليل .

وفي الصباح فوجيء الجميع بشيء لم يكن يتوقعه أحد .. فوجئوا
بالمكنة ، منذ الصباح الباكر . تدور وقد ارتفع صوتها وتوالت تكتكاتها
تشق عنان السماء .

كان الشمس ، على ضوء كلوب ، وبمساعدة زميل له ، قد قام ، من
وراء بيل وماشيا ومن وراء الباشمهندس ، في الليل ، بتركيب قطعة الغيار
الأمريكية والتصرف في أجزائها وصواميلها حتى طابقت تماماً المكنة
الروسية .

وعلى صوتها هب الجميع من النوم غير مصدقين . وتجمعوا بعيون
نصف مغمضة يرقبون المكنة الدائرة وبجوراها الشمس وعلى وجهه الطويل
ترسم إبتسامة ظفر عريضة والزيت يقطر من سواعده وجهته ويديه .

ومن بين الوجوه ، مئات الوجوه ، تطلع ماشيا إلى بيل ، وبدا من
نظريتهما المتبادلة كمن سيوشكان على الانفجار ضحكاً أو غيظاً .



وظلت المكنة بعد هذا تدور . وإلى الآن وهي لا تزال دائرة . نصفها
أمريكي ونصفها روسي ، والذي يديرها هو الشمس بعينه وسموته ، وبنصر
يمناه المبتور .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

قصة ذي الصوت النحيل

في مثل هذا الأوان (بصوت واهن كأنه الحفيف غير مبال باهت ، محدود) .. بدأ كل شيء وكانت المشكلة دائمة أن يبدأ كل شيء ، مشكلتي ومشكلة زوجتي والآخرين ، سأحدث بالتفصيل عنهم . كنت هناك وكانت الدينا ليلاً أسود يخيف ، مليئاً بالأشياء التي تخيف .. هناك كلام لا بد أن أقوله لأي أحد ، لا بد أن يعرف واحد على الأقل كل شيء المهم كل شيء .

نفس العمارة ، عمارتنا التي نسكنها الآن ، قلت لسايس الجاراج والبوابين كل شيء ، ووعدوني هم أنهم ساعة ما يرونهم سيخبرونني بكل شيء ، بالتفصيل كل شيء . السكان القاطنين فوقنا كويسين وعرفنا نتفاهم بسهولة ، إنما السكان اللي تحت ، تحتنا ، ناس كثير ساكنين في الشقة الواحدة ييحي خمسين نفر ، كثير قوي زي الثمل لو شفت عندهم ، عيون غويطة إذا بصيت فيها تغرقك وتبلعك ، وبقهم واسع قوي يبلغ البطيخة ييلع كل شيء ، إنما أصلهم عمرهم ما شافوا أنفسهم أبداً ، لو شافوها مرة واحدة كان خلاص انتهى كل شيء .

شكسبير في روايته يقول العين ترى كل شيء ولا ترى نفسها . إنما

عيني أنا بتشوف كل حاجة . كانت هي اللي شافتهم . أول عينين شافوهم . ومن ساعتها وفيه قدام عيني ضباب كثير كتيب زي ضباب الصيف في يوم حر ، ما أعرفش ليه ما اتخنقوش من الضباب ، بالعكس كانوا بيستخبوا مني فيه . حاولت استرضاهم بعث لهم زوجتي يعني .. شتموها . دول ولا كأن البلد بلدهم لوحدهم .. أصلنا أتاكلنا أونطة واحنا خلاص بننتهي وكل يوم عامل زي ما يكون يقطع فينا كل يوم حتة لما ح ييجي اليوم اللي ما يفضل فينا حاجة . ويسلطهم علينا وكل يوم تأميم ، هم سمعوا حكاية التأميم دي وخرجوا لك من الضباب وحاصروني . عايزين مني إيه ؟ ما تعرفش ، ما عندهم البلد واسعة وغنية قوي لو حاولنا نبيعها تتباع بكام ، بمليون مليون مليون ، إنما دلوقت مصر دي ما تساويش عندي حاجة أبداً .. سرقوها للصوص . آمال نسميهم إيه .. لصوص . نهب . سلب .. قشوطه ، ده فيه أسرار كثير قوي بس مش قادر أقول كل حاجة . أنا حاولت كثير معاهم بالدوق بالحيلة مافيش فايدة ، عايزين كل حاجة حتى ابني كانوا عايزين يأخذوه لولا وديته عند عمته في مصر الجديدة .

ضحكوا على الخدمة وبنجوها وحت لنا مبنجة إما سابتوش بالزعيق دور وبالحيلة دور . كانت النتيجة أنهم قالوا على اللي قالوه . ولما حصلت الحكاية كنت أتوقع طبعاً إن مراقي تقف جنبي ، تلاقي عيلة مراقي حد منهم مسلطها علي .. طبعاً كان لازم نأخذ موقف ، أما تبقي معاهم وأما تبقي معايا .. للأسف ده يحصل منها .. جايز يكون حد من عندنا اتهمها بأنها السبب في الحالة اللي أنا فيها دي وجه رده عليها خلاها

تتفرغ وتأخذ الجانب الثاني . وكل الي بيحصل لنا ده من غلطنا إحنا .. لو كنا سبقنا وضربنا قبل ما نضرب ما كنش حصل حاجات من دي ولا كانوا جابوا سيرة للملكة فريدة ، أصلها ساكنة قدامنا وعمرها ما ظهرت لنا وشفناها فاية الداعي يشركوها في الموضوع .. وأنت عارف بقى .. أطلع ألاقهم مراقبين .. ادخل عينهم ورايا .. أصل عينهم صعبة قوي وخصوصاً عينين السكان التي تحت دول . كل عين كأنها ماسورة بندقية والنظرة منها بتيجي منشنة تمام في الصميم .. مش ع الحسد يعني .. حسد إيه .. كانت تبقى أهون .. ده فيه حاجة تانية أكثر م الحسد كثير .. حاجة زي النار لما بتولع بتفضي على كل شيء .. لما ظهرت الحكاية وأتأكدت أن الملكة فريدة مالهش ذنب بره الموضوع خالص وإن الي تحت هم الي كانوا ملفقين التهمة ، أخويا الكبير جه وقال لي لازم نعزل خلاص ماعندناش قادرين نقف قصادهم وإننا لازم نسلم ونعزل .

قلت له مش ممكن يهزمونا .. أنا لا يمكن أعزل .. أنا شاب في الأربعين إنما خلوني شيخ في الثمانين .. نعزل ليه .. ونهزم نفسنا بأيدينا ليه .. مش كفاية هو علينا .. هو فاكر نفسه كل حاجة .. هو فاكر إن أي حاجة عايز يعملها يقدر يعملها هو فاكر إن الناس رغيغ عيش يفضل يقطعه بالسكينة حنة حنة لغاية ما يخلص عليه ، هو عايز يعمل مننا بني آدمين زي الحيوانات من غير إرادة ممكن يسوقها زي ما هو عايز ، يسلطهم علينا .. السكان الي تحت يسلطهم علينا ويراقبونا ويأكلونا بعينهم أكل ، عينهم سوادها كله جوع ويياضها أسود من

سوادها .. أنا بأرفض للنهاية ، أنا لإنسان لي كيان وعيلتي ولي أرضي حتى لو خدوها برضك بتاعتي .

أنا حاولت كثير أتجنبهم وقعدت على طول في البيت عشان ما أقابلشي حد فيهم طالع السلم واللا في الاسانسير . أصل لما حد منهم كان ييص لي كنت بحس اني بغرق وغرقان لشوشتي في نار سوده جوه عينين ثابتة زي عينين الميتين ، أسأل بتوع الجاراج يقولوا لك . بقوا يجيبوا سلام حبل علشان ينطوا علينا من الشبايلك فسمرنا الشبايلك ، وبقوا يجولنا من تحت عقب الباب فبقيت أحط أكياس رمل ورا الباب وأحط الكنبه كان عشان ما يقدروش يزقوها ، لما ليقوا مفيش فايدة بقوا يسلطوا علي التمرجي يديني الحقنة وكانوا يدوبوا مية عينهم فيها ويحقني بيها في العضل أقوم أحس بعد كده بيهم ، هنا ، جوايا ، وأخرتها قالوا لكل الناس اني عيان ، والناس صدقوهم تصور المصيبة الناس تصدقهم وتكدبني أنا ، كل الناس تصدقهم ، حتى مراي أنا تصدقهم وتتفق مع الدكتور أنهم يدوني حقنة بنج عشان ما أقاومش ، كانوا عايزين يدوني الحقنة عشان ما أقدرش أعمل حاجة قدام السكان اللي تحت .. خطة موضوعه .. وللأسف زوجتي اشتركت بعبط وهباله فيها .. يخدروني أنا عشان دكهم يهجموا عليا وبأكلوني . أنا عندي كلام كثير عايز أقوله ، كلام خطير ، ده خسر كل حاجة حتى مراي ، عايز أقوله لأي حد ، يعرف الحقيقة عشان يجي اليوم اللي كل الدنيا تعرفها فيها لازم حد يعرف إحنا قاومناهم إزاي واننا رغم كل شيء ماعزلناش وأن الملكة فريدة مالهش ذنب في الموضوع اللي حاولوا يعملوه بينا وبينهم واسأل البوابين وبتوع الجاراج .

أنا زهقت خلاص من محاربتهم ، بيتهيا لي اني أسلم زي أخويا
وأعزل ، واللا أسلم ليه ده يبقى انتصار لهم ويفرحوا فينا ، بس أنا
خلاص بعدوني عنهم ومش قادر ولا عارف أقاوم ، تفتكر كل شيء
انتهى .. تفتكر انتهى كل شيء ... صحيح كل شيء أصبح لا شيء ..
تصدقها أنت دي .. هو احنا عقب سيجارة نتشرب ونتفحص ونصبح
لا شيء ، إزاي الناس حواليه ساكنة وكأن ما فيش حاجة حصلت ..
إزاي بياكلوا ويشربوا وهم مبسوطين .. هم مش عارفين أن كل شيء
أصبح لا شيء ، أنا لسة عندي كلام كثير وخطير عايز أقوله بس
(مستمرأ بصوت واهن كأنه الخفيف ، غير مبال ، باهت ، محدود)
لازم حد يعرفه ، لازم حد يعرف الحقيقة التي ما حدش راضي يعرفها .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

الورقة بعشرة

كان صلاح زوجاً ، وكانت له إبتسامة ، ليست كالإبتسامات الحية
تولد طفلة طازجة وتتفتح فجأة على الوجه ثم تزول ، ابتسامة كانت
لا تظهر ولا تختفي ولا تولد أو تموت ، ولكنها محنطة على وجهه
كالومياء . وكانت بالضبط تعبر عن حياته فهو الآخر يحيا كالومياء
المحنطة ، أو على الأقل كان هذا رأيه في نفسه ، فهو زوج ، وهو كمعظم
الأزواج ساخط على الزواج يحس أن حياته المملة الرتيبة تقتله تميت فيه
الحياة بالتدريج .

ولهذا كانت أمانيه .

وهز رأسه وحسرات كثيرة تتبعثر من فمه ومن قلبه . مستحيل .
كيف يحتفل بعيد زواجه من روحية . وكيف يهديها شيئاً هي التي لم
تفكر في إهدائه إلا الكلمات السامة المنتقاة ، والشخطات التي لا رحمة
فيها ولا عاطفة .

وهكذا لم تطل حسراته ، فقد أعاد العشرة جنيهاً إلى الخزانة ،
وأغلق أدراجها ، وكان موعد الإنصراف قد حان ، فأخذ طريقه إلى
الباب ، والشارع ، ومن ثم إلى البيت وهو يحس بمغص حاد ينتاب قلبه ،

ومرارة تملأ نفسه ، وكأنه ذاهب لقضاء بقية اليوم في السجن المؤبد الذي عليه أن يقضي بقية عمره فيه .

ولكنه طوال الطريق كان يفكر في الورقة ذات العشر جنيهات ، والإهداء الذي كتبه عليها ويقول لنفسه : نعم .. لا بد أن هناك حياة أخرى .. حياة مليئة بالهدايا ، والحفلات ، والبسمات . ومع أنه كان فاقد الأمل في حياته تلك وزوجته ، إلا إنه لم يمنع نفسه من تمنى شيء : أن تكون روحية قد تذكرت المناسبة وأعدت له مفاجأة ، أو على الأقل استعدت لتحتفل بالعيد .

غير أن المفاجأة التي كانت تنتظره ، أنه لم يفاجأً بجديد . فما أن فتح الباب حتى طالعة صراخ الأولاد ، وحتى طالعته روحية نفسها واقفة في وسط الصالة ، وشعرها واقف أيضاً ، وهي تحاول أن تضرب ابنه الأصغر ، والولد يصرخ ، وهي تصرخ والجدران تنهار وتستغيث ، والأبواب تتخبط ، ورائحة القلي والطبخ يتعلقون برجليه ويتعثر في أرجلهم ، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة لا بد تنتظره .

إنها خانقة ، تلك الحياة ، وتلك الزوجة .

ألا تعرف ما هو اليوم ؟

أجل ، اليوم ، اليوم يوم عشرة واللبان لم يأخذ نقوده ، وبائع الثلج والأولاد جننوني ، ولا شيء آخر ؟ لا شيء ألا الهمة والغم والدروس التي يجب أن تأخذها بنتك قبل الامتحان لتنجح . إنه يكرهها . إنها لم تعد امرأة يشتهيها ، ولا حتى صديقة يأنس إليها . ما الذي يربطه

بها وكل ما بينهما حرب مستعرة مستمرة وخلاف يتجدد في كل ثانية . كل يوم يفكر عشر مرات في طلاقها أو الانتحار ، وكل يوم لا يطلقها . ولا ينتحر ، وكل يوم يفكر في حياة جديدة وزواج جديد ، وكل يوم لا ينفذ حرفاً واحداً من القرارات الحازمة البائرة التي إتخذها ! كل يوم يفكر حتى في خيانتها ، وكل يوم لا يخونها . ما الذي يربطه بها ، حتى الأولاد ، إنه يكرههم من أجلها ويكرهها أكثر من أجلهم ، ومع هذا لا يتركهم جميعاً و « يهج » ، ولا يتركونه ، ما الذي يبقى هذه العائلة السخيفة متماسكة ، وكل ما فيها يتنافر مع كل ما فيها . الخلاف البسيط يؤدي إلى نقار والنقار إلى شجار ثم يتطور الأمر ويغادر المنزل غاضباً وحين يصل السلام تخرج منه الزوجة ، وتقطع الشجار وتقول :

— إياك تنسى تشتري البزازه ؟

ويخرج وهو مصمم على ألا يعود ولا أن يشتري البزازه . ولكنه ما أن يلمح أجزخانة حتى يتوقف ، ثم يتصور نخية أملها حين يعود بلا بزازه فيدخل ويشترىها .

لماذا يشتريها ؟ ولماذا وكل ما بينهما حرب يراعى شعورها ، وتراعى أحياناً شعوره ؟ ما كنه تلك العلاقة الغريبة التي تجمعهما .

لماذا يستسلم لتلك الحياة ، لماذا لا يبدأ حياة جديدة ، لماذا لا يبدأها فوراً والآن ؟

ولكنه لم يبدأ شيئاً أبداً ، فقد دخل كالعادة ، وحل بعض المشكلات وعقد بعضها وتبدلت بضع زغرات وتلميحات وشتائم ، وتغدى ،

لغة الاى آى

وكالعادة نام ، وحين استيقظ بعد الظهر كان قد نسي كل شيء عن
١٠ مايو وعيد زواجه ، والعشرة جنيهاً وكلماته المكتوبة فوقها بخط
أنيق .



ومرت الأيام ، وهو لا يحس بمرورها . فمن يوم أن تزوج لم يعد
يحس بالزمن وكأنما فقد ذاكرته حتى أنه لا يذكر ماهية نفسه قبل الزواج
وكانما وعي فوجد نفسه زوجاً .

مرت الأيام وهو دائم الإحساس أنه يذوب ويذوب ، ويفقد ذاته
ونفسه ، حتى فوجيء ذات يوم بشيء استغرب له جداً .

كان يفحص مبعلاً واراد إلى البنك ، وإذا به يعثر على ورقة من ذات
العشرة مكتوب على دائرتها البيضاء : إلى زوجتي العزيزة .. بمناسبة عيد
زواجنا الخامس .

ولم يكن الخط خطه .

واحتجز الورقة وظل يقرأها ويضحك من أعماقه .

كان أحدهم لا ريب قد ساقط إليه الصدف الورقة التي كتب عليها
الإهداء فظن أن أزواجاً صالحين يهدون زوجاتهم أوراقاً كتلك في أعياد
زواجهم ، ففعل مثلهم ، وكانت النتيجة هذه الورقة .

ظل يضحك ويلعن الزواج المغفل الذي صدق النكتة .

وبعد أن انقشعت موجات ضحكته أحس بشيء قليل من الندم .
فقد أدرك أنه بطريقة أو بأخرى قد خدع ذلك الزوج ، وأنه قطعاً
مستول إلى حد ما عن تلك الخديعة .



غير أنه بمرور الأيام تضاعف ضحكته وتضاعف تأنيبه لنفسه ، فقد
تبين أنه لم يضحك على زوج واحد فقط ، ولكنه خدع كثيرين ، فقد
وجد إهداءات كثيرة مكتوبة على أوراق بنكنوت من ذوات العشرة
والخمسة والخمسين ، وأحياناً المائة — ولم يعد يستطيع كتمان الأمر عن
زملائه ، فأطلعهم على الأوراق ، وحكى لهم القصة وهو لا يتالك
نفسه . وطبعاً ضحك الزملاء كثيراً . وتبادلوا الضربات على الاكتاف ،
وقال أحدهم إن أعظم زوجة في العالم لا تساوي قرش صاغ واحد فما
بالك بعشرة أو بخمسة أو بخمسين جنيهاً .

وأصبحت المسألة مصدرراً لا ينضب للضحك ، فما يكاد يرد إلى
صلاح ورقة عليها إهداء حتى يشير بالورقة إلى زملائه من بعيد وكأئما
يقول : وأدي مغفل جديد .

ولكن عدد المغفلين كثر بشكل أفقد المسألة ما كانت تثيره من
ضحكات ، بل كثر بشكل أزعج صلاح نفسه ، لقد قرأ يوماً إهداء
وكان موجهاً من زوجة إلى زوجها .

وأصبح تأنيب الضمير على الخدعة التي ابتكرها لا يكفي ، أصبح
لابد من التفكير ، ما هي حكاية هؤلاء الناس ؟ وهل هي مجرد محاكاة

لما فعله ، أم لا بد أن في المسألة سرّاً خطيراً لا يدريه ؟
 وكان عليه لكي يكشف السر ، إن كان هناك سر أن يجرب .. وبهرته
 الفكرة ، وأحس لها بحماس شديد ..



كان يوم ١٠ مايو قد اقترب ، وعام جديد قد أضيف إلى عمر
 زواجه ، فلماذا لا يفعلها ويجرب ؟

أجل ، فليجربها في عشرة جنبيات . ولكن تفكيره ما أن حرم حول
 الرقم حتى هبط حماسه في التو . عشرة جنبيات ؟! إنها تكاد تبلغ ثلث
 مرتبه أو نصفه . إذا كان لا بد من التجربة فليجربها في جنبيه مثلاً .
 ولكن ، أبصح أن يهدي زوجته جنبياً واحداً في عيد زواجها . المسألة
 حتى من الناحية الشكلية محرّجة ، ولكنه إذا نظر إليها من الناحية الأخرى
 فإنه لا يمكنه أن يهديها عشرة جنبيات مرة واحدة . فهو لا يهدي
 زوجته ، إنه يهدي غريمه ، فلتكن خمسة إذن . تكفي خمسة .. إنها كافية
 جداً .

وهكذا جاء يوم ١٠ مايو ، وجاءت الساعة الثامنة منه ، وصلاح
 عائد إلى البيت وفي جيبه الورقة والإهداء على دائرتها البيضاء حبره لم
 يجف بعد ، وكل ما يحسه هو الفرحة لأنه مقبل ، في حياة قاتلة الملل ،
 على تجربة جديدة ، وحب استطلاعها يكاد يطل من عينيه إذ ترى ماذا
 ستفعل روحية ؟ وهل يغمى عليها .

وكالعادة فتح الباب ، وواجه سوق روض الفرج المعتاد ، وبعد أن تم الغذاء والحساب والعتاب ، نادها على حدة في غرفة النوم ، ومع هذا أصر ابنه المتوسط على عدم مغادرة الحجرة وأمسك بروب أمه واستمات عليها . وظل صلاح يتعثر نصف ساعة في كلمات لا معنى لها ، ثم أخرج الورقة ذات الخمسة جنهات ، ووضع الدائرة البيضاء أمام عينيها لترى الإهداء .

وبدت الصدمة واضحة على ملامحها ، وظلت واقفة في مكانها لا تتحرك ، كان لسانها أول ما تحرك فيها ، وأول ما فعله اللسان أن فتح له محضراً طويلاً عريضاً . وراحت تسأله وتضيق عليه الخناق لتعرف من أين جاء بالخمسة جنهات وميزانيته كلها تعرفها بالمليم والصلدى وقال لها أنه استلفها لتخصم على شهرين من مرتبه . ومعنى هذا أن ينقص إيرادهم في الشهرين القادمين . وهكذا شبت النار ، وبعد لحظات قصار أصبح الحديث لإتهامات متبادلة ، وشتائم وتهديدات ، وإيمانات مغلظة ، خرج على أثرها صلاح من الحجرة غاضباً لاعتناً تاركاً الجنهات الخمسة تنعي من أهداها .

وجلس في الصالة يغلي وينفخ .. لا فائدة على الإطلاق . إنها حرب لا هوادة فيها . إنه عسكري في جيش وليس زوجاً في بيت إنه لا عمل له إلا الدفاع عن نفسه ، والحرب أدايته وهدته ، وأتت عليه ، حتى العسكري يحظى بهدنة وراحة أما هو فمعركته لا تتوقف .

وبينما هو يغلي وينفخ ، كان عقله يعمل ويحلم ، أجل ، لابد أن هناك حياة غير تلك ، حياة رحبة ، لا قتال فيها ولا خناق ولا ملل ، حياة

مليئة بالبريق وبالرائع الجديد ولا ينقصها سوى الجريء الذي ينهي حياته وجبته وينطلق إليها .

وبوغت حقاً حين رأى روحية قد خرجت من حجرة النوم ووقفت قبالة على بابها لا تتحرك والورقة في يدها . ورمقها وهو ينعما . لا بد أنها الآن أطمأنت أن الجنيهاات الخمسة لم تضع وأنها على أية حال باقية في البيت . ولكيلا يلعبها ، فقد أصبح يضايقه حتى أن يلعبها ، حول وجهه عنها .

غير أنها سألته وهي واقفة من بعيد إن كان جاداً حقاً في كلامه وإهدائه . وطبعاً زفر ولم يجب . ولكنها ظلت تلاحقه بالسؤال ، ولأنه يعرف أنها إن صممت على شيء فلا بد أن تعرفه ولو فرقعت مرارته وحطمت رأسه ، فلكي يخلص منها قال لها :

أيوه يا ستي هدية بحق وحقيق ... بمناسبة عيد الزفت الزواج .

وفوجيء حين وجدها تنخرط فجأة !! لا ليس فجأة .. فقد حدثت في وجهها تغييرات متوالية مضحكة وإنقباضات وانبساطات وتجميدات ، ثم إنخرطت في بكاء ضاحك . تضحك وتبكي وتبكي وتضحك ، وشعرها منكوش ، وروبها مفتوح ، والولد لا يغادر مكانه بين ساقها .

وأخيراً قالت إنها قد أعدت له هدية هي الأخرى . إه يا ستي . وناولته الورقة . وتحت إهدائه وجدها قد كتبت : إلى زوجي العزيز الغالي المحب بمناسبة قراننا .. من المخلصة جداً زوجتك .

وفرت الدموع في الحال من عينيه . لا لأن ما كتبتة كان غريباً ولكن لأنه صدر منها وبخطها . ما أروع كلماتها . إلى زوجي العزيز الغالي ، حتى أخطأها الإملائية ، حتى إمضاءها ، حتى طريقته الساذجة في التعبير عن نفسها ، ولو كانت أجمل امرأة في العالم هي التي كتبت له هذا لما بدا أروع من كلمات روحية ، روحية ذات الخرايش والصوت الحاد اللافح ، إنه شيء لا يحتمل ، أبداً لا يحتمل .

وأخذها على كتفه وقبلها . وأحمر وجهها جداً وهي تقبله ، وربما كانت هذه أولى قبلاتها له . وربت على كتفها ، وربتت على ظهره ، وبكيا ، وتعانقا وكما يضيء البرق فجأة تراحمت الخواطر في عقله . إن حياته معها كره في كره وخلاف في خلاف ومواقع أثر مواقع هذا صحيح .. ليلة أن صفعها مثلاً وخربشته بأظافرها وتشدش طقم الشاي ، ليلة أن اختلفا حول اسم تامر ، ليلة أن إصطدمت بالمرحومة أمه ، ألف ليلة وليلة من الألم القاسي الممض » .

العجيب أنه لا يحس شيئاً من هذا الألم الآن ، وكأن الأمل في حينه يصبح ذكرى بعد حينه فكل ما يحسه الآن أنه كان شاباً وأنها كانت صغيرة وأنهما كانا طائشين ، وما أعذب الطيش حين تمضي أيامه ويصبح مجرد لحظات تستعاد . إن الخلاف ينفر ولكن العجيب أن خلافاتهما كانت تقر بهما أكثر . والخلاف يقولون أنه يخرب البيوت والخلاف عمر بيته فقد كان لهما حجرة واحدة والآن عندهما ثلاث ، ولم يكن هناك أولاد والآن لهما أربعة وحين تزوجها لم يكن معه إلا التوجيهية والآن معه بكالوريوس ، وهي تزوجته وهي مدللة لا تعرف سوى قلي البيض

وتخطيط الحواجب والآن بشهادته أمهر خياطة وطباخة ، وكانت بالكاد لا تقرأ إلا « حواء » لتعرف الموضة وهي الآن تناقشه في السياسة وتبزه تلك التي يعتبر نفسه ضليعاً فيها .

ألف خاطر عن له ، لو كان قد تزوج مطيعة لا ترفض له رغبة أو طلباً لما تحرك من مكانه وموضعه ولما تحركت هي الأخرى . إنه مغفل . أليكون ما يعيش فيها هو سعادة الواقع وهو لا يدري . إنه كان يفكر دائماً كأحد طرفي الخلاف ولكنه أبداً لم يفكر كزوج لابد له زوجة ولا تتم سعادتهما إلا معا ، ولا يسعد الشخصان معاً إلا إذا اقتربا احتكا واختلفا ونتج عن احتكاكهما موجات من الرضا والغضب والسخط والألفة والحب والكراهة .

أ تكون هذه الموجات هي نفسها السعادة التي طال سمعه عنها .
أ تكون كالشر لا يحدث إلا إذا طرق الحديد بالحديد والحجر بالحجر .

تلك المرأة التي يضمها بين يديه الآن ، رفيقة العمر ، التي صاحبته لحظة بلحظة وساعة بساعة ، لابد أنها كانت تقاسي مثله ، وكانت تكرهه مثلما يكرهها ، وتحملته مثلما تحملها . وكل ذلك قد مضى ، ويمضي ، ويصبح ذكريات أهم ما فيها أنها مرت وطعمها الآن من طعم العمر المولي ألد وأطيب وأمتع طعم . إنها الآن بين يديه ضعيفة ، مستسلمة قد أسعدتها هديته البسيطة إلى درجة البكاء والنشوة .

ألف خاطر وخاطر ، وعاطفة قوية مبهمة تتفجر في نفسه ، وإعزاز

٢٠٣

غريب مفاجيء لروحية يكتشف أنه يملأ صدره . أياكون كل ما كان بينهما من خلاف وتعنت وكره هو الحب ، الحب الأكبر . أكان من حمقه يحلم بالحياة السعيدة الأخرى والحياة الأخرى هو فيها ، ويفكر في الهجرة إلى دنيا جديدة وهو يغمض عينيه عن دنيا الحقيقة الجديدة ويقول أنها لإنهاء حياته الخاملة تلك في حاجة إلى شجاعة ، والشجاعة هي أن يتقبل حياته هذه ويؤمن أن روحية زوجته والأولاد والبيت بيته هو دعامته والمسئول عنه .

ألف خاطر وخاطر ، وهما واقفان ، بين دهشة الأولاد ، متعانقان وكأنهما كانا غائبين لعشر سنوات مضت ، وكل هذا بغلطة ، بلفتة ، بنكتة ، بكلمات قليلة على ورقة .



ولم تكف أوراق البنكنوت ذات الإهداءات عن الورد لصلاح ، مكتوبة على أوراق من فئة العشرة والخمسة والجنه والخمسين قرشاً بعض الأحيان . وكلما قرأ صلاح الإهداء ، وتأمل اللحظة التي لابد سبقتها واللحظة التي أعقبته ، كانت سعادة غامرة تملأ جوانحه ، وكأنه قد اخترع اختراعاً للسعادة البشرية أو اكتشف إكتشافاً ، ولفرط سعادته باكتشافه حاول ذات يوم أن يبدأ في عد الأوراق ذات الإهداءات ليعرف كم من السعادات تسبب فيها وأحدثها .

ولا يزال صلاح إلى الآن يعد ، ويبدو أنه لن يتوصل أبداً إلى معرفة الرقم الصحيح ، فالأوراق لم تكف أبداً عن الورد .

يناير ١٩٥٧

لغة الآي آي

فوق حدود العقل

دونت الاسم والسن والمسكن مرتين وفي صفحتين متقابلتين كما تقضي التعليمات ، ولم يكن قد بقي سوى سؤال واحد أو سؤالين عن سلوك الشاب ، وأوقع ، وينتهي الأمر . ولكن الأمر في ذلك اليوم لم ينته أبداً .. إلى الآن ، وأنا لا أعرف ماذا حدث بالضبط وجعلني أشك .. كانت وقفة الشاب عادية .. نفس الوقفة التي وقفها قبله كثيرون ، والتي أعرف أن كثيرين غيره سيقفونها .. نفس النظرة الداهلة الباحثة عن لا شيء ..

سألت .. بصوت ضجر ، وأذن متعبة ، وعقل كان عليه أيضاً أن يتلقى الكلمات الكثيرة وينقيها من الضجة ، ويترجمها إلى إصطلاحات يميلها على قلبي المشروع ليسد بها الخانات وينتهي كل شيء ..

سألت : ما الذي فعله ؟ وجاءتني الإجابة .. قام في الليل وأمسك بالسكين وحاول ذبح زوجته التي لم يدخل بها إلا من أسابيع . وحين حاولوا منعه كاد يفتك بهم ، تغلبوا عليه وأخذوا السكين منه .. إتهجه إلى النافذة يريد أن يلقي بنفسه منها ، فاضطروا حينئذ لتكثيفه وضربه والإستغاثة بشرطة النجدة .

لغة الآي آي

وتوقف القلم وعدت أسأل : متى ؟ .. منذ بضع ليال ، وبدأ القلم يضيق بوقفته التي طالت دون أن يسد خانة .. وقلت أخيراً : ليس هذا بكاف .. هل تكررت أعماله هذه ؟ هل فعل شيئاً آخر ؟ .. وجاءتني الإجابة :

— يوهوه ... كثير .. يقوم في الليل ويظل يصرخ ويوقظ الجيران ويتصور أشياء لا وجود لها .. يعتقد أن إخوته يتآمرون عليه ويريدون انتزاع أرضه التي ورثها عن أبيه ، وكثيراً ما يكلم الهواء على أنه الأب الذي مات من عام ويشكو له هذا الأخ أو ذاك ..

بارانويد شيزوفرينا .. جنون الإضطهاد .. هكذا خمنت ، وكتبت ، وأحكمت الحشيات .. وآخر ما كان قد تبقى ليصدر حكماً بتحويل الشاب إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ونقله من خانة العقلاء إلى خانة المجانين .. سؤال ، مجرد سؤال واحد ألقه على (المتهم) بمرضه ، للتثبت من التشخيص لا أكثر ، ولكي يطمئن ضمير القاضي الذي في .

— صحيح كنت عايز تقتل مراتك ؟

ولم تأتني إجابة ما ، وسألت مرة أخرى ، وجاءت نهضة .. إجابة ليست غير متوقعة ، فما أكثر ما تأتي إجابة المجانين على هيئة بكاء .

ورفعت عيني ، وكأنما إيداناً بانتهاء الجلسة .. كان الوضع لم يتغير .. حجرة مفتش الصحة في المكتب البالي الحافل بالإزدحام والضجيج ، الباب نصف مفتوح يطل منه وجه التومرجي تزاممه عشرات الوجوه ، والكنبة البلدي بملاءتها الدمور ، ولوحة كشف النظر التي حال لونها

واصفر وأصبح بنياً بارزة من ركن الحجرة .. كعلم مرفوع بالتسليم
والإذعان لوطة الزمن ..

وفي الوسط تماماً .. كان الشاب نحيلاً في « قميص الكتاف » القدر
الواسع ، مقيد اليدين بأحكام القميص الطويل من الخلف ، وبجواره
العسكري المعهود ، فلا بد مع كل مجنون يرسله القسم من عسكري ،
ولكنه هذه المرة طويل ، مهيب الطلعة أنيق البزة ، يصلح ليكون على
رأس قره قول شرف .. أو ليتقدم موكب المحمل ..

تأملت المشهد برهة ، ثم قلت : خذوه ..

قلتها وأنا حزين ، نفس الحزن الذي يروادني لثانية في كل مرة تخرج
من فمي الكلمة ، حزني على دنيانا التي فقدت عقلاً ، وما أشد حاجتنا
إلى كل عقل .

تكاسل الشاب قليلاً ، ودفعه العسكري بغلظة غير عادية . واستعد
التومرجي وفتح الباب ، وتراجعت الوجوه ، وكادت الحجرة تخلو ..
لولا أنني تذكرت الخانة التي كنت أنسى ملئها دائماً ، الخانة التي يقيد
فيها اسم قريب المريض الذي أدلى بالمعلومات عنه ، وعنوانه .

وقلت : استنى .. فين قرايه ؟

وجأر صوت عيد التومرجي ، كالمبلغ في صلاة الجمعة الذي يعد
كل ما يقوله الإمام :

— استنى .. فين قرايب المريض ؟

٢٠٨

وسأل العسكري :

— حضرتك عايز قريه مين ؟

قلت : قرايه اللي كانوا بيقولولي على مرضه دلوقت ..

— أنا اللي بقول لحضرتك ..

— أنت قريه ؟

— أنا أخوه ..

— أخوه إيه ؟ ..

مرة ثانية رحت أنظر إلى العسكري . وأخيه المريض ، ولا أكاد أصدق ..

— أنت أخوه صحيح ؟

— أنا ح أكذب يا دكتور .. الكرنه أهه شوف سيادتك ..

في الواقع لم أعد السؤال للتأكد ، أعدته فقط لأسكت إحساساً حقيقياً بالشفقة ، لا على المريض وإنما على أخيه .. إن الجنون هو المرض الوحيد الذي يمرض فيه الشخص ويحس آلام مرضه الآخرون .. أن الجنون لا يتعذب ، العذاب يحل بأهله وأقربائه وذويه .. فهذا العسكري ، تراه كم تألم وهو يستصحب أخاه إلى القسم مجنوناً ، ثم وهو يمضي أوراقه من الرؤساء ، ثم وهو يقف أمامي يحكي بلسانه ما فعله ويدلل على جنونه ، ويعريه ، خاصة وهو لم يكن عسكرياً عادياً ، إذ اكتشفت أن على ذراعه أشرطة أربعة كان واضحاً أنه مهتم بها ، وبمركزه .. وقد صنعها من حرير أحمر أنيق ..

ولكن إنسانيتي لم تستغرق سوى لحظة ، عدت بعدها أطمئن على الروتين .. فالمفروض ألا يرسل المريض مع أقربائه . لابد من عسكري يوفد لحراسته ، حتي لو كان قريه ضابطاً أو شاوياً .. الروتين هو الروتين .

وسألت : أين العسكري ؟

ومن بين الوجوه الكثيرة المتزاحمة على الباب ، برز وجه ما لبث أن أصبح له جسد رسمي أسود ، وبندقية ، أعقبها خبطة قدم ، وتحية ، ولم يكتمل الروتين إلا بتأنيبه ، وإلا باعتذاره لم يكسر القاعدة وينتظر بالخارج إلا بناء على رجاء من الأخ الباشاويش .

— خلاص يا دكتور نمشي ؟

قالها الأخ متردداً ، محرجاً ، وكأنما يستعجل مغادرة الحجرة وإنهاء الموقف .. ولكنني لم أكن معه ، كنت أحقق في الأخ المريض الذي بدأت ألحظ عليه أشياء .. كان في وجهه ورقبته كدمات وآثار ضرب ، ورقبته بالذات كانت بها عضة واضحة اشتركت في صنعها قواطع وأنياب ، ولم يكن قد كف عن البكاء ..

ووجدت نفسي أسأله عما يكيه ، وأنتظر إجابة من الإجابات المريضة المعتادة .. ولكنه إزداد بكاء ولم يجب .. وأعدت السؤال ، وأيضاً لم يجب ، رفع رأسه وبجانب وجهه ألقى على أخيه الشاويش نظرة ، إنفرطت على أثرها دموع كثيرة من عينيه بلا كلام .. ووجدت نفسي أنظر أنا الآخر إلى الشاويش .. ودهشت قليلاً حين وجدته يصوب أشعة محمية من عينين واسعتين مبحلتين ، وكأنما يأمر بها أخاه

أن يكف عن البكاء ، ويكف عن النظر إليه .

ومرة أخرى وجدت نفسي أسأله عما يكيه ، وهذه المرة أيضاً لم يجب .. غير أنه بلمحة جانبية خاطفة ألقاها على أخيه سكت ، وعاد ينكس رأسه إلى الأرض .

وأحسست ، رغم الصمت المستتب ، أن الجو مشحون .. وأنني أنا الآخر بدأت أنتبه ، وأتفرس ، وأحاول أن أستخلص من الصمت سره .

وفجأة التفت المريض كلية إلى أخيه الشاويش وقال :

— خذ الأرض يا أخي في ستين داهية .. هات عقد البيع دلوقت وأنا أمضي لك عليه ، إنما بلاش تبهدلني كده يا بدري وأنا أخوك ..

وكف عن البكاء ، وخفت أن يكون ما قاله مقدمة لنوبة ، وما أبشع نوبات مرضى الإضطهاد .. إنها النوبات التي يقتلون فيها ويعتدون ويصبحون كالوحوش الهائجة التي لا يوقفها خوف أو تهديد ، خير ما تفعله حينئذ أن تقتنع بكلامه .. وتجاريه ، وقلت :

— هو عايز يأخذ أرضك ؟

وبأنفعال حقيقي ، كأنفعال البشر العاديين ، وجدت كل ذرة من جسده تنتفض داخل قميص الكتاف ، وصدره يكاد يمزق القماش صاعداً هابطاً لاهثاً وهو يقول :

— ده يا بيه أخويا ابن أمي وأبويا ، وأبويا مات وساب لنا تسع قراريط ، واحنا ثلاث أخوات .. بدري دهه اللي بيشتغل شاويش

وبياخذ له يبجي عشرين جنيه من الحكومة ، وواحد ثاني ، وأنا الصغير .. كل واحد منا نابه ثلاث قراريط !! ليه وليه إلا بدري أخويا عايز ياخذهم مني عشان ييقى حداه ربع فدان ، بقى له ست أشهر وهو كل يوم يهددني ويضربني وآخرتها عايز يوديني السراية .. عشان يستولى عليهم .. كدة يا بدري .. روح يا شيخ الله يسامحك ..

كان بدري قد هم أكثر من مرة أن يقاطع أخاه ، ولكني بإشارات قاسية كنت أزجره وأرغمه على السكوت ، وما كاد أخوه ينتهي حتى إنطلق كالبركان المتفجر يقول :

— بلاش فضايح يا محمد .. كفاية بقى الحتة كل يوم تتفرج علينا .. جاي هنا كان عايز تفرج علينا الدكتور ..

ثم إلتفت إلى كمن لا حيلة له قائلاً :

— أهو زي ما أنت شايف كده يا بيه .. كل ساعة على ده الحال .. لما أنا نفسي قربت أتجنن ..

وسألته :

— إنما صحيح أبوكم فات لكم تسع قراريط ؟

— وحياة سعادتك ولا سهم .. حتى اسأل مراته .. يا فرحانة .. يا فرحانة .. تعالي هنا ..

ودخلت فرحانة .. كالعروسة الخلاوة الملفوفة في ملاءة من ورق سولوفان ، لا يخفى بقدر ما يظهر ويجميل ويجعل الريق يسيل .

— أنت مراته ؟

— قسمتي يا بيه ؟

— هو صحيح بيعمل الحاجات اللي قال عليها أخوه ؟

قلت هذا وأنا أتفرس فيها ، وأعجب بيني وبين نفسي لزوجة مجن زوجها ويمرض ، وتذهب معها إلى مكتب الصحة بهذه الحواجب المرسومة والروج الموضوع بصبر وأناقة والبال الخالي .. الخالي حتى من نظرة تلقيها على الزوج المريض ..

— يا بيه .. أنا في عرضك .. دي مش مراقي .. دي مراته هوه ..

هنا فقط التفتت إليه ودبت على صدرها بيد مثقلة بالغوايش والخواتم
قائلة :

— هي حصلت يا محمد .. بقي ماتناش عارفني كمان .. اخص عليك .

— والله ما هي مراقي يا ناس .. مراقي حابسينها في البيت وجايين دي تعمل مراقي .. يا بدري أنا ف عرضك إن كنت عاوز الأرض خدها .. هات العقد وأنا أمضي لك عليه ..

ولدهشتي .. وجدت بدري يأخذ كلامه جداً ، ويلتفت إليه قائلاً .
بعينين ناريتين :

— أرض إيه يا بني اللي أخذها .. ماريك غانها من غير أرض ..
أنا بتاع كلام من ده ..

وربما كلامه هو الذي شجع الزوجة ودفعها لأن تقول :

— أرض إيه يا محمد اسم الله عليك .. عقلك يا خويا أحسن من
ستين أرض .. مش عيب تقول على أخوك كده .. ربنا يشفيك ..
يا بيه ده موتني م الضرب ليلة إمبراح .. أنا راجل كلوباتي على قد
حالي وهو شايش في البوليس ومخوف الحتة .. وعاوز يأخذ التلات
قراريط بالقوة .. ياخدهم ياخدهم .. بس بلاش توديني السراية وأنا
مضروب يا عالم وجسمي مكسر .. إتفضل شوف ..

— والله يا بيه أنا ما ضربته ولا مديت إيدي عليه . ده حصل وإحنا
بنحوشه وهو رافع السكينة على مراته دي .. ده طول الليل قاعد يهربد
في نفسه ومطلع عنينا معاه .. كده واللا لا يا فرحانة ؟

وهزت فرحانة رأسها وبكت وأخرجت من صدرها مندبلاً صغيراً
أبيض جففت به الدموع .

وبدأت الحجرة تمتلئ بالضباب .. أتفرس في وجه الشاويش فأجده
ضخم الجسد ، ناصع البدلة مدبب الملامح ، صاعق النظرات ، أشراطه
الأربعة نافرة على كتفه تكاد تضيء بنور أحمر وهاج ، وبجواره أخوه
الصغير ، ملفوفاً كرطل العظم المشفي في خرق بالية وقميص كتاف .
وبينهما فرحانة تبكي بحرقة وتدنب حظاً لا يعرف صاحبه . والعيون
كلها زائغة لا فرق بين عيون بدري العاقل أو محمد المجنون والأعصاب
مشدودة والحقيقة قد بدأت تضيق ، حتى من العسكري الواقف يحرس
هذا كله ويحمي القانون ومني أنا صاحب أسوأ موقف الوحيد من بين

الحاضرين جميعاً ، الذي كان عليه أن يقرر ، في دقيقة أو جزء منها ، أين يكمن الحق ، ويحكم بين أخوين لم يرها إلا منذ دقائق ، وكل منهما يكذب الآخر ولا بد أن أحدهما على الأقل كاذب والآخر إما مجرم أو مجنون .. وبدأ شيء يبرز وسط الضباب .. ولم يكن شيئاً .. كان رجلاً ارتفع صوته بالخارج ، قائلاً للتومرجي : أوع .. ثم ما لبث أن اقتحم الحجرة وانتصب قريباً من الأخوين على هيئة عسكري آخر ضخم أيضاً وطويل ، وعلى صدره كوردونات خضراء كتلك التي يرتديها حرس مجلس الأمة أو الوزراء لا أعرف ، وكان شاحب اللون يلهث ، وقبل أن يلتقط أنفاسه بدأ يتكلم ، موجهاً كلامه للأخ الشاويش الأكبر قائلاً :

بقي كده يا بدري عايز تعملها وتودي محمد السراية .. الله يلعن أبو الأرض .. دول ثلاث قرارات يا بدري تعمل في أخوك كده عشانهم .

وقبل أن أسأله عمن يكون .. تطوع هو بتقديم نفسه قائلاً إنه الأخ الثالث الأوسط ، وإنه علم منذ قليل أن بدري قد استصحب محمداً بالقوة ليدخله السراية ، فجاء يجري ليمنع الجريمة .

وبكى ، وضايقني بكأؤه ، وصرخت فيه ماذا بيكيه وهو الرجل الوافر القوة والقدرة ، وإذا به يقول :

— ما يغركش يا بيه .. أصل أنا أعصابي تعبانه شوية ، واتعالجت عند الدكتور ناشد فهمي المدرس بتاع الأمراض النفسانية في الدمرداش .

قلت في سري : المسألة إذن وراثية .. وخيط الجنون يسري في العائلة ، وسألت :

— إتعالجت من إيه .

— أصلي حصل لي إننيار في أعصابي .. أصلي قتلت مرة حرامي ، ومن يومها وأنا بدوخ وكل ما أشوف بندقية نفسي تغم عليه ..

ولابد أن روح الهزل هي التي تستبد بنا أحياناً .. فقد وجدت نفسي أنسى الموقف تماماً ، ولا يعود يهمني سوى حالة هذا الأخ الأوسط الذي بدأ يرتجف أمامي ويهتز ، وأكاد أضحك كلما قارنت بين جسده الضخم المهيب وصدره العريض الحافل بالكوردونات وبين ساقيه المرتعشتين والدموع السائلة من عينيه ، ولم أكن قد رأيت قاتلاً يعترف أنه قاتل من قبل ، بل لم أكن أتصور أن يحدث للعسكري إذا قتل لصاً كل هذا « الإننيار الأعصابي » .

وسأله ، وأجاب :

— أصلي كنت عسكري داوريه وبعدين شفت حرامي بيكسر دكانة ، لما شافني جري ، ضربت طلقة في رجله أهوشه ما وقفش ، فضربت في المليون قام جت في ضهره ومات .. وفضلت واقف جنبه لما النهار طلع وخادوني ع القسم .. وبعدين بقيت أهلوس في الليل ، ومأرضاش أطلع دوريات قعدوا يجازوني وبعدين لما لقيوا ما فيش فايده حولوني ع المستشفى وخذت ١٢ جلسة في مخي على سنة ونصف .

وبدأ يمد يده في جيبه ليخرج الروشتات وأوراق العلاج ولكنني لم

أكن في حاجة لأدلة أو إثبات ودهشتي الأولى كانت قد خفت قليلاً ،
وبدأت أعود إلى القضية المعلقة أمامي في انتظار الحكم . وطلبت من
القادم الجديد رأيه فيها ، وبدأ الأخ الأكبر بدري يحتج ويقول :
— يا دكتور ما تسمعش كلامه .. ده مهفوف ومتضايق مني عشان
أنا أغنى منه ومابرضاش أديه فلوس عايز يلبسني تهمة يا دكتور ، هو
ده معقول أدعي على أخويا أنه مجنون ..

— ده أنت تعملها .. وتعمل أبوها ، .. دانت مجرم .. اقسم بالله
أنك مجرم .. يا بيه ..

والتفت الأوسط إلي شارحاً كيف مات أبوهم وترك لهم القرارات
التسعة وكيف أن أخاهم الأكبر هذا بخيل أناي جشع يستولي على إيجار
الأرض ويريد أن ينتزع ملكيتها وكيف أنه يضع المليم فوق المليم ويحرم
نفسه ويقتات بالملح والفلفل حتى يجمع ثمن فدان ، وكم مرة حلف
بشاربه وبتربة أبيه أنه لن يرجع حتى يصبح مالكاً لزماد فدان ، وكيف
أنه استغل ضعفه وضعف أخيه الأصغر محمد ليفرض عليهما جبروته
وسلطانه .

ولاحنا الثلاثة عايشين في بيت واحد ، كل واحد واخذ أوضه هو
ومراته وولاده ، ومحمد لسة مجوز جديد ، وبدري ده محتل الصالة
بالعافية ، ويبقى الفطار عنده ويسيبه ويجي يقعد بالقوة يفطر مع واحد
فينا عشان يوفر ، وما يهون عليه يشتري باكوشاي واللا بقرش سكر
ولما يشم أن واحد فينا عمل شاي يجي يستولي على البراد بالرزالة ..
وأخترتها عاوز يودي محمد في داهية عشان يتعين وصي عليه ويلهف
الثلاث قرارات ..

ومرة أخرى بكى ، ونظر إلى أخيه محمد وهو يبكي ، فبكى محمد هو الآخر ، وتصاعدت من حناجرهما أصوات متحشجة مختلطة بالدموع تعاتب بدري وتدعو عليه وتطلب من الله أن يظهر الحق ويجازي كل ظالم على ما يرتكبه .. أما بدري فقد وقف زائغ النظرات يصرخ فيهما ، وينهر أخاه الأوسط ويعجب كيف يوجه له إتهاماً كهذا .. القصد منه لاشك أن يحاكم ويفصل من وظيفته وهو يعلم تمام العلم أن أخاه مجنون وأنه على حق .. أما فرحانة فكانت قد انسحبت من الحجرة تاركة المشهد يحتله الأخوة الثلاثة ووراءهم يقف العسكري الرسمي صامتاً ، بليد الملاح وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يفقه مما يدور أمامه حرفاً .

وهكذا وجدت يدي تمتد ، وتقطع الاستمارة ووجدت نفسي أعور مرة أخرى لفحص قوى محمد العقلية ، بنظرة محايدة جديدة ، ولدهشتي وجدت إجاباته كلها معقولة ، ولدهشتي الأشد لم أجد إجاباته تختلف كثيراً عن الإجابات التي بنيت عليها احتمال جنونه ، نفس الجمل تقريباً ، بنفس الألفاظ . كل الفرق أنني أسمعها بأذن محايدة .. إذ الظاهر أنه يكفي أن تفرض الجنون في إنسان حتى تجد في كل ما يقول أو يهمس به أدلة تثبت جنونه ، ويكفي أن تفترض العقل في إنسان ، حتى لو كان غير متمالك لقواه العقلية حتى تجد في كلماته وإجاباته ما يدعم إيمانك بأنه عاقل .

واتضح أن حكاية القراريط الثلاثة صحيحة ، والتهديد صحيح ، والضرب والتعذيب قام بهما الأخ الأكبر فعلاً ليرغم أخاه على بيع الأرض له بعقد صوري ..

ليس هذا فقط ، بل بمكالمة تليفونية مع القسم ، اتضح أن القسم لا علم له بالورقة المحولة إلي ، وأنه هو الذي كتبها ووقعها .. واستطحب العسكري الذي كان لا يزال منتصباً في مكانه لا يفقه حرفاً مما يدور .

وحين عدت إلى مسرح الأحداث في وسط الحجرة كان الأخ الأوسط يحتضن الأصغر زتبادل عيونهما الدموع وبدرى الأكبر واقفاً شاحب الوجه يدافع بآخر رمق عن نفسه ، وكلما تكشف الموقف عن دليل جديد ضده كلما إزداد شحوبه ونبت على جلده العرق الصغير الأصفر .

وأمرت بفك القميص عن محمد وبدأت أتمل الموقف بينى وبين نفسى لأعرف ماذا يجب أن أفعله إزاء بدرى ، وهل أحيله إلى النيابة أم أكتب بلاغاً للمأمور القسم ليتصرف معه .. واستقر رأى على إبلاغ القسم ، وبكل الحقد الذي بدأ يغلي فى صدرى على هذا الأخ المجرم أمسكت بالسماعة أريد أن أملى بنفسى الإشارة التى ستكلفه وظيفته وأشرطته الحريية الأربعة والقراريط التى ورثها وزوجته الحلوة التى بدأت تولول فى الخارج وتعوي ، وأكثر من هذا حرىته إذ بالتأكد سيحكم عليه بالسجن ، ولن يقل سجنه عن أعوام ..

وهنا وجدت المارد الضخم ينهار وهو الذى راح هذه المرة ييكى وقد جفت دموع أخويه ويستعطف ويتهاوى على الأرض يريد أن يقبل قدمى ، وكلما رأيت هذا كله ، إزداد الحقد فى صدرى عليه .. إزداد إلى درجة رحت معها أهدهد على الأخوين بكلماتى وأذكر لهما أن

أخاهما الآثم وقع في الحفرة وأنه لن يخرج منها .
 وصاح الأخ الأوسط : ينصر دينك يا شيخ .. يحيا العدل ..
 وقال الأصغر بصوت واهن : مش قتللك يا بيه ..
 وقال بدري في هلع : أنا في عرضك .. أنا صاحب عيال .
 ثم التفت إلى أخويه قائلاً : مبسوطين يا ولاد طلبة .. أهو بيتي
 أتخرب يا محمد يرضيكوا كده يا ولاد طلبة يا ولاد الحرام .
 وقال الأوسط : جزاك ما صح لك .
 وقلت في سري : وكل هذا من أجل قراريط ثلاثة ..
 وفوجئت بالحجرة تتحول إلى مناحة ، بدري يشهق بصوت عال ،
 والأخ الأوسط بدأ يضم الأصغر حتى بعد أن انتصر ويكيان ، ولا ريب
 أن أباهم طلبة كان هو الآخر في قبره يكي ويتلوى .
 وجاءني من السماعه صوت أخنف مزعج يقول :
 أيوه هنا القسم .. أنت مين ؟ ..
 وأجبت : إحنا مكتب الصحة .. خد الإشارة دي ..
 وعلا بكاء بدري إلى درجة غير معقولة ، بينما كف الأصغر عن
 البكاء وراح يتطلع إلّي ، ثم إلى أخيه .. ثم وجدته يترك ذراع الأوسط
 الذي يضمه ويتقدم إلى المكتب ويرجوني ، بكل ما في طاقته من ذلة ،
 أن أوافق وأحيله إلى المستشفى ، إن كان في هذا إنقاذ لأخيه ..

وسكنت الحجرة كلها .. ووقف بدري جامداً في مكانه
كالمصعوق ...

ثم وجدته يندفع إلى محمد يحاول عناقه ، ولكن محمد دفعه عنه قائلاً :
— دا مش عشان خاطرك .. دا عشان خاطر أولادك ..
— يا حبيبي يا محمد .. أنا عارف برضه إن ما أهونش عليك .

وفوجئت بالأوسط هو الآخر يتقدم ويرجوني ، إن لم يكن جاء محمد
صالحاً للتنفيذ أن استبدل الاسم الأول في الخطاب . الاستمارة وأن أضع
اسمه بدلاً منه وانهاره الأعصابي والعلاج الذي أخذه يؤهلانه لدخول
المستشفى وإثبات أن بدري على حق وأنه لم يزور ولم يكذب .

واحترت ماذا أفعل والسماعة في يدي بدأت تنقنق وتقول :
أيوه يا مكتب الصحة .. وبدري يقول :

أنا أستاehl ودني في داهية ما ترحميش ..
والأصغر يقول : كل اللي قاله بدري مضبوط ، أنا مجنون .
والأوسط يقول : ما تسمعش كلامه أنا بداله ..

والسماعة معلقة في يدي ينبعث منها الصوت الأخنف المزعج
مستعجلاً نص الإشارة وكأنه صوت القانون يطالب بتطبيقه وإبلاغ
الإشارة وسجن الأخ .

ويالها من لحظة ، تلك التي تحس فيها أن مصير انسان معلق بكلمة
تقولها أو زناد تضغطه .

لحظة خيل إلى إنها طالت وامتدت وأن المشهد نفسه طال وامتد
وتجمد وأنه سيظل هكذا لن يتحرك أو تدب فيه الحياة إلا حين أفتح
فمي وأنطق كلمة .

ولا أمر ما أحسست أنني ، بدموع داخلية ، أبكي . وأتذكر إخوتي ،
وأحس أنني رابع الثلاثة الواقفين أمامي ..

وصرفني الشعور بأنني لا يجب أن أفعل كما فعل الأخ الأوسط وأضرب
في المليون ، وعن عمد قررت أن أنسى القانون ، وأخطيء ، وأنصت
للهاتف في داخلي ، وأسكت صوت السماع ..

سنة ١٩٦١

هذه المرة

كان الضابط كريماً ، ولم يشأ أن تتم الزيارة في الحجرة المخصصة للزوار المملوءة بضجة عشرين مسجوناً يقابلون بلهفة مجنونه مائة أو أكثر من الأهل ، والجميع يصرخون في وقت واحد ، عبر السلك الأصم المستمتع بصممه ، لأمر ما جعلها الضابط زيارة خاصة تتم في حجرته ، ربما لأن الزائرة كان جميلة رقيقة ممشوقة القوام تضع على عينيها نظارة سوداء أنيقة وترتدي جورباً من النايلون الغامق . و « إمام » كان يعرف منذ الصباح الباكر أن له زيارة ، ولأربع ساعات طوال كانت ينتظر ، والإنتظار في السجن ليس مؤلماً ، أنه عمل ، عمل طويل لا ينقطع ولا ينتهي ، يتسلمه المسجون لحظة أن يضع أقدامه في العنبر ، إذ عليه من لحظة ، حتى لو كان الحكم مؤبداً ، أن ينتظر لحظة الإفراج ، وكل ما يفعله بين ساعة دخوله سجيناً وساعة خروجه حراً طليقاً ، أن ينتظر ، ينتظر الليل إذا جاء النهار ، وينتظر الغروب حين تشرق الشمس ، وينتظر وجبة العشاء المتواضعة أثناء توزيع الإفطار ، انتظار يتكفل الزمن بتغيير طعمه ولونه حتى ليؤديه الإنسان بلا ملل ، وإنما باستسلام تام للإنتظار وخضوع مطلق له .

منذ الصبا وهو ينتظر أن ينادي عليه الشاويش قائلاً : « إمام محمد إبراهيم .. لك زيارة » ، أربع ساعات طوال وليس في عقله إلا المفتاح حين يدور في القفل ، أو صوت الشاويش الغليظ الهادئ الملول وهو يقول : زيارته .

أجل ستزوره سهر مرة أخرى . وهي دائبة على زيارته منذ أن دخل السجن ، لم تنقطع إلا مرة أو مرتين ، ولكنها دائبة ، ودود ، مستمرة ، كالإحساس الدافئ بالأمل . وهو في كل شهر ينتظرها ، ولا يمضي الشهر إلا إذا جاءت ، إذا تأخرت يوماً أو أسبوعاً توقف الشهر يوماً أو أسبوعاً ولا يتحرك ولا يبدأ شهر جديد إلا إذا جاءت .. إن ما بينهما ليس غراماً مشوباً ، فلقد كان يحبها ويحن إليها ويعشقها كما تعشق الليلات والجوليتات وهو حر ، ويرغب فيها أحياناً ويشتهيها كما تشتهي راقصة البطن حين تتلوى بإغراء مثير أمامك ، وأحياناً يطمئن إلى حنانها الأكبر من عمرها وطاقتها ويهفو ، وأحياناً يزود عنها ويضيق ، مثلما يضيق معظم الناس بحياة الزواج ، يحبها ويحب ابنته منها ، وابنتهما جزء من ذلك الحب ، كأنها التجسيد المادي لعواطف لا ترى ولا توزن ، ابنته كانت صحيحة حلوة ضاحكة متفتحة ، بضرة وذات دلال ، تماماً كما تتدلل أمها إلى درجة لا بد أن يتساءل الإنسان معها ، ترى أهي صورة من أمها التي تحبه ويحبها أما هي صورة لما بينهما من حب . والخوف أيضاً كان هناك . لقد انقضت ثلاث سنوات منذ أن كان معها في فراش واحد ، ولقد رآها تضمحل ويسألها عن طعامها فتخبره أنها لا تجد لديها الرغبة في أن تأكل ، أو حتى أن تحيا ، وكان في مرات يلحظ لونها أحمر على غير العادة كأنها تعاني من حمى ، ولا ينسى أبداً رعشة يدها ذات

مرة ثم شفتيها ، ثم رعتها كلها حين ذلك كفها المدود إليه وهو يودعها ذات زيارة . أحياناً كان يواتيه خاطر مجنون يهب به أن يخذها ، هكذا أمام الملاء وداخل السجن ، وليطلقوا عليه النيران ، كان هو الآخر يعاني ، ليس فقط من جسده ، وإنما من كبت وجداني كان الجسد وسيلته إلى تخليصه منه .. يعاني من إحساسه باختناق قدرته على إعطائها ، من حرمانه أن يمنح بسرف وبذخ كما تعود أن يكون عطاؤه .

كان قد تزوجا عن إعجاب شديد تطور إلى غرام وغيره ومحبة وتضحية كقصص الحب العاصفة وتكفل الزواج بصهرهما معاً ، لم يعد يحس بها منفصلة عنه .. أو كائناً آخر مستقلاً .. لكنها أصبحت جزءاً . أنثوياً منه أو لكائناً أصبح جزءها المذكر .. إنها معه ، فهي ، داخله ، وهو يحس بنفسه هناك . في روحها ، في أعماق نظرتها ، داخل كل إنكماش وانبطاطة في ضلوعها الدقيقة وهي تأخذ الشهيق أو تصدر الزفير . إنه حتى يحس بنفسه داخل شعوره بها ، كل متلاحم كالكائن الحي لا يمكنه فصله ، وأي فصل له أو إنقسام لا يزيده إلا حياة وقوة واتصالاً .

ودار المفتاح في القفل ، ولم يسمع — رغم ترقبه له — ما نطق به الشاويش ، سار أمامه ، حليقاً ، قضى وقتاً طويلاً يوصي المسجون الحلاق كي يجتث كل ناشز من شعره وينعم ذقنه ، قام بمحاولات الدنيا كي يستحم بماء ساخن ويلقاها نظيف الجسد لامع الوجه ، كان كائناً هو ذاهب للملاقة الحياة ، تلك التي يبقى مبتأ طيلة الشهر حتى تشرق عليه في النهاية ، وب نظرة واحدة منها تلمسه لمسة ترد إليه الحياة ، حقيقة يحس بجسده يضطرب بتيار عارم متلاحق متشابك من الإنفعالات

والأحاسيس ، يحس بنفسه قد اتصل ببحر الحياة ، أصبح جزءاً واعياً متفائلاً من الوجود الميت الأحمق .

ودخل الحجر ، وشكر الضابط بكلمات غير واعية ، وعيناه تبحثان عنها ، كانت بجواراه تماماً ولم يرها ، لم يرها إلا حين سمعها ، تقول : وكأنما تعبر عن الدهشة لنفسها : إمام . إلتفت . كانت هناك . لم يتبين وجهها أول الأمر ، كماداته ، كان دائماً يخاف ، كلما مرت بخياله في وحدته ، أن يفقد القدرة على تذكر وجهها بكل دقائقه ، وفي كل مرة يراها كان يجدها متغيرة ، أبداً لم ير لها نفس الوجه مرتين ، كل مرة يراها فيها سواء في السجن أو خارج السجن كانت بوجه ، دائماً جديد في السجن أو خارج السجن ، كانت بوجه ، دائماً جديد ومختلف وكأنه لم يره ، دائماً متغير وكأنه لم يثبت على حال ، ولكنه ما يكاد يرى وجهها حتى يعرف ويدرك أنه وجهها ، وأنه هكذا كان يبدو ، وهكذا سيظل يبدو إلى آخر العمر ، وجهها .. الذي له ، يضحك له ، ويعبس بسببه ، ويحلم به ويشتاق ، ويشع حباً من خلاله . وكما التقيا كانت تحدث هذه الإتماعة ، في عينيها وعينيها ، حتى لكأن شرارة تحدث ، وضوءاً مفاجئاً ينسكب فيعشيها معاً .. لومضة ، ويحس أنها لا تراه بقدر ما تدرك وجوده . وتحس كأنما عثرت على كنزها المنشود الذي ظلت تبحث عنه ولا تكاد تصدر عثرت عليه ورغم هذا لا تطمئن أبداً إلى عثورها عليه .

ودون أن يشعرا ، اقتربا ، وتلاصقا ، كما يحدث دائماً كل اقتراب لهما وتلاصق ، وأمسك بذراعها في قبضتيه ، ومن أول لمسة أحس

بذلك الشيء الذي كان عليه أن يدركه حالاً . وتأملها عن قرب . كان لا يزال غير قادر على رؤيتها بدقة ، وكأن الشرارة المعشية لا تزال هناك ، وكانت تبتسم ، ولكنه كان يحس أنها تبتسم لأنها تريد بإرادتها أن يراها مبتسمة وليس لأنها في أعماقها تريد الابتسام . ربما لو تركت نفسها لسجيتها لبكت أو لعانقته أو لاندفعت مقدمة على عمل أعمق . كانت ابتسامتها ربما علامة عجز ، عجز عن أن تصنع شيئاً آخر . وصدرت عنها الكلمات السريعة المتلاحقة التي تصدر عن كل الناس في مواقف كتلك . أزيك . صحتك . وحشتنا . نوسة ، كلمات ، تحركات أفواه وتقلصات ألسنة وحناجر ليس إلا ، فالعقل مشغول بعملية تفحص كاملة تامة ، كل يتفحص الآخر ، بأجهزة لا أسماء لها تقيس كل دقيقة فيه ، ليطمئن إلى أنه هو ، وأنه لم يتغير ، أو إن كان قد تغير فإنما إلى ارتباط أكثر وحب أقوى وتعلق لا حدود له . أجهزة دقيقة شاملة منتشرة في كل اتجاه ، تستقبل وترسل ، وتمتص وتفرز ، كل خلية وكل عضو في الجسد كأنما يريد الإطمئنان على الجزء المقابل له . كان يشاق إلى نفسه كلها ، بيديه وأنفه وشعره المجعد .. بشاربه الحليق ، بالحسنة السوداء في أذنه ، يشاق إليها كلها ، للبحّة في آخر صوتها ، لرائها الغينية حين تنطقها ، لتغايها عليه . لتدليلها إياه ، لفمها الغناء غير الجميلة حين تدندن بها في ساعات التجلي ، لكل شيء حتى لأصبع قدمها الصغرى الخالية من أي ظفر .

وأحس بنفسه قلقاً على غير العادة ، أطالت أجهزته التفحص والقياس والإستقبال ، وأكثر من التجاوب والإعطاء ، لم تستقر على رأي

بعد ، ربما لهذا ظل يردد .. أزيك .. صحتك .. اللذيذة نوسة وضرسها المؤلم الفاسد .. في كل مرة كان عقله يستمر يردد هذه الكلمات إلى أن تكتفي أجهزة جسده وتعطيه إشارة خفيفة أنها انتهت ، حينئذ كان العقل يبدأ عمله ويستطيع أن يعود يعقل وينظر ، ويتأمل ويدقق ، لتبدأ النظرة الثانية . النظرة المتمهلة المتمعنة التي لا قلق فيها ، ولو كان موعد الزيارة معروفاً فاللقاء دائماً مفاجأة يطير لها الصواب ، نظرة المتعة بالرؤية والإلتهاام ، إلتهااماً ، بالمزاج والراحة وأقصى درجات السعادة . إزاي نوسة ؟ رابع مرة في دقيقة واحدة يسألها سؤالاً أقرب للاستعجال منه إلى السؤال ، وليس استعجالاً لها وإنما إستعجال لنفسه اللاواعية أن تنتهي من إجراءاتها الكثيرة المعقدة وتثوب إليه ، ليثوب إليه إطمئنانه ووعيه . كويسة قوي ، مشتاقة لك . هي الأخرى تجيبه ناظرة في عينيه ، شاخصة إليه كأنما تنتظر أن ترى في عينيه شيئاً ، إشارة أمان تعودت رؤيتها ، جواز مرور ، نظراته هو . الحقيقة التي تعرفها حين ينظر بها إليها هي ، وتراه ينظر إليها دوناً عن الكون والدنيا ، هي فقط التي تكون في عينيه وكأن العينين تصبحان عينها ، عينها وحدها ، عيناه وعيناها ، وبدأ القلق يدب ويهدد بأن يصبح توتراً ، ولم يكن يريد أي توتر . كان يحلم منذ الصباح بأن تتألى ، في نعومة ويسر ، نظراته ، الأولى المذهولة ، والثانية المستمتعة . والثالثة حين تبلغ المتعة حد النشوة ، والرابعة الحاملة المكتسحة الخارجة به وبها من خلف الأبواب الموصدة إلى الدنيا المتسعة ، إلى الغد ، الغد الطويل الممتد الذي لا نهاية واضحة له . أي تلكؤ حرمان ، وزمن الزيارة قليل ، وعقله من خوفه يساهم في الإسراع ويكاد يقسم لأجهزته وحواسه الظاهرة والخفية كل شيء

على ما يرام وإنما هي ، وجهها القمحي هو هو ، عيناها العسليتان
الواسعتان ذواتا الحدقتين المكونتين من ألف لون ولون ، المشعتان بألف
شعاع وشعاع ، شعرها الأسود اللامع أسود ولامع ، فورمته مختلفة
ولكنه شعرها ، روحها هي نفس روحها أو تكاد ، لا خلاف يذكر
أو يلحظ ، ولا يمكن أن يكون هناك خلاف ، أن أي خلاف معناه
إختلال في نظام الكون لابد ، صحيح أنها معنوية بزيبتها أكثر من كل
مرة ، قلم الحواجب واضح خطه في حواجبها ، والريميل يرمل أجفانها
أكثر ، وإن كانت فسفوسة صغيرة لابد من أثر الجو أو الهضم قد نبتت
من زاوية فمها إلا أن شفتاها هما شفتاها ، بروزهما إلى الأمام لم تتغير
درجته والروج ينطبق تماماً على حوافهما كما تحب أن تبدو ، لا شيء
تغير ، بل ربما اللهفة أكثر ، وقلقها للعثور عليه في عينيه وعلى نفسها
داخله أكثر .

ولكن نفسه استمرت تتفحصها غير مبالية بقلقه أو إستعجاله أو
ضيقة ، مندهشة لاتزال ، غير مدركة تمام الإدراك ما ترى ، تتفحص ،
بلا وعي تتفحص ، دون أن يشعر بها أو يسمح لها تتفحص ، كأنه
يراه لأول مرة تتفحص ماذا هناك يا ترى ؟ ماذا يوقفها ويقيها ؟ ماذا
يدهشها ويذهلها ؟ ما المجهول فيها وهو يعرف كل لحظة منها وفيها ..
لا أحد ، لا عقله . ولا جهاز من أجهزته يرحمه ويحجب ، أو حتى يعرف
ويدرك ولا يحجب . وكلمات الشوق والترحيب مستمرة ، عصبية من
وراء القلب ، ولجورد قول شيء ، مستمر ، والحجرة تبدو أحياناً واسعة
كفناء السجن . وأحياناً تضيق لتصبح أضال من الزنزانة ، والضابط

جالس إلى مكتبه منجمص إلى الخلف بالجريدة مفتوحة وبعين نصفها يقرأ ونصفها الآخر مضاف إليه انتباهه كله ، يراقب ما يدور بين الرجل والمرأة ، لا يراقب محرمات أو مخالفات ، وإنما على الرغم منه ، ولجهد حب الإستطلاع يراقب ، مراقبة لا يراها أي منهما ولكنهما يدركانها تمام الإدراك ويستعجلان اللحظة التي يندمجان فيها معاً ويفيان عن الوعي بالزمن والمكان وحتى بهذه الرقابة من الضابط .

لحظة طالت وامتدت حتى أصبح تأخرها أمراً واضحاً لاشك فيه ، أمراً يدفع الموقف بكميات أكبر من القلق ، قلقه ، وقلقها ، على قلقه .. وقلقها حتى من قلقها عليه .

فجأة أفلت الزمام منه ، ووجد نفسه يسألها : إيه اللي حصل ؟

وكان بوسعها أن تسأله ما يقصد ، وعن أي شيء بالضبط يتحدث ، ولكنها مثله لا تريد للوقت أن يضيع ، ويخاف أن يضبطها في لحظة تغلب ، أن السؤال وإن كان يبدو مائعاً عائماً إلا أن الصوت الذي نطقه به كان محدداً مستغيثاً يطلب إجابة حاسمة تشفي الغليل . وبسرعة وبحسم قالت : لا شيء حدث . مالك ؟ أنا ؟! ماماليش .. لا .. لازم فيه حاجة .. حاجة إيه ؟ ولا حاجة . إنتي متغيرة . أنا ؟! متغيرة إزاي ؟ لازم مش إنتي . إزاي مش أنا ؟ أنا أنا .. كل مرة أنا أنا .. إنما المرة دي انتي مش إنتي .. أمال مين ؟ أنا مين ؟ أنا سهير بتاعتك مش فاكرا ! صحيح بتاعتني ! ودي عايزة سؤال يا إمام .. بتاعتك بتاعتك بتاعتك .. إنما برضه يا سهير لازم فيه حاجة ..

ولاحظ إرتجافه عابرة جداً سرت بشفتيها لم يكن ليلحظها لولا فسفوسة عسر الهضم . أمام الحاجز الذي أقيم بدت العواطف تتجمع بسرعة وتزايد وتتراكم وتهدد باكتساح السد الذي أقامه بلا سبب معقول أو غير معقول أو بصناعة مجرى جانبي آخر . وهكذا كان لابد أن تأتي النظرة الثانية ، بحكم قانون القوة جاءت ووجدت وأصبحت أمراً واقعاً ، ولكنها لم تأت كما تعودت أن تأتي كل مرة ، حين نحل محل النظرة الأولى الخيرية المتسائلة المذهولة ، جاءت النظرة الثانية هذه المرة دون أن تخفي الأولى أو تزول ، تراكمت فوقها ، فوق الذهول والخيرة والتشتت ، وأيضاً لم تكن نظرة استمتاع والتهام متمهل سعيد منتش ، جاءت مختلفة ، غريبة ، مجرد رغبة أعظم في بحث متعجل حاد ، لهفة ، إحساس دافق قوي بضرورة العثور على نهاية ، على قاع ، على حقيقة .

— فيه إيه يا إمام ؟

سؤال منزعج من فم منزعج والملاح التي أطلقها فيها رجفة لابد رجفة اضطراب ، لم يكن قد حدث ما يستدعي السؤال أو الإنزعاج ، كما لم يكن قد حدث ما يستعدي سؤاله المفاجيء عما يمكن أن يكون قد حدث . ولكن المشكلة أنه لم يكن مطلوباً أن يحدث شيء واضح ليسأل أحدهما الآخر ، أو ينزعج ، إن الحياة معاً في حب أو زواج . صنعت مثلما تصنع لكل الناس . ذلك الإلتحام الشامل الذي — يجعلك تفهم الآخر وتحسه ربما قبل أن تفهم نفسك أو تحسها ، تفاهم بالإحساس يتم بالتأكيد قبل أن يتم التفاهم بأي لغة أخرى حتى لو كانت لغة العين والنظر ، إنه تشابك الأفرع والأغصان والأوراق وتداخلها في

شجرة إحساس واحد مسيطر ، حالة لا يزيد بها البعد إلا حدة ،
والحرمان إلا شحذاً ومقدرة ، وكلما ازداد الطرفان بعداً ، اقتربا
وأصبحا أكثر تشابهاً .. فانفصال أيهما عن الآخر في الزمن أو المسافة
لا يبعد ولا يعزل ولكنه يقرب ويكثف ويربط ، فيه إيه ؟! أي نعم
فيه إيه .. وإيه بالضبط ري سؤالك حصل .. انطق .. تكلم .. فيه
إيه .. أبداً ولا حاجة .. إذن لم يحدث شيء وليس هناك شيء ؟! ما
الأمر إذن ؟ ماذا هناك ؟ ماذا دهاك . ولو كان الوقت يسمح لاستمرت
المطاردة الخالدة غير الجديدة على علاقتهما .. إلى ما لا نهاية .. ولكن
الوقت ، كان مديباً . كالترس المسنونة تروسه . كلما دار وخز وألم ونبه
وجأر بأنه يدور ويمضي مهدداً بقرب إنغلاق دائرة الدقائق العشر
المصرح بها .

ولكن ماذا يصنع أو يقول في موقف لم يحدثه هو بإرادته ، في موقف
تكوم وتكون وتراكم وتشكل حقيقة واقعة دون أي تدخل إرادي أو
عقلي أو حتى وجداني منه ، إنما حدث هذا وكأنا حدث بواسطة جسده
وأعضائه وعضلاته وعظامه والأجهزة اللاإرادية الغريبة المركبة فيه ، في
موقف عاجز عن فهمه وإدراكه . موقف حدث لا يدري كيف ،
ومستمر في حدوثه لا يدري كيف أيضاً ، وسادر في استمراره إلى ما
يبدو إنه اللا حل واللا نهاية ، لا يدري كيف أيضاً ، سهر يا حبيبي
أنت أنت ، لم يتغير فيك شيء ، أليس كذلك ؟! بل تغيرت يا إمامي
وأصبحت أحبك كما لم أحبك من قبل أو من بعد .. ليتك تؤجلين الكلام
عن الحب ، كل كلام عنه أحس به غير طبيعي .. ومصطنع من أجل

هذا الموقف ، إن الحب يأتي بعد الاطمئنان ، وأنا لا أزال لم أطمئن ، نفسي التي تحركني وتشعر لي لم تطمئن ، عقلي لا يزال مذهولاً يبحث عن خلجة إطمئنان ، ومنك يأتي إطمئنائي ، وفي يدك الحل إذ التفسير لا بد عندك . أنا أنا لم أتغير يا سهير ، أنا كجدران الزنزانة ، كساعة (التمام) بعد الظهر كوقع الأحذية الثقيلة على بلاط العنبر ، أنا مثل أي شيء وكل شيء هنا لا أتغير ولم أتغير . أنا ثابت وأنت المتحركة ، أنت الطليقة ، أنت المتغيرة .

ولكن يا حبيبي برغم أنني طليقة ومتحركة ، برغم وجودي في الخارج الحر أنا معك ثابتة لا أتغير . أنا هنا وإن كنت أبدو هناك ، أنا سجيننة داخل ما هو أفضح من سجنك ، داخل الحياة الطليقة ، كلام جميل مثل حوار أفلام الحب ولكني لا أريده ، وإن كنت في كل مرة أسمع . أجن إلا إني لا أريده . هناك شيء مؤلم حاد يشتتني ويجعلني لا أريد أن أصغي قبل أن أوقن وأعرف . تعرف ماذا ؟ أعرف من أنت ؟ إن فيك شيئاً لا أعرفه يجعلني أحس أنني لا أعرفك كلك ، شيء جديد غريب عليّ ، حواسي تحوم حوله وتحفل ولا تستطيع إدراكه . أراه ببصري ولكن لا أعيه . أأكون قد حدث شيء يا سهير ؟ أأكون ؟ أرجوك . دعيني أعرفه ، كيف ؟ أعرفه أنت واعتري لنفسك به فأعرفه أنا . حوار غير منطوق أو مسموع أو حتى مار عبر العيون ولكنه رائع غاد في سرعة وتحفز ككرات البنج بونج لا يستقر ولا يهدأ وإنما تزداد به النظرات جهلاً واستيحاشاً وتوتراً ، ويزداد به الزمن وخزاً وإيلاماً ، لم يبق على إنتهاء الزيارة سوى دقائق ثلاث أو أربع . سهير يا سهير .

أنت لي . كلك لي . حتى ما فيك من خطأ لي . بحقك عليّ وحقي عليك أخبريني ماذا حدث ، إذ مهما كان ما حدث فهو فسفوسة يا سهير بالقياس إلى حياتنا ، فسفوسة لا أعرف لها مكاناً ولا سبباً ولا اسماً ، أحس بها تافهة سطحية تكفي ضغطة صغيرة لتنمحي وتتلاشى . كل ما يضحّمها ، كل ما يعرقلني عنك ، إنها غريبة عليّ لأنها غريبة عليك .

— أنت شايف إيه ؟ ..

— مش عارف .

— عايز تقول إيه ؟

— مش عارف .

— شاكك في إيه ؟

— مش عارف .

— أمال فيه إيه ؟

— مش عارف . أنا خايف .

— من إيه ؟ عليّ .. ما تخافش .

— ده كلام يمكن من قدامي بس .

— قدامك ومن وراك .

— أمال أنا حاسس بيكي متغيرة ليه ؟

— يمكن إحساس خاطيء ..

— وهو عمر إحساس اللي بيحب بيخطيء .. أبداً أبداً يا سهير ..
عمر إحساسي بك ما أخطأ .. عقلي بيغلط إنما إحساسي لا .. وده هو
اللي تاعبني ..

— أنت بس إلى عاوز تتعب نفسك .

— واحد بيعوز يتعب نفسه ؟

— أيوه .. لما يكون مسجون بعيد .. ويحب .. يخاف على حبيبته
أو مراته فيشك ويخاف ويتعب نفسه ..

— ده كلام معقول . إنما أنا اللي حاسه حاجة فوق العقل . حاجة
قبل العقل .. حاجة أصدق وأعمق من العقل ..

— اسمح لي دي قلة عقل .

ولكنها قالتها بروح لا مرح فيها ولا رغبة في المداعبة ، وهذا ما
أحزنه ، لو قالتها كنكتة لبدت طبيعية وربما حلت الموقف كله ، ولكنها
أخذتها جداً .. وأردفت :

— اشمعنى المرة دي يعني ؟

— ده بالضبط اللي بقوله لنفسى ، كل مرة تيجي تزوريني هنا ،
اشمعنى المرة دي ؟

— أيوه اشمعنى المرة دي ؟ ..

— لأن لازم حصل فيه حاجة يا سهير . أنا حاسس .

والكارثة في هذا الإحساس الذي لا يناقش ، كالحكم الذي لا نقض
له ولا راد ، كالأمر الواقع ، إحساس غير خاضع لمنطق أو فكر ، ولكن

له قوة أعتى من قوة المنطق والفكر . للمرة المائة يتأمل وجهها ، إنه هو الآخر أمر واقع ربما ينجح في دحض إحساسه ونسفه ، ولكن حتى وجهها تكفلت المنطقة الغريبة المجهولة بالزحف عليه والإمتزاج بلونه وملاحه وتغير لونه كما يتغير لون الماء إذا سقطت فيه نقطة حبر .

ومالت على أدانة مرة وهمست له بكلمة ، أعقبتها بضحكة عالية جعلت الضابط يرهف أذنه ويكاد يمدّها لتسقط ما بين فمها ومسامعه ويعرف سبب الهمسة والضحكة . أما هو فلم يهضم لا الهمسة ولا الضحكة في مظهرها بريئة ، قرية منه ، تبدو كنفس ضحكتها البريئة ، ولكنها البراءة وقد زحف عليها ذلك الشيء الغريب المجهول فأحالتها إلى ما يشبه التهنك والرقاعة ، إن رأسه يكاد ينفجر . لم يعد باستطاعته أن ينظر إليها أو يشعر بها كما تعود أن ينظر أو يشعر ، في غيبة عقله ، كما لا بد في غيبته حدث شيء . شيء غامض محير مجهول ، لو كان طليقاً لظل وراءه يبحث ويستقصي حتى يدركه ، ولكنه هنا مقيد محبوس ، ووظيفته الأولى أن يبقى جاهلاً بمعزل عن كل ما يمكن أو بالاستطاعة معرفته . إنه هنا فقط يسجل ، يسجل حتى دون أن يشعر ، وقد سجل ما فيها من غربة ، ولينفجر عقله محاولة التفسير أو التبرير فأحساسه لن ينفعه ، سيغادره تاركاً إياه وحده مع التصرف أو بالضبط مع عدم القدرة تماماً على التصرف . إنه الجحيم حتماً ، بل ربما الجحيم أرحم ، إنه السجن .

صيف ١٩٦٤

لغة الآي آي

لم تكن بالضبط صرخة ولكنها كانت الأولى بعد منتصف الليل بقليل ، تصاعدت ، غير آدمية بالمرّة ، حتى الحيوان ممكن إدراك كنه صوته ، ولكنها بدت لأول وهلة جمادية ذات صليل ، كعظام تتكسر وتتهشم تمسكها يدا عملاق خرافي القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدها .. فجأة وفي المنزل الهادئ المظلم الفاخر الإظلام ، السابح في سكون مسود تلمع فيه حواف الموييليا الأنيقة الموزعة بعناية وذوق ، بيت ساكن نائم يرفل في رائحته الليلية الخاصة التي تميزه عن أي بيت ، وفي الحي المترف الذي تتشاءب نوافذه وأضواؤه واحدة وراء الأخرى ويؤوب إلى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق في الأحلام .

وفي وسط هذا كله ، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف إن كان يمت حتى إلى الحي ، تصاعد ذلك الشيء الغريب الغامض الأول ، مفاجئاً وكالطعنة الملتاثّة ، حافلاً بأنين التمزق ، وكأنه صادر من حنجرة تمزق أحبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أي أذن يقع عليها .

ودونا عن سكان الحي والبيت ، بدا وكأنه الكائن الوحيد الذي سمعه . كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لا بد لها من حل ، ومر الصوت مفاجئاً غير مأكوف من الصعب تبينه ، ولكن جسده في اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلي مذعور ، وإن لم يستغرق زمناً ، اسلمه إلى عيني مفتوحتين لاخرهما ، وقلق وعاصفة من الاضطراب ، فالإحساس التالي الذي واثاه كان إحساساً بالذنب ، شعور غامض يربطه بالصوت ، ويؤكد أن الصلة بينهما من صناعته ومسؤوليته ، وأن عليه وحده يقع التحمل للنهاية ، وبالغريزة التفت ، كانت زوجته لا تزال على وضعها ، فقط في اللحظة التي إلتفت فيها ماءت مواء طال بعض الشيء ، ثم بارادة نائمة انتقلت إلى جنبها الأيسر وقربت ساقها ، ربما كان الأثر الوحيد الذي أحدثه الصوت في جسدها المستسلم لأول مراحل النوم . وارتاح وبعض الشيء إطمأن وهو يواجه الأمر وحده ، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلاً بزيادة إرتبائه .

ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟

في لحظة مر بخياله ألف احتمال ، إلا الاحتمال الوحيد الذي كان يخاف مروره . لم يكن قد تغير في البيت أو في الحي أو في دنياه كلها شيء ما عدا ذلك الشيء الواحد الذي اغتم له . ولابد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفى عقله بشدة ، وأبى أن يصدق .

ولم يشأ أن يفكر أكثر ، مجرد صوت وحدث ، المهم ألا يعود يحدث ، ومر بعض الوقت ، أحال اللحظة إلى دقيقة ، أو دقائق ، ولا

شيء يتغير داخل الليل الساكن ، والأمل يقوى ..

ولكن وشوشة غامضة حدثت ، إندفع منها إلى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودي له وقع العظام نفسها وهي تسحق وتتدشده ، صوت أقرب إلى رعد تنفثه السماء في ماسورة مكتومة ، ما لبثت أن فتحت وسلكت في إستغاثة راعدة مولولة ممدودة يخاف صاحبها أن ينهبها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الأمر . لم تعد هناك فائدة .

كان هذا الصوت الثاني مزعجاً حقاً حتى أنه ، مع علمه هذه المرة وتأكدته من مصدره ، لم يستطع كبح جماح إرتجافته ، ليس خوفاً منه ، وإنما من الشيء المجهول المروع الذي يختفي لابد وراءه ويحدثه . مزعجاً ومحيراً إلى درجة لم يلحظ معها أن رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفتت إليه قائلة بهستريا مفاجئة :

— إيه ده ؟ قول لي بسرعة وحياتك إيه ده ا وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة .

وقبل أن يفكر فيما يقول انخلعت عنه ، ناظرة إليه بشك متوحش :

— أوع يكون هو ؟

وقبل أن يفتح فمه أردفت :

— أنا مش قلت . أنا مش قلت . اتفضل بقى . اتفضل بقى . أنا مش قلت .

وحقيقة لقد قالت وعارضت وكل ما حدث كان رغم قولها

لغة الآي آي

وإرادتها ، وبالتأكيد هي الآن بسبيلها إلى إعادة ما قالت . وعليه أن يتذرع بالصبر ، ويقول لها كلاماً مطمئناً كثيراً .. إنها مجرد آهة .. آهة ستمر ، ويعود كل شيء إلى سابق عهده ..

أكان معقولاً أن يعود أي شيء ليلتها إلى سابق عهده ؟ الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها .

وما فائدة الكلام ، والكلام الذي دار كثير ، وقد كان ممكناً ، مادام الوضع هكذا . زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان ، وساقاها حتى في الظلام يظهران من قميص النوم في إغراء لا جمهور له ، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم وعناية خاصة بالشعر ، ودهان مخصوص للبشرة وزوج هناك دائماً بينه وبين لحظة النوم مشاكل لا بد لها من حل ، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وعيناه القدرة على الرؤية .. مادام الوضع هكذا . فقد كان ممكناً أن يدور الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها حول أي موضوع ، كالعادة ، لا تلتقي عنده وجهات النظر . المهم أنهم أصبحوا بشيء من التحدي ينتظران الصرخة الثالثة ، التي لن تجيء كما يؤكد الزوج والتي لا بد أن تأتي كما تصرخ الزوجة ومن المطبخ ، هذه المرة كان المصدر واضحاً ولا شك في أمره ، انطلق مواء كمواء القطط ، يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطةً ثاقباً إرادته فيبدو كما لو كان رجل قد قرر بجماع ما يمتلكه من قوة ، وبسبق لإصرار ، أن يتأوه كما يريد ، ولتقم القيامة بعدها ، إنطلق صفير معذب متألم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤلم زاهد .. آي ، آي ، آي ، أي طويلة وقصيرة ، ممدودة ومبتورة ، عالية بكل قواه يرفعها ، منخفضة بجماع إرادته يخسفها ، مجروحة دامية ، لاسعة كالنار

في العين ، كاوية كصبغة اليود في الحلق .. حارقة كآثار الحامض المركز .

فتحت الزوجة فمها تصرخ في هوس من تأكد قولها ، وانتظرت أن تنتهي الصرخة لتطلق صرختها هي ، ولكن انتظارها طال ، وبدأت رغماً عنها تسمع ، ومن الدهول استمر فمها مفتوحاً وأذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان ، ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة ، ونفس اللحظة التي كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتستغيث صارخة ، انتهت الصرخة فجأة ، وكأنما انكسر الجهاز الذي يصدرها .

وكان الصمت الذي حل تماماً ساحراً كالدواء الشافي المعجز لو لم يحل ، وفي اللحظة التي حل فيها ، وعلى تلك الصورة الكاملة ، لفقد أحد أو الجميع عقولهم .

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية : كده يا حديدي .. كده ..

وأجاب بهمس ، مناه ألا يصدر : أرجوك يا عفت .. أرجوك ..

ولكنها لم تستجب . بفحيح أكثر إنخفاضاً وإلحاحاً سأله : بس أنا عايزه أعرف . أرجوك أنت .. أنا ح أجنن عايزه أعرف .. ماوديتوش لوكاندة ليه .. ما سبتوش يتحرق مع أهله ليه .. عملت كده ليه . أرجوك قولي بس .. عشان ما اجننش ..

كيف يجبرها وهو نفسه لا يدري لماذا أقدم على ما أقدم عليه . كان قد اتخذ قراره من زمن وكف تماماً عن مساعدة أهل « زينين »

وتوظيفهم والتدخل لقضاء المصالح . إن أهل بلده هؤلاء لا يكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتسابقوا إلى جذبه إلى أسفل وإغراقه في حل مشاكلهم . مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لأضعاف أضعاف عمره ، فلا يوجد إنسان إلا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه ، ومائة ألف نسمة في زينين وما حولها بمائة ألف مشكلة ، بقرار حاسم باتر منه أن تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه وأن ينفذ عن نفسه هذه الأيدي الكثيرة التي تريد إنزاله وجره إلى حيث هم وكأنما لا يطبقون رؤية البارز العالي ولا يسترحون حتى يرك مثلهم ويعجز .

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلاً : إن أبا فهمي وعمه بالخارج وأنهما يريدان رؤيته . وحياته ليس فيها إلا فهمي واحد ، أول ، وربما آخر طفل أو إنسان يعترف الحديدي لنفسه إنه أذكى منه . كان فهمي إذا وقف ليحجب وقد عجز الفصل عن الإجابة التفت الحديدي بكلية ناحية ، يتأمل ملامحه الشاحبة ، ووجهه المليء بالعظام الناتئة والذي تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة ، مهابة التفوق أو العبقرية ، وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبره حتى الطريقة التي ينطقها بها ، فكل كلمة كانت الصواب بعينه ، كل كلمة بالضبط ما يجب أن يقال وما يعجز الجميع عن قوله ، فهمي كان يقولها ببساطة ودون أي جهد ، في ذلك الفصل من المدرسة الإلزامية ذي الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذي بنيت به الحيطان ، الفصل ذي السبورة الكالحة البالغة الصغر وكأنما هي سبورة خاصة لتلميذ واحد ، المزدهم بعشرات الطواقي الصفوف والبيضاء القطن وأحذية الإخوة الكبار أو ربما الآباء

والقباقيب والحقائب القماشية التي صنعتها كل أم لابنها ، أو خيطة على المكنة فوق البيعة مع الجلالية ، الأيام الأولى التي كان الحديد يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادئ أسرارها ، وفهمي رفيق تلك الأيام ومثلها الأعلى .. أياكون أهله هم من ينتظرونه بالخارج .

وأمر بدخولهم ..

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة أو أربعة أناس من حجم قصير تخين واحد . ورابعهم مثني على نفسه لسبب مجهول . أجال بصره فيهم . إن ملاح فهمي محفورة في ذاكرته لا تمحى أو تموت . وأجال بصره محاولاً أن يعثر على من يصلح ليكون أباً لفهمي أو عمه .. ولكن ملاحظهم بدت غريبة حتى على أهل زينين بشكل عام ..

— أمال فين فهمي ؟

وتسابقوا في إرتباك عظيم يجيئون ، وينتهون إلى الإجماع على الإشارة للشخص الرابع المثني على نفسه .

— ده ..

— أيوه يا بيه ..

— أنت ؟ ..

— أيوه يا بيه .. هو ..

— أيوه .. يا ..

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه متنيا ، وحدق الحديدي طويلاً فيه
كمن يفتش في كومة من قش قديم عن إبرة ملامحه لطفل صديق كان
أعز عليه من نفسه ..

— أنت فهمي ؟!

— أيوه .. يا .. فاندي ..

جاءه الجواب من وجه المومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة
توراً للدخول فيه ، وجه منقبض بالألم وكأنما ثبتت ملامحه عنده
وحنطت عليه ..

— أنت فهمي أبو ..

— أيوه .. أبو عنزه يا بيه .. ده كان معاك في المدرسة .. بس
حضرتك مش فاكر .

أمعقول هذا ؟ من الطفل المرتب النظيف الذي تحيط بوجهه مهابة
التبوغ ، ومن العينين اللتين يطل منهما الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على
الإدراك ، أين هذا من ذلك الرجل الذي يبدو عجوزاً محطماً تجاوز
الخمسين ، المظلم القسمات كالأرض البور ، المطفأ العينين لضيقهما
كشريط اللبنة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ
الكيروسين .

وأحسن بفجاعة ذات طعم خاص ، كان دائماً متأكداً أنه سيلقى
فهمي يوماً ما ، وكان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل . إن قدراً كبيراً من
الرهبة التي يحسها لفهمي مبعثه أنه كان يتخيل دائماً أن فهمي سيظل

متفوقاً عليه وعلى الآخرين . وأن الذي باستطاعته أن يتفوق كطفل لابد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل . ولم يكن أبداً يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة وأن الطفل الذي في ذاكرته سيمخض عن هذا الرجل . كان يدخر اللحظة التي يقابله فيها كلاماً كثيراً يريد قوله ، وكيف أنه إذا كان قد أصبح الأستاذ الدكتور الحديدي أكبر مرجع في الكيمياء العضوية في الشرق ، وإذا كان قد أصبح رئيس مجلس إدارة مؤسسة كبرى ومرشحاً أكثر من مرة للوزارة وعضواً في عشرات اللجان والهيئات العلمية في الشرق والغرب فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمي ، فقد كان الصوت الذي ظل لأكثر من ثلاثين عاماً من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر ، ولو مرة واحدة ، على الطفل العبقري الذي ظل يحافظ عليه في ذاكرته كصور القديسين التي لا تمس . وها هو اللقاء ، وها هو القديس .

— أنت فهمي أبو عنزة ؟

— أيوه يا بيه .

— فاطر العنزة ..

— عنزة إيه يا بيه ؟

العنزة التي سرقها ليشتري لحسين أبو محمود والد منصور الألدغ حقن الدواء ٦٠٦ التي قيل إنها بخمسين قرشاً وأنها دواؤه الوحيد . فقد كان فهمي شهماً أيضاً ، لا يتردد في الذهاب سائراً على قدميه إلى البندر أو بقاء الليل بطوله ساهراً أو اليوم كله عاملاً كادحاً إذا أحس أن غيره في حاجة إلى هذا العمل أو الجهد ، خصال جعلت الجميع يدهشون

ويفجعون لإقدامه على سرقة العنزة . وإن كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر . إلا أنه خرج منها بالاسم لاصقاً به ملفياً اسمه الحقيقي وحالا محله .

— أهلاً وسهلاً .. أية خدمة .

بالطبع فلا بد قد جاءوا ، مثلما كان يجيئه المقات في إنتظار أن يحقق لهم بمفرده ومركزه المعجزة . كان سهلاً تخمين المطلوب هذه المرة ، فلا بد أن فهمي مريض ولا بد أنهم يريدون إدخاله المستشفى .

وحاول أن يتحدث إليه ويسأله عن مرضه متنياً على نفسه في جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه أن يسمع ما يقال . وتته أبوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث ، بل أحياناً تمضي عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف ، ولم يكن المرض في عقله أو نفسه وإنما كان في مثانته ، فهم منهم أنها لابد بلهارسيا أدت إلى سرطان في المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع (حكما) المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاقي صحته والعرب الذين يكون بالنار ، و (يخرمون) بالمسلة حتى قالوا لهم في مستشفى المحافظة في النهاية أن لا فائدة من العملية وأنه بحاجة إلى علاج بالأشعة في مصر . وأدحنا جينالك يا بيه ربنا يخلي لك أولادك ويمتلك بالصحة .

ومن غير دعاء ، كان قد قرر أن يتكفل بالأمر . إن الدين الذي في عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة ، كبير ، ولقد حان أوان رده وإيفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولاً من « الجماعة » التي ترافقه ويستصحبه إلى بيته ليقتضي فيه الليلة وفي الصباح واعتماداً على صديقه أستاذ الأشعة يدخله المستشفى . فقد كان عليه أن يدبر أمر ذهابه إلى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه في نفسه من ناحية ولا يظن معها من ناحية أخرى بواب أو ساع أنه أخ له أو قريب ، وكان عليه أن يتغلب على معارضة (عفت) زوجته التي لا بد سترفض إيواء شخص مثله ولو ليلة واحدة ولو لكي ينام في المطبخ أو في فراش السفرجي .

ولقد تم كل شيء كما قدر له الحديدي ، إلا معارضة الزوجة التي بقيت حتى بعد رضائها بوجوده في البيت وأمرها للسفرجي أن يتكفل به وبحراسته وإطعامه . وهكذا لكي يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح أن يذهب إلى المسرح ، وحين عاد في منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يخيم على البيت . وكل شيء فيه هادئ ، ونور المطبخ مطفأ ، وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع بمراحل نومها الأولى وكان الحديدي مغمض العينين لا تزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الإدارة الذي أجلت حكاية فهمي من اجتماعه ومن المشهد العاصف الذي كان قد أعده لكي يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. إما الظهور بمظهر الغبي الأحمق الجاهل وإما ، حفظاً لماء الوجه ، الإستقالة .

حين جاءت الصرخة الأولى .

وأعقبتها الثانية والثالثة .

وتكهرب جو البيت تماماً ، أ يكون قد تورط في خطأ أكبر دون أن يدري ، وظن أنه يأوي قطعة حديد خردة عزيزة لتأخذ طريقها في الصباح إلى الورشة فإذا بها قبلة بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت ! وعلى عجل أسرع إلى المطبخ حافي القدمين ، كان مظلماً لا يزال ولكن رائحة خائفة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب . مد يده يضيء النور ولكن الشلل أصابها قبل أن تصل إلى المفتاح . فقد انطلقت من المطبخ الضيق آهة صارخة ثاقبة كعشرات من الأبر الحادة المسمومة انطلقت في كل اتجاه . لا يمكن أن يكون هذا صراخ ألم أو للتعبير عن ألم ، ولا مجرد أصوات ، أنه شيء مادي ينخر في الجسد ويصيب السامع بالحمى ، فوق احتمال البشر .

أضاء النور وهو فعلاً خائف ، ولم يلمح فهمي في الحال فقد وجد الفراش الذي منحوه إياه ممزقاً مكوماً ، والمطبخ بكل ما فيه مبعثراً ومدلولقاً والمقشاة متترعاً قشها وريشها ومنشوراً ، وعدداً لا يحصى من يقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء والرائحة النتنة الخائفة لا تزال هناك لكأنه كان ميداناً لمعركة حامية الوطيس دارت بين إنسان أعزل وخصم جبار غير منظور ، لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الإنسان من عدو خفي يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم لا حول له .

ونظر ثانية ألقاها على المطبخ بعيني الزوجة هذه المرة أدرك بعدها فاجعة لم يكن يتوقعها أبداً قد حلت . وبحث عن فهمي فوجده قد حشر نفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ عارياً تماماً ليس عليه إلا

فانلة مهراة ، رأسه يتحرك في كل إتجاه ، عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركة في محجرها تبحث عن منقذ ومخلص ، وبكيانه كله كان يتجه إلى أعلى في يأس كامل كمن يدرك تماماً أن لا نجاة . أنه ألم سرطان المثانية المروع حين يزحف مع الليل حين تبدأ قطرات البول تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذي نفذ إلى كل المسالك ، ومرور القطرة على الورم المنتهك المجروح ، يسحق بالألم الذي يصدره كائناً حياً في فخامة الفيل وبلادة إحساسه ويجعله يجثو ويحفّر الأرض بأظلافه ويملاً الدنيا بهتاف مروع صارخ .. إنه الألم الذي يسمونه فوق احتمال البشر ، فهو لم يخلق لبشر ، ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة الدقيقة على الإحساس كي يسحقها ويكوئها ألم كهذا الألم .

أخرج فهمي من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيانه في حالة تلفت مسعور وبحث عن مفر ، مشغول عنه وعن المكان والزمان والدنيا كلها بما هو حادث فيه وبداخله ، فيقف ويجثو ويتمدد على بطنه ويركع ويقوم هالماً واقفاً ويفتح فمه لإستعداداً للصرخة ، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمه بذراعه أو بالخذة أو المقشة ويغرز أسنانه فيها ويسيل الدم من الذراع ومن الفم ، ومع نقاط البول الكاوي .

وشعر بضغط خائق يكتم أنفاسه وبرغبة مجنونة أن ينطلق هادراً لاعناً نفسه وبلده وأناسها واليوم الأسود الذي كتب عليه فيه أن يولد منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كله يحمل عن أناسها همهم وفقرهم وعجزهم ومرضهم وأخيراً آلامهم وبولهم ، ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتجاجاته إنه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمي أن يكف عن

الصراخ أو يرغمه على البقاء في ركن بعينه من المطبخ إلا إذا كان باستطاعته أن يأمر الألم الذي في داخله أن يكف والشيطان الذي يمزق أحشائه أن يهجع .

وسمع خطوات مترددة في الصالة ، وخافة أن ترى الفاجعة الحادثة .
أطفأ النور وأسرع عائداً إلى حجرة النوم ليجد عفت في منتصف المسافة .

— هيه .. عملت إليه ؟

— قلت له يسكت ..

— وإن ما سكتش ١؟

— حا يسكت ..

آي ياي ياي ياي ياي ياي

وأسرع خلفها إلى حجرة النوم التي فزت إليها مذعورة . وما كادت الصرخة تنتهي حتى وقفت تواجهه وتهيء نفسها للعاصفة المقبلة الهوجاء . ولكنه أسرع ، واستطاع رغم دفعاتها وتملصها أن يحتويها بين ذراعيه ، ويقاوم إحساسه بالرغبة الملحة في الإنهيار ويعترف لها بصدق واضح ولملموس أنه أخطأ وأنه ما كان يجب ، وأنه يطلب الصفح ، وأن يكون صفحها على هيئة مساعدته في تدبير الحل للموقف فهما في قلب الأزمة معاً ولا سبيل أمامها إلا الاحتمال . وما تنزلوش ينام تحت عند البواب ليه ؟ فضيحة والساعة إتين . أروح أنا عند ماما . دلوقتي ١؟ أنا ما أقدرش استحمل . عشان خاطري . ما أقدرش .. أرجوكي ..

٢٥١

غلطة وباعتذر عنها وبأرجوكي انك تساعدينني وتستحملي . استحمل
إزاي يارب . استحمل إزاي .

* * *

آي آي آي بي بي يا يا ياي
— آه يا مامي ما أقدرش على كده ما أقدرش

و و و و و و يي يي يي يي يي يي

— إيه ده . ده مش بني آدم ، دول عفاريت ، دول جن . الحقيني
يا ماما أنا ح أجئن .

وشيعاً فشيئاً بدأ الحديدي يحس أن إرتباطه بحجرة النوم وبالزوجة
التي يحتضنها ويسكنها ، بالبيت والحاضر كله تضعف وبثوراته تتراخي
وبوجدانه يستحيل إلى بحيرة هائلة ملساء على استعداد لاستقبال أدق
الرضا الصادر عن فهمي .

فرتك مرتك شرتك دي دي دي دان

الأم لا بد قد إزداد بدرجة مخيفة ، خفف عنه يارب .

واج الواج الواج الواج

وإلى جوار هذه القادمة من المطبخ ، جاءت أخرى رفيعة طفلية من
الحجرة المجاورة ما كادت تسمعها عفت حتى ، بقوة عاتية خارقة
خلصت نفسه من تكتيفته وجرت خارجة إلى الغرفة الأخرى . ولكن

لغة الآي آي

٩٧

الطفل ، طفلها الوحيد قابلها قادماً باكياً منادياً : يامامي . واحتضنته
وحملته وبتنمر وتوهج قالت للزوج :

— اسمع .. أنت لازم تطرده حالاً دلوقتي يروح يشوف له مصيبة
بيات فيها .. دا الولد قايم يرجف .. يا مصييتي .

— يا عفت أرجوكي .. أنا شرحت لك الظروف — الراجل ده
عندي مهم قوي وما أقدرش أطرده .

— مهم أكثر مني ومن فهمي ده .

— مش أكثر ، إنما مهم ، كفاية تعرفي أني مسمي فهمي ابنتا ده
على اسمه .. ده الوحيد اللي خرجت به من طفولتي .

— يا ح تطرده يا ح أسيب لك البيت وأنزل .

— إنتي عايزة مني إيه .. أركع لك .. قلت لك أرجوكي .. أنا
ح أجيب له دكتور يذيله مخدر دلوقتي ويسكته .

وأنشغل بكليته في عملية استدعاء طبيب الإسعاف وانتظاره ، ولم
يدهش حين أخبره الطبيب أن المخدر في حالة كتلك ضعيف المفعول لا
ينجح عادة في تسكين الألم فالآلام هذا النوع من السرطان أقوى من
المخدرات وكل المسكنات التي اخترعها الإنسان .

وكانت الفائدة الأهم للطبيب أنه أعطى الزوجة حقنة من عقار
منوم ، وبعد مدة قليلة نام فهمي الطفل في حضن أمه .

وأخيراً أصبح وحده مع الصرخات القادمة من الأعماق وكما قال
الطبيب لم يكن المخدر قد أحدث تأثيراً يذكر . المشكلة الآن أن يعاد

الإتصال .. أن يعود إلى نفس الحالة الوجدانية التي كان عليها قبل أن يصبحو الولد وتثور الزوجة . أنه لا يعرفها ويذكرها وهي قرية دانية منها ولكنها ترف وتذهب ، يتذبذب بينها وبين حالته العادية ، يه يه يه يه فمندا مندا مندا هوندا بندا سارادات .

وأحس براحة باهتة وبالأصوات تصل إلى مكان سحيق داخلي فيه وتنعشه في رقة وعذوبة ، بالضبط هذا هو المكان . هنا يحس بها تتجمع .. آهاته التي لم يطلقها أي باي يانا يا بوي .

يا بوي موجوعة تاتي للحديدي بالضبط على الوجع . يابوي إنها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الأعماق والآي . إنه يحس بها تعبر عن وجعه هو . منذ سنوات وسنوات وهو يريد أن يقف في ميدان التحرير ويستجمع شجاعته . وبكل قوة وبالحر ما يستطيع يطلقها ، عالية موجوعة صادرة رأساً من الوجع مثلما يفعل فهمي الآن ، ولكنه في اللحظة الأخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يفر منه الناس ويهتموه بالجنون فيخمدوها ويكتبها ويردها إلى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات .

آي آي آي فرکش أن منكش أي بعفش أي ..

الآن فقط يحس بها كلها ، بآلامه ، ويحس بها أبشع حتى من آلام فهمي وأوجاعه .. كل الفرق أنه ليس له الحق في التوجع مثله ، لن يصدقه أحد إذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة ، ألم بلا آهات . أضعاف أضعاف الألم .

الآن وهو وحيد مع نفسه وموجوع مثله وأعماقه مفتحة الأبواب أمامه يستطيع أن يسأل نفسه : ماذا يؤله ؟ إنه فوق القمة ، كل الخط العريض الذي رسمه لحياته تحقق ، زوج ورب أسرة وسعيد محوط بالرعاية والحب والإحترام انى يكون فمن أين تجيئه الآلام التي لا تطاق حتى أنه ليحسد فهمي على حالته .

ترى ماذا كان يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمي وبدلاً من التعليم المتواصل الذي هياه له أبوه الصراف الذي كانوا يتندرون عليه ويسألونك وأنت ذاهب لتدفع المال : مال الحكومة واللامال الصراف ، بدلاً من هذا أخرجته أبوه من المدرسة واشتغل فلاحاً كان هذا مصيره . أي إنسان في مكانه لابد أن كان يقبل يده ظاهراً وباطناً ، أين هو وأين فهمي ؟ هو الذي لابد تختاره إذا طلب إليك أن تختار مائة يمثلون الصفوة في هذا البلد . المتمتع بكامل صحته وحياته ، لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه ، أين هو من إنسان كفهمي تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحاله إلى واحد آخر من ملايين الفلاحين السذج ، وتكفلت البلهارسيا بالقضاء على جسده .. فالمفروض أنه الآن ميت وعمره مسألة أيام وحياته كانت أبأس حياة وشقاؤه كان من نوع يضرب به المثل .. لو كان قد حدث له هذا .. تراه ماذا كان يقول عن « أله » المزعوم وأوجاعه ؟

قال الحديدي لنفسه بلا تردد : كنت أكون أسعد .

كيف ؟ المسألة ليست فقراً وغنى أو تعليماً وجهلاً ، السؤال هو : هل أنت حي أم ميت ؟ فهمي رغم كل شيء حي وعاش . أما أنا فلم

أحي ، والحياة أي حياة ، أروع ملايين المرات من الموت ، أي موت حتى لو كان الميت مكفناً في ملابس أنيقة محتلاً أرق المناصب سعيداً في حياته الزوجية .

ولكنك حي ، أنا ميت ، إنه ليس تلاعباً بالألفاظ . إنها حقيقة . المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها ، وأنا لم أشعر ولا أشعر بها ، إنني أقضي حياتي كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول .. وحين أصل لا أسعد لأن أمامي يكون ثمة وصول آخر .

إن فهمي قد عانى من الفقر ، والبؤس ، ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سوياً ، ويتشاورون في مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم إلى السوق يفرحون لعود الفجل إذا أضيف إلى الآكلة ولا أحد منهم يأكل بمفرده إذ الطعام ليس أن تجوع وتملاً بطنك . الآكل عندهم أن يحل موعد الطعام ويلتفون حوله في ترحيب . ويتعازمون ويهزرون ويحسون أنهم يقومون باحتفال إنساني صغير ، أنهم يفعلون هذا دون إدراك لكنه ولكنهم به ، بهذه الأشياء الصغيرة المتناثرة في طريق حياتهم يمتلئ كل منهم بإحساس يومي متجدد ، إنه حي وأن الحياة مهما صعبت حلوة .

أنا قضيت حياتي أجري وألث ، لكي أصل إلى القمة كما تسمى .. كان على أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق أو تضميني المجموعة ، لا لكي أستمتع بصداقتي ورفاقتي لها وإنما على أساس سرعتها وعلى اعتبار أنها أسرع من المجموعة التي هجرتها وأظل سائراً معهم ما داموا يسرون بنفس السرعة التي أريدها ، حتى إذا أحسست أنني بحاجة إلى سرعة

أكبر هجرتهم إلى مجموعة أخرى ، أو سرت بمفردي كي لا يعوقني معوق . وما توقفت مرة كي أواسي مختلفاً أو أخذ بيد أعرج معتبراً أن ليس الذنب ذنبي أنه تخلف أو أنه خلق أعرج . ولقد ظللت أسرع وأسرع لكي أبدأ الحياة حين أصل ولكن لم يكن للوصول نهاية ، بعد التخرج قلت العمل ، بعد العمل . الدكتوراه ، بعدها الأستاذية ، وحين أحسست أنها تستلزم الانتظار هجرتها إلى الشركات ، قلت .. بعد الزواج وحين تزوجت قلت .. نبدأ الحياة مع الأولاد وحين خلفت قلت الأوفق حين يكبرون ، وهائذا لا أزال أجري مسرعاً وقد أصبح هدفي ليس الوصول إلى أي شيء وإنما الإسراع في حد ذاته ، تماماً مثل الذي يبدأ حياته بتوفير النقود كي يحسن مركزه المالي ويبدأ يحيا بعد الألف الأولى ، وحين يصل إلى الأولى يصبح هدفه الثانية فالثالثة ، إلى أن ينسى الهدف تماماً ويتحول إلى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس إلا .

ياني ياني ياني ياني يا بوي .

أحس بتوجع فهمي يريجه راحة بدأت تصبح عظمي ، وكأن فهمي يتوجع لكليهما أو أكثر من هذا ، كأنه هو الذي أتيح له أخيراً أن يتوجع كما يريد وبكل قدرة استطاعته ، إنه الألم المتراكم عبر السنين .. ألم الحزن الدفين والإكتئاب . إن الإنسان جهاز بتركيبه وأحاسيسه حياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالإنسان ، وهو لا يستطيع أن يخرج عليها ويحياها حياة من صنعه هو ومن ابتكاره إلا وهو يتألم وآلامه تتضاعف ، ولقد قسا العمر كله على طبيعته وكم نداءات الأعماق المطالبة بمتع الحياة

الصغيرة الكثيرة العادية التي تعطيها طعم الحياة . قسا عليها ليجبرها أن تحيا بمفردها .

أبو .. أموا .. أبوا .. أموا .. أبو .. واه ..

بالضبط يا فهمي ، الوحدة للوصول ، الوحدة للسرعة ، الألم البشع لفراق الناس والبعد عنهم .. الوحدة القاتلة التي ترى الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس ، الوحدة لكي تكون حراً أكثر ومنطلقاً أكثر وحيأ أكثر التوقع فإذا بها تؤدي إلى التوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة وإحاطتها بعشرات القيود ، همه يحمله وحده ، ومرضه ينفرده به ، وضيقه هو المسئول الوحيد عنه ، الألم ، أضعاف أضعاف الألم الذي يسحق فهمي ويدمره وهو مرغم على كتمانها يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحد فإن تألم الرجل أو حاجته للفضفضة إلى الآخرين ضعف وعورة .

دي دي دي دي دي دي دي ..

ياللمضحك .. إنه يحس أنه ربما لأول مرة يذكرها في حياته .. سعيد ، سعيد إلى درجة لا يصدقها العقل ولا يصدقها هو نفسه ، إنه حقيقة متأثر لأوجاع فهمي ولكن فرحته هو لهذه اللحظة التي يحياها ، أجل ربما أول لحظة يحياها ، لا توصف . ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لا بد أن أهمها أنه أخيراً استطاع بوسيلة معقدة مركبة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقاً خلال لغة غير مفهومة ، أخيراً استطاع أن يتصل ، وأن يشارك ، وأن يزاوّل عملاً من أعمال الاحياء ، يزاوّل

بمتعة وسعادة ، سعادة تدخله في حالة وجدانية لها صفاء لحظة الكشف لدى المتصوفين وعمق لحظة الخلق لدى العباقرة ، لحظة ها هو يحس فيها أنه قادر على الإتصال بكل إنسان وبكل شيء ، بل قادراً على الإتصال بنفسه وبالتحديد ملياً في أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه .

وكلما اندمج في حالته الوجدانية تلك ، أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق ، وتتقوى صلته بفهمي حتى لكأنه يقرأ ما يجار به في كتاب مفتوح ، وأحس أيضاً انه ينجذب إلى مكانه ليصبح أقرب ، إنجذاباً مريحاً ممتعاً إلى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة في عدد كبير من محطات الممشى الضيقة . كل خطوة بمحطة ، سمع ، كالصوت البعيد يأتي للنائم نافذة جار تفتح ويعقبها صوت زعيق ولا بد

انه كلمات سباب ، سمعها وكأنها لا تمت إليه ولا تهمه ، إنه يرى حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسدة مجموعة أمامه ، بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريباً من يوم ميلاده إلى يومه هذا ..

الغريب أنه ينظر إليها وكأنها حياة غريبة عنه ، لا تربطه بها أو بصاحبها أدنى علاقة ، لا تربطه ذكرى بأي جزء فيها أو موقعة وأغلب الظن أنه لا يذكرها ، أنه لا يكره شيئاً في الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك أنه يمقتها ، ولولا النداء القوي الصادر له من فهمي لحملها في التو وقضى عليها وعلى نفسه ، ولكن النداء أقوى ، أنه يتسرب إلى كيانه

كله وبهز هيكل الحياة فيه ليوقظ حبه الغريزي لها ، ومن الظلام الكثير الرابض يملأ الصورة ، تبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة ، يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجري ويجري ، وحده ، الناس تحيا وهو يجري ، والشاشة مليئة بالصلات المقطوعة بالصدقات المبتورة ، بأجزاء العلاقات ، بقيم على الطريق مهددة بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الارتباط ولا أن ينتمي لجماعة أو حتى لصديق لأن في الإنتهاء فقداناً لذاته الحرة وكيانه ، والنتيجة جري سريع إلى قمة الوصول هو في الحقيقة هرب سريع من الحياة ، فالحياة هي الأحياء وأن تنفصل عن الأحياء معناه انفصال عن منبع الحياة الأصيل . وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول إلى الموت .

الخطأ الفادح الذي يدركه الآن ، وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمي إلى أعماقه يراه ، أن الوصول لا قيمة له بالمرّة إذا وصلت وحدك ، أية قيمة أن تصبح ملكاً متوجاً أو عالماً حاصلاً على جائزة نوبل ، وأنت محاط بصحراء جرداء ، أية قيمة لأي شيء في الدنيا ، للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك ؟

وصحيح أنه ليس وحده فهناك زوجته وابنه وأقرباؤه ، وأخوته ، وبعض الأصدقاء ، ولكنها ديكورات علاقات ليس إلا .. إن حب الناس للناس وإرتباط الناس بالناس لا ينشأ للزينة وإنما ينشأ لحاجة الناس للناس ، الحاجة الماسة الملحة كحاجتك إلى الماء والهواء والتي بدونها لا تستطيع أن تعيش ، وهو له أخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلباً حيويّاً بالنسبة إليه ، إن في استطاعته ، إذا أراد أن يحيا كما تعود بدونهم ،

قد يكونون هم في حاجة إليه .. ولكنه هو ليس في حاجة لأحد ، أو بالأصح هو في حاجة حيوية ماسة ، ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة إليهم .. ومن هنا ينشأ ألمه البشع .. من هنا بدأ ، ويستشري السرطان الذي يقتل الضحكة على فمه لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى الضحك ، ويجمد العواطف في صدره لأنه يحس ليس بحاجة إلى أن يعطي الحب أو يستقبله ، من هنا تبدأ المأساة التي أحالته إلى ميت حي .



وجاءته صرخات فهمي ، قريه هذه المرة ، إذ كان قد وصل إلى المطبخ ، وجلس بجواره ، جاءته بعد سكوت خيل إليه أنه طويل ، وكان مجرد إحساس فهمي بوجوده بجواره خفف عنه الألم .. جاءته الصرخات ، أقرب ما تكون إلى البكاء ، وأحس بنفسه وكأنه بركاناً باكياً يوشك أن ينفجر ، انه لم ييك في حياته منذ أن كان طفلاً وها هو يحس أنه يود لو ظل ييك إلى أن توافيه المنية ، إشفافاً على نفسه وهو أول من أدرك أنها أكثر أهل الأرض جميعاً حاجة إلى الشفقة ...

هات يدك يا فهمي ، ضعها هنا على صدري ، إنه خاو كما ترى . أنا أعرف أنك مريض ، وأحس بك وأريد أن أقاسمك الألم ، ولكن لا أستطيع فقلبي من خشب ، تركتكم جميعاً ، أنت في زينين ، وسعد في بنها وعبد المحسن في أسيوط ، وشلة الجامعة ، وجمعية الكتاب ، وكل الناس ، وظنن أنكم تسيرون في الطريق العادي ، طريق الندامة .. وأن

الطريق الأسرع ، طريق السلامة ، هو الطريق .. والنتيجة أني مت من زمن ، وظللت أنتم أحياء ، أنا جثة أقنع نفسي أنني أنا الذي أزور عن الناس ، في حين أنهم هم الذين ينزورون عني ، وما حاجتهم إلى جثة ، حتى زوجتي وابني أحس أنهما لا يطيقان رائيحتي .. أنا أريد العودة يا فهمي ، أريد البداية من جديد ، أطلب فرصة أخرى فمن يقبلني يا فهمي ؟ من يقبل جثة ، من يرضى بي ، إني لا أجد في هذه اللحظة سواك يا فهمي ، هل تقبلني .. هل تقبلني يا فهمي !!

— ما تعيطش يا محمود ..

ولم يصبه الدهول مع أن القائل كان فهمي ، وكان أول كلمات ينطقها ، ولم يعجب أيضاً لأنه ناداه بمحمود ، وكأنما ذكره الاسم بالتخته المشتركة وبأيام زمان ، كل ما أحس به أن رجاءه قد تحقق ، وأنه يقول :

— أشكرك يا فهمي .. أشكرك ..

وانبطح الحديدي بيجامته على بلاط المطبخ ، وتناول يد فهمي يقبلها ، ويمسح بها دموعه السائلة التي لا تتوقف وهو يردد ساحمني يا فهمي .. ساحموني يا ناس .. أنا غلظت وتعبت والألم فاض بي ... ساحمني يا فهمي .

ولكن فهمي كان قد عاد ، بآخر وأقوى ما عنده ، يصرخ وآلامه قد اشتدت بغتة .. وكانت نوافذ البيت جميعها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفه للآهات المستغيثة .. ويستجيرون من

الصوت الذي لا يرحم أبوابهم ونوافذهم مهما أغلقوا وأحكموا الإغلاق ، الصوت الذي أيقظ العمارة ببوابها وبهواتها وسادتها وداداتها ، وبدأ يصل إلى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها ، ولو استمرت الصرخات لربما كانت قد أيقظت الحي الراقي بأكمله ، ومن يدري ربما المدينة كلها كانت قد صحت ... ولكنهم كانوا قد طلبوا بوليس النجدة .. وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة ، غير أنها أستيقتت تماماً حين قادتهم إلى المطبخ ، ووجدت الحديدي راکعاً على الأرض يقبل يد فهمي ويستغفره ..

ورفعوا فهمي ، وألبسوه ، وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدي نهرهما ، وتقدم هو من فهمي وحمله على كتفه والمرض قد إلتهم لحمه ولم تبق له سوى العظام ، وتشبثت عفت بزوجها سائلة إياه عما يفعله بنفسه ، إلى أين ذاهب ؟ وابتسم لها ، وأضاء وجهه كما تعود بالإبتسامة وقال : رايح في طريق تاني صعب شديد ... تيجي معايا ؟! — أنا مارحش وياك بالشكل ده .. أنت اجننت ؟

وأحاطت فهمي الصغير بيديها بينما استدار الحديدي بحمله الصارخ المولول ، ومضى يتقدم الموكب ، ونظرات السكان وأهل الحي تتبعه وتحيط به تهمس وتسري بينها الهمسات الضاحكة .. لقد عاش في الحي سنتين مرعوباً أن يكتشف أحد أصله وفصله ، وتبدو للأعين النائمة شعرة واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التي يمت إليها .. ولا ريب أن كثيرين من سكان الحي كانوا يفعلون مثله ، فها هو يرى النوافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث .. وهو الآن يستعجل اللحظات التي يغادر فيها الحي .. وقد أصبحت الرائحة لا تطاق .

اللعبة

دخل القادم الجديد مذهولاً ، كان المكان وكأنما تحس أنك سقطت إليه من عل أو وصلته عن طريق سرداب طويل مزعج ، ولكنه كان فاخراً بالغ الفخامة ، اللون الغالب فيه هو الأسود ، سواد .. كسواد الكاديلاك .. يوحى بالإناقة والعراقة ، وكان النور غير ثابت المصدر ، ومضطرب الإتجاه .. وتحس وكأنما توجهه يد خفية إلى الناحية أو الناس الذين ينظر إليهم فقط ، كان غموض مرح يسيطر على جو الحفل ، والحضور تدرك بطريقة ما أنهم كثيرون ولكن عدد من يقع بصرك عليهم قليلون تستطيع التفرس فيهم بسهولة .. ودخان السجائر والسيجارة يلون الجوع بيقع سماوية متحركة ويتشابك مع إشعاعات النور غير المرئي صانعاً سحباً كسحب الصيف ، بيضاء والحفل صاخب إلى حد ما ، ولكنه صخب وقور .. كأنه إحتفال بخطبة شاب من أعرق عائلات الصعيد .. أو بتكريم خاص لوزير مهم ، وعلى الوجوه نوع من الإستمتاع القلق الذي ينتاب هذا النوع من صفوف الناس كلما إتاحت لهم متعة ، مخافة أن يضيعوا فيها وقتاً من أوقات الكسب ، وخدم ، وكأنهم استحضروا خصيصاً للمناسبة بأكثر من زي ، لكونهم درجات ، والسيدات في فساتين السهرة .. ولكنها ليست جديدة تماماً

كأنما لم تستعمل من أعوام ، واستخرجت للمناسبة من الدواليب ، غالية ، تبدو عليها آثار العز ، بعضها مطرز بلآلء وإن كانت صغيرة .. لكنها حقيقية .. والوجوه ، وجوه الرجال ، مكتنزة قليلاً ولكنها شاحبة ، كالمجهد . والسيدات عيونهن .. رغم تعدد ألوانها تبدو كلها سوداء كلها سوداء عميقة الغور وكأن صاحباتها يعانون من جوع جنسي لا يدركنه ، والمقاعد قليلة متناثرة ، أقل بكثير من عدد الحاضرين ، ولكنها راسخة في أماكنها وكأنما مضت عليها أحقاب .. وقماشها من القطيفة الحمراء الغامقة التي تبدو حمرتها مع سواد البدل ورماديتها مع الفساتين الفاتحة ... والسقف الأخضر بإنعكاسات الضوء ، وسحابات الدخان المتعددة الدرجات ، والعبير الصادر عن (برفانات) حديثة وإن كانت تعطي رائحة كرائحة عطر الجلدات العربي القديم ، والضجة المكتومة الصادرة عن لا مصدر والتي تتيح لكل إنسان أن يتحدث مع أي إنسان دون أن يثير الإنباه أو يتسرب من حديثهما الكلام ، كل هذا جعل القادم الجديد يحملق ويتردد ويضطرب كثيراً قبل أن يستطيع أن يتبين أن يكون موقفه . كان واضحاً أنه لا يمت إلى المكان أو الحاضرين ، وكأنما دخله بطريق الخطأ ، ولكن من ملاحظته وتصميمه كان يبدو أن له الحق في الحضور ، وأنه يملك ، ربما في جيبه هذا الحق .. وأنه على استعداد لأن يظهره ويتحدى به كل من يجزؤ على سؤاله أو التصدي له . ولم يكن أحد قد لاحظ دخوله ، أو اكترث مما أتتحو له أن يتدبر موقفه وأن يتأمل الجميع أو بدقة أكثر من استطاعت عيناه أن تقع عليها من الجميع ، تأملاً كان يدفعه إلى مزيد من القلق .. شيئاً فشيئاً يخلخل ثقته بنفسه . أين يقف ؟ تلك كانت مشكلة ، وهل يؤثر

الوحدة أم لا بد له أن يشتبك مع الآخرين في حديث ؟ مشكلة ثانية .. ومع من يتحدث إذا أراد ؟ وفي أي موضوع ؟ وبأي حق ؟ مشكلة
ثالثة ورابعة وخامسة ..

أم تراه قد أخطأ المكان وتكون الكارثة ؟ ..

ودهش فعلاً حين وجد ، دوناً عن الحاضرين ، شخصاً يقترب منه .. كان جلياً أنه ليس من الخدم فلم يكن يرتدي مثلهم ، ولا من الحضور .. فهم منصرفون إلى أنفسهم متكبرون .. لا يمكن أن يفكر أي منهم في مبادئه بالحديث ، ولامر ما كان في مشية الرجل وطريقة اقترابه وابتسامته المتشع بها ما يذكر بالأدلاء الذي يتهافون حول الفنادق لإرشاد السياح .. حتى سترته التي يرتديها بدت أكمامها ومقدمتها كأنما أكمام ومقدمة جلابيب الأدلاء البلدية .. وما أن اقترب من القادم بدرجة كافية حتى اكتشف أنه يحمل أمامه وكأنما بحزام صندوقاً كالصناديق التي يحملها باعة السجائر ولكنه أصغر كثيراً ولم يكن بحزام ، وأنيق جداً ، جدرانه وأركانها مطعمة ومشغولة بأسلاك معدنية ثمينة .. وحين وصله وسع ابتسامته بطريقة بدت وقحة الأدب وقال بصوت فيه بعض التحدي وبعض الإغراء :

— تضرب يا بيه ؟

واضطرب القادم بانفعال مفاجيء . كان قد بدأ يدرك أن الرجل يحمل لعبة من نوع ما ، وأنه ليس الوحيد فهناك أكثر من واحد غيره يطوف بأرجاء المكان ، بل هناك أكثر من لعبة يزاوها بعض الحاضرين في أطراف المكان الذي بدأ يصبح أكثر إتساعاً ، وكأنه ناد ، وكأن

الإحتفال مهرجان ما ، أو (تمبولا) والرجل لا يزال واقفاً أمامه
يتسسم .. نفس الإبتسامة المؤدبة الوقاحة ، ويعرض عليه مرة أخرى
بإغراء أكثر : تضرب يا بيه ؟

وحتى دون أن يسأل أظهر له يده اليمنى فإذا فيها مسدس من نوع
غريب أسود لامع السواد بطريقة ملفتة للنظر ومحيرة ، جديد وكأنه لم
يستعمل قط ، وحتى دون أن يشير أدرك القادم أن الصندوق الأنيق
ملئ بطلقات مرصوصة بنظام رائع ومقلوبة بحيث أن قواعدھا إلى
أعلى .. أما الشيء غير العادي فهو أنه في الصف الأخير الأيسر توجد
رصاصة ليست مثل غيرها من الطلقات .. فقاعدتها ليست برونزية اللون
وربما المادة كالأخريات .. ولكنها وكأنها مصنوعة من فضة مشعة أو
برد من معدن ثمين بريقه يخطف البصر ، بحيث إذا نظرت إلى الرصاصات
المقلوبة في الصندوق لا تستوقف هذه الطلقة بالذات إنتباهك فقط ،
ولكنها تستولي عليك تماماً وتكاد تعجز أن تحول البصر عنها ، تضرب
يا بيه ؟ مرة ثالثة قالھا الرجل ، وبالضبط لم يستطع القادم أن يحدد إن
كان حقيقة قد قالھا في المرتين الآخريتين أم أنه نفس النداء المغربي يتردد
صداه في عقله لثاني ولثالث مرة . بالكاد استطاع أن يسترد بصره المثبت
على قاعدة الطلقة النادرة ليعود يعي بالرجل واللعبة . وحتى دون شرح
فهم أن عليه أن يتناول من الصندوق طلقة ويضعھا في المسدس ، ثم
يذهب إلى مكان في الركن مخصص للإطلاق حيث يوجد هناك حاجز
تماماً كما يوجد في لعبة التنشين بمدينة الملاهي ، كل الفرق أنه لا توجد
عدة أهداف ، إنما هدف واحد ، لم يستطع من موقفه أن يتبينه فإذا
أسقطه يفوز بالجائزة ، وأيضاً لم يكن يدري ما هي الجائزة ولكنه كان

متأكدًا أنها أعظم جائزة نالها أو ممكن أن ينالها في حياته ، وبدأ كل شيء يسيراً ، والجائزة ، أعظم جائزة قاب قوسين أو أدنى .. وما عليه فقط إلا أن يستعمل هذه الطلقة المشعة المتألقة ، حركة من يد الرجل أوقفته ، يده اليسرى الخالية من المسدس . أشار له بها مطالباً بثمان الاشتراك في اللعبة موضحاً بأصابعه القيمة ، وأخرج القادم من جيب بنطلونه جنيتين حسباً حدد ، وضعهما في يده .

وكان مفروضاً حينئذ أن يعطيه المسدس ويتناول الطلقة الفريدة ويعمر ، ويذهب إلى الركن ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فجأة بدأ كل شيء بعيد الوقوع ، المسدس في يد الرجل وفي متناول يده . والطلقة في مكانها من الصندوق تزغلل عينيه ، ولكن هناك مماطلة ومراوغة ، وربما من أجل ألا يستعمل هذه الطلقة بذاتها ، وربما للتسويق في التنفيذ .. ربما لأن هناك أشياء كثيرة لا بد أن تستوفي والوقت يمتد دون أي داع للإمتداد ، والموقف لا يتحرك أو يتحرك منزلقاً متراجعاً .. وابتسامة الرجل تصبح أكثر وقاحة وأقل أدباً ، وقلة اكتراث الحاضرين وانصرافهم إلى أنفسهم تزداد بشكل يجعل من موقفهم ذاك عاملاً إيجابياً يتدخل ويساعد الرجل في مماطلته ، ويحول بينه وبين أن ينال حقه وقد دفع قيمة الاشتراك ، وغيظاً فغيظاً بدأ يحس إحساساً يتعمق ويدك كالمسمار المدبب الطويل في نفسه ، أنه ضحية خداع لا يستطيع وضع يده عليه أو ضبطه ، وأنه مسلوب الحق ، وأن أحداً ، وبالذات هذا الرجل الواقف أمامه بدأ يتراجع منصرفاً ويحاول الإندساس بين الحضور ، يريد سلبه حقه والضحك عليه .. وكل من في المكان

وما في المكان يساعده . فالحضور بدأوا يتكاثرون ، والخدم اشتدت حركتهم ، والضجة علت قليلاً .. وثمة مؤامرة خفية تدور بين الجميع .. مؤامرة صامتة غامضة تلفت خيوطها خفية تحت ستار الضجة المكتومة وبين ثنايا السحب المدخنة المضيئة ، وحتى من بين أنسجة البدل الغامقة والفساتين الفاتحة والقطيفة الحمراء . وصرخ في الرجل مهدداً . وتوقع أن ينتاب الجميع نوبة ذهول لصراخه ، ولكن وكأنه لم يصدر صوتاً ما انتبه أحد .. وزعق مرة أخرى ولم يسمع سوى ما كان يسمعه من ضجة الحفل الصاخب المكتوم .. وأصبح الغيظ يخنقه وصغرت الدنيا في عينه وهانت ولم تعد قوة في الكون تستطيع أن تحول بينه وبين أن يأخذ ويضرب الطلقة ، تلك الطلقة بالذات ، وييده اليمنى ودون وعي انقض على الرجل وأمسكه من مقدمة سترته ولم يأبه الرجل ولا الحاضرون لهذا العمل . وكان يخيل إليه أنه عمل يعد جريمة لا تغتفر في نظر المجتمع المحيط به ، وييده ممسكة الرجل من تلايبيه حلق في وجهه ، كانت نفس الإبتسامة وقد أصبحت الوقاحة فيها هي الغالبة ، تطل من وجهه الأسمر المستطيل ، ويستطيل لها شاربه الأسود ، وتجعل أسنانة البيضاء الحادة تطل من فمه المنفرج .. وفي الحال ، ويده الأخرى صفعه على وجهه صفعة قوية أعجب شيء أنه لم يصدر عنها صوت وكأنما هي صفعة معنوية وليست مادية حقيقية ضربها بنفسه وهوى بها بجماع يده على الصدغ المستطيل الأسمر . وانقلب الغيظ إلى غضب ، ولكنه غضب لم يصبه بالعمى ، كان يرى ، لم يفقد أبداً قدرته على الرؤية وأدرك أن الصفع لم يعد يجدي وأن الوقاحة المطلقة من ابتسامة الرجل في حاجة إلى نوع من الضرب أكثر إهانة ، وبكل ما يملك من

قوة وبساقه اليمنى ركله في بطنه ، وكان متأكداً أنه هذه المرة سينفطر ألماً ، فقد كان الضرب من القوة بحيث لو أصابت الحائط الجمد لتألم ، إذ هو نفسه ، الضارب ، قد شعر وكأن قدمه قد سحقته ودششت . وكان أمله أن ينظر إلى الرجل بعدها فيجده يتألم ، يكفيه .. حتى استرداداً لكل حقه أن يراه ولو لومضة خاطفة يتألم .. ولكن وجهه .. وجه الرجل .. حين رآه كان لا يزال يبتسم . كل ما في الأمر أن الأدب ذهب تماماً من ابتسامته ولم تعد هناك سوى الوقاحة ، وقاحة مستهزئة مستصغرة وكأنه ينظر إلى طفل .. وكاد يجن ، فهو مدرك أن الرجل حي من دم ولحم وأعصاب وأنه حتماً قد تألم ، فكيف استطاع أن يكبت هذا الألم كله وألا يبدو على وجهه خلجة واحدة أو لمحة إهتزاز تدل على معاناة ، أو تدل على تغيير ولو طفيف في تعبيره المبتسم الوقح ، وإنهال عليه ضرباً .. وقد انقلب الغضب إلى حنق مجنون لم يعد يرى معه كيف ولا أين يضرب . ولكنه كان على يقين تام أنه بجماع قوته وإرادته يضرب وباستماتة يفعل ، وأنه يضرب هذا الرجل بالذات ولا يريد ولا يمكن أن يتوقف عن ضربه حتى لو أراد ، فمن هناك من أغوار سحيفة جداً في كيانه كانت تتدفق حمم من الحق المغلي الملتهب وتنفجر معبرة عن نفسها المخيفة من خلال أيديه وأرجله وأسنانه .. فبأسنانه كان يعض وكأنه انقلب إلى وحش ، وبكعب حذائه يدك وبقبضتيه يضمهما معا ويرفعهما عالياً ويهوي بهما دفعة واحدة كالمعول الهائل محطماً ومدمراً ، وكلما أحس بالوهن يزحف إلى إرادة الضرب فيه كان يكفي أن يتذكر أنه خدع وضحك عليه ومنع

منعاً من مزاوله حقه لتعود إليه كل قواه وبكل قواه يعود يحقد ويضرب ويضرب .

وحين تعب تماماً ولم يعد يقوى على مجرد رفع اليد أو تحريك القدم ، حين أحس أنه كله قد تداعى وتهدم ، وكأنه المضروب ، وأنه بالكاد يلتقط النفس ، أنه يلهث ، بل لم يعد يقوي على أن يلهث .. بحيث بإرادته لم يعد يتنفس وإنما صدره بآخر قوي الحياة فيه ، ومن تلقاء نفسه وبغريزة المحافظة على الذات كصدر فقط يشهق كف ، وسكت ، سكن سكوناً تماماً وكأنه في طريقه لاستقبال الموت . وأول بوادر قدرة على الحركة إرتدت إليه فتح بها عينه . والمذهل أن الرجل كان لا يزال هناك واقفاً في تراخ وهدوء أمامه والصندوق يحمله والمسدس نصف مخنف في يده ، والطلقة ذات القاعدة النادرة المعدن الخاطفة للبصر لا تزال في مكانها من صفوف الطلقات ، وابتسامته هذه المرة وقد عاد الأدب يختلط بالوقاحة فيها تحتل مكانها من وجهه ، وأيضاً لا يزال موقف الدليل العارض لخدماته ، وصاحب اللعبة الذي يروج لها ويغري الآخرين باللعب ، ولم يعد أمام القادم وقد استنفد كل وسائل القوة إلا أن يلجأ إلى التأنيب واللوم وأودع نظره كل ما يريد وإذا بالرجل يجيب وكأنه يقول : « أنا مش قلت لك عايز يا بيه تضرب ؟ » ..

وأجال القادم رأسه بضعف في الحاضرين ، وكأنما أدرك متأخراً جداً أنهم جزء من اللعبة بينما الرجل يقول : وآدي أنت ضربتني ، أجل حقيقة كان يريد أن يضرب ، ولكنه كان يريد أن يضرب الطلقة لا أن يضرب الرجل .

٢٧١

— ما هي اللعبة ..

قالها الرجل وقد إزداد الوقح في ابتسامته ..

أضحك ؟

لأن القيامة لا تقوم

إنه يريد مرة أخرى أن يسمع ، ويرهف السمع ، فما يدور مهم ، أهم شيء في حياته يدور ، وراديو الجيران .. الحائط في الحائط ، صوته عال كأنه يؤذن ، ومن بعيد يأتي صراخ الأطفال الذين لا يزالون يقظي . الدبة وقعت في البئر وصاحبها راجل خنزير . هل وقعت حقيقة ؟ وهل هي مستكنة الآن في البئر ؟ وهل صاحبها خنزير سمين ملظظ كأبي السباع إسماعيل ؟ أنه يريد أن يسمع ويرهف السمع ، فهي ، أمامه ترقد الآن فوقه تماماً ، أو لابد كذلك ، فالمرتبة تنبعج من بين الواح (الملة) الخشبية ، ولكن إبعاجها شديد ، وأمه خفيفة .. فلماذا الإنبعاج الشديد .. كان هذا زمان ، حين لم يكن يسمع سوى الهمس ، العشاء .. وابتسامتها السعيدة تغرقهم والطبوبة الحنون ، ثم صوتها المتثائب قوموا يا أولاد ناموا .. الدنيا اتأخرت ، وكالدجاج المطيع ، تدخلهم . ترفع دابر السرير الأبيض وتدخلهم تحتها ، فاليبت حجرة واحدة ، ومكانه المفضل بجوار الحائط في الصيف ، فالحائط بارد يلصق نفسه ويلمس عليه بساقه العارية فيستمتع وكأنه يجرش قطعة ثلج ، ويمضي الصيف ويأتي الشتاء ، ويغير مكانه إلى الحافة ، وطوال العام هناك البقرة التي لم يسمعها بوضوح أبداً . لأنه حين يصحو على وقعها

الخافت ، تكون قد لفت ، وتكون القهوة قد شطبت ونورها الكهربائي الوهاج قد أنطفأ وأظلم الشارع تماماً ، والباب يزيق قليلاً كلما فتح ، وحين يفتح يسمع الهمس ، الهمس والظلام ، لا شيء سوى الظلام التام ، ونقر كنقطة الماء المتساقط من السقف بعد إنتهاء المطر ، همس . همسة أو همستان كحفيف قميص نومها أو لعله حفيف القميص يبدو كالهمس ثم يسود السكون ... وتبعد أمه فوق الفراش ، فهي وحدها تنام فوق السرير ، والسرير واسع يكفيهم جميعاً ، ولكنها تصر ، من زمن من أيام أبيه حتى ، أن يناموا جميعاً أسفل السرير ، حتى حين كبروا وبدءوا التلمل والشكوى وقال أن رؤسهم تخبط في (المِلة) رفعت أرجل السرير فوق قواعد وأحضرت نجاراً خصيصاً ليطيل من قوائم المِلة حتى ليصبح ما تحت السرير وكأنه حجرة ضيقة حقيقية يلذ له فيها وهو الطفل ، والأطفال مغرمون بالعشش والمخاليء وأمكنة الإستخفاء ، اللعب والرقاد وكثيراً ما شكلها بخياله وتصورها خيمة أعراي في الصحراء ، أو خندقاً في باطن الأرض أو مقام شيخ من أصحاب الكرامات .. وبرغم هذا كله كان دائماً ينقصه شيء ، فكم من مرة اشتاقت نفسه أن ينام في حضنها ، وأن تضمه مثلما كانت تفعل وأن تسمح له مرة أن ينام معها هناك حيث المرتبة اللينة والملاءة النظيفة .. وفي الليل في عز الليل كان أحياناً يدعى المرض . وبصوت مسموع يتأوه ، ولا من أحد يسمع فإذا سمعت أو ضاقت بآهاته سألته بصوت غير عال ولكنه مملوء بالوعيد والتأنيب .. مالك يا براهيم ، فلا يجرؤ حتى على أن يواصل الإدعاء ، ويخرس تماماً وكأنما تأوّه كان مجرد التماس على استعداد لسحبه فوراً واستنكاره لحظة أن يلمح أن التماسه لم يلق

الترحيب . الظلام والحفيف والهمس ، ثم الأرق الذي ينتاب أمه على أثرها ، وكأنما سببه هذا النفس الغريب الذي يحس به قد ملأ الحجرة من لحظة أن فتح الباب ، أرق لا تستقر معه قرار فتظل تتقلب وتتحول ، حتى أن لوحاً من (الملة) سقط على ساق أخته ياسمين ذات ليلة وجرحها وصرخت ، وصرخ هو الآخر ، وحين لم تستجب أمه في الحال أصيب بالذعر فظل يصرخ إلى أن نام مضروباً . لا بد أنه لم يكن أرقاً ، لا بد أنه كان شيئاً آخر ، منذ متى بدأ يعي هذا الشيء الآخر ، بالتأكيد ليست الليلة هي المرة الأولى ، أول مرة وعى كانت ليلة العيد ، كانت قد أخرجتهم من الحجرة لتستحم وحين دخلوا عليها بعد هذا ، وشعرها مبتل وهي تنفضه لتجففه ، وقميصها النظيف مفتوح .. وصدرها — لأول مرة في حياته يدرك أن لأمه صدرأ . فلقد رآه ورأى نظرتها وأحس في التو وكان شيئاً في نظرتها يحف به نفس الحفيف المريب ، وكأنما الدنيا تظلم والهمس يعود صادراً من عينيها ملحاً ومشيراً إلى صدرها . ووجد نفسه لا يجرؤ على الاستمرار وانطلق يجري إلى الخارج والأولاد حيث الدبة التي وقعت في البئر ، ولعب ولعب ولعب حتى امتلأت عيونه بالتراب وامتلاً رأسه بالتعب وداخ وعاد .. ودق الباب ودق ولم يفتح له أحد .. وجاء الصوت . صوت أمه ، المليء بالوعيد ، مادام أتأخرت ، نام على العتبة .. نام على العتبة فعلاً وكأنه ينتظر الأمر بفارغ الصبر ، ولكنه حين استيقظ في الصباح وجه نفسه مكانه تحت السرير ، وكانت هي .. أمه إلى جواره .. وحين رآته يستيقظ احتضنته وقبلته وقالت له كل سنة وأنت طيب يا براهيم . واستكان لحظتها وهو أسعد أهل الدنيا ، كل ما كان يضايقه هو رائحة

صابون الاستحمام التي كان يشمها ، صادرة عنها مقترنة لا يدري لم بإحساس مخجل محرم ، وكاد أن يبدأ يتقلب في حضنها ويتدلل عليها ، ويمسك يدها ويلفها حول رقبته ثم يلعب في أصابعها السمرء من الخارج القمحية من الداخل ، ويقبل كفها ثم يقبل كل أصبع من أصابعها على حدة ، من عمر طويل لم يفعل هذا ، فمن عمر طويل لم ينم بجوارها ، ولكنه ما أن بدأ يتمرغ في حضنها حتى أحس بصدرها يضغط بشدة على ظهره ، ليس ضغطاً شديداً وإنما ضغط الكتلة من اللحم الحي . وصدرها الحي مع رائحة الصابون وعرقها الخاص والهمس في الظلام ، وجد نفسه يفتاظ إلى درجة البكاء وتسقط دموعه في صمت على يدها الملتفة حوله فتسحبها كالملسوعة وحين تدرك أنه حقيقة يبكي تضمه إلى صدرها بشدة أكثر . وكلما اشتدت في ضمها وضغطها أحس أنه يريد أن يتخلص منها ويجري هارباً إلى الأولاد والدبة وصاحبها الخنزير .. ولكنه حين يدرك أن الليل ذهب ، وأن هناك صباحاً واليوم يوم العيد ، حيث يعيد كل الأولاد ، يأخذون العيدية ويفرحون ، بكى ولم يسكت إلا أثر هزة شديدة وصرخة منها : مالك يا وله ؟ ماله ، حقيقة ماله ، ماذا حدث ؟ لا شيء حديث ، لا شيء يبكيه ، فلماذا هو حزين ؟ لماذا هو حزين ؟ أمن جلسة أبي السباع إسماعيل التي أصبحت تطول ، والقرش الذي يعطيه إياه كل مرة ويرسله ليشتري لنفسه كرامللة حتى لو لم يكن يريد يصبر على إرساله ، وهو خائف أن يخرج ويترك أمه بمفردها معه ، فإذا تلكأ ، جاءه الصوت الأمر منها : اسمع كلام عمك إسماعيل يا برهم .. وينظر برهم في عينيه وكأنما ليطمئن قبل مغادرة الحجرة ، ولا يستطيع أن ينظر فيهما أكثر من ومضة ، لا لخوفه

منه ومن جسده الهائل الضخم ويده السميكة في سمك مخدة أخيه الصغير ، فقد كان يكرهه ، ولكن لأن في عينيه نفسها شيئاً متحركاً غير ثابت ، نظرة خائنة لا تستقر .. تختلط الخيانة فيها بالسخرية ، سخرية جافة خشنة كظهر الليفة ، يقشعر لها جسده ، وتدميه .. سخرية بلا خفة دم ، سخرية السمين التخين الذي يتجشأ عقب كل مرة يناوله فيها كوب الماء ليشرب ، ثم يكمل الحديث بصوته الخشن الرنان ، وآه لو مال على أذن أمه وهمس . همس متحشرج .. كهمس الزوران يحس برهم أنه يخرج من فمه وينتشر كالدخان القابض الخفي من حجرتهم وفي حياتهم يملؤها بأثر جارح غير مريح باعث على الخجل ، ولماذا عمه أبو السباع لإسماعيل بالذات ، لأنه يزورهم .. هناك عشرات الرجال يأتون وعشرات يسلمون على أمه ويحيونها ويهمسون لها وأحياناً يعطيه أحدهم قرشاً ، إنما لماذا هذا الرجل بالذات ؟ وأمّه تضحك مع الكل وتجالس الكل .. فقط مع أبي السباع لإسماعيل يحس كأن التيار الخفي الذي يربطه بها باستمرار حتى لو غابت أو سافرت أو نامت فإتصاله بها دائماً قائم وموجود ، حين تجلس أو تحدث أبا السباع . يحس فجأة وكأن التيار قد انقطع ولم تعد تشعر به ، ولكن شعوره هو بها يزداد إلى حد الجنون .. إلى حد أنه يمنع نفسه منعاً من أن يمسك بعصا أبيه ويدفعها لتستقر في عينها أو فجأة يخلع كل ملابسه ويقف أمامها عارياً تماماً لتدرك أنه موجود ، والحياة كانت سهلة وعذبة ولذيذة يحب كل ما فيها ، يحب إجتماعهم حول الطعام بعد الجوع الشديد حيث يجلس فرحاً بالطعام وباجتماعهم هو وأمّه وأخته وأخيه الصغير ذي الأربعة أعوام الذي لا يزال يتهته ليخرج الكلام ،

وتعلق أمه بهم جميعاً وبه على وجه خاص .. والشاي بالحليب في الصباح ، وفسحة الخصر والعصاري مع الترمس على البحر ، والجلسة على الحشيش في قلب المنتزه .. ما أجملها حتى لو جاءت سيرة أبيه .. حين يتولى أمه وجوم يخاف معه أن تبكي .. ويتبارى الحاضرون في تعداد صفاته .. حتى لكأنهم يتحدثون عن شيخ من أولياء الله .. وفي الحديث عن قوته ، وكأنه كان عنتر بن شداد ..

أجل .. شيئاً فشيئاً بدأت الكلمة التي كان يأخذها على غير محمل محدد يتكون لها في ذهنه معنى ، مات ، أغلق عينيه إلى الأبد ، وأصفر وجهه وبرد .. ولفوه في كفن .. ودفنوه .. لقد رأى هذا كله ولكن لم يبدأ يفهم معناه .. مثله مثل الهمس في الظلام والحفيف ، وقولهم البركة في برهم ، إلا هناك حيث وقعت الدبة في البئر ، أشياء كانت مغطاة بطريقة لا يفهم لها معنى ، ثم بدأ يسقط عنها الغطاء ويصبح لها إن لم يكن معنى واضح فلا أقل من شيء خفي عميق مظلم كفوهة البئر الذي سقطت فيه دبة ذلك الخنزير .. حتى غناء الأولاد والبنات كان في تلك الليلة بلا معنى ، هكذا أحس ، رغم ما كانوا هم فيه من متعة كبيرة ، كان هو وحده يحس أن الأغنية بل حتى اللعب كله أصبح بلا معنى ، شده صاحب ورشة الدوكو الذي يعمل عنده من أذنه ولعن أباه :

— ياد أنت كبرت وبلغت وما بقيتش عيل .. مانتاش عاجبني كده طول النهار موطي لي في الأرض كدة ، إيه اللي كاسر عينك ياد .. أوع يكون تشومية بيعلم عليك ..

وفهم جيداً ما يريد أن يقوله الأسطى .. وأحس بلسعة نار تكويه
وتجنه .

— ما تقولشي كدة ثاني يا اسطى ..

لم يدر كيف جرؤ وقالها ..

وصحيح أن وجهه قد تورم من الضرب بعدها باعتبار أنه رد على
الأسطى الكبير وتلك جريمة لا تغتفر .. إلا أنه فوجيء بنفس الأسطى
بعدما شبع من صفعه وركله يقول لأصحابه الذي يشربون الشيشة :
— إنما إيه رأيكم عجيني .. رد على صحيح إنما عجيني .. والنبى
الواد ده حـ يطلع أجدع من تشومية ..

وتشومية المأخوذ من تشومبي هو الصبي الأول للأسطى ومساعدته ،
أكبر من إبراهيم في السن وأغمق في السمرة .. أكرت الشعر فرطح
الأنف غليظ الصوت على عكس أخيه (لمبا) .. فتشومية لا هم له
طوال اليوم إلا تعذيبه وصفعه وقوله .

— لابقى سلم على أملك ياد ..

أول مرة قالها ، صفعه ، فضربه تشومية علقه لا ينساها ، إن أول
عمل بالتأكيد سيفعله حين يكبر أن يقتل تشومية .. ويقتل أول دبة
يلقاها . والدبة بدت سخيفة جداً وهو يرددها مع الأولاد .. ولم يعد
في ترديدها ما يثير ، وأصبح إنحناءه ليدخل تحت السرير أشد ..
وكالكبار لم يعد ينام لحظة أن يضع رأسه على الخدة الطويلة التي بططت

وجفت حتى أصبحت كاللوح الخشب .. والهمس أصبح يفرقه عن الخفيف .. والدق لم يعد يستيقظ عليه . إنما قبله ، من الأقدام الثقيلة وهي تزحف في الطرق المظلمة كان يتنبه ويعرف أن القوة أغلقت وإنها أقدام إسماعيل أبو السباع .. ولم يكن وحده الذي يتنبه ، فالسرير يزيق ، وتنسل ساقا أمه وتشخس غوايشها ، ثم الخفيف ، وفتحة الباب والهمنة الناعمة الصادرة عنها : مساء الخير . حتى هي التي تبدأ بالتحية ، والحشرة التي مهما بولغ في جعلها همسة تظل دائماً حشرة بغير معنى ، ثم ، ثم تلتهب عيناه ، وكأنما تضيقان بعد هذا كل شيء مظلم في الحجرة ، حتى وجهه الأسمر الذي تفردت ملامحه وتضخمت ، يضيء ، كل شيء يبدو واضحاً من نور النهار ، حتى قدماها العاريتان يراهما ويرى أصابع أحدهما وهي تنكمش وتفرطح تحت ثقلها وهي تصعد ثم تنسحب إلى فوق ، تاركة إياه يحيطه من كل جانب (داير) السرير ، كأنما ليطل عليه في عالمه الصغير ويسخر منه .. وباسمين نائمة متوقعة على نفسها ، في بله (تريل) ، وأخوه الصغير ممدد بالعرض عند أقدامها يتنفس بصوت مسموع وكأنه رجل يغط .. هم في البير والملائكة في السماء .. والسماء سقفاها من خشب ، تطل منه مرتبة تنبج ، ما تحت السرير يغوص .. كل دقيقة يغوص ، والسماء الشخبية مهددة بالسقوط وقيام القيامة والجنة والنار ، ورأسه يوم القيامة منكس .. وحين يأتي تشومبة لصفعه على قفاه سيرعد الصوت العالي المدوي صوت الله : ارفع إيدك ، وتنشل اليد ، أليس باستطاعة القيامة أن تقوم الآن ؟ ويرعد ذلك الصوت المدوي : إرفع إيدك .. فيصاب الخنزير بالشلل ، وينحشر صوت أمه في صدرها إلى الأبد ، ويكف تماماً

عن أن يتحول همس ، إلى ذلك الهمس الذي كان يحس أنها به تصبح غريبة عليه تماماً ، امرأة أخرى ، ملاحظتها مختلفة ، لا يعرفها ولم يرها في حياته .. امرأة ينجل منها ، وكلما رأى همسها يخرج مريباً منخفضاً شعر وكأنها تخرج من جسدها سرّاً دفناً كان خافياً عليه . سرّاً كالعورة لا بد له من غطاء ، وكلما خفضته كان يتعري أكثر حتى لا يكفي كل ما لديهم من أغطيه وبطاطين لستر همسها .. اسمع .. أهذا صوت المرأة التي ولدته ، أمه بالضبط إنه يتذكر ، أجل .. كيف فاته أن يتذكر هذا أيام كان في سن ياسمين وربما أصغر ، وصحا وفتح فمه يريد أن يصرخ ولكنه سمع كلاماً أسكته .. فقد ميز صوت أبيه في الحال .. وكان أبوه يهمس . كان مع أمه فوق السماء الخشبية ، وانتهى همسهما إلى ضحك ، ضحك طويل لا ينتهي ، دفعه لأن يتسم وقد بدأ يحس أنه سعيد لمجرد إحساسه أن أبويه يضحكان . نسي تماماً أن البول يؤلم وأنه من لحظات كان يريد أن يصرخ .. ودوت خبطة أعقبها عراك ضاحك فوق السرير . إهتز بعنف له .. صرخة مكتومة ، ثم عود إلى عراك انتظر له نهاية بلا جدوى .. واستغرب أن يكون أبوه المهاب المقدس الذي يحبه إلى حد لا يستطيع معه مفارقتة ، طرفاً في اللعبة ، ولأمر ما استشاط غضباً حين أحس أن الطرف الآخر أمه ، وفتح فمه يريد البكاء غير أن البكاء بدا له سخيلاً .. ليس فيه ذرة رغبة واحدة ، فرغم استنكاره كان إحساسه الأكبر الطاعني أنه في أمان حنون حبيب .. وأنه معهما ، وكأنه الطرف الثالث في اللعبة ، كل الناقص أن يشعرهما بوجوده ، وبكى ليشعرهما ، ولدهشته تصاعدت الضحكات من فوق لبكائه ، من أمه وأبيه معاً ، ضحكات لا رهبة فيها ولا قداسة ، جعلته يستمر في البكاء

بدافع العناد وحده ، ولكنه حين وجد الضحك مستمراً وجد نفسه هو الاضطر يبدأ فجأة يضحك ، فإذا بالضحك الأعلى يتحول إلى قهقهات .. إهتز لها السرير بشدة .. نفس السرير. الذي ترقد عليه أمه الاضن ضعيفة .. مختلفة تماماً عن قوتها الصارمة في النهار وملاحظها الجادة ، وحديثها المملوء بالوعيد .. ضعيفة تتألم .. وتتألم في ضعف مقيت وكأنها بتألمها تطلب مزيداً من الضعف وتغري الخنزير بمزيد من الوحشية إذ كان قد تحول إلى وحش ، وحشرة همساته أصبحت خوراً عميقاً كخوار ثور مذبوح ، أنه لم يعد صغيراً . فهو يعرف . لا يعرف بالضبط فهو ليس كبيراً تماماً ، ولكن هناك أشياء غريبة لا يستطيع حتى لو أراد أن يتصورها تدور فوق رأسه في السماء عند فوهة البئر . إن باستطاعته أن يصنعهما معاً ويخرج بصورة كاملة ، ولكنه يبقها لإرادته ، منفردة مجرد أصوات لا رابط بينها . مجرد ضعف ووحشية ... وهمس من ناحية وتهديد بسقوط (الملة) من ناحية أخرى ومع هذا تفور دماؤه ، مثلما كل مرة تفور .. والعرق الغزير يكسوه وكأنما حتى لو أردنا لا نستطيع أن نوقف أجزاء في عقولنا عن أن تعمل وتربط وتعي ، ورعب شديد وكأنما من فوقه شيطانان يجهران بالعصيان ويفعلان هذا في المساء أمام كل الناس ودون إكتراث لأحد ، دون خوف ، خواره كخوار واحد من أكلة لحوم البشر ، ولو نطق لنهش لحمه قبل عظامه ، أمه نمره على فمها دم انتهت لتوها من التهام أخيه الصغير وتتنمر في طلب المزيد .. والتوحش مجنون مكشوف حاد الأنياب كعراك الكلاب المسعورة ، وثقلهما شديد ، و (الملة) تغوص تحت الثقل وتجم فوق صدره ، وهما عليها وكذلك الأرض والسماء .. وكل أثقال الدنيا ،

وجميعها تدكه ، في ضغطات بطيئة ، تدفع ببطء وتهوي ببطء تدركه وتمنعه أن يتنفس .. أنه لا يستطيع الاحتمال ، أنه سيموت لا من الضغط وإنما من الجنون .. إن مخه يتكهرب ويسخن ويبرد ويطلق شرارات .. والرعب من الفجر يشل صوته عن أن يصرخ ، ويمسك بزمام عقله عن أن يفقد السيطرة ، ونفض هذا كله عن نفسه وينفجر غاضباً صارخاً .. وينقض عليهما بالحداء البني القديم يمزقهما .. أو بيد (الهون) يدشدش رأسهما .. ولكنه يدرك ، ومهما بلغت درجات إنفعاله .. أنه غير قادر على الإتيان بشيء من هذا ، كبرت وبلغت يا برهم حتى أصبحت كالدهبة ، وأذنك تسمع ، وعيناك كالأسياخ المحمية تخرق (الملة) وتكاد ترى ما فوقها . وأنت صغير لم تكن تعرف ، كنت فقط ترى ، الآن ترى وتعرف .. لو فقط أمكن إلغاء كل ما فات والبداية من جديد ، من الليلة مثلاً ، أو من الغد وكأنه ما سمع قبلاً أو رأى ، وكأنه أول مرة يعرف ويفاجأ بالمعرفة ليستطيع أن يتصرف بمثل ما تمليه عليه المفاجأة .. ولكن العجز الذي يصيبه يعرف سببه .. العجز سببه أنها ليست المرة الأولى .. وقبل أن تكون الأولى كان هناك إحساس . كان غموض وكان تدريج ، الهمس يتحول بعد حين في وعيه إلى كلام مفهوم ، والكلام إلى أصوات ، والأصوات يميزها ويعرف صوتها من صوته ، ومع كل (حيل) طلوع يطلع له في فخذه ، كان يكتشف شيئاً فشيئاً ، ذاك الغموض .. وبيضاء شديد لا مجال معه للثورة ، ولا فرصة للمواجهة ، بحيث حين (عرف) و (وعى) لم يعرف أو يع بشيء جديد .. وإنما جاء كالخبير القديم بلا حرارة ، كالشبح البعيد الذي خمنت من زمن قبل أن تقف وجهك في وجهه .. من يكون .

حتى اشعارهما بوجوده ما كان يجرؤ عليه ، فقد كان يشعر أباه وأمه لأنه كان مطمئناً آمناً ، أما هذان فمن يكونان غير غريبين عليه تماماً ، الرجل خنزير والمرأة دبة .. وهما على سطح الدنيا في السماء ، وهو وأخوته مثلهم مثل أبيه يضمهم هذا القبر ذو الدوائر الأبيض .. أيكي ؟ ويصبح حتى في نظر نفسه وكأنه (ملعبة) تشومية كما يقول الأسطى ؟

أبصرخ ويلم الناس .. باستطاعته أن يفعل باستطاعته أن يقتلها حتى بعد ما يذهب الرجل الغريب .. ولكن المشكلة أنه بهذه الفعلة سيفقد ذلك الخيط الواهي . الذي أصبح يربطه بأمه .. فرغم كل شيء لا تزال أمه .. ولا يزال حياً لأن له أمأ .. ولا يستطيع أن يتصور الحياة بغيرها .. بله أن يتصور أنه هو الذي قتلها وأفقدتها الحياة .. هو حي لأن له أمأ ، ولأنها هذه الأم بالذات ذلك الشيء الموجود رغم وهنه لو فقدته لفقد الحياة .. فهي الآن وهي مع الرجل الغريب مقطوعة الصلة به ، يحس إحساساً عميقاً شاملاً أنه ضائع إلى حد الموت ، لا أحد في الدنيا يخصه ولا يخص هو أحداً ، ما يبقيه حياً هو أمله ، مجرد أمله ، أن تنتهي تلك اللحظة العارضة ليعود يربطه بها ذلك الخيط الواهي ، ولو صرخ ، لو عرفت أنه عرف لنبذته إلى الأبد ، وكف التيار النابع منها ليحييه عن السريان ، وانتهت أمه تماماً ، ولم يعد فيها غير المرأة الأخرى التي ترتدي الفستان الأسود فوق القميص الحريري الشفاف والتي تشفى طول اليوم كي تجلب من عملها كدلالة وسمسارة ، وأشياء أخرى كثيرة .

الطعام .. بل إنه ما كان يفرح بالطعام لأنه طعام ولكن لأنها هي جالبتة .. هي التي تعبت وأحضرته ، وتعبها هذا في إحضاره لا بد سببه أنها لا تزال تحبهم وتحبه .. الطعام رمز الحب هو ما كان يفرحه . وأن

تموت .. أن تنفضح . أن يواجهها لمات قبل أن يحدث هذا فحاجته إليها أقوى ألف مرة من حاجتها إليهم ، بل هو لا يعتقد منذ أن دخل هذا الرجل الغريب حياتهم أنها أصبحت بالمرّة في حاجة إليهم .. حياته وحياتهم لا تزال معلقة بأمومتها لا تنفصل ، لهذا لابد أن تظل تعيش وتظل حية ، ويظل ساكناً ، وتظل ، لتظل حية في السماء .. أو فوق الفراش . لتظل تقابل عشرات الرجال وتشتغل معهم بأكل العيش وتعولهم وتحذثه بصوت ملء حتى بالوعيد .. لتظل تختار من بين الرجال ذلك الرجل الغريب لتقول له . وهي التي تبدو بصوت هامس مبحوح : مساء الخير ، وليسمع هو ، وليكن عليه أن يقضي جزءاً كبيراً من الليل يسمع ، والأصوات تأتيه من فوق سمائه الخشبية ، ليس فيها ضحك أو سعادة ، وإنما فيها ضعف ، حتى لو أدى إلى رغبة في الضعف أكثر فهو حزين ، وليس فيها صوت أبيه القريب الحنون وإنما لهاث خنزير ، وفحيح دبة سقطت في البئر الذي كان يخصه وحده وخلق له وضحك ذات يوم حين احتله أبوه ، حضن عن عمد تفتحه وإرادة منها تضم به ذلك الرجل المكتنز وبلقائهما الشيطاني المتوحش يغوص كونه الصغير تحت السرير ويغوص ، وهو قد كبر ، ومن صغره وهو يسمع ... الآن أصبح يسمع ويجن ، وبحكمة كبيرة يصنع في النهاية كما تعود أن يصنع ، ويسكت .. ومع هذا لا تريد القيامة أن تقوم .. ليعلو ذلك الصوت الراعد : ارفع إيدك . فيصاب الخنزير الغريب بالشلل ، وتموت المرأة المبحوحة الهمس .. وتعود له الأم . صرخة تتصاعد من تحت سماء خشبية محدودة إلى المدينة النائمة والأرض الكبيرة والكون والسماء

التي لا نهاية لها .. ولأن القيامة لا تقوم فهو يستيقظ كل صباح وقد
أصيب بخيبة الأمل .. وكل يوم يرمقها في خروجه ويحس أن الخيط
يدق . والأم تنكمش وسنوات قد مضت على موت أبيه .. والمرأة
ذات الهمس تطغى فيذهب إلى الورشة منكس الرأس ليرتفع كف
تشومبة ويهوي بها على قفاه . قفا صبي صغير أسمر ، قائلاً :

— والله كبرت وبغلت وبقيت زي الدبة .. والدبة وقعت في
البير ..

مارس ١٩٦٥

الأورطي

المهم ليس أنه جرياً ، المهم أنه كان في أكثر من اتجاه . يكاد يكون في كل اتجاه . لكأنه يوم الجري الأكبر . نوع غريب خاص من الجري فهو ليس جري الخائف أو المستعجل أو من يسرع لإنقاذ جري تائه وكان صحابه يجري ويسرع لبحث عن بقعة يبدأ منها الجري والاسراع ولهذا فلا أحد يعرف هدف الآخر أو غايته ، إنما الكل في حالة ترقب خائف أن يعثر أيهم على بدايته التي ربما حددت لهم البداية ، ولهذا أيضاً كنت ترى الشخص يجري كالجنون ، وكالجنون أيضاً يحاول عبثاً أن يراقب خطو الآخرين وجريهم . بحيث ما أن يبدو أنه قارب العثور على غايته حتى يندفع العشرات إلى حيث يكون على أمل أن يصل الواحد منهم أولاً .. ليكون أول من ينطلق حتى يتحدد الهدف ، وحين يصابون بخيبة الأمل ويجدون أن الذي أسرعوا إليه أكثر منهم حيرة يندفعون إلى متلكيء أو مسرع آخر ، علمية كانت البقعة فيها تبدو إذا نظرت إليها من عل أو من بعيد وكأنما تنبض ، نبضات تجمع مفاجيء يعقبه التفرق ، نبض يحدث في أكثر من مكان في نفس الوقت حتى ليبدو الميدان وكأنما فرش بقشرة لولا تلك النبضات العشوائية الحادثة هنا وهناك والدالة وحدها على الحياة لظنتها فشرة صخر أو لظننت الآدميين المتجمعين كتل ركام مختلف الألوان .

ولا أحد يعرف ان كان هناك ضرب أم لا ، أنا شخصياً أصبت بأكثر من ضربة ، ضربة قاصمة موجعة ، وكان من المستحيل تحديد الضارب ، فأنت بلا جار دائم .. والحركة الدائبة الجارية لا تتيح لك حتى مجرد التطلع إلى العشرات والمئات الذين تمر بهم أو يمرون بك إنما بالتأكيد كان هناك ضرب ، وكانت هناك اصطدامات ، لا وقت حتى للاعتذار عنها ، وكان أناس يسقطون ، فجأة تتصاعد صرخة يعقبها أنين ، يظل يخفت كرنين الجرس المعلق حتى تمحوه صرخة أخرى ، ولا أحد يتوقف ليرى النهاية مادمت لست أنا الصارخ ولا أزال قوياً سليماً لم أسقط بعد ، فما معنى الوقوف ، شيئاً فشيئاً بدأت أدرك أن الحركة كلها ليست تلقائية وأن هناك حركة أخرى خفية من الصعب شبه المستحيل إدراكها ، حركة طاردة إلى الخارج ، وكان الميدان يتمدد وينفجر إنفجاراً بطيئاً خفياً منتظماً طارداً الوسطانيين ليصبحوا أقرب إلى المحيط وإلى الخارج وإلى الشوارع الكثيرة الصابة في الميدان والآخذة منه ، حركة لولاها ما كان باستطاعة قوة في الوجود أن تنتشلني من حيث كنت إلى حيث وجدت مجموعة من الناس كنت أجدها تجري بلا سبب آخر سوى الاستمرار اللاإرادي لما كنا نفعله في الميدان الكبير ، استمرار لا نستطيع حتى لو أردنا إيقافه . وما خفي كان أعظم ومن أين لي أن أدرك اني في اللحظة التالية سألتفت إلى جاري ، أول جار أستطيع أن ألحه وأحذق في ملاحه فأجده لدهشتي الشديدة وهولي ، عبده . وكان إحساسي الطاعني التالي أن النقود معه وأنه لا بد يخفيها في مكان ما معه ، وكدت أموت فرحاً وأنا ، بشغف عمره وكأنما ألف عام ، وبغيط كالغاز الخانق القاتل الذي يتشبع به

الجسد ولا نحس به إلا هناك قبل الموت بلحظة ، حين تعي لأول وآخر مرة أنه خنقك وقتلك . أجل الغيظ أبشع أنواع الغيظ حين تستأمن أو تثق ثم ترى الخديعة عيني عينك ودون أي اكتراث ، حين ينسل الشخص الذي تعرف ومتأكد تماماً أنه في يدك متى أردته واني أردته في يدك ، فجأة تجده أمامك يذوب ويختفي وتلتهب غيظاً وغضباً ومجهوداً ولا تستطيع منعه . عبده ، بيدي الاثنتين أطبقت على رقبته . كل خوفي أن يذوب مرة أخرى ، ويختفي .. وكل ضيقي اني لا أستطيع التهامه .. الوحش فينا لا يزال هناك ، وحين نتشاجر لا نعص كي نؤلم الخصم إنما نعصه لأننا فعلاً نريد ، كالأجداد الوحوش ، التهامه ، الأجداد الذين كانوا يهاجمون الخصم ويلتهمونه غيظاً كي يستطيعوا إخفاء وإخفاء وجوده داخل العدو وتستمد بناءها ، نحن الآدميين الذين فقط نعص عن عجز ونحقد ولا نستطيع التنفيس عن حقدنا بالطريقة الطبيعية فيزيد حقدنا فتنهشه كالأنياب المسمومة إلى داخلنا ينهشنا نحن ويقوضنا وبالضبط هنا ما كنت أحسنه وأنا أطبق على عبده وأتمنى لو كان باستطاعة عواطفي أن تنطلق فتنشه وتشدشه وتمضغه وأحس بأنيابي تلوك لحمه وأجزاءه وتشفي غليلها وتطحنه بكل ما تملك من قسوة وشراسة ، وربما الأصل في الطعام أن يأكل الإنسان بناء على غيظ وبنية إخفائه عن الوجود واحتوائه تماماً والقضاء عليه ولهذا يستفيد الوحش من طعامه الفائدة القصوى بينما يمرض الإنسان الآن بطعامه ويشقى .

ولكن ، حتى كطعام ، كان عبده لا يدفع إلا للاشمئزاز وقتل الرغبة

فقد كان نحيفاً غلباناً ، ما حفلت عيناه بنظرة تحد ولا واجه أحد مرة
 بنية إثبات الوجود أو الدفاع عنه ، كان طيباً ذلك النوع الباهت السليبي
 من الطيبة ، مصاباً بفتق مزدوج ، ويغني في خلوته ، مواويل عذبة ،
 وكأنه اني يحل غريب لم يعثر له أبداً على وطن ، وإذا فاض الحال بكى ،
 امتلأت عيناه فجأة بدموع لا يصاحبها أي احمرار إنما يتجمع الإحمرار
 في أنفه فيبدو وكأنما تورم وحفل بالافراز ، يصعب عليك فقط لأنه
 عبده وإنما لأنه وهو الرجل ، كالأطفال والنساء يبكي ، بكاء لا ليونة
 أو طفولة فيه ولا يستدر العطف ، إنما الكارثة إنه بكاء رجال يستدر
 الاشتمزاز . حرامي قروش لا يأخذها إلا مضطراً ، وبأقل مقدار ، وإذا
 ضبطته ارتبك وتلعثم وأقسم إيماناً كاذبة وحذار أن تشدد عليه وإلا
 بكى وأصابك باشمزاز يستمر معك اليوم كله وربما لبضعة أيام . ثلاثة
 أيام بأكملها بلياليها وبساعاتها الطويلة ومغاريها وعصاريها وأنا أبحث عنك
 يا عبده أرفع أرصفة مصر وأقلبها . وأقتحم البيوت . وأوصى ، وأواعد
 واستجير ولا أترك شارعاً أو زقاقاً أو حارة ، وحين يهديني التعب أنام
 وأستيقظ على روعي تكاد تطلع بالغيظ والحنق يأساً من العثور عليك
 وحلمي وكابوسي وألم يقظتي ومنامي أن ألتفت مرة لأجدك يا عبده ،
 أين كنت يا عبده وأين أخفيت النقود . والغريب المذهل ما قاله . قال
 أنه ما إن غادر المنزل يومها حتى أمسكته فرقة من التي تبحث عن
 المرضى لتأخذهم عنوة إلى المستشفيات (تماماً كفرق الشفخانات التي
 تأخذ الحيوانات المريضة بالقوة !) وأنهم أخذوه معهم إلى المستشفى
 مشتهين في أمره ، وهناك كشف عليه الباشحكيم بنفسه وقرر أنه مريض
 بمرض خطر يهدد أن يعدي المصريين جميعاً به وأن لا علاج له إلا بعملية

جراحية يجرونها له في الحال ويقطعون بها الأورطي له ، وفعلوا عملوا له العملية ، وقطعوا له الأورطي ورقد لثلاثة أيام ثم أخرجوه اليوم فقط بعدما منحوه عكازاً ليستعين به في السير ، أما النقود فمن لحظة أن دخل المستشفى وهو لا يدري ما حل بها .

وكان مفروضاً أن يحكي عبده قصة ما يبرر بها إختفائه وإختفاء النقود ، اما أن يحكي قصة كهذه لا يصدقها طفل أو معتوه ، أما أن تكون هناك فرق تبحث عن الآدميين المشتبه في مرضهم وتأخذهم بالقوة كي يعالجوا وتعاملهم هذه المعاملة الحيوانية البشعة ، أما أن يكون هناك مرض من الأمراض علاجه قطع الأورطي ، أما أن يقطع الأورطي وهو الشريان الرئيس للجسم البشري الذي يأخذ الدم من القلب ويوزعه على جميع أنحاء الجسد والذي في سمك العصا التخينة بحيث أنه لو خدش يحدث من جرائه نزيف يقضي على صاحبه في الحال ، فما بالك أن يقطع وأن يعيش عبده بعد قطعه ، ليس هذا فقط بل أن يكون باستطاعته أن يسير ، لو على عكاز ، وأكثر من هذا يجري مثلما كنا منذ دقائق نحكي أما أن يكذب عبده هكذا على كذباً واضحاً صفيقاً لا يحاول حتى أن يداريه أو يبحث من قصة أخرى أكثر حبكة وقابلية للتصديق فهو ما أضاع مني كل سعادتي بالعثور عليه وما جعلني أحس بتعب ساحق أهوج يعتريني لإحساسي أنه يسخر مني بقصته تلك سخرية تفوق الوصف . عصب لا حدود لقسوته ولا حدود لما يدفعك إليه ، ولم أكن وحدي ، كانت الجماعة التي تجري معي تشهد هذا كله وتسمعه وقد آب جريها إلى سير بطيء ، بل بدأ أفراد آخرون ينضمون إلينا ويشعرون تجاه عبده وقصته بنفس ما أشعر ، وكلنا بلا استثناء قد أصبح

أهم شيء لدينا أن النقود معه وأنه لا بد يخفيها في مكان ما في جسده ، فعبدته لا يمكن مكاناً آخر في الدنيا يستطيع أن يخفي فيه شيئاً وليس مهماً القصة ، أي قصة يحكيها ، إنما المهم هو العثور على النقود ، والعثور عليها أمام « عيني عينك » وفضحه فضيحة علنية أمام الناس كلهم وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، وهكذا تصاعدت الأصوات تصرخ .. فتشه .. فتشه .. ولم أكن في حاجة للصرخات لأمد يدي أنزع عنه جلبابه البلدي الباهت الذي لا يملك سواه غير إني فوجئت أن الجلباب ملتصق بجسده لا يمكن خلعه عنه ، وهذا غريب فعبدته كان دائماً (يلق) في جلبابه الواسع فكيف به الآن لا يمكن انتزاعه وكأنه انتفخ فجأة أو سمن في ثلاثة أيام سمنة غير معقولة ، وفي البحث عن حل لخلق الجلباب عنه اشترك الجميع في الاقتراحات وقد أصبح حماسهم للنيل من عبده يطغى على حماسي أنا الضحية ، حماس كان يعمنا في صمت وبلا اتفاق سافر وبكل جهد وإصرار وبأعصاب منفعة وبكثير من الاستمتاع وكأنا نحن متأكدون تماماً أننا أخيراً قد عثرنا على بغيتنا ، على نقطة كالتي كنا نجري في الميدان نبحث عنها لنبدأ منها الجري .. على مذنب ، يحمل الذنب الذي ارتكبه معه ، ولا بد أن ينال جزاءه ونمتع كل ما فينا من خير بإيقاع القصاص به وتطبيق العدالة ونمتع كل ما فينا من شر يجعلنا نطبق العدالة بأيدينا وبأنفسنا وبالشر حراً طليقاً لديه جواز المرور نوالي أحداث الضرر تحت شعار العقاب .

ولم تكن هناك طريقة لخلق الجلباب عنه إلا بسلخه كما يسلخ جلد الأرنب عنه ولكي نسلخ الجلباب لا بد أن يكون معلقاً . وأصبحت

المشكلة أين وكيف نعلقه ، وتصاعد اقتراح ، والتفتنا فوجدنا الجزار قريباً ، وتحركت المجموعة وعبدته في وسطها ، لاتزال يدي مستميتة عليه إلى حيث دكان الجزار وتولى أربعة رفع عبده بينما أخذ الجزار الشاب البدين على عاتقه مهمة تعليقه في الخطاف الذي تعلق عليه الذبائح من (قبة) صديريه وملابسه الداخلية . وهكذا علق عبده في الخطاف وأصبح مرتفعاً هناك ، لا حول له ولا قوة مثله مثله الذبائح والخرفان المسلوخة المعلقة على بقية الخطاطيف . وامتدت أكثر من يد ترفع ذيل الجلباب إلى أعلى وتسليخه عنه وهو معلق صامت لا ينطق بحرف . وما كاد الجلباب يخلع عنه حتى أدركنا السبب جعله يلتصق بجسده هذا الالتصاق الشديد ، فحول بطنه وصدره كانت تلتف أشرطة بيضاء كثيرة . وكأنه فعلا قد أجري عملية وتلك أربطتها ، ولكنني أدركت على الفور هدفه الخبيث من هذه الأربطة الكثيرة فلا بد أنه أكثر منها ليستطيع إخفاء النقود في أية طية من طياتها دون أن يستطيع أحد الشك أو التنبؤ بمكانها . وكان لابد أولاً ، ولجورد الروتين ، فحص محفظته ، ومد الجزار يده السمينية المدربة ، وأزاح طيات الشريط قليلاً ، وأخرج المحفظة من جيب صديريه ، وكانت أول مرة أرى فيها محفظة ، عبده ، ولم أكن أتصور أنها بها الضخامة فقد كانت أضخم محفظة ممكن أن تراها في حياتك وقد توليت بنفسني تفتيشها وافراغ محتوياتها ، وكما توقعنا لم يكن بها غير خمسة قروش فكة أحدهما معضوض صدى لا يصلح للتداول . ومرة أخرى دفع الجزار البدين يده في جيب الصديري نفسه ، وكالموقع لم تخرج بشيء ، كلها إجراءات شكلية فقد كنا جميعاً ندرك أن النقود هناك ، مخبأة لابد في طية من طيات

الشريط وبذلك التحفز النهم للفضيحة ، ولإدراكنا اننا حالاً وعيني عينك سنضع يدنا على ذنب المذنب وأمامه سنخرج من جسده نفسه جسم الجريمة وننتشي النشوة الكبرى ونحن نستعد لنرى وجهه لحظته ونسمع ما يقوله ، بذلك التحفز امتدت يدي ويد الجزار نفك عنه الشريط ، غير أبين لصرخاته واستغاثاته وقوله إن فك الشريط عنه معناه موته إذ الشريط هو الذي يمسك الأورطي المقطوع في مكانه ، صرخات لم تفعل أكثر من أنها أثارت الضحكات والتعليقات الساخرة وحفزتنا نحن القائمين بفك الشريط إلى اللحظة القصوى لحظة اكتشاف النقود ، وفكنا بعض الأشرطة وصراخ عبده قد آب إلى سكوت يائس بينما امتلأت عيناه بالماء الدامع الذي لا يصاحبه أي احمرار ، وحتى لو صدقناه واعتبرنا أنهم عملوا له عملية ما فمن الواضح أنه يكذب فالأشرطة كانت بيضاء نظيفة ليست فيها بقعة دم واحدة ولا آثار جرح ، ولهذا مضينا نفك وإنما بحرص مخافة أن تسقط منا النقود لدى اللفة التالية . فقد كنا جميعاً واقفين ومشاركين ، وكأنا عبده هو الآخر ينتظر ظهور النقود لدى اللفة التالية ، وكنت ألف من ناحية وأسلم الشريط إلى الجزار البدين ليفكه من ناحيته ويعود ليسلمني إياه ، ويبدو أننا كنا استغرقنا في العملية إلى درجة إلي مددت يدي أتسلم منه الشريط مرة فلم أجده إذ كان قد انتهى ، وقبل أن أنظر إلى عبده أحسست بشعور غريب ما يعتري الواقفين وحين اتجهت ببصري إليهم وجدتهم جميعاً وقد خيم عليهم صمت كامل مريب بينما عيونهم كلها مصوبة إلى جسد عبده جامدة لا تطرف وكأنها عيون موتى . ونظرت إلى حيث ينظرون .. كان

٢٩٥

عبدہ عاریاً تماماً وكان هناك جرح طويل جداً يمتد من صدره إلى آخر بطنه ، وكان صدره وبطنه فارغين وكأئما انتزعت منها كل ما تحويه من أجهزة ، وكان الأورطي يتدلى من صدره من مكان القلب كمزمار غاب سميك طويلاً وشاحباً ومقطوعاً يتأرجح داخل بطنه كالبنديل ..

مايو ١٩٦٥

صاحب مصر

فكرت أن أجعل للرجل زوجة جميلة صغيرة لتلائم سنه الكبير ، فكرت أن أجعل الجميلة بنته ، ولكن الزوجة مغرية أكثر ، والقارىء الملول لابد أن يسيل لعابه تتبعاً للزوجة الصغيرة الحلوة أماً في حدوث المتعة الكبرى بشم رائحة الخيانة أو التلطي نشوة وقلقاً على نار الشك في وجودها .

فكرت في أشياء كثيرة ، وتصورت وكأنني الكاتب المحترف ، كل الآفاق المثيرة المجهولة التي يمكنني أن أقود إليها القارىء الهاوي النهم ، كي أكد تفسيراً لحماس صميذة للرجل العجوز ، وصميذة ليس اسمه ، وأنا لا أعرف اسمه ، ولكنني لابد إذا سميت أنه اختار له لقباً كصميذة ، فيه حرف صاد مذكر الموسيقى ، جهيرها ، ليعبر عن شخصه .. ولابد أن ارتباكاً قليلاً قد حدث وأن الحيرة تملككم عن أي الرجلين أتحدث .. الواقع كان هناك رجلان كل منهما يستحق الحديث ، ولكن الأنسب أن نتجاوز عن كليهما معاً لتحدث عن المشهد ، فقد كان هناك رجلان ومشهد ، والمشهد ليس بسيطاً أبداً رغم خلوه التام من الفواجع والكوارث وكل مسببات التوتر ، ولكي نبدأ علينا أن نتصور مكاناً

معزولاً ولا تماماً عن العالم كأن الدنيا بكل غموضها ومجهولها تنتهي عنده ولكننا لابد أن نعتقد أنها أبداً لا تنتهي عنده ، فالطريق الذي يقطعه يظل ممتداً بعد بقعتنا مثلما يظل ممتداً قبلها ، إلى ما لا نهاية البصر ، بالاختصار لتتصور طريقاً من طرقنا المسفلتة الطويلة يمر بمساحة شاسعة من الأرض غير الزراعية أو المطروقة أو تعرضت في عمرها الملايين الكثير للمسة من يد الإنسان ، صحراء ، أو براري أو جبل وعر على امتداد الأصبع الخنصر لبحرنا الأحمر . أن طريقاً كهذا يظل الخط المستقيم بلا فائدة ، كالرجل المستقيم بلا مبدأ وبمجرد المحاكاة والتقليد ، لا معنى له ولا قيمة لاستقامته ، حتى يحدث له حادث ينتهي مثلاً أو يلتوي ، أو بالذات يلتقي بطريق غيره أو يتقاطع ، هنا فقط ، عند التقاطع واللقاء يصبح للطريق المستقيم الممتد معنى إذ يصبح التقاطع وكأنه الاثبات لنظرية كانت قبله فرضاً ، ووصولاً كان طوال الطريق مجرد حلم كحلم الجوعان بالخبز .

لتتصور حادثاً كهذا وقع لطريقنا الذي اخترناه ممتداً بلا معنى في أرض متسعة بلا مفهوم ، ولكن أيضاً على ثقة إننا لن نكون أول المتصورين ، فقبلنا بكثير سنجد أن الحكومة باعتبارها المسؤولة عن الأرض والطريق وكل الأشياء ذات المعاني والمعدومة المعنى قد تصورته ، وأدركت أهمية هذه الحقيقة الفلسفية أو الصوفية المحضة ، مع أنه ليس من عادة حكومة في العالم أن تعبر أمثال هذه الحقائق التي ينقسم عندها البشر ، وأحدثت ولا تزال تحدث أعظم الهزات والمعارك والانتصارات الإنسانية أي التفات ولكنها بالسليقة من زمن لابد أدركتها . وبادرت

فأقامت عند هذا التقاطع (كشكاً) ، وقالت لعسكري كن داخل الكشك فكان ، وهكذا انحسرت كل المعاني الكلية المهولة عن التقاء الطريق بالطريق وتقاطع الطريق مع الطريق ، وكما يضيق (القمع) ويتدبب ، ضاع المعنى وانكمش واتخذ بالكشك والعسكري في الحال مفهوماً واضحاً خاصاً ، بل حتى الأرض نفسها ، تلك التي كانت من أمتار قليلة مستمتعة بلا جدواها ولا أهميتها وبحريتها أن تمتد إذا أرادت وتتجبر وتتجبل إذا أرادت وشاءت أن تمتد ، وتجن وتطلق شعورها وبراريها ولحائها كلما عن لها أن تصنع ذلك ، أصبح عليها منذ الآن أن تدير رأسها وأن تعقل وتخفي عورتها ومن الكرة الأرضية الهائلة والكون والطبيعة تنسلخ وتتخذ أسماء وتنتهي إلى شعب محدد وإلى جزء من أرض ذلك الشعب ، محافظة أو مركزاً تتول وكما يعطي العسكري والكشك والطريق هذا المعنى المحدد الخاص . يرتد العطاء ، ويصبحان أو على الأقل يصبح العسكري ، ليس مجرد أي عسكري في أي كشك ، ولكنه ، في ذلك الجزء المقطوع عن العالم المعزول يصبح المثل الحي للنظام العام الذي أخضع الأرض وحدها وسماها وامتلكها ولكافة القوانين التي ابتكرتها عقول من أصبحت تمت لهم هذه الفرس الوحشية .. الأرض .. وراكبها الذي أستاذسها .. ذلك الطريق ..

في ذلك الوقت ، ولنجعله بعد الظهر بقليل وقد انتهى العسكري من تناول غدائه بحيث يمكننا أن نقدم عليه بلا حرج ونجلس إليه على أمل أن نتحدث ، وحتى قبل أن يدور أي حديث بمجرد الجلوس ، سندرك أن البقعة قد تكون معزولة ومهجورة بالنسبة للآدميين وللراجلين .

ولكنها أبداً ليست كذلك بالنسبة للعربات . فما تكاد تمضي دقيقة حتى تكون عربة قد أقبلت ، بل أحياناً يترام لدى الكشك أكثر من عربة ، كل ما في الأمر أنها في الخلاء الواسع لا تبدو للعيان .. قلما تصادفك عربة إذ هي نقطة لا تظهر إلا عند الكشك من الخلاق الواسع الشفاف تظهر فجأة كأن دخاناً كان يخفيها باتساعه وشفافيته ، وإلى الخلاء الواسع تعود إلى الاختفاء بعد اجتياز التقاطع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحتماً لابد نفاجأ ، قبل أن نبدأ نغير العسكري نفسه أي التفات وإنما نحن مشغولون بتأمل المكان الفريد الغريب ومتابعة غير قليل من الأفكار التي يولدها بالضرورة وجودنا لأول مرة في مكان كذاك ، حتماً لابد نفاجأ حين يقبل رجل عجوز قصير القامة ، أول ما يلتفت النظر إليه جبهته السمراء البارزة المحدودية ، ومقدم رأسه الخفيف الشعر الأشيب ، ينحني على المنضدة الموضوعة أمام العسكري ليستطيع أن يصل إلى حافتها الملاصقة له ، ثم يضع وياللمفاجأة كوب شاي متوسط الحجم رخيص الزجاج وإن بدا الشاي نفسه جيد الصنع عنبري اللون محمراً ، تماماً كما يحبه أنصاف الكيفية ، ونفاجأ أكثر حين نجد أن العسكري نفسه لم يفاجأ بما حدث وكأنه كان يتوقعه ، وكأنما هي عادة ، وحتى إذا كنت متوسط الذكاء فلن تأخذ وقتاً طويلاً لكي تدرك أن الرجل العجوز صاحب ما اصطللحنا على تسميته بالغرزة أو القهوة الصغيرة المتنقلة وأنه يحط رحاله تحت شجرة على الناحية الأخرى من الطريق وأنه لابد قد لاحظ أن العسكري قد انتهى من تناول غذائه فأحضر له كوب الشاي . كما قلت : لا حوادث هناك ولا شيء غير عادي ، من الطبيعي جداً أن توجد قريباً من هذا التقاطع غرزة صاحبها

رجل عجوز أو مريض وأن يتعامل العسكري معه ، وأن يحضر له الشاي ، وأن يقدمه في أدب . ولكن أشياء غير عادية بدأت تحدث ، منها مثلاً أن يدفع العسكري يده في جيب بنطلونه الأمامي (فجيوب بنطلونات العساكر مركبة إلى الأمام ولا أحد يعرف لم) ويخرج قرشاً من جيبه ويعطيه للرجل العجوز قائلاً : خذ قبل ما أنسى . حادثة لاشك ، فالمفروض والعسكري يمثل كل ما ذكرته آنفاً ، والرجل يمثل التجار الصغار ، أن يتقاضى ضريبة يضعها تحت أي اسم يشاء .. ضريبة ليست أقل من كوب الشاي مثلاً ، وأن يعفي العسكري هذا الرجل من الضريبة ، ليس فقط .. بل أن يخسر من جيبه قرشاً ، أمر له دلالة خطيرة لابد . أن هناك سبباً لهذا الاستثناء ، فإذا اتضح أن لا سبب هناك فمعنى هذا إننا في مواجهة ظاهرة خارقة .. عسكري مرور .. ملك متوج على بقعة نائية مهجورة ويستطيع من هذا المكان أن يسيطر على غرائزه وبالذات على غريزة فرض الضرائب غير القابلة للسيطرة والتحكم ، ويكون ذا ضمير مستيقظ لماح .

هنا لابد أن تلتفت كلية للعسكري ، وتعيد النظر فيما دار بينك وبينه من حديث فستقطع أخطر محاوره مفروض أن تدور حالياً بين العجوز والعسكري ، لأننا لن نستطيع إدراك مضمون الحوار إدراكاً حقيقياً إلا إذا وضحت لنا صورة العسكري فلا بد لنا أن نؤجل الحوار إلى حين . العسكري شباب في حدود الثلاثين ، في حديثه وآرائه تحديدات من لم يتزوج بعد أو إن كان قد تزوج فلم يستطع الزواج . أن يصيب ضحيته ، كما يصيب الجسد ، بالترهل وعدم الميل إلى

التحديد . الزواج باعتباره عملية تنازل مستمرة ومساومة في أحسن الأحوال يصيب الرجل بعادة الرغبة في المسألة والبحث عن الحل الوسط ، فالجمل لابد أن تكون لها نهايات مفتوحة تجعلها قابلة للتراجع التام في أحيان ، أو الاتصال بجملته أخرى تغير تماماً من المعنى المقصود ، الزواج ضد نقط النهاية وضد الحسم ربما خوف من سوء وضع النهاية . ما علينا . شخصيته محددة ، آراؤه في الناس أيضاً محددة ، وكذلك في عملية وطبيعته ، وهذا شيء نادر هنا ، فالوظيفة ، أية وظيفة ، كالزواج تماماً صاحبها فتح الجمل وكثرة استعمال حروف الوصل واللضم والجر والألفاظ التي تحتل أكثر من معنى وتفسير لاستخدام معناها الآخر كسلم الحريق حالة وقوع الكوارث وتحمل المسؤولية . له شارب .. تحس أنه عن عمد قد وضع شارباً ، لا للعيافة أو إظهار الرجولة ، إنه ليس في حاجة إلى إظهار وإنما لأنه — مادام الناس صنفين — فقد اختار أن يكون من الصنف ذي الشارب ، صعيدي أو عربي فلا تزال به بقايا قبلية ، في لغته وفي ميله إلى الحديث عن كل ما هو عام ، فالانتماء يبعد عن الذات وكل ما يمت إلى الشخص بمفرده . ولا أستطيع أن أقول إنه شهم ذو نخوة وأريحية ، فلم يكن قد بدأ منه ما ينبئ بأي من هذا ، ولكنك تتمنى . بل ترجح أن يكون شهماً ذا أريحية ، ولكنه أبدأ ليس كاملاً ، فصحيح أنه يعامل السائقين بمساواة تامة ، لا يبالغ في رد تحياتهم المفرطة وكذلك لا يرد عليها بتعظيم وتكبر ، ولكنه يكاد ينتفض واقفاً إذا جاءت التحية من عربية ملاكي ، فعلى رأيه من يمتلك عربية لابد أنه صاحب نفوذ ، موظف

كبير ، أو صاحب مهنة غنى ، أو ابن لهذا أو لذاك ، ولي من العقل أو الحكمة أن يصطدم من كان مثله بأمثالهم ..

قال العجوز بعد أن وضع كوب الشاي بأدب تحس منه أن الأدب أو بالأصح — حتى لا يختلط الأمر — التأدب كان ذات يوم حرفته ، ويذهب بك الخيال إلى أنه من الجائز أن يكون قد عمل سفيراً في قصر باشا أو على الأقل مساعد مرمطون ، قال : أنا لي رجاء عندك . ولم يكن العسكري قد أدرك بعد أن يرجوه وربما كان لا يزال منصرفاً إلى تأمل الشاي وتهيئة نفسه لإرتشافه .. فاستطرد العجوز يقول : لو تتكرم وتسمح لنا بعربية نقل تأخذنا .. وقال العسكري وهو منصرف أيضاً وبمزاج ، إلى أخذ الرشفة الأولى من الشاي . ما أعذب الرشفة الأولى من أي شيء تأخذك فين ؟ ..

ربما حسن يريد أن يقضي مشواراً في أقرب مدينة تلك التي لا بد تبعد عن المكان بعشرات الكيلومترات ، ولكن العجوز قال : أصل أنا ما احبش المواضيع لما تحصل كدة . يبقى أحسن نأخذها من قاصرها وتتكرم علينا بأي سواق توصيه ..

قال العسكري وملاحه القمحية ذات الندوب تنكمش إنكماشات التأثر إن لم يكن بعض الغضب .

هو جالك ثاني ..

قال العجوز وهو لا يزال سادراً في رجائه : وقال لي :

ورغم هذا قاطعه العسكري : وقال لك برضه ..

قال العجوز : وقال لي برضه فأنا رأيي أحسن طريقه زي ما قلت
لسيادتك كدة آخذها من قاصرها حاكم المسائل لما بتوصل على إيه ده
كله كلمتين منك وأي سواق وكتر ألف خيرك ..

قال العسكري وقع بلغ الانكماش بملاحه درجة الانفراج إذا الغضب
كان قد بدأ يتحول إلى كلام : اسمع يا عم حسن أنا قلت لك طول
ما نا هنا ماحدش يقدر يقرب لك ..

— بس أنا المسائل لما بتوصل أقول لنفسي على إيه الأرض أرض الله
وما فيش أوسع من أرض الله وربك يقطع من هنا ويوصل هنا وكلمتين
لسواق ..

بحزم هذه المرة قال العسكري : والله لما يكون هو الجن الأحمر مش
يكفاك كلمتي أنا قلت طول مانا هنا لاهوه ولا مليون واحد زيه يقدر
يهوب ناحيتك ، بس ركك أشوفه مرة وأنا أعرف شغلي معاه . هو
كالك امتي ؟

— من شوية ..

— جه منين ؟ ..

— م الناحيا دي ..

— وراح فين ؟ ..

— م الناحيا دي ..

— وازاي ما شفتوش . ركك بس أشوفه . أنا مش قايل لك لما
يجيلك اندهلي ..

— يا سيدي ربنا يخليك ويكثر خيرك ، بس أنا كان قصدي يعني
أن المسائل لما بتوصل مفيش داعي وكلمتين منك ..
— خلاص يا عم حسن ، بس لما يجيلك اندهلي ..

وكان العسكري قد إنتهى إلى آخر نقطة من شرب الشاي . فتناول
العجوز الكوب ، ومسح قاعدته السميكة مرة أخرى . وانحنى ومد
يده ، ومسح الدائرة المبتلة التي صنتها على المنضدة ومضى وهو يتمم
لابد بدعوات وكلمات شكر ..

ولو رأيت هذا المشهد لدفعك حب الاستطلاع حتى إلى سؤال
العسكري عن معنى هذا كله ، ولخمنت حتى قبل أن يبدأ في أن سبياً
ما لابد يدعو العسكري للتمسك بوجود عم حسن العجوز كل هذا
التمسك ..

ولو كنت تكتب قصة بطريقة التأليف كما يفعل بعض الناس
لالتفت للموقف امرأة ، مثلما كدنا نفعل في البداية . ولجعلناها زوجة
صغيرة لعم حسن العجوز أو ابنة فائزة لعباً ..

لابد سيدور بخلدك شيء كهذا .. فالعسكري لا يذكر لك شيئاً
كثيراً .. إنه يؤكد لك ، بلا حاجة للتأكيد أن الرجل عجوز وطيب ،
وأن له في هذه البقعة بضعة أيام ، وقد كان جالساً في مكانه ..
وجاءت عربة نقل ووقفت كالعادة وبينما السائق يذكر له الرقم ، وإذا
من الصندوق ترفع الهامة لاقصيرة لعم حسن ، وإذا به يتطلع إلى
المكان ، ثم تقع عيناه على الشجرة فينحني ناحية السائق في الكابينة

ويشكره ويطلب منه ، بأدب المعهود ، أن ينزل هنا قائلاً إنه قد اختار هذه البقعة لينصب فيها نصبته . وبمساعدة الشيال ينزل عم حسن أشياء الفقيرة القليلة ، ويستأذن من العسكري ويقضي بقية اليوم في إقامة (الغرزة) ..

وتلك هي حياة عم حسن التي اختارها .. وكل إنسان منا يختار حياته بالطريقة التي تحلو له ، بعضنا يختار المهنة الناجحة ويقضي عمره يحارب زملاءه من أبنائها الناجحين ويكيد لهم ويكيدون له ، وبعضنا يختار مهنة البحث عن مهنة ويظل العمر ينتقل من عمل فاشل إلى عمل فاشل ، ولكل منا كما قلت مهنته التي يفضلها أو التي يلغنها أو التي تتلاءم مع ذاته وطبيعته وصفاته .. وعم حسن قد ترك هذا كله واختار لنفسه مهنة أن يخدم الناس حيث لا يتوقع الناس خدمه ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته وبيته يوجد حيث يوجد عمله وعمله يوجد حيث يرى أن حاجة الناس إليه أكثر وأشد ..

وهو يصنع القهوة والشاي والمعلل .. ورأسماله بلا رأس وبلا مال ، وهو يوجد اليوم هنا في بقعة مهجورة من طريق السويس — الإسماعيلية لا بد عندها تقاطع أو محطة أو شيء ما .. هنا حيث يصبح لكوب الشاي قيمة لا تقدر ، خاصة إذا قدم لسائق منهنك استيقظ منذ الفجر وعليه قبل أن ينام أن يقضي الليلة القادمة بطولها سائقاً .

ويظل عمل حسن في المكان حتى يزهد هو فيه أو يزهد فيه المكان ، أو تصل المسائل على حد رأيه إلى حيث يبح لا داعي للبقاء ، يشير عم حسن لأية عربية قادمة ، في هذا الاتجاه أو ذاك ، فسكك الله كلها له

وكل مكان فيها مثله مثل أي مكان ممكن أن يصبح بلده وموطنه ومسقط عمله ، ويركب عم حسن هو ورأسماله ، وفي أي اتجاه يتصادف أن تكون العربة ذاهبة إليه يذهب ، وعند أية بقعة في المسافة يراها عم حسن تصلح مكاناً يحتاج فيه الناس والسائقون بشكل خاص للخدمة ولا يجدونها ولا يتوقعون وجودها ينحني على السائق يطلب منه بأدبه المعهود إنزاله ، وعادة .. بل لم يحدث أن تقاضى منه أي سائق أجراً ، وينزل ، ويظل يعمل ، وقد يقضي في البقعة أياماً وقد يقضي فيها — كما حدث — سنتين ، إلى أن تصل المسائل إلى الحد المعهود فيشير عم حسن إلى أول عربة نقل قادمة ، وهكذا ..

ولابد — خاصة إذا كنت مثقفاً .. مقيداً بألف قيد وهمي أو ممن صنعك إلى عملك — تمنعك أشياء ليس أقلها الخوف الشديد أو بالأصح الجبن من أن تفكر ، مجرد تفكير ، في تغيير محل عملك أو عملك نفسه أو حتى محل إقامتك ، لابد أن تحسد عم حسن على حياته تلك ، فهي في رأيك لابد أرحب وأوسع حياة ، حياة ألغت المكان والزمان والبعد الرابع وكل الأبعاد ، البلد كلها .. بملايين الكيلومترات التي تكون سككها وطرقها ومساحتها ، ملكك .. ملكك حقاً لا مجازاً ، إذا ماذا تفعل بالملكية قدر حقلك أن توجد في المكان الذي تمتلك وقتاً تريد وأيد زمن تشاء وهل يحتل صاحب العمارة مهما كبرت أكثر من المقعد الذي يجلس عليه أو الفراش ، وما متعة من يمتلك مئات من الأفدنة أو بضع عمارات .. ولكنه صاحب مصر كلها ، من حقه أن يحل بأي مكان فيها في أي وقت يشاء ويستمتع ما شاءت له المتعة بإحساسه أنه صاحب المكان وأي مكان ..

وجزاء من دوافعنا للالتصاق بمنطقة بعينها من المدينة أو القرية ، بل
بشارع ، بل بيت بعينه من بيوتها هو أننا نعرف الساكنين معنا وحولنا
ونأتنس بهم ، وجزاء من خوفنا أن نغادر ذلك البيت أو الحي ونقطن
في غيره ، إننا نخاف من تجربة الغربة مع أناس لم نعرفهم بعد وحتماً
لهذا نتوجس منهم .

أن ما يدفعنا للالتصاق بمكان محدد وناس محددين إننا نخاف الأمكنة
الأخرى والناس الآخرين ، فنتوقع على ما نعرفه ومن نعرفهم حتى لو
قضينا الأعمال نمله ونملهم ، عم حسن العجوز لا بد أنه لا يخاف
الآخرين ، ومادام قد اعتبر مصر كلها بيته ومكان عمله فلا بد أنه اعتبر
المصريين كلهم صعايدة وبحاروة وشراقوة ، وغرابوة ، أهله وأبناء حيه
وحتته ، وهكذا وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألقى نفسه في وسطهم
في البحر الضخم الهائل الذي يكون ملايينهم .. ومن الواضح تماماً أنه
لم يغرق ، وأن الأيدي رفعت ، ولا زالت ترفعه وتداوله ، ومن المكان
إلى المكان يلقي بنفسه إلى يد ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد أو
لتسلمه إلى يد جديدة إذا أراد .. وكأنا أبرم الرجل اتفاقاً مع المصريين
جميعاً أصحاب البلد ، أن يقدم لهم القهوة والشاي في المكان الذي
يفتقدون فيه القهوة والشاي أكثر .. وفي مقابل هذا عليهم هم المصريين
أن يتكفلوا بأمر عيشه وسكنه وإقامته وتنقلاته كلما حلا له أن ينتقل ..

وكما تؤثر الوظيفة في الموظف ، وكما يصبح من خصائص سائق
الأتوبيس صوته المرتفع إذ لا بد له أن يرفعه ليغطي على صوت الآلة
الحديدية والآلة البشرية ليسمعه الركاب أو حتى ليبلغ شتائمهم إلى الراكب

الذي أثر أن يدخر رأيه الصريح فيه إلى اللحظة التي يضع فيها قدمه على الأرض ويتحرك الأتوبيس .. كما تنمى الوظيفة ذلك الجزء من الإنسان الذي يتعامل به مع الآخرين .. وبالتالي تنمي لدى الآخرين ذلك الجزء الذي يتعاملون به معه ، فعم حسن يتعامل مع جزء نادر ، أو بالدقة نادر العمل .. في الناس .. ذلك الجزء المخصص للعمل من أجل الآخرين .. الجزء الإنساني الضامر في أناس كثيرين .. الذي ربما حولته الأجزاء الأنانية لدى البعض كما تحول الأماكن غير المستعملة — إلى مخازن تحتزن فيها أحصنة النهم الإضافية ومغذيات الطموح الفردي الصغير ..

عم حسن يعامله الناس ، والسائقون الذين يبدون وكأن قلوبهم قد قدت من جرانيت أصم ، بأجزائهم الإنسانية ، وما أكبر هذه الأجزاء أحياناً بالذات في قلوب هذا النوع الخفيف من السائقين .. ولأنه يحيا ويتنفس ويأكل وينام بهذه الأجزاء وبما تهيئه له ، فقد اكتسب هو الآخر طابعاً غريباً يميزه عن جميع الناس ، فأدبه الزائد ليس ذلك النوع الممثل الذليل الذي ندرك في الحال مدى ما فيه من ضعة واسترزاك .. لأنه نوع عميق من الأدب ، لا ينبع من الانحناءات والكلمات الهامسة ... وإن كانت بعض أعراضه كلمات هامسة .. ولكنه يهمس لا ليريك ويظهر لك أنه يهمس ولكن لأنه بإدراكه إنك ستستريح أكثر لو همس ، نوع من مراعاة الشعور ، ولكن لأن مراعاة الشعور لدى معظمنا لا تحدث إلا لسبب وإلا لحاجة لك عند من تراعي شعوره فأعتقد أنه من الصعب أن نتصور مراعاة الشعور لمجرد مراعاة الشعور .. لمجرد أن إنساناً يحترم شعورك فعلاً ويقدره — مهما كنت — ويهمله مراعاته ، بل حتى في

طريقه سؤال للناس ، إنه يفعل هذا بأدب صحيح ولكنه أدب فيه ثقة بنفسه وكأن المسألة أمر مفروغ منه ، فرق كبير بين أن تطلب من إنسان لا تعرفه شيئاً وتحاول حينئذ ولأنك تفترض أنه ليس من حقك أن تطلب منه وهو الغريب عنك شيئاً أو تسأله معروفاً ، تحاول أن ترقق ما أمكن من طلبك ولهجتك وتودع فيها كل ما يمكنك إبداعه من رقة السائلين والمقترضين ومن يطلبون بذله ، فرق بين هذا وبين أن يطلب من إنسان نعتقد أنه فعلاً أخوك ومن أقبائك ، ولك عليه مثلما له عليك ، أن تسأله ، ومن واجبه وليس تفضلاً أو تنازلاً ، أن يعطيك .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها .. ومحاولة يائسة لشرح « كل » من الصعب شرحه . فعم حسن ليس مجموعة تصرفات كهذه ، ولكنه أولاً روح كاملة ربما بعض مكوناتها تلك التفاصيل .. إنه روح غريبة تعيد إلى ذهنك آثار الظواهر الطبيعية وهي تعمل عملها عبر ملايين وملايين من السنين لتفتت الصخر الكبير إلى رمل دقيق أملس رائع التكوين . لتقدم من الصخر نهراً عذب الماء كنهر النيل ، لتصنع من الزلال وزلال الزلال حياة ومن الحياة كائنات ما أروعها حين تتأملها كالسماك دافقة بالحياة عامرة بالتفاصيل ، كالأسود جليلة مروعة يديخلك مجرد تفكيرك أن الأسد العظيم منها كان ذات يوم قريب كائناً لا يرى إلا بميكروسكوب . كائناً كان هو الآخر ومنذ أيام قريبة أسداً عظيماً كذلك الأسد .. ونتأمل كيف استطاع آلاف الناس بمراكزهم وتصرفاتهم الإنسانية أن يخلقوا أو يدرّبوا ذلك المركز في عقل عم حسن وشخصيته ليكبر وينمو ويزدهم ، ويحيل هو هذه المرة مراكز الأنانية

وما يخص الذات الصغيرة إلى مخازن يودعها مشاريعه القادمة للناس ..
 لحب الناس ، لكي لا ينسى وهو في قمة إنشغاله ، وحوله السائقون
 مزدحمين كل يريد أن يحظى منه بأكبر جرعة من الحديث والشاي ،
 أن عسكري المرور يتغذى ، وأنه انتهى من طعامه وأنه في حاجة إلى
 كوب شاي ..

لنتصوره بوجهه الأسمر ، وصلبته النامية الخفيفة ، بأذانه الكبيرة التي
 تؤكد ملاحظه ، بأنفه الكبير قليلاً يؤكد رجولته ويؤكد في نفس الوقت
 طبيته إذ لا شموخ فيه . ولا إتساع فتحتيه يريحك ، وعيونه ليست أبداً
 كعيون الملائكة ناعسة سارحة ، أهم شيء يجذبك إليها هو يقظتها ،
 وليس يقظتها إلى ما يدور في عقل صاحبها وإنما يقظتها إليك أنت ، إلى
 ما تفكر فيه ، إلى أحوالك وكيف تبدو وهل معنى ابتسامتك الواسعة
 إن كل شيء بخير أم يا ترى تنبئ عن ضيقك بما تحسه من ضيق .

وإنها لسعادة أن تنظر إلى عمر حسن وبالذات إلى جبهته العريضة
 البارزة التي إذ قستها بالمقاييس الموضح عليها للجمال لبدت قبيحة ، إنها
 لسعادة أن تنظر إليها فتحس أن لم يدر خلفها شيء ، فكرة أو خاطر
 يضر بإنسان .. أن تدرك بوعي وعمق أن هذا الرجل الذي ينظر إليك
 بجماع نفسه لا يفكر أبداً في إيذاء أحد ولا يمكن أبداً أن يفكر في
 خداعك أو السخرية منك والضحك عليك ، أن ما من فكرة شريرة
 عرفت أو يمكن أن تعرف طريقها إلى رأسه .. لا أحلام غنى باهط
 راودته وأستعد معها لأن يدوس الغير في طريقه إليها ، ولا أمنية ألحت
 عليه أن يكون لك مالك أو بعض مالك ، وأنه لا يحسدك أبداً على

منصبك أو وسامتك أو زوجتك المخلصة .. ولم يفكر أبداً في الخط من شأنك حتى بينه وبين نفسه لكي يثبت لها مثلما يحلو للبعض أن يفعل أنه أحسن منك ، أنه لشيء رائع ومحير ومثير للخوف أن تدرك أن كل هذه الصغائر التي يقضي بعضها تسعة أعشار أعمارهم يلوكونها في عقولهم ويقيدون بها قدراتهم .. ويلوثون بها ضمائرهم ، وطبيعتهم الإنسانية التي تخلق نظيفة حساسة ، هذه الصغائر كلها لا محل لها في عقل عم حسن العجز ، ترى أي مكان رحب يصحبه عقله ، أية حرية تتمتع بها خواطره .. أي أمان شامل كان يظللها ويظلمه .. أجل الأمان الذي يقلب الناس دنياهم ويحفرونها مخابىء ودهاليز ليحتمو بها من الأعداء المعروفة والمجهولة ومن الزمن والمرضى والخيانة ، وكلما بحثوا عن الأمان خافوا إذ يدركون أنهم مهما فعلوا فليس هناك دواء شاف أو ملجأ أكيد ، وكلما خافوا على أنفسهم من الآخرين أخافوا الآخرين منهم حتى تنقلب العقول إلى مواقف مجنونة للقلق والرعب ، أنه يتصرف دون أن يحسبها ويفكر ، ويفكر دون أن يحسبها ليعرف بماذا يتصرف ، فالحاجز الذي يضعه الكثيرون بين التفكير والتصرف حاجز سببه أنهم حين يتصرفون يخجلون مما يفكرون ، وحين يفكرون يخافون التصرف بمثل ما يفكرون ، يالروعة عم حسن وتصرفه بمضي في تسلسل وصفاء مع أفكاره ، وأفكاره من تلقائها وبلا جهد يضيقه أو يفقده تصنع تصرفاته ، وليس في وسط الدائرة إلا غيره ، إلا الإنسان الذي تسوقه إليه الصدفة ، إلا الكلمة الحلوة التي لا بد يحتاجها ليقهر هذا العبوس ، إلا الشربة من ماء القلة الباردة ترد الروح التي تتسرب من حسده .. مع حبات العرق المنهرة ، إلا كلمة طيبة يقولها لصديق الطريق وهو

قائم بنفض التراب عن جلسته ويستعد لسفرته القادمة المجهولة : خلي بالك .. الدنيا ليل ونورك واطي لما تقابل عريية هدي ، وحياة بنتك الغالية لانت فاكرك كلامي ومهدي ..

وقد يعتقد البعض ، ولهم الحق ، أنني أنبذ الواقع وأتحدث عن إنسان خرافي غير موجود . ولكن الكارثة الكبرى أن عم حسن موجود ولا يزال إلى الآن حياً يسير ويتنقل أن وجد في مصر طريقاً ، ولكن المشكلة ، أجل المشكلة ، أن الدنيا كلها ليست عم حسن ، وأن المسائل لابد أن تصل يوماً إلى الدرجة التي يصبح معها من العبث البقاء ..



ولنعد إلى الرجلين والمشهد ، ولنؤمن الآن وقد عرفنا الكثير أن ليس في الأمر زوجة أو ابنه ولا سيدة بالمرّة ، ليس لأن عم حسن لم يتزوج ، فالحقيقة أنه مرات تزوج ، ولكن زوجاته كن ، بعد فترة ، وبعد إنقشاع الرغبة في التغيير ، يضغن بحياته ويردن البيت والعمل الثابت الذي لا يبحث فيه عن الناس وإنما على الناس فيه أن يبحثوا عنه ، من هنا كان يدب الخلاف ، وينطلق عم حسن إلى طرقاته ومحطاته ودنيا الله الواسعة وينطلقن هن باحثات عن الأمن والثبات الذي يصنع الأولاد لنعتقد إذن أن ما بين الرجلين أن هو إلا صلة أخرى من صلات عم حسن بالناس ، تلك التي تنشأ في لحظات ، وتظل تنمو ولا تكف عن النمو كلما مر عليها الوقت ، عكس ما يحدث في العادة ، فما أريح وأوسع ما تنشأ وما أسرع ما تبدأ تضيق ، والمشغوليات بالنفس كثيرة ، والعلاقة التي لا تنفع تضر ، والأعم الغالب أن تنتهي العلاقات إلى ذلك الخيط الرفيع

الذي يفصل بين الجهل والمعرفة ، فتعرف الشخص وكأنك لا تعرفه ، واصلتك به لا تتعدى أكثر من يد عالية ترفعها بالسلام من بعيد ، أو إيماءة من رأس أو أضعف الإيمان إبتسامة وكأنما لتثبت بها لنفسك أنك تنتمي ، مجرد انتهاء ، إلى الجنس ..

والعسكري يروي كيف بدأت الحادثة ، فمنذ بضعة أيام ، ذهب إلى عشه عم حسن ، لأول مرة ، عابساً شديد العبوس . ولابد لنا لكي نكمل القصة أن نعرف أشياء كثيرة عن العسكري بشكل عاجل ، فهو قروي حياته الحقبة بدأت بالعسكرية ودخول الجيش ، وكان الجيش مدرسته ، هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالها ، وخرج وقد آلى أن يعرفها بنفسه ، والمدينة صعبة على من يريد معرفتها بقيم فلاح ودرحة ذكي . ولكنه رغم هذا استطاع أن يجد لنفسه مكاناً غير رسمي فيها ، وهو وإن كان يفضي معظم أيامه مقطوعاً في كشك ، إلا أنه في اجازته يعوض كل ما فاتته ، وحتى بنات الليلة يستطيع مصاحبتهن .. وله في كل مدينة محل قريباً منها جلسات ، وقعدات وأركان ودائماً يعثر على عشيقات ..

غير أنه من يوم أن حل عم حسن فقد الحماس تماماً للمدينة ولكل ما ينتظره فيها ، فساعة واحدة كان يقضيها مع الرجل حسن عاش وشاف ، وعاش وشاف بطريقة لم يعيش أو ير بها أحد ، فغيره يجلس مع الرجل ، بل أحياناً يجاوره لشهور وسنين دون أن يعرف عنه إلا أقل القليل ، عم حسن كان يغوص من فورة في النفس محبة أو بناء على طلب صاحبها ، وفي دقائق يعرف مالا يعرفه غيره في ساعات ، فوجهه

كان يملك اللمسة السحرية المتناهية البساطة ، التي تفتح النفس ، والنفوس دائماً تواقه لأن تفتح وأغنى ما في الأرض ليس كنوزها وما تحويه قشرتها ، أغلاها ما في نفوس الرجال من ثروات ، أن في داخل كل منا كنزاً تجمع وتراكم فيه عشرات السنين وآلاف الخبرات ، كل نفس كالحجارة ، مهما إنغلقت فهي لا تكف عن إحالة التجربة بالإضافة وإعادة والتعديل إلى لؤلؤة ، إلى ماسة ثمينة من ماسات الخبرة الإنسانية المركزة والمكثفة والمصنوعة بصير داخل تلافيف الحياة ، وقد استطاعت نفس عم حسن لخالية من المهبطات والمعطلات ومخصصات الأنا للزجة أن تمتلئ وتستوعب عدداً لا يعد ولا يحصى من كنوز النفوس الأخرى فوق ما يمكنها تقديمه وعرضه من نماذج استطاعت نفس عم حسن أن تقوم بدورها كصانعة لآليء ، وماسات ، وأن تحيل ما احتوته نفسه من تجاربه ومن الآلاف المؤلفة من تجارب الآخرين إلى ما يشبه برج مجوهرات الإمبراطورية البشرية .. لي متحف يدير مجرد التجوال فيه الرعوس ، ولا شك أن المتع كثيرة وكلها حلوة ، والمرأة جميلة ممتعة ، وقعدة العسكري في البندر مع إخوانه يدور عليهم الشيء أو يدور بهم متعة .. لكن العسكري إلى عم حسن ، ويسمعه بمفرده أو مع الآخرون وهو يحدثهم ومن ذات نفسه يفرجهم على عوالم غريبة رائعة ، ليالي وكأنها مسحورة ترى من فنجان ، وأيام وأحداث وكأنها اغترفت من أكداس الروايات ، مع أنه في كل ما كان يتحدث به لم يكن هناك أثر للخيال ، إذ لم يكن هناك داع للخيال ، فما رآه رأى العين أغرب مما يراه الآخرون رأى الخيال .. لاشك أن المتع كثيرة ولكن يبدو أن أمتعها جميعاً وأحلاها هي متعة أن تعرف .. متعة أن تعلم ما تجهله أو تزداد

علماً بما تعرفه ، وكل ما يحدث عنه عم حسن دائماً جديد غير مطروق ،
أناس وكأنهم ليسوا من جنس الناس ، وإنما من نوع آخر لا يتبدى إلا
لعم حسن .. أو كأنهم الناس ولكن أشياء منهم مغلقة تفتح بكلمة سر
لا يعرفها إلا الرجل العجوز ..

وجده العسكري في ذلك اليوم عابساً ، شديد العبوس .. حتى لقد
استغرب أن يمتلك من كان مثله القدرة أن يعبس بهذه الشدة .. وحين
سأله عما به لم يشأ أن يتحدث وكأنه لا يرى فائدة في الحديث ..
ولكنه تحت اللاحاح قال إنه حدث ما كان وسيظل دائماً أهدأ يخشاه ،
فقد جاء الرجل وطلب منه مغادرة المكان ..

أي رجل وبأي حق يطلب ما يطلبه ؟ ..

قال إنه جاء هذه المرة بحجة أن الأرض التي أقام فوقها عشته أرضه
وأنه يعطيه مهلة إلى الغد لينتقل منها ..

وطمأن خاطره قائلاً : أنه لا بد نصاب ، أو سلطه أحد أصحاب
العشش الأخرى ..

وهنا لا بد تدرك أن ثمة عششاً أخرى وغرزاً قد أقيمت بعد مجيء
عم حسن ، فهكذا دائماً شأنه ، ما أن يحل بالمكان المهجور ويبدأ في
تقديم مشروباته إلى الغادين والرائحين على الطريق .. أصحاب الطريق
كما كان يسميهم عم حسن الذي قد تتصور أنهم قلة في حين أنك لا
يمكن تبين كثرتهم إلا إذا أقمت لهم مكاناً للشرب والراحة .. مكاناً

يصبح ككشك المرور الذي تلمح قبله أثراً لعربات ولا تلمح بعده ، وإنما عنده فقط وعند العشة تظهر العربات ، ويظهر الناس ويتكشف عنهم الفراغ الذي كان يخفيهم ، وعنده يلتقطون أنفاسهم برهة إستعداداً لاختفائهم القادم من الفراغ .. أصحاب الطريق كثير ، لا بد لهم أسبابهم الخاصة لسلوك الطريق ولكنك تعجب حين يخرج لك عم حسن يعرض كنوزه متحدثاً عنهم قائلاً إن فيهم صاحب الحاجة والهدف لاشك ، ولكن الغالبية سيتعبك حتماً أن تحاول معرفة أهدافهم ولماذا يسبرون ، إن معظم الناس أجناس قانعة ميالة إلى البيوت وحياة البيوت وعالم البيوت ولكن الدنيا فيها آخرون .. فيها القائلون لأنفسهم وللعالم : بلاد الله لخلق الله ومن بلد إلى بلد يرحلون ، وعلى الطريق يشربون ويأكلون وأحياناً على نفس الطريق يموتون .. أصحاب الطريق وسكانه دائماً فرادي ودائماً على الطوى ونادراً ما يتكلمون وليسوا أبداً مجذوبون أو مجانين وإن كان سلوكهم هذا قطعاً سلوك مجانين .. الشيء الدائم أن وراء السير الطويل . مسيرة العمر قصة انتهت حين وضع كل منهم قدمه على أول الطريق ، وقد يكون للطريق أول ولكن أبداً ليس له آخر ، وكأنما بحثهم الدائب عن آخر الطريق ، والعمر يمضي وأعمار كثيرة تمضي قبل أن يصل أي منهم السالكين سلوك المجانين ، أو أي منا نحن السالكين مسالك العقلاء ، آخر الطريق ، دائماً نلتقي ، عقلاء ومجانين ، وراجلين وراكبين وأفندية وسواقين وهاربين وباحثين ومخبرين ومجرمين ومطاردين ومطرودين عند عم حسن عند تقاطع الطريق . ونأنس باللقاء ، ونتعارف ونتجانب ونتذاكر ويسمى بعضنا البعض : رفاق الطريق .

وهكذا يحدث دائماً تبقى عشة عم حسن الذي يكتشف بها التقاطع المهجور ، وحيدة لفترة أطول ، إذ لا تلبث عشة أخرى أن تقام ، وأن كان أصحابها ليس في وحدانية عم حسن وإنسانيته وطيبته بل حتى نظافته إلا أنه لا يعدم زبائن آخرين ، وجعلنا لكل شيء سبباً ، ولكل طالب رزقاً ، ولكل عشة مهما كثر عدد العشش زبائن من رفاق الطريق ..

ودائماً ما تبدأ الغيرة من عم حسن ورواده الأكثر ، تأكل القلوب ، وعلى أقل سبب تحدث المشاحنات ، وفي البقعة المهجورة والمقطوعة الصلة بكل أسباب الحياة والإحياء ، سرعان ما تبدأ فيها أو البوادر ، وكما تستدل على الأسد من رائحة بوله المنكر ، تبدأ رائحة نظام الإنسان الفاسد تفوح ، ومن بعيد وسط سكون العصري المطبق تسمع صوتاً غير غريب عليك تتلاحق عواءاته من بعيد .. تسمع الصوت وتشم الرائحة ، الخناقة ، تحسبها كلاباً على جثة ، ولكن الرائحة والخناقة أكثر بشاعة .. لا بد أنهم بشر على لقمة ..

فإذا سمعت طرفاً واحداً هو الماضي في زعيقه وعوائه ، بينا الطرف الآخر صامت صمتاً تاماً وكأنه ليس المقصود ، فاعلم أن الخناقة مع عم حسن ، وأن الآخر رغم أنه جاء إلى التقاطع بعده ، ولولا عم حسن ما جرؤ على التفكير أو البقاء ، إلا أنه محموم ينفجر بغضبه .

ولكن هؤلاء لم يكونوا يسببون للرجل العجوز الطيب أي إزعاج ، بالعكس كان دائماً يقابل عويلهم بالإبتسام .. إبتسام الفرحة ، إذ

معناه أنه عمرت الحتة ، وليس ما يبهج عم حسن أكثر من أن يدرك ،
هو الجواب الأرض القفر والساحات المهجورة ، إن قطعة مهما بلغ
صغيرها من الدنيا ، ومن مصر أم الدنيا ، قد عمرت ..

* * *

ولكن ، أن يعبس عم حسن ، وأن يبدو وجهه شديد العبوس ،
وأن يظل هكذا حتى بعد محاولات العسكري المستمرة لتطيب خاطره
معناه أن في المسألة شيئاً آخر غير عادي ..

وأعتقد أن العسكري أن عم حسن رجل طيب ومسلم ، ومن
عادة هؤلاء أن يزعمهم التهديد ، وهكذا أخذ العسكري على عاتقه
ألا يتكرر المشهد ، وأن يظل وراء من هدده حتى يجبره على المضي
إليه وطلب غفرانه . وبدأ يعيد السؤال على الرجل ، ويطلب من عم
حسن وصفه وتذكر من أين جاء وإلى أين ذهب . ولم تعجبه
الإجابات ، فقد جاءت كلها غامضة محيرة وكأنما عن عمد ، أو من
شدة الخوف — يحاول عم حسن تضليله ، وبهذا واجه عم حسن
وكان أن ابتسم الرجل وكأنني بقلبه ابتسم فهو لم يكن يحاول أن يخفي
عنه شيئاً ، وأنه لا يفعل أكثر من أن ينقل إليه كل ما يعرف ، فهو
لم يع بالضبط من أين جاء الرجل فقد أفاق فوجده أمامه ، ولا إلى
أين ذهب فما كاد دمه يتغير لكلامه ، حتى كان في ثورة الغضب
قد اختفى ، وهو لا يذكر ماذا كان يرتدي ، فقد أضع الغضب
للحظة الرؤيا ذاكرته ، غير أن ما أدهش العسكري ومنعه عن متابعة

بقية الحديث وعن إلقاء أي سؤال ، أن عم حسن في كلامه عن الرجل وكأنما يتكلم من الذاكرة ، وكأن ما في الذاكرة أقرب إليه مم ، منذ دقائق ، حدث ..

كان وكأنما يتحدث عن شخص يعرف تمام المعرفة ، عن شخص لا يمكن أن تكون تلك هذه المرة الأولى لرؤيته .. وحتى حين واجهه بهذا سكت ولم يجب ، آخر كلمة قالها العسكري قبيل أن يغادره إن طلب منه ، إذا جاء الرجل ، أن يشير له ويناديه ، وليدعه حينئذ يتكفل به ..

وهز عم حسن رأسه . وكان وجهه لا يزال محتقن الملامح في اكتئاب ..

* * *

وكاد العسكري يغضب حين علم — من عم حسن نفسه — أن الرجل جاء ، وأنه هذه المرة أُنذره ، ومضى قبل أن يستطيع أن يشير له أو يناديه . كيف يمضي قبل أن يستطيع ؟ أهو كائن مسحور ..

إنه هكذا — مضى عم حسن يخبره — عمري ما رأيته قادماً ولا عرفت كيف يغادرني ..

عمرك — أفي المسألة أعمار ؟

بالطبع — قالها عم حسن ببساطة .. فليست هذه أول مرة إنما

دائماً وراءه اني يذهب ليسكن حتى يبدأ الآخرون يقدون ويقيمون العيش . ومن لحظتها يبدأ يأتي ولا يتركه حتى يذهب ..
وللعسكري ألف حق حين أحس أن عم حسن يبالغ ليس إلا وأنه من امتداد حياته الطويلة بعيداً عن المشاكل يجعل من الرجل جنياً أحمر . ووصاه وألح عليه إن جاء فقط أن يناديه ، ما عليه إلا أن يشير له ويناديه ..

ولم يأت الرجل في اليوم التالي . هكذا أكد عم حسن ، لا ولا اليوم الذي يليه ، إلى العاشرة حين كاد جاز اللمة « الشيخ علي » يفرغ وسهرته التي نادراً ما تمتد أكثر ما تنتهي ، ويخمر من زبائنه قرر قضاء الليلة عنده ومن سيرحل ، هكذا في ظلمة الليلة ، ودون خوف من مجهوله وظلامه ، وكأنه في بيته صاحب الطريق إلى العشرة لم يكن قد جاء ..

وفي اليوم الثالث . كانت كوب الشاي التي قدما للعسكري عقب الغداء ، وكان رجاؤه أول مرة يسمع فيها هذا الرجاء ، أن يساعده على الرحيل ..

وحين كان عم حسن يأخذ الكوب الفارغ ويمضي ويتم . لم يكن ما يتم به كلمات شكر كما أعتقد العسكري ، كانت كلمات ضيق وتبرم بالموقف الذي أصبح فيه ، فها هو العسكري يقف بجواره مصمماً على بقاءه وعلى أن باستطاعته الدفاع عنه في حين أنه أعرف الناس أن أحداً لم يستطع — مع هذا الرجل — أن يساعده وأنه جانبه ويجابه دائماً وحيداً ، ولا فائدة من إطالة النضال .

وبعد دقائق كان ينادي بأعلى صوته يا شاويش ..
وفي بضع قفزات كان العسكري قد ترك المكتب والدفتري ، والقيد
والعربة النقل الدائرة موترها في إزعاج ، وأصبح أمام عم حسن ،
يسأل : هو فين ؟!

ويأس تام أجابه عم حسن أنه ذهب ..

كيف ومتى وهل من المعقول أن يكون قد اختفى تماماً ولم يمر بين
ندائه وبين مجيئه سوى زمن كلمح البصر ؟ ..

— مش قلتلك .. أهى دي عوايده .

ولأول مرة ، وب نظرة مختلفة تماماً حذق العسكري في عم حسن ،
فلم يكن هناك إلا تفسير واحد ، إن هذا الرجل العظيم مجنون لا بد
يتصور أشياء لا يتحدث ..

وبنفس النظرة مثبتة على وجهه بالذات على عينيه الواسعتين
العسليتين .

— أنت متأكد أن فيه راجل بالشكل ده ..

وعلى الفور فهم عم حسن أو ابتسم في رثاء ..

وانقضت الليلة ، وفي الصباح ، وإلى الساعة الثامنة لم يكن قد جاء
عم حسن له بشاي الصبح أو بدا له أثر . ودب القلق في قلب العسكري
مخافة أن يكون قد ذهب ، لولا أنه من مكانه كان يلح العشة وجلبابه
المنشور فوقها منذ الأمس ، ولم يكن باستطاعته التحرك ، فبحواره كان

ضابط ينتظر ، وعليه أولاً أن يجد له عربة ذاهبة في إتجاه العاصمة ، وهناك ، قرب العاشرة جاءت العربة ، وحتى قبل أن تتحرك بعيداً كان هو قد وصل إلى جوار العربة وقبل أن يستدير إلى الباب كان ينادي عم حسن ، وخيل إليه أنه يسمع أنيناً . وفي الداخل كان عم حسن راقداً وحول عينيه كدمة زرقاء كبيرة وصدغه وارم وواضح في هيئته أن إعتداء قاسياً قد وقع عليه . ورداً على أسئلته الكثيرة ، واستفساراته ، حدق فيه عم حسن بعينه غير الوارمة وحدث فيه ملياً قبل أن يقول : صدقت بقى أنه بيعجي ..

وفتح العسكري فمه ولكنه عدل عن النطق ، ودون أن يغير لهجته استطردهم حسن : مش تعمل في معروف بقى وتكلم لي سواق ..

قضى العسكري إلى الظهر ودمه يغلي تارة وجسده يرتعش تارة أخرى . إنه بطبيعته لا يتحمل أن يرى أحد ضحية ظلم مهما صغر ، فما بالك والضحية عم حسن ، أحب وأقرب من أنست إليه نفسه في الحياة ، لقد قضاها كالقط الضال برياً يكاد يصل حد التوحش من الصعب عليه أن يألف ومن الصعب أن يألف ، حتى مع أخيه الأكبر الوحيد ، وحتى والمرأة بين ذراعيه وقد ذابت كل الفواصل عمره ما أحس أن ألفه حقيقة قامت بينه وبينها ، حتى لو كانت (نظلة) زوجته ، والأخرى التي جرى عليها طويلاً واشتاق لها كثيراً وأحبها وكانت وبالصدفة اسمها (نظلة) أيضاً ، الإنسان الوحيد الذي اخترق حجبته وهد جدرانته واقترب أكثر ما يمكن من قلبه وروحه ، وقرب قلبه ، وروحه إلى الدنيا والناس .. كان عم حسن ..

عم حسن الذي في أيام إرتبطت فيه نفسه إلى الدرجة التي لو أصر فيها على الرحيل لوجد نفسه ، دون أن يستطيع لها منعاً أن يرحل معه .. الراقد الآن يتألم متورماً ومضروباً من ذلك الرجل ، مهما كان وليكن أنسياً أو جنياً ، وليكن إبليس بنفسه وبكل جبروته ؟

كان العسكري ، ولنسمه صميذة يعمل ثماني ساعات ويستريح مثلها ، ويبادل العمل والراحة زميله ، زميل لا علاقة له بكل ما ذكرنا ، ما لاحظته ولا كان على إستعداد للإهتمام به ، فهو في السن أصغر ، وتلك أول مرة يتغرب فيها عن زوجته وابنه الحديث الولادة ، وهو دائماً ، بالخطوات معهما ، لم يحس للحظة واحدة بما على قيد خطوات منه يحدث ..

وقضى صميذة ، الأربعاء والعشرين ساعة بجوار صاحبه العجوز الذي رقد منها نصفها وعاد إلى طبيعته من نصفها الآخر وجلس وأكل وتحدث . وصميذة صامت يجتر الغيظ ويستعيد بغضب ما يفعله بالرجل حين يجيء . ولكن أن أناساً كثيرين جاءوا وذهبوا دون أن يبدو للرجل أثر ، حتى أغمض مرة عينيه ، ورغم أن اغفائه لم تطل أكثر من لحظات إلا أنه كان قد حلم فيها أن الرجل جاء ، والعجيب أنه لم يكن كما تصور أبداً شيطاني الملامح يقدح الشر من عينيه ، كان يبدو كالتنوع (السهتان) من الرجال ، النحيف ، القصير ، وكان وجهه (سادة) تكاد لولا وجوده أن تعتقد أنه بلا ملامح ، وربما وجهه الخالي من الإنفعال ذلك هو ما جعل صميذة يحس بالضيق الشديد منه وبالرغبة الملحة في قتله ، وهو صعيدي وعربي يعرف معنى القتل ويفهمه ، رغبة بلغ من شدتها

والحاحها إنه أيقظته ، وحين صبحا وحد عم حسن يحدق فيه بعين مفتوحة ونصف الأخرى الذي أصبح قادراً على فتحه ، وظل يحدق فيه لبرهة ثم قال : شفته ..

وكاد يقول : شفته ، لولا أن عقله إرتبك وتساءل : كيف عرف عم حسن أنه كان يحلم ، وأن الرجل جاءه في الحلم ..
وسأله : إيش عرفك إني شفته ..

فقال عم حسن : ما هو كان هنا ولسه ماشي ..

فقال صميذة : أنت راخر حلمت به .

فاستنكر عم حسن : حلمت إيه . أنا صاحي . وجه وافتكرك
شفته واستغربت أنك ما قتللوش حاجة ..

واحسن صميذة بالخوف ، من المرات النادرة القليلة التي أحس فيها بالخوف إلى درجة كاد يخبر عم حسن أنه يوافق أخيراً على رغبته وأنه سيكلم له أول سائق يمر ..

ولكن العناد ، ذلك الشيء المركب فينا يفسد علينا لحظات الاستسلام للواقع ، ثار وأبى . وفي ومضة كان صميذة قد قرر أما هو أو ذلك الرجل ..

وانتقل صميذة إلى عشة عم حسن يقضي فيها ساعات راحته ، والعشة نفسها نقلها بحيث أصبحت تواجه الكشك تماماً ، ولو استطاع لجعلها ملاصقة له ..

وأصبح على عم حسن ألا ينتقل من مكانه إلا إذا عرف صميده وتابعه إن لم يكن بنفسه فبعينه ، وأصبح على صميده أن يظل مفتوح الأعين لا يغمض له جفن ، إذا نام كان على حسن أن يظل مستقظاً قابلاً بجوار زميله ، ولا ينام عم حسن وإلا وحماية صميده تحوطه ، ومع هذا ما يكاد الانتباه يغفل حتى يرفع عم حسن يده مستجيراً ، ويعرف صميده أن الرجل جاء ومضى كما تأتي ريح وتمضي وأنه لابد همس لعم حسن مثلما يهمس كل مرة بتهديده ، وبأن صبره قد نفذ وأنه لا محالة قاتله .. والعناد ذلك الشيء المستبد الخارق يزداد نمواً كلما رد العملاق في جوف صميده حتى ليصبح هو الذي يسيره ويخضعه ، وكلما إزداد استبداداً وازداد التهديد حدة كلما أصبح على حركات عم حسن وسكناته أن تخضع أكثر وأكثر حتى ليكاد يشير لصميده لينبه أنه يريد فتح الفم أو التنفس ..

وكان طبعياً أن تخلو عشة عم حسن من رفاق الطريق ، ليس فقط لكل ما تقدم ، وإنما لأن صميده قد أصبح يتوجس لدى قدوم أيهم ، وبعينه النفاذتين يتفحص ملاح وجهه ليعرف قربها أو بعدها عن الملاح كما رآها وكما أصبح يعتقد أنها قرية الشبه جداً من ملاح أي قادم يراه ، أو على الأقل بإستطاعه أيهم أن يحيل ملاحه إذا أراد لتصبح (سادة) كريمة كملاح ذلك الرجل الكريه .

وفي صباح جميل ، كل ما فيه جميل ، إلا ما هما فيه . مال عمر حسن على صميده وقال :

— ح نقعد كثير على كده ؟

— لغاية ما يبان ونخلص عليه .

— بعد يوم .. إثنين .. سنة .. سنتين ؟

— حتى لو بعد عشر سنين .

— طيب معاك ، ساعتها صحيح ح نخلص عليه إنما إحنا ح نكون رخرين خلصنا ، تعرف مين ساعتها ح يبقى إنتصر .. العند .. إحنا ح نكون متنا من زمان واللي عايش فينا العند وزى ما خلص عليه .. نخلص علينا .. سييني أمشي ..

— وتروح فين ؟

— دنيا الله واسعة يا أخي .. وإذا كان في الحنة دي عدو فالطريق مليون أصحاب ورفاق .. الدنيا حلوة يا بني وحرام تعادي فيها حتى اللي يعاديك .. عايز تغلبه سيبه ينفلق ويعاديك ، وأوعى تعاديه أنت لتخسر نفسك .

* * *

وذاات يوم ، وصميذة نائم ، كان عم حسن يلقي بنفسه مرة أخرى إلى أيد الناس ، والسائق يساعده على جمع حوائج ..

وحين استيقظ صميذة ولم يجد عم حسن أو عشته أصابه ذهول أوقف تفكيره ، كأنما أحس أنه فجأة فقد كل ما له على ظهر الدنيا ، وحين أفاق ، أحس لومضة ، بالإرتياح ، فقد شعر أن العناد ينسحب من جسده ، ومعه تنسحب ملامح الرجل الكريه التي لم تغادر خياله

لحظة ، تنسحب معه فتهمز ، لومضة أحس أن الحياة قد بدأ يعود لها طعمها الحلو ، كان عم حسن قد ذهب حقيقة وذهب معه سحره ، ولكن المكان عند التقاطع قد عمر ، ودبت فيه الأرجل وحفل بالعشش التي كانت أحداها قد بدأت تتحول إلى بناء ذي سقف وأبواب . لومضة عابرة أحس بكل هذا غير أنه أفاق تماماً من ذهوله حاول أن يجري وأن يسأل ومن السائقين والعابرين يستقصي ، لا ليعرف مكانه البعيد ، وإنما على أمل ، أن يعرف مكانه ليرك كمشكه ويذهب خلفه ، وإلى الآن لم يزل صميذة مؤمناً واثقاً أن عم حسن لا بد حي يرزق ناصباً عشته عند تقاطع ما في الطريق ، ولا تزال كلما مرت به عربة نقل ، بل أن يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يسأله كان قد رأى أو إلتقى بعم حسن ، وبعضهم يقول أنه من سنة رآه وآخر من شهور ، وإجابات كثيرة يظفر بها ، مرة يجده في دمنهور وأخرى في طريق البدرشين .. آه .. لو فقط يعثر له على مكان أكيد ..

يناير ١٩٦٥

﴿ انتهى ﴾



العتب على النظر

٣٣٣

من كام يوم جاءني حسن
 قل لي يا دكتور
 أقول لك يا حسن
 هو فيه للحمير نضارات
 ضحكت
 فلا بد حسن يريدني أضحك
 لأ. جد
 لا بد يريدني لا أضحك
 سكت وإليه نظرت
 ما تقول لي يا دكتور
 أقول لك يا حسن
 مش للحمير نضارات زي البني آدمين
 كل كذا عام
 لك يا حسن سؤال
 لا يا حسن الحمير مالهاش نضارات

٣٣٤

طب والعمل
 وحماري لازم له نضارة
 ايش عرفك
 بقى يضبش
 ويدخل على مراتي
 يفتكرها الزكية
 هي تخينة زي الزكية
 إن جيت للحق
 صحيح تخينة
 إنما مش زكية
 يمكن بيغلط وكل حمار له غلطة
 بس ده غلطة كتر
 وبدأ يحرن
 ويتوه عن الدار
 ومرات يخبط راسه في الحيط
 عشان حمار يا حسن
 لا عشان بقت عينيه شيش بيش يا دكتور
 وديته لحد يشوفه
 شافه البيطار
 وقال لك عايز نضارة
 قال بيعه . دا شرك . بيعه
 بيعه

٣٣٥

ما يجيش تمنه
 والحمير الجديدة سوقها نار
 والحل
 عايز له نضارة يا بيه
 انت اتهللت
 نضارة ايه لحمار يا حمار
 قول اللي تقوله
 إنما أنا في عرضك
 غيتني
 إزاي
 اتوسط لي في نضارة
 والنضارة بوسايط
 كله بوسايط النهارده
 إلا النضارة
 مش عايزة واسطة
 آمال عايزة إيه
 عايزة كشف
 والكشف فين
 عند بتاع النضارات
 يبقى خلاص . فرجت
 أنا وقعت م السما يا بيه
 وانت استلقيتني

٣٣٦

ست كيلات فول
واعمل له نضارة
أني حالي واقف
ومن يوم ما وغوش
أني سنقرت

● ● ●

وقعدت أضحك
افتكر حمار حسن
لبس نضارة
أموت على نفسي م الضحك
لدرجة قلت لا بد
وبكل طريقة يا حسن
أعمل لحمارك نضارة

● ● ● .

لعم ناجي خدت بعضي ورحت
وعملنا اجتماع
ومن حيث المبدأ وافق
وفضل التنفيذ
والتنفيذ عايز كشف
والكشف عايز علامات
وأنهى خمار ده

٣٣٧

اللي

ح يعرف فتحة العلامة منين
 منين حا تعرف الفتحة يا حمار؟

● ● ●

وانضم حسن أبو علي لينا
 وعلى أعلى مستوى قعدنا نضبش
 وجانا الحل من حسن
 حل مالوش مثيل
 يا ابن الايه يا حسن
 أما حته حل

● ● ●

سهم حسن وقال :
 يا بيه ويا عم ناجي
 الحل عند الحمار
 إزاي يا حسن إزاي
 فتح حسن بقه وبص لكمه الشمال
 وانكسف
 هو بينكسف كده
 وقال :
 الحل حمارة الصاوي جاري
 كان ساعة ما يشوفها

٣٣٨

ينهق عليها
ولما نظره ضعف
ما بقاش ينهق
إلا لما يقرب عليها قوي
وكل يوم والثاني
ما كانش يزرو دانه
إلا لما يدوبك
بورزه ينشه ديلها



وبعد مفاوضات
والصاوي خايف على حمارته
ولولا إن عم ناجي
كبوت في دماغه
ما كانش حصل
وتم وجرى الترتيب
نوقف حمارة الصاوي على بعد قصبة
وحمار حسن على باب الدكان
وأنا أمسك شنبر الكشف
وناجي يغير العدسات
بحيث لما يحط العدسة المظبوبة
نعرف أنها هي من نهيق الحمار

٣٣٩

ما دام كل ما كان يشوفها ينهق
 فضروري لما يشوفها ح ينهق
 ونعرف العدسة المظبوبة
 وعدسات عينينا تنفع لعينين الحمار
 تنفع ونص
 قالها عم ناجي وفتح الصندوق
 وصبيه طرد العيال ووقف زنهار
 وحددنا مكان الحمامة
 ومكان الحمار
 ودورنا الحمامة
 وخلينا راس الحمار
 على خط مستقيم
 يصل بين نقطتين
 ديل الحمامة
 ومناخير الحمار
 وثبتنا الشنبر بدوبارة وحوالين الودان
 ربطناه واشتغل يا عم ناجي
 وثبت الهدف يا عم صاوي
 وانهج يا حسن وكأنك حاضر
 أول عملة في التاريخ
 يعملها إنسي في حمار



٣٤٠

زيادة في الاحتياط ثبت أنا الشنبر
 وزيادة في الاحتياط مات حسن على صندوق العدسات
 وبسمل عم ناجي وكلنا وياه
 وحط أول عدسة
 واستعدل بوز الحمار
 نفخ الحمار وعطس وهز كده وكده راسه
 وكان شيء ما كان
 ثاني عدسة
 خاف الحمار واتاخذ وغمض عينيه
 وبدأ يرفص
 سهل علينا ناجي وقال: أصلها عدسة بتكبر
 ولازم شاف الحمار بغل قدامه
 الثالثة مسكنا لها جامد
 ورمش الحمار عشر رمشات وأبتدا يبخلق
 وزر ودانه
 وبان عليه علامات جد وخطورة
 ولحقه عم ناجي بعدسة على العين الثانية
 حمحم الحمار ونفخ صدره
 وزفر بصدر محروق
 وراح مطلقها
 تنهيق مفاجئة خدتنا على خوانة
 وكان قبلة انفجرت

تنهية وأتبعها بالثانية
 ورفع للسما راسه
 وتشعبطنا نمسك العدسة والشنبر
 وغارة نهيق هاجت
 ومعاها ضحكنا هاص
 ينهق ونضحك
 وحسن م الفرحة طائر .
 وحمارة الصاوي للنهيق
 نخت ووسعت فتحة البرجل
 وابتدا يفلقص
 وحسن يصرخ: أهو شاف
 ايش عرفك
 شاور
 شيء خرافي غريب يجعلك
 تؤمن أن الجسد حيوان ساعة اللزوم يظهر
 لا عقل له ولا فيه ولا أدب يعرف
 حيوان حماري أسود غليظ بشفاتير
 زي مارد كان في الجسم متخبي
 ثانية ادل دل من القمقم
 مارد طويل تخين يجعلك تتمنى تبقى حمار مثله
 خرجته من جحره زي الكمين الحي يستنفر
 شيء لا بد معه تتأمل

٣٤٢

وتتكسف له
كأنك الغلطان
وارتبكنا إحنا الكل خايفين نبص
ليكون عيب
ومش قادرين نشيل عينينا
لأن البصر من مكمنه بينشد
ومن غير أمر ولا خطة ، الظاهرة
عمالة وشغالة والحمار ينهق
والوحيد الباصص بعيون الفرخ والفخر
حسن أبو علي صاحب الحمار
يعمر بيتك يا دكتور
تسلم إيدك يا عم ناجي
أنا طالب القرب يا صاوي
وحمارتك أهه ، موافقة
والجمهور على الجوانب انتابته حالة
وكأنه بريمة اندكت في برقع الحيا للآخر
وحممة ورا حممة سخن الحمار. والزمان
دا جنن الجدعان
وهب ، قطعت رجليه القيود
واندفع خطوة
خطوة واحدة بس لأن العدسات نطت
والشنبر طار

٣٤٣

وهديت تماماً وفي الحال وحين كف البصر حركة
 الحيوان
 وعاد أليف مستأنس
 ارتخت ودناه
 ودلدل بوزه
 وصرخ حسن
 في عرضك يا عم ناجي
 الحقني يا دكتور
 الفرحة ما تمت
 والدنيا بقت هس
 لكن حماسنا كان لسه
 ومرة ثانية ثبتنا الشنبر
 وجاب ناجي عدسات أضبط
 والنهيق عاد
 وفي السما لعلع
 وما عرفناش اللي حصل ايه
 في نطة جامدة كان عند الحمامة
 ودماغه زقت عمك الصاوي
 وقدام عينينا ظاهرة كونية
 وعفاريت الجسد في عز الضهر اتجننت
 ولا عاد حمامة من حمام ولا ذكر من أنثى
 الحياة الحمامة بغشوميتها وغبائها أصبحت أرقى

٣٤٤

والقانون اللي عمل أنثى وذكر أصبح مرعباً
 وهو يطلق عقاب طاقة الالتحام
 ولا الرعب النووي له الجميع أنشل
 الطبيعة بصراحة وبلا خجل وعيني عينك
 تتكلم بأعلى صوت، تصرخ، تجأر
 تضع في أجسادنا الزلازل، وداخلنا تفجر البراكين
 لحظة اختلال كون
 والآن انتظامه
 منتهى عقله
 والآن منتهى جنانه
 لحظة لا قيمة فيها إلا قيمتك كذكر الطبيعة أو
 كأنثاها
 ولتذهب العقول والضوابط للأطفال والعاجزين
 يلعبون ويعزون بها الأنفس
 لحظة الفيض
 الأجساد ثائرة وفائرة تدفق رحيقها
 بكل بدائية تفجرات الشمس
 ومد القمر
 ووحشية الإعصار

● ● ●

٣٤٥

واختفى الكل ولم يعد سوى ثلاثة
 حمار حسن وحمارة الصاوي وقامة قصيرة تشب
 وتريد
 مطاولة الموقف واللحظة، قامة أبو علي وقد فقد،
 للحظة، وعيه الكامل وملامحه وقد أصبحت تنطق
 بالسرياني وتزمجر بأزيز يرعب حسن ويرعبنا



ولا تتصور ظاهرة مهولة كهذه
 تنتهي كما انتهت، فجأة، ويحل السكون عاتياً،
 شاملاً وكأنه العودة الى القبر..



ودعونا من خناقة حسن والصاوي..

فالصاوي أنشب أظافره في حسن بدعوى أن الاتفاق كان على
 الكشف من بعيد لبعيد فقط، ولم يكن الوثب أبداً داخلًا في اعتباره.
 وحسن يرد بغرور أن على الصاوي أن يحمد الله فحمارته من فرط
 قبحها باثرة السوق، وفي جوفها الآن نطفة حمار حصاوي منياوي لا
 يقل أجرها عن جنينه.

وكأنهما بالاشتباك الذي دار والعمامات التي تهدلت والصراخ
 والجثير يعيدون للكون نشازة بعد انسجامه، وضجته التي لا معنى لها
 بعد فحيح الضجيج الخالق.

أما حسن فقد أصبح قتيل النضارة، تلك النضارة بالذات، فلم يعد مهماً لديه أن يرى بها حماره الطريق، الأهم، الكسب. كان يأتي بنضارة الوثب تلك، الوثبة بجنيه، سعر محدد، منها خمسة وعشرون قرشاً بدل نظر أو بالأصح بدل نضارة.

أما عم ناجي فقد تطوع بتصنيع شنبر خاص لحمار حسن، بل وأحضر له عدسات أكبر، وأصبح حمار حسن ونظارته من معالم القرية، وبالذات نقطة جذب السياحة الداخلية لأهالي القرى المجاورة.

وعاث الحمار في أرض القرية بنظارته فساداً، فلم يترك أنثى على حالها، بل أحياناً كان يناوش حتى ذكور الحمير..

وأشاعوا أن حسن أرسل حماره لكتاب الشيخ حسنين، وأنه تعلم القراءة بسهولة تامة إذ على رأي عم ناجي : أنا مركب له نضارة تقرا لوحدها.

بل وفعلاً، وقد رأيت هذا بنفسى، كان الحمار كثيراً ما يرى وهو يحدق في مانشتات الصحف الحمراء، وإن بعضها كان يعجبه فيلعه بلسانه والآخر كان لا يعجبه فيمضغ الصحيفة وعنوانها ثم لا يلبث أن يبصقها وينهق بشدة علامة الضيق الشديد.

وربما لهذا صمم حسن على منعه من الاطلاع على أي جريدة أو مجلة فقد لاحظ أن القراءة بنضارة الوثب تقلل كثيراً من قدرة دابته، ويخسر بعدها بضعة جنيهات من جراء «سدة النفس» التي

تحدث لحماره، عقب كل جريدة يقرأها ويمضغها ويبصقها، وجاهلاً
سيصير الحمار، وماذا يهم: الأدب أو قلته فضلوه على العلم.



ومن يومين جاءني حسن
وسألته عن الحال، قال: لبن
وعن النضارة، قال: حديد
وعن الحمار، قال: عقبال أملتك
ثم ابتسم، مخفضاً فتحة فمه إلى أسفل، راشقاً
عينه في كمه الأيسر، طريقته في الخجل، ثم
بتنهيدة من أعماقه قال:
ألا قول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
ما دام نضارات النبي آدمين بتنفع الحمير، يا ترى
نضارات الحمير تنفع النبي آدمين
ليه يا حسن
سألت
قال: أصلي عايز أتوكل على الله وأعمل نضارة
اليه نظرت
ورفضت أن أضحك
فماذا بالله عليكم يضحك في السؤال
بالله عليكم، ماذا في هذا رغم ذاك، يضحك؟

٣٤٩

أُمِّهِ

العتب على النظر

في ليلة شتاء وجدها .
 ثالث شجرة قبل النفق وجدها .
 واحدة من أشجار «أم الشعور» القائمة على جسر النيل عند
 نهاية شارع قصر العيني .
 كان قد طفش .
 مرة أخرى طفش .
 جرب عربات القطار القديمة المركونة صدئة على القضبان لا
 تستعمل .
 وتحمل «العُلَق» التي كثيراً ما كان الخفراء يوقظونه بها حتى
 هجر السكك الحديدية، وجرب أسفل عربات النقل في «الدراسة»
 والفجوات الكائنة في سور «فم الخليج» والمقابر والخرائب وحظائر
 المواشي في «المديح»، وأشياء، وأماكن كثيرة جربها، وكان البشر
 دائماً يطاردونه، كما يطارد الكلب المسعور أو الأجرى .
 كان طفش .

منذ أن طرده زوج أمه وهو يطفش .

كان يحب أمه، وكانت أمه تحبه، وأبداً لم ير أباه، إلى أن جاء ذلك الرجل وبدأت أمه تبدو ضعيفة لا حول لها ولا قوة أمامه . سكران يأتي هائجاً، ومسطولاً مرة، يأتي ويفرغ هياجه وسطله في أعماق أمه المسجاة تتلوى، يأتيه صوت أنينها ولهاثها وقد أحاله وأحالها الزوج الجديد إلى سائل أنثوي ذائب من لحم طيع وقلب بدأ بالتدريج يلين، وعنه يتحول ويبتعد .

هكذا أحس وظل يحس . كل يوم قلب أمه عنه يتباعد وناحية الرجل ونزواته العارمة يقترب، ويتشكل، ويستجيب، ويتميع، حتى صبحاً يوماً فوجد الرجل قد أخذ أمه تماماً مثلما أخذ الموت أباه . وحين أثمر الزواج الجديد طفلاً انتفخ له بطن أمه، أدرك أن الشعرة التي كانت تربطه بذلك البيت «الحجرة» قد انقطعت وأجبره الرجل على ترك المدرسة والعمل كصبي نجار . واستغاث بالأم مستنجداً، ولم يفاجأ أبداً وهي تصبح فيه صارخة طالبة منه أن يخرس حتى لا يوقظ الرضيع . ومالها والنجارة؟! على الأقل تعلمك، يا ابن الكلب، حرفة . ابن الكلب يا أمي . أصبح أبي هو الكلب . دامع العينين قبل . . . ولكن النجار كان قاسياً وكان هو كثير السرحان والتوهان، وبالشاكوش أحياناً وأحياناً بفردة القبقاب ومعه أقبح الشتائم كان يضربه . وطفش .

صاحب أولاداً من جامعي الأعقاب والمتسولين، وعمل صبيّاً في

محلات وأرغموه على أن يدفع ثمن مبيته لدى أيهم من لحمه وكرامة الرجل الطفل الذي كبرته الأيام بسرعة، يدفع الشي الكثير.

ومرة أخرى طفش.

من كل طفشان كان يطفش، من الأعور الذي حاول أن يعلمه النشل طفش، من الأعمى الذي حاول أن يجعله يسحبه، ويشحذا معاً، طفش، فكثيراً ما كان يدفعه من ظهره بعضوه البارز أبداً. من المرأة التي أخذته ليلة وفي حضنها أدخلته، روع وطفش. والمشكلة لم تكن طفشان النهار، فمن أكوام القمامة تعود أن يجد دائماً في الأكوام، ما يأكله، لا، لم يكن يفعل كالكلاب الضالة والقطط. كان يعرف كيف يفتش وينتقي، ودائماً ما كان يعثر على شي طازج أو بالقليل غير حامض، في بحر النيل يغسله وينظفه، حتى قطع الخبز كان يغسلها وينظفها ويدعها للشمس تجففها وتسخنها استعداداً لمأدبة قادمة حافلة.

المشكلة في الليل والمأوى.

وفي ليلة شتاء وجدها . .

الشجرة جذعها من جذور ولهذا يسمونها «أم الشعور» فجذورها في الهواء، تلتحم معاً، وتجف ملتحمة، وتصنع جذعاً وساقاً، تتولى عشرات السنين تضخيمه وتكبيره ليتحمل عبء الشجرة المهول. ولأن ساقها جذور متلاصقة فهي لا تكون جذعاً مستديراً مصمتاً، ولكن يظل في الجذع فجوات هي تلك المسافات التي كانت تفصل

الجدور. فجوات كبيرة وصغيرة. مفتوحة من الناحيتين مرة ومغلقة أحياناً صانعة عشاً مسقوفاً ذا فتحة واحدة.

ذات ليلة. وهو سائر بائس ولكن غير باك، فحين يصبح البؤس هو القاعدة اليومية الليلية التي لا تتغير لا يعود الانسان يبكي بؤساً، فالبكاء، يجيء أملاً في حل أو استدراراً لأمل، أو رجاء إلى الذي خلقنا أن يهدينا للحل أو بالحل ويريحنا ولو ساعة من ألم مستمر أضاع منا حتى الإحساس بالألم.

كان الليل قد بدأ يمطر. ثم بغزارة راحت السماء تصب سيولاً تفرغ الشوارع من الناس والدنيا من الونس وتخلق في النفس شعوراً قوياً بالخوف ورغبة عارمة في البكاء.

ولجأ إلى الشجرة يحتمي من السيول التي بللته حتى وصلت لنخاع عظمه. وعلى الضوء القليل القادم من عامود نور ساطع الضوء، رأى الفتحة واقترب. وبعينه راح يتفحصها واستغرب حين وجد لها عمقاً وكأنها كهف. وللكهف من الداخل بروجيات وتجديدات، وكأنه فم عجوز يحفل ببقايا أسنان معوجة.

دخل.

وكانه الى سرداب سعادة دخل. فمجرد إحساسه أن قذائف الأمطار وسياخها المائية قد كفت عن الدق فوق رأسه واختراق أسماله، وأنه قد أصبح في مأمن، مجرد إحساسه بهذا، سعد، فرحة كبرى غمرته، وكأنه الصعلوك قد أهدته السماء قصرأ من عجب.

واستمر الشعور حتى أنساه كل ملاقاه في حياته من طرد وطفشان وصفعات وإهانات وعمر مديد مليء بالألم، لم يوقظه من شعوره ذاك إلا خاطر عن له، أن يكون في مخبئه هذا زملاء من ثعابين أو حيات أو فئران أو أي مما يعض أو يلدغ.

وإمعاناً في إرغابه كان البرق قد بدأ. وعلى ضوء البرق إذا برق والنور القادم من العامود الصامد، شبراً شبراً راح يتفحص أرض الكهف النباتي وجدرانه ولم يعثر إلا على جزء من هيكل عظمي لكلب لا بد وأنه مات من زمن، حين رماه بعيداً وبخرقة عثر عليها أيضاً في الكهف نظف أرضه، وأخيراً قرفص وجلس، أحس أنه أسعد إنسان على ظهر الأرض، أسعد من أي ملك أو غني أو الفرماوي نفسه صاحب كل عربات الكارو والخضر.

ومن فرط سعادته راح يقاوم الخدر الذي بدأ يدب في جسده ويقوده إذا استسلم إلى نومٍ ما ذاقه في عمره أبداً. إنه هنا ليس في ملك أحد كي يطارده أحد، وليس قريباً من مخزن أو دكان ليأخذوه بالشبهه، ولا عسكري يستطيع أن يراه، ولا أنس ولا جن أو بشر. راح يقاوم حتى يستمتع بشي حرم منه على الدوام منذ كان لهم بيت وكان له أب وكانت له أم حنون يجد في حضنها الأمان والدفع والحماية من كل شرور البشر.

يقاوم الخدر المؤدي حتماً إلى النوم. بإرادته يقاوم ومعه البرد الشديد يساعده، وكلما أحس بالدنيا خارج الكهف ترعد وتبرق والمطر بالحاح ينهمر، وأحس بنفسه محمياً بالشجرة العجوز وحضنها عن

هذا كله، كلما أحس بشعور الناجي من غرق. المحمي في قلعة
حصينة، حولها وحوش الدنيا كلها تعوي وتلمظ، وهو يخرج لها
لسانه اطمئناناً وتأكداً أن أنيابها تماماً بعيدة عنه وأن زئيرها، زئير
العاجز أن يناله، وأن الدنيا أمان مبطنة بالقטיפه، وقطيفتها الزغبية
النباتية أصبحت تحنو عليه، ويسري إليه منها دفء لا يعرف مصدره.
وصحا.

في الضحى صحا.

المطر كان قد كف ولكن ضجة الشارع والترام بدت كما لو
كانت قد مضى على بدئها عشر ساعات. ظل يحرق طويلاً من خلال
فتحة الشجرة إلى المارة والعربات ويجتر نصف نائم، عمره كله حتى
يتذكر اللحظة التي دلف فيها إلى مثواه الجديد ذاك. وعمره كله كوم
وليلة الأمس وحدها كومة أخرى وثمة فاصل حاد باتر بينهما.

وبأيدي واهنة وأذرع متراخية كسولة راح يتحسس الجدار
الداخلي للنفجوة، كأنما يقلب بين أصابعه محتويات كنز عثر عليه
أخيراً وأصبح ملكه وفي حوزته.

وأحس أنه جوعان جوعاً لم يحدث له في حياته أبداً.

ولكن كان عليه أن يغسل وجهه أولاً. والنيل بجواره. يا له من
قصرٍ فاخر. حتى الماء يجاوره. والأكمنة وافرة لقضاء حاجته.

وكأن أيضاً، حين انحلت مشكلة مأواه ومنامه، تفتحت أبواب
الرزق في وجهه. فما كاد يخطو بضع خطوات في الشارع حتى

طلبت منه سيدة هبطت لتوها من الأوتوبيس أن يحمل عنها حقيبتها. ورغم ثقل الحقيبة، فقد أحس بها في خفة الريشة. ولأول مرة في حياته يفطر فولاً وطعمية، وبصلاً، ويشرب شاياً ويدخن سيجارة من أولها لآخرها.

وسرح في شوارع المدينة. وكان رزقه واسعاً في ذلك اليوم. فحين جاء الليل كان في جيبه ما يكفيه لدخول سينما الروضة ويعشيه ويبقى معه أيضاً «ريالاً» يبدأ به يوم غده.

وأحس وهو عائد من السينما بعد أن شاهد فيلمين أنه في طريقه إلى مكان أصبح عزيزاً عليه تماماً. أعز عليه من بيت أو مكان سكنه. شيء واحد كان يخنقه إذا فكر فيه، أن يعود ليجد المكان مشغولاً بقاطن آخر اكتشفه. ولكنه كان دائماً فاتحاً فاه، فارغاً، ينتظره، ولولا أنه خاف على نفسه أن يجن لاندفع يحتضن جدرانه من الداخل ويغني لعبد الحليم حافظ ويصرخ في المارة جميعاً: لقد أصبح لي مأوى. بل إن سعادته القصوى كانت أنه قد أصبح له شيء يخصه. مكان ينتمي إليه. وكأنما عثر على عائلة لا أب فيها يموت ولا زوج أم يقطع جسده وينهش كرامته. أصبح له هو، التائه في بحر الحياة، مأوى.

ولكن الليلة كانت باردة، وظل مغلق الجفنين والنوم مستعص عليه، وماذا يهمه حتى لو قضى الليل بطوله ساهراً، في الصباح أيضاً سيكون المكان ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد، ولا يوقظه، إذا نام، من نومه أحد، مكانه، بيته.

ولكن البرد ازداد حتى بدأ يرتعش . سيقضي نصف يومه التالي يبحث له عن خرق أو أجولة قديمة تغطيه فالبرد أصبح لا يطاق . مهما قرفص ، وحشر نفسه وألصقها بالجدار الداخلي للشجرة . بل حين راح يحك جسده في الجدار النباتي الناعم بالمقارنة إلى الجدار الخارجي الخشن ، لم يواته الدفء أبداً .

أحس ، قرب الفجر ، شيئاً فشيئاً ، أن ثمة دفئاً ما قد بدأ يشملها ، أيكون دفء الحمى ؟ أيكون قد أمرضه البرد ، وأصبح في طريقه إلى عطس وكحة ومرض إذا داهمه فحتماً سيقضي عليه ؟ وتحسس جبهته ، وقارن حرارة يديه بحرارة جسده ، لا ، لم تكن هناك حمى ، ولكنه يحس بالدفء ملموساً لا يعرف مصدره ، فقط حين - بحكم العادة - ملس على جدار الشجرة الداخلي ، أحس أن الحرارة تنبعث منه . وخاف ، حتى كادت الرعشة ، رعشة الرعب من هذا الدفء الغريب المجهول ، تعاوده .

ولا بد أنه خرف أو بدأ يخرف ، فقد لمعت في ذهنه الطفولي فكرة ، أن الشجرة العجوز قد بدأت تدفئه ، وتفعل مثلما تفعل أي أم حين ينكمش ابنها في حضنها ، وتحس أنه بردان ، فتدفئه . . . وتخريف أو لا تخريف ، أعجبه الخاطر تماماً واستراح حتى كفت أسنانه عن اصطكاكها ، وأطرافه عن الرعشة ، ووضع رقبته تحت ذقنه ثم دفن رقبته بين ساقيه وكأنه يتخذ وضع الوليد في بطن أمه .
.. ونام .

وكما انتهى إلى الشجرة تماماً وأصبحت ملجأه وملأذه من العالم الخارجي الشرير ، حتى أصبح يأوي إليها في عز النهار هرباً

من القبط حين جاء الربيع وجاء معه الحر، فوجيء ذات يوم وكأن الشجرة كانت ضائعة هي الأخرى، وبلا قريب مثله، وبدا كما لو كانت فجوتها تتحور لتأخذ شكل جسده، بل فوجيء ذات يوم بعرق داخلي منها يبرز ويمتد إلى الخارج من فتحتها ويواليه بالطبقة وبالسقيا حتى لفي أسابيع قليلة يكبر ويكاد يملأ فتحة الفجوة ويصنع لها باباً يكاد يخفي الفتحة، بحيث لم يعد يعرف مكانها سواء.

ودون أن يدرك هو ما يحدث، وبالطبع دون أن تدرك الشجرة، بدأت علاقة أكبر من مجرد الانتماء، والحنان المتبادل، والبرودة تغمره بها صيفاً، والدفء تغطيه به شتاءً.

أحبها أكثر مما أحب أمه، لقد كانت الحضن والبيت والظليلة والعائلة وكل ما يمت إليه في الدنيا.

ولا يدري كم من الزمن مضى، عام أو عشرة أعوام، فالزمن كان قد توقف به عند اللحظة التي اكتشف فيها أم الشعور، تلك التي دبت الحياة في كل أنحائها تماماً، واخضر كل مكان متخشب فيها، ورغم أنه كان قد وفق إلى «صنعة» وأصبح صبياً في محل «دوكو»، ويكسب، إلا أنه لم يستطع أن ينتزع نفسه منها، ومن جوفها «الحضن».

ولكن شيئاً فشيئاً بدأ يحس أن الفجوة تضيق عليه، إذ كان - دون أن يلحظ - قد كبر، وكبرت معه سيقانه وأذرعته حتى جاء اليوم الذي لم يعد يقدر أن يحشر نفسه داخلها.

وهكذا الدنيا، فقد كان عليه ذات يوم أن يجمع حوائجه التي
خبأها في ثنايات فجوتها، ويودع الحُـن الذي أصبح من الداخل
أخضر كله، ويذهب ليقاسم زميله في المحل، وصديقه، الحجرة
فوق السطح التي كان يقطنها الصديق وحده.

وليال طويلة قضاها لا يعرف كيف ينام على فراش وهو الذي
تعود على حضنها الحي، وعلى وضعه الجنبي المريح داخلها.

ولكن الأيام تمضي، ويتعود الرقاد فوق فراش، ويقارب سن
البلوغ، ويبلغ، ويلهيه العمل الشاق طوال النهار والسهر الطويل مع
الصحاب والشلة حتى نسيها، بل نسي الشارع كله وقد انتقل بعمله
وسكنه الى شبرا.

وذات يوم أرسله الأسطى في مشوار لقم الخليج.

وفجأة وجد نفسه يقفز من الأوتوبيس عند نهاية قصر العيني،
ويسرع إليها ووقف مشدوهاً يرقبها.

كانت أوراقها الخضراء كلها قد جفت وأعضائها الجديدة
والقديمة تخشبت وبابها النباتي اندثر.

كما لو كانت قد ماتت.

وأحس بغصة ما قبل البكاء.

وبكى.

أمه.

٣٦١

الخروج

العتب على النظر

تشنجت الرغبة في الساق أن ترفس. أمر أقوى من الرغبة صدر. الحركة والخوف من الحركة. التجمد الذي يسري ساعة الضياع. لا. ليس أعمى. هو يرى، ولكن ما يراه ظلام. متى كان أعمى تماماً؟ ومتى بدأ «يرى» ظلاماً؟ هناك فرق. يرى ظلاماً، ولكنه يرى. يراه. المؤكد أن رأسه تصله رؤيا الظلام.

مذهل ما حدث. لحظة أن يتكامل الوعي بالموقف، يضيع الموقف.

يضيع المفتاح والحل. ويضيع هو.

من أين جاء الموقف؟ بل هو نفسه من أين جاء؟ ومن هو؟ لم يكن يسأل. ولكن السؤال هناك. بل كل ما هناك أسئلة.

ولا جواب. لا جواب.

تكاثر الأسود في الظلام.

من فرط التراكم بدأ يحس بالظلام ثقیلاً وأثقل أثقل.

إنه يختنق.

الصدر يرتفع وينخفض. الهواء يمر بحلقه. ولكنه يختنق.
 تشنجت رغبة أخرى في ساقه، أن يرفس.
 حتى والأمر الناهي موجود، رفس.
 ومرة ثانية رفس.
 فالأولى لم تذهب بعيداً.
 ارتطمت بالمستحيل.



عقب العشاء، والعائلة كلها هناك، وكل فرد فيها قد انتحي
 ركناً من حجرة القعاد يلتهم البطيخ، تكرر هو، وبينما كان شيء
 يرقق في صدره ويقول: أنا أسعد مخلوق على سطح الأرض، كان
 فمه يتمتم: الحمد لله. ألف حمد لك. ألف حمد.

بعد ثمان وأربعين ساعة كان كل شيء قد انتهى.

وحيداً كان جالساً في نفس الحجرة، يحرك كتفيه لما فوق
 جذعه ويجأر بلا صوت: لماذا يا رب.. لماذا؟ باكياً ولا يذكر بالضبط
 ما حدث وكأنه قد مضى عليه عام..

ولكن البداية يذكرها تماماً. لحظة دق الباب. فتح ابنه الأكبر.
 بلا وعي، أصاحت الأسرة للحوار الذي دار وطال، وبدأت ابنته
 تتسلل ثم زوجته، ثم أخيراً هو. وحين وصل لم يكن ابنه هناك.

وارتفعت الأصوات، وارتفعت الأوامر. اذهب. اذهبي. هاتي
 الملابس حالاً..

في القسم كان النور معتماً. والنظر. ما هذا؟ بالتأكيد ليس حلماً ولا كابوساً. ولكن الولد في الحديد، من القسم الى النيابة. السيارة باسمه. ولكنها سيارته. بضائع مسروقة في حقيبة العربة.

بضائع من؟ أودعها عندي صديقي لبيعها. الصديق يأتي نافر العود، مؤكداً أن شيئاً من هذا لم يحدث. المبيت في قسم البوليس. الولد يكاد يبكي من الغيظ، ولكن شيئاً ما في طريقته لا يعجبه. المحامي، أكبر محام. خمسمائة جنيه فوراً. دفعها صهره.

مفتخر الملابس ذهب المحامي في الصباح. مفتخر الملابس خرج.

استمرار أربعة أيام. في نفس حجرة القعد تصرخ زوجته:

لو كنت ربيته. طالع لك، طالع لأخواله. طالع لعيلتكم، أخوك حرامي. اخرسني. اخرس انت. لم يكن قلماً ولكن يده هوت بنصف غضب. قلمها كان غاضباً وحاداً ومليئاً بالكراهة. مليئاً بالكراهة لم يؤلمه القلم وإنما كشف له الكراهة عن وجه غريب لم يره من قبل. وجه امرأة عاشت معه خمسة وعشرين عاماً تكبره. غلالة رقيقة، كجلدها الدهني، كانت تستر الكراهة، تحيله أحياناً إلى ضحكة سعادة وربنا يخليك. تكرمش الجلد كارهاً، نافثاً حقداً معقداً أسود.

رفع يده. يصفع. تعلق الابن الثاني، والبنت في الذراع.

العتب على النظر

دفعهما. اندفعت البنت، ودفعه الولد، دفعة غليظة أسقطته فوق الأرض.

قام هاجماً كنمر مفترس. ماذا حدث؟ هل ضربه الولد لكمة أداخته، هل هي لكمة منه، وصفعة منها، وعرقلة من الابنة؟ أنت طالق.. اخرجي من بيتي أنت وأولادك الحرام. احرص.

قالها الولد.

اخرج أنت يا كلب.

قالتها الزوجة.

بلاش قلة أدب..

قالتها البنت.

في عملية جمع الملابس. سيحرقهم جميعاً. خائف على نفسه أن يتوقف قلبه عن الدق ويموت قبل أن يحرقهم. مرارات الدنيا كلها تتجمع في حلقه فأحد لا يأتي ويرجو أن يبقى، لا أحد.

في حجرة الفندق الرخيص فرت من عينه دمعة، لحقتها دموع.

من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام. لن يهون أبداً. لن يهون. والواجب سيؤديه كاملاً. سيخرج الولد من السجن أولاً ثم يتفرغ للأفعى وأولادها. على باب القسم كان ينتظره صهره. قبل أن يقول أهلاً كان وجهه يطالب بالمبلغ. حسابه في البنك يسمح تماماً بالمبلغ ولكن النقود باسمها. الصهر لا يفهم. بوجه صارم يطلب

موعداً. بعد غد. بعد غد وإلا. لا داعي لـ. .إلا. بعد غد يعني بعد غد.

قال له رئيسه : تأخرت. هذه ليست وكالة. لم لسانك. هذه قلة أدب. خد. آه يا كلب. خد. وما لم يستطع أن يفعله في حجرة القعد، فعله هنا في المكتب الفاخر. وعلى صوت الاستغاثات جاء السعاة والموظفون. وتحقيق طويل طويل. وإيقاف فوري عن العمل. في حجرة الفندق المكتومة، قال: على الأقل ما أزال حياً، لم أمت بعد.



لم يعد ذاك البياض الناصع أبيض، أغبر البياض، واحتقنت جزئياته وتعقدت وانبثقت شبكة عروقه كالعنكبوت الأحمر جرى فيها دم. في كل ثانية يتوالى التغيير. ويتعقد أكثر. انتفاخ بدأ ينبض. انبعاجات. نتوءات. أشياء كالغضاريف، مكونات مجمعة مبعثرة لا معنى لوجودها معاً بالمرة، تكبر وتتقارب وتكبر وتتباعد حوافها وتتداخل. ثم فجأة وكأنما قد أضيف إليها عنصر هام فعال ناقص يصبح لكل شيء معنى. معنى واحد ينتظم الكائن الجديد كله. معنى واحد يعطي معنى لكل ذرة وجزء وجزء. وتتظم الأجزاء والجزئيات والكل حركة واحدة، ذات معنى محدد واحد. الحياة أنا. أنا أحياء. الذرات تأمر الذرات. العضو يأمر العضو. الأمر الأكبر صادر من أعلى.



في الصباح رد تحيته شاويش الحجز بقرف. ابنك فقاً عين
مسجون مرحل. برز له من باب الحجز وجه رفيع أصفر. ابنك
مظلوم. المجرم حاول الاعتداء عليه بالقوة ولو كنت مكانه لفقات
العينين. أين الولد؟ أمام الضابط يا حضرة الضابط، كلمة. ولا كلمة.
س سؤال. هل هتك عرضك فعلاً؟ أرني نفسك. يغلي الولد بالغضب
يثور. يضربه الضابط.

يثور الأب. يضربه العساكر. وخارج القسم يلقونه.
يعود مغلوباً يسأل. المسجون أخذته الإسعاف الى المستشفى.
أمام قسم العيون ينتظر ممنوعاً من الدخول. بالرشوة يدخل
يا دكتور: العين انفجرت، خيطناها، وهو وحظه.

لو ضربت سنستأصل عينه الأخرى. أعمى هو قد أصبح. إلى
أين يذهب؟ جرياً إلى المحامي المفتخر. المحامي مستريح تماماً
يقول، المحضر. المسألة في يد الضابط. وفي يد الضابط يدس
خمس ورقات بمائة جنيه. فيدفعه الضابط كمن أصيب بلدغة. يفتح
محضراً بمحاولة رشوة والشهود اثنان من أمناء الشرطة. الظلام الكامل
حل. شعاع ضوء. المحامي جاء وتوسط. الظروف حرام. راعيها يا
سعادة الضابط. كله منها. حين كان يغضب منها أو تغضب منه كانت
الدنيا ن ظلم. ليصلحها الآن وفوراً. التاكسي حين يركبه يجده ذاهباً
إلى شبرا. يهبط في منتصف الطريق يتطلع. لا يعرف أين هو. الحي
غريب. وبيته يبدو في آخر الدنيا. في آخر الدنيا.

وحين يصل يجده مغلقاً، ولا أحد في الشقة. على البسطة يجلس. أراد أن يبكي، كان قد وصل إلى ما وراء البكاء. انتظر. عاماً كاملاً بدا انتظاره. جاءت ومعها الابنة. ما إن رآته حتى خلعت فردة الحذاء، شرر عينيها يصب اللا تفاهم المطلق، فتح فمه. هبت عاصفة من فمها. أطل الجيران. اندفع إلى الشارع يجري. قابله صهره. الخمسمائة جنيه. وصل أمانة يستحق الدفع اليوم. الدفع أو الحبس.

في حجرة الفندق أصبح التنفس صعباً.

لا، ليس الآن أرجوك أيها الموت ليس وأنا مهزوم ومسحوق.

انتظر حتى أعود إلى السباق واسترد الجميع. الزوجة والأسرة والأبناء. وبالذات هذا المحبوس في جريمتين. ليس الآن.

دق الباب. دخل أخوه. استراح تنفسه. لم تعد المسألة إذن سراً. استراح تنفسه أكثر حين بدأ الأخ يؤكد له أنه لم يخطيء، وأنه كان بالضبط سيفعل مثلما فعل. ولكن. آه من لكن حين تخرج بعد نهاية المواساة. ولكنك كان من الممكن أن تفعل وتفعل. وكان كان له خيار فيما يفعل وفيما لا يفعل. ساعة القضاء يعمى البصر. ويعمى الفعل. فهو أبداً لم يفعل. إنه مسير فيما لا يفعل. دفعة إثر دفعة وكأنه كتلة لا وزن لإرادتها. النهاية، معاك فلوس؟ وتنحنح، وآه من الأخ حين يتنحنح، وينخنخ وفي النهاية يستأذن.

العتب على النظر

٣٧٠

وجاءت أمه وخالته، أمه تنحوا عليه باللائمة، وخالته تطبطب.
 أهذه آخر تربيتي فيك. بكرة كله يتعدل. متفائلة يا خالة
 كعادتك تفاؤلاً دائماً لا معنى له بالمرة. مع السلامة يا ناس.. اتركوني
 واطفئوا النور.

وفي الظلام أحس أن الظلام يتكاثر، وأنه يجثم على صدره،
 ولأول مرة كان يرى الظلام رأي العين وتشنجت الرغبة في ساقه أن
 يرفس.



وكان مفروضاً أن يؤكد له انبثاق الرغبة أنه لا يزال حياً، وكان
 مفروضاً أن يدفعه الإحساس بالحياة أن يفرح. ولكنه لم يفرح.

فمن زمن طويل والإحساس عنده بالحياة لم يعد مرادفاً
 للإحساس بالسعادة أو الفرحة. منذ زمن بعيد جداً حدث هذا، بعد
 أن ذاق كل أوليات الأشياء، أول بدلة، أول نجاح، أول جنينه، أول
 نظرة حب، أول ليلة مع امرأة، أول ليلة مع امرأته، أول ترقية، أول
 أمل. منذ زمن سحيق لم يعد هناك أمل، كله تكرر للأول، حتى
 الإحساس بالحياة لم يكن يحمل إلا مزيداً من الإحساس بالمسؤولية،
 الحياة أصبحت مهام، كلما أحس بها عليه أن يربط نفسه بالتزام
 ويسرعة أكثر، لتحقيق هدف، ولا نهاية لتحقيق الأهداف، ف وراء كل
 هدف هدف، و وراء كل هدف هدف.

ذات مرة كان أقصى أحلام حياته أن يكون إيراده الشهري الثابت
 مائة وخمسين جنيهًا، حين أصبح يصرف مثلها في اليوم الواحد

أصبح الهدف خمسة آلاف وعشرة وكلها ثابت أيضاً. أن يخلف ولداً أصبحوا ثلاثة وبنثاً. أن يتعلموا ويتخرجوا. تخرجوا وأصبح الهدف جديداً. أن يعملوا، وهدف أبعد. أن يتزوجوا. وأبعد وأبعد. أن يكون له أحفاد. أعز الولد ولد الولد. وهي. أقصى أمله كان أن تنظر ناحيته عن عمد. حين نظرت أصبح أن يكلمها. حين كلمها. يقبلها. والزواج كان مستحيلاً. تحقق. أن يلعب بذيله، ويستمر، لعب، أن يلعب أكثر، لعب أكثر. يحافظ على «السعادة الزوجية»، حافظ وجرب السعادة والتعاسة، والخناق والصلح، وتهديد بالطلاق، والطلاق، والندم، والعودة، والصلح، وشهر العسل الثاني والثالث والرابع حدث ويحدث، كل ما في الأمر أنه أصبح مكلفاً أكثر.

كان مفروضاً أن يدفعه الإحساس بالحياة أن يسعد. مثلما سعد أول مرة. أن يشفى.. يشفى من ذلك المرض العضال. التهاب المفاصل الذي أرقده، وجعل حلم حياته أن يتمكن من السير مجرد السير، مرة أخرى دون مساعدة أو شماتة من أحد. عاد يسير، ويمشي. ويجري أحياناً، ويلهث، ولم يحس أبداً أنه سعيد، حتى وهو يتذكر كيف كان كسيحاً وأعرج ومكبلاً، يقبل يده ظاهراً وباطناً أن الحمد لله، ولكن هذا الإحساس العميق الشامل الصامت بالنشوة، إنه سعيد حقاً وصدقاً، لم يحدث، وإن حدث فلثوان معدودة بالضبط كالإحساس أنه الآن، حين نقولها، قد مضت ومضت، ومرت ثانية، صحيح ليس مثلها مثل أي ثانية أخرى، ولكن الغريب أنها لها نفس طولها، ثانية أخرى مضت.

عريضاً، واسعاً، شاملاً، كان إحساسه بالحب والألفة والتواصل مع كل باقي الكون. في النهار يحب الشروق حين تبدأ الشمس بغمزة جفن في الأفق، تشرق. والنهار رائع بوضوحه، وإشعاعاته، وتحقق كل شيء فيه، كل أحلام الليل تتحقق، إذا لم يكن صباحاً، فعلى الغداء، فإذا صعبت لا يأتي عليها بعد الظهر، وما أروع العصر حين يجيء كالذهب الرقيق السائل يسدل فوق كل شيء وقد تحقق، كل أمنية وقد حققت النهار وتحقق النهار بها، والآن جاء وقت أن تغلف بالعصر الملون الشفاف وتصبح هدية ذلك اليوم. الليل جميل، نجومه هناك تشرق بفرحة الوجود مع غيرها معاً وتتلاها، تزف القمر وتتلاها وتشرق. كل شيء حلو ويستحق المحبة. الإحساس برجلته المبكرة، يحب شكله في المرأة، يطيل التأمل فيه ويحبه، الكلية التي اختارها وحقق اختياره، والمهنة، ومكان التعيين، ولحظة تسلم العمل، كل شيء، حتى بصعوباته، يسعد. حب واسع، شامل لا نهائي الامتداد، يشمل كل شيء، وكل انسان، يحب القرية بيت بيت وانسان انسان، والمركز، واسم محافظتهم، ومصر، والدنيا، يحب الدنيا. والعالم. حين تذكر أمامه أو يذكر كلمة البشرية، يحس بالجنس البشري، جسد دافئ بالحياة. هادئ، صاخب، متدفق. يسبح فيه ويشربه ويغوص في أعماقه، ويطفو فرحاً عابثاً، مندفعاً فوق سطحه..

وإذا بذلك الإحساس، كالبحر حين يتحول إلى بحيرة، والبحيرة إلى فوهة. تنكمش غلالة الحب وترق، وتتحوّل إلى بقعة،

بالكاد عائلته، بالكاد وبالكاد عائلته الأصغر. فابنه الأوسط قد اخشوشن تماماً ونمت له ذقن وأغرزت، وبدأ حتى يصيبه، كخاله بعض الصلع. ابنه الأكبر اتخلع بعواطفه تماماً وأصبح على وشك أن يقيم له بيتاً آخر ويتزوج. تكاد العلاقة تصبح رسمية. لم يعد يستطيع أن يلعبه إذا غاظه أو حتى يعلي عليه صوتاً. حب، هذا حقيقي، له ولأخويه، ولكنه حب المتأكد أنهم مستقلون وقادرون، بل وأصبحوا أنداداً يكاد لولا الحياء يقول لأبيهم: ياسيد.

البنات الحلوة الطفلة ذهبت أيام اللعب معها والضحك والقبلات والأحضان التي وكأنما كان يحضن بها الدنيا، أو بالأصح السعادة كلها الكائنة في الدنيا، حضنه، شيئاً فشيئاً قد أصبح يملؤه جسد يتضخم حتى صار جسد أنثى لا تتفتح كل مسامها حين يضمها وإنما يتكور وينكمش ويستقل ويتحدد جسداً ثم في النهاية تصبح امرأة أخرى.

وزوجته الغرام، الغرام حين يطول يصبح عادة غرام، وقصة الحب حين لا تنتهي كما بدأت، فجأة يصبح لها خريز مستمر واثق موثوق به لا يحمل مفاجأة أو نكسة. ومن التكرار تتشكل زمالة اثنين أصبحا فرقة لا يتباريان وإنما معاً، يلعبان مع الحياة اللعبة. واللعبة طويلة مهما طال لا بد أن تنتهي كالدائرة المفرغة، مشكلة لا حل لها إلا بحلها..

بالكاد لم يعد قادراً إلا على حب الأسرة.

بل في الواقع ذكرياته عن الأسرة. فالطفل الذي يحبه، طفلاً، كان، إذ هو الآن رجل كان ذات يوم ابنه، والزوجة كانت غراماً، والحب كان حباً، حباً لذاته، اليوم أصبح تعلقاً شديداً، أصبح أنانية، وكأنما هو الحب للنفس يتخذ أبعاداً أخرى.

كل شيء استحال وتغير. كان يستطيع أن يواجه الدنيا بجيب ليس به سوى قروش. الآن يرعبه لو نقص الحساب رقماً أو خانة. كان حين يهدد أن يترك البيت كان يفعل هذا بإحساس من هو على يقين مطلق أنه يستطيع، من جديد، وفي التو، أن يبدأ حياة أخرى. الآن يرعبه مجرد أن يتعد عن الدار أو أن يعد أنملة عن الخط الذي فرضته عليه حركته مع الدنيا. الدنيا التي تلخصت في خيمة صغيرة مركزها حجرة القعاد في بيتهم وأقصى أطرافها رحلة لأكل العيش ولجلب ما عند محيط الدائرة والخيمة إلى مركزها. مركز الدائرة المفرغة والخيمة المفرغة إلا منه ومنها.

ينكمش. يضيق. يتغير. الطعم يتغير. ما يمتع لا يمتع. ما يشبع لا يعود يشبع. والحياة يتغير لها الهدف. من وحده مسئول عن الإبحار إلى فنار يتحقق. إلى فنار بعد فنار. إذ به يصبح مسئولاً عن صياغة حياة «سوية» للأولاد الثلاثة والابنة. من أجل أن يصوغ هذه الحيوانات لا بد أن يعيد صياغة حياته هو، لكي تصبح مثلاً يحتذى. بجماع قواه يمسك بزمام كل منهم. وبالزمام العام لا يريد أن يفلت، وشيئاً فشيئاً لا يعود يعرف أهو السجان للخنق الذي يريد أن يمر كل شيء فيه حتى يستقيم ويعتدل، أهو السجان أم في الحقيقة السجين؟ حريته تضيق إلا عن الأفق المحدد بصرامة، إذا أرخى العنان فلت الجميع.

إذا شدد تماماً ينفلت الزمام. بأي قوة قاهرة يمنع القبضة أن تكون أضعف. حتى يستغرقه الأمر كله ويتلخص العمر في خطوة دءوب نحو ماذا، نحو أن تنتهي المهمة، أن «يتحرر» وأبداً لا تنتهي المهام، فانتهاه المهمة لا يفعل إلا أن يكشف مهمة أبعد. والعائلة التي كان أفرادها طوع بنانه تشتد فيها السيقان وتقوى وتخشن. بصعوبة يستطيع أن يغير إرادة أو رغبة. الشجيرات أصبحت كل منها شجرة، رفعت الخيمة المحكمة التي كانت تضمها، رفعتها فوق قممها فبدت في النهاية كالعلم الممزق، كبروا عليه، وصغر عليهم، ولم يعد في النهاية إلا صرافاً عليه باستمرار أن يملأ الخزانة، وويله إذا يوماً فرغت، فسبب وجوده والمبرر الوحيد للخضوع له يكون قد تبدد.. كم أشرفت هيمنتته الباقية أن تنهاوى، وكم تغابى وأحنى رأسه للعواصف كي تمر ليبقى كل شيء وكأنه على حاله لم يتغير، وكأن العائلة متماسكة، هو الأب القوي وهي الأم المثلى، وهم الأولاد الطيبون الناجحون باسم الله ما شاء الله.

ولكن، ، كان محتماً، ولا مهرب منه، يوم تتطور فيه مشادة، أو يحدث حادث، أو يشتبك مع ولد، أو يحدث لأيهم مشكلة، أو يدق الباب ويدور حوار يطول وينتهي إلى تهمة، وتتمزق الأقنعة.

وفي الصباح كانت الغرفة أضيق وأثائها أكبر، وكان النور هناك، ولكنه يوضح كم الدنيا ظلام، وكم الهواء قليل، وكم هو يقل وسادر في إقلاله، وكم هو يختنق، ويحس أن كل ما كان يجري لم يعد يجري، كل ما كان يتفتق عن العقل من حيل ومن حلول، لم

يعد يحل أو يربط. أطبق الواقع الرهيب ولم يعد يقدر أن ينبس،
وتشنجت الرغبة في ساقه أن يرفس. رفس. ارتطمت الساق
بالمستحيل. مستحيل أن يخرج. العمر فات. والواقع أكبر من كل
الطموحات والإرادات. وما يهمس له بالتمرد ما هو إلا شيطان شاطر.
عليه أن يطرده ويستكين إلى حياته فلم يعد في العمر قدر ما مضى
منه، وبيته وأولاده ومشاكله هي عمره الذي فات ولا بد أن تكون
عمره القادم أيضاً.

أنا غلطان..

سيل من الصراخ والعويل مختلط باللغظ.

غلطان..

عيون تحدجه بالاتهام والتعذيب وتسوق له، شتائم، جارحة،
يراها وينزف لها، ويبتلعها.

غلطان. غلطان يا ناس. غلطان. أنا المسئول عن عبث الولد
وسجنه، مسئول عن إخراجه وتزويجه، مسئول عن الدورق الذي
كسر والتليفزيون الذي لا يعمل، مسئول عن عدم تطبيق الشريعة
الإسلامية والتعذيب في السجون والحربين العالميتين: الأولى والثانية
وإذا اشتعلت الثالثة أكون أنا المسئول. غلطان.

وحين سكت آخر صوت في البيت وآخر احتجاج، وكأن شيئاً
ما كان، تشنجت الرغبة في ساقه، بحدة، أن يرفس..
ولم يستطع.

كانت آلام المفاصل الحادة قد عادت تشل ركبته.

أخرج الولد من السجن، وقيدت القضية جنحة، واستعاد عقد الشقة وأصلح التلفزيون، واصطلحوا مع الجيران، وبدأت الزوجة تتحدث عمن ترشحه لخطبة الابنة، وتقطع الحديث بضرورة شراء جهاز تكييف فهي لا تنام من فرط حرارة الجو وصوت جهاز الجيران..

وحين ناموا جميعاً، وبقي هو ساهراً، لم ينم إلا بعد أن خبط رأسه في الحائط عدة مرات..



في منطقة معزولة من شط الليل عند القناطر الخيرية، جلس وقد مدد ساقيه الحافيتين في الماء. الجو حار ولكن النباتات الشيطانية تلتهم حرارته، ويصدر عنها وعن ماء النيل رائحة كرائحة ما قبل نشأة الحياة. الصنارة تغمز، غمزاً ثقیلاً.. دفقة فرحة غامرة تنداح في صدره. قلبه أخيراً ينبض ذلك النبض المدوي العالي، كنبض أول قبلة. أخرج السمكة. بلطية فتية وزنها لا أقل من كيلوستكفل بمصاريف اليوم وما تبقى من النهار ويفيض ما يكفي علبة الدخان، ويبيت الليل عند الخفير في عشته وهدية لابنته السمراء المليئة بحيوية البلطى ودفء ماء النيل في الصيف.

وكشبح يطفو من الماضي داعب ذاكرته ما قرأه في جريدة تركها صاحبها في الحداثق، ورأى فيها صورته، صورة بطاقته الشخصية العجوز الجامدة الملامح: خرج ولم يعد، رجل في الخمسين أسمر

الملاح حليق اللحية والشارب أبيض الشعر، يرتدي جلباباً
مقلماً وشبشب زنوبة، من يجده يتصل بهذا التليفون أو بالعنوان..
خرج ولم يعد.. خرج ولن يعود أبداً والحياة لا بد قد سارت من بعده
أفضل بكثير مما كانت تسير به.
أبداً لن يعود.



لم تعد الساق حين ترفس تجدي. تشنجت الرغبة هذه المرة
في الرقبة، بجماع رقبتة دق بمنقاره على الجدار الأصم، رن المنقار
مرتطماً بالجدار. بآخر ما تبقى في قمة البيضة من هواء امتلأت
حوصلته فسدد منقاره ودق. انتهى الهواء وانهاه برأسه المدبب على
الجدار مختنقاً، دقاً مستميتاً يدق، آخر دق.

لا يعرف لماذا يدق، وإلى أين هو صائر، ولكنه مختنق يدق
ويدق. لا يعرف إلا أن حياته كلها تلخصت في أن يدق ويدق!
وفجأة..

انهارت قطعة دقيقة، وأخرج المنقار منها، ورغماً عنه تنفس،
هواءً كثيراً يدخل الحوصلة ويزيده نشاطاً ينهال به على الفتحة
يوسعها، فيخرج رأسه، ويحطم ما تبقى من الجدار فيخرج جسده
الكتكوتي المرتعش.

النور باهر يغلق عينيه.

الهواء كثير وفسيح ودنيا واسعة واسعة أوسع من كل قدرته على
الرؤية . .

وانتفض يسقط ما علق بجسده، وانطلق في مرح لا نهائي
يجري .

لماذا أصر على الدق والدق حتى كسر الجدار؟ وهو لم يكن
يعرف أنه جدار؟ وأن خارجه كل ذلك النور والاتساع؟ أهي قوة
مجهولة داخله كانت تعرف؟ أم هو الضيق بالاختناق دفعه أن ينقر
وينقر ليموت نقرأ وضيقاً؟

لا الكتكوت يعرف.

ولا هو قد عرف.

فالإحساس الطاعني الوحيد لكليهما أنه الآن في عالم آخر..
فسيح جداً.

٣٨١

الختان

العتب على النظر

بعد سلسلة من الميراث والتوريث، والقطع والبيع والموت والميلاد، آبت الجميزة العجوز إلى ساق ضخمة سميكة قصيرة، تنتهي إلى فرعين اثنين ورثهما الشقيقان محمد الهادي الكبير والهادي محمد الصغير. ونحن كنا أبناء محمد الهادي الكبير. وبمثل ما قسمت الجميزة العجوز بين الأخوين، قسم البيت الكبير أيضاً. ولكن الجميزة كانت أروع ما في طفولتنا كلها. أروع من ليالي القمر، وصيد السمك، ونزهات الحقل، ومشاهد الصراع الحافل بين زوجة عمنا وأمننا. كانت شيئاً خرافياً، نسأل عنه الأباء والجداات وعواجز القرية فلا يدرون أهى نبتت «شيطاني» أم أن جد جد جدنا الأكبر الهادي الأول هو الذي زرعها؟. كانت مشار دهشتنا، مختلفة تماماً عن أي كافورة أو نخلة، خشنة وقد حفر الزمن بأظافره وأنيابه في ساقها الغليظة السميكة فصنع معه بروزات وشقوقاً، وحفائر، وجروحاً غائرات، وندوباً، ومسامير حدادي مدفونة صدئة. مشهد رائع وكأنما الزمن الذي عاشته، والتطورات التي حدثت لعائلتنا قد تجسدت مكتوبة ومحفورة على ساق الجميزة.

المهم أننا ونحن في تلك السن بدأنا نلاحظ أن فرعنا نحن، الذي ورثه أبي، دائماً شاحب الأوراق، ذابل الأفرع، قليل الثمار حين وقت الثمر، فقير الأغصان لا يصلح أبداً لإخفاء صغير منا حين نلعب الاستغماية مع أقاربنا وبالذات أولاد عمنا الهادي، ونتخذ من الجميزة بفرعها الهائلين الضخمين مكاناً للاستخفاء. كنا نتبارى في الوصول إلى فرع عمنا لتسترنا أوراقه العريضة شديدة الاخضرار، وأغصانه شديدة الكثافة، وثماره التي كنا نتتهز فرصة الاختفاء وننهال عليها التهاماً. ثمار كبيرة، منفوخة بالطنزاجة كالكرة الحمراء الحلوة.

الشجرة هي الشجرة والساق هي الساق الأزلية، والفرعان لهما نفس الحجم الهائل، ولكن شتان بين فرعنا الهزيل رغم ضخامته، وفرع عمنا الهائج بالأوراق والأغصان والثمر. نساء العائلة يقلن: إن المسائل أقدار، وإن عمنا الهادي هكذا «مبخت».. محاصيل أرضه دائماً أوفر، ولبن جاموسه أكثر، وعنزته دائماً تلد اثنتين، بينما أبونا محمد الهادي يعزو الأمر إلى أن أباه «جدنا» كان يؤثر عليه عمنا، ولهذا وصى له بالفرع الأحسن. ورغم حبنا لأبينا فبيننا وبين أنفسنا كنا لا نصدق. فالفرعان متماثلان تماماً في الطول والحجم والارتفاع، بل إننا لنسمع أنه هو كان المفضل لدى جدنا وليس أخاه. ويقول لنا القائلون إنهم لم يسمعوا في حياتهم عن فرع في جميزة واحدة، أو أي شجرة، أخصب من فرع، فالشجرة الأم أبداً لا تظلم أحداً من فروعها فشرعية الكون كله العدل، والظلم شيء لا يعرفه إلا الإنسان وحده وبفعل الإنسان.

وكنت أنا أكثر الأولاد حيرة للأمر. حيرة كانت تدفعني لتأمل
الجميزة طويلاً وكثيراً، بل كانت تدفعني لمراقبة أبي وعمي كلما
صعد أحدهما إلى فرعه يشدبه، أو «يختن» ثماره، أو يقتلع غصناً
كسرتة الريح أو يد طفل شقي. أبي كان رجلاً طيباً حقاً. كان كما
يقولون لا يؤذي نملة. يصلي ويصوم ويعاملنا بسماحة، وعمري ما
رأيت غاضباً أو يقدح الشرر من عينيه، ولكنه كان يميل إلى الوحدة، ولا
يعرف جلسة الأصحاب، وما رأيت أبداً يهزل، أو سمعته يقهقه، أو
يسهر، أو حتى يدخن. لا أقول على عكسه وإنما عمي الهادي كان
غير هاد بالمرة، كان صاحب الوجود دائماً، معظم الأحيان مكشراً،
ولكنه إذا ضحك زلزل الأرض بضحكه، غير أنه نادراً ما كان يفعل،
فلم يكن يضحكه غير الشديد القوي الشدة.

كل ما في الأمر أن الموقف كان يختلف حين يصعد أي منهما
إلى الجميزة. فأبي لم يكن يحب الشجر. كان يظن أنه بظله الذي
يلقيه على أرضنا المزروعة قمحاً أو قطناً، يضعف الزرع ويمرضه.
وكان لا يصعد إلى فرعنا إلا مضطراً، بل نادراً ما كان يلحظ وجود
الجميزة أو يدرك أن موعد التختين قد حل إلا بعد أن يرى أخاه قد
بدأ «يختن». وتختين الجميز هو تحضيره لعملية اللقاح ونضج الثمرة.
حين يقارب حجم الثمرة حجم الليمونة الخضراء الكبيرة، لا بد أن
تشق بسكين حاد شقاً يفتح داخلها ويعرضها للهواء. وحين كبرت
عرفت أن هذا الشق يسمح للهواء بالدخول والهواء يحمل حبوب
اللقاح، وبهذا تتم عملية التلقيح وتبدأ الثمرة، كالأنثى التي حملت،
تنتفخ، ويبدأ لونها الأخضر كلون وجنات العذارى، يحمر ويندمل

الجرح.. ويستحيل الى شق أسود تجمد الدم الأخضر على شفثيه، والذي نتج عن عملية التختين، في الوقت الذي تستحيل فيه الثمرة الى فاكهة ناضجة، يقطفها القاطف، أو تسقط من تلقاء ذاتها، وحين يأكلها ويأكل معها البذور إنسان أو حيوان أو جمل، ينشر البذور في الآفاق ويتكاثر النوع، ومن جديد تعاد قصة الجميزة الشجرة.

كان أبي يقوم بعملية الختان كلها في يوم واحد، وبصبر نافذ، فإذا ضايقته ورقة عريضة اقتلعها، وكان لا يهمل أن يكون السكين حامياً، أو حتى الجرح نافذاً، حتى كان يخيل إلي أن الثمرات العذراوات تتألم. ولأنه يقوم بالعملية في يوم واحد، فلم يكن يهمل عمر الثمرة، أو إن كان قد آن أوان تختينها، طفلة أو كبيرة هو يشق استدارتها وفي أي مكان يترأى له، وينتهي من العملية ويهبط من فوق فرعنا وقد حفل وجهه بالعرق، ويلهث وكأنما كان يؤدي فريضة واجبة حمداً لله أن انتهى منها. عمي بالعكس، يجيء من البيت غاضباً لأمر أو لآخر، يشرب سيجارته حتى ينفث غضبه، ثم يخلع جلبابه، ويقف تحت فرعه وشيئاً فشيئاً تبدأ ابتسامة ما، باهتة، لا تلبث أن تتعائق وتتسع، وعلى مهل يصعد الجذع المشترك، ثم يدلف الى فرعه كالعريس يدلف الى غرفة عروسه. يمتحن الفرع بأوراقه وأغصانه وكأنما يطمئن على كل جزء منه. يلوي شفثيه ضيقاً إذا لمح اصفراراً أو ذبولاً، ويتهلل وجهه فرحاً حين يلمح جنين غصن قد «بزبز» ومن جيب «الصديري» يخرج مطواة قرن غزال سنّها في اليوم السابق على حجر الطاحونة، ومهما ضربت الشمس يافوخي وأنا أتفرج فلا أترشح وأنا أرى عمي الكشر صاحب المزاج المتغير دوماً

وقد حفل وجهه بسعادة نادراً ما أراها يحفل بها وجهه. باصبعين يمسك الثمرة الخضراء. برقة يمتحنها حتى إذا أدرك أنها للختان حانت، في سرعة الساحر يمر بسيف مطواته على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو الى الجرح الباهر العميق الذي أحدثه في ومضة، ويتأمل أعماق الثمرة الشاحبة الاحمرار والاصفرار، وربما يتفكر لهنية في لونها حين يتأث ويحمر ويتغير، وفي شكلها وحلاوتها حين تنضج، ويتركها لغيرها وكأنه يترك مائدة سعادة حافلة الى مائدة حافلة ثانية قادمة.

ويظل أياماً وأياماً، «يختن»، وكلما اعتلى الشجرة ثم هبط عنها وارتكن بجذعه الى جذعها، كنت من بعيد أرقب شفثيه، وهي بشيء كالأغنية تترنم، ومزهواً يمشي الى الترعة، حيث يغسل يديه ومطواته، ويصعد مرة أخرى الى المصلى المفروش بقش الأرز، لا ليصلي وإنما لينام وملء وجهه تلك الابتسامة الغامضة التي لا أدري لها سبباً. وأتسأل وأنا من بعيد أرقبه: أهذا هو عمنا «الهادي» الذي يربنا دائماً حضوره وبتكشيرته يجعلنا، دون أن يأمر أو يكشر، عن لعبنا أو صراخنا نتوقف.

ولكن الغريب أن فرع عمنا مات من تلقاء نفسه، بينما فرعنا الى الآن لا يزال حياً. صحيح لم يعد يثمر ما يؤكل، فلم يعد أبي يقوى على طلوع الجميزة، وأولاده أصبحوا موظفين في البندر، ولكني ما زلت أذكر كيف مات فرع العم. شيئاً فشيئاً بدأنا وقد كبرنا، نلاحظ أن كثيراً من أغصانه تذبل والأوراق العريضة في الأفرع الحية

تضمّر، ثم يموت الغصن وقد ماتت أوراقه، ثم إذا بالفرع كله يؤوب الى جفاف رغم أن ابنه طالب الزراعة فعل المستحيل ورجع الى مراجع، وناقش الأساتذة، ولكن الفرع يظل سادراً في ضموره وجفافه رغم استماتة ابن عمي في علاجه، ذلك أنه كان يعتبره شيئاً من رائحة أبيه، عمنا الهادي، ذلك الذي كان قد مات. مات في ذلك العام الذي بلغ فيه فرعه منتهى ازدهاره، وثمره، حتى لقد شعبنا جميعاً من ثمره وباع عمنا منه عشرة أقفاص، حلاوة الثمرة منها تسكر.

في نهاية ذلك العام بالضبط مات عمي. وحين جاء العام التالي وجاء الربيع لم يحدث ما كان دائماً يحدث، فلا الأغصان ازدهرت كما تعودت أن تفعل، ولا ثقل فرع عمي المرحوم بالثمر، وإنما الذبول والجفاف وتوقف الحياة، وفي العام الثالث مات الفرع مع أن الجميز عمره طويل جداً وبالكاد لا يموت شجره. والحق أن منظره وهو جاف هكذا ميتاً قد تحنطت أوراقه التي كانت ذات يوم ملعلة الخضرة، كان يصيبنا باللوعة، ويصيب أبانا بالتعصب وهو - الذي لم يبك عمي كثيراً حين مات - كان حين يرى الفرع يتمتم لا حول ولا قوة إلا بالله وتحمر عيناه، وتهدد دموعه بالانبثاق.

وكانت مناحة من أولاده ومنا، يوم قرروا بيع الفرع خشباً، ووقفنا، جميعاً نرى المنشار الضخم الغليظ وهو يقطع الفرع بكل حملة من أغصان ميتة.

وبقي فرعنا لم يمت، ضامر الأوراق، ضامر الثمر حتى بعناه
لأولاد عمنا الذين احترفوا مهنة الزراعة.

وفوجئنا ذات صيف أن فرعنا الواهن شبه الميت ذاك قد دبث
الحياة في أوراقه وفروعه وثماره، وزالت دهشتنا حين وجدنا ابن عمنا
محمد الذي سمي على اسم أبي، ولكنه ورث خصال أبيه، وقد
كادت أوراق الجميزة تحجبه عنا، ولكن عيني أبدأ لم يفتهما أن
تلاحظا أنه تماماً مثل أبيه قد خلع جلبابه «وشمر» سرواله الطويل،
وحفل وجهه بسعادة، وهو برقة يمسك الثمرة الخضراء ويعرف من أين
بالضبط يختنها. وفي لمحة البرق وسرعة الساحر يمر بسيف مطواته
قرن الغزال على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو إلى الجرح الباهر
العميق الذي أحدثه، ويتأمل أعضاء تأنيثها الداخلية الحافلة بعذرية
وبشحوب كشحوب البنات.

أبدأ لم يفتني منظره، وفرعنا يستجيب له ويخضر ويمتد
ويمتلئ بعد هذا بالثمر الأحمر الناضج.

شجرة الجميز.

٣٩١

الرجل والنملة

العتب على النظر

بعيون فاعرة، رحنا نراقب الباب وهو بالعصبية الشديدة يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتيبها إلا حين فقط تستقر في ركن الزنزانة الفارغ. حتى السباب المعتاد الذي كان لا بد يصاحب الفتح والإغلاق والتكويم، من فرط الدهشة لم نتيب، إذ قد حل الصمت لا تجرؤ على قطعه مخافة أن يجد جديد وأن يكون وراء البداية ما وراءها.

يتعانق الظلام في العادة بعد التمام. الخامسة تماماً موعده. النزلاء صامتون لمقدمه، إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس الليل من التغيير مع حراس النهار ويتمكن شاوئش النهار من تسليم شاوئش الليل، صمت يهيم للصراخ أن يتعالى إذا حدث خطأ وأفلت نزيل من الإحصاء وارتبك العدد. الباشاوش هو المخطيء ولكن الشنائم تنهمر فوق رأس النزلاء وثمة جرى، وصوت الكوالين الحديد يزأر وأبواب أخرى تنهد حتى لتكاد تهدد الحائط الحجري، وأخيراً، يجري الزئير النهائي لمفصلات باب العنبر الكبير، وتخفت الأصوات مع الأقدام مبتعدة، ويحل الصمت.

ويستمر. للتأكد أنهم جميعاً ذهبوا، وأن النهار المتعب انتهى. ثم، وكأنما فجأة، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونة مولد المغربية المعتاد.

السكوت في العنبر طوال النهار أحد الأوامر الصارمة، الألسنة تبتس في الأفواه لقلة ما تتحرك، الحناجر مخشوشنة من فرط السكوت، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر في حراسة ثلاثة حراس ليل عواجيز في الغالب وقريبى الإحالة إلى المعاش، فقط حين يطمئن الجميع إلي ذهاب الجميع يفرج كل نزيل عن لسانه ويبعث الحياة في شفثيه وفمه وصدرة ويزعق ويشتم بكل ما يملك من قدرة وقوة، يصرخ ويشتم وينتقم من السكوت وأوامر الشلل ويزاول الغريزة التي طال حبسها، غريزة أن يشتم، فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طوال النهار، وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح، تتكون له فعلاً غريزة الشتم تنهال بها كل زنزانة على زنزانة، ويتبارى في مزاولتها الجميع.

في أحيان قليلة جداً يحدث، أن، فجأة، يدور المفتاح في قفل الباب الكبير ويفتح العنبر، وهنا، وفي لمحة خاطفة واحدة يتسمر كل شيء في مكانه ويحل أعرق وأغرب صمت.. صمت الترقب الرهيب لما عساه يكون السبب في فتح الباب.. وتتعدد الأسباب وتكثر، وذات مرة تجد السبب باب زنزانتك وهو لروعك يفتح، وكتلة بشرية ما تدلق ليعود الباب فيغلق، قبل أن تسأل أنت القادم أو يفتح من تلقاء نفسه فمه للكلام تنهمر مئات الأسئلة من

قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذي دخل، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية مهولة، لا بد في الحال أن تعرف، وهكذا إن لم تبادر وتجيب، حتى قبل أن تعرف أنت ما هي الإجابة، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك أحياء كانوا أم أمواتاً. حياة رهيبة يتولى فيها إناس حبس وخنق أناس وضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا في علب مجبوكة من الزنازين والحجرات.

- ما بك يا عم... خير..

سمعت أنا وحمزة زميلي في الزنزانة الذي تصادف أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربي، حيث تتم كل ألوان التعذيب، تشابه كان يجعله وبالتالي يجعلني هدفاً لتعليقات ووخزات تعذيب لا حد لها.

- مالك يا عم مالك؟

قالها حمزة هذه المرة بأمل أن يجيب القادم. ومكوماً في الركن لا يتحرك كان لا يزال. الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع من قضبان متوازية من حديد، لا إجابة، والنتيجة سيول من الشتائم تلغني وتلعن حمزة.. ما أغرب قدرة الإنسان على تعذيب نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه. معذبون يعذبون معذبين. ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب في قلب عذاب.

لا رد ولا تحرك ولا يبدو عليه أنه سيرد، أياكون ما نسمعه منه ليس تنفساً عميقاً إنما هو نشيج وبكاء، بكاء الصامتين بلا حول ولا

قوة. وجدنا أنفسنا نقترّب من الرجل نحيط به مشفقين. أيديا تطبطب عليه وتستخرج كنزنا الثمين، الشمعة الوحيدة التي نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى، أشعلناها بضوئها الذي بدا باهراً، مددت يدي ورفعتها من الكتف الى الرأس أعدله وأرى الوجه.

كدنا نموت أنا وحمزة رعباً. فكلانا طبيب ونعرف ماذا تعنيه تلك الصفرة المتكاثرة المتشاحبة التي لونت الوجه، الحدقات الواسعة المفتوحة وهي تمنع النظر في الفراغ وفي اللاشيء ما لم نبهه، مات. انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأي مكان من جسده يؤلمه أكثر. قسنا النبض وعددنا مرات التنفس. الصدمة فعلاً واضحة ولكن لا أثر لأي إصابة في الجسد، لا جرح، لا خدش، لا بطن منفوخ، لا شيء. تنفيذاً للمعاهدة المعقودة مع الحارس الليلي ساومناه على كوب القهوة أصر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة. وافقناه على مريض كثير. أخيراً أصبح في يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق في تلك اللحظة، وسيجارة «وينجز» بأكملها، وعلى ضوء الشمعة دماء قليلة بدأت تسري في الوجه الخراب، وهممة متممة، تنهدات، الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات.

ورفض أن يفصح.

نلح عليه بكل ما نملك من طاقة إلحاح، والرفض البادي على هيئة صمت هو وحده الجواب. تشاورنا أنا وحمزة، نتركه؟ نخفف الوطء عنه؟ نترك كل شيء للصباح؟ ولكن حب الاستطلاع فينا لا

يمكننا نحن أنفسنا مقاومته، والإلحاح، إلحاحنا وإلحاح بقية
الحجرات والزنازين كلما زاد احتوى الرجل بصمته، وتداخلت رغبته
في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القوقع كلما شعر
بلمسة الإصبع.

تركناه. حت كاد يغلبنا النوم وكانت الألسنة المطالبة في الخارج
قد سكنت.

- هل ساموت؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال، وكأنها إجابة متأخرة جداً عن قولنا
له: نحن أطباء، لا تخف. فضفض حتى تستريح، ولا تخف، فنحن
نريد مصلحتك، نحن أطباء.

- هل ساموت؟

ودون أن نتفق، لم نجب. رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب.

لم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه.

فجأة وجدت حمزة ينفجر فيه غاضباً مؤنباً إياه على هذا
الموقف الطفولي الذي لا معنى له بالمرّة. معتقل سياسي، ألس
كذلك؟ كان واضحاً من ثيابه المدنية أنه ليس مسجوناً. إذن لماذا هذا
التشبث بالصمت؟ أخائف هو على نفسه، وماذا يمكن أن يحدث له
أسوأ من هذا الذي حدث والذي جاءوا به إلى هنا بسببه وعلى تلك
الحال القريبة من صدمة الموت؟!

فعلاً.. يعني ح يكون جرى لك إيه؟

العتب على النظر

للمحق تنفس وتنهّد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ:
 - أوحش شيء على ظهر الأرض. وكدنا نبتمس في رثاء. ماذا
 يمكن أن يكون؟
 وعاد يقول:

أوحش شيء على ظهر الأرض. حدث لي ما لم يحدث لبشر.
 ومرة أخرى استخففنا بكلامه وكدنا نقهقه. سبعة عشر شهراً
 ونحن في هذه الزنزانة معاً. كان سجن مصر محطة يتوقف فيها
 القادمون من السجن الحربي في طريقهم لطرة وأبوزعبل والواحات،
 والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو
 لعذاب آخر في السجن الحربي. وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا
 نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهمة ومتهمين
 ومعتقلين وأسباب اعتقال، وتعذيب، ومعذبين. النفخ والضرب وكى
 نصف البطن الأسفل وكل شيء، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو بات لها
 ذكر. وكل متهم - مثل هذا القادم - يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له
 هذا أو مارسوا معه ذاك.

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له؟

أوحش شيء على ظهر الأرض.

- ماذا فعلوا؟

- نمت مع نملة.

- وانفجرنا ضاحكين.

طبعاً لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحاً أنه في طريقه لاختلال عقله، وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في العالم من ندم يقولها: نام مع نملة.

وانفجرنا ضاحكين.

وإلى الصباح التالي ظللنا نضحك ونتذكر ملامحه وهو ينطقها فتصاب معدتنا بالمغص من فرط ما ننثني ونضحك. وعلى رأي كليله ودمنة قلنا له في الصباح التالي - وكان تقريباً لا يزال على نفس جلسته وقرصته وانكماشه على نفسه - وكيف كان ذلك يا أستاذ؟

ولم تكن تبدو عليه سيماء المعتقلين السياسيين. معظمهم كانوا مثقفين. حليقي اللحية والشارب، خريجي أو طلبة جامعات. هذا كان له شارب، أصفر وغزير ومتهدل على شفثيه العليا يكاد يلامس السفلى. وجهه خشن لا بد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب والمنازل حيث الريح والتراب ولفح الشمس. في الحقيقة لم نفاعاً حين قال لنا إنه عمدة. حين تستخرجه من الحالة التي كان عليها، والسكينة التي آلت إليها ملامحه وقوامه، وتفردته، وتوقفه وتعيده سيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقاً مصداقاً لا بد أنه كان واحداً من أولئك العمد من طراز: اخرس يا ولد. شهم، كريم، يذبح لضيف خروفاً، ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنداء مستغيث. عمدة ومعتقل سياسي. جديدة جداً هذه المرة. والنكتة أن يكون عمدة متهماً بالعمل السياسي.

العتب على النظر

في الليلة التالية ساءت حاله وارتفعت درجة حرارته وأصبح نبضه ١٤٠ وبدا وادم الوجه مختنق السخنة وكأنما سينفجر بعد قليل، لم يكن هناك بد من أن يفضفض ذلك العمدة المعتقل عن نفسه وإلا حدث له فعلاً ذلك الذي وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا ومات.

وتكلم.

متقطع الأنفاس.

أخرج من صديريه البلدي الداخلي علبة سجائر «كرافن» عشرين سيجارة كاملة، وعزم علينا ولم نصدق أنفسنا ونحن ننث دخان الكرافن، وبكل ما نملك وما أصبح لنا من طول بال نصبر على كلماته التي تخرج بعد عناء، ولهائه بين الكلمات.

تكلم.

بدأها من منتصفها، أو من حيث بدأ يهتم هو بها، لا نعرف. قال: هذا الوغد، يونس بحري. قتلني بالأمس فعلاً قتلني، ساموت، ولكن لن أموت قبل أن أغرس أسناني في زوره وأقضم حنجرتة.

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله في المقاطف والسير به نصف كيلو، والصخر فوق أكتافنا والرمل في عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط والمسامير، وجلسنا آخر النهار، قبل طابور العودة نستريح، وكانوا ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحري. ناداني. منذ أن رأيته ورأيت أنه أشفق عليه وعلى نفسي أن يناديني. ناداني. تلكأت ولكنني قلت أقصر

الشر وألبي نداءه. ذهبت. وقفت. تركني واقفاً واشتباك في حديث فاتر مع زميله. قلت: أفندم. رمقني بنظرة ثم عاد إلى حديثه الفاتر. اللهم طولك يا روح قلت، وعزمت أن أؤجل أي اشتباك فجسفي مهدود ولن أحتمل أي ضرب. والبداية واضح أنها ستنتهي بضرب. أقصر الشريا ولد. وأصبر.

هناك، بعد ربع ساعة أو أكثر. التفت ناحيتي وقال: روح هات نملة من هناك. وأشار إلى كومة تراب قريية.

صحا مخي من غفوة الوقوف وخيل إليّ أني لم أسمع جيداً، سألت: أجيب ماذا؟ هب في صائحاً: نملة.. ألا تعرف النمل يا بن الـ...؟

سكت.

هب مرة أخرى: تعرف النملة والّا لأ؟

قلت بتسليم: أعرفها.

قال وهو يلتفت إلى زميله: روح هات نملة.

طول الله روحي وذهبت إلى حيث أشار، وتفرست في كومة التراب ملياً حتى وقعت عيني على نملة كبيرة نسميها في بلادنا حرامي الحلة. انقضضت عليها بقبضتي وعدت بها ووقفت أمامه وقلت: أهه النملة يا أفندم.

- وريني

فتحت يدي .. رآها.. قال :
 - ولازم تجيها بالشكل ده يا ابن ال... عضضت على شفتي
 السفلى وسكت.
 بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقني وقال :
 - دي ايه؟
 وقلت ببراءة ما بعدها براءة : نملة يا بيه
 قال : ...

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذي طلبه
 غريباً جداً وغير معقول بالمرة، سألته : أفندم؟

قال : اخلع هدومك.
 أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة ، رفعت يدي مسلماً
 قائلاً : حاضر يا بيه . . . أخلع هدومي .

ولكني ترددت.. نظرت حولي بركن عين.. طابورنا المنكود
 الحظ قابع كصفين من طابور ذباب أنهكه الكدح والزق والزجر. في
 دائرة واسعة رهبة يلتف حوله سور من عساكر يحملون الأسلحة
 الاوتوماتيكية بكافة ألوانها وأنواعها، قريباً منه تناثرت فرقة الضرب
 تحمل الهراوات والكرابيج والنباييت والأحزمة والقبضات الحديدية.
 أنا واقف وحدي ويونس بحري قابع على كرسيه أمامي . ولا مفر.

استنهضني بشخطة ولما كنت كما قلت قد قررت أن أؤجل
 الاشتباك فقد مددت يدي الأخرى وبدأت أخلع جلبابي ، وخلصت
 الصديري ، ولا أطيل ، فقد وجدت نفسي بعد برهة خالماً كل ملابسي
 واقفاً عارياً كما ولدتني أمي أمامه.

- خلعت هدومك.. ؟

- زي مانت شايف يا بيه..

- طيب (..) النملة اللي في أيديك. خيل إليّ أنني حقيقة لم أسمع، وكيف أسمع، وما طلبه لا يمكن أن يمر إلا من عقل مجنون، حتى المجنون نفسه خجل أن يطلبه.

- نعم!

الكراباج مرفوع فوق رأسي والنبوت يتهيأ للانقضاء، ويونس بحري تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الذي أمره، والدنيا، وسور العساكر، والطابور والبازلت والجبل والصخر والطريق وكل شيء سكت وصمت وكأنه يستحني أن ألبس.

انتفض الفلاح الخبيث الذي في قلب الموقف الجاد الرهيب وقلت فجأة:

- بس دي ذكر يا بيه..

لم يضحك، ولا أحد من القرييين أو البعيدين ضحك، بكل صراحة قال: روح هات واحدة نتاية.

وكالذي نومه المنوم المغناطيسي استدرت وقصدت كومة التراب، وعسست بيدي. طبعاً كان أول ما خطر لي أن أبحث عن نملة أنثى، ولكن كدت أضحك من نفسي لأنني انسقت وراء المشهد فعلاً وأخذته جدّاً، وسألت نفسي: كيف أعثر على الأنثى؟ ما الفرق بين النملة الذكر والنملة الأنثى؟ بل هل توجد نملة أنثى ونملة ذكر؟

العتب على النظر

المقصود عدت إليه ووقفت أمامه وفتحت قبضتي على نفس النملة
وقلت: ها هي نملة أنثى.

قال: يا الله!

- يا الله ماذا؟

- تاني. اسمع.

وفوجئنا بجعجة أوامر تفرقع، واقترب سور العساكر حتى أطبق
على طابور المعتقلين، واستقر أفراد فرقة الضرب فانتصبت واقفة
مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبة، وهوى الكرباج من خلفي وسمعت
صفيره، وهو يشرخ الهواء ليستقر كالسكين القاطع غائراً في جلدي،
ولكن يونس بحري تلافاه في آخر لحظة وأمسك باليد المهيبة وقال
بصوت مخيف صوته إلى كل أذن تسمع: اسمع.. أنا لا أريد
ضربك.. فأنا أعرف أنك من النوع الحميري الذي لن يؤثر فيه أي
ضرب أو تعذيب ولكني سأضرب تلامذة ابتدائي هؤلاء.. وأشار.

والحراس يعرفون إلى من يشير. فقد كان بيننا خمسة صبيان
صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشرة، معنا في الطابور، إذا ضربوا
يصرخون بل يصوون كالكتاكيت المذعورة وتغور صرخاتهم في
لحمنا الحي، بحيث يصبح أهون لأينا أن يقطع بالسواطير ضرباً ولا
نسمع صرخة الواحد منهم..

جزعت والحق يقال، وسقط قلبي في قدمي مخافة أن ينفذ
الوعد. يا عم يونس ما كنا قاعدين في أمان الله، ماذا دار في عقلك

النفس ليقلب سلامنا هذا الى لحظة الرعب هذه، حتى ليبدأ الجو
يحفل برائحة الدم واللحم المفروم..

تطويل الروح لم يعد يجدي، ماذا تريد يا أيها القومندان.

- يا لله!

ولأنني ضامن أنني سأكون على حق في تساؤلي رفعت صوتي
مستغيثاً مستعيزاً بالله من هذا الهول الذي لا أعرفه: إزاي بس يا
بيه.. أنا في عرضك.. إزاي؟

- زي الناس.. هكذا قالها.

- زي الناس إزاي..؟

- زي الناس يا بن الـ.. ويا بن الـ.. ويا بن الـ.. ماذا تفعل

الناس؟

- ولكنها تفعلها مع الناس والإناث وهذه نملة..

- ولو.. اعتبرها ناس.. اعتبرها إناث.

- حاضر..

قافزاً الفلاح الخبيث إلى نجدتي مرة أخرى قلت:

- حاضر يا بيه..

وعملت أنني فعلاً أزاول ما أمرني به، وأنا، زيادة في
الاندماج، قد رسمت على وجهي ابتسامة سعادة.. استيقظت منها
على صوت نبوت يشرخ الهواء، ويشرخ ظهراً من ظهور «التلامذة»

إلى جوارى. التفت على الصرخة، آهة صاعدة من عظام الأقدام
لكائن حي إنسان صغير يتألم. انفجر قلبي وتدفق منه الدم الغائر غصة
ولوعة.

- لا تمثل يا ابن الكلب.. اندمج.. أتضحك عليّ.. اندمج..
أنت خالع الآن ملابسك وهذه أنثى، نملة مش نملة لا يهم.. هذه
أنثى.. اندمج.. وسأراقب وجهك وملامحك.. وأقسم برحمة أمي إن
لم أرك تفعل ما قلته سأشرح تلاميذك وأنت وكلكم معهم.. وأنت
تعرف وكلكم تعرفونني..

وكان واضحاً من وجهه المسمر المحفر بالجديري القديم أنه لا
يهزل، حاولت أن أجد فرجة احتمال أو عشر احتمال للتهاون فلم
أجد. هذا إنسان مجنون وقد تقمصته حساسية المجانين للحقيقة ولن
يصدق غيرها ولن أستطيع أبداً خداعه، وعليّ أن أفعلها. حاولت.
ولكنني في منتصف المسافة استدركت وطلبت منه العذر. وجمعت
نفسي وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس أمرتها. أحسست
أن شهباً كشهب الجنون تتراءى لعيني، ومن فرط الانضغاط بدأ
العقل في مخي يقطع. مجنون أمر وأمر مجنون، ولا بد أن
أستجيب، ومجنوناً لا بد، لكي أستجيب، أن أصبح. أنا فعلاً رجل
ضخم، وهذه نملة، وبكل كياني عليّ أن أصغر نفسي وأستحيل من
إنسان إلى حشرة، إلى نملة، إلى ذكر نملة، تستشيرني أنثى النملة.

وكلما فشلت، كلما توقفت، كلما غام وعي بالمشهد

وباستحالة التحول، وأحسست التهديد يحوم كغريبان البين حول التلامذة الصغار وحول الطابور، أتصاغر وأتصاغر ويكسوني العرق وتطلق عظامي وتتدشش ولا بد من أن تصبح كفي في حجم ساق النملة، وساق النملة لا يكاد يرى ولا بد أن أهوي بوعي وإرادتي على كفي وكتفي ولحمي وعظمي ورأسي وبطني وساقني وعنقي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر نملة، أفرز هرمونات، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات أنثاي القابضة، مستسلمة، في يدي، هكذا، رأيتها بألف عين دقيقة لي تكونت، قد استجابت، وكفت عن الحركة، ووقفت واضطجعت.

لو كانوا عذبوني وقطعت الجبل كله، لو ربطوني لذيل حصان جرى بي القطر كله من أقصاه إلى أقصاه، لو ربطوني في عروسة جلد وجلدونني ألف جلدة، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار ما مر عليّ. ولم أعد أستطيع الكف وجسدي يمضي يتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويزاول الحب مع نملة.. وعند لحظة النهاية فقدت الوعي..

قالوا لي أنهم حملوني حملاً إلى الليمان. وأنهم خافوا من صراخي أثناء الليل واستجار الزملاء من عضبي وتمزيقي لملابسهم وملابسي، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر ومن هناك إلى هنا.. وهمس لي التومرجي الأسمر العجوز وأنا في طريقي اليكم أنهم يفكرون في الإفراج الصحي عني، ولو، ما الفائدة، وقد نمت مع النملة واعترفت، وكان الذي كان..

ولأنه لا أبشع من السجن والمتظرين المحاكمة من كلمة
اعتراف، فقد وقفنا على أطراف تحفزنا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا
اعترف ولماذا اعترف؟

قال وهو يشيح بيده: وأنا وسط العذاب، في منتصف الساعة
بين كوني نملة وكوني ذكر نملة انكسرت إرادتي ولم احتمل، وقلت
كل ما عندي بأمل أن يتوقف أمر يونس بحري وأن يكف العذاب،
ورغم الاعتراف لم يوقف المجرم الأمر، وحتى لو كان أوقفه فأنا
نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول، إرادة أن أكون
بشراً أفلتت وصارت لي إرادة نملة لا تقوى أبداً على الكتمان.



ورغم إعادته إلى المستشفى فقد سمعنا أن حرارته ظلت ٤١
طوال الليل ورغم جسده المتين الضخم، في الصباح التالي مات.

٤٠٩

أبو الرجال

العتب على النظر

نصف نائم، نصف مستيقظ، تأمل جلده. أدرك، كأنما فجأة، أنه لم ير عن عمد جلده مذ كان في أوائل مراهقته، ومذ كان الشعر، شعره نصف أصفر، نصف أسود، متناثراً، خفيفاً، يكسو نعومة جلده. يذكر أنه فرح، وكان باستمرار يفرح كلما أمعن النظر الى الجلد ووجد الشعر النابت يزدحم ويتكاثر ويغمر، حتى أصبح كله أسود. فتح عينيه تماماً، فقد أدرك وكأنما كان ينظر إلى جلد إنسان آخر.

أدرك أنه بالقطع ليس جلده، أو إن كان، فإن شيئاً حدث له. كان الشعر خفيفاً وكان شعر ذراعيه وصدره قد بدأ يصاب بالصلع.

وكشف عن ساقيه وبطنه. خفيف جداً كان الشعر. لكانه عاد الى سن الرابعة عشرة.

سكت تماماً عن التفكير والتأمل، وإن كانت ذاكرته لم تسكت. بوابل من نخزات صغيرة بدأت تنهال عليه، وينحيها، وتنهال. قام

إلى المرأة. حلق ملياً في وجهه. اللحية كما هي. أو تبدو كما هي. فتلك النخزات تبدو يقينية.

أغمض عينيه كما يرغب نصف النائم نفسه إذا أحس أنه في كابوس ليختفي الكابوس أو يرحل. رغباً عنه فتح العينين، وفي مزيج من الحيرة والضباب، ضباب أملس ينزلق ويتوالى والأشياء تمتزج وتتباع وتقترب لتصبح واضحة تماماً. صورة الرجل يراها واضحة تماماً إذ تلك هي صورته التي يعرف نفسه عليها. تنزلق. يمر فوقها الضباب كأنه السحاب يخفي وجه القمر ولا يبقى سوى ضوء لمجرى لا يستطيع به أن يميز شيئاً. نعومة. أجل. نعومة أنثوية مرعبة كأنها نعومة حية رقطاء تبسم قبل أن تطبق فاهها في عضة سم كعضة الموت. شيء داخله يرتخي ويفتح، يأمره أن ينقبض، وباستخفاف يعصي ويفتح. ومعها يحس أنه يهوي في بئر أو من فوق جبل. يشهق طارداً كل شيء كالغريق يدفع الماء برأسه ليلتقط النفس ورغباً عنه يعود يهوي، ولكنه لا يختنق، ولا يحس أنه سيموت، ولا أن شيئاً محدداً واضحاً سيحدث. كل ما يحدث أملس. كل ما يتشبث به ينزلق. الضباب ونور الفجر الشاحب والإحساس بالانزلاق واللا يقين.

ماذا يحدث لي؟ بالضبط ماذا حدث لي؟ وكيف حدث؟ ومتى حدث؟ ولماذا يحدث ما يحدث؟ في الخمسين أنا. أنا رجل في الخمسين. بالضبط واحد وخمسون وثلاثة شهور. عندي أولاد. عنده أولاد أجل. وزوجة. يسائل نفسه، ويتحدث عنها وكأنها إنسان آخر. فمن فرط ما أصبح فيه من شك قرر أن ينظر إلى نفسه وكأنه إنسان

آخر. رجل آخر. نعم هو رجل، أو.. أو.. أو ماذا؟ إنه ليس رجلاً فقط، إنه أبو رجال أيضاً. إنك يا سلطان زعيم. زعيم عصاة ولكنها عصاة من العصاة المتمردين قتالي القتلة وسفاكي دماء وأولاد ليل، تنظر الى الواحد فيهم فتحس أنه، أمام عينيك، يتلاشى الرجل فيه والانسان ويتحول إلى أرنب يبول على نفسه. بنفسك رأيت البلل مرة يفرق ثياب أبو شنب.

اكتشف، وكأنما فجأة أيضاً، أنه لا يزال بملابسه الداخلية. تجول بعينه في أنحاء جسده، اشماز لتتواءم تكونت لا يعرف متى. استنكر جسده شبه العاري. أحس به غريباً عنه. لا يمت إليه. تحسس شاربته. أدرك أنه حلقه، وأنه يتحسسه بحكم العادة. لا وجود للشنب. ازدادت غربة جسده عنه وغربته عن جسده.

قام، بثورة قام أو كأنما ليصنع ثورة. لا. لن يرتدي البدلة. سيرتدي جلبابه البلدي الصوفي الخشن ذلك الذي يحلوه ارتداؤه حين يركب الكارثة المفتوحة، ويسوقها بنفسه، ويعبر بها شوارع البندر حيث يتأكد أن العيون الناعسة من خلف النوافذ، وأحياناً من الشرفات، تراقبه، وتشهق لرجولته، وجلبابه، وكارته، وتاريخه المرعب المجيد، وغناه، وسمعته.

أرجل رجل في المحافظة، بل في مصر، في الدنيا كلها يا ولد. رجل وأب لرجال. ولد ولا كل الأولاد. وسعيدة محسودة تلك التي يضمها بذراعيه زوجة كانت أو عشيقة.

جلبابه ارتداه. امتدت يده وهو لا يزال ينظر الى مرآة الحمام
يتناول زجاجة الكولونيا. عدل. ابتسم في شبه ثقة. ركن شفته العليا
فعلاً ارتعجف وكأنما الابتسامة تخونه.

- يا ولد..

زعق.

تلك الزعقة التي كانت دائماً ترج البيت، وترج القلوب، حتى
قلوب أولاده الكبار. زعقة لا يوجهها لأحد بالذات وإنما يوجهها
للولد، أي ولد، للرجل، أي رجل، للمطلق من الرجال، ما عداه.

لم يظهر للتو أجد. لا ولد ولا رجل. زعق بصوت أعلى انتهى
فجأة وكأنما توقفت الآلة التي تصدره أو انكسرت. الأصح أنها أسكتت. هو
أسكتها فقد جاءه الصوت مشروخاً، بالضبط مسلوخاً، ربيعاً. ليس
صوته. وقد يكون صادراً عن حنجرتة التي بدا في المرأة وكأن بروزها
انكمش، ولكنها ليست حنجرتة فالصوت ليس صوته. صوت يسمعه
لأول مرة، غريباً عليه غرابة جسده.

ودق قلبه دقة زائدة.

تلك الدقة التي كانت لا تحدث له إلا لحظة القتل، لحظة
إطلاق النار.

ظهر الولد. سبه دون أن يعرف من يكون، ويكل ما يملك من
نفس صرخ:

- نادي الثور يا حمار.

جلس على المقعد في الفراندة. المقعد المخصص دائماً لجلوسه، حتى لو غاب عاماً. جلس ينتظر «الثور» ينتظر وهو يتلمظ غيظاً. لماذا؟ لم يكن يدري. لماذا اختار «الثور» ليراه في تلك اللحظة؟ أيضاً لم يكن يدري. الثور. الثور. لماذا «الثور»؟ ألتلك الأقاويل التي كانت تتناثر عنه وعن مغامراته؟ لأنه يعرف عنه أن النساء يسقطن من تلقاء أنفسهن لدى انفراده بإحداهن؟ لأنه أصغر سناً وأكثر حمقاً وفعلاً أنضر شباباً بكثير؟ ولكنه كما يسميه.. ثور.. مثله مثل «الديب» و«أبو فصادة» و«غراب البين» و«الجحش» و«التنبل»... واحد منهم.. أقصى ما يمن به عليه أن يعطيه لقباً، وأقصى ما يعاقب به أحدهم أن يناديه باسمه الحقيقي، فهو يظل يرجو ويلح ويكاد يبكي، أحياناً يبكي مر البكاء طالباً منه أن يمن عليه بلقب. وحين يضيق به وبإلحاحه يقول له: طيب.. امش يا خروف.. أو.. شي يا حمار.. وينقض «الخروف» أو «الحمار» على يده يقبلها وفي عينيه دموع الامتنان، ويغادر المجلس سعيداً ضاحكاً لا تسعه الدنيا.

جاء «الثور»، سمع صوته يسأل خافتاً عنه، وجهه بصره بكليته إلى باب الفراندة ليرصد دخوله. في فتحة الباب ظهر «الثور» مهمل الثياب كعادته. كان دائماً يحسده على قدرته أن يهمل ثيابه وشعره ومع هذا يظل عل جاذبيته القصوى ووسامته، هم أن يتسم له ولكنه عدل وأظلمت ملامحه. كان يرتدي القميص والبنطلون، بنطلونه

الضيق الأثير لديه. لا بد جاء على عجل فهم دائماً يرتدون بدلهم الكاملة ليلقونه. حيا، ووقف حائراً، رمقه من أعلاه إلى أسفله، بدا وجه «الثور» يصفر، وملامحه تنبئ عن مراجعة مكهربية لكل ما فعله مذ آخر مرة رآه فيها وعن احتمالات خطئه أو جريمته التي ربما يكون قد اقترفها. وفر عليه المراجعة وأشار له أن يجلس. وعلى كرسي بعيد جلس وقد بدأ يسترد أنفاسه، ولكنه كان لا يزال ينتظر وكأنه ينتظر البراءة أو حكم الاعداء. رآه يتململ من طول انتظاره. أسعده هذا التلمل ونظراته تنصب عليه متفحصة ثاقبة. ضبط نفسه يتوقف أكثر من اللازم عند ملامحه الفتية الشابة. تلوت نفسه وكأنما أصابته غصة أو اندك خنجر في فم معدته. كلما استرق البصر اليه وأحس بمغناطيس قوي يشد عينيه اليه وأشياء في داخله تنهار وتتكسر والضباب يغطي على وعيه، ومن بين طيات الضباب ترسم رؤى مفزعة، عريان جسده تماماً، وأملس، كتلة لحم بلا إرادة تنتظر أمراً خشناً، يصنع إرادتها.

٣

فجأة، أحس بتمرد داخلي يتجمع بسرعة كما تتخلق بوادئ الإعصار المهول في لحظات، فثمة لين جوفي هائل كان يعوي داخله كلما وقع نظره على «الثور»، وحتى وهو يشيح بنظره عنه، رؤى غريبة يحس معها أنه لا ينظر إليه نظرة رجل لرجل، وأن في داخله تتلظى أحلام يقظة تدور حول موقف ما، مكان مظلم مهجور، تلامس يحدث، تحسس محموم ترتجف به يداه ويرتعش له جسده كله وهو

ينقض على الشاب، ويعتصر عضلات ذراعيه النافرة وانتفاخه عضلات ساقه والرغبة فيه تتعاضم وتقوى داخله رغبات تتكشف بجرأة وبجنون عن نداء مولول قد تحولت إليه ذكورته، ولا يعود يقاوم، بل تتحول بقايا المقاومة إلى إعصار نداء أن افعلها، ومجنونة تصرخ كل خلية فيه رافضة متمردة في إعصار استنكار يكاد معه يتحول إلى قاتل، يقتل ما راوده من أحاسيس، ويقتل «الشور»، يقبض بأصابعه الغليظة على عنقه ولا يتركه إلا جثة أو خرقة جثة، ماتت، أحمد أنفاسها وحبذا لو استطاع أن يفعل الشيء نفسه بعنقه هو ويقتل الحلم والرغبة والنداء المجنون الذي يفرض نفسه عليه بقوى، وكأنما بفعل قوى كونية، لا سبيل إلى عصيانها أو مقاومتها.

ويهم بأن يهدر صوته، عالياً مهيباً هصوراً طالباً من «الشور» أن يذهب عنه، بل حبذا لو جعل الطرد يأخذ شكل الضرب والركل والشلاليت..

ولكن لا شيء يصدر عنه، حتى ولا صوت، وكأنما تتعادل القوة الطاردة مع القوة الجاذبة، ويؤجل قرار طرده، وفي نفس الوقت يكبح جماح عودة دمدمة الرغبات الملعونة تستيقظ في جسده وخياله وتجعله يعود يحلم، بالظلمة، والفحيج، والمفاجأة، والضممة المحمومة الراغبة..

ويدرك الجالسون حوله أنه غاص في فكر خاص لم يعد يشعر معه بأي شيء حوله، ويبدأون يتسللون من «الفراندة» واحداً وراء الآخر حريصين تماماً ألا يخذشوا قداسة استغراقه.. كلهم يذهبون ما

عدا «الثور»، إذ رغم أنه أحس بمثل ما أحسوا به، إلا أن هاتفاً غامضاً موسوساً كأنه صوت الشيطان أهاب ويهيب به أن يظل هناك، وأن موجات من «عمه» «سلطان» واشعاعات وترددات، تأتيه، وترجو منه أن يبقى، أجل، ترجو منه، هو الذي لا يرجو من أحد شيئاً، وإنما دائماً يأمر حتى لو أراد الرجاء.

٤

ماذا يفعل بالله...

أهو قد جن...

أم في طريقه الأكيد للجنون..

أيذهب إلى طبيب من هؤلاء الذين أصبحوا المودة في هذه الأيام، الذين يزعمون القدرة على تحليل النفس، وسبر الرغبات، وحتى تفسير الأحلام؟

ولكن ماذا يدريه أن ما يحدث له مرض، أو أنه حقيقة يحدث له، وأي عار يجلبه على نفسه إذا هو ذهب حتى إلى طبيب في العاصمة الكبيرة لا يعرف أصله ولا فصله، لا يعرف من يكون ومدى عزوته، فحتى الطبيب مهما كان غريباً وجاهلاً بصولجانه وهيلمانه فإنه من رابع المستحيلات أن ينطق أو يشكو، ولسانه يعترف أن بواذر رغبات غريبة، تأخذ شكل النوبات، التي كانت متباعدة أول الأمر،

ثم تقاربت وكثرت، حتى أصبحت حياته وأفكاره لا تكاد تدور حول شيء آخر سواها..

أبداً لا يستطيع، ولو شفقوه، أن، بإرادته يقدم على عمل كهذا.. فليفعلها إذن، ويكون هو طبيب نفسه، فهو، وحده، الأعلم بحاله، ولن يجد مخلوقاً في هذا العالم كله يستطيع أن يكشف أمامه كل مكونات نفسه، ويعاصر معه ويرى بعينه كل ما انطبع في عقله مذ بدأ يعي بأنه ابن فلان وأمه فلانة واسمه سلطان، وفقرهم مدقع، وعائلته وإن كانت شديدة الكبرياء، بالذات، أبوه ذلك الذي كانت القرية تمتلئ مجالسها إذا جاءت سيرته بالسخرية منه، ومن فقره «الدكر» وأنفه التي ترنو دائماً إلى السماء. كان يرى أباه ينتحي ركناً من فسحة بيتهم ويخرج من جيبيه عشرات من أعقاب السجائر التي التقطها خلصة بخيزرانتة التي ركب لها في نهايتها مسماراً رفيعاً بحيث يستطيع، وهو في قمة تفاخره بعم أو جد أو قريب، أن يغافل محدثه إذا التقطت عينه عقب سيجارة، وفي انفعالة محسوبة، يرفع خيزرانتته وكأنما يديق بها على الأرض مؤكداً أو مقسماً ثم ينزلها بالضبط فوق «العقب» لتندك فيه، وتظل لاصقة به حتى يخلو المكان أو تنصرف عنه العيون وحينذاك، وبخفة يد ماهرة ينتزعها ويضيفها إلى مثيلاتها في جيبه. ومن محصول اليوم يملأ صندوقاً معدنياً قديماً ورثه عن أبيه الذي كان يملؤه «بالمضغة»، وكانت «مضغته» وما يضيفه إليها من محوجات مشهورة في بلدتهم شهرة «غليون» البك ابن العمدة المتعلم في بلاد بره الجالس إذا جاء زائراً للقرية بين كل حين وحين في دوار أبيه، يحشو غليونونه بالتبغ ويشعله من ولاعة خاصة كانت مشارعجب

أهل القرية إذ كانت شعلة نارها تنطلق أفقية من جانبها وليست مثل غيرها من الولاعات. أبوه ذلك السامق في قوامه، النحيل الكثيف الشارب والذي كان لا يمتلك للخروج إلا جلباباً واحداً، هكذا يعرف الجميع، ولكنه دائماً وأبداً أبيض نظيفاً ناصعاً تجيد أمه غسله بالزهرة يوماً بعد يوم، وتنشره ليجف في المساء، ويرتديه في الصباح حتى ليدو وكأنه يمتلك عشرات الجلابيب الجديدة الناصعة البياض.

فقر وكبرياء، من جيش المدقعين الذين لا يمت أحدهم بصلة إلى عين من الأعيان أو عائلة من كبار العوائل، أمثاله قابلون لحياة الجذب تلك، لا يهمهم تهرؤ ثوب أو دفاع عن كبرياء، يقبلون حتى أن توزع عليهم الزكاة في الأعياد، ويلهجون بالدعاء والثناء إذا وزعت عليهم لحوم في مناسبة أو «موسم» أو احتفال... «أبو سلطان» منهم هذا صحيح، بل ربما أشد فقراً من بعضهم، ولكنه نسيج وحده في اعتزازه بنفسه، يمشي إذا مشى وكأنه العمدة، وإذا تحدث فعل وكأن كلامه فقط هو الحكمة. يوماً واحداً كل أسبوع، يوم السوق، حيث يودعه أصحاب الحمير القادمون من القرى المجاورة حميرهم ليضمها الفضاء الصغير المجاور لسور السوق، فضاء يستأجره «أبو سلطان» من صاحب الأرض المجاورة وكأنه «جاراج» الركوبات، لا ينتهي اليوم إلا وقد امتلأ جيبه بقروش وأحياناً بملاليم، تبدو كثيرة العدد والحجم، ولكنها في الحقيقة لا تكفي لقوته وقوت امرأته وعياله طوال أسبوع، سلطان أكبرهم، وثلاثة أولاد آخر، وأربع بنات، وأم شارفت الستين، وتدهش، ويدهش الناس، كيف بمثل ذلك الدخيل، يعيش كل هؤلاء البشر، وتمتلئ كل تلك الأفواه..

وسلطان ذكي باهر الذكاء، في المدرسة الإلزامية نابغة، ومع الأولاد أكثرهم شقاوة وأقواهم شخصية ودائماً هو القائد والمستشار الأعلى لعصابة كبيرة تتبعه، وتأتمر بأمره، مع أن بعضهم أكبر منه سناً، وبالطبع أكثر من عائلته غنى ونفوذاً، بل الحقيقة المجردة كان أفقرهم، وأبأسهم ثياباً، فقد كان يظل يرتدي الجلباب حتى لا يتغير لونه أو يذهب تماماً بل حتى يقصر عليه وخلال عامين هما عمر الجلباب يكون قد ضاق وقصر حتى لا يكاد يصل إلى ركبتيه. وكم عُيّر بفقر أبيه «الدكر»، وكم اشتبك وتخانق وجرح وضرب ممن هم أكبر إذا تطاول أحد على حالهم أو على أبيه بالذات وعلى وجه التحديد حين يقولون عنه: عريان المؤخرة ويحب الفشخرة.

وفي مداعبات الصبية، أو على وجه التحديد تلك الفترة من العمر التي لا بد يبدأ الصبية يلامسون بعضهم بعضاً، ويستجيب بعضهم بلذة أن يكون السالب، والآخرين بلذة الموجب، أو بالاثنتين معاً، كان سلطان شديد الحساسية أنه لا يرضخ، بل حتى من فرط حساسيته ورغبته في رجولة سريعة مبكرة كان لا يسمح أبداً لأحد أن يلامسه وبالتالي يرفض تماماً أن يلامس هو أحداً. رجل صغير، ورث كبرياء أبيه أو قل ماض قدماً في تقليد أبيه وتشبهه به، ذلك الأب الذي كان يعتبره أكثر الرجال رجولة وأعظمهم مقاماً، بل لم يحس أبداً ولم يراوده مطلقاً خاطر أن أباه رجل فقير، ففي مثل عمره لا يوجد فقراء وأغنياء إنما فقط يوجد رجال رجال، ورجال أنصاف رجال أو لا رجال بالمرّة، والفارق الوحيد بين الناس هو ذلك الفارق بين الرجال الرجال والرجال أشباه الرجال.

من أين يجيئه إذن هذا الذي بدأ يزحف على نفسه زحف
السحاب الأسود الذي يهدد بإحالة النهار ليلاً وينذر بغياب الشمس
واقتراب يوم القيامة؟.

طول عمره هكذا، زعيم وشهم وشجاع وجدع، وبجوار
الإلزامية والابتدائية كان يعمل شهور الصيف كلها، ومعظم شهور
الشتاء كي لا يوفر نفقات تعليمه فقط وإنما أيضاً ليساهم مع أبيه في
ملء الأفواه الكثيرة المفتوحة جوعاً طول الوقت والتي عمرها ما
امتلات شعباً. وهو في تعليمه وفي عمله كانت تزجج روحه فكرة
وحيدة لم تتزعزع أبداً، أن يرد الاعتبار لفقر أبيه وعائلته وتواضع
نشأته وأصله. كان جلباب أبيه الناصع النظيف مجرد ستار يخفي
حقيقة شديدة المرارة، إذ لم يكن بداخل هذا الجلباب الستار شيء
ذو قيمة، وكان على «سلطان» أن يملأ هذا الفراغ المخيف الذي
يخفيه الجلباب، أن يجعل لكرامة أبيه وأنفه التي في السماء رصيذاً
يستحق معه فعلاً أن تكون أنفه في السماء، وأن تتغطي مؤخرته
العريانة، ليكون حراً أن يتفشخر إذا أراد فشخرة المغطاة مؤخراتهم
بالحسب والنسب، والأفدنة والأموال والقيمة والامتلاء.

حتى أصبح «سلطان» زعيماً فعلاً.

قصة طويلة مليئة بإرادة الفلاح الرهبة التي يحفر بها ترعاً للنيل
بإبرة ويحمل بها صخور الجبل حتى يصنع بها هرمًا يكون أعجوبة
الدنيا. الفلاح الذي يزحف إلى القاهرة حافي القدمين ماشياً على

ساقيه الرفيعتين، صاعداً مع النهر حتى يفرغ صبر النهر من فرط طوله ويتشعب الى فرعين أو حتى عدة فروع صانعاً من نقطة التفرع عاصمة العالم القديم، ومولد النور تشعله البشرية لأول مرة لترى به العالم ويراها العالم، زاحفاً حتى يصل إلى أم الدنيا أو يصنع من نقطة التفرع أمماً للدنيا.

بالإرادة الدؤوبة النحيلة البالغة الصلابة زحف «سلطان» يجر وراءه عائلة مات عائلها، يجرها كما يشد المراكبي «اللبان»، جاذباً المركب بحبل طويل ليجرها عكس اتجاه الريح القادمة من الشمال. أجل شاداً «اللبان»، لبانه، ولبان عائلته، بل لبان كل هؤلاء الفقراء ذوي الأنفة كانوا أو ذوي المسكنة، مستجيباً للمحرك الداخلي الذي لم يهدأ داخله أبداً، ولا لان، محرك أن يملأ جلاباب أبيه، بحيث حتى لو خلع الجلاباب لكشف عن مستور غني عظيم مشرف.

قضى سنة الجامعة الأولى ومسكنه، ومأواه وملاده بيت، بالأصح عشة، تقع عند الطرف القصي لسور الجامعة، فيها اصطنع المسكن والمقام، فيها نام على حصير هو كل ما استطاعت عائلته أن تزوده به، عامل بناء في حي «بين السرايات» وما حوله في الجزء الأكبر من النهار، حامل قصعة أسمنت تقطع وحدها الظهر، ولكنه معها كان يحمل مسؤولية أن يتعلم وأن ينبغ وأن ينجح بحيث يحظى بالاثني عشر جنيهاً شهرياً مكافأة النابغين، كان يحيا منها بستة ويرسل لأهله ستة، عليهم وبعائد إخوته الأصغر من أعمال أصغر، أن يدبروا وجودهم بها.

ومع ذلك ينجح بتفوق ويكون من أوائل الدفعة.
وليس هذا هو المهم.

فمن أول لحظة وضع قدمه في الجامعة، وبدأ يتفتح وعيه إلى أنه ليس وحده الذي يشد «اللبان»، وليس وحده الذي لا يمتلك أبوه غير جلبابه يرتديه على اللحم الحي، جلباب في العادة على عكس جلباب أبيه فلا هو أبيض ناصع ولا هو خال من «رقعة». مذ أدرك هذا وبنهم راح يقرأ ويسمع ويظيل القراءة والسمع ويتفتح له الوعي، ولا يفعل تفتح وعيه إلا إدراكه بأن الأمر في حاجة إلى التغيير، وأن من ينادون بالتغيير أبناء مدن، وحتى لو كانوا أبناء فلاحين أو عمال، فإن فرن الإرادة المتوهج داخلهم وقدرتهم وطاقاتهم على العمل لإحداث ذلك التغيير أقل بكثير مما يجب وأنه يستطيع أن يفعل الأكثر، ويقدم الأكثر ويحقق الأكثر.

وعضواً في الاتحاد صار، وأوتاداً للثقة به أخذت تندق، وخيمة هيمنته تتسع، واسمه وجرائد حيطانه، وخطبه واعتقالاته تصبح حديث الكلية، ثم حديث الجامعة، بل وأيضاً حديث المدينة، المدينة الجامعية التي حاولت إدارة الجامعة رشوته بإلحاقه بها، قبل الرشوة لعلمه أنها لن تلين قناته وإنما بها ومن خلالها سيجد له قاعدة انطلاق أشمل وأعم..

أحس الثور أن «عمه» سلطان لا بد قد راح في سبات عميق، فأنفاسه منتظمة وعيناه مغلقتان، وسكوته طال وطال حتى أنه لم يعد

يتلقى موجات ترد اليه عبر المسافة الكائنة بين مجلس السلطان في كرسية العظيم وبين مجلسه هو، على حافة المقعد العريان متحفزاً لأي اشارة أو بادرة احتياج من الرجل الكبير.

وهنا بدأ يتململ في مجلسه على طرف الكرسي، تملماً لا حركة تصدر عنه، ثم تملماً حرك فيه قدميه، ثم بدا وكأن الأمر لم يعد خافياً، وأن عمه السلطان نام نومة السلطان، وبهدوء شديد وقف وقفة من يستعد للانسحاب، وحين تأكد أن حركته تلك مرت هي الأخرى دون أن يشعر بها السلطان، بدأ يزحف بقدمين خفيفتين وكأنما مبطنتان بفروة فهد، خطوة، ثم الثانية ثم تسمر في مكانه فقد صدرت عن سلطانه زجرة سؤال آمر:

- رايح فين؟

زجرة سؤال أعادته فوراً إلى جلسة حافة المقعد، يكاد يتمسح كقط يود أن يؤكد ألفته وانضباطه وطاعته.

- أنا ما نمتش.

تردد «الثور» يقول:

- أنا ظنيت

- اقعد

- أنا تحت أمرك إن شاء الله للصبح.

يقعد؟ يقعد لماذا؟

سؤال دار في عقل كل منهما.

وإذا كان السؤال قد دار بقليل من الدهشة عند «الشور»، فالدهشة الأكبر كانت لدى «سلطان»، لماذا حقيقة يأمره أن يعود للجلوس، ويؤكد أنه مستيقظ وأنه يريد استمرار وجوده مع أن الوقت قد تأخر، والجميع، حتى داخل البيت الذي يجلسون في بلكوته، نيام؟

كانت الرعشة قد عادت له من جديد، أمرة، مدلهمة، لا يملك لها دفعا، وأيضا لا يملك لها تحقيقاً.

حائراً ومرتبكاً ارتباك مبتدئين، خجلاً من نفسه خجلاً أبشع من خجله من أي غريب، يكاد يبكي غيظاً مما هو فيه، ومن وضع كان من المحال أن يتصور حدوثه، ولا يملك حياله أي تصرف. حتى لو كان سيثور ثورة المجنون حينذاك، ثورة الرجل، أبو الرجال، الزعيم الذي يحاول فأر وإن كان اسمه «الشور» أن يعتدي عليه، على رجولته. وعاد الصمت، الذي كان يبدو وكأنه الحل الوحيد للإشكال، يفرض نفسه. وعاد «سلطان» لا يستعرض حياته ليعثر على بداية الكارثة أو مبعثها وإنما عاد يقلب ماضيه، قريباً وبعيداً ليعثر على سبب لهذا الذي حدث، بل ليتأكد أن شيئاً فعلاً قد حدث له، أو أن واقعة ما كانت هناك، موجودة، ووجدت لكنه نسيها وطمرتها الحياة الحافلة التي عاشها، بينما هي طول الوقت كالسوسة، كالسرطان الخبيث البطيء تعمل عملها حتى أوصلته إلى الآن، حيث لا يستطيع مطلقاً أن يتصور أنه، بكل جلالته قدره خاضع أو يكاد يكون خاضعاً لفكرة الرغبة العارمة الطاغية التي يستमित - دون فائدة - في مقاومتها،

فكرة أن يستسلم أمام ذلك الشاب المرعوب خوفاً منه ومن فحولته ومن هيلمانه، حتى لقد وفدت اليه فيما وفد أفكار أن «الثور» يتصور العكس، ويرتعش خوفاً من أن يطلب منه عمه السلطان ما يطلبه الأقوى من الأضعف، فطلبات السلطان أوامر مقدسة، تنفيذها لا مهرب منه ولا إمكان للهرب. أمر مقدس لو طلبه السلطان لكان عليه - ويا للكارثة - أن يخضع لزوته حتى لو كلفه ذلك الخضوع رجولته وكبريائه وكل ما بناه لنفسه من شخصية وسمعة وصلت به حد الشهرة أنه وحده، الثور الطلوق الذي يغار منه كل الرجال، وتحلم به كل محرومة أو غير محرومة من جنس النساء.

احتمالات، كل احتمال منها كارثة أبشع من الأخرى، حتى بدأ جسد «الثور» يرتعش فعلاً، ارتعاشات حقيقية، يكاد معها يرتمي بجسده تحت أقدام السلطان ويستجير به أن يرحمه أو أن يفض الصمت المخيف المليء كالأحراش بالأفاعي والوحوش ويقولها له صريحة، ويفعلها أو لا يفعلها وينتهي الأمر، وينتهي الصمت، وينتهي ذلك الموقف الذي أصبح امتداده أشد عذاباً من أي شيء آخر، أشد عذاباً من أي إحساس بالمهانة حتى لو تحققت المهانة.

من العشة عند طرف سور الجامعة، الى المدينة الجامعية، الى العمار، من المعير بأبيه عاري المؤخرة غاوي الفشخرة إلى المشاد بأصله الفلاحي المتين، وعصاميته، وأبوته التي رفعت لمرتبة الأصالة والعراقة الشعبية والنموذج الأعلى لما يجب أن يكون عليه الزعيم،

قادماً من قلب الشعب لا بد يجيء، سليل أب كادح إذ أصبح النبل والعراقة صفات من يكون سليل شجرة بؤس أباً عن جد.

من «قصعة» الأسمت تقطم الظهر في النهار والمراجع ينقلها نقلاً وهي بآلاف الصفحات من كتب زملائه التي كان يستعيرها منهم، من القصعة قاطمة الظهر، والنقل عن المراجع مضيع البصر مخدر الأصابع مقوس الجسد بالآلام المبرحة التي تثن لها عظام الظهر..

من الصبي النكرة المصفر الوجه بالأنيميا ونقص الغذاء، إلى الحاصل على درجتين، واحدة في الاقتصاد والأخرى في التاريخ، مفخرة الجامعة ثم بقية الجامعات، مفخرة جيله وكل ما تلاه من أجيال، بل مفخرة من مفاخر مصر ووثبتها التي نقلتها من مجرد دولة محتلة في عالم قبيح قديم إلى دولة قائدة تحرر وزعيمة شعوب ومفجرة انتفاضات وثورات، حتى أصبح سلطان سلطاناً فعلاً.

وكان أول زعيم شباب يقابله الرئيس الزعيم، ويصافحه، بل ويمنحه وساماً وتصبح له خطوة، وجاه، وصاحب مدرسة واتجاه، حوله ومعه جيش صغير تابع من النوايا والمعجبين وتابعي التابعين.

وهذا كله يحدث دون أن يشعر سلطان أن جلاباب أبيه الخالي قد امتلأ برصيد حي من المضمون والجاه والنفوذ.

ولهذا كان ماضياً لا يزال كالمهر الأصيل لا يتعب ولا يكل، يجري بلهات ثابت، لا من أجل هدف محدد وضعه لنفسه ويريد

الوصول إليه فلم يكن من ذلك النوع من أصحاب الأهداف الخاصة التي يضعونها نصب أعينهم للوصول إليها وتحقيقها، ولكن مضيه كان لا يخضع لأي تفسير عقلي أو نفسي، إنما هو مضى وكأنما من أجل المضي ذاته، فلا هو وضع نصب عينيه أن يكون زعيماً أو محبوباً أو صاحب سلطة ونفوذ، لا المال كان هدفه، ولا الطموح السياسي كان محركه، بل ولا التاريخ أو مكانة في التاريخ يطمع فيها ويسعى لها. كان حقاً وصدقاً لا يعرف لماذا هو ماضٍ هكذا، يحقق، وتنهال عليه الألقاب والصفات والثناء دون أن يسعى لها أو يقيم وزناً، إنما هي نتائج ثانوية لا تشغل باله مطلقاً، وتأتي كنتيجة حتمية لدأبه وإصراره ومبادئه التي انغمس تماماً في التبشير بها والعمل من أجل تحقيقها وسيادتها. مجتمعة لا بد أن يكون عادلاً لا يمتلىء بمظلومين لا ذنب لهم، مظلومون لا يمتلك الواحد منهم إلا جلباباً، بينما آخرون تمتلىء دواليبهم وحجراتهم بطواير الملابس المعلقة فوق مشاجبها وكأن غرف نومهم وملابسهم أجنحة بأكملها من أجنحة بنزايون أو صيدناوي أو الصالون الأخضر. أبوه عمره ما انتقل من مكان إلى مكان بواسطة قطار أو وسيلة من وسائل المواصلات، إنما هو السير الكعابي المستمر مهما بعدت المسافة. الصدق. الحقيقة. النظافة. التضحية. الجهد من أجل الآخرين وليس أبداً من أجل احتكار الثروة والتكويش على النفوذ. الزعيم سيد القوم لا بد يكون سيداً لأنه خادمهم، وذو مكانة بينهم لأنه أكثرهم عملاً وجهداً من أجلهم... مبادئ.. بيضاء ناصعة كجلباب أبيه... كانت قبله مجرد ستار، مجرد رداء ليس في داخله أي مضمون، كان مضيه في الكفاح الدائب أن

يملاً تلك الثياب الناصعات مضامين حقيقية، وأن يحول الستائر الخارجية الناصعة البياض لتخفي القذارة والقبح الى ستائر تحوي وتحمي كل ثمين وغال من الحقائق والمضامين.

الرجل ليس بكثافة شاربه وشدة طغيانه ولكن الرجل رجل لأنه شهم وكريم وشجاع ومضح ومغيث للملهوف وواقف بجوار المظلوم، مع الضعيف حتى يقوى، وضد القوي حتى يعدل ويعتدل، وتصبح قوته في خدمة العدل والحق. والمرأة امرأة لا بحسبها ودلالها وأنوثتها وإنما بعملها الأعظم في أن تكون الأم الأعظم لبشرية أرقى، فالأمومة كالرجولة ليست صفة، ولكنها قيم، درجات عليا من السلوك البشري العاطفي والعقلي وحتى الجسدي بها تفرد الانسان وعلى هديها وصل إلى قمة في التطور جعلته أسمى حي في الوجود...

..الأم..

وغير سلطان اليد التي كان يركز عليها، لا لأن التعب من الارتكازة الأولى قد جعله يغيرها، وإنما لأنه، وكأنما فجأة قد وصل عند النقطة التي خيل اليه فيها أنه قد عثر على أول الخيط، على السبب والمتسبب، على أمه.

الفلاحة السمراء ذات «طابع الحسن» الغائر في منتصف ذقنها الموشوم وشمة الصعيدية البدوية وكأنه ختم تختم به الفتاة علامة أنها العذراء الكاملة المنتمية إلى قبيلة ليس له اسم محدد، ولكنها

قبيلة النساء الساميات جمالاً وشكلاً في نفس الوقت، قبيلة المرأة جسداً مخلوقاً ذلك الخلق الأنثوي الخاص المثير، ولكنها أيضاً علامة أنها إنسانة فيها كل نبل المرأة الفلاحية أو الصعيدية وأنفتها، كل صلابتها عندما يجد الجد ونعمتها تتحد مع خشونة الرجل لتكون ذلك المزاج المصري القح الذي ينتج أطفالاً لهم قيم الرجال ومسؤوليات الرجال بما فيها حتى الأخذ بالثأر، كل الفقراء بلا استثناء يكونون حبا للأم ليس كمثله حب آخر، وكل الأمهات الفقيرات يحبين أولادهن، صبيانا وبنات، حبا ليس التدليل والإفساد بكثرة التدليل هو منتهاه، ولكنه الحب المسوى على نار الحياة القاسية كالبتاو، لا يضمنه وينضجه الوقود الصناعي ولا أفران المازوت، وإنما هو مسوى على حرارة شمس طبيعية، لافحة ولكنها غير صناعية، نفس القانون الذي ينضج الخبز هو القانون الذي ينضج العواطف، هي العلاقة الحارة الحميمة بين الأم والولد، حب صاف منقى لأن هدفه الأعلى إنتاج رجل وليس إظهار الحب تدليلاً لطفل، حب الأم فيه واثقة من حب الابن لها ولهذا فهي لا تستجدي حبه، أو لا تخاف من كرهه، تريده لنفسه رجلاً ولا تريده لنفسها لعبة أو «عروسة» تهزها وتلهو بها.

هكذا يراها، بعين نضجة، الآن.

ولكن الطفل فيه رغم حبه الشديد لها كان يكره ما تصوره أنه قسوتها وخشونتها، بل وأحياناً عقابه ضرباً مبرحاً أو شكوى مرة لأبيه، أبوه أبداً لم يضربه أو يعاقبه مطلقاً عقاباً بدنياً، كانت كلمة : يا ولد، يقولها غير عالية أو شاخطة ولكنها خارجة من عمق رجالي مرعب،

العتب على النظر

كالسكين المستنونة تندب في قلب الجسد، في صمت. كلمة كان يخشاها ويرعبه مجيؤها أكثر من كل زعيق أمه وصراخها وضربها له «بالقنو» الذي تكنس به الدار والذي ليس سوى سباطة البلح بعدما اقتطعت من النخلة وذهب عنها بلحها وجفت وتغير لونها وأصبحت أداة النظافة في البيت وأيضاً أداة التأديب غير المؤذي.

تدليل، لم تدلله..

خشونة مرضية كارهة أبداً لم يتعرض لها..

شك في رجولته المبكرة أو لفظة سباب تجرح تلك الرجولة على عكس ما كانت تفعله أم عيد جارتهم التي كثيراً ما كان يسمع صوتها في عز الليالي ملعلاً يتهم ابنها بأنه عاد متأخراً لأنه لا بد كان مع الأولاد في حقول الأذرة، وصراخ وكلمات كانت تجعل سلطان يغلي دمه هو بالغضب حنقاً على تلك المرأة وإشفاقاً على صديقه ابنها. بل حتى ذلك الابن، رغم كثرة ما وجهته له أمه من طعن في رجولته، رغم لونه الأبيض الفاتح وشعره المائل للصفرة إذ كانت أمه من الدقهلية، لم ينشأ ولم يحدث أبداً أن تحققت نبوءة أمه من أنه سيصير كذا حين يكبر، مثله مثل «شاهين» الطحان. وشاهين الطحان هذا كان ظاهرة من الظواهر الكثيرة التي تختص بها بعض قرى الأرياف سواء في بحري أو في الصعيد. رجل بالمظهر والشكل له لحية وشارب وإنما محلوقتان، ولكنه فيما عدا هذا أنثوي في كل شيء آخر، في طريقة كلامه، في مشيته، في التصاقه الدائم بالمجتمع النسائي في القرية وحتى في عمله، فقد كان يتاجر في

الزبدة والسمن والقشدة ويغوي شباب القرية المراهق بما هو على استعداد لدفعه من نقود، وله سمسار من صعاليك الشباب كان هو الذي يجلبهم له مقابل عطايه، معروف ومشهور ومحل استنكار كثير من المتزمتين وأهل الورع والتقوى ولكنه عند الناس العاديين، بحكم طول المدة واشتهار خصاله، أصبح يؤخذ مأخذ الظواهر العادية التي لم تعد محل استنكار، وإنما أصبحت فقط محل سخرية البعض ومثلاً تضربه الأمهات لأولادهن إذا أحبين أن يخيفوهم من الميوعة أو إطالة الشعر أو «عوج الطاقية».

أبداً ما جرحت أمه رجولته بالعكس كانت دائماً محل افتخار به، كل ما يذكره هو ذلك اليوم المشهود الذي دخلت أمه «زريبة» البهائم ذات ظهر صيفي كان الكل فيه نعان أو هاجعاً هجوع القيلولة، هو فقط كان منفرداً في الزريبة بحمارة عمه الذي جاء يزورهم من النجع المجاور. ولا يزال يذكر تصرف أمه الذي يعترف الآن أنه كان قمة في الحنكة، أو كأنها طيبة أمراض نفسية، إذ حين فتحت باب الزريبة ووجدته على تلك الصورة، ورأت الذعر الخجول وقد جحظ من كل ملامحه وأسال، فجأة، غزير عرقه، قالت وهي تستدير راجعة بأسرع مما دخلت قائلة له من خلف ظهرها: كيف تركب حمارة عمك من غير «بردعة» يا جحش...

وهكذا أبرأته هي حتى أمام نفسه حتى لا يحس مطلقاً بأي حرج. أما حين ضببطته خلف كومة الحطب فوق السطوح مع الأرملة سعدية العمشة التي كانت تجلب لهم الماء. يومها انهالت عليه ضرباً

بالقنوة، ولكنه أحس، وهذا هو ما استغرب له، أنه ليس ضرب غضب، بل يكاد يكون ضرب أداء واجب بل إنه أحس أن في ثنايا شتائمها وتأنيتها نبرة تكاد تكون نبرة فخر بما رأت واكتشفت، كل ما في الأمر أن غضبها كان يبدو منصباً على اختياره للأرملة الكبيرة القبيحة وليس لأي سبب آخر.

من بعيد بدأت تترى نوبات سعال أبو المعاطي، يذيعها ميكروفون المسجد إيداناً بتسليك زوره استعداداً لتسايح الفجر وأذانه. كانت الدنيا لا تزال حالكة الظلمة، وكان النوم قد بدأ يتسرب إلى «الثور» فقد بدأت رأسه تسقط فجأة فيفوق مذعوراً ويعيد رفعها بسرعة وكأنه ينفي عن نفسه تهمة أنه قصر في يقظته، وأن النوم غلبه، في حضرة السلطان اليقظان. وكأنما كان أذان الفجر، بعد الليل الطويل المستعيد لشريط الحياة إيداناً باختلاط الماضي بالحاضر في ذهن سلطان وذاكرته، أحداث صغيرة تففز فجأة إلى وعيه قفز براغيث ليالي الشتاء لا يملك الإمساك بها، وإذا أمسكها أفلتت، ثم نوبات مناطق شاسعة بأسرها ضاعت من الذاكرة أو أضاعها هو بإرادته، فلم تتبع حياته آراءه ومبادئه بدقة كاملة أو انضباط، كثيراً ما كانت تحدث الهوة بين الفعل والمبدأ، بين ما يأمله وما يستطيعه، بين الدأب الجليل المستمر ثم نفص اليد فجأة، وكأن لا فائدة، وكأن ما يحاول تحقيقه أضغاث أحلام أو أحلام أطفال. مثل ذلك اليوم...

أجل، أجل، ذلك اليوم..

ظهراً كان الوقت؟ منتصف الليل؟ أبداً لا يذكر! المؤكد أن كان هناك وقت، وكان هناك رجل وكانت هناك استغاثة، طلب ملح، رجاء مليء بالعشم والاستغاثة. استغاثة يدرك صاحبها أنه لم يتوجه بها إلى الإنسان الخطأ، إذ إن شهامته مضرب الأمثال. أنا وقعت من السماء. وأنت تلقيتني. قرار. نعم نعم يذكر جيداً أن كان لا بد له من قرار يتخذه. لا شيء عنده أسهل أيامها من اتخاذ قراره. في ومضة وفي لا وقت يكون حسبها وحسمها. الكل ينتظر ومتأكد أن الكلمة ستخرج من فمه، كما تعودت أن تخرج، جريئة مليئة بعين الحكمة، والحكمة عنده لم تكن التصرف الوقور المتزن، وإنما أحياناً أكثر القرارات جنوناً وخروجاً عن المؤلف إذا كان الأمر والواجب يتطلب ذلك.

مؤيدوه جاءوا، عشرات، مئات، كثيرون وكأنهم آلاف، كأن قدراتهم جميعاً على الوصول إلى قرار قد أوقفت، أوقفوها أو توقفت، إذ يعرفون أن هذا ليس عملهم أو دورهم، ولكنه دوره الذي لا يستطيع سواه أن يقوم به بمثل ذلك الحزم والحسم وأصح الصحيح.

كان العدوان قد حدث، أمام الملأ ثم، وكأن من قاموا به مجانين فقد كان الكل يعلم أن رده سيكون الصفعة في جبروت عنفوانها، والركلة والإهانة ترد عشرات أضعاف ما حدثت به.

كيف حدث، ما حدث؟

كيف وجد الرجل فيه ينكمش، والخوف وإجراء الحسابات داخله يتكاثر، وطال سكوته أو طال تردده إلى أن بدأت الهمسات تترى، وسحابة شك كثيفة تحجب وجه الشمس ووجه القوم ووجهه، ويدلاً من زعقته المشهورة: اضرب يا ولد.. اضربي يا بنت، نحيلاً خرج صوته وكأنه صوته حين كان صبياً لم يراهق أو يخشوشن صوته، كأنه صوت عيل، أو رجل آثر أن يكون قراره عيالياً، وصوته ينطق به وكأنه صوت خنثى: أنا رأيي أننا نفوتها عليهم المرة دي ونرضخ، ونختار نحن بعد هذا وقت المواجهة ومكانها، مع أن الجميع وهو على رأسهم يعلم أن هذه، هذه الساعة من الظهيرة بالذات، وقد تذكرها الآن تماماً، هي أنسب وقت، والاحتشاد للمواجهة لحظتها هو أقوى احتشاد، وأن معنى التأجيل ليس تفويت الفرصة، أو تأجيل المعركة، ولكنه، على بلاطة، الخوف والتراجع والهرب.

وساعة طويلة ظل يحدثهم عن أهمية الوقت المناسب والمكان المناسب واحتمال الهزيمة المؤكدة إذا لم يتم هذا بدقة.

وانصرف بعضهم وهو لا يزال يتكلم، مع أن شيئاً كهذا أبداً ما حدث، ولا أحد كان يتصور حدوثه، فالحديث تام الوضوح أنه تبرير في تبرير، وأنه في داخله خائف يرتعش، وأنه هذه المرة ليس بسلطان وإنما هو إلى بهلوان السلطان ومضحكه أقرب..

حتى الأنداد وقفوا مذهولين يسمعون ما لم يخطر على قلب أيهم أو أحد، فقد كانت هجمتهم هجمة يائسين ظهورهم إلى الحائط، وموتاً بموت فعلوها وهم مدركون تماماً أن الهزيمة المنكرة

هي ما ينتظرهم، هزيمة، وهم يتصورونها، ويرونها واقعاً وحقيقة، لم تكن بمرارة أي هزيمة أخرى تجاه أي خصم آخر، فالهزيمة أمام سلطان ليست ذلك العيب المخزي الذي يتحدث به الناس ليالي وأياماً إنما تكاد تكون نوعاً من الشرف، يكفي المهزوم فخراً أن الذي هزمه هو سلطان، وأن جراته وصلت حد أن يقف أمامه ندأ، فلو هزم - ومن المعروف أنه بالتأكيد مهزوم - فيكفيه فخراً أن هازمه هو من لا يجرؤ أحد على منازلته.

زعيم صار، صاحب الرأي والكلمة المسموعة والقرار. حين جاء وقت الجد والقرار يتحداه في عقر داره وعقر مذهبه تحول الى صعلوك من البشر، فولى الأدبار، وإن حاول أن يبدو قراره قرار حكمة وروية، وهولته الداخلية يفعلها بتؤدة ووقار الملك يستعرض في خطو الأباطرة العظام حرس الشرف، ولو كان قد أطلق العنان لما كان يحسه حقيقة ويود حقيقة فعله، لوضع ثوبه في أسنانه، وانطلق يجري جري الأرنب المذعور. كيف يتمطى الجبل ويلد في النهاية فاراً، أم أن الفأر فيه كان هناك طوال الوقت. إنما كان ينفس نفسه ويضخم صوته وغلظة جسده وحديثه ليخفي نفسه وحقيقته.

أيام و ليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه، وبخبت يستدرج محدثيه وندمائه ليعرف لماذا في رأيهم فعل، ما فعل، لماذا خاف وارتعش وولى الأدبار؟ وفي معظم الأحيان كان يسكت بكل ما يملك من قوة الرغبة في السؤال والإجابة عن التساؤل إذ يكاد يواجه بما يشبه مر الحقيقة العلقم.. أنه أبداً لم يكن ذلك الجبار الذي

صنعوا حوله الهالة، ولا ذلك الشجاع الذي ترتعش لمرآه النفوس، أن الخارج فقط هو ما يظهره هكذا أما الداخل فكأنه كان طوال الوقت أجوف، فارغاً، مجرد طفل أعجبته صورة أبيه ورجولة أبيه وشجاعة أبيه فمضى يقلدها أو يحاول، وأنه رغم الجهد الجبار العظيم لم يتعد أبداً طور المحاكاة والتقليد، وأنه مجرد كذبة، الكارثة العظمى أنه صدقها، ومن شدة إيمانه بها صدقه الآخرون. ساعة اللظى من ذلك اليوم الصيفي الحار ماذا حدث؟ وكأن لظاها أذاب هيكل الأسد، وكأنه كان مصنوعاً من شمع أو صلصال، وكأن جلبابه قد فرغ من المضمون، ومنه وتبدى الفأر، حين خاف حقاً، لأنه لأول مرة ووجهه في حياته بناس اعتقد أنهم لا يخافون منه، وفعلاً، ممكن أن يفعلوها ويضربوه، ذاب مظهره الرهيب وتبدى الأسد على حقيقته فأراً مذعوراً، ولا شيء غير فأر مذعور.

ولكن المسألة لم تتم هكذا ببساطة كالمعادلات، تردد في قرار أو حتى قرار خاطيء أو فلنصل بالأمر الى نهايته ونقول لحظة خوف حين جاءت ومرت، فإذا بها تتركه نتفاً ومزقاً.

إذا كان الليل قد مر عليه مرور وابورات الزلط فإنه في الصباح كان ذلك الرجل الآخر، بالأدق ذلك الأصيل، الأسد، إعصار الترنح الهزيل مضى، واستعاد القوام واعتدل. أنا أنا، ما كنته وما سوف أبقى عليه، مجرد خطأ في الحسابات جرى ولكن الله سلم..

هكذا قال، وظل من ساعتها يقولها لنفسه.

ولكن الناس بدأت تقول أشياء أخرى تماماً:

لا تقولها نطقاً أو كتابة أو حتى همسات إشاعة، وإنما تقولها بعينها، بتبادل نظراتها، بالعيون التي لا تطرف أو ترتعش مطرقة كلما واجهت عينيه، إلى عيون الند للند أصبحت أقرب، بل ربما عيون القاضي الى من يحويه القفص وقد أدانه ولم يبق سوى النطق بالحكم. وكان كلما أدرك بذكائه هذا أحس أنه يتعري تماماً، والفأر الذي في أعماقه يرفع رأسه، ويجعله يتردد ويتلجلج وينتهي الى لا قرار، أو يؤجلها بأي حجة الى وقت مناسب ولا يجيء الوقت المناسب أبداً، وهكذا حين وجد أن منصبه يحتم عليه في كل وقت أن يأخذ قراراً، قرر أن يخرج عن المنصب بل وعن القانون نفسه وأن يذهب الى عزوته وبلده ويكون عصابة رجال، ويصبح أبا رجال، ومن خلال درع العصابة يخيف الناس فيبدو كما لو أن قراره اللا قرار، قرار.

الحادثة التي جرت كانت وكأنما خبأها له القدر في اللوح المحفوظ، ماراً هو في عصرية عيد يمشي ساقيه وينفرد بنفسه بعد كثرة ما استقبل من زوار ومهنتين بالعيد، عادته السنوية التي لا تتغير حين يقضي أيام العيد الثلاثة في قريته يذكر ويتذكر، ويرى الزمن يغور بآثاره في الوجوه، ويستمتع بالأنوف الشامخة التي لم تكن تحفل به أو بأبيه وقد أصبحت تدين بالولاء المطلق، وتتدلى كالأغصان المرتخية فيما يشبه الذلة والمسكنة طالبة منه رضا أو نظرة

إدراك وتعرف، سائراً في العصرية يطوف بالحقول المحيطة بالقرية حيث كانت مرتع طفولته ومكمن ذكرياته، لمحه يقود «النورج» وهو جالس على أريكته الخشبية التي لم تتغير من أيام الفراغة يقرأ في كتيب نصف مطوي أصفر الأوراق باهتها. كان الطريق يؤدي بالضرورة الى الجرن الذي فيه الولد والنورج والقمح المصنوع دائرة واسعة يدرس. ويمهل كلما اقترب من الشاب الفلاح الجالس بالسروال والصديري المتآكل الوجه المهلهل في يوم العيد هذا يدرس القمح والكل في إجازة، ويقرأ من الكتاب الدفتر مع أن الفلاحين معظمهم أمي، بمهل يتقدم حتى أصبح ما بينه وبين الولد أقل من مرمى طوبة دون أن يحس الولد بوجوده، أو إن كان قد أحس لم يعط لهذا الوجود أهمية تستحق أن ينتفض هابطاً من النورج قادماً مهرولاً مقبلاً الأيدي منحنيّاً إلى الأرض أمام عمه «السلطان» - كما تعود أن يفعل الناس جميعاً من أكبر كبير الى أصغر صغير. ولكن البهائم ظلت تسير وعجلات النورج المسنونة تعوي وتئن والشاب جالس كأنما لا يدري بما حوله، وسلطان واقف مذهول مما يحدث، إذ هو لأول مرة يحدث.

- وله!..

شخطته التي يعرف الجميع بصماتها انطلقت وجعلت الكتاب يكاد يهوي من يد الشاب وهو يحدق ناحيته، يحدق فقط، دون أن يفعل شيئاً آخر. أخيراً بعد لأي يقول:

- يلزم خدمة؟

- خدمة في عينك قليل الأدب ما اتربتش . أنت اسمك إيه يا ولد . ابن مين يا بن الكلب؟
- يا فندي ما تغلطش فيه لحسن أغلط فيك.. أنا مش خدام عندك.

وعلى الزعقة والشخطة والوقفة، كان نفر من المارين قد هرولوا الى حيث الجرن، وكان أكثر من رجل منهم قد اندفع الى الشاب يجره من فوق النورج ويتطوع بزغده ولكمه وهو يقول له:
- مش عارف عمك السلطان يا حمار يا بن الحمار..

فعلاً كان واضحاً أنه لا يعرفه ولم يسبق أن رآه، ولكنه ما إن ذكر اسمه حتى اصفر وجه الولد وأحس أنه وقع في محذور سبحة المنجي منه.

وارتد الرجال إلى السلطان يعتذرون وكأنهم هم الذين أخطأوا ويشبعون الولد سباباً ولكماً طالين منه أن يذهب ويقبل يد عمه السلطان ويستصفحه. ولكن السلطان أشار لهم أن لا داعي، فقط أعاد سؤاله:

- انت ابن مين يا ولد؟

- أنا أحمد بن محمد الطحان يا سعادة الباشا.

- الطحان؟! بتقول الطحان؟!!

وكأنما انفرجت أسارير الدنيا كلها إذ بدأ الباشا السلطان

يقهقه، والجميع يقهقهون، والولد حائر يحملق فيهم ولا يفهم شيئاً بالمرّة، فمن الواضح أنه كان لا يعرف عن حكاية عمه شاهين المخنث شيئاً.

- وريني بتقرا في ايه يابن الطحان..

وحالاً كان الكتيب ينتزع من يد الولد أحمد ويقدم الى السلطان في اعتذار واضح عن قدمه وتهرؤ صفحاته. باشمئزاز قلب السلطان الصفحات الى أن وصل الى الغلاف المتهاك المصنوع من ورق اللحمه ووجد مكتوباً عليه:

موال أدهم الشرقاوي.

وعاد السلطان يقهقه حتى ليكاد يستلقي على قفاه من الضحك والكلمات تختلط بالقهقهة: بقي يبقى عمك شاهين الطحان وانت بتقرا أدهم الشرقاوي.. وانفض الجمع والحادث، ولكن غيظاً ما كان لم ينفرج بعد من نفس السلطان، فأرسل يستدعيه في جلسة المغربية، تلك التي يتبهرج لها دوار الضيافة بالأنوار وقد أصبحت مصابيح كهربائية باهرة الضوء، وقد ارتدى جلباباً أسود من لون جلده وهات يا تريقة من سلطان والجالسين عليه وعلى عمه، حتى لقد وصل الحد أن قال له السلطان: عمك كان معاك زي الباقيين يا ولد؟ كان بياخدك في الدرة برضه؟. وهنا انطلق الولد مغادراً المجلس في عنفوان كلب قطع سلسلته، والضحكات تشيعه لا تزال.

وربما لهذا السبب عاد الى السلطان بعض الغيظ الذي كاد ينتهي من نفسه.

كان اليوم التالي يوم الجمعة، وبينما السلطان في حاشيته
خارجين من المسجد لمحوا أحمد الطحان قادماً من الحقل موحد
السيقان بالطين يحمل تحت إبطه ربطة برسيم.

- وضلالي وما بتصليش كمان، يبقى لازم عمك خدك لفة.

وانفرطت دموع حقيقية من عيون الولد وهو يقول:

- يا فندي ما يصحش الكلام ده..

- ايه.. ما يصحش.. إنت لسه شفت حاجة.. والله لنخليك

تعملها في عمك عيني عينك الليلة دي..

وهنا حدث شيء لم يكن أحد يتوقعه أبداً..

فجأة، ألقى الولد بحزمة البرسيم جانباً، وقفز على السلطان،
واضعاً ساقه خلف ساقه، فتهوى السلطان على الأرض كالشجرة
الفارحة، وانقض الولد عليه وفي يمينه «الشرشرة» التي «يحشون» بها
البرسيم وفي عينيه نار من قرر أن يذبح الرجل ليقتله فوراً.

اندفع أكثر من رجل ناحية الراقد والراقد فوقه فإذا بالولد يزار:

- والله اللي حيخطي ناحيتي لجازر رقبة الـ.. ده..

وتجمد الكل في مكانه.. فالتفت الى السلطان وطرف الشرشرة
مغروزة في أيمن عنقه، ما هي إلا جرة واحدة حتى يذبحه ذبح الشاة،
والنار لا تزال تتلظى من عينيه وقال: مش حاسيبك إلا لما تقول اني
مره.. قول..

تعالّت أصوات الاحتجاجات من خلف الولد وأمامه وقد أصبح هو والسلطان وسط حلقة لا نهاية لها، ولكن الولد صرخ كالوحش الجريح:

ـ اللي عنده كلمة يوفرها ووالله والله إن ما قالها حالاً لدابحه..
انطق.. قول اني مره.

ولم ير السلطان مخلوقاً في عينيه عزم الجريمة كما رأى وجه الولد، ولم يحس هو برعب فوق طاقة البشر مثلما أحس وسن الشرشرة قد بدأ يقطع والدم يتفجر.

كان صعباً تماماً أن يقولها أو يتلفظ بها ولكن الموت أمامه ويا روح ما بعدك روح، حاول أن يستجمع رجولته ويشخط أو يزأر أو حتى يسكت ولو جزت الشرشرة رقبتة، ولكن إرادته التي كانت قد تفتت منذ موقفه المتردد الأول، وتتابع تردداته، أبت أن تتجمع أو تقاوم أو حتى تأخذ قراراً بالمقاومة. وأشد ما أذهله أنه لم يقلها بتسليم أو خضوع للأمر الواقع، ولكنه قالها وكأنه يتنفس الصعداء راحة: أنا مره.

وتهدجت صدور الجماعة الملتفة وكان السماء انطبقت على الأرض أو كأن الأسد قد تحول أمام أعينهم الى لبؤة، تهدج وأصوات همهمت قطعها أحمد الطحان بجبروت المنتصر قائلاً:

ـ تفوه عليك..

وبصق الطحان في وجه السلطان، ثم بقفزة كان قد أصبح

خارج الدائرة شاهراً شرشرته، مثيراً الرعب، وكان قد ولى الأدبار،
بحيث حين أفاق الجميع لم يجدوا له أثراً، لا في بيته ولا في بيت
عمه ولا في الحقول ولا في الأرض ولا في السماء.

وصحيح أن الشرشرة لم تَجُزْ رقبة السلطان ولكنها كانت قد
فصلت كبرياه تماماً عن جسده. وغادر القرية ولم يعد لها أبداً..
حتى والموكب وقد صغر كثيراً يودعه، كانت جماعته تقول أشياء لا
تقولها نطقاً أو حتى همسة إشاعة، وإنما تقولها بيديها، بتبادل نظراتها
بالعيون التي لا تطرف أو ترتعش مطرقة كلما واجهت عينيه، إنها
عيون الند للند، وكلمات الوداع الهشة التي ما كانت تقال إلا جبراً
للخاطر.

الموت كان أرحم لهؤلاء الذين يفعلون مثله ويتصدون للزعامة
والسطوة، يصبح الخيار بين الموت وهتك العرض، إذا كان لا بد من
خيار، فالموت ولا شيء سواه يكون الخيار.

يأتيها من تلك الزاوية أو هذه، لم يجز شعر رأسه ويصير
أسداً أقرع له رأس اللبوة، وإنما لم يعد ثمة ضرورة للكبرياء أو
حتى الكرامة.. سيد الرجال قالها وأعلن أنه امرأة، حتى لو كان إعلانه
إنقاذاً للحياة، فهو إعلان قد تم وحدث، غيره يموتون فعلاً من أجل
مواقف أقل، غيره ممن لا يزعمون أنهم أسياد رجال أو أصحاب

سطوة أو زعماء، أناس عاديون يقتل الواحد فيهم أو يقتل بسبب أقل،
يُقتل أو يُقتل ولا ينطقها.

تحييه - ذلك الانسان - كلمة، وتميته كلمة، وإرادته هي
الأخرى تصلبها كلمة وترخيها كلمة، ولا تتراخي الإرادة مرة، إنما،
إذا بدأت الطريق الى التراخي لا تتوقف، فكل تراخ يقود الى تراخ
أكبر حتى، لتضيق نفسه مرة ويجد أنه يقول:

- لا بد أني لست بذلك الرجل الذي كنته.. لا بد كان في
داخلي طحان كشف عنه ذلك الولد بفعلته، ثم فعلاً، ما العيب أن
يكون الانسان طحاناً؟

وفعلاً يحس، حتى بجسده قد بدأ يتغير، حريص ألا يكشفه
أمام أولاده الشباب الكبار حتى لاحظ أن شعر ساقيه وصدره قد بدأ
يقل، وينمحي تماماً من أجزاء، ويحس كلما نظر إليه شاب وأطال
النظر، أنه يرى فيه ما يخجل، فيخجل، خجلاً ليس مثلما كان
يخجل حين كان السلطان، ولكنه خجل الخجلان من نفسه فعلاً،
الخائف على نفسه من الآخرين فعلاً، الموشك أن يخفي كل قطعة
من لحمه أو عضلاته كأنما ستفضح خجله، أو تفضح أنه لم يعد أبداً
ذلك الرجل الذي كانه.

كان الشيخ أبو المعاطي قد انتهى من أذانه، وبدت الدنيا أكثر ظلاماً مما كانت قبل أن يحين أذان الفجر، ظلام يغري بانطلاق الهواجس والمكنونات، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يجلس مع «الثور» أو يستبقه إلى قرب الفجر وما بعد الفجر، حتى لقد بدأ الولد يتساءل عما يريده منه عمه السلطان، ووصل به الأمر أن افترض أنه لو طلب منه مطلب الرجال من النساء، فماذا يفعل؟ لم يكن يدري بالانهيارات الداخلية التي حدثت لسلطان إلى درجة أن مطلباً كهذا كان مستحيلاً أن يرد على خاطره، ولكن أنى له أن يعرف أن الأمر قد بلغ بالسلطان إلى منتهاه، وأن تلك اللقاءات الليلية بكثرتها قد فعلت فعلها وجعلت شيئاً غريباً يرتبط في ذهن سلطان بها. كلام رجاله. راجل لراجل. راجل لراجل. الرجل يربط لرجولته من لسانه، هكذا كان الكل يعلم، ولكن هو وحده الذي بدأ يعرف أن الرجل أيضاً ممكن أن يفك من رجولته بكلمة، ينحل العقد الذي شب وهو يربط نفسه به وبرجولته. ولماذا لا يقترب من الولد «الثور»، والدنيا ظلام، ولا أحد يرى أحداً، حتى هو نفسه لا يرى ولا يريد أن يرى نفسه وهو يقترب ويقترب، والولد قد وطن نفسه على الاستجابة، فما باليد حيلة، وإذا بالطلب عكس ما وطن نفسه. مذهولاً لما حدث ويحدث. فرحان. أنه نجا وإن كان بطريقة أخرى قد وقع، غير مهم فالمهم أنه قد وصل إلى حالة يستوي معها هذا أو ذلك.

وتم كل شيء والعرق اللزج الفائح برائحة كبرياء يتحطم،
وعزة نفس تتمزق، وهوان يستسيغه ويستمتع به، روائح لا تفعل
باختلاطها إلا أن تثير الغثيان، ولكنها لم تثر أبداً غثيانه.



كل الأسرار يخفيها ظلام ليلة، حتى إذا تعددت الليالي قل ظلامها
وكثرت شفائيتها وبدأ ينكشف ما كان يخفيه ظلامها، وبدأت
الإشاعات، باهتة تتوالى على أسماع الناس، مستهجنة أول الأمر
وكأنما هي تجديف في حق ولي من أولياء الله، ثم بالإلحاح،
تتعودها الأسماع، ثم تصبح شهرته كمثّل شهرة شاهين الطحان،
الذي كان قد مات، وقيل إن أحمد ابن أخيه هو الذي استدرجه إلى
القناطر وأغرقه، غير أن صوته العالي الشاخط المرعب، وإن كانت
قد انتابته ليونة، نفس الليونة التي انتابت جلده وعضلاته، إلا أنه كان
لا يزال على عادته: يشخط يا ولد.. ويستجيب الناس لشخطة
الزعيم، ولكن في أكمامهم يخرجون له لسانهم أو يكتمون ضحكة
صاخبة عالية تريد أن تنفجر من صدورهم ذات مرة وتنتهي المهزلة.

ولكن.. أبداً.. ذلك الأدب المنافق الذي يتحلى به الناس،
كان دائماً يحول بينهم وبين أن يجأروا أو يضحكو أو ينفجروا
بالحقيقة..

نفس ذلك الأدب المنافق الذي جعله يستمرىء خضوعهم ولا
يعود يبالي أن يقولوا عنه ما يقولون، يخفون أو يكتمون أو يظهرون،

فكما أسقط عنه ذات مرة برقع الرجولة، أسقط عنه بنفسه برقع
الحياة.

ونصف نائم، نصف مستيقظ، نصف مخدور أو سكران، يتأمل
جلده وكأنما بفخر، حين يوغل الليل، وهو في الفراندة أو في
اللوكاندة، وأمامه فتحي «الثور» أو إبراهيم «الجحش» أو سعيد
«البغل» أو صبري «الكلب». فلا يزال هو السلطان، لا يزال هو
الأسد.



أنا سلطان من قانون الوجود

أنا «سلطان» قانون الوجود

لا أعتقد أن أحداً - خارج أسرة مدرب الأسود محمد الحلو - قد حزن لمصرعه مثلما حزنت .

ذلك أن القدر ليلتها ساقني لأدخل السيرك، وكانت ليلة الافتتاح، ولا أعرف لماذا ولكني بعد رؤيتي لعبة الأسود تنبأت أن حادثاً جليلاً لا بد سيقع وأن قاهر الأسود محمد الحلو سيصرع على يد أو (ناب) أحد أسوده . بل بحث بالخاطر الحزين لمن كانوا معي، ووافقني بعضهم، بينما لم يكثرث الآخر وكان الأمر لا يعنيه .

وحين تنبأت بما تنبأت به لم أكن ساعتها أستعمل حاستي السادسة ولا كنت صوفياً قد أصيب فجأة بحالة وصل مع الذات العليا واتصال، ولا أعتقد كذلك أنني ولي من أولياء الله .

بل حتى لم أكن أعاني من نوبة غربة تدفعنا أحياناً لتجريد الأشياء من دفتها المكنون وإفراغها من التفاؤل .

بصراحة، لم أكن ساعتها متأثراً بأي شيء خارج القمع

الضوئي المتهرىء المكفى علينا، يقتطعنا من العالم، ويقطع العالم عنا.

وحيثما لا يحدث الشيء صدفة، بل تكون أنت - أنت الإنسان العادي مثلي - على يقين أنه سيحدث.
وحيث لا يحدث نتيجة خطأ أو إهمال.
حين يحدث وكأنه لا بد أن يحدث.

حينذاك من الممكن أن نقف عنده، لأن الأمر لا بد هام وخطير، ويصبح واجباً علينا أن نعود، كلنا هذه المرة، إلى ذلك القمع الضوئي المقلوب نعيش الظاهرة التي دارت أحداثها المروعة هناك، فمن يدري، ربما بعد أن نحياها نجلس، لأول مرة منذ زمن طويل على ما أعتقد نفكر، ليس في محمد الحلو وإنما في أنفسنا، من يدري، ربما تحدث المعجزة وحسناً أني كنت هناك، وأنني شاهد عليان.

* * *

نصف الألعاب مضت، كاللب، نقزقه قطعاً لليلة أولى من ليالي رمضان.

أثناء الاستراحة كان العمال قد أقاموا حلبة ترويض الأسود.

في هالة من فرقعة الأسواط والجثير الذي تضخمه المكثرونات (ليرعب أكثر!) والصراخ والهدير وأصوات الغابة،

دخلت الأسود. عبرت ذلك النفق الحديدي القائم بين محبسها في الكواليس وبين الحلبة، ذلك القفص الحديدي صدىء وقديم. هذا صحيح، ولكنه حديدي أصلي وزيادة في الاحتياط مربوط بحبل قديم إلى العامود الرئيسي لخيمة السيرك.

الأسود دخلت، أسود ستة، زيتية الصفار أو رمادية البنية أو بلا أي لون له اسم، متشابهة، كثرتها تمنع عنها جلال التفرد، وانكماشها يخلع عنها احساس الملك أو حتى احساس التوظف في قطاع عام.

ما لبثت الأسود جميعاً بعد دخولها أن أخذت أماكنها على شكل نصف دائرة مقعبة كتماثيل أسود قصر النيل، مادة أقدامها الأمامية فوق الحامل الخشبي الموضوع أمام كل منها. كل الأسود فعلت ذلك ما عدا الأسد قبل الأخير، ذلك الذي عرفنا فيما بعد أن اسمه (جبار) فقد أقعى فوق منصته رافضاً أن يمد أقدامه أمامه فوق الحامل.

وتولى مذيع أنيق، غريب الأناقة على المكان والناس والأجهزة وبائعي اللب والكاوزة، تقديم المدرب. وبصوت مؤدب، لا مبالغة في طبقاته (وهذا أيضاً غريب) قال: الآن نقدم.. بطل الأسود.. وقاهر الملوك.. ملوك الغابة.. البطل محمد الحلو.

انصبت أضواء الكاشف الوحيد على الرجل الضخم الواقف بجوار القفص، والذي يلتحف بعباءة لامعة براقعة، هذا صحيح،

ولكن يبدو وكأنما استعيرت من متحف ملابس الممثلين بالمرح القومي .

وكانت مفاجأة، فهذا الرجل قد رأيناه قبلاً رئيساً لفريق (الجمباز) في لعبة سابقة ، يقود فريقاً من أكثر من عشرة أشخاص يتولون، ويتولى معهم القفز العالي والدحرجة والقيام بما يشبه المستحيلات، وهو عمل يكفي وحده لأن يقوم به إنسان واحد، المهم، فتح الباب الوحيد في القفص الحديد الدائري، ودخل الحلو، بعظمة ملك يلج قبواً للنبيذ، وتولى العامل إغلاق الباب وراءه بترباس متين .

لاحظ محمد الحلو على الفور أن (جبار) لا يمد قدميه كما ينبغي، ومن فوره اتجه إليه وحاول أن يصحح الخطأ لتصبح نصف الدائرة كاملة، نصف دسنة من ملوك الغابة الرابضة المقعية الخائبة، وهو بينها، ملك الحلبة، وملك الملوك، وملك السيرك وملك الليلة .

تناول الحلو سيخاً حديدياً طويلاً مديباً من طرفه، ولكن طرفه ذاك معلقة به قطعة لحم صغيرة جداً (عرفنا فيما بعد أنها ليست لحم عجول وإنما، لغلو الأسعار، فهي لحم حمير) . وانقض الحلو بالحربة الملمغة بقطعة اللحم (وكانها سيف المعز وذهبه) تجاه الأسد آمراً إياه، أن يمد قدميه . ولم يحدث سوى أن الأسد نام بمنتهى الحزم ورفض أن يستجيب . حاول الحلو مرة أخرى، نفس النتيجة . الحلو، فوق بطولته، رجل استعراض مدرب . ان مسألة التمرد أو الطاعة أشياء لا تهمة بالمرة، المهم أن ينجح العرض، وألا يبدو هذا

التمرد الواحد واضحاً للعيان . .

وهكذا نفّض يداً من مسألة جبار بسرعة وبصرخة هائلة ركزت الأنظار عليه وعلى الأسود الخمسة دافعة أقدامها فوق الحامل الخشبي، وراكعة. وحينذاك فقط تولى محمد الحلو تقديمها. فكان أولها من ناحية اليمين (سلطان) الذي عرفنا الآن جميعاً أنه هو المجرم الذي نهش جانب الحلو وأدى لمصرعه، وكان المتمرد اسمه جبار، والباقون أسماء من هذا الطراز الحائز على صيغ كثيرة للمبالغة. كان على الحلو بعد هذا أن يرفع الحوامل الخشبية من أمام الأسود ليستعد لعرضها القادم. وهنا فقط بدأت أنتبه.

كان يتقدم من الأسد، ناظراً في عينيه، آمراً إياه بهما على ما يبدو أن يمثل، ثم بيديه، ودون أن يغير من نظرتيه، يتولى قذف الحامل بعيداً عن منطقة الخطر، وهكذا...

وتمت المحاولات الأربع الأولى بنجاح، وعند جبار الذي كان حامله خالياً من أقدامه، ما يكاد الحلو يقترب حتى زار الأسد فجأة واقترب برأسه من المدرب هاماً بالتقدم الأكثر. وهنا لمحت ارتدادة خوف سريعة من المدرب. وبدأت أنتبه أكثر.

ليس توقعاً لما هو قادم من ألعاب.

ولنما لما هو أهم. لتلك النظرة الصادرة من عيني الأسد،

والنظرة المنصبة تجاهها من عين الحلو. أحسست أن اللعبة الحقيقية
الخطرة هنا، وأن في الوضع ما يزعج، على الأقل يزعجني أنا..

الليلة الافتتاح هذا صحيح. ومازق الافتتاح معروفة، كم تجربها
أولئك الذين قدر لهم أن يكون عملهم، مهما كان جهدهم أو
ابتكارهم أو كدهم الخاص، مسألة تقديرها ليس في يد رئيس أو
مجلس، إنما في يد جمهور، يقزقز اللب، ويجرع الكولا، وبمنتهى
البساطة يصعد إلى السماء أو يخسف، أحياناً بأعظم الأعمال قيمة،
إلى أسفل سافلين.

الليلة الافتتاح، والجمهور كثير، والأضواء هي الأضواء،
والسيرك هو السيرك، ولكنه زمان، في أول إنشائه كان سيركاً
متلاًثاً، صاحب الجمهور، غني الأضواء. كان فعلاً ذلك المكان
الذي قصد بالسيرك أن يكونه. المكان الذي تدخله ليخلب لبك،
لتعيشه تماماً، تنسى نهائياً أن في الخارج حياة وأحياء ومشاكل.

وأيضاً كان السيرك للاعبين حلبة صراع. أمام جمهوره الحافل
تتفجر بطولاتهم. يغامرون حتى بالحياة وهم يتأكدون أن الموت في
غمرة المجد والأضواء واحساس النفس المصرية الممتد بالبقاء
والخلد، شيء بالمرّة، لا يخيف.

ونحن الآن في سيرك رمضان عام ٧٢.

أنا شخصياً لم أكن أريد الدخول، ولكن لأنه على الأقل أمتع
بكثير من مسرحيات الصيف التي تنفرد كل منها برائحة نتنة خاصة،
فليكن السيرك.

ولكن أي سيرك .

إنك أحياناً لا تحس بالشيخوخة والكبر إلا حين تقابل زميل دراسة سابق أو صديقاً له نفس سنك . وحين دخلت الخيمة لم يكن في كل ما رأيته شيئاً سخيماً أو عجوزاً أو غير عادي . المشكلة أن كل شيء كان طبيعياً وعادياً وكأنك داخل إلى ديوان حكومة أو تعبر حديقة عامة . .

لم يدهمني ذلك الاحساس أنك انتقلت فجأة من عالم مسطفي أو قليل البطولة والنور إلى عالم مليء بالوهج، بالخوارق، بالمعجزات، عالم يبهرك ويحفرك إلى الخوارق والبطولات .

فكأنني فعلاً انتقلت من شارع مزدحم إلى ميدان صغير مزدحم بالكراسي هذا صحيح، كثير الجمهور هذا صحيح، ولكن شيئاً ما حدث للكشافات فجعلها سلطة أساساً على الجمهور، تنير الحلبة، ولكنها بإضاءتها للمشاهدين تجعل من تلك الوجوه جزءاً من العرض .

وأي وجوه . .

نفس الوجوه . .

المتزاحمون الغارقون في العرق أمام الجمعيات الاستهلاكية، في ممرات الأتوبيس وعلى سلالته، المتوقفون فراغاً لمشاهدة خناقة، الجاعلون من (السلطة) على مائدة الافطار مسألة حياة أو موت، تفنناً في صنعها، انتقاء لمكوناتها وبهاراتها ومخللاتها .

أنا سلطان من قانون الوجود

وجوه . .

وجوه كثيرة تلمح بينها وجوه الأشقة العرب، وتستمتع بمرأى الكروش المصرية المتكومة باسم الله ما شاء الله تصنع لكل كرش رجلاً ورأساً وملحقات. النساء وقد بدأت مودة الطويل تنتشر، أقصد الطويل التخين، فقد بدا واضحاً جداً آثار مربة خرز البقر، وإلا فهي آثار (العلف) أو شيء لا بد شبيه بالعلف.

وجوه، ظللت طويلاً والكشافات تنصب على معظمها أتأملها، أتأمل ما يرتسم على ملامحها من تعابير، وعشاً ما كنت أحاول، فالأبخرة الدسمة المتصاعدة من معدات تجار بمحتويات الإفطار، والعرق المتصبب من تلقاء نفسه من صدور ويطون بالكاد تلهث لتؤدي وظائفها، بالكاد إذا تجشأت تتجشأ.

أنوار كاشفة مكشوفة مسلطة على وجوه لا تعكس الضوء، بعضها بالدسم يمتصه، وبعضها لقلة التغذية يمتصه أيضاً، وحلبة متربة، والحضور المسرحي لا وجود له، فلا جماعة، وإنما عائلات وأفراد لا يجمعهم ذلك الرابط العام الذي يخلق جو العرض ويحيطه حتى المهرج من فرط ما نحت دوره من خطوط تؤكد دوره كمهرج، لا يهرج. العمال الذين يقومون بالإعداد للألعاب يرتدون (بدلاً) لا بد أن أصلها كان شيئاً آخر، ربما لباس صعيدي، ربما قلع مركب ربما ممسحة بلاط. زرقاء كل بدل العمال زرقاء. ولكن كل أزرق منها له لون، وفيها زرار، على الأقل لمحت زرارين، ومع هذا فجميع بنطلوناتها بلا زراير وبلا أحزمة أو بأحزمة تصلب الوسط فقط

وتترك البنطلون يأخذ الوضع الذي يحلوه وينفتح من أمام بأي مطلق من الحرية يراه. المنضدة التي تقدم عليها لعبة الوقوف فوق الزجاجات والتي لو كان بها أي خلل ممكن أن تؤدي بحياة اللاعب، لا تصلح أصلاً للارتكاز على أربع، وإنما لا بد لها من سنادات، ولا بد أن تتأمل حكمة الكون أو تفكر في اعتزال الدنيا وأنت ترى منضدة المطبخ تلك، التي لم تطل من عشر سنوات، وأربعة عمال بأربعة أقراص مدورة بأربعة بنطلونات مفتوحة بأربع جاكيتات (زعر)، يدخلون، ليزنوا الأرجل الأربعة. ما فائدة أن أتحدث عن اللعبة نفسها إذا كان هذا هو حال المنضدة، وإذا كان حال اللاعبة التي تزامن اللاعب ومفروض أن تساعد أدهى، ذلك أنها سميكة إلى درجة مزعجة ترتدي جورباً من جوارب (الباليه)، جورب من سمك الجسد والأرجل والأرداف التي يحتويها ومن طول ما احتواها، تفتق في أكثر من مكان (ربما لهذا سموها، أي ذلك الغذاء المسمن، المفتقة). فأنالني أتحدث عن اللعبة أو حتى لو كان صاروخ قد أطلقتته فتاة كتلك من فوق منضدة كهذه المنضدة ليصل إلى القمر، حتى لو تمت بهذه الأزياء والمناضد والجوارب جراحة تحيل الدودة إلى إنسان، فالمعجزة، أي معجزة، تكون قد انتهت من نفسك قبل أن تبدأ، انتهت، وانتهت معها ليلة من ليالي العمر، فالسيرك قام، ليخلب اللب، ليهر، لينقلك إلى عالم غريب حافل بالألوان والبطولات والجمال والمعجزات.

ولكن اللعبة الخطرة كانت قد بدأت.

لعبة ترويض الأسود.

* * *

هي لحظة . .

ولكن ليلة كهذه يكفيها لحظة تحبس فيها أنك حقيقة تنفعل
وأنت حقيقة في سيرك.

ولكن، حتى هذه اللحظة أفسدها عليّ ذلك السؤال الملح:
من أين جاءني ذلك الشعور أن شيئاً ما سيحدث؟

ملت على جارتي أهمس بالفاظ، فإذا بها تنظر لي باستغراب
حقيقي، فهي الأخرى كان لديها نفس الشعور.
المسألة إذن ليست وهماً. هناك في الجوشيء يخيم.
ليس وافداً من كون آخر.

ولا متسرب إلى القمع المقلوب من الخارج. شيء نابع من
الحلبة ذاتها، وحتى ليس من شيء بعينه في الحبة، في الحقيقة
نابع من كل شيء تظمه الخيمة، من الحيوانات والكاشفات،
والأشياء والبشر، من جارتي، ومني، ومنك أنت لو كنت هناك . .

مضى الحلو يتحرك، يحيي، ينقل الأشياء داخل القفص، نفس
الحركات التي تعود أن يفعلها من زمن طويل. لا جديد فيما يفعل،
لا جديد في الليلة إلا عصبية ليلة الافتتاح المؤقتة المعهودة، حتى

الوجوه، الوجوه كلها داخل القفص وخارجه ظل يراها حتى لم يعد يراها.

النظرة المتبادلة بينه وبين الأسد، سلطان كان أو جبار، هي فقط ذلك الشيء الجديد، في الليلة وفي حياته.

الرجل محبوس مع ستة أسود في قفص، وحياته كلها وهو مع الأسود في قفص.

والأسد، بالتأكيد هو الأسد..

ولكن الرجل، هل الرجل هو الرجل؟

والرجل ليس الحلو وحده. الرجل هو كل من تضمه الخيمة لاعباً أو عاملاً وعازفاً ومتفرجاً هل الرجل نفس الرجل؟

بينه وبين نفسه. بينه وبين أهله وجيرانه وأصحابه، أبداً، لا تغيير، هنا فقط. هنا حيث يصبح وجهاً لوجه مع الخطر المروع الذي عمله أن يروضه، هنا يحس الرجل أن شيئاً ما حدث. كأنه دائماً يقول أنا البطل، حتى من غير أن يقولها كان يقولها بنظراته يقولها بمشيته، بقهقهاته، بالعاملين من حوله، حتى الأسود نفسها كانت تقولها. أنا البطل، القادر، الواثق المتأكد.

أيكون ما ينتابه هو لحظة شك. ولكن، من يكون إذن إذا لم يكن البطل.

من الآن.. أنا؟..

كنت أرى الناس أكيلة عيش، وأفندية، وبورمجية، وجدعان،

أنا سلطان من قانون الوجود

ولكن من بينهم أنا البطل . هم أيضاً يرون أنى البطل . يصفقون للبطولة حتى لو تجسدت في غيرهم ، في شخصي أنا .

الآن حدث شيء . ألم يعودوا يرونني بطلاً؟ أم هم لم يعودوا يريدون البطل ، أي بطل . أياكون الأمر أني أنا شخصياً لم أعد أحفل أن أكون عليهم البطل؟ أياكون الكفر المزدوج قد حدث . كفرت أنا بهم وكفروا هم بي وجميعاً كفرنا حتى بوجود بعضنا البعض . والبطل مثل اللا بطل ، والميت كالحى ، والحى كالميت ، والمومس كالفاضلة والحرامي كالشريف ، الأمس كالغد ، الأمل كاليأس .
إن البطل لا يولد وحده .

البطل يخلق . .

ولا بد كي يوجد ويعيش أن يتزعزع في ظل إحساس عام بضرورة البطولة ، بروعة البطولة ، بتفرد البطل .

ولا يمكن لفكرة البطولة أن تتزعزع في جو عام كهذا وحدها .

البطولة قيمة ، ولا بد أن توجد وسط محصول وافر من القيم .

لا مجد للبطولة ، بلا مجد للكرامة ، بلا مجد للنبوغ ، بلا مجد للشرف . . بلا مجد للعمل الصالح .

وأيضاً لا توجد البطولة ، بلا جو عام تلعب فيه اللابطولة . تجتث كالحشائش الضارة منه ، وتجتث معها حشائش سامة أخرى كالجبين كالتفاهة كالنفاق كالكذب .

أما حين (ينجح) الجميع ، المجتهد ، والغشاش والمزور والأبله

والنابع . حين يصبح لا فرق ، لا أعلى ولا أسفل ، لا أرفع ولا أخط .
 حين تمضي الحياة بامتحان لا يرسب فيه أحد ، ولا يتفوق
 أحد ، ولا يفصل أحد . حين يحدث هذا . ماذا يبقى من الإنسان ؟
 وإذا كان هذا السؤال لم يعد يهتم أحد بأن يجيب عليه ، بله ،
 أن يطرحه ، فإن هناك أناساً في حياتنا لا يستطيعون أبداً إهمال
 السؤال ، فهو فارض نفسه عليهم فرضاً ولا فكاك منه . هؤلاء هم تلك
 النسبة فينا التي تحيا وجهاً لوجه مع الخطر .
 وبالذات مع خطر من هذا النوع .

فمحمد الحلو يواجه هذه الوحوش الضارية ويمنع خطرهما بما
 يملكه من إرادة البشر وقدرتهم وما فيهم من بطولة أو قدرة على
 البطولة .

أليس من المهم إذن لمحمد الحلو أن يعرف ، في تلك
 اللحظات التي ينغلق عليه فيها القفص ويصبح وحده أمام الخطر ولا
 مغيث ، أن يعرف ماذا بقي فيه أولاً .

ماذا بقي من البطل ؟

* * *

تصفيق الناس للألعاب في السيرك ، له معنى مختلف عن أي
 تصفيق آخر ، يحمل معنى إنسانياً عميقاً جداً . هناك أبداً أنت لا
 تصفق مجاملة أو مجازاة . بصدق تصفق . والعمل الذي ينتزع منك
 التصفيق ليس أي عمل . كلما اقترب من قدرتك على القيام به كلما

بهت وفق أهميته . كلما استحال عليك القيام به كلما بهرك وازدادت حدة تصفيقك .

ليلتها كان للتصفيق في أذني وقع غريب . فمهما بلغت اللعبة أمامنا من مهارة، ومهما احتوت من إعجاز وبطولة، فالتصفيق حتى في أعتى موجاته كان دائماً يبدو فاتراً وكأنه صادر عن جمهور قد قرر بادئ ذي بدء، أن لا يقيس أي شيء بمقياس قدرته عليه أو استحاله، وكان أي شيء وكل شيء يبدو مستحيلاً تماماً أو حتى ممكناً تماماً . لا فرق .

كان في الحقيقة نوعاً من تصفيق الخجل إذا لم تصفق .
تصفيق أداء الواجب تدفعه كثرمن التذكرة، كالضريبة، وأمرك الله .

وكانت مضخات اللاعبين تجار قواها في محاولات مستميتة من أجل الوصول إلى مياه الجمهور العميقة وسحبها لتصعد إلى مستوى ما يقومون به من بطولات كي تنسكب بعد هذا شلالات حماس وإحساس وانبهار . ولكن المياه ظلت دائماً أبعد من مدى المضخات، وأبعد .

ماذا كان قد بقي من البطل محمد الحلوق؟

* * *

ذلك الذي بدأ حياته في ساحة السيرك، صبيّاً يلعب، ويفرح أنه يلعب، وفوق هذا يكسب، ثم حالماً بالبطولات يحلم، ثم بطلاً يحقق الأحلام وبالسعادة القصوى يتمتع . الجمهور يجار ويزار طرباً،

وهو يقتل نفسه كي يجعله يجار أكثر وأكثر. الدفء حوله وفي داخله .
الحياة حلوة. الأمل عريض . حتى النقود بجلالة قدرها، وفي
لحظات كتلك، لا تهمة بالمرة.

حين تختار أن تكون مروض وحوش، أو لاعب ترايبز، أو طيار
اختبار وتجارب فصحيح أنك تأكل عيشاً بهذه الوسيلة، ولكن لو كان
أكل العيش وحده هو الهدف لما اخترت أياً منها أصلاً، ولجأت،
مثلما يلجأ أكيلة العيش إلى أي عمل آخر خال من أية خطورة كما
يفعل الملايين من الناس أكيلة العيش والأرزقية.

ذلك أنك تختار هذا العمل لتسعد ذاتك أولاً ولتثبت لنفسك
وللناس قدراتك.

فإذا لم يعد مهماً أبداً لدى اناس أن تثبت بطولتك، ولا حتى
لديك أنت نفسك.

فماذا يبقى منك؟

أكل العيش؟

أجل أكل العيش كان هو الإنسان الذي يواجه الأسود وحده في
القفص المغلق.

الخيمة كلها أكيلة عيش متفرجين وعمالاً وبائعي كازوزة ولكن
الذي وزع الأرزاق جعل الآخرين متفرجين.
كلهم يتفرجون.
ويصفقون..

ذلك التصفيق الفاتر .

الناجحون جميعاً في امتحان الحياة .

النافضون يدهم من كل شيء ، الضيقون بأي شيء ، الراضون
حتى عن السخط . والساخطون حتى على الرضا ، الذي انسحبت
منهم مياه الاندماج الحي العميق حتى أصبح مستحيلاً أن يصلها
خلجة انفعال أو نبضة حماس أو لحظة غضب .

أكل العيش وحده مع أكلة لحوم البشر .

والقفص الحديدي مغلق .

ومن بين أنيابهم عليه أن ينتزع لقمة عيشه .

* * *

تلفت حولي .

لا تغير يذكر في انفعالات الوجوه .

لا أحد يعرف .

حتى هو نفسه ، محمد الحلوة ، لا يعرف .

الوحيد ، في الخيمة كلها الذي كان يعرف ، هو الأسد نفسه .

الأسد ملك الغابة لأنه ملك الإحساس .

خطره الأعظم أن لديه القدرة دائماً أن يعرف ، وعلى وجه

اليقين ، إحساس من أمامه .

وإذا اشتتم أنه خائف منه انقضض عليه .

فالغابة ليس فيها إلا المخوف والخائف ، تلك هي العلاقة

الوحيدة ، ذلك هو القانون الأعظم .

كل خائف من حيوان يخيف بدوره حيواناً آخر .
إلا الأسد . .

الجميع يخافونه وهو لا يخاف أحداً .
الحيوان الوحيد الذي يخاف منه الأسد .
هو الإنسان .

أو بالضبط هو ذلك الإنسان الذي بما منح من ذكاء وإرادة
وسلاح يستطيع أن يواجه الأسد وهو لا يمثل أنه خائف منه ولكن
حقيقة وصدقاً غير خائف منه ، بل ربما شاعر أنه الأقوى .

ولا بد لكي تروض الأسد أن تروض نفسك أولاً بحيث تصل
إلى الدرجة التي تواجه فيها أسداً أو عدة أسود وأنت غير خائف منها .

الأسد وحده أدرك أن ذلك الرجل ، الرجل الذي يعرفه جيداً
وتعود منه دائماً أن يمد أصابع نظراته الغريزية إلى أعماق أعماقه فلا
تنبئه الغرائز إلا بأن الرجل ليس فقط غير خائف منه ولكن يأمره وينهره
ويملك إرادة وثقة بنفسه أقوى بكثير مما لديه هو الملك وأن عليه إن
أراد البقاء أن يخاف ويطيع .

ولا بد للإنصاف هنا أن أذكر أن إنساناً آخر في الخيمة كان
يعرف . ذلك الشاب الذي ما توقف لحظة واحدة عن الطواف حول
القفص وملاحقة نظرات الأسود التي تلاحق الحلو . ذلك الشاب
الذي عرفت فيما بعد أنه ابنه والذي خلفه . كان هو الآخر بغريزته
العظمى يعرف ويدرك ، فهو يعرف الأسود جيداً ، رباها مع أبيه

وصاحبها، ويعرف أباه جيداً، ويعرف لا بد كنه هذه النظرات الخارجة من عيون الأسود ومعنى تلك النظرة التي تواجهها والخارجة من عيون أبيه.

وحتى ما تلا هذا من حركات لم تغير الموقف.

إن محمد الحلو مدرب قديم، باعه طويل، وجراب خبراته مليء، إن المسألة ليست شجاعة وبطولة فقط. إنها أيضاً مليئة بالصنعة والحنكة والدهاء.

ها هو يخرج من الجراب كل ما تملك أصابعه التي لا بد أصابتها رعشة خفيفة لا تلاحظ، كل ما تملك أصابعه إخراجه. بقية الأسود تلعب، والجمهور يصفق، وكل شيء يمضي وكأن لا خطر البتة هناك. ولكن الرجل ليس نفس الرجل. إنه هذه المرة خائف. هكذا راحت تدق أحاسيس الأسد الغريزية وتؤكد. في يده الرمح المدبب المرعب ولكنه يرتعش. النظرة خارجة من عينيه ليست واضحة وقاطعة وحاسمة، إنها تتردد، إنها تحسب، إنها تراجع، إنها نحوم، أبداً ليست نفس النظرة.

تلك كانت الليلة الأولى.

الليلة التي أدرك فيها (جبار) هذا الإدراك.

ولكن الذي قتل محمد الحلو هو (سلطان).

وعضه في الليلة التالية.

فجبار حديث المعرفة بمحمد الحلو.

لا تزال العلاقة بينهما علاقة من يخاف من.

ولهذا كان هو أول من أدرك أن الآخر خائف.

أما (سلطان) فأمره مختلف. سلطان قضى عمره كله يعرف الحلوى يخاف منه، ويطيعه، والليلة الأولى، مثلها مثل كل الليالي الأخريات، مرت، وسلطان يقوم بما تعود القيام به من ألعاب، يأمره الحلوى، فيطيع، يكافئه، بلحم الحمير، فيسعد. الحيوان الذي فيه كان غافلاً مستسلماً كالعادة للطبيعة الجديدة المتمدينة المروضة التي تكونت له. في الليلة التالية فقط، عرف سلطان.

فجأة وللمرة الأولى، يدب في غرائزه العميقة ذلك الشعور الذي لم يخالجه أبداً. الرجل. ذلك الرجل الذي يخاف منه، الليلة خائف.

يقترّب منه الحلوى لأداء اللعبة.
يزأر.

يصبح لنظرة الرجل تشتت غريب لم يعهد.
ولو كان الأسد يعرف الاستنكار لاستنكر أن يحدث هذا.

فما حدث بالنسبة إليه شيء لا يصدق، إذا كان الأسد يعرف ما يصدق وما لا يصدق.

للأسف هو لا يعرف إلا لغة واحدة يتفاهم بها مع الكون والأشياء والحيوانات والناس من حوله، ومع الرجل حتى ذلك الرجل. لغة لا تحتوي إلا كلمة واحدة. كلمة لا وجود لها إلا في لغتنا نحن، ولكن الكلمة التي إذا جاءت من الرجل، أحس أنه أصغر

وأضال وأضعف وأجبن وأن عليه أن يرضخ . نفس الكلمة التي إذا رآها في عين الرجل أحس أنه هو الأقوى والأعظم والملك وأن عليه أن يفتك .

لا . لم يكن يريد عض الحلو أو قتله .
ربما أراد أن يتأكد . .

ربما أراد أن يستفز الرجل ليقراً في عينيه نفس النظرة . .
الكلمة التي تعود إذا رآها أن يركع ويخضع .

أراد تماماً كما يفعل المدرب حين يستفز الأسد برمحه ليزأر ليخيف المتفرجين كي يزدادوا تقديراً لبطولته . أراد أن يستفز محمد الحلو بانقضاضه أو بمخالبه أو بأنياه ، لينتفض له ، مرة أخرى ، ذلك الرجل الذي تعود أن يجبن أمامه .

ولكنه ماكاد يستثير وينقض ويدفعه حتى سقط . حتى انهار تماماً وهو في أقصى درجات الرعب ، حتى أطبق على الخيمة كلها رعب أكثر من رعب الحلو نفسه .

وهكذا فجأة أدرك الحيوان العميق المستسلم لقيوده ومصيره وخوفه أنه كان مخدوعاً ، وأنه الأقوى والأعظم والمسيطر والملك .

واندفع ينهش لحم صاحبه المدرب ، ويعضه ، ويكسر قيوده ويستعيد نفسه .

ونستغرب بعد هذا لماذا صام (سلطان) عن الطعام وقضى الأيام التالية حزيناً .

الحزن في رأيي كان سببه أنه أبداً لم يرد أن يحدث ما حدث .
 أن الأسد حيوان ليس الغدر في طبعه .
 وكالكلب، الوفاء عنده، غريزة .
 وهو لم يقصد أن يغدر أو يفترس أبداً صاحبه .
 أراد فقط، كل ما أراد، أن يستمر على وضعه خائفاً من ملكه
 وصاحبه ومدرّبه وسيده . أراد، كل ما أراد، أن يجعله يشعره مرة
 أخرى أنه الأقوى والأقدر .
 كان متأكداً أنه سيقابل هجمته بهجمة أشد منها .
 كان يعبث، كما تعود أن يعبث، حتى يناله العقاب، كما تعود
 أن يناله، ويسعد بعودته للخضوع والطاعة والذلة .
 وحين سقط الرجل، حين سقطت الهيبة الضخمة وضاع
 الصولجان . حين لم يعد باقياً أمام سلطان إلا أن يحس بالشفقة على
 صاحبه فيطبطب عليه ويأخذه بيده وخاطره، لم يستطع للأسف أن
 يفعل . فالأسد، كالحوانات، كالغابة في أساسها، لا يحس بالشفقة
 على أحد . ولو كانت الشفقة قانوناً من قوانين الوجود لماجت الحياة
 وازدحمت بأشكال وأنواع وأنماط ركيكة عاجزة لا تصلح للحياة وإن
 كانت تصلح للشفقة . الأسد إذا لم يخف، خوف . إذا لم يخف أن
 يؤكل خوف بأن يأكل . وإذا لم يجد التخويف، أكل فعلاً، وربما
 هذه هي طريقته في اظهار الشفقة . أن يأكل من لا يعتمد في بقائه
 حياً إلا على إحساس الآخرين بالرثاء والشفقة .

* * *

إلى المستشفى حملوا محمد الحلو . ليموت طباً وعلاجاً .
 وإلى حديقة الحيوان أخذوا (سلطان) ليموت كمداً واكتئاباً .
 وكم آلمي ما حدث للحلو .
 وكم آلم الناس الطيبين ، من رأوا الفاجعة ومن لم يروها . .
 ولكن لأننا جميعاً مشغولون بالإجابة على السؤال : لماذا
 يحدث للحلو ما حدث للحلو؟
 ولماذا ينهش الحيوان المتوحش صاحبه الذي دربه وأطعمه
 ورباه؟
 ولأننا جميعاً لو استحلنا إلى أكلة عيش فسيكون مصيرنا أن
 تنهشنا أكلة اللحوم . والإنسان أثبت أنه على رأس أكلة لحوم البشر .
 لأن الأمر كذلك .
 فلإني أترك المشكلة لكم لتفكروا فيها .
 ففي هذه اللحظة أنا قابع مع سلطان في حبسه الانفرادي ،
 قاتلاً ، ومجرماً ، ومنبوذاً ، ومحل سخط الجميع وازدراؤهم ، قابع معه
 أتساءل ، كما لا بد لدي العقل منا لو كان حيواناً ، أو للحيوان منا لو
 كان ذا عقل أن يتساءل : ما هي جريمتي أيها السادة؟
 أني عقرت الرجل وأرديته . .
 ما ذنبي وأنا لم أفعل إلا أني قمت بدوري كوحش عليه أن
 ينهش إذا خاف مدربه ، وأن يلعب إذا أخافه المدرب .
 أم كنتم تريدونني أن أخدما أنا الآخر هزلاً ، ويصبح الوحش

الذي في نكتة، كما أصبح أي شيء نكتة.

إنني آسف أيها السادة، شديد الأسف لما حدث لسبيدي السابق، شديد الإعجاب بابنه الذي يعتلي الآن ظهور الأسود ويخيفها، آسف أيها السادة فقانون الغابة ليس قانونها فقط، إنه قانون الحياة والأحياء، ذلك الذي لم تستطع حتى أديان السماء كلها أن تلغيه.

إما أن تخاف وتركع أو تخيف وتقتل. في القفص وخارج القفص، فأنت مقتول إن ضعفت أو خفت، أو قاتل، وأنت المسؤول عما تختار.

آسف أيها السادة فأنتم وحدكم الذين تسخرون من هذا القانون وتضحكون فإذا كان العالم يحياه حقيقة وقانوناً وتحينه أنتم سخرية ونكتاً فالذنب ليس ذنب (سلطان).

ليس ذنبي .

وليس ذنب صاحبي محمد الحلو.

صاحبي الذي خضعت له بطلاً.

وحين أصبح آكل عيش مثلكم أرديته .

فأنا لست سلطان الأسد.

أنا سلطان قانون الغابة، وقانون الحضارة وقانون الإنسان وقانون كل الوجود.

جيوكوندا مصرية

إنها ليست أول مرة أحاول، ربما هي ثالث أو رابع مرة، فأنا أحس كلما أردت كتابتها أن اللغة التي أستعملها أخشن وأصلب وأجوف بكثير من أن تستطيع التعبير عنها، أحس أن لغتنا، تلك التي نتحدث بها ونكتب خلقت لتصوير أحداث ضخمة وأحاسيس كبيرة الحجم كالصخر أو حتى إذا صغرت فهي كالرمل أو الحصى في حين أن ما أريد تصويره ناعم موسيقي رقيق دقيق كأنه الذرات العالقة بشعاع الضوء إذا سقط في غرفة مظلمة. لا. ليس حتى كعزف الكمان أو أنين الناي، إنما هو كاللحن الذي لا تستطيع سماعه إلا إذا خفت الضجة في الدنيا كلها أو سكن الكون تماماً، ثم طهرت نفسك من كل ما يشغلها من هموم الأرض وأحاسيسها الترايبة العابرة، واستحضرت في ذاتك المعاني الحقيقية للرحمة والحب والحنان والإنسان، المعاني الخالدة السرمدية التي يحيا البشر على أمل أن ذات يوم تتحقق، حيثئذ فقط، وبعد طول معاناة في تهيئة النفس، وطول تأمل وسكون، ستجد نغماً رقيقاً واهن الضعف قد بدأ يتسرب إلى نفسك، ليس من أذنك فقط، وإنما من كل ذاتك ولكل

ذاتك، يتسرب النغم تسرباً لا يفعل أكثر من أن يحيل ذاتك نفسها إلى ذات النغم، حتى لتندمج معه في وحدة بالغة الشفافية.

أنى لي بكلمات تستطيع وصف هذا وكلماتنا صنعت لمعان محدودة واضحة لا شك فيها ولا اختلال، أنى لي بكلمات تستطيع وصف عشر الانفعال، والواحد على المائة من الارتجافة أو الخفقة الواهنة المرهفة التي يكاد السمع يتجاوزها؟

أنى لي بألوان أستطيع بها وصف لون «حنونة» المسيحية، ذلك اللون الذي لا هو أبيض ولا قمحي، ولا هو أوروبي ولا شرقي، لا هو صعيدي ولا من أقصى الشمال في بحري، لون حتى في مكوناته زرقاء ليست زرقاء الموات ولكنها كزرقاء الفجر إذا شققت، أو زرقاء البحر إذا هجع وتحولت موجاته إلى نداءات وديعة تؤوب إلى مستقرها عند الشاطئ خاشعة ساجدة تهيب بك أن ترتمي بحراً وتعب زرقته حتى النهاية.

وكيف لي أن أبدأ القصة وليس في ذهني بداية واضحة، إن هي الا علاقات متصلة بين الناس ومنشأ مشترك، وطفولة، ثم صبا، و(شال) كموني باهت، وحجرة ليس بها أحد سوانا، وخبز مقدس، ثم انجيل صغير الحجم كثير الصفحات، مكتوب بلغة عربية لها طعمها الخاص.

وكنت في سن البلوغ، تلك التي تحس فيها أن هناك دنيا هذا صحيح، وهناك صبح وشمس وقمر، وهناك بلاد بعيدة قبل البحر

المالح وعبر المالح وبعد المالح ، (الطللمبات) بضخامتها السوداء الزيتية المهولة وصوتها المتشد الوقور المستمر، والماء المجذوب بسحر خفي وبكم هائل إلى فتحاتها والماء الهادر الغاضب المندفع الأرعن الخارج عنها، هناك الغربان والعصافير، وأولياء الله الصالحون، وهناك المصحف والآيات التي يجب عليك حفظها وكلها عن جنة شديدة الجمال غريبة، وعن نار جحيمية يقشعر لها بدنك وثواب وعذاب ودنيا وآخرة، وهناك أيضاً، وهذا هو المهم المباشر، خيزرانة الشيخ مصطفى المنكفيء العمامة إلى أمام أكثر مما يجب، ذي الأرجل الرفيعة المنتهية بركب كرؤوس عيدان الكبريت، حين يضع ساقا رفيعة فوق ساق، ويتدلى حذاؤه حائل اللون فاغر الفاه، ويهز لك رأساً فوقها تهتز العمامة ويقول: سمع يا ولد. هناك شيء ما هذا صحيح. شيء لا نراه ولا نحسه، شيء آخر غير ليلة القدر، والموت، والحب الشديد الذي أكنه لأبي، شيء بإرادته مختلف لا يريد أن يظهر، ربما خوفاً علينا، إذ ربما لو ظهر لمتنا من شدة الخوف والرعب والمواجهة. شيء آخر غير العفاريت، فالعفاريت رغم كل شيء فيها ما يضحك، ولكن هذا الشيء لا يبعث على الضحك أبداً. إنه قاس وقور مهيم رحيم.

قلت لحنونة، وأنا بالضبط لا أعني ما أقوله:
- أريد أن أكون مثلك . .

كانت لا بد أكبر مني ربما بعام أو بعامين، فقد كانت أطول وإن كانت أضعف، ولكنها دائماً الأعقل والأحكم. وهنا بالضبط أعجز عن

التعبير. روحها ذلك الإحساس المشع منها وكأنه النور يأتي من لا مكان أو بطريقة غير مباشرة، روحها تلك كانت تضيفي على كلماتها ومشيتها وعلى الطريقة التي ترفع أو تخفض بها يدها أو تقضم قضمة صغيرة وبأسنانها الأمامية من الخبز المقدس.. مسحة غريبة البراءة والنقاء والرشاقة تجعلك تعتقد وكأنها ليست من أهل الأرض، وكأنها النوع الثاني من البشر، ذلك الذي يصنع الحلقة الكائنة بينهم وبين الملائكة.

ولا أذكر بماذا أجابتي. ولا حتى على وجه الدقة إذا كانت قد أجابت، وماذا أيضاً قالت عن الانجيل، والخبز المقدس، و(كيريا ليسون) ومعناها كما علمتني (يا رب.. ارحم)، وكنت قد سمعت القسيس الآتي من المدينة يرددها في زفاف (عفيفة) حين تزوجت منذ شهور. كل ما أذكر أنني من إجاباتها بدأت أحس أن هناك أناساً آخرين، غيرنا نحن أظن أن الدنيا كلها مسلمة، وإن هذا الدين الآخر الجديد مملوء بأشياء تثير الخيال، وتبعث على حب الاستطلاع الشديد، وخاصة أن لهم في البندر - كما عرفت من حنونة - كنيسة، فيها صورة كبيرة للمسيح، وفيها شموع وثريات بالكهرباء، وفيها غناء، بل إن كل صلاتهم غناء في غناء.

ولم أعد أدري، أسر تتبعي لحنونة - حتى وهي في طريقها إلى النوم - إن هو إلا محاولات أكثر لإدراك أشياء أخرى عن هذا الدين، أم هو استسلام لذلك الاشعاع الذي لا يقاوم الدائم الصدور عنها

يجذب إليها الناس والأشياء ويحيل كل ما تصنعه إلى حدث براق ممتع رقيق مشير.

ولكن ما أعرفه أنه لا أقول بدأت أحس برباط قوي يربطني بها، وإنما بدأت في أحيان أعني أني لا أتركها وكأني ظلها، احساس كان لا يراودني إلا في اللحظات التي أغادرها فيها.

فأنا معها كنت لا أحس بنفسي ولا بما أفعله أبداً، فأنا ذائب تماماً في ذلك اللقاء المستمر معها، لا هم لي إلا تأملها، وتتبع ما تقوله أو تفعله كالمشدهو بمعجزة خارقة، دائمة الحدوث، لا ينفصل عن شعوره بها ولا يبغى إلا أن يظل في حالة النشوة المشدوهة تلك لا يغادرها أو تغادره لحظة.

ويخيل لي أن مشاكل العالم تنشأ من هنا. فنحن أبداً لا نستطيع الصبر على ظواهر الكون أو التفاعل التلقائي للأحداث وعلاقات القوى والنماء وهي تنشأ وتنمو وتتفرع وتزدهر، إنما، دائماً بإرادتنا الحمقاء وقوانيننا التي ابتدعها أقدمون متزمتون، دائماً نتدخل، فنفترض سوء النية أو حتى حسننا ونتدخل، وفي تدخلنا نحاول الفرض والكبت والقطع والتأكد المستعجل ولوي سنن الحياة.

ترى ما إذا كان يضير أن تستمر علاقة كهذه، زهرة وديعة وسط غابات الطبايع والنفوس والعلاقات الاجتماعية المتشابكة المعقدة التي لا تدري عنها شيئاً.

وماذا يهم أنني ابن مهندس الطلمبات، وإن والد حنونة هو كبير

الأسطوات، وأنني ولد وانها بنت، وأن كلام الناس كثير، مع أن الناس في (المستعمرة) التي نسكنها جميعاً قليلون، كلهم لهم مساكن أقامتها لهم وزارة الري قريباً من مبنى الطلبات هائل الضخامة، مستعمرة ومجتمعها وطلباتها كائنة في مكان ما، بعيد وسحيق من شمال الدلتا. مجتمع صغير مكون من مجموعة صغيرة - وإن كانت في ذلك الوقت تبدو لعيني وكأنها ربع العالم - مسلمون ومسيحيون، ومع هذا فالف مشكلة قائمة، والف شركة تؤلم بلسعها ووخزها هذه العشرات القليلة من الحلوق في ذلك المكان الكائن عند آخر الدنيا.

بدأ الأمر بشكاية من أمي لأبي، وأبي خاضع لأمي منذ قطعت ساقه أو التهمت مروحة الطلبات لا أعرف، فالقصة غالباً لا تروى، إذ هي دائماً وكأنما تجلب معها الذكرى والألم. ومنذ أن أصبح أبي بساق واحدة أصبحت أمي بثلاث سيقان وعشر أيد ومائة لسان.

وهكذا أوقفني الرجل الطيب أبي ذات صباح وأنا ذاهب إلى (كتاب) الشيخ مصطفى وأفهمني بطريقة لا تقبل الجدل أن علي العودة بعد (الكتاب) إلى البيت مباشرة.

لم يشأ الرجل الطيب أن يؤلمني بذكر حنونة وحكايتي معها. أثر أن يدع الباقي لفهمي. وأنا أيضاً لم أشأ المناقشة، فقد اعتزمت ومنذ اللحظة الأولى أن أخالف هذا القرار، وأكذب، وأقابل حنونة. وكيف لي أن أستطيع الكف عن شيء لا أفعله بإرادتي، إنما أجد نفسي، هكذا، كما أجوع وأعطش وأشرب، أفعله، دونما فكر أو

أرجحه للاحتمالات وأخذ قرار. اننا ونحن أطفال وصبية نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا ومع ما نريد، وما نريده يكون أكثر صدقاً مع الحياة نفسها، كل ما في الأمر أننا صغار في عالم لا يخضع للحياة وقوانينها وإنما ينظمه ويقننه ويحكمه الكبار. ولا بد دائماً أن يتدخلوا، فإذا فعلوا فإنما يجبرونا، لا لنمتنع، وإنما لنراوغ ونكذب ونكرهم كما نكره العقاب.

ولا أعرف ماذا بالضبط، وبالمقابل، حدث لحنونة.

ولكنني في مكاننا المعتاد عند (الهدار) وهو البئر العميقة التي تصب فيها كل المياة القادمة من المصارف الكبرى، وتأخذ عنه أفواه الطلمبات الماء لترفعه بعد هذا إلى أعلى، إلى مستوى منسوب البحر الأبيض ليطم صرفه والتخلص منه، إذ الماء الجوفي في الدلتا وشمالها أقل من منسوب البحر ولا بد من ضخه إلى أعلى، ومن أجل هذا أقيمت الطلمبات. في مكاننا عند الهدار لم أجدها. وانتظرت، وتأملت كثيراً منظر الماء وهو يهدر في الهدار ويدور ويصنع دوائر كبيرة تنتهي إلى دوائر أقل وأكثر انخفاضاً وتدور بسرعة أشد إلى أن تصنع الدوائر حفرة على هيئة القمع يقولون إن قاعها يبلغ الرجل ولا يبين له بعد هذا أثر. ولم تحضر. وغير قريب من بيتهم وقفت وقد بدأت أحس أن يد الكبار غليظة حقاً وأنها قد عملت عملها وأن اليوم الواحد العذب الممتد الطويل قد انقطع.

وفي الشباك لمحتها، كنا العصر، والشمس قد استحالت من جهنم الظهر المروعة إلى مجرد مصباح أصفر رقيق يضئ الشباك

وداخل الغرفة، وفي وسط تلك الأرضية الصفراء الحية يصفرتها يستدير وجه حنونة وقد أكسبته الأشعة لوناً غريباً يلمع من خلال القضبان الحديدية الداكنة، لوناً يحيل الوجه إلى شمس أخرى، شمس مخنوقة منكفئة الجبهة، مختبئة.

وقفت أنتظر منها إشارة، أو بريق عين حتى، يدل على أنها رأني أو أرادتني، ولكنها كانت صامتة واجمة، كانت بالضبط صورة (العدرة) العذرة مريم، نفس الصورة المعلقة في غرفتها معلقة الآن في النافذة، ولا بد أن ألقاها، وأنا أعرف الست (أم حنونة) وأعرف أنها وإن كان يقال إنها أشد الناس سلاطة، إلا أنها معي طيبة، تعطف وكأنما بالسليقة على مزاملتي لابتتها، كثيراً ما دست في جيبي برتقالة، أو حبات (بون بون) ودائماً تقول سلم على الست (أم محمد)، سلاماً لا أوصله، فقد كنت أعرف رأي أمي فيها، ورأيها في أمي.

الباب مفتوح، أأدقه؟ دخلت.

أم حنونة خارجة لتوها من المطبخ وهباب الوابور على وجهها وأطراف شعرها الأبيض وملابسها، أشرق وجهها بابتسامة وكأنما أدركت سبب المجيء، أعقبها في الحال تجمد ملامح وكأنما ظهرت إلى وعيها المشكلة والتحذير، وتلعثمت، وفأفت، ولكنها لم تصرح بشيء، وإنما استدارت وكأنما لم تر ولم تسمع، وعادت إلى المطبخ.

وما يدريني، فقد قرأت في حركتها تلك علامة الرضا،

واندفعت إلى الغرفة كالسهم . ووجدت حنونة واقفة تبتسم وتنتظر
انتظاراً منخفض الرأس لا يزال وفي عينيها دون أن أراها مكر بريء
جميل كمكر المحبين .

ولدهشتي أقدمت على حركة لم أكن قد تعودتها منها أبداً،
مدت يدها تصافحني ، وبكل ما لدي من لهو حجة مددت يدي
وشددت على يدها بقوة حتى بدا أنها تألمت . كما دائماً نلتقي أو
نسير أو نتحرك أو نقدم على عمل الشيء معاً ، أما أن نتصافح فذلك
ما لم نفعله إلا هذه المرة . يدها صغيرة كانت ، ويدي رغم العامين
فارق السن ، أكبر ، يد نحيلة بأصابع أيضاً رفيعة ونحيلة وكأنك تقبض
على مجموعة من أقلام الرصاص ، ولكن ، لم تكن أقلام رصاص ،
كانت اليد بأصابعها حية دافئة كأنما تركزت فيها كل اشعاعاتها
الخاصة لم تكن يداً . كانت قلباً نابضاً دق ، نفس القلب الذي
سمعت دقته حين كنت أتعلم الاقتراب بوجهي من صدرها . مصافحة
روعتني وأحدثت بي مساً .

قلت لها : أنت كالعذرة مريم .

رفعت حاجبها في استنكار مذعور ، ولكنها عادت تبتسم كأنما
عيب ما أقول ، ورغم هذا سألتني : كيف ؟

قلت لها : وأنا أراك من النافذة كنت كالعذرة ، بدون المسيح يا
حنونة ، أنت حنونة - وكم كان يمتعني دائماً أن أناديها باسمها وكأنما
أستمتع بنطق الاسم وطعمه في فمي - أنا المسيح وأنت العذرة .
خليني مسيحك وأنت عدرتي .

كادت، بل ضربتني على يدي فعلاً، إنما برفق تنهاني . ولكن الفكرة كانت قد استبدت بعقلي، ولم تكن بنت لحظتها. لا بد أنها نبتت في ذلك اليوم الذي كنا فيه منفردين كالعادة في منزلهم، وكنت أصدق في صورة العذراء مريم وهي تحتضن ابنها المسيح بحنان زائد. كانت ألوان الصورة قديمة وباهتة، ومن رأس مريم كانت تخرج اشعاعات تذهب في كل اتجاه، وكان عيسى طفلاً جميلاً جداً يتسم بسعادة الابن المدرك أنه في أحضان أمه، وفي كنف رعايتها وحنانها وكانت مريم أيضاً تبسم، شبح ابتسامة يعبر وجهها وشفقتها، وكأنها تدرك أن صورة ما ستؤخذ لها، وتريد أن تضمن الصورة ابتسامة أم سعيدة بابنها حقاً.

وحين التفت أحداث حنونة أحسست على الفور أنني أريد أن أرتد طفلاً، أرتكن إلى حضن حنونة وتسعد بي مثل سعادة العذرة مريم بمسيحها، ولكني، في ذلك اليوم، وأنا أطلب منها أن تكون عذرائي وأن أكون مسيحها، لم أكن أفعل ذلك وفي ذهني أن أتحوّل إلى طفل صغير تحتضنه أمه. هناك، وراء سؤالي وطلبي كانت ترقد رغبة قوية قديمة عارمة، أن أحتضن أنا حنونة. آخذها بين ذراعي، وأطبق عليها، ليس بعنف وقوة، فأنا أعرف أنها رقيقة هشة، إنما بحنان ورفق ورقة أريد أن أطبق عليها، أريد بيدي إذاً أطبق وبحضني إذاً احتواها أن أحتويها تماماً، وأصغرها وأدخلها بطريقة ما في صدري فتلك هي الوسيلة الوحيدة في رأيي لإسكات هذا الإحساس المستمر برغبتني في الاقتراب منها والالتصاق الدائم بها.

كنت أريد أن أقرب منها الاقتراب الأكبر، اقتراباً أكبر بكثير مما كنا نفعله مع البنات ونحن نلعب لعبة الزواج في المخازن القديمة.

حدثت في حنونة طويلاً. كانت تلك أول مرة أراها تحقق في على هذا النحو الغريب. كثيراً ما كنت أسأل نفسي عن رأيها في أو احساسها نحوي، ففي معاملتها لي لم أكن أحس بذلك الشيء الخاص الذي تنفرد به العلاقات الخاصة، كنت أحس بنفسي وكأنني في نظرها لست سوى صبي في الرابعة عشرة، مجرد صبي آخر في عينيها ذات الستة عشر ربيعاً، حقيقة تربطها به علاقة ورفاقة وتآلف واتفاق، ولكن لا شيء أكثر من هذا في تحديقها هذه المرة أحسست، فجأة، باللمعة في عينيها تأخذ ذلك الطابع الذي طالما هفوت إليه، طابع الإحساس بالخصوصية، أحسست أنها نظرة موجهة لسي أنا، وأنها تقول بها كلاماً كثيراً تخجل أن تقوله العين نفسها، ولا تفصح عنه سوى النظرة، بل هو كلام لا يمكن - أو كان لا يمكن في نظري - أن تقوله عين، وبالذات عينيها، كلام لم أملك معه إلا أن أقرب منها. كثيراً ما كان أحداً يلتصق بالآخر ونحن سائران ويتأبط ذراعه، ولكن تلك أول مرة نقرب فيها إلى هذه الدرجة. ولم أكن، كائنة ما دارت أحلامي وأمنيّاتي، أتصور أن يحدث ما حدث، وأن، فجأة، تضمّني حنونة إلى صدرها، بقوة مرتعشة مستعجلة مفاجئة، وتطبع على جبيني قبلة سريعة، لا بد أحمر لها وجهي كثيراً. ورفعت رأسي وأصبح وجهي يقابل وجهها. كنا اثنتين، نلهث، وجاءت المفاجأة الرائعة الثانية فقد وجدتها تنحني، وأنا الأقصر قليلاً،

وتقبلني في شفتي، قبله سريعة أيضاً، عزيمة الاضطراب والارتجاف حتى لقد أحسست بموجات الارتعاش التي تجعد شفتيها تنطبع على شفتي، قبله سريعة كأنها البرق، ولكنها البرق، ولكنها شملتني بكهرباء نعناعية المذاق تفتحت لها كل مسام روحي وانتعش قلبي وكأنه طائر ربيع بكر في اليقظة، قبله خلفتني إلى أعظم اضطراب شعرت به في حياتي إلى تلك اللحظة، فوكأنني فجأة قد أدركت، بالقبلة أن حنونة بنت. فيها من ذلك الشيء الذي يميز جنس النساء. والذي يجعلهن يرتدين تلك الألوان والأثواب ويتضمخن بالعطور، ويصلصلن بالغوايش والخواتم والعقود، فيها من ذلك الذي يبرز الصدور ويجعل الجلد في نعومة الحرير وللصوت ذلك النغم الرقيق في مقابل صوت الرجل الخشن كجسده الشوكي كذقنه، الداكن كوجهه وشعر صدره. حنونة إذن أنثى. اضطرابي كان سببه أنني أبدأ لم أتصور هذا قبلاً أو أحلم به. حنونة في نظري كانت كالعدرة كالألهة، كالمسببة العظمى في كل خلجة سعادة يحفل بها الكون. الله جل جلاله. الله سبحانه وليغفر لي الذنب أنثى. لجزء من جزء الثانية عاودني الشعور وأنا لا أزال أستجيب لاحتضانها بيدي تلتف حولها وتضمها، أحس أنني أضم عذرية الكون الأزلية، عاودني الشعور ولم يزايلني. سقط في قاع عقلي ولم يرجه وظل كالأمني العميقة حبيسة تقديس العرف والمعقول والتقاليد أمنية أن تذوب الذات الصغرى في الذات الأعظم، أن تحب الله إلى الفناء، أن يتم الاتصال الخالد بينك وبين السر الكوني الأعظم.

وحتى لو كنت قد نجحت في تصور حنونة أنثى وفي إنزالها من

الملكوت إلى الأرض جسماً من لحم وعظم فقد كان من المحال أن أقرن هذا التصور بنفسي، من المحال أن أتصور علاقة لي تقوم مع حنونة الأنثى حتى لأفعل معها مثلما أفعل مع سائر البنات، حاولت كالمجنون أعيد القداسة إلى مكانها، أستعيد إحساسي أنها الأعظم، وأن ما تشعه في الكون من جمال ورشاقة وتفوق يجعلها فوق مستوى البشر، يرفعها للسماء، حاولت جاهداً أن أعيد الشعور ليحول بين الشاب الصغير الذي انتفض داخلي فجأة متسجياً لنداء الأنثى الذي تولدت عنه حنونة فجأة أيضاً، ولكنني كنت أحاول المستحيل، فكل قداسات الدنيا من المحال أن تباعد بين القوتين الأعظم للحياة إذا وجدتا، الرجل والمرأة، إذ ثالثهما هو القانون الشيطاني الذي لا يمكن عصيانه. وقبلتها أنا، مرتجفاً، مضطرباً مثلها، إنما قد استجمعت ما فيّ من رجولة بكر، ولتكن حتى ما تكون، أرضية تكون أو سماوية، قديسة أو فتاة عادية فأنا محبوب وأنا محب والبادي كانت هي وعليّ أنا أن أنعم مستحماً عريان في ذلك البحر المفاجيء الغريب الذي تفتح لي فجأة من بين شفثيها. يا لقلبها يدق وقد رقدت على الكنبه وأذني فوق قلبها، دقاً كونياً يكاد يزلزل الأرض والسماء فقد كان يزلزلني، يا لوجهها أجد فيه الأرض مرة وكل ما فيها من جمال، والسماء مرة وكل ما فيها من قداسة، علوية ترايبية، تحمر وتصفّر تكتتب وتكسوها ابتسامة العذراء، تموج كسطح البحر الرهيب الذي تفجر، دون أن تنطق، دون كلمة يتلوى جسدها ويتكلم، عذراء كانت وعذري كنت، وكلانا لا يعرف، ويريد أن يعرف وهو يحاول أن يعرف، والغمامات التي كانت تحجب عيوننا عن

أن ترى، وأن ترى أول ما ترى أنفسنا، تنزاح والحمى ليست حمى الغيبوبة ولكنها حمى التعرف المجنون والاستحواز والمتعة والاكتشاف، حمى السر الكوني إذا، أخيراً انكشف، حماك وأنت واقف ترقب ليلة القدر إذا انفتح باب السماء أمامك حقاً واكتشفت من خلاله سر السماء، أو إذا انشقت أمامك المرأة فجأة عن مكنونها الأعظم لك، ولك وحدك.

كلما تذكرت أنني كنت لو حاولت تخيلها بنتاً وأنثى أحس أنني على وشك القيام بمعصية تزلزل الأرض والسماء كما لو كنت على وشك ارتكاب الإثم الأعظم، أعظم إثم يرتكبه بشر، كنت كلما تصورت هذا وأحسست بحرمانى السابق يطغى أضمرها وأعتصرها وألوكها، حية دافئة، أنثى، أمرغ نفسي فيها وفي حرمانى منها وفي قداستها وفي الإثم الأعظم وبشريتها، والزمن الطويل الذي انقضى أعبدها، كنت أعبدها، وهأنذا أنا العابد أنا لها وعلى نحو محال أن تتطرق إليه أشد الأحلام تخريفاً وبعداً عن التصديق.

وماذا أقول: أقول إن القداسة التي كانت تحيط بها وتصبغ صوتها وحتى إشارات يدها كانت إشعاعات الأنثى فيها، إشعاعات المرأة مقدسة ومشركة، إشعاعات النوع والأنوثة كلها مركزة كضوء العدسة في حنونة، حنانها، مسيحيتها، جمالها، نظراتها، عبادتي لها، كلها أنوثة وأنثى، ولقد مرت سنين وسنين، وعرفت نساء ونساء، ولكني، لأنها كانت هي الأنثى في ذلك اليوم لم أشعر، منذ يومها، أنني الرجل، ذلك الرجل، إلى الآن.

وكانما الماء في الهدار بهدوء شديد بطؤت حركته، وضحلت
حفرته، وآب إلى سكون.

وكانما البحر الذي انبثق من بين شفيتها بطول الدنيا وعرضها،
آب سطحه إلى زجاج.

وبالكاد حاولنا الاعتدال، وهي خجلى ولكنها ليست نادمة،
وأنا خجلان، حين لمع شعاع عند الباب على حين بغتة، شعاع
أدركت في الحال كنهه وأنه صادر عن زجاج نظارة معوض أفندي أو
الباش أسطى أبيها، الطويل الرفيع ذي العينين المتعبتين دائماً، والتي
لا بد تجد عند كل زاوية منهما، وفي أي ساعة من ساعات اليوم،
نقطة بيضاء من العماص أو الالتهاب لا أعرف.

كنت خجلان ولكنني كنت كالمؤمن الذي للمرة الأولى في
حياة إيمانه يتصل الاتصال اليقيني المادي بخالفه، وتتم المعجزة،
ويتحول عنده الإيمان إلى رسالة ويقين مستعد أن يفقد حياته نفسها
وبكل بساطة في سبيلها، وهكذا حين انسحبت حنونة من الحجرة
هارية كالقطة، ودق قلبي الصبي دقة قلب الصبي مضطرب، أوقفت دقة
بعناد المؤمن المهووس الممتلىء إيماناً، ليس بما فعله منذ لحظات
بالذات، وإنما بحنونة، وكل ما يتصل بحنونة، وعلى رأسه أن تستمر
علاقته بها، قامت الدنيا أو قعدت، ضربه معوض أفندي أو تشاجر
مع أبيه، ردحت أمها لأمي أو خنقتني الأم، سحب أبي بندقيته
القديمة من دولابها وأطلق النار على عائلة معوض كلها أو عليّ أنا
منفرداً، فليحدث، وإنما كما يصلي العابد لإلهه، كما يتصل الشعاع

بأمة الشمس، كما لا يمكن أن تخلو النجوم من الليل فصلتي بحنونة أكبر من كل هذه الحتميات، باقية وستبقى، إلى أن أموت أو نموت معاً، وربما حتى بعد الموت تبقى .

ولكن يبدو أنني رغم هذا الاحساس الداخلي المروع، كان وجهي من الخارج، وأمام مشهد معوض أفندي المنتصب طويلاً ورفيعاً، ينخطف، وينسحب كل ما في جسدي من دم ويسيل مغرقاً أرض الحجرة. بقيت واقفاً جامد العينين مخفضهما أنتظر العقاب. كنت رغم هذا أدرك أنه جاء بعد النهاية، وأنه لا يمكن أن يخمن حقيقة ما حدث، ولكني بإصرار كنت أنتظر العقاب. وليته عاقبني، ليتته ضربني أو سبني، ليتته حتى اشتكى لأبي وليت أبي قتلني، فكل ما فعله أنه بعد سكوت طويل قال :
- أنا كنت فاكرك جدع مؤدب يا محمد.

كلمة من الكلمات التي تلتصق بالذهن مدى العمر لا تمحي . كثيراً ما ترد إلى أذنيك، وتجدها فجأة قد انبثقت من غياب الماضي واستحضرت نفسها، حتى على شفتيك تنطق نفسها فتردددها، وتشملك رعدة خجل من نفسك وكأنها الرعدة الأولى التي أصابتك حين سمعتها أول مرة، وكلما تذكرتها، تذكرتها كاملة. نفس النغمة والطريقة التي قيلت بها، ولا أدري بالضبط إن كانت قد مرت شهور أو أعوام على ما حدث إذ كل ما تلا ذلك كانت أياماً مملة كثيفة ممتدة الطول لا نهاية لها وبلا هدف. آلاف المرات ألف حول البيت غلّي المحها. كنت أعرف أن القضاء قد حل وأن الأمر البات

الصريح قد صدر لها من أمها وأبيها معاً، أن لا تراني، أن أموت تماماً من وجودي. وكنت في مرات، مرات قليلة جداً، مرة كل ألف مرة، أراها، أراها من بعيد وأتطلع إليها مكتفياً بنظرة البعد وكأنني الإنسي يتطلع إلى نجوم السماء، ويحز الهوى القدسي في نفسي أحياناً حتى ليدفعني دفعاً أن أقترّب، وأظل أقترّب حتى لأصبح على مرمى البصر منها، وأناديها، بهمس خفي مرة، بصوت عال مرة، وأشير لها، بيد ترتعش، بيد أحياناً مهووسة متوترة، بذراع تقفز مع الجسد في الهواء وكأنما تريد أن تمسك بخط البصر الكامن بين عينيها المستقيمتين وبين الأفق. ولكنها لم يحدث أبداً أن رمش لها جفن الإدراك، إدراك وجودي، واقفة أبداً في قلب مربع النافذة الأصفر الذي تقطع صفرتة عمدان الحديد، عارفة بوجودي، هكذا أحس وأكاد أقسم ولكني أعرف أنها لا تدركه أو تأبى إدراكه، لا بد أنها قطعت على نفسها عهداً أمام أوبريها، وعهود حنونة، كحنونة، مقدسة، ومحال أن تحنث بالعهد المقدس. أذوب وجداً وأنا أتذكر، أتذكرها من لحظة عرفتُها إلى لحظة المعرفة الأعظم، أتذكر كل حركة صدرت عنها، كل كلمة عرفتُها، إلى لحظة المعرفة الأعظم، أتذكر كل حركة صدرت عنها، كل كلمة، كل نظرة ذات معنى ارتسمت ذات مرة على ملامحها، أتذكرها وأذوب وجداً وشوقاً وأقتل نفسي ندماً. أكان لا بد أن أصل إلى المستوى الأعظم ألم يكن القرب مجرد القرب، أهون ألف مرة من التلاشي التام إلى حد القطيعة. كنت كالبطل في قصة ألف ليلة وليلة ذلك الذي تركوه في القصر ذي الأبواب السبعة وأمروه ألا يفتح الباب الساسع للحجرة السابعة، وعاش في القصر ينعم ويستمتع،

ولكنه لم يستطع أن يقاوم المتعة الأكبر، أن يفتح الباب السابع، وفتحه، ورأى ما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ولكنه في النهاية وجد نفسه هناك خارج القصر في النقطة السحرية التي فتح له باب القصر منها، كأننا عادياً قد عاد إلى الدنيا العادية، ووجد هناك ستة يرتدون السواد ويجلسون في بكاء متصل، إنهم أولئك الذين سبقوه إلى الندم، وانضم مالك الحزين بملابسه السود ليصبح سابعهم، أكان لا بد من الباب السابع والمتعة الأعظم؟ كمالك الحزين أبكي، وبالندم أحياء، والعالم كثيب، والأيام من فرط طولها عجوز رمادية شائخة، والليالي بلا منتصف أو فجر أو صباح، والعمر بلا زمن، إلى أن جاء الخريف، وسرت الإشاعة ولا أصدق أنا، وتحدد اليوم، والشخص، وحلت الليلة، وانتشرت الكلويات في المستعمرة، وتركزت في المربع الأوسط الواسع، الأضواء تكسر الظلام باهرة، والشموع كثيرة لا حصر لها، حتى رائحة الشموع نفسها كانت على البعد تشم، وابن عمها جاء من الصعيد ليتزوجها، وهم يزفونها إليه، ونفس القسيس الذي يزورهم بين الحين والحين قد حضر من كنيسة البندر، والكل يغني ويردد وراء القسيس: كير . . يا . . ليسون . . ارحم يا رب . . يا رب ارحم . . وحنونة في ثيابها البيضاء الناصعة، وعقد الفل، والطرحة، وقد حملوا وجهها بأكثر مما يحتمل من ألوان وأصباغ ولكن بقيت لها نظرة العينين غير مصبوغة، وإنما هي زائغة مروعة تائهة، تتحرك مدفوعة بالأيدي الكثيرة التي تتجاذبها، تتحرك كالمنومة مغناطيسياً كمن تؤدي دوراً، وثمة ابتسامة شاحبة خائفة لا تغادر وجهها، وإلى جوارها أفندي ربما لم تره في

حياتها إلا الليلة، ضخم الجثة، أسود الشارب كثيفة، يرتدي (بالطو) أسود وشعره لامع شديد اللمعة بما فيه من بريانتين، العريس منتفخ الأوداج وكأنه لتوه قد ربح صفقة، يمضغ ويتملظ ويضحك من أعماق صدره وأحياناً دون أن يريد، وحنونة إلى جواره كالحمامة المسوقة الوديعة، تتجاذبها الأيدي وتدفعها، وتبتسم في شحوب وعيناها هائمتان تبحثان عن شيء بين نجوم السماء وكأنها العذرة فقد منها مسيحها، والعذراء راضخة، صابرة، وحيدة، تفتش السماء بعينها بحثاً عن الخلاص، من يدري ربما كانت تفتش عني وأنا قابع فوق السطح أتألم وأندم وأرقب، والكل يردد: كير يا ليسون. . كير يا ليسون.

البراءة^(١)

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة. الابتسامة غير بعيدة على مرمى البصر، والدعوة قائمة ومستمرة ومتجددة، كرياح خافتة دائمة الهبوب. الزورق تتلاعب به المياه، تعلو به موجة، تنخفض به موجة، بإغراء كبير يتلاعب، الابتسامة غير واسعة، وكأنما بالإرادة محددة الحجم، مضبوط ارتفاع شفتها العليا. مقاس تأثيرها بدقة زائدة. الجنرال سمين أكثر مما يبدو في صورته بالصحف، واقف يتمشى، راض عن الدنيا تماماً. صلته الأمامية تلمع بحبيبات عرق تحت ضوء الشمس. الشمس حارة لكنها غير لاسعة، في الحقيقة مبتسمة. تلف الجو كله بروح الاغراء والدعوة. عصا الجنرال تحت ابطه ولكن ثيابه مدنية، وقميصه صيفي بنصف كم. البقعة السوداء التي تحجب عينه من فرط الرضا المبتسم والوجه المكتنز قد اختفت أو كادت. في الحقيقة لا ألحظها. لا أرى أظافر، أو رؤوس حراب

(١) كتبت ونشرت لأول مرة في مجلة الآداب (عددتها الخاص عن القصة القصيرة) في يونيو ١٩٧٢.

أو خناجر غدر. الجمهور على المرسى الخشبي القديم، متدلي
الرؤوس من فوق الحاجز، يتطلع ساكتاً سكوت الدهشة، سكوت
حب الاستطلاع، سكوت يوم الدين، ولكنه سكوت عظيم. الجنرال
لأمر ما، لخاطر ما، ضحكة فقط فتحت فمه، أسنانه تبدو قديمة
منفرجة، متسخة قليلاً، ولكنها بلا أنياب، بلا أنياب.

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة، وعبرت. كيف؟ لا أعرف.
على ماء كالحرير، أو حرير من الماء، عبرت، بالنزوة، بالتلقائية
بالرغبة، عبرت. هببت. كما تهب النسمة في الاتجاه المضاد،
هببت. أصبحت هناك. اهتزت أهداب العين الواحدة في ترحاب
وقور. الابتسامة أضيف إليها طعم الاكتفاء. عصا الضباط العظام
تراخت تحت ابط لم يعد مشدود العضلات. لم تمتد يده تصافحني.
في وجهه تعبير من لا يريد احراجي، من يعرف إنني لن أصافحه. أنا
فقط أريد أن أرى، مجرد أن أرى وأتفرج عن كذب أشاهد، والرؤية
ليس لها دنس. نظيف أنا مثل (بفتة المحلة) البيضاء. كيف أصافح
وأيديهم ملأى بالحيات والثعابين والعقارب؟ أنا متأكد أنني لو مددت
يدي، وصافحت، لالتصقت باليد التصاق الأبد، ولا أعود أستطيع
الانفصال. للفرجة جئت، وعلى الضفة الأخرى كنت أتفرج. والآن،
عن قرب أفعل. فماذا يضير؟ ماذا يضير؟

أتجول، وفوق الشاطئ الرملي أقدامى تتحرك، خفيف الوزن
كأنني هبطت فوق القمر، هبطت فوق الوجه الآخر للقمر. الشمس
تماماً غير مباشرة، نورها يأتي، ضعيفاً واهناً، كنور الغسق، من كل

اتجاه يأتي، وإلى كل اتجاه يمضي، فلا يبقى إلا أثر الغسق.

كل شيء على الشاطئ هنا. المدن صغيرها وكبيرها هنا. البلاجات، المواخير، وحتى مصانع الأسلحة السرية هنا. لا أحتاج إلا لخطوة واحدة، فيتغير الزمن، ويتغير المكان. الجنرال أشعر به من بعيد يراقبني. كان من واجبه مصاحبتي. ولكنه تأدباً أراد لي أن أكون بمطلق حرיתי. وأن أفعل ما يحلو لي. لا تتأثر إرادتي حتى بمجرد قربه أو وجوده. ولكن عيني الخلفية تحس به يحرك رأسه أنني أتحرك. ابتسامته لا تتغير. أم غير مكترث بالمرّة. عصاه تحت ابطة، رأسها كالبوصلة يتحرك، يتعقّبني، يحرك الأشياء أمامي، الزمان والمكان والمشهد. رأس العصا ليس مندمجاً في غلظة أو وضوح إنما هو، كوجه الجنرال، ينسكب انسكاباً متسقاً مع بقية الجسم.

من الغمام الغسقي برز وجه سيدة. أمامي منحنية قليلاً وقفت. جيداً لم أتبين الملامح. هل كان لها رأس حقاً؟! إنها بالتأكيد سيدة. تكلمت عاماً، ربما عامين، ولكنني لا أريد أن أسمع، أخرجت من حقيبة يدها، التي تشبه حقائب الدبلوماسيين، أصبع روج. لفت قاعدته، فانبثق من فتحته بدلاً من الروج ماركات المانية حقيقية. آلاف الأوراق. كل ورقة بألف مارك. لفته مرة أخرى انبثقت دولارات، ليرات، دينارات، ورقات بعشرات الجنيهات. أشحت. أغلقت الاصبع. قدمته بلطف زائد. أشحت. الجهد عجيب. ولكنني أشحت. تفرجت وأشحت. بعيني الخلفية أحسست بأثر شعاعي

كومضة البرق. ومن عصا الجنرال صدر. اختفت ومجرد خطوة أخرى، وجدتها تنتظرني. ليست فقط بملامح أنثوية واضحة، ولكنها بالملامح الأنثوية التي أريدها. الوجه طويل ينتهي بذقن يتوسطها طابع الحسن، عميقاً كالسرة. الشعر طويل ومتهدل ومفروق وكأنما منذ أن نما. من الوسط يتهدل، ويغطي الأذنين، ويغمر الأكتاف والصدر. الشفتان قطعاً لشابة في السابعة عشرة. شفاه جربت لا بد القبل، ولكنها لم تمتهن بعد، بأعلى القبل. العيون واسعة، ومليئة بالفريزة المشعة، والرموش طويلة تكاد تبين كل رمش منها نافر وحده كسلك الشمسية. رموش برية، بركانية، كأنما فجرتها بغزارة طبيعية أم بدائية. قبل أن تكلمني سمعتها، كالسائح المغامر قررت أن أسمعها، وأيضاً أصافحها. أعرف تماماً أن يدي إذا لامست يدها، فمحال أن أستردها.

كالسائح رحت أسمع. وكالرجل الذي بدأ يدمدم فيه البرق رحت أرى. آذاني بدأت تنجذب بقوة. والبركان في نفسي بدأت دمدمة تقل، وتهدد بأن تهدأ. ثاقب كلامها. عقلها يبهرنني، يبلغني يغرقني في فيض من رؤى الحياة. أتأملها فأشعر كأنني ما عشت الدنيا أو مارستها. مدمر منطقها. مخي أراه رأي العين نسيج عنكبوت تعبته آلاف من ذرات الكلمات الذكيات، وعيي يزداد إلى درجة جاوزت حد الخطر. كنت واثقاً أنني في اللحظة الفاطلة أستطيع أن أكون السيد والغالب. والمهدم بضربة كل ما شيدته في عقلي من أوهام. ولكن رعي أنها أصبحت أصلب من الحقائق، وأدرك أنني حالاً، وبعد

ثانية، ومهما هويت، فلن أهدم شيئاً.

وفجأة، من الأعماق البعيدة، انتفض صوت النذير، وخطوت غضباً خطوات، مقررأً بلا رجعة أن أعود. لقد جئت أتفرج. فجأة أيضاً ظهر الجنرال. أمامي وقف. الابتسامة هذه المرة ابتسامة اعتذار واضح. مد يده. بالأدق، حرك يده حركة تصلح أن تكون مشروع مصافحة. لا يا جنرال حتى أنت لا أصافحك، بذكاء شديد أدرك، بذكاء أشد تحولت همه اليد إلى حركة لبقة داعية أن أتقدم. رحت أجمع نفسي، وألتقط أنفاسي، وأرفع القدم وأبدأ أتحرك.

طابور طويل، قادم من بعيد، من أبعد، وكأنما يبدأ أوله عند الأمس، وقبل الأمس، ومئات السنين. طابور عليه مسحة الحزن الدليل. بنات وسيدات، مسنات وصبايا في الثالثة عشرة، بيض وحمير، وسمر وصفير، شاحبات. أمامي تردد الواحدة، بانكسار تنتظر. بانكسار ترفع الرأس. بأهداب منكسرة تنتظر الريا. بعيون فيها الحزن الرقيق تتمنى. الأسى أنثوى ويضفي على المرأة أنوثة. وليس أكثر أنوثة من الحزن إلا الصبايا الحزاني. الأسى لا يستثير الشفقة. إنه يستثير الفحولة. اختر ما تشاء. أمامك المائدة حافلة. أمامك. خبرة المدربات أمامك. خجل ربات البيوت أمامك. الأرامل الفتيات أمامك. الفقيرات الجميلات أمامك. يكفي أن تلمس الواحدة فتذوب أمامك. تغوص في مياها الأنثوية. وتسبح فيها، وتعبث كيف تشاء، وأنى تشاء، يا للغلالات السوداء الرقيقة، حتى الرخيصة منها، وهي تنزاح وتمزق عن اللحم الأبيض! اللحم الشهوي الشاحب

الأبيض. يا للوجه المتكسر أسي وهو يموء نشوة وإحساساً بالرجل. يا للدوائر الشديدة البنية ذات السيقان الوسيطة المبتورة، وهي تثور وتتمرد على تهدلها الحزين. يا لعواء يأتي من شعر تحت الإبط، ذي العرق اللؤلؤي المنسال الخاص، كل نقطة مثالة منه تحمل كل رائحة الأنثى وغريزتها. يا للحزن حين يستحيل بتأثيرك تهتكاً وفجراً، وأمامك الطابور. اختر ما تشاء، بأصبعك أشر، مجرد أن تشير. بإرادتك جرب، مجرد أن تختار. برغبتك، حتى بمجرد انبثاق الرغبة في أعماقك الباطنة، جرب. والجنرال هناك، لا أعرف له مكاناً على وجه التحديد، وكأنما هو يختار دائماً أن يكون حيث لا أراه. هناك هو بالتأكيد، بنظراته يطبطب على كتفي مشجعاً داعياً مباركاً، حتى لو اخترت ابنة العاشرة سيارك الاختيار. اللمس، مجرد اللمس أصبح مغرباً إلى حد مستحيل المقاومة. ولكنني خائف خوف الموت أو المس. أعرف ومتأكد أنه بمجرد اللمسة سيصبح الطابور كله لي، والطابور طويل طويل، والنساء كثيرات، متباينات، حتى بكل أساهن الجنسي الخاص. أصابعي تأكلني. الرجل فيّ يعوى وأنا كالصخر الثابت أتفرج. والفرجة ليست دنساً، وقلبي نظيف كبفتة (المحلة) البيضاء. الرغبة في صدري مكمة الأفواه، مكتفة الأرجل والسيقان. مخنوقة تماماً لا تملك أن تعبر عن نفسها أبداً. أخاف حتى مجرد أن أعبر عن نفسي. فبمجرد التعبير سأبدأ أنهار. الطابور يختلط. الألوان تفرز الألوان. النسوة الكثيرات يستحلن إلى غابة. الألوان زاهية زاعفة، كبالونات الأعياد تنهمر. الثوب يختصر إلى الميني جيب والميكرو جيب واللاجيب، السيقان أصبحت مصنوعة ومضبوطة على

أدق مفائيس الجمال . الساق منها أنثى كاملة . مصنوعات فليكن .
وليكن الانتاج (ماس برودكشن) . الباروكات أجمل من الشعر الأصيل
ألف مرة ومرة . العيون الصناعية أحلى وأروع من الطبيعية مليون مرة .
وحسبما وكيفما تريد . يابانية ضيقة ، وصينية معوجة ، وأميركية
واسعة ، وعربية سوداء ، وانكليزية زرقاء ، وخضراء وبنفسجية .
المصنوعات يرقصن . بنطلوناتهن محزقة . البلوجنز يفتك بالنظر ،
تقشعر له العين ، وتنتصب له الرموش قبل أن يقشعر الجسد . الرقصة
أمامي تحدث ، الوسط يتلوى ، بكل التواء وسط تقول خذني . السيقان
تشننج ممدودة تجأر ، مكنونة تستجير . الأكتاف تهتز ، تضيق ، تتسع ،
تنادي ، تقبل ، تدبر كي تقبل أكثر . الشفة السفلى تتدلى ، تسترخي
تنقبض . الفم يضيق ضيقاً داعراً مجنوناً . أنا يا عم أنفرج . أموت
رغبة ، تقتلني الرغبة ، ولكني لن أفعل إلا أن أنفرج . لقد جئت فقط
كي أرى وأنفرج . يا جنرال أعرف أنك خلفي وأنتك تراقبني وأن
برأس عصاك اشعاعاً ، يخضع الأشياء لكل ما أتمنى وأرغب ، ولكني
سأظل أنفرج .

بل لم يعد في طاقتي البشرية ، أن أبقى ، وأن أنفرج .

الزورق وقهري للابتسامة والدعوة على وجه الجنرال تودعني ،
مشفقة لغبائي ، ساخرة . هزة الرأس أسفاً ، بعيوني الخلفية أراها
مودعة . الزورق يتحرك . أحس الآن بحركته ، وبالزمن بدأت أشعر .
أنا ألّه ، مستريح الضمير ألّه . كمن نجح في امتحان شديد
القسوة . ومستريح الضمير . لم ألمس . لم أتمدنس . طول الوقت

أنفرج . بقيت نظيفاً كبفتة (المحلة) البيضاء، كضمائر الناس الكثيرين المتزاحمين، على شاطئ، فوق المرسى، أنفرج . أعناق مدلاة فوق الحاجز وسكون . سكون حب الاستطلاع، سكون الفرحة، سكون يوم الدين، ولكن إلى نفس السكون العظيم أعود .

ولكن شيئاً جديداً، لم أتوقعه أبداً، لمحتة، هناك، وغير بعيد عن مكان المتزاحمين فوق المرسى القديم، لمحتة . ابني، حافي القدمين في جلباب النوم، واقفاً . شعره مشعث . ملامحه فيها جمود المستيقظ لتوه من غفوة، وكان ناحيتي ينظر . إليّ ينظر مرة وإلى المتفرجين المدلاة أعناقهم مرة، صاحب الوجه، ربيعاً، نحيف الساعد، ولكن في ثبات ينظر . دهشت . جعلتني الدهشة الأولى أحبه أكثر . إنه ابني . دمي أنا ولحمي . قطعة مني قد انفصلت، وأصبحت كائناً مستقلاً فاتصلت بي أكثر . كائناً له وجهه الخاص، ورأسه الخاص، وساعده النحيل الخاص .

وصل الزورق، يهدر . لامس الخشب القديم ولكني لم أغادره . النظرة الكامنة في عيني ولدي ثبتتني في مكاني . لا ذرة بنوة واحدة ألحظها في النظرة . ماذا حدث؟ تحرك ساعده . امتدت يده إلى فتحة الجلباب . خرجت اليد قابضة على شيء معدني أسود . كان مسدساً . حسبته لعبة أطفال . ولكنه كان مسدساً رجالياً كبيراً . ماسورته بطول الساعد الناحل . مسدس حقيقي له فوهة . والفوهة تتحرك، لتصبح دائرتها السوداء موجهة إلى صدري مباشرة . بالضبط إلى مكان القلب من الصدر . تعلق نظرتي مستغيثة بكل ما لي فيه .

لم تجب استغاثتي بادرة. الوجه قاض، والنظرة جلاد، والفم يتمتم بالحكم. لا. أنا لم ألمس يا بني شيئاً. يا مجنون. كنت مثل هؤلاء جميعاً أتفرج. ارجع. لا تكن مجنوناً. ما الجريمة أن أقف وأتفرج؟ قلبي نظيف كبفتة المحلة البيضاء. كقلوب هؤلاء الناس، ولم أفعل إلا التفرج. ارجع. أرجوك. أستحلفك. أعقل. فكر: ما الجريمة يا أحمق أن أتفرج؟

التمتمة تكف. الشفاه تنطبق في اصرار. الدوي. ارتعاشة اليد. الرصاصة في كتفي. الدمعة ألمحها تترقرق في عينه. الرصاصة الثانية كالكتلة تدك صدري. دويها لا أزل أسمعه. الثالثة لا أعود أسمعها.

لحظة قمر

فجأة، رأيت القمر...

ولست هناك خدعة ما في التعبير، فصحيح أن الإنسان أبداً لا يرى القمر فجأة، فالقمر لا يظهر فجأة، والشمس لا تشرق فجأة، إذ المفاجأة دائماً في العمل غير المنتظر، وشروق القمر وغياب الشمس أعمال لا مفاجأة فيها ولا جديد. ولكنك بالتأكيد ستحس بصدمتي وأنا أرى القمر فجأة في شريحة من شرائح القاهرة، شريحة تسمح لك برؤية السماء، رأيت القمر عجباً جداً.

الشريحة السماوية التي تبدى منها كانت مسافة بين عمارتين عاليتين من عمائر القاهرة، عاليتان إلى درجة تكاد تحجب عنك رؤية السماء كلها. ولولا المسافة الكائنة بينهما ما سمحت لهذه الفرجة السماوية أن تظهر. وقد كان حرياً بظهورها ألا يثير أدنى دهشة أو ابتساسة لولا أن تلك الشريحة السماوية كانت تحوي، في هذا الوقت بالذات القمر، القمر في محاقه الأخير، القمر حين يبدو الجزء المضيء منه مخنوقاً بعض الشيء. من لون البدر يتناول تدريجياً فاقداً لمعة فضيته، ثم بياضه مكتسباً بعض الصفرة، بعض العتمة،

حين يكاد نوره يصبح وكأنه نور قبادم من عمود نور البلدية، أو هو بالضبط كما بدأ لي من خلال فرجة السماء هذه القائمة بين عمارتين، شققهما العليا مفجرة الأضواء والضجيج، بدا لي وكأنه النور القادم من شقة ثالثة مفروشة ومؤجرة للسياح ومن الباطن، حتى لو كان هذا الباطن على تلك الدرجة الشاهقة من العلو، فالمهم أن نور القمر المخنوق اختلط بأنوار الكهرباء الباذلة جهدها كي تلعلع وتبرق ومع ذلك فهي بالكاد تصل إلى مستوى نور القمر المخنوق. هذا.

فجأة، رأيت القمر..

ويبدو أيضاً أن المفاجأة كانت كاملة وكان من المستغرب تماماً في ظروف القاهرة تلك، ظروف الخروج من المعركة والاستعداد الكامل المطلق لأي معركة مقبلة، أن يكون هناك قمر..

ربما نحن نسيناه تماماً. نسينا الكون الأكبر المحيط بنا، ضعننا تماماً في اختناقاتنا اليومية الصغيرة المستمرة المتكررة التي نغرق فيها وتغرقنا، ومع هذا فمفروض ونحن غرقى هكذا أن نفكر في انقاذ أنفسنا بل ونقوم بهذا الانقاذ فعلاً، ويخيل لنا أن كل شيء قد انتهى إلى لا شيء مرة، ومرة أخرى أدهى يحيل إلينا كما لو كان أي شيء قد استحال إلى كل شيء. وما بين اللا شيء وكل شيء رحنا نرقص. رقصاً لا ضابط له ولا نغم، نحن فيه على وجه الدقة كرة (بنج بونج) مضروبة مضروبة، لكي تقتحم أرض الخصم، لكي تدافع مضروبة، من اليمين التي نزاولها بمنتهى عدم الدهشة وبمنتهى الجدية والخطورة، رقصة التفتت والتحلل إلى اللاشيئية لتصبح الكل

شيئية . . أنستنا هذه الرقصة المحمومة، ليس فقط أننا نرقص أو أننا
أحياء، ولكن يبدو وكأنها أنستنا أيضاً أننا جزء من كون هائل الضخامة
كبير، عوالم أخرى، شمس وأفلاك ومجرات، حركة تاريخ ضاربة
إلى أسحق بعد من الماضي وواضح أيضاً إلى أسحق بعد في
المستقبل . .

أجل . . نسينا هذا كله . كل مراكز عقولنا محملة فوق طاقتها
بأكوام من الأرقام والحسابات والديون والمطالب والاحتمالات
وخراب البيوتات، المركز الواحد أمامه طابور أفكار برمته ولا طابور
الجمعية .

نسينا القمر . .

وفجأة، رأيت القمر . .

مخنوقاً لا يهم، محمر الضوء كالحه لا يهم، شقة مفروشة
بتليفون وحمامين وأنوار والعة مولعة ومجهزة إلى حد الصاجات
لأحياء ليالي ألف ليلة بعشرات من الشهرزادات المنتظرات، فقط،
تليفون، وإذا الكل على واحدة ونص انضبط، مع كل واحد،
يتدخل تماماً ويتفكك مع كل نص في ومضه يعود إلى الانضباط .
شقة مفروشة باهرة الأضواء بين عمارتين لزوم السادة السياح، ما
عليك فقط إلا أن تشير، مجرد تشير، أو تفكر، مجرد تفكر، وإذا
بجميع ما تحلم به يتحقق حتى لو الشقة في القمر، ولو القمر بين
عمارتين تتلأأ شققهما بأنوار .

فجأة، رأيت القمر . .

إذن فأنت القمر. تراك أين كنت أيها العرييد. ماذا ضيعك منا
 أو بالأصح ماذا ضيعنا منك؟ أخيراً هللت، وظهرت، ورأيناك؟!
 صحيح لم تكن مفاجأة، ولكنها كانت في حد ذاتها حدثاً.
 لا أعرف ماذا حدث لي بالضبط حين رأيت ذلك المخنوق
 بالوهج القمري، ولكن الشيء المؤكد هو أنني أحسست بارتياح طاع.
 القيامة إذن لم تكن قد قامت.
 والطريق الذي قطعناه طويل هذا صحيح.
 متعبين، مشخنين بالجراح والأنواء، نحن.
 ولكن..
 ها هو القمر.

ها هو وجهه يذكرك بإنسانيتك، بأنك أنت مما كنت، ومهما
 كانت أوضاعك فأنت هو الإنسان، أنت العظيم وسط هذا الكون
 الهائل الفراغ والظلام.

ذلك أن هذا النظام نفسه يؤكد أنك سيد هذا الكون، أنك
 الوحيد بين مكوناته القادر أن تتحرك بإرادتك المستقلة وبحريتك في
 أي اتجاه تختاره، إنك السيد، وكل ما تفعله عظمة الكون كلما عن
 لها أن تؤكد نفسها فإنها في نفس الوقت تؤكد عظمتك، أنت عظمة
 السيد.

فجأة، رأيت القمر.

لا أعرف لماذا كانت بعض الديانات القبلية في أمريكا الجنوبية

وأفريقيا تخصص أياماً محددة من العام تجتمع فيها القبيلة كلها ومن كافة الأنحاء، في مكان محدد عند هضبة جبلية، هناك حيث يعسكر أهل القبيلة، ويقضون الوقت في تأمل صامت للشمس وهي تشرق وتميل ثم تغيب، والقمر وهو يعتلي قبة السماء ويتغير شكله وطبيعة نوره لا أعرف، ولكن الدارسين لهذه العبادات والقبائل يؤكدون على أن الغرض من هذا كان عمل نوع من الاتصال بين الإنسان والكون، بحيث يبقى للإنسان ذلك الاتصال الكوني الروحي الذي يزوده بزيادة يكفيه حتى حلول العام القادم.

لا أحد يعرف إذن ماذا يعنيه هذا الاتصال بين الإنسان والكون أو بالضبط ماذا يحدث للنفس البشرية إذا أجبرت على الابتعاد عن الظواهر الكونية أو إذا عاشت واختلطت بتلك الظواهر. لا أحد بالضبط يعرف ماذا يحدث للإنسان ولكن الذي لا شك فيه أن الإنسان (الكوني) أقوى بكثير من الإنسان من بلا بعد كوني، فالإنسان ذو البعد الكوني إنسان أقرب إلى حقيقته الإنسانية وطبعه البشري، أقرب إلى فطرته وأصالته، أقرب إلى تفردته وتسيده من ذلك الذي غشي عليه فلم يعد يرى أمسه من غده، أو ليله من نهاره. فجأة، رأيت القمر..

رفرفت في صدري أجنحة عصفور زقزق في قلبي كالزغرودة وهفهم بجناحيه مرحباً، وكأن الأمر عيد يهش له.

وبدا كما لو كنت أستعيد حياتي كلها في شريط سريع أمام القمر أو بالضبط أمام لحظة القمر.

لا أعرف، ولكن، لأمر ما، كل شيء يأخذ حجمه الطبيعي،
 بل بدأت أنا نفسي آخذ عند نفسي حجمها الطبيعي، أو ذلك الذي
 أبدو فيه أكبر من كل مشاكل. تلك الصورة التقليدية التي يبدو فيها
 الإنسان، ومهما كان التحدي القابع أمامه، منتصباً، أو على وجهه
 علامات الانتصار الأكيد.
 فجأة، رأيت القمر..

في فجوة سماوية بين عمارتين.. شقة مفروشة.. كون هائل
 فارغ ومظلم ومنظم... عصفور يزقزق في قلبي طرباً.
 لحظة..

وفجأة أيضاً، ضاع القمر..
 سدت السماء أدوار العمارات العالية.
 أصبح لا معنى أن تنظر للسماء إذ لا سماء هناك.
 عليك، لكي تخطو، فقط لكي تخطو، أن تنظر إلى الأرض.
 وإلى الأرض تظل تنظر، حتى لا تسقط، تنظر حتى لا تسقط
 فما أكثر الحفر في شوارعنا هذه الأيام.
 فجأة، رأيت القمر..
 ولحظة واحدة عشتها معه.

وفجأة، ضاع القمر بين عمارتين، وضاع بصري بحثاً عن
 موطن قدم.

ولكن قلبي لا يزال يرفرف بالسعادة، إذ يكفي أنني، بعيني،
 رأيت القمر الذي لا أراه.

حوار خاص

لا بد أنه الاحساس الكامل بالسيادة. السيارة موتور قوي يثن
أزيز الاتصال واللا خلل. عجلة القيادة في يدي كالريشة. بحركة
أصبع أقود. بحركة قدم أندفع. أنا السيد. على الأقل سيد الكون
كله إلا موتور حركة. الكهرباء موتور. الذرة موتور. البنزين موتور. .
أنا الإرادة. أنا العاقل الكامل وسط أكوام وأحراش من اللاعقل
واللاواعي واللاإرادة. .

الطريق وسط الصحراء فاحل وأسود ولامع. الوحشة تزيدني
احساساً. . بالتفرد. كأني الكامل وحدي في هذه الدنيا. والدنيا
طريق أسود طويل ليس فيه سوى الأفق. بعد كل أفق أفق. الدنيا أنا
وأنا الدنيا. سعيد. منذ بضعة أشهر نجوت من موت محقق. قال لي
الطبيب: حظك نار. لا بد أنك تملك في جسدك قدرات غير عادية.
ما أحلى الثقة بالجسد. إنها كالثقة في عربة خارجة لتوها من
(الأجنس). القوة. نعبدها حتى في أجسامنا. بالذات في أجسامنا.
زهو أني انتصرت. كان الموت فوق القلب تماماً، لكن القلب طرد
الموت. بل لمحت الحسد في وجه الطبيب وهو يقول: أتعرف أن

قلبك بعد المرض أقوى وأكثر صحة مما كان قبل الأزمة. هذا النوع من الأزمات أعرفه. أخرج من الأزمة لأدخل في أخرى. لأعود أخرج منها أقوى. أراذني شحذها الأزمات، تعالى إذن يا إلهي العظيم نتحدث. ما أروع الحديث معك في هذا المكان القحلي، في طريق صحراوي لا ناقة فيه ولا نبتة. إنها قصة طويلة طويلة لي معك. واسمح لي ألا أخاطبك باللقاب التعظيم فقد استعملها الناس كثيراً في مخاطبة الطغاة والحكام حتى أصبحت غير جديرة بك. تلك الأزمة الخاطفة التي مرت بي لم أرك فأنت لا ترى لست بالخارج. أنت هنا فينا أقرب إلينا من حبل الوريد.

أنا الذات الصغرى بنت الذات الكبرى. أنا المخلوق وأنت الخالق والبرزخ والكائن بيننا ما لا نهاية في الصغر وما لا نهاية في الكبر لأنه برزخ بابك وبرزخ قدرتي. أنا يا إلهي لا أحب أن أعبدك عبادة هؤلاء الذين يتدللون لك، فلقد خلقتنا في أعظم تكوين وأن ننزل حتى لك معناه أننا نحد من قدرتك، فمخلوقك لا بد أن يتيه ولا يحني الهامة، وإذا كنا نسجد لك في الصلاة فإنما لنرتفع بقيمتنا وابتهالاتنا إلى مكانك. وقد لا يكون هذا رأي الجميع ولكني أعبدك عبادتي الخاصة بطريقتي أنا. ولست المسئول عن هذا يا إلهي فأنت الذي خلقتني هكذا، متمرداً لا يقبل الضيم، رافضاً لا يقبل المساوية طامحاً للكمال في كل شيء حتى يصبح كل شيء قريباً من كمالك. أنا هكذا لم أخلق نفسي ولكنك من ملايين الملايين من الذرات والجزئيات والوراثات والتأثيرات والخواص اخترتني لأكون هكذا

وتكون لي شخصيتي تلك .

* * *

كانت العربنة تنطلق بسرعة مائة وعشرين كيلومتراً، وكان الصمت - إلا من أزيز الهواء والموتور - كاملاً. صمت الصحراء الأصفر. صمت الكون حين تتوقف حركة الخارج وكأنه مات. وخفت. أحسست أن الماضي في أفكار كهذه سيخرجني بعد حين عن إطار الجاذبية وانطلق في الفضاء حتى أهلك تماماً في قلب الشمس. ولكنك هكذا خلقتني. حتى لو عرفت أنني هالك في قلب الشمس لن أتوقف. لا أكتمك - إلهي - أنني ظلمت وأنا في المستشفى أتفكر في مسألة الله والإنسان والعمر. أنا أعرف علمياً أن الذي يحدد العمر هو الطاقة الحيوية المنبثة في القلب وفي كل أنحاء الجسد. فانا مررت بالأزمة إذن لأن الطاقة الحيوية عندي كانت الأقوى. ولكن المشكلة أن هذه الطاقة يعوقها عامل صغير، مثل قشرة الموز يتزحلق فوقها قدم العملاق فينطرح أرضاً فلماذا خفت رحلة الأزمة من قشرة الموز. . الصدفة. . جائز. ولكن الصدفة لا تتكرر إلا كل عشرات الملايين من المرات. وثلاث مرات تكررت الأزمة، واحدة في الرقبة. وواحدة في الوريد وواحدة في القلب. أنا إذن حالة في كل ألف مليون مرة. هكذا العلم يقول. علمنا القاصر الآن عن إيجاد علاج لأزمة البرد. ولكنه حد علمي وحد تفكيري. أما ما هو خارج

هذا فلا بد أن الله يحبني وقد اختارني لأعيش حتى ولو كان الاختيار مرة من ألف مليون مرة. أنت إذن تحبني أيها الإله. تحبني لأنني هكذا. ربما أيضاً لأنني أقف وقفة المحب أتساءل دون أن يرتجف قلبي من الهلع القاصر ودون أن تصطك أسناني وإنما بثقة المحب للمحبيب وبحريته أسأل. وبنفس هذه الثقة أقود السيارة، منطلقاً بهذه السرعة، سيداً، سعيداً، حراً، أزاول الإنسان الحر الذي في كلمة، أزاوله حتى في مواجهة الخالق ياذا الخالق. أيها الضارب بعيداً في أغوار الكون حتى ينتهي النور، وأبدأ لا ينتهي النور لأنك لا تنتهي. الضارب بعيداً في أغوار الماضي وآفاق المستقبل حتى ينتهي الزمن، وأبدأ لا ينتهي الزمن لأنك أبدأ لا تنتهي لأنك أبدأ لا تبدأ لأنك أبدأ لا تغيب أبدأ لا تحضر، أبدأ لا تعرف لأنك العارف ولا تنسى لأنك الذاكرة ولا تخلق لأن كل شيء من خلقك لأنك أنت كل شيء، أنت شعلة في كل شيء، وميض التغيير المستمر إلى الأفضل والأفضل والأفضل، تجسد الطاقة مادة، والمادة حياة، والحياة عقلاً والعقل إنساناً أسمى وأسمى وأسمى، إله أصغر.

ومع هذا فإنني أسأل: أهذا هو مجرد شعور الفالت من خطر، مجرد تجسيد لهواجس تربينا في ظلالها وحواديت سردت علينا ونحن صغار وعلماء عجزوا عن التفسير فقالوا: الله. أنت حقاً هناك يا إلهي؟

* * *

وصممت أفكارى عن أن تمضي . دق قلبي كأنني دخلت بالقدم في حرم مقدس . تخطيت عتبة الممكن والمباح . حملتني السيارة فوق الطريق ، وفوق الصحراء ، وقائدها أنا اخترقت عنان السماء أتلفت حولي أتساءل عن (الحق) . ثانية واحدة مضت لا أكثر . أقل من ثانية ربما . وحدة الزمن الممكن أن يحسها ويدركها الإنسان وبدأت أحس التغيير . أصبحت عجلة القيادة في يدي أسهل وأخف كثيراً عما كانت . لكانها تتحرك من تلقاء نفسها ، وكأن سيطرتي الروحانية أصبحت هي التي تخضع لها العجلة دون حاجة إلى توجيه من يدي .

ثم مروعاً اكتشفت أن المسألة ليست شدة سيطرة من إرادتي على عجلة القيادة ، إنما الحقيقة الباردة المجردة أن عجلة القيادة نفسها انفلتت من سيطرتي عليها . وبخبرتي مع العربات وحوادثها أدركت السبب . أن إطار العجلة الخلفية قد انفجر ببطء لم أسمعها وأن العربة نتيجة لهذا ارتفعت عجالاتها الأمامية وأصبحت غير خاضعة مطلقاً لتوجيه (الدركسيون) . هي التي تتوجه كيفما يحلو لها ، وفي أي اتجاه تشاء . وأنت هنا لا تستطيع أن (تفرمل) لأن مجرد لمس الفرامل يخل بتوازن العربة مع هذه السرعة العالية ويقلبها فوراً .

صفر الخاطر في رأسي :

ماذا لو كان بعنف ورعب واختلال مضى قلبي يدق . نظرة إلى أسرتي التي تحتل العربة معي زادتني رعباً . ولدائي من الخلف

وزوجتي بجواري وابنتي الصغيرة وبراءة الدنيا في عينيها ستموت بعد ثوان. فكل شيء وكل خطر قد تكون بسرعة. الطريق الذي كان خاوياً وامتلاً فجأة بعربات جيش لتعليم السواقة قادمة في الاتجاه المضاد، وأي خلل في اتجاه العجل الأمامي للعربة سيجعلنا نراطم الارتطام القاتلة المهلكة في واحدة من العربات الكثيرة. أكثر من ثلاثين عربة - واحدة وراء الأخرى.

تحول السيد فيّ إلى أكثر كائنات الدنيا تواضعاً وذعراً. تحت رحمة من أنا الآن. عجالات الكاوتش تسير كيفما تشاء. أي بروز في الأسفلت أو حجر، بل حتى لو لم يكن هناك شيء بالمرة فاتجاه الريح، ميل جانب أكثر من جانب، عوامل ميكانيكية لا تعد ولا تحصى، ألف مليون عامل وعامل قد يؤدي أي منها لأن تدفع عربتي تجاه أي عربة قادمة أو تجاه الصحراء وتتم الكارثة.

بينما الأولاد يضحكون وزوجتي مع الصغيرة تفرح والقيامة ستقوم بعد ومضة. وجدت نفسي أهتف - يا ستار يا رب. يا ستار يا رب.

أي قوة أخرى في هذا الكون الواسع كان ممكناً أن تنقذني، والكارثة ليست فيّ، الكارثة في هؤلاء الأبرياء، ضحية اللعبة، الضاحكون، السعداء سعادة من يعبرون عن السعادة. حتى رداً على هتافي: يا ستار يا رب. ضحكوا وأغرقوا في الضحك فلم يكن أمامهم ما يستحق أن أناديه. كل شيء في نظرهم كان على ما يرام والدنيا جميلة والحياة ممتدة إلى أقصى مدى.

اليأس المطلق حل.. لا فائدة. لا أملك أن أصنع شيئاً.
المصير بيده. هو وحده القادر. العربة. الصدفة. الواحد في الألف
مليون، تحت رحمته. لا أملك إلا أن أياأس وأجلس وأصرخ على
زوجتي وهي تضحك أن تشبث بالابنة وتحسبني أهزل فلا خطر
أمامها هناك وتبالغ في تركها حرة تعبت. والعربات قادمة، واحدة
وراء الأخرى كل منها الموت متحركاً ومقبلاً، والصحراء على يميني
مجرد انحراف بسيطة تدخل العجلات في بحر الرمال.

الأمل كله، أن يحدث الأمر القاهر المعجز أن تظل العربة تسير
غير منحرفة يميناً أو يساراً وتظل وتبطيء حتى توقف من تلقاء نفسها،
والى أن يحدث هذا، فالموت في كل ومضة وقت. فقدت الجاذبية
الأرضية وفي طريقي أنا إلى قلب الشمس.



وقفت بجوار العربة. أخيراً ثبت كل شيء. قلبي هاجع وكأنه
هو الآخر توقف. حلقي جاف. السكون هائل الضخامة كأنه الكون.
الأزيز متصل دائم. نملة رأيتها تناضل تحمل شيئاً بين ذرات الرمل
القليلة فوق حافة الطريق. مروع ومذهول ورأسى ذائب في السكون
نظرت إلى السماء إلى الأرض إلى مثبت الدقة في قلبي وبالحلق
الجاف سألت هامساً: أهكذا يجيب الإله!

سيف يد

حين استقر على الآن: بدأت الرعشة. ارتعاش الجسد غير مهم، الشفاه لن يستعملها، الأسنان لوح حتى اصطكت سيكتم الصوت. المهم يده. أصابعه، قبضته، إنها ترتعش كما لم يحدث لها أوله في حياته ليس ارتعاشاً فقط، لكأنه الشلل الرعاش، فهو بالضبط وساعة قرر ليس في بدنه ذرة قوة. لو دفعه طفل حتى لسقط. فليكن القرار تم. فليكن تم. ما فائدته والتنفيذ هو القرار. لحظة التنفيذ هي الفصل بين من كان ومن يريد أن يكون. قط لم يفعلها. قط لم يفكر في فعلها. وإنما عاش يرفضها، ينبذها، يشمئز منها. الآن قد أصبح تماماً بجواره. الرعشة تفضي إلى ما لا نهاية. اصفر وجهه لا بد. القرار يملأ ملامحه. واضح. محدد. صارم، لم يبق له إلا التنفيذ، والرعشة تلغي كل شيء. الدهشة تأتيه من العين الأخرى. دهشة تكبرها وتجسمها عدسات النظارة. لو تراجع ضاع. فلتكن المرة الأولى، ما أكثر ما نفعل أشياء نبدوها لأول مرة دون أن يصيبنا كل هذا الرعب. فليضع العمر كله في الذراع. ولكن الذراع ثقيل ككتلة مسلح. العمر أثقله. وعليه، رغم الرعاشة، أن يدفعه إلى

أعلى، مرتفعاً به إلى أقصى ما يستطيع، ليفعلها لمرة واحدة في عمره، وليضع العمر كله في الذراع..

ارتفاعه حاجب، لمحة نكوص ضاع التردد فجأة، فجأة
أظلمت الأشياء، تلاشت، تمازجت وتداخلت وأصبح مع الأشياء
كائناً كتلة لا يعرف أين هو منها أو أين هي منه. رعد أرعد. برق
توهج. المؤكد أن اليد، قوية، مدوية، هبطت. الرعدة تحولت،
حالما هوت، إلى ثقل صاعق. لأول مرة في حياته تصطدم كفه
بصدغ رجل. ذلك الرجل. حتى وهو طفل لا يذكر أنه صفع أحداً أو
صفعه أحد. الدوي استمر ومستمر. الارتعاش امتلأت به الأذان إلى
درجة الصمم. فتح عينيه. الرجل بدا أبعد، وجهه أصفر بكثير عما
يجب، أثر أصابعه على الصدغ السمين كالمرسومة بمداد أبيض،
عيناه غاصتا فجأة للداخل، غاصتا أكثر بكثير مما تسمح به الملامح،
قامته الطويلة بدأت تقصر، وماضية في القصر - هوسة فرح اندلعت.
عفريت جني في داخل مخه عربد، قبل أي شيء آخر كان نفس
ذراعه تلقائياً وإلى أعلى بكثير قد ارتفع. قامته هي الأخرى بدت
أطول، أضخم، ولا لمحة لأي ارتعاش.

بكتلة ثقة مباغته فاجأته هو أولاً أهوى. راعى أن تجيء أكثر
إحكاماً، أن تصل هدفها وعيونه مفتوحة تستمتع وهي ترى أين وكيف
تصيب. مؤلمة تماماً جاءت. مؤلمة له. فكان أصابعه ارتطمت بكتلة
من حديد. غورت أصابعه في العظم. أظافره مزقت الجلد. تلوى
الآلم. مكتوماً صدر عنه الصوت. مكتوماً أيضاً صدر عن الرجل

شيء، ليس كلاماً، ليس استغاثة، مجرد صوت، دعر على هيئة صوت، دعر شخص صادر عن حنجرة أصابها نفس الذعر. امتلاً بدنه بالثقة، بلغت روحه عنان السماء. كور قبضته، ثنى ذراعه، سيكلها له في فكه. مذعوراً سبقه الرجل، من كتفه دفعه، تطوع ذراعه، جاءت اللكمة في العين تماماً. أحس بظهر أصابعه طراوة كرة العين. ماذا لو كانت انفجرت. السجن معناها. فليكن، ليكن حتى الشنق. حتى الشنق هو مستعد له. سيقتله. لن تحول بينه وبين قتله قوة. مهما جاع الأولاد فسيظل حمادة على الأقل فخوراً به. جرى الجبان والتف حول المكتب. يريد أن يهرب. فليهرب، وليحاول شنكلته. ولكن الرجل زاغ وفتح باب الدولاب وجعل منه ساتراً اختبأ خلفه. من الدولاب سحب أيضاً المسطرة الكبيرة. كالسيف شرعها. الشتائم من فمه بدأت تنهال، وكل مرة تزداد شتائمه سفالة وإيلاماً. رفع القدم، تراجع للخلف، استعان بالسيد البدوي وبالقوة كلها ركل الضلفة، توالى الأهات. آهات. شتائم آهات. آهات شتائم. عويل من السباب. خذ. ركلة أخرى. أعنف أقوى أشد إيلاماً. عشر سنين يا مجرم. عشر سنين أشكو لطوب الأرض واتحمل. تكبرهني وأكرهك. تمقتني ولا أطيق حتى طريقة تفصيلك لبدلك. وكلانا في حجرة واحدة. الوجه في الوجه، والكراهة يملأ الأعماق، وعلى الملامح العليا تطفح البسمات والمجاملات. ولا مرة تبادلنا غيرها. عشر سنين وأنا اشمك للناس جميعاً وأشكوك. وتشتمني أنت لبعض الناس للمسكين بمقابر الناس وتشكو مني. وعمري ما واجهتك بشيء أقصى من تحديقة وعيد أخرس، إذا أجبتني بمثلها، أسحب

تحديقتي فوراً وأعود أغلي وأبسم وأصمت. أحياناً، للكارثة، من فمي بدل الشتائم تنطلق كلمات الملق. بخبثك تعرفها وتدركها وتعلقها أمامي تريني فيها نفسي وأنا متلبس بالخضوع لك ومسح الجوخ والرياء. وترضى، وتبسم، بل وتتقمص الدور إلى حد أن تتصدق عليّ أنت الآخر في النهاية بكلمة نصف نفاق، إذ تمتدح بنصفها شيئاً تعرف وأعرف ويعرف الناس جميعاً أنني لا أمتع به. ناعم أنت وذكي، ودائماً على حق، ودائماً بالقانون تخرج على القانون، وتستطيع دائماً أن تحيل ظلمك عدلاً وقاعدة، وتحيل حقي وعدلي إلى خروج على العرف والقانون. حتى لو لم أخطيء، تستدرجني حتى أخطيء. فإذا بادرت بالتصحيح، أطلت لي الجبل لاستدراجي لأخطيء أكبر وأكثر. تكبرهني مثلما أكرهك ولكنك أقدر على كتم الحب والكراهة والحقيقة، واليوم قررتها، قررت، من حمادة وليس من أبي أو خالي أتعلم، ويا جبان لن تنفك المسطرة. أبداً لن تنفك.

ناحيته اندفع. كالقط الأدمي قفز. هوت المسطرة بحدها الرفيع على أم رأسه. تخدر الجلد مكانها وانفلق العظم لأن السائل الذي يخترق جذور شعره لا بد هو الدم. بيسراه قبض على المسطرة. أمسكها. استمات الآخر. لواها. انكسرت. أمسك بالجزء المكسور كالخنجر وصرخ هامداً وهو يغرسها في كتفه. تمزق القميص وانبتق الدم الأحمر. حمرة فاقعة وكان دم الغضب. دم قليل ولكنه لون صدر القميص كله. مرآه الأحمر متغلغل في الأبيض

أثارة. كانا قد اقتربا حتى التصقنا. فليأخذها إذن. بجانب الرأس كما سمع من حمادة، صوبها. (روسية) اصطدمت بفكه. سمع بأذنه اصطكاك العظم بالعظم. أسنانه هو أطبقت على لسانه وعورته، وتملح ريقه بطعم الدم. عشر سنوات ولا عشاء يمر دون واقعة يحكيها للزوجة عنه وأمام الأولاد الصغار، حتى كبروا، وهو لا يزال يحكي، كبروا. بالعقل توصيه. لأكل العيش تنبيه، تهدئه، تدلك غضبه، تتركه يمارس عليها الشخط والزجر ويتنفس. هنا فقط يتنفس. تنفس ذليل يعرف ولكنه بدلاً من انفجار المخ يفعل. حمادة السبب. أنت السبب يا حمادة. الواقعة بسيطة وكل يوم تجري. خناقة عيال. هكذا يسمونها. خناقة لا يطبق فيها ابنه ضارباً أو مضروباً. ولقد جاء هذه المرة ضارباً، وجاءت بالمضروب أمه. وكان لا بد من عقاب عاجل. وفر حمادة واختفى حتى جاء الليل وعاد ليجده ساهراً ينتظره. قبل أن يرفع عليه (الحذاء) طالبه بأن يمنحه الفرصة. هكذا العدل. ألم يعلمه أن هكذا العدل. أخرج. اترك الجزمة. استمع لمجرد الشك فقرار ضربه كان لن يتغير حتى لو الحق معه. وإيمانه الراسخ أن الضارب والمضروب حيوانان بهيمان لا يستحقان قلب الإنسان. هكذا سمع أباه يقولها مرة وسمع خاله كثيراً ما يضمنها حكمه وأمثاله: أنا أكرهه فضربته. ولماذا الكره؟ لأنه لئيم خبيث يشيع عني لدى الأولاد أنني لص: لماذا لم تشكه؟ لمن؟ لأهله؟ وهل يعاقب الأهل ابنهم من أجل أولاد الغير؟ من يعاقب الابن المخطيء إذن؟ أنا. أنت؟ أجل أنا. وكيف إن شاء الله؟ ناولته (سيف يد) فلكنني فضربته بالبونية وفي نافوخه فعضني وحاولت

إمساكه فطلع يجري فشنكلته بمقص، وقع، بركت فوقه ولم أتركه إلا بعد أن قال: أنا كذاب.

مد يده إلى الحذاء وقد جاء وقت العقاب، ليست هذه طريقة لمعاملة اللثيم، ولا مواجهة من نكره.
أمال كنت عايزي أعمل أيه يا أبي؟
اشتمه مثلما شتمك.

ولكنه لا يشتمني أمامي. جبان ماذا أفعل؟!
وهل يكون الرد بسيف اليد واللكمة.

وقذفة بالحذاء. أصابه في ساقه وجعله يعرج حتى بلغ الفراش. ولكنه هولم ينم. أبداً لم ينم. سيف اليد والمقص والبواني كانت تتماوج في سقف عيونه المغمضة وتتداخل وفجأة وبين الحين والحين يندلق في سماء العين المعصمة ماء وذلك الوجه السمين المربرب الناضج أبداً بالعرق.

أصبح بينهما المكتب مرة أخرى، نفس المكتب الذي كان دائماً بينهما في الصباح هما على طرفيه ممثلتان بابتسامات البزيف وفي العمل يفصل بين المقابل التي يدبرها لمرؤوسه، والعرائض والشكاوى المجهولة التي يدبرها لرئيسه. والآن هو موجود ولكنه لا يحول بينهما، بعده انطلقت صفعة يده كلها بوجهه، باصبع واحدة فقط صفعه، فالآخر كان قد استدار وامتلكه وإلى صدغه وجه صفعة قوية مليئة متمكنة. أبرقت الدنيا في عينه وصفرت أذنه. أيكون هو الآخر كان ينتهز الفرص لينفجر. هذه (بونية) تصيب أذنه، من المؤكد

خرقت الطلبة . يا ندل تأخذني على خوانة - هكذا سمعه . خذ وخذ
 وخذ وخذ . لم تعد علقه نوى أن يعطيها ويفض يده منه ومنها
 أصبحت معركة تكاد تتعادل ، الآن فقط يتأكد أن الآخر ليس جباناً
 بالدرجة التي كان يتصورها . ذعره الأول أصبح واضحاً أنه ذعر المفاجأة
 ليس إلا ، الآن هو يطلب العراك . وعليه عقد العزم . ما تصوره هكذا
 أبداً ، طول عمره يراه فأراً رعيدياً لا يحتمل الصمود لمجرد سباب وإن
 كان يبدو في قوة الأسد . ولو . حتماً سيأكلها . فأر أو أسد سيخرج منها
 بعاهة مستديمة على الأقل . بجماع قوته لكمه . انثنى الآخر وتأوه .
 وتلذذ . بركبته رفعها كالطلقة شلقت وجهه وأسالت الدم من أنفه .
 اعتدل . طار صوابه واعتدل . عيونه يشع منها بريق الشر والجريمة .
 كالثور الهائج أقبل ، إلى اليمين زاغ منه . ولكن لان ذراعه أول ناله
 وبضربة من قدمه هوى على الأرض كالكتلة . المقص أصابني أنا يا
 حمادة . فلم أكن الأسرع . الركلات تنهال كالطر ، الجبان ،
 بالحذاء . يسدها لوجهه ، فقد العقل ، فقد الاحساس بالضرب
 والألم . همه أصبح أن يغلب ، لومات حتى قد غلب أو غالب
 لما همه . المهم أن يخرج من الصراع غالباً ، ولو ممزقاً أرباً يخرج ،
 أمسك بالقدم ، الضربة إلى صدره ، بشدة أمسكها بيديه وبقوة عظمى
 ثناها . سقط الآخر يتلوى ، يتأوه ، اندفع يرقد ويديه يحيط رقبتة
 السميكة عازماً أن يكتم للأبد أنفاسه . اختنق الوجه بالاحمرار
 وبحلاوة الروح دفع أصبعه السبابة في عينه . المجرم . لنكن مجرمين
 أصبحنا . إما قاتل أنت أو مقتول . الرعب أمده بقوة أعظم . تخلص
 من الأصبع . رعب آخر جعله بانتفاض يديه بعيداً حتى ليرتطم رأسه

بحامل الخزنة بل وتسقط على قدمه . تماسكا ظلا يتضاربان ، حتى لاحت فرصة وأمسك لحم كتفه بأسنانه . بأنيباه ، بكل ما يملك من حقد وغيظ ، وجنون وفتوة أنشب فكيه في لحمه . أحس بطعم اللحم نفسه من خلال حرف البدلة ، صراخ آخر مكتوم لم يعد يعادله إلا ضرباته . ضربات وحش لا يرحم ، عينه يحس بها أغلقت تماماً ولم يعد يرى بها ، أنفه تورم وبالتأكيد تدشده ، دم الآخر سال ، وبدأ يصرخ وبدأ هو الآخر يصرخ ، الضرب اشتد وعنف وتشعب أهو يضرب أم يضرب ، أهو المهزوم أم المنتصر ، كل ما أصبح يحسه أنه متعب وأن التعب يتكاثر عليه حتى لم يعد يقوى على أخذ النفس . أصبح همه كله أن يتنفس لم يعد يتنفس . الهواء لا يدخل صدره . غير قادر أن يحرك الضلوع ليدخل الهواء . على الأرض تمدد بغير حراك ، سكون ، وهناك حين استطاع بطلوع الروح أن يعود يلتقط النفس ، بدأ يدرك أن الآخر أيضاً لا يضرب ، وب نظرة لمح محكوماً أسفل ركبته ، مغمض العينين ، بدأ بالكاد يلهث بالنفس . كتلتان من الأنسجة المبعثرة والملابس الممزقة وبقع الدم ممددتان على الأرض في مكتب ليس به سواهما بعد ظهر ذلك اليوم .

من مكانه راح يرمق الآخر . عشر سنوات وهو بغير الحقد لا يرمقه . من مكانه راح ينظر إليه ويتأمل . إنه لأول مرة يرى قاع رأسه ويدرك أن الشعر في منطقة قمة الرأس خفيف تماماً ، بل يكاد يكون بلا شعر .

ووجد نفسه يتمتم : من كان يتصور هذا . بعد عامين على الأكثر سيكون الصلع قد شمل رأسه كله . مسكين .

حكاية مصرية جداً

تلك اللحظات القليلة، غريب يلتقي بغريب، وكل منهما يلعن
الحظ بطريقته، ويتلاءم أو يتصارع، بطريقته أيضاً.

ذلك السائق الطيب. سمين وملفظ وأب لثلاثة طلبة في
الجامعة، ويجيد رواية الحديث والنكتة.

قال: كنت سائراً قريباً من شيراتون، وفجأة في تقاطع
شارعين، وجدت شحاذاً مقطوع الساقين يعترض بجسده (أو بالأصح
بالباقى من جسده) طريق العرب. وقفت. وفوجئت بذلك الإنسان،
وبقدرة هائلة كقدرة القروذ والزواحف، يقفز من حيث كان أمام العرب
إلى حيث الباب المجاور لي ويفتح الأكرة وينزل بجسده إلى جوارى
وهويلهت ويقول: اطلع يا اسطى.

أطلع ازاي. قلت له. معقول أن أعطيك حسنة. أما أن
أوصلك حسنة فهو ما لم يسمع به أحد قال: يا اسطى أنا عايز أروح
شبرا الخيمة أو شبرا المظلات، من فضلك وصلني. أنا زبون ولست
شحاذاً اطلع بسرعة. أرجوك.

ترددت قليلاً ولكن إلحاحه الشديد.. ثم قبضة النقود التي أخرجها نصف إخراجه من جيبي أقنعاني أن أطلع. وطلعت. سرت على كورنيس النيل أتأمل الزبون.. ملابسه مقطعة، جسده قدر، شاب لا يزال ولكن شعره منكوش بطريقة تضيف إلى عمره عشر سنين. ولعب الفسار في عبي مرة أخرى فأوقفت السيارة وقلت له: أنت إيه حكايتك بالضبط. مش ماشي إلا لما نقول لي. قال: تشرب كوكاكولا..

ونادى على بائع الكاكولا، ودفع له في الزجاجتين عشرة قروش بسخاء وشربناها. قال: اسمع يا سيدي.. أنا شحات.. قلت في سري: هذا يبدو واضحاً.. قال: وأنا أريد أن آخذ تاكسي مخصوص لأهرب من العسكري.

سألته: قصدك شرطة مكافحة التشرد. قال: لا.. عسكري المرور. قلت: وما علاقتك بعسكري المرور وأنت شحات؟ قال: علاقة عمل. قلت في سري: أي عمل هذا الذي يربط بينك وبين عسكري المرور؟

قال: أيوه.. علاقة عمل. وأخبرني بالقصة.. قال: - من يوم أن قطعت ساقاي في حادث مترو بدأ ربنا يفتحها

عليّ، وبدأ الناس كلما رأوني زاحفاً على الأرض من تلقاء أنفسهم يعطونني، وبدأت أطلع في اليوم بخمسين ستين قرشاً، وأقول نعمة. ولكنني بدأت أفهم وأوعى وأعرف أنني أمتلك رأس مال. ساقاي المقطوعتان رأس مال لا بأس به أبداً لا بد أن أشغله. وهكذا بدأت أتقن انتقاء الأماكن، وأعرف طباع السكان والمارة في كل حي من أحياء القاهرة. الغريب أن الذين كانوا «يعطفون» دائماً عليّ هم: إما الفقراء جداً أو الأغنياء جداً. أما متوسطو الحال من أمثالك فالظاهر أن الرحمة صعبة الوصول إلى قلوبهم تماماً. ولكنني أيضاً بطول المزاولة اكتشفت أن الذين يعيشون في مصر تتييس الرحمة في قلوبهم بعد قليل من كثرة ما يرون، أما القادمون الجدد فهم الذين لا تزال قلوبهم، وجيوبهم أيضاً، عامرة بالمال والرحمة.

وهكذا كان لا بد أن أعثر أخيراً على ذلك الركن القريب من الفندق الكبير الذي ركبت معك من جواره. مكان وشغلانة لوكس. الركن إشارة. تقف العربات عند النور الأحمر، في سرعة أكون قد مسحت ركاب العربات الواقفة وسائقها قبل أن يضيء النور الأخضر وينطلق المرور. ولكنني اكتشفت أن الإشارة لا تستمر طويلاً بحيث لم أكن أتمكن من تكملة مسح العربات كلها. وهكذا في يوم ذهبت إلى العسكري الواقف عند الإشارة ولم يأخذ الأمر سوى كلمتين اتفقت معه بعدهما أن يطيل من فتح النور الأحمر حتى (أمسح) العربات كلها وحين أعطيه أنا (إشارة) من رأسي أن كله تمام يفتح هو (الإشارة).

يا ابن الإيه . هكذا قلت له . وقلت لنفسي أهذا هو السبب إذن
في غياب تلك الإشارة وربما غيرها من الإشارات ؟ .
ووجدتني أسأله : وكنت تعطي العسكري .
قال : طبعاً . . خمسين ستين قرشاً كل يوم .
- آمال أنت بتطلع بكام .

- مش كله . . اتنين ثلاثة . . ممكن أكثر شوية خمسة ستة في
يوم المرور زحمة .

- طب والنهارده . . مالك هربان ليه ؟ إيه اللي حصل ؟
- النهارده يوم موسم كل سنة وأنت طيب . والشغل كان على
ودنه ، وقلت أهرب قبل ما بيعي العسكري يشاركني فيه .
ولكن (هكذا قال الأسطى) تفكرت في الموضوع وقلت له :
- طب ما هو العسكري بكره ح يقفشك يا حدق .
ونظر لي بابتسامته الشابة الحدة المصرية الساخرة وقال :
- لا . . بكره فيه عسكري تاني باتفاق تاني . . ده كان آخر يوم
للعسكري ده في الحتة دي .

قال الأسطى : كنا قد وصلنا المكان . . عندك يا اسطى
وقفت . . كان الحساب ٤٣ قرشاً . أعطاني خمسين قرشاً . . سبعة
قروش بأكملها بقشيش وقال لي : لو تبقى كل يوم تعدي على الإشارة
دي الساعة عشرة كده وتوصلني ح أديك خمسين قرش .

عن الرجل والنملة

بعيون فاغرة فاها رحنا نراقب الباب وهو بالعصبية. الشديدة
يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتبينها إلا حين فقط تستقر في
ركن الزنزانة الفارغ. حتى السباب المعتاد الذي كان لا بد يصاحب
الفتح والإغلاق والتكويم، من فرط الدهشة، لم نتبينه إذ قد حل
الصمت لا نجرؤ على قطعه مخافة أن يجد جديد وأن يكون وراء
البداية ما وراءها.

يتغامق الظلام في العادة بعد التمام. الخامسة بالضبط موعده.
النزلاء صامتون لمقدمه إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس
الليل من التغيير مع حراس النهار ويتمكن شاويش النهار من تسليم
شاويش الليل، صمت يهيم للصراخ أن يتعالى إذا حدث الخطأ
وأفلت نزيل من الإحصاء وارتبك العدد. الباشاويش هو المخطيء
ولكن الشتائم تنهمر فوق رأس النزلاء، وثمة جرى، وصوت الكوالين
الحديد يزأر وأبواب أخرى تنهمد حتى لتكاد تدك الحائط الحجري،
وأخيراً، يجري الأزيز النهائي لمفصلات باب العنبر الكبير، وتخفت
الأصوات مع الأقدام مبتعدة، ويحل الصمت. ويستمر، للتأكد أنهم

جميعاً ذهبوا، وأن النهار المتعب انتهى . ثم، وكأنما فجأة، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونة مولد المغربية المعتاد .

السكوت في النهار طوال النهار أحد الأوامر المتعارف عليها الصارمة، الألسن تتييس في الأفواه لقلة ما تتحرك، الحناجر مخشوشنة من فرط السكوت، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر في حراسة ثلاثة حراس ليل عواجيز في الغالب، قريبي الإحالة إلى المعاش، فقط حين يطمئن الجميع إلى ذهاب الجميع يفرج كل نزيل عن لسانه ويبعث الحياة في شفثيه وفمه وصدرة، ويزعق، ويشتم، بكل ما يملك من قدرة وقوة يصرخ ويشتم وكأنما ينتقم من السكوت وأوامر الشلل ويزاول الغريزة التي طال حبسها، غريزة أن يشتم ويشتم، فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طول النهار وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح تتكون له فعلاً غريزة الشتم تنهال بها كل زنزانة على الأخرى ويتبارى في مزاولتها الجميع، بفن وخلق وابتكار، لأسماء الأم وجسدها يخلق ألف تعبير وتعبير .

في أحيان قليلة جداً يحدث، أن فجأة، يدور المفتاح في قفل الباب الكبير ويفتح العنبر، وهنا، وفي لمحة خاطفة واحدة يتسمر كل شيء في مكانه ويحل أعرق وأغرب صمت . . صمت الترقب الرهيب لما عساه يكون السبب في فتح الباب .

وتتعدد الأسباب وتكثر، وذات مرة تجد السبب باب زنزانتك نفسه وهو لروعك يفتح وكتلة بشرية ما، تنزلق، ليعود الباب ينغلق .

قبل أن تسأل أنت القادم أو يفتح هو من تلقاء نفسه فمأ للكلام تنهمر
مئات الأسئلة من قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه
تسأل عن حكاية هذا الذي دخل، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية
مهولة، لا بد في الحال أن تعرف، وهكذا إن لم تبادر وتجب، حتى
قبل أن تعرف أنت ما هي الإجابة، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه
المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك وأعضائهما أحياء كانوا أم أمواتاً.
قفص حياة رهينة يتولى فيها أناس حبس أناس وخنق أناس وضرب
أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا في علب مجبوكة من الزنازين
والحجرات.

- ما بك يا عم . . خير . .

سمعت أنا وحمزة البسيوني . . زميلي في الزنزانة الذي تصادف
أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربي حيث تتم كل ألوان
التعذيب، تشابه كان يجعله وبالتالي يجعلني هدفاً لتعليقات ونخزات
وتعذيب لا حد لها.

- مالك يا عم مالك . .

فبالها حمزة هذه المرة، بأمل أن يجيب القادم. ومكوماً في
الركن لا يتحرك كان لا يزال. الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة
المصنوع من قضبان متوازية من حديد، لا إجابة، والنتيجة سيول من
الشتائم تلعنني وتلعن حمزة. ما أغرب قدرة الإنسان على تعذيب
نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه. معذبون

يعذبون معذبين . ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب في لب عذاب .

لا رد ولا تحرك ولا كان بادياً عليه أن سيرد . أ يكون ما نسمعه منه ليس تنفساً عميقاً إن هو إلا نشيج وبكاء، بكاء الصامتين لا حول ولا قوة، وجدت أنفسنا نقرب من الرجل نحيط به مشفقين . أيدينا نطبطب عليه ونستخرج كنزنا الثمين، الشمعة الوحيدة التي نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى، أشعلناها . بضوئها الذي بدا باهراً، مددت يدي ورفعتها من الكتف إلى الرأس أعدله وأرى الوجه .

كدنا نموت أنا وحمزة رعباً فكلانا طبيب ونعرف ماذا تعنيه تلك الصفرة المتكاثرة المتشاحبة التي لونت الوجه . الحداقات الواسعة المفتوحة وهي تمعن النظر في الفراغ وفي اللاشيء . ما لم ننبهه مات . انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأين ضرب وفي أي مكان من جسده يؤلمه أكثر . قسنا النبض وعددنا مرات التنفس . الصدمة فعلاً واضحة ولكن لا أدري أي إصابة في الجسد، لا جرح، لا خدش، لا بطن، منفوخ، لا شيء .

وتنفيذاً للمعاهدة المعقودة مع الحارس الليلي ساومناه على كوب القهوة . أصبر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة . وافقناه على مبيض كثير . أخيراً أصبح في يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق في تلك اللحظة، وسيجارة (وينجز) بأكملها، وعلى ضوء الشمعة دماء قليلة بدأت تسري في الوجه الخراب، مهمة، متممة،

تنهدات الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات ورفض أن يفصح .

نلج بكل ما نملك من طاقة الحاج ، والرفض البادي على هيئة صمت هو وحده الجواب . تشاورنا أنا وحمزة ، نتركه؟ نخفف الوطأة عنه؟ نترك كل شيء للصباح؟ ولكن حب الاستطلاع فينا لا يمكننا نحن أنفسنا مقاومته ، والإلحاح ، إلحاحنا وإلحاح بقية الحجرات والزنازين كلما احتفى الرجل بصمته ، وتداخلت رغبته في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القوقع كلما شعر بلمسة الأصبع . وبكل نعومة رحنا نداعبه ، ثم ، فجأة ، تركناه . . . تركناه . . .

حتى كاد يغلبنا النوم . وكل الألسنة المطالبة في الخارج قد سكنت .

- هل سأموت؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال وكأنما إجابة متأخرة جداً عن قولنا له : نحن أطباء ، لا نخف . فضفض حتى تستريح ، ولا تخف ، فنحن نريد مصلحتك ، نحن أطباء .

- هل سأموت؟

ودون أن نتفق ، لم نجب . رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب فما كنا نريد تطمينه حتى لا يؤوب إلى سكوته وفي نفس الوقت لم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه .

فجأة وجدت حمزة ينفجر فيه غاضباً مؤنباً إياه على هذا الموقف الطفولي الذي لا معنى له بالمرّة. معتقل سياسي. ألسن كذلك. كان واضحاً من ثيابه المدنية أنه ليس مسجوناً. إذن لماذا هذا التثبث بالصمت. أخائف هو على نفسه، وماذا يمكن أن يحدث له أسوأ من هذا الذي حدث والذي جاءوا به إلى هنا بسببه وعلى تلك الحال القريبة من صدمة الموت.

فعلاً. . يعني ح يكون جرى لك إيه؟

بعمق تنفس وتنهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ:
- أوحش شيء على ظهر الأرض.

وكدنا نبتسم في رثاء. . ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

عاد يقول: أوحش شيء على الأرض. حدث لي ما لم يحدث لبشر. ومرة أخرى استخففنا بكلامه. . وكدنا نقهقه. سبعة عشر شهراً ونحن في هذه الزنزانة معاً. سجن مصر محطة يتوقف القادمون من السجن الحربي في طريقهم لطره وأبوزعبل والواحات، والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو لعذاب آخر في السجن الحربي. وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهمة ومتهمين ومعتقلين وأسباب اعتقال، وتعذيب، ومعذبين. النفخ والضرب وكى نصف البطن الأسفل وهتك الأعراض وكل شيء، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو يأتي لها ذكر. وكل منهم. . مثل هذا القادم. . يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك.

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له؟
 - أوحش شيء على ظهر الأرض .
 - ماذا مثلاً؟
 - أوحش شيء على ظهر الأرض .
 - نمت مع نملة . .
 وانفجرنا ضاحكين .

قطعاً هو لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحاً أنه في طريقه
 لاختلال عقله . وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في هذا العالم من
 ندم يقولها . نام مع نملة . وانفجرنا ضاحكين .

والى الصباح التالي ظللنا نضحك . وتذكر ملامحه وهو ينطقها
 فتصاب معدتنا بالمغص من فرط ما نضحني ونضحك .

وعلى رأي كيلة ودمنة قلنا له في الصباح التالي - وكان تقريباً
 لا يزال على نفس جلسته وقرفصته وانكماشه على نفسه . . وكيف
 كان ذلك يا أستاذ .

لم يكن تبدو عليه سيما المعتقلين السياسيين . معظمهم كانوا
 مثقفين . حليقي اللحية والشارب ، خريجي أو طلبة جامعات . هذا
 كان له شارب ، أصفر وغزير ومتهدل على شفته العليا يكاد يلامس
 السفلى . وجهه خشن لا بد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب
 والمنازل في الخارج حيث الريح والتراب ولفح الشمس . في الحقيقة
 لم نفاجأ حين قال لنا إنه عمدة . حين تستخرجها من الحالة التي كان

عليها، والسكينة التي آلت إليها ملامحه وقوامه، وتفرد، وتوقفه، وقصيرة سيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقاً وصدقاً لا بد كان واحداً من أولئك العمدة من طراز: اخرس يا ولد. شهم كريم، يذبح للضيف خروفاً إذا رأى، ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنداء مستغيث. عمدة ومعتقل سياسي. جديدة جداً هذه المرة. والنكتة أن يكون شيوعي مثلاً ومن منظمة (ح.م) المغالية في شيوعيتها واتهامها لكل الشيوعيين الآخرين أنهم عملاء للبوليس السياسي. الأقرب للمعقول أن يكون واحداً من أعضاء الهيئة الوفدية فليس هناك عمد في تنظيم الاخوان المسلمين، ولكن، لا تعجب أبداً إذا اتضح في النهاية، أنه ماركسي يؤمن بالمادية التاريخية وربما قد قرأ رأس المال واللينينية.

في الليلة التالية ساءت حالته وارتفعت درجة حرارته وأصبح نبضه ١٤٠، وبدا ورم الوجه مختنق السحنة وكأنه سينفجر بعد قليل، انهلنا عليه بالأسئلة لنعرف منه ذلك الذي وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا.

وتكلم..

متقطع الأنفاس.

أخرج من صديره البلدي الداخلي علبة سجائر (كرافن أ) عشرين سيجارة كاملة، وعزم علينا. ولم نصدق أنفسنا ونحن ننفت دخان الكرافن وبكل ما نملك وما أصبح لنا من طول بال نصبر على

كلماته التي تخرج بعد عناء، ولهائه بين الكلمات .
تكلم ..

بدأها من منتصفها، أو من حيث بدأ يهتم هوبها، لا نعرف .
قال: هذا الوغد، يونس بحري . قتلني . بالأمس فعلاً قتلني ،
وساموت، ولكني لن أموت قبل أن أغرس أسناني في زوره وأقضم
حنجرته ابن الانية هذا .

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله
في المقاطف والسير به نصف كيلو، من السابعة والصخر فوق أكتافنا
والرمل في عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط
والمسامير، وجلست آخر النهار، قبل طابور العودة نستريح . وكانوا
ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحري . ناداني . منذ أن
رآني ورأيت أنه وأنا أشفق عليه وعلى نفسي أن يناديني . ناداني . تلكأت
ولكنني قلت أقصر الشر وألبي نداءه . ذهب . وقفت . تركني واقفاً
واشتبك في حديث فاتر مع زميله . قلت: أفندم . رمقني بنظرة، ثم
عاد إلى حديثه الفاتر . اللهم طولك يا روح . قلت، وعزمت أن أوجل
أي اشتباك فجسمي مهدود ولن يحتمل أي ضرب . والبداية واضح
أنها ستنتهي بضرب . أقصر الشريا ولد . واصبر .

هناك، بعد ربع ساعة أو أكثر . التفت ناحيتي وقال: روح هات
نملة من هناك . وأشار إلى كومة تراب قريبة .

صحا مخي من غفوة الوقوف وخيل إليّ أني لم أسمع جيداً
وسألته: أجب ماذا؟

هب في صائحاً: نملة، .. ألا تعرف النملة يا بن الـ . . ؟
سكت .

مرة أخرى: تعرف النملة واللالا .

قلت بتسليم: أعرفها .

قال وهو يلتفت إلى زميله: روح هات نملة .

طول الله روحي وذهبت إلى حيث أشار، وتفرست في كومة
التراب ملياً حتى وقعت عيني على نملة حمراء كبيرة نسميها في
بلادنا حرامي النمل . انقضضت عليها بقبضتي ودون أن أفحصها
أمسكتها في قبضتي وعدت بها .

ووقفت أمامه وقلت: أهه النملة يا أفندم .

- وريني .

فتحت يدي كان . . رآها . . قال:

- ولازم تجيها حمراء هي رخره يا بن الـ . . (. . .) الشيوعية .

عضضت على شفتي السفلى، لا بد أنها جرحت . وسكت
بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقني وقال:

- دي ايه؟

قلت ببراءة ما بعدها براءة: نملة يا بيه . .

قال . .

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذي طلبه
غريباً جداً وغير معقول بالمرة، سألته: أفندم .

قال: اخلع هدومك . .

- نعم . .

أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة .

رفعت يدي مسلماً قائلاً: حاضر يا بيه . . اخلع هدومي ولكني ترددت . . نظرت حولي بركن عين . . طابورنا المنكود الحظ قابعاً كصفين من طابور ذباب الكدح والزق والزجر . في دائرة واسعة رهيبية يلتف حوله سور من عساكر يحملون الأسلحة الأتوماتيكية بكافة ألوانها، قريباً منه تناثرت فرقة الضرب تحمل الهراوات والكرابيج والنباييت والأحزمة والقضبان الحديدية . أنا واقف وحدي ويونس بحري مقع على كرسية أمامي . ولا مفر .

استنهضني بشخطه ولما كنت كما قلت قد قررت أن أوجل الاشتباك فقد مددت يدي الأخرى وبدأت خلع جلبابي، وخلعت الصديري، عارياً كما ولدتني أمي أمامه .

- قلعت هدومك . .

- زي ما أنت شايف يا بيه . .

- طيب (. . .) النملة اللي في إيدك دي .

خيل إليّ أنني حقيقة لم أسمع، وكيف أسمع، وما طلبه لا يمكن أن يمر إلا من عقل مجنون، حتى المجنون نفسه يخجل أن يطلبه .

- نعم . .

الكرباج مرفوع فوق رأسي والنبوت يهياً للانقضاء ويونس

بحري تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الذي أمره، والدنيا،
وسور العساكر حاملي المدافع، والطابور، والبازلت والجبل والصخر
والطريق، وكل شيء سكت وصمت وتآمر يستحشني أن ألبى .

انتفض الفلاح الخبيث الذي في قلب الموقف الجاد الرهيب
وقلت فجأة:

- بس دي ذكر يا بيه . .

لم يضحك، ولا أحد من القربيين أو البعيدين ضحك، بكل
صرامة قال: روح هات واحدة نتاية.

وكالذي نومه المنوم المغناطيسي استدردت وقصدت كومة
(التراب) وعسعست بيدي . طبعاً كان أول ما خطر لي أن أبحث عن
نملة أنثى، ولكنني كدت أضحك من نفسي لأنني انسقت وراء
المشهد فعلاً وأخذته جداً، وسألت نفسي: كيف أعثر على الأنثى،
وما الفرق بين النملة الذكر والنملة الأنثى، بل هل توجد نملة أنثى
ونملة ذكر. المقصود عدت إليه ووقفت أمامه وفتحت قبضتي على
نفس النملة وقلت: ها هي نملة أنثى .

قال: يا الله . .

- يا الله ماذا:

سألته . قال:

- تاني . . اسمع . .

وفوجئنا بجعجعة أوامر تفرقع، واقترب سور العساكر حتى أطبق

على طابور المعتقلين، واستقر أفراد فرقة الضرب فانتصبت واقفة مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبة، وهوى الكرباج من خلفي وسمعت صفيره وهو يشرخ الهواء كالسكين القاطع مغوراً في جلدي ولكن يونس بحري تلافاه، في آخر لحظة وأمسك باليد المهوية وقال بصوت مخيف صوبه إلى كل إذن تسمع: اسمع.. أنا لا أريد ضربك.. فانا أعرف أنك من النوع الحميري الذي لن يؤثر فيه أي ضرب أو تعذيب ولكني سأضرب تلامذة ابتدائي هؤلاء.. أشار..

والحراس يعرفون إلى من يشير. فقد كان ثمة خمسة صبيان صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشرة، معنا في الطابور، إذا ضربوا يصرخون بل يصوون كالكتاكيت المدعورة وتغور صرخاتهم في لحمنا الحي بحيث يصبح أهون لأي منا أن يقطع بالسواطير ضرباً ولا يسمع صرخة الواحد منهم..

جزعت والحق يقال، وسقط قلبي في قدمي مخافة أن ينفذ الوعد. يا عم يا يونس ما كنا قاعدين في أمان الله، ماذا دار في عقلك النجس ليقلب سلامنا هذا إلى لحظة الرعب هذه حتى ليبدأ الجو يحفل برائحة الدم واللحم المفروم.. تطويل الروح لم يعد يجدي. ماذا تريد يا أيها القومندان. - يا الله.

ولأنني ضامن أنني سأكون على حق في تساؤلي رفعت صوتي مستغيثاً مستعيناً بالله من هذا الهول الذي لا أعرفه: إزاي بس يا

بيه .. أنا في عرضك .. إزاي .
 - زي الناس .. هكذا قالها .
 - زي الناس إزاي ..
 - زي الناس يا ابن ال .. ويا بن ال .. ماذا تفعل الناس ؟
 - ولكنها تفعلها مع الناس والإناث الكبار، وهذه نملة ..
 - ولو .. اعتبرها ناس .. اعتبرها إناث ..
 - حاضر ..
 قافزاً الفلاح الخبيث إلى نجدتي مرة أخرى قلت :
 - حاضر يا بيه ..

وعملت أني فعلاً أزاول ما أمرني به .. وأنا، زيادة في
 الاندماج، قد رسمت على وجهي ابتسامة سادة . استيقظت منها على
 صوت نبوت يشرخ، يشرخ الهواء . ويشرخ ظهراً من ظهور (التلامذة)
 إلى جوارى . التفت على الصرخة، أهذه صاعدة من عظام الأقدام
 لكائن حي إنسان صغير يتألم ؟! انفجر قلبي وتدفق منه الدم الفائر
 غصّة ولوعة .

- لا تمثل يا بن الكلب .. اندمج . أتضحك عليّ .. اندمج ..
 أنت خالع الآن ملابسك وهذه أنثى ، نملة مش نملة لا يهم .. هذه
 أنثى .. اندمج .. وسأراقب وجهك وملامحك .. وأقسم برحمة أمي
 إن لم أرك تفعل ما قلته سأشرخ تلاميذك وأنت وكلكم معه .. وأنت
 تعرف وكلكم تعرفونني ..

وكان واضحاً من وجهه المسمر بالجديري القديم أنه لا يهزل،

حاولت أن أجد فرجة احتمال أو عشر احتمال للتهاون فلم أجده هذا
إنسان مجنون وقد تقمصته حساسية المجانين للحقيقة ولن يصدق
غيرها ولن أستطيع أبداً خداعه وعليّ أن أفعلها. حاولت. ولكنني في
منتصف المسافة استدركت وطلبت منه العذر.

وجمعت نفسي وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس
أمرتها. أحسست أن شهباً كشهب الجنون تتراءى لعيني، ومن فرط
الانضغاط بدأ العقل في مخي يقطع. مجنون أمر، وأمر مجنون،
ولا بد أن أستجيب، ومجنوناً لا بد، لكي أستجيب، أن أصبح. أنا
فعلاً رجل ضخيم، وهذه نملة، وبكل كياني عليّ أن أصغر نفسي
وأستحيل من إنسان إلى حشرة، وعليّ التخيل أنني ذكر نملة،
تستثيرني أنثى النملة، وأنام معها. وكلما فشلت، كلما توقفت،
كلما غام وعيي بالمشهد وباستحالة التحول. . وأحسست التهديد
يحوم كغريبان البين حول التلامذة الصغار وحول الطابور أتصاغر
وأصاغر ويكسوني العرق وتقطع عظامي وتشدش دون أن تصبح
كفي في حجم ساق النملة، وساق النملة لا يكاد يرى ولا بد أن
أهوى بوعبي وبإرادتي على كفي وكتفي ولحمي وعظمي ورأسي
وبطني وساقني وعنقي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر نملة، أفرز
هرموناته، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات أنثى القادمة،
مستسلمة، في يدي. هكذا، رأيته، بألف عين دقيقة لي تكونت، قد
استجابت، وكفت عن الحركة، ووقفت واضطجعت. لو كانوا قد
عذبوني وقطعت الجبل كله، لو ربطوني إلى ذيل حصان جرى بي

القطر كله من أقصاه إلى أقصاه، ألف جلدة، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار بما مر عليّ من عذاب حتى أفلت الزمام ولم أعد أستطيع الكف وجسدي يمضي يتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويزاول الحب نملة . . وعند لحظة النهاية فقدت الوعي . .

قالوا لي إنهم حملوني حملاً إلى الليمان.

وإنهم خافوا من صراخي أثناء الليل واستجار الزملاء من عضّي وتمزيقي لملابسهم وملابسي، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر، ومن هناك إلى هنا . . وهمس لي التومرجي الأسمر العجوز وأنا في الطريق إليكم أنهم يفكرون في الإفراج الصحي عني . . ولو ما الفائدة، وقد نمت مع النملة واعترفت، وكان الذي كان . .

ولأن لا أبشع في السجن المنتظرين المحاكمة من كلمة اعتراف، فقد وقفنا على أطراف تحفزننا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا اعترف ولماذا اعترف .

قال وهو يشيح بيده: وأنا وسط العذاب، في منتصف المسافة بين كوني بشر وكوني ذكر نمل انكسرت إرادتي ولم أحتمل، وقلت كل ما عندي بأمل أن يتوقف أمر يونس بحري وأن يكف العذاب، ورغم الاعتراف لم يوقف المجرم الأمر، وحتى ولو كان أوقفه فأنا نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول، إرادة أن أكون بشراً أفلتت وصارت لي إرادة نملة لا تقوى أبداً على كتمان .

* * *

٥٥١

ورغم إعادته إلى المستشفى فقد سمعنا أن حرارته ظلت ٤١
طول الليل ورغم جسده المتين الضخم، في الصباح التالي مات.

أنا سلطان من قانون الوجود

١٠١

۵۵۵



أقتلها

٥٥٧

السَّيَّار

أَقْتَلَهَا

ربما للمرة النادرة الثالثة أو الرابعة في حياتي حدث ذلك الشيء الذي كثيراً ما يحلم به أي راكب اعتاد ركوب الطائرة وحيداً، حتى أصبحت مسألة من يكون جاره وكيف يكون أهم ما يخطر بباله قبل وأثناء وربما بعد الركوب. بضربة حظ مفاجئة والمقاعد حولي وعبر الطائرة كثيرة وفارغة، وجاءت الحلوة الطويلة ذلك الطول السامق الذي نفتقده في شريقياتنا العظيومات القصيرات، مبتسمة ابتسامة المرحب بك، وبكل ما يمكن أن يدور بخلدك، حمراء الشعر، حمراء النمش، حمراء البياض، والحمرة درجات ودرجات، وبالذقة مرسومة وموزعة، حمراء لحرمتها هالة، وكأن آلهة الجمال تسلط عليها من يوم ولادتها كشافاً مسرحياً متلون الحمرة يتبعها أنى تتوجه، ولها يصبح الظل والواجهة، والمسقط والبروفيل. جاءت وتلفتت واختارت دون المقاعد جميعها، ذلك المجاور لي واعتلته، فعلى الفور أصبح الكرسي عرشاً. ورداً على ابتسامتها المرحبة أطلقت تحية لها ألف ابتسامة ترحيب. ملكة من بافاريا بكل إرادتها اختارني لأكون شعبها الوحيد المحفوظ. بل الظاهر أن صمام الحظ

كان قد أفلت من قبضة النحس تماماً، وقبل أن تقلع الطائرة كانت قد طلبت مني مطلباً صعباً جداً، ومن فرط جسامته يكاد يكون مستحيلاً.. أن أتفضل وأتنازل وأسمح وأكون دليلها حين تصل إلى القاهرة، دليلها إلى أوتيل لائق فهذه أول مرة لها في الشرق.. تحلم به منذ عاشت، والقاهرة بالذات كانت دائماً مركز الحلم، ولهذا فلم تمض في بيروت إلا يوماً واحداً، ومن فرط لهفتها ذهبت إلى المطار دون حجز.. ومن حظها الحسن أنهم ارتضوا الوضع وها هي الآن في الطائرة وبعد أقل من ساعتين ستكون في قلب المدينة الحلم..

صدقوني أو احسدوني أو تزمتموا وتظاهروا بالنفاق والورع، ولكنها راحت مرة أخرى ترجوني أن ترافقني - وليس أن أرافقها أنا - إلى حيث (أضيق وقتي!) بعض الوقت كي أساعدها في إيجاد المكان المناسب في الفندق المناسب وبالسعر المناسب، فهي تمقت الهيلتون والشيراتون والأماكن الخاصة بالأغنياء لأنهم عواجيز، أو العواجيز لأنهم أغنياء، وتعبد الفنادق ذات الطابع! حبذا لو كان لدينا فنادق في الهواء الطلق، أو فيلات غرفها خيام وفناؤها الصحراء وطعامها يشوى في العراء على النار، والنار يقلبها بدوي بلحيته السوداء وشبابه الأسمر وعقاله المدلى - اهمالاً أو أناقة - إلى جانب. حبذا لو يشوي لها اللحم ومعها يلتهمه. في ليلة تحت خيمة، ليلة لا يشهدها سوى القمر.

حين رأيته قادمة في الممر، ودون أن أدري، كنت من فرط طولها وهيبة الأنوثة المكتملة في القوام الكامل قد أعطيتها خمسة

وثلاثين عاماً أو شيئاً من هذا القبيل، وحين اقتربت بدا لي عمرها الحقيقي في حدود الثلاثين، وحين ابتسمت وجلست تحادثنا. . بالذات حين بدأت تغمغم حلمها اليقظ وكشافات حمرتها تزداد توهجاً، وكل نمشة في وجهها تكتظ انفعالاً وتصنع من مكانها وبسمتها إلى جارتها وعلاقتها بالجارة الأخرى كلمة. . سر جمالي خاص تبوح عن نفسها وتنكشف، وعمرها يتناقص، بحيث قرب النهاية، ولولا أنها لا تصح إلا لمن جاوزت الطفولة. . إلا لصبية تدرك وعن يقين تلمس لماذا المرأة مطلوبة؟ لماذا يتقاتل عليها الرجال؟ لماذا تظن بالحب لأنها هي الحب. . كل الحب. . حين تحب؟ لولا هذا لارتدت إلى العاشرة، وكلماتها تتحشرج بالحلم وبالنهاية حلماً. ما أجملكن أيتها الغربيات في شيء واحد، حين لا تجعلن ألسنتكن تنفرد وحدها بكل الحديث. حين نالت أجسادكن معكن الحرية وأصبح لها ومع العقل والقلب حق التعبير تحلمن، أو حتى تكلمن أحلاماً فتستحلن جميعاً حلماً بالصدق وليس بالتمثيل.

وما أبشعك أيتها البافارية الألمانية كأنك من قبيلة جن أحمر انحدرت. كنت تحلمين، وتقترين مني تزديني مشاركة لك في حلمك. تحلمين ويزداد كشافك الأبدي احمراراً، وبنفس حلمك، «النفس حلمك» ينصب من حيث لا أدري على ملامحي ذلك الاصفرار المتغامق الفضاح، فحلمك تبينه كنت تقوضين حلماً لي مذكراً، وبقاهرة تضعينها في خيالك وصحراء، وباللحم البدوي، كنت تقتلين قاهرة أجمل أعرفها وأحفظ أركانها، وصحراء أروع ما

فيها أنها ليست من رمال، وبيدويك الأسمر ولحيته وشاربه كنت تنزعين عني - كما يفعل بعض مخرجينا بقساوة - دوري . . دور البطل، فلا بدوي أنا ولا لحيه لي، وبلون جلدي لا أمت إلى الصحراء أو حتى إلى محافظات بحري. عيناى مصيبتهما السوداء أنهما ليستا سوداوين كما بطلك، ذلك الذي لم أشعر نحوه بذرة تفسير لحماسك هذا الفائز المتوحش.

وأيضاً كما يفعل ممثلونا والرواية تقرأ حيث لا أحد إلا الملقن يصغي إلى الموضوع، وإنما الكل وبلا وعي يبحث عن أكثر الأدوار صلاحية له، أغناها «بالافيهات والنكات» أطولها، أبطلها كما يحدث هناك، وحلمي يتحطم، ولونك يحمر، وحلمي ينحطم، ولون البطل يسود، ولوني أنا يصفر، كنت وقد فقدت الدور الرئيسي أبحث بغير ما لهفة عن الدور الذي أعدته لي في حلمك ذاك.

فجأة ضحكت.

وبانزعاج مؤدب سريع توقفت عن الحديث وسألتنى: ماذا حدث؟ هل أخطأت في شيء.

كان انزعاجها حقيقياً، فالضحك في ألمانيا ليس كالضحك هنا. . فمن حقك المطلق هنا أن تضحك في أي وقت تشاء ولأي كلام يقال حتى ولو كان الكلام جاداً ليس فيه ما يضحك - بل بالذات لو كان الكلام جاداً حقيقة وليس فيه ما يضحك. الضحك هناك - كأى شيء - لا بد أن يتوفر لحدوثه أسباب وجيهة قوية مقنعة جداً وواضحة جداً ولا يختلف عليها اثنان. حتى في بعض الروايات مثلاً

ممكّن أن تحدث مواقف تدفعك دفعاً للضحك، ولكن لأن النص لم ينص على الضحك هنا، فإن أحداً لا يضحك، الضحك هناك نظام، وكأي شيء لا بد أن يتم بنظام، فإذا فعل إنسان فعلتي، وفي نهاية كنهاية حلمها في لحظة تحشرج فيها صوتها، ضحك، فلا بد أن شيئاً قد اختل في النظام العام.. جننت أنا أو جنت هي أو تسرب مع فتحات الهواء في الطائرة شيء من الغاز الضاحك.

انزعجت، وبلهفة تساءلت مروعة لماذا أضحك؟
وكنّت أضحك لأنني اكتشفت أن دوري في حلمها هو الدور الذي نحفظ به في الرواية للرجل الطيب الذي يقود الناس لتحقيق أحلامهم.. للقادة.

كنت أضحك للكم الهائل من خيبة الأمل التي أحسست بها.
فليس لشخصي اختارتني ملكتي البافارية وفضلت المقعد الخالي بجواري على كل ما عداه من مقاعد خالية، وإنما لمؤهلاتي تلك التي يتطلبها دوري، واضح أنني عربي مثقف أعرف لغات، وأعرف النساء أيضاً، وأحب - كما رأت كل أمثالي في بيروت وغير بيروت - أن أساعد السيدة، أي سيدة.. فما بالك بعجينة ملتبهة الأنوثة صاحبة الاحمرار.

يا بنت الاله! اسمعي اذن و..

وكما يتحدث الطلبة في برنامج ألف سلام، وكخطابات المغتربين ومحاضرات ذوي الحماس.. رحت والأصفر في وجهي

أقتلها

ينتقل إلى البرتقالية والطماطمية والبطيخية وما شئت من ألوان الاحمرار، رحت، وبقسوة وبلاغة، أو فلنفعل كاللغويين الكبار ونقول بقسوة بليغة أو ببلاغة قاسية، رحت أخلع تلك الصورة البدائية الكريهة التي يبدو أنها علقتها في عقلها منذ الطفولة. كما غاظتني بحلمها عن البدوي وسمرته، تهورت في حماسي دفاعاً عن برج الجزيرة وآثار الفراعنة ساعة العصرية على شرفة مينا هاوس.

وحين انتهيت ضحكت، ربما تقليداً لما فعلت بكلامها أنا ووجدت أن عليها اتباعه ورد التحية فعلت. ولكني أنا انزعجت. . . فقد خفت أن تكون قد وقفت على سر البلاغة القاسية والقسوة البلاغية وحماسي المفاجيء للبرج. . لا جمال ألبتة فيه، وربما أي برج حمام أبيض في أي نجع يبدو لي أكثر منه وداعة وحضارة ورماً.

أكثر من تفاصيل البداية أعرف، فأتتم لا بد أنكم مثلما كنت أنا تماماً شغوفين أن تنتهي البدايات بسرعة. وفي القاهرة أصبح وحدي مع البافارية الغربية الحاملة بليلة تنطبع فيها آثار الأحلام على الرمال.

ولقد حدث.

بل، ولقد حدث أكثر من هذا.

حين هبطنا القاهرة كان اللقاء قد تم. في بيروت بدأنا والبدوي حلمها، وهي أو مثلها حلمي، وكعادة الحياة والأحياء تبدأ معها

ومعهم مستنكرين، مطلقاً مختلفين غير راضين. ببساطة نرفض الواقع تماماً ونرفض الخضوع، وببساطة وكما رفضت أنا حلمها تماماً حتى مزقت القاهرة كلها من أجله، وكما لا بد كانت سترفض حلمي لو عرفت، وكعادة الأحياء أيضاً حين يرفضون الواقع المفروض ثم شيئاً فشيئاً يلتقون بادئين من الأمانى المشتركة والأحلام. نحن أيضاً تعادينا تماماً في الحلم، ولكن الواقع المحض بدأ يقربنا، واقترب الواقع من الواقع فن أسألوا عنه أهل الذكر. فالسيدة حين تخرج السجارة وتضعها في فمها دون أن تبحث أو تحاول حتى البحث عن ثقاب، منتظرة أن تفعل أنت ذلك الحريق الصغير الذي تلتقط بعضه بطرف سيجارتها، وبحنكة تذوق طعم الدخان الناتج عنها. . السيدة حين تفعل هذا تضعك في الواقع أمام امتحان يرسل البعض فيه رسوباً لا نقض فيه .

ذلك أنها أيها السادة حين تضع السجارة في فمها الذي ضيقته خصيصاً. . حين يحدث هذا إنما يكون في الواقع بداية بداية لمحاوره محاذاة تسير جنباً إلى جنب مع الحوار العادي. . المحاوره الحقيقية ذات اللغة الخاصة والمستويات المختلفة في الادراك والفهم، المحاوره الأهم التي من خلالها تدرك المرأة من أنت. . في الحقيقة من أنت. . وأي الرجال أنت. . وبأي الخصال تتمتع. . وأين نقط الضعف. انك إذا اندفعت مثلاً كالتلميذ الخائف أن ينسى قطعة المحفوظات ملهوفاً فتبحث في جيبيك عن الولاة، وما أن تعثر عليها حتى تحس بالاضطراب، ومن بعيد تدقها، تشعلها، وغالباً ما

تفشّل، وبعبصية من يريد إثبات البراعة ثانية وربما ثالثة تحاول، ثم تقرب النار بخوف من يخشى أن يحرقها، وليس بأناقة من يتيح لها أوسع الفرص لاستعراض أناقتها الخاصة في تحاشي اللهب، والاقتراب من الشعلة، وأخذ النفس، وإخراج النفس؛ والتحرك إقداماً وتراجعاً، والتفاتاً وابتلاعاً، واهمالاً في الإسراع والتراخي الذي تنشّد له الأعصاب، أسألوا أهل الذكر، ستجدون أن لكل حركة كتاباً أو باباً، وللأبواب مفاتيح والمفاتيح أحجام، والمشكلة ليست مشكلة اصطدام رجل بامرأة وخلّاص، المشكلة أن تدبر بحيث يبدو الالتقاء طبيعياً أكثر من الالتقاء نفسه، المشكلة أنك عارف وأنها عارفة وأنت عارف أنها عارفة وهي عارفة أنك عارف أنها عارفة، وهلم جرا ولكن كيف؟ وأين الرجل الذي يصبح فخره هذه المرة أنه الجاهل (مدعياً طبعاً) وقوته أنه الغبي المفاجئ، وكأن الأمر يحدث ولا بد له فيه. إن شرب الشاي هو شرب الشاي، ولكن أن تجعل من مجرد احتساء قدح من الشاي فناً وطقوساً تراولها مستمتعاً، وكأنها ليست وسيلة لشرب شاي أي شاي، ولكنها هي الوسيلة غاية في حد ذاتها. كيف تجعل من كلمة «شكراً» تبدو وكأنها أهم كلمة نطقها في حياتك، وكأنك لأول مرة تقولها، ومن أجلها استخرجتها من صندوق كنوزك التي لم يرها أحد، وتقدمها بإعزاز الملك يقلد الملكة التاج؟ كيف بصدق تجعلها تحس بكلمة شكراً، بنطقك لها، بإخلاصك وإعزازك واختصاصك بها، تاجاً باهراً كالتاج الحقيقي، على رأسها ساعة ترى الرجال تضعه، وعلى كل الناس، وبالكلمة متوهجة فوق شعرها تفخر وتتيه.

اسألوا أهل الذكر.
فأنا لم أسألهم فقط، أنا بعض من أهل الذكر هؤلاء.
وكان من المحتم اذن أن أجعل الحلم الذي في خيالها يتبخر.
وأحل مكانه ما أريده أنا.
وما أردته بالضبط تحقق.
فقد تحولت الخيمة إلى حجرة في فندق فاخر.
وتحول البدوي الأسمر ذو اللحية إلى شخصي أنا، محدثاً
وأنيقاً وبارعاً.
ومضت خطتي في طريقها بأسرع وأروع ما توقعت. وانتهى
العشاء.
وكنت أعرف وأحفظ درس السيجارة، والحريق الصغير الذي
علي أن أحدثه.
وأول نفس من السيجارة كيف تخرجه.
ومددت يدي بعلبتي أنا أعزم.
ولكنها هزت رأسها بأناقة بالغة معذرة:
وبيد رخوة مدت يدها إلى حقيبة يدها، وفتحتها وأخرجت.
أخرجت..
أخرجت سيجاراً من حجم (تشرشل).
وفضت عنه ورق السلوفان.
وبين شفيتها وضعته.
ومالت برأسها وبفمها، وبالسيجار ناحيتي، تطلب الشعلة.

وكالمذهول المنوم تماماً، وبأكثر من فشل واحد اشتعل طرف
السيجار في النهاية.

وبتلذذ عظيم تمتص رحيق دخان وتنفته ليشيع في الحجرة تلك
الرائحة الخاصة للسيجار الهافانا.

ولا بد أنها لاحظت ذهولي .

فبنعومة بالغة سألتني :

- أيضاً يذكرك أن أشرب سيجاراً؟

قلت بسرعة: أبداً أبداً.

ثم رحت أقول ببطء شديد: أبداً . . أبداً . .

ولكني كنت أقولها وأنا سرحان تماماً . .

لقد كان في عقلها حلم بدوي لحمي حمراوي طردته .

ولكن . .

هذا السيجار . .

كلما رأيتها من «الفاس» أو «البروفيل» نفس الملامح الدقيقة،
النمش البني فوق الأرضية المحمرة، الشعر المتوهج بالاحمرار، كل
شيء كما كان، ولكن السيجار ذلك السيجار اللعين قد غير بوجوده،
بمجرد وجوده، معنى كل شيء، طعم كل شيء . . تطبق بفمها على
فم السيجار فينبت لها شارب .

والرائحة التي تعبق المكان تحيل ملكة بافاريا إلى كائن آخر،
إي كائن غير المرأة .

قالت: أعرف أن كثيراً من الرجال لا يعجبهم أن تدخن المرأة
السيجار مثلهم، أرجو أن تكون من المؤمنين بالمساواة، أليس
كذلك؟!

هزئت رأسي موافقاً، وعن يقين موافق، فالسيجار في الحقيقة
قد ساوى بيننا، بين ملكتي البافارية، وبين الرجل، أي رجل، أنا
مثلاً..

٥٧١

يموت الزمار

أقنلها

تقريباً كل ما كتبت من قصص ونسبته إلى نفسي أو قمت فيه بدور الراوي، كانت كلها أبداً لم تقع لي، إلا هذه القصة فأنا فعلاً فيها الراوي وما حدث فيها حدث لي. ولقد حاولت المستحيل لكي لا أكون أنا أنا أو لكي يكون الحادث وقع لغيري، وكان ممكناً أن تكون أروع وأكثر إمتاعاً، ولكنني بيني وبين نفسي كنت أحس أنني سأكذب بالضبط مثلما كنت حين أقمص أنا شخص الراوي في قصص أخرى، معظمها أبداً لم يحدث لي! كنت أحس أنني أكثر صدقاً مع الآخرين ومع ذاتي.

إنها اذن قصة خاصة جداً، أعرف أن كثيرين سيهزون أكتافهم حيالها ويقولون: وما لنا ولهذا القول الذاتي الخاص، ولكن، من يدري؟ ربما لن أعدم واحداً يحس ذاته تماماً وهو يراني أتحدث عن ذاتي، فنحن في النهاية أبناء ذات واحدة عليا عميقة أو سفلى، إنما الاتصال قائم وموجود والمهم هو الوصول إليه، وقد يضطرب الكاتب في أحيان أن يستعمل دلوه الداخلي الخاص للوصول إلى مياه الآخرين العميقة.

وكنت حين أقرأ أن فلاناً الممثل أو أن جريتا جاربو الممثلة تتبع طرقتاً بوليسية منذ أكثر من أربعين عاماً لتختفي عن الأنظار العامة، وتعتزل الفن أو تقاطع هي دائرة الضوء لأنها تستمتع كثيراً بأي كوخ ظل تأوي إليه. كنت حين أقرأ هذا كله أحس أنه نوع من الابهار الصحفي يلجأ إليه النجوم زيادة في اجتذاب البريق.

وهذه المرة، ولا شيء من «هيافة» بعض النجوم في ذهني، وبعد طول تدبر وتفكير، وبعد انفراد بالنفس ذلك الانفراد الخاص التام الذي تحس أن همسة المخاطر حتى لا تشاركك إياه، قررت في لحظة حسم باردة كالثلج، لا انفعال فيها ولا تراجع أو ندم أن أكف تماماً عن الكتابة، أي كتابة، ليس يأساً أو تدلاً أو نوعاً من استدرار الاشفاق على النفس، تجاه النفس، ولو من ذات النفس، ولكنه ادراك عميق كامل بعدم جدوى الكتابة أصلاً، ليست كتابتي فقط ولكن كل الكتابة مذ عرف الإنسان الكتابة، أو - في رأيي - ماذا فعل الإنسان بالكتابة؟ أو بمعنى أصح، ماذا فعلت بالإنسان الكتابة؟ أصلحت أخلاقه؟ كذب في كذب فالإنسان أيام الحضارة المصرية القديمة، وأيام أثينا وطيبة وبابل، وأيام أفلاطون وأرسطو والفلاح الفصيح ربما كان أكثر تسامحاً وهدوءاً مع نفسه ومع الآخرين، وربما لم تفعل نصائح كتابه بتحريضه على الصدق وعلى الشرف وعلى النبيل إلا العكس تماماً، فلا أعتقد أن وحشية المحاربين أيام أول حروب عالمية عرفها التاريخ بين المصريين والحيثيين أو بين الفرس والاعريق كانت تصل إلى معشار ما وصلت إليه وحشية المتحاربين

في آخر حرب عالمية خاضها الإنسان، ولا وحشية ما حدث ويحدث للبشر في فيتنام أو أفغانستان أو لبنان. فصحيح أن بالكتابة تعلم الإنسان . . ولكنه بالتطور العقلي الذي أحدثته الكتابة والكتاب فيه تعلم أيضاً أن يصبح شريراً أكثر علماً وبشاعة علم، كالحية الرقطاء التي فوق الناب الطبيعية التي زودتها بها الطبيعة لتلدغ بها عدوها مرة، تعلمت وتعلم كيف يزود نفسه بأنياب أكثر وخزانات سم أكثر. أنياب لا نكتفي بنفث السم ولكنها ترسله ميراج وميج وفانتوم ونابالم ونيترون وكوبالت، وبدلاً من ترس التعذيب الذي كان يشد إليه جسده أصبحت وسائل العذاب تصل إلى نخاع النخاع من أدق أعصابه حساً، ولم يعد في الحرب فروسية أو علم أبيض أو قوانين أسرى وإنما هو الشر يندفع من عقول قد زودتها المعرفة بالتصميم القاتل على الإبادة، باختصار، مذ عرف الإنسان الكتابة. . عرف أيضاً كيف يصبح الشرير في أعنف وأبشع صوره.

قد يقول القائل ولكنه التطور وليس الكاتب أو الكتابة. . والرد جاهز، فالتطور ناتج العقل، والعقل ناتج الكتابة، ودعونا لا نتفلسف أكثر فلقد كان حلمي بالكتابة كحلمي بالشورة كحلمي بالمعجزة القادرة على شفاء كل وأي داء. . وفي عمري أنا سأرى اختفاء الحفاء، وعمومية الكساء، وزوال الحاجة، واكتفاء كل محتاج. كانت واحة العمر ألجأ إليها كلما نضب معين الخيال، وأتزود منها وبها بالقدرة على مواصلة اللهاث. وكان الوصول على مرمى حجر، وكأنني سأصحو في الغد لأجد الصباح فجراً ليس فجر يوم ولكن فجر

عصر. عصر كامل تام يعود فيه الإنسان يحب بكل نهم وعمق وظماً الحب، ويعيش وروعة الحياة يشربها مترعة قطرة وراءها قطرة، ولكل قطرة طعم، ولكل لحظة زمن تمر أشواق وصهيلة ومعان..

حياة أستمتع فيها إلى العالي أني ابن.. مثلما أستمتع به إلى مهجة كبدي أني أب، تأخذني الأم إلى أعماق أحضانها ترضعني خلاصة الأنوثة وأرتشف وأنا أضممها نعان أني ولد وخمرة أني رجل. حياة أنا فيها محب محبوب، عاشق معشوق، مؤثر ومغير، ومتأثر ومتغير، ودائماً إلى الأعلى والأروع. حياة. حياة، أتعرفون ما هي الحياة؟ ١٩.

في الواقع وأنا أتأمل القرار من نواحيه أدركت جانباً من عظمة وعبقورية شكسبير الشاعر الكاتب. فليست روعته أنه فقط كتب، ولكن الأروع من كتابته أنه عرف متى وكيف يتوقف ويقف. في الواحدة والخمسين كان قد انتهى من كتابة آخر أربع وأعظم مسرحياته على الإطلاق: الملك لير وعطيل وماكبث وهاملت.. وبانتهاء عرض آخر واحدة منها، لست أعرف ما هي على وجه الدقة، اتخذ القرار وصفى نصيبه في مسرح الجلوب وسوى أموره ورحل إلى بلده وهناك اشترى منزلاً (أصبح الآن كعبة الرواد) ومكث عامين بعيداً تماماً عن الكتابة والمسرح وكل ما يتصل بهما ثم مات في الثالثة والخمسين.

هذا هو الرجل. عاش وقال وصمت ومات، وهكذا وهكذا لم يمت ولا زال يعيش ويقول ولا ينتهي أبداً.

وليس مطلقاً تقليداً لشكسبير ولا لأي أحد - فالموضوعة عندنا أننا لا نكتب إلا تقليداً ولا نحيا إلا تقليداً، ربما لأن معظم من يقيمون انتاجنا وحياتنا هم دائماً وأبداً مقلدون، ومقلدون أيضاً غير متقنين، فأنا لم أعرف هذا إلا في قراءة عابرة لمجلة قديمة كان فيها مقال عن شكسبير قرأته بعد القرار (واسمحوا لي باستعمال الكلمة) فأكد لي حتمية ما انتهيت إليه.

وحين راحت السكره وجاءت الفكرة وجدت أنني لست فقط مختلفاً تماماً كما ونوعاً وحياة عن شكسبير وغيره، ولكن مختلف أيضاً أنني موظف كتابة عام بينما كان هو صاحب قطاع خاص في استطاعته تصفية كتابته والعيش بما يتبقى لديه من رأسمال. أنا موظف في جريدة كبرى تدفع لي راتباً شهرياً من أجل أن أكتب، وعليّ شئت أم أبيت ومن أجل أن أعيش أن أظل أكتب، فإذا قررت أن أكف تماماً عن الكتابة فأبسط المواقف الشريفة أن أبحث لي عن عمل آخر أو وسيلة حياة ثانية، وهكذا مثلما يفعلون قبل المعاش حيث من حقهم أخذ إجازة ثلاثة أو أربعة أشهر، أعطيت لنفسي الحق في إجازة أبحث فيها عن مصدر رزق - أزرع قطعة الأرض التي تخصصني في قرينتنا... أفتتح مستوصفاً للعلاج الرخيص... أتقن حرفة النجارة التي أهواها والتي أصبحت ماهية الأسطى فيها لا تقل عن عشرة جنيهات في اليوم... أحيل عربتي إلى تاكسي أعمل عليه... أي شيء... إلا أن أمسك القلم مرة أخرى وأتحمل مسئولية تغيير عالم لا يتغير، وإنسان يزداد بالتغيير سوءاً، وثورات ليت بعضها ما قام فما

حدث بعد بعضها أبشع مما كان عليه الحال قبلها .

يأس؟! .

ولماذا نسمي النظرة الحقيقية الواقعية يأساً، والتمسك بخرافة الأحلام التي لا تتحقق هو التفاؤل الإنساني الذي لا نجده سوى في الكتب وعلى ألسنة وأفواه وأقلام (أخواننا) الكتاب .

وكنيت في قراري صامتاً كتوماً، لا كلمة واحدة لزوجتي نفسها، ولا علم لصديق، فأنا أعرف كم ما سيصدر من اعتراض وسخرية، أقلها أنني أتصيد التفريط والمديح والرغبة في الحث على مواصلة ما يسمونه بالنجاح . . إن الحياة - هكذا أراها - ليست لعبة أضيعها مصغياً لهذا أو مولياً لأذني لذلك . . الحياة حياتي والقرار قراري وكم من أمور تكاد تكون قتالة فعلتها دون ذرة تردد وحتى لو كادت، أو بعضها فعلاً ضيعني، دون ذرة ندم .

بل والقرار التالي الأخطر بعد اللاكتابة: هو اللاقراءة . . فالحليف الداهية الخبيث للكتابة هو القراءة، هي المنزلق الذي إذا وضعت عليه قدمك وجدت نفسك في سرعة الضوء تهوي حتماً إلى حيث تبدأ أنت لا ترى ولكن تصنع الحروف والمعاني والكلمات، ويلفك التيه الخالد ما بين أحرف تصنعها وأحرف تصنعك، وحياة تصنعها ولا تحياها وحياة تصنعك أجيراً لها فقط تحقق لها ما هي تريد . مذ كان عمري خمس سنوات وإلى الخمسين وأنا أقرأ وأكتب وأكتب وأقرأ . الحياة تصطخب في الدنيا وأنا صريع الحياة الموهومة بين دفتي كتاب وكلها من ورق وكلها من حبر، ضيعت عمري أعلم

كيف أتعلم الكتابة، والبقية الباقية ضيعتها كيف أعلم ما في الكتابة،
والنتيجة أنني أنا نفسي استحلت إلى كلام وأصبحت روعي من ورق
وأحلامي ومتعتي كائنة كلها من حبر بين كلمتين أو جملتين أو
صفحتين... أي حياة؟!

كثيراً ما قضيت الليالي إلى صباحها في غابة الأحرف تائهاً
أزرعها مرة وأقطعها مرات ولا نسمة إلا رائحة اللون الأسود وسحابات
من دخان وأنصاف أكواب مليئة «بتنوة» من بن جاف. . ولا أتبين إلا
هناك أشعة الشمس تشحب ضوء الكهرباء، وأحس أن ظهري انكسر
مقوساً إلى الأبد أو يكاد، فأقوم لأعدله وأخرج إلى الشرفة. . ما
أجملها ساعة السابعة في الصباح طازجة ودائماً جديدة، تصورا كل
صبح دائماً جديداً أبداً لم تمسه أرض من قبل ولا احتوته سماء،
وإنما هو هدية الكون الجديدة تماماً لنا. . الناشئة لتوها وفي الحال،
هذا هو الصباح الطازج الصباح الذي علي أن أتركه لأضغ ساعات
ليل ونوم بائنة وحامضة فقد مضى أوانها من زمان.

في ساعات صبح كتلك كنت كثيراً جداً ما ألمح «كناس»
شارعنا جالساً على الرصيف المقابل مسنداً مقشته إلى كتفه، محتضناً
إياها وكأنما يلتمس منها ألفة يوم كامل سيقضيانه معاً، وفي يده
اليمنى غالباً كنت ألمح كوب شاي وفي اليسرى سيجارة. ومهما
كانت الدنيا صيفاً أو شتاء فأبداً لا برودة هناك ولا نية احترار وإنما هي
- في رأيي - لحظة السعادة القصوى. . هذا رجل يقوم بعمل جاد
محدد ينظف شارعنا، من كل ما نقذفه نحن الأفندية والستات من

فضلات . نام قطعاً الليل ونامه مبكراً فهذا هو مبكراً قد استيقظ واستمتعت كل خلية من خلاياه بسبع ساعات على الأقل من خلو البال . واحداً من ملايين ملايين الرجال الذين لا أشير ولن يشار لهم بأي بنان، عاش وقام ورفس زوجته ونام، بالضبط اتسق تماماً مع قانون كون أعظم، جالساً استعداداً لقانون عمل أعظم، وها أنا المشار إليه بالبنان . عاكس القانون، ومقاوم الظلام ليغير الناموس، وأتى عليه النهار ليجده حطام دون كيشوت خيل إليه أنه قضى الليل يعكس ويحارب طواحين الهواء والاتجاه، وأحس حتى دون أن يواجه أحداً أن طاحونة لم تتوقف وجناحاً منها لم يتعطل أو يتغير أو يتبدل لا تنعم براحة البال ولا حتى براحة البدن، أعطني مقشك أيها الرجل وخذ ذلك القلم فمتهى أمني أن أرى أو أستعمل شيئاً له مفعول مقشك، والمفعول أراه أمامي بعيني وأشهد وأحس بفائدته .

قدرك الذي عذبك وأمرك وحملت من أجله هموم الكرة الأرضية فوق قرنك، ولست ثوراً أفريقياً خالداً باستطاعته أن يتحمل الدنيا بهمومها بله همومك أنت وحدك إلى الأبد، كل جسدك من المرض مرض المرض وحيث نطس الأطباء من الكرملين إلى مايو كلينيك وكليفلاند وهارلي ستريت، وأصبحت مريضاً عالمياً وأصبحت حياتك كونية الحيرة، فيقرر الأطباء أنك ستموت في ظرف ٤٨ ساعة وإذا بك بعد ٢٤ ساعة في قوة الحصان، ويقرر الأطباء أن عندك سرطان وأنك أمامك شهر بالكثير لتدفع الحياة، فتبدأ حياة جديدة وسيمة الملامح جداً بعد أسبوع . . حتى يشوا منك مثلما قالت لك

الدكتورة ايلينا: أنت يا زميل حالتك لا تخضع للطب الذي درسنا. وقال لك البروفسور الكبير في نيويورك فريدمان: حالتك نادرة ولكنها التفسير الأوحده. . تنفعل إلى درجة المرض وتمرض إلى درجة الموت، وتموت إلى درجة الحب: والمسألة خرجت عن كل ما لدينا من علم تعلمناه ونعلمه. . ربما تعرف أنت.

وفي ركن خفي من أركان نفسي السرية كنت أعرف: انها ذلك الجزء الذي يملئ عليّ أن أكتب يمرضني ويحيرني، وجزء كقوانين الكون كيف لي أن أسيطر عليه، ولا كيف أريحه، فإذا أخذت إجازة وذهبت إلى الشاطئ ثارت الزوبعة في يافوخي حتى تتكتل على الأمراض، وربما تهدأ تماماً إذا وجدت نفسي في وسط وحركة جيش التحرير في الجزائر، أو أستعد ليوم عصيب من أيام الحركة الوطنية والقومية.

وأيضاً ما علينا.

فلتكن قد فعلت الكتابة ما فعلت، وليكن قد حدث ما حدث بل فلاكن سأموت حتى، أقسم غير حانث أنني قدردت الموت واستحضرتة تماماً ووجدته ألف مرة أرحم، لم أعد أستطيع، أبداً لم أعد أستطيع. إني لأكاد أحسد إلى درجة البكاء هؤلاء الزملاء الكتاب الذي يكتبون كل يوم وعن كل وأي قضية من السياسة إلى القصة إلى العلم إلى المذكرات إلى الحب إلى الأمومة إلى... إلى... إلى... إلى أي شيء. كيف بالله يكتبون؟ ولماذا أجد القلم في يدهم سهلاً ودرجة الانفعال ٣٧ لا تنخفض ولا تزيد، وضغط الدم لا يعلو ولا

ينخفض ١٢٠ على ٨٠ بكل الصحة. واللهم مزيداً من الصحة
- وبكل التعقل والمنطق يكتبون ويكتبون يوماً بعد يوم بعد
يوم، أديهم آلة «زيروكس» يضغطون على الزرار من هنا فتخرج
الصفحة زيروكسية مكتوبة جداً من هناك. أم (أنا) الحالة؟ فلا بد أن
أحدنا هو الحالة قطعاً.

وأيضاً ولثالث مرة - ما علينا.



طبيب. أخذت المهنة وقلت أتدرب على اصلاح أجهزة الفيديو
كاسيت. فلقد أخطأت ذات مرة وأحضرت جهازاً غير تقليدي
وحاولت تشغيله فأبى أن يعمل، وجربت جميع المشاهير وغير
المشاهير من مصلحي الفيديو حتى استوعبت العملية تماماً مثلهم،
وأصبحت أعرف البال من سيكام من الأوتوماتيك بال سيكام
والأنظمة الثلاثة الأتوماتيكية والألوان التسعة والسبعة، ومثلهم أيضاً
أدركت أننا كلنا قد أخذناها فهلوة، وأن أقصى ما قضاه أي مهندس
منهم لدراسة هذا الجهاز الجديد الذي سيقرب العالم رأساً على
عقب في القريب العاجل جداً لم يقض في الخارج أكثر من ستة
أشهر. وهي في رأي فترة غير كافية لدراسة نظرية. مجرد نظرية
التليفزيون فما بالك بالتسجيل التليفزيوني العملي وأجزائه المعقدة
الوظائف.

سأكون صناعياً علمياً جداً، وحتى لو كان الأمر تغيير مهنة، فأنا
كثيراً ما بشرت في أحاديثي «أيام الجدا» أن الإنسان في عالم

المستقبل لن يقصر عمره على مهنة واحدة يقضي في روتينها محترفاً كلية، وأن المستقبل يحمل للإنسان القدرة على أن ينتقل من جراح قلب إلى قافز باراشوت هاو إلى نجار موبيليا - أعرف جراح قلب في أمريكا يعمل يومي السبت والأحد نجاراً محترفاً فعلاً - إلى عازف أكورديون، إلى ما شاء من المهن والهوايات خلال حياته الواحدة، بحيث لا يعتريه شهر أو أسبوع أو حتى يوم ملل واحد.

وجئت ببعض المراجع وأحضرت تليفزيوننا القديم وبدأت أدرس الدوائر ومصائد الأشعة والصمامات وأنصاف الموصلات «الترانسستور»، ولم يستغرق الأمر أكثر من أربعة أيام لألقي بكل شيء جانباً إذ كنت قد تركت أجمل أنواع المعادلات الكتابية الشاحذة للخيال المدرة للجمال، فهل أغرس نفسي في معادلات أبعد ما تكون عن التصور وأقرب ما تكون إلى واقع صلب ينطح فيه الإنسان رأسه؟ لا كتابة. لا قراءة. لا دراسة. فلقد أخطأت، كان الواجب التكنيكي يقتضي مني وقد قررت أن أتحنى.. أن أتحنى عن عالم الأحرف كلية والخيال إلى قلب الحياة نفسها، قلبها الصاحب المتدفق متعة وليس إلى دوائر الترانسستور والتليفزيون المغلقة حتى على نسمة الهواء.

شارع المتعة والحياة.. فلان؟ أهلاً وسهلاً أو أهلين وسهلين. هاي جو.. بالأحضان يطبق ضلوعي، وأنا قرأت لك وأنا فاتني أن أقرأ. يا سلام يا عبقرى يا لسوء حظي، وبدلاً من أن أستمع أنا أصبحت أنا وسيلة المتعة، وغير مسموح لي حتى بمشاركة «جمهور»

الحاضرين مبادلهم الصغيرة أو الكبيرة أو رواية نكتة فاضحة فأنا «فلان» المفكر «المهول»، والاستنكار ينبثق كالدهش البارد المفاجيء إذا حدث وحاولت - مجرد محاولة - أن أهرج . وهل يسمح حتى في أيام الوثنية للآلهة بالتهريج؟ وأعود آخر الليل شديد التأنيب لنفسي، فالعاصفة الهوجاء التي قوبلت بها تنتهي في آخر السهرة بسلام كسلام صداقة انتهت وكأن الواحد يقول لنفسه: ها هو آخر يطلع زينا والظاهر كلهم كده، صيت ولا غنى وأهه كله بكش . لم يقبلني صخب الحياة ولم أقبله، فالناس يفضلون إذا صخبوا أن ينسوا العقل، فإذا حضر العقل أو كلام العقل فهم يصنعون شيئاً من شيئين . . إما يلغونه تماماً بإحالة إلى محط سخرية، وإما يحيلونه تماماً إلى عنصر عاقل كابت كالوعي يثبتون له ولأنفسهم أنهم لا يقلون عنه «احتراماً»، والنتيجة أن ينقلب الأمر إلى حالة تمثيل تتوقف فيه الانطلاقة التلقائية التي رغم كل ما يبدو فيها من هبرط - انطلاقة براءة الطفل الذي يريد أن يلهو داخل الإنسان، وهكذا وببساطة تامة تنتهي المتعة، أي متعة .



وقلت لقد مضت أحقاب منذ أن لعبت دور الأب، وإذا كنت قد أنتجت أعمالاً فلماذا لا تلتفت الآن لإنتاج بشر . . بشر تعطيهم ما أعطتك الحياة من خبرة؟ تجمعهم كل عشية وتعيدها أواصر عائلة فككها التليفزيون الذي أخرس الحوار بين أفرادها، شلل النادي والكورة التي تولت مهمة التربية والأب، وأصدقاء السوء ليس وراء

معظمهم سوى الشوائب تنزعها كالشوك السام الذي يغرس كل يوم في الأقدام، وعليك بإبرة رفيعة متهاكة وبمقاومة رهيبية من الولد صاحب القدم أن تنتزعها.

واكتشفت أنني أبحث عن دور أصبح مكانه حفريات التاريخ هناك حيث ترقد مراكب الشمس، لو أمعنت في الصحراء قليلاً ستجد ملايين قبور عليها شواهد مكتوب فوقها: كائنات كانت آباء.. فليرحمهم الله.

أب ماذا في هذا الزمن الذي أراد النظام الذي يدير الكون الآن، أن يفكك العائلة فيه ليسهل على نفسه شراءها؟ أيد عاملة شابة ترضى بالقليل وتعطي الكثير ولا تسمع تعاليم الآباء عن عمق مطالب الشعوب والفئات منذ أقدم العصور. آلات منتجة جديدة غير مثقلة بتاريخ مطالبات ونقابات، وإنما هي ابنة «رجل بستة مليون دولار» و«جي آر» و«سوالين» جديدة تشكّلها وتعطيها ما شاءت من بنج بونج وتنس وكورة ومنطق ساحق رهيب، دراسة ماذا وأنت تستطيع كجرسون في فندق أو حتى شيال أو مصادق للسائحات العجوزات أن تطلع لك في اليوم بعشرين أو ثلاثين جنيهاً بالتمام والكمال، تصرف وتشتري عربية، والجامعة والتعليم واللقب الذي تريده ستجدها كلها ملفوفة في خرق قديمة ألقيناها من نوافذ المناور في العمارات؟ ماذا يجدي الحديث عن سعد زغلول ومصطفى مشرفة وحتى فاروق الباز أمام ثلاثين جنيهاً وعربة ولو «سيات» يلمسها المراهق لمسة اليقين كل يوم ويحيلها لصناديق بيرة وشحنة بنات وطريق صحاري سيتي

وهات ايدك . إلى حديث عن المجد القديم والمجد ها هو أمامك
جديداً «نوفي» تحت أمرك، ودقيقة واحدة ويكون رهن طلبك، وإذا
أرقت ضميرك هاك بلبوعة قادمة من بيروت تزيل كل الآلام وتحقق
جميع الأحلام وتصبح إذا أردت في ومضة كسرى أنوشروان.
كان الله واحداً والأب واحداً، وفي البدء كان الكلمة بالطبع
الكلمة الطيبة.

في عصر الوثنية الحديثة هذا أصبح الإله الواحد حتى في
الدين الواحد عشرات الملل والنحل، والأب الواحد أصبح عشرات
الآباء تختار أيهم كما شئت حسب لون الفانلة أو نوع الفتاة أو فرقة
الغناء أو مكانتك في الشلة، وما أبعد المسافة بيننا وبين البدء بحيث
أصبحت الكلمة الأوقع والأكثر جذباً للانتباه شارع المتعة والحياة:
فلان؟ أهلاً وسهلاً أو أهلين . من جديد أمر يحتاج إما أن تهدمه تماماً
وتعيده خلقاً آخر وهذا ليس بمستطاعك، وإما أن تكتفي أن تقوم
بدور المتفرج في طابور طويل من الآباء يغمر العالم كله يتفرجون
على كائنات كانت في البدء أبناء.



ولم يعد إلا أن أحيل نفسي رغم الطاقات التي تتفجر مني
ورغم أنني في أكمل وأنضج «فورمة» انتاج في أي مجال ومكان إلى
التقاعد. . وتقاعدت. أتمشى مبكراً في الصباح، أحتمي كوب شاي
في مقهى أو ناد، أعود إلى البيت، أحاول أن أصلح حنفية أو أفسد
«كوبس» نور. أنا في إجازة ما قبل الإحالة إلى الاستيداع.

وشيثاً فشيئاً بدأت الحظ مسألة بالغة التفاهة .

إن قدرتي على المشي أصبحت أقل ، وكل يوم تقل وأصبحت أعود إلى البيت وكأنني قد بنيت السد العالي بمفردي متعباً مهدوداً لا أكاد أصل إلى البيت حتى أظل أستريح ولو من الراحة استراحة تصل إلى الظهر .

وأنغدى وأجد نفسي في حاجة ماسة إلى النوم وكأنني ظلمت اليوم بطوله ساهراً .

ثم ساءلت نفسي السؤال الأكبر: لماذا اليقظة المبكرة أصلاً وليس ورائي من عمل أؤديه؟

ثم سؤال أكبر وأكبر: ولماذا المشي كل يوم كل يوم وأنا ليس لدي عمل ثابت لكل يوم؟ وأسئلة ليست مجرد أسئلة ، ولكنها مقدمة حتمية معقولة لشمولها بالنفوذ الفوري .

ما أروع التمطي في فراش دافئ ونحن في طوبة حيث كل شيء وكل إنسان من البرد يتجمد. ما أروع فكرة أن ليس وراءك بالمرة أي عمل! ليس الكسل هو الرائع في الموضوع ولكن الأروع هو الإحساس الكامل، أن ليست لديك أية مواعيد أو واجبات وإنما أنت لك حرية اليوم والغد والزمن القادم كله .

كل حياتي كان محورها أنني أكتب كل اتصالاتي، دعواتي، ارتباطاتي، سببها خيط واحد يصدر مني ليوزع آلاف خيوط بعضها يجذب، بعضها بعزف، بعضها يقلق، بعضها يفرح، بعضها يذكر أو

يتذكر أو يصرخ ألماً، والخيوط تلتقي عندي تصنع لي يقظتي ومنامي
وترغمني أن أرتدي الثياب كل يوم، وأعاني مشاق كل يوم، وأودع
الأمس وداع المغتاض مرة، وداع الصبوة مرة، لا أنتظر الغد بصبر نافذ
بل لا أريده أن يأتي أبداً.

ذلك المحور لم يعد له وجود. الكرة الأرضية الآن انطلقت في
الفضاء على حررتها بكل اتساعه وشموله، تدور حول الشمس أو لا
تدور، تترك وليدها القمر ينعي حظه وخسوفه إذا أحست بعزل
الصحبة.

ولأول مرة أحس أنني لست أنا ملتقى خيوط ولا دائرة بالأمير
القدرى حول محوره، ولا يهمه أن يتلقى النور من هذه الشمس
بالذات أو يكتب عن هذا الموضوع الذي يشغل الناس جميعاً الآن
بالذات، أقرأ أو لا أقرأ، وجميع ما أقرأه غير مضطر لاختزانه أو امعان
التفكير فيه، فل يعد عقلي في حاجة إلى مذاكرة ما يقع، أي مما يقع
وشبح الامتحان الكتابي قد اختفى من أمامه.

صادقاً مع نفسي لم أحس بطعم سعادة حقيقية مثلما أحسست
وأنا لثلاثة أيام بنهارها ولياليها لا أتحرّك من فراشي. زوجتي تعتبرني
لا بد مريضاً، فحتى حين أطلب الطعام وأنا نصف جالس ألمح
الاستنكار البين في عينيها، ولكنها في قرارة نفسها تقنع نفسها أنني لا
بد أستعد لعمل عظيم ومن حقي أن أستعد له بالطريقة التي تحلو
لي. وما دامت الطريقة هذه المرة هي التمدد في الفراش المنكوش
وملاءاته التي يحل كل يوم موعد تغييرها، فكم كان لي معها من

تصرفات تستغربها تنتج في النهاية شيئاً تكون هي أول السعداء به .
 ماذا لو عرفت أن لا شيء وراء الأكمة وأن لا كتابة بعد الآن؟
 ماذا لو أدركت أنها لو احتجت أو عارضت فسأترك كل شيء وأمشي
 لو اضطرت بلاد الله لخلق الله .

طال الرقاد حتى أصبح الذهاب إلى الحمام مشقة وأي مشقة
 ألث لها وأحس أنني وكأني أسافر على أقدامي عدة أميال، وغسيل
 الوجه لم يعد يومياً بالضرورة . . ماذا لو حدث كلما أحسست
 باتساخه؟ وغسيل الأسنان باعتباره عادة راسخة أحس بالقلق طوال
 اليوم إذا لم أفعلها بكوب من الماء الدافئ والمعجون بجوار
 الفراش .

في الأيام الأولى كنت أقضي اليوم في أحلام يقظة تعيد لي
 خصوبة أحلام اليقظة في طفولتي، وعبر رحلة الثماني كيلومترات من
 المشي ذهاباً وعودة إلى المدرسة، أكتفي من الجرائد بالمنشآت ثم
 أكتفي فقط من أجل العادة وحدها بتسلمها دفعة واحدة ثم إرقادها
 بجواري على أمل أن أعود إليها في المساء . والمساء يجذني مشدوداً
 إلى التليفزيون . حفظت البرامج عن ظهر قلب ولا حلقة أجنبية أو
 محلية تفوتني . ثم ضج جسدي بهذا النشاط التليفزيوني والاذاعي ،
 وشيئاً فشيئاً زهقت من الصورة ثم زهدت في الموسيقى ثم أخرجت
 اللاسلكيين تماماً، وحتى أحلام اليقظة استهلكتها جميعاً ولم يعد
 عقلي قادراً على اختراع أدوية مثيرة أمضي فيها الأحلام، حتى حدث
 الأمر الذي لا أعرف بالضبط أنني كنت طوال الوقت أتوقع حدوثه، أو

أني دون أن أدري وباللاوعي كما يقولون كنت أخاف حدوثه. بدأت ساقِي اليمنى تتورم ثم أعقبتهما اليسرى بلا ألم ولا أعراض جلطة، من ناحية وكدارس طب قلقت كثيراً أن تكون جلطة في الأوردة العميقة للساقين، ورحت أتصور كيف ستكون الجلطات في بحيرات الدم الوريدية في عضلات الساقين، يعقبها لابد زحف إلى أعلى حتى يشل التجلط وريدي الفخذين العظيمين، ويا حبذا لو زحفاً إلى البطن حيث يتحد الاثنان ويكونان الأورطي الوريدي وأكون قد انتهيت.

ومن ناحية آخر وجدت فيما حدث المنفذ والمهرب.

فالآن وبعد أن بدأت ألمح في عيون زوجتي أشياء كالتي كانت تحفل بها نظرات بطلة المرأة المقعرة، الآن عندي سبب وجيه تماماً للرقاد. فالجلطة أو الاشتباه فيها أول تعليمات علاجها الرقاد تماماً ورفع الساق وعدم الحركة مطلقاً.

وحتى ولو لم تكن هذه هي تعليمات كبار الأطباء والجراحين الذين عادوني، فأنا نفسي كنت قد فقدت الرغبة تماماً في الحركة أي حركة ولو حتى لرفع رأسي وصدري ربع ارتفاعه لتناول الطعام أو الشراب، وبمثل ما فقدت الرغبة في الحركة فقدت الرغبة في أشياء كثيرة جداً، أسأل نفسي: نفسك في إيه؟ الإجابة دائماً واحدة: لا شيء أريد، لا الشوق أريد، ولا القلق على ابن أو زوجة أو صديق أو قضية.. لا رغبة أبداً أبداً في أي شيء. وبدأت أورام السيقان تزداد

وتزحف إلى أسفل البطن، والأطباء يوصونني بعمل تمرينات رياضية لتحريك أصابع الأقدام وقبض وبسط عضلات الساق والأفخاذ لدفع الدم للعودة، ولا أجد في نفسي ذرة رغبة في القيام بأي تمرين أو تحريك أية عضلة.

الموت قادم.

لا أراه فهو ليس شبحاً أو ملاكاً أو قابلاً للرؤية ولكني أحسه، تماماً كمقدم المساء حين ينتهي العصر ويحتقن وجه الدنيا بالغروب وتحس أن الظلام لا محالة سيتبع هذا الليل.. الصمت الأبدي.. عدم الحركة في تمامها واكتمالها وشمولها واستمراريتها.. المذهل لا استنكار، لا احتجاج، لا تفكير مطلقاً في أي مقاومة.. وهل يقاوم الإنسان مطلباً هو شديد الرغبة فيه؟ بل هو حتى لم يعد شديد الرغبة فيه إنما هو الانتظار الصبور غير المتعجل؟ فليجيء حين يجيء. فالجسد مسجى لا يتحرك، والوعي بأنه هناك ممدد ومسجى وساكن أو انتفاء الوعي سيان. وماذا يصنع الوعي من فارق إلا أن يجعل الانتظار معدوداً بالأيام والساعات، ومشوباً بالقلق، سيتكفل هذا الزاحف القادم بالقلق يستأصله وبالانتظار ينهيه - كما يتكفل الظلام بإخفاء الأشياء.. جميعها.. الجميل والقيح، البعيد والقريب، الدافع للحركة والمانع لها.

ربما الشيء الوحيد الذي تبقى يخصني ويجعلني في لحظات أحس بصهولة الاحساس بالحياة، هو نوع من حب الاستطلاع.. كيف، إذا جاء سيجيء؟ كيف الناس يموتون، وأي احساس

أقتلها

بالضبط، وما هو ذلك الشيء الذي تواضعت عليه البشرية من قديم الزمان وأسمته طلوع الروح؟ أتأتي على هيئة «كرشة» نفس تنتاب الشخص لهنيهة ثم ينقطع النفس؟ أتأتي على هيئة استمرار طويل لنوبة من نوبات التوهان والدوخة التي كانت تعتريني بين الحين والحين حتى لأحس أنني انفصلت عن وعيي وأنه بقي معلقاً مدركاً للموجودات من حولي بينما أنا هويت وأهوي بسرعة مخيفة إلى بئر لا قرار لها؟ لا أحس أنني أهوي ولكن حين ينتفض شيء في رأسي يعيد وصل الوعي بالآنا الهاوية أحس أنني فعلاً أرفع، ومعنى هذا أنني كنت بالتأكيد أهوي .

كيف اذن ذلك الشيء المحير؟ تلك النهاية السؤال . . الموت؟ ان الجهد الذي بذله مخترع المحرك ليجد الوسيلة التي يستطيع بها إيقافه عن الدوران لم يقل في رأيي عن الجهد الذي بذله لكي يحول المعدن الساكن إلى عجلة متحركة، فخلق الحركة لا يعادله سوى اختلاق السكون . . كيف سأسكن أنا؟ يحدث إغماء محتم قبلها، أم إن بعضهم يكون احساسه بالموت هو آخر مدركاته بحيث تكون النهاية هي نهاية الادراك؟

ولك أكن أتوقع أن يأتي هكذا أبداً.

فجأة ذلك الصباح وأنا أداعب ابنتي الصغيرة قبل ذهابها المبكر إلى «أوتويس» المدرسة، حاملة جبل الكتب المقررة على الثانية الابتدائية - كتلة ضخمة تنوء بها البنت فعلاً لا مجازاً - فجأة وهي تجري لتلحق بالأوتويس الزاعق أحسست أنني - بلا ألم أتنفس

بصعوبة. أشفط بطني كله لكي أخلق الفراغ في صدري، وما يكاد جزء منه يمتلئ حتى أحس بحاجتي إلى هواء أكثر، وهكذا في منتصف الشهيق أشهق، وفي منتصف المنتصف أعود أشهق..

ولم يبرق خاطر وإنما مسمار رهيب. بخبطة شاكوش واحدة مفاجئة أدركت السلاح الذي اختاره الموت.. جلطة الرئة.. في ثوان ينتهي كل شيء. ولم أعرف، أنا المسجى ثلاثة أرباع ميت على فراش غائص بي، مقعر فعلاً، أنني أمتلك هذه القدرة الهائلة على الهلع.

وكانما كنت، وأنا أفكر بالموت بتلك السهولة واللامبالاة، أتحداه من حيث لا أدري، فحين استقر إلى درجة النزال وأمسك بسلاحه، أعرش الرعب كل خلية من خلاياي.

وعادة تليفون الجيزة لا يتصل بالدقي، فإذا اتصل ورد منزل جراح الشرايين الكبير لتقول لنا الفاضلة زوجته أنه في مستشفى قصر العيني الآن، فمعنى هذا أنك ميت لا محالة ميت. ان الجلطة لا يبدو أنها من النوع القاتل في الحال، وأن هناك احتمالاً لاستئصالها بالجراحة، والحياة، كل الحياة أصبحت معلقة بتليفون قصر العيني الذي أعرف منذ عملت فيه من قديم الزمان أنه أبداً عمره ما كان إلا مشغولاً مشغولاً مشغولاً، فالاتصال بالعزيز رئيس المكتب «تعبير تليفوني» وكان المكالمة من الخارج أو إلى الخارج، وليدخل على الخط وفي ثوان يكون سامع على الطرف الآخر.. وفي ثلاث دقائق تكون زوجتي تقود العربة بأقصى سرعة وهي تؤكد ألا جلطة ولا

خوف، وإلى قسم التشخيص بالاشعاع الذري ومجموعة هائلة من عميد الكلية إلى الجراح إلى كتيبة من شباب الأطباء تتلقفني وتدخلني غرفة، الوحيدة في مصر التي ترسم الرئة بالألوان بواسطة عقل اليكتروني، وتظهر نتيجة غريبة محيرة. الرئة اليسرى ليس بها قطرة دم، ولكن أيضاً ليس بها أي جلطة.

ويشكون في صدق الآلة، فهذه نتيجة عبثية تماماً فمعنى خلو الرئة من لون الدم أنها لا تتنفس، بينما بالسماعة وحتى باليد صوت تنفسها واضح وجلي ومسموع.

ويتطوع الطبيب الشاب يشرح كيف أنهم في أمريكا يبتكرون بحثاً أو علماً جديداً اسمه: أخطاء الآلات وأنها تشكل كذا في المائة.

وكان لا بد من اعادة الفحص.

وأوضح من جديد تحت شقي الرحى، ولكن أي رحى.. أية غرفة تلك التي أنا فيها؟ حين تخرجت في كلية الطب كانت الآلة الهندسية الوحيدة التي نعرفها هي جهاز أشعة اكس وجهاز اصدار الأشعة فوق البنفسجية. ما أراه طب مختلف تماماً وفرع جديد اسمه الهندسة الطبية يتطور بسرعة الصاروخ ليبتكر كل يوم اختراعاً لم يتصوره أحد من قبل. آخرها.. ها هو موجود بالغرفة تقف أمامه أو تمد له يدك فيعطيك في الحال اسم ونوع ووزن كل عنصر داخل في تركيبك. ويصدر اشارات كسيرينة الاسعاف أو بوليس النجدة لدى

كل عنصر فيه نقص أو دون المستوى المعتاد. وكل هذا حدث في أقل من ربع قرن.

شقا الرحي اللذين كمنت بينهما. أحدهما ثابت هو الراقد أنا فوقه، والآخر متحرك حركة رائحة غادية كحركة نقاش يطلو الجسم بشيء غير منظور، يسمونها طريقة المسح. مسح الرئة، مسح الكبد، في الواقع مسح أي شيء أو عضو تريده، وأيضاً ثبت من الفحص الثاني أن الرئة تتنفس ولكن بغير نقطة دم. واستمرت المناقشات طويلة ومليئة بتغييرات، كالأجهزة لم تكن في الخمسينات نستخدمها بل لم نكن نعرفها.

ولكن آلات ما آلات. تشخيصات ما تشخيصات. احتمالات أسوأ احتمالات. لقد عرفت أنا مرضي أو بالأصح حالتي. . نعم أعرفه الآن تماماً.

وأنا متأكد منه. . الموت! زاحفاً خفياً، حتى بغير قفاز حياء، أو تشخيص، فما الحل؟.

على مر عشرات ومئات ملايين السنين أصبح الشغل جزءاً من التكوين العضوي للإنسان. صحيح أنه ليس عضواً كسائر أعضائه، ولا يرى لا بالميكروسكوب ولا بالعين المجردة، ولكنه موجود. اشعاعات من الموجات تنطلق من أجزاء جسمه وتشكل هالة موجبة من الموجات الحية باعتبار أن الحياة في أعلى صورها هي أرقى وأدق وأعقد أشكال الوجود المادي الموجي، رغم أنها مثل كل الموجات

والموجات تلك التي تشكل صلب الوجود وقدرته على التبدل والتغير والتفاعل، مثلها مثلهن لا ترى بالعين المجردة ولا بالميكروسكوبات الالكترونية ولا بأي صورة ممكن أن يتفتق عنها العقل البشري في المستقبل . . إننا فقط نفترض أنها موجودات ونفترض أنها من مادة ما ولكن المؤكد أنها موجودة . . مؤكد موجودة وإلا لما كان الوجود . .

هذه الموجات المحيطة موجات التنبؤ والاتصال والربط العضوي الكامل بين الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان والنبات وذرات الرمال في الصحراء وماء المحيطات . وأقصى مجرة من المجرات هي التي تحرك الإنسان، أي تحرك زميلاتها موجات الداخل وتعطي إنساناً مثلك اتجاه وحكمة ورؤية وضرورة أن تتخذ الحركة إيقاعاً يؤدي، وفي أنماطه العليا يبتكر ما نسميه بالعمل . ويستوي في هذا أينشتين وأجهل فلاح في بلدنا . وكما يخصص ويركز ويضيف أينشتين والذي هو في وجوده أول الأمر نقطة التقاء وتفاعل للموجات أعطته القدرة القصوى على تصور الكون على هيئة معادلات وحل تلك المعادلات، وبالفعل أثبت أن المعادلات التي ابتكرها تنسجم تماماً مع قوانين الموجات وتجعله يتحكم لأول مرة في الموجات، وكانت القنبلة الذرية والانشطارات كذلك هي في فلاح بلدنا قدرة خارقة على الانحناء، وربما لأكثر من عشر ساعات، وهو ما لا يستطيعه أينشتين . . ولكل منا محيطه الخارجي من موجات . الجزء . . الأكبر الذي ينظمه هو العمل الملائم لموجاتنا الداخلية، بحيث متى تم التوافق العزفي بين نحن في الداخل ونحن

في الخارج . . نحن انتاجاً وابداعاً وجمادات، دخل الكائن دورة الكون رائعاً عظيماً ومنسجماً، وأرضى عنه الله والوالدين والاخوة والأصدقاء . . والناس .

وما انسحاب الحياة وتضاؤل اتصالاتها، ثم أخيراً موتها، سوى الخلل بين دائرة الداخل ودائرة الخارج . ولهذا يموت فوراً بعض الذين يحالون إلى المعاش . ومن بقي منهم حياً لا بد أن لديه بديلاً لموجة العمل واتصالاً آخر بالوجود والموجودات .

باختصار لا سفسطة فيه ولا نظريات، حين قررت ألا أكتب بينما موجاتي كانت قد ربتت نفسها لأكثر من ثلاثين عاماً على العمل الكاتب وتحويل الفكرة المختلطة بالوجدان وبالذاكرة الجماعية النشطة الاتصال بالعدد الهائل من نقاط الالتقاء والبشر . اتصال كامل ذي اتجاهين، حين قررت التوقف خبت تلك الموجات وبدأت تخمد في جذوة الحياة، وأفضل المشي على الجري، ثم الجلوس على المشي، ثم الرقاد على الجلوس، ثم السكون التام عن الحياة . كان في حقيقة الأمر نوعاً غريباً مبتكراً من الانتحار . . توقفاً عن العمل، مثلي مثل أي خلية في المخ أو الكبد أو حتى الجلد تقرر عدم القيام بوظيفتها فلا ترسل الأنزيمات ولا تستقبل، وتنقطع الصلة بينها وبين العضو التي تنتمي إليه، ثم بينها وبين جسد الوجود الأعلى «الإنسان» والنتيجة حتماً أن تموت .

ولقد حاولت الخلية - والشهادة لله أنها كانت محاولات بطلا -

أن تستبدل عملاً بعمل، وتتسرب من حيث الكبد مثلاً إلى الجارة المعدة وتصبح خلية جوع وشبع، التهام طعام ومضغ فقط. والنتيجة كانت الكف عن وظيفة الحياة نفسها. فخلية الكبد لا تهضم ولا تستطيع أن تواجه حامض المعدة، بل وتهلك حتماً إذا وقفت وظيفياً حائلاً بين جارتها الكبدية تلك والخلية الأخرى. القانون سادر ولا بد أن يظل سادراً، وأنا لا خلقت تخصصي أو اختياري ولا أستطيع أن أغير نوعياً أو عضوياً نفسي، كل ما أستطيعه أن أعمل في اتجاهي بكل موجاتي، وأن أوسع دائرة الوجود من حولي. . دائرة وجودي، وليس ضرورياً أن أجيب الديق من ديله أو أبني هرمًا رابعاً. لعل السر الذي خلقتني كائن في أني ذات يوم سأقول كلمة تصل إلى إنسان ما في مكان ما، وتلتحم موجتي على شكل الكلمة بموجاته التحاماً ينشط آلاف وملايين ومليارات الموجات، ويتفجر الشيء الذي لم يكن قد خطر على قلب البشر، فأنا قطعاً موجود بوظيفة ولأداء وظيفة، وكوني قلت لا مجرد تمرد كخبط الرأس في الحائط، يكفي أنه أوصلني وأنا على حافة أن أموت سكوتاً أن أكتشف أن سر الوجود هو الحركة، وسر وجودي الشخصي أن أتحرك، وبمطلق وبمنتهى وبأعظم ما أستطيع أطلق الموجات تلو الموجات وأستقبل الموجات تلو الموجات، وأنا أخبط رأسي ليس في الحائط هذه المرة ولكن بكفي نافضاً عن نفسي كل ما اخترعته تلك النفس لتحتج على سوء توزيع دورها سكوتاً. . فهذا هو بالضبط طريق الموت.

والموت ليس ضرورياً أن يكون صاعقاً مفاجئاً كالذبحه، انه

كأضرار التدخين أضعفها وأوهنها، وبريء تماماً براءتها أو هكذا يبدو. انه الموت الأخطر والأبشع، الموت حياة كحياة الموتى، الموت سكوناً وسكوناً وصامتاً، الموت تمرداً وقتياً عالي الضجيج، فشديد الضجة يصمم كشديد السكون. الحياة. . ليس مجرد لها وإنما خلقها خلقاً، ويومياً خلقها خلقاً، تعدي الآخرين بها، ننشرها كالوباء صحة، تبثها موجات إثر موجات. . موجات صحيحة كالجنين الجميل القابل للتشكيل حسبما تريد. الحياة سامية شامخة بشرف وبلا مساومة أو ازعاج ضمير. . الحياة الحلوة ليس دفعاً بالأكثاف ولا عدواناً على الآخرين ولا استغلال لحاجتهم. ما أروع أن تصحو من نومك اليوم وتختار أي عمل طيب بسيط تفعله حتى لو كان زيارة لسرير مريض مجهول لا أمل له ولا أهل. إذا كنت فقيراً أعطه كلمة طيبة وبرتقالة، وإذا كنت غنياً وقادراً ابن له مستشفى.



يموت الزمار وأصابه تلعب. فالعزف شكل موجات وجوده وحتماً يظل يعزف ويعزف إلى آخر الرمق، فالمسألة ليست هزلاً. . ان لها قانوناً. وهكذا بدلاً من الموت كفاً وكفراً بأداء الدور. . أليس الأروع أن تظل تعزف، مهما بدا عزفك نشازاً وشاحباً فحتماً سيأتي اليوم الذي يعلو ويجبر الناس من صدقه على السمع، أو حتى إذا لم يأت اليوم.

فماذا تفعل؟

انه وجودك، لا فكاك منه.

٦٠٠

فشمس الشموسة قد طلعت .
 وما أجمله من صباح ! .
 سأجعله أسعد صباح عشته في حياتي .
 وسأقول لنفسي كل يوم سأجعل من هذا اليوم أروع أيام
 حياتي .

ولن أدع شيئاً أبداً أو شخصاً، يحيله إلى يوم قبيح .
 الأمر صدر من اشعاعات الشمس الطازجة التي لا يزيد عمرها
 عن ثماني دقائق: قم وافعل شيئاً تفخر به أمام نفسك وأولادك ويفخر
 به أحفادك، فأنت أعظم مخلوق في هذا الكون الفسيح الذي لا
 تصدق أبعاده .

أنت أروع ما فيه .
 أنت الكائن الوحيد القادر أن يكون انساناً .
 أتعرف ما هو الإنسان؟ ..



ملحوظة: رغم كل وأي أدوية أو عقاقير شفيت الجلطة من
 تلقاء نفسها .

الآن فقط متأكد أنها شفيت تماماً .
 ولكن المشكلة، بعد، قائمة .
 فما أزال حبيس قدري وموجاتي، مهما صرخت أو تحاييت أو
 تماوت أو مت، أيمن أن يكون الحبيس سعيداً؟
 حتى لو كانت حياته في سجنه! ..
 أمممكن أن يكون الحبيس سعيداً؟

٦٠١

١٩٥٠٢

اقتلها

ظن في بادئ الأمر أنه مغمض العينين . باستماتة حاول فتحهما . لم يستطع . كانتا فعلاً مفتوحتين . المرأة أمامه . بكل قواه حدق . الفضة العاكسة تعكس كل ما أمامها . الحائط من ورائه بلونه القاتم واضح ظاهر . الستارة المضاهية ظاهرة . خلفه الباب هناك . كل شيء . كل شيء ، ولكن الشيء الوحيد ، وجهه ، ليس هناك . جن . انقضض بيده على وجهه يتحسسه . أمسك بخصلة من شعره . اليد بقوة ووحشية تتحسس الجلد واللحم وتكاد تغور من تحته في العظم ، ولكن وجهه غير موجود في المرأة العاكسة . . مستحيل . لست في كابوس . . أنا صاح تماماً ومدرك . . بالأصح كنت نائماً وصحوت . صحوت عاقلاً . أسمع صوتي ها هو : أنا أتكلم فأنا موجود . أنا أسمع كلامي فأنا صاح . أنا لم أجن . أنا عاقل أعرف من أنا ؟ ما عملي ؟ متى ولدت ؟ أين أبواي ؟ أنا في المؤسسة . بالضبط في دورة مياهها . كنت في لحظة خاطفة أشرب من نافورة الكولدير في الخارج وأنا في الداخل أحرق في المرأة . . القيشاني من ورائه ظاهر . النافذة مفتوحة . المنظر الخلفي البعيد أراه . برج القاهرة

منتصب في مكانه لا يزال. الدنيا نهار. الشمس نصفها فوق الأرض،
نحن في عز الظهر. الضوء.. صوت الحنفية التي دائماً تخر.
يسمعه. إلا هو.

ضحك.. قهقهه.. انطلق يجري إلى دورة مياه المدير.. نظر
أيضاً وأمعن في التحديق.. لا أثر لوجهه. الصابونة الغالية معكوسة
في المرأة. الفوطة. فوطة المدير العام التي ينشف بهما يده وأجزاء
من وجهه وجسده في بعض الأحيان، هناك. لونها بمبي. بها البقعة
الحمراء ذاتها التي كانت موجودة بالأمس.. السيراميك الزاهي. أعاد
النظر. مطلقاً لا أثر لوجهه. كل شيء إلا وجهه أو رقبته أو أي جزء
منه، يده فردها إلى آخرها أمام المرأة، ولكنه يرى اليد ولا يرى
صورتها. جرى إلى حجرة «شمس» التي تمتلك جهاز التسجيل
الوحيد لتسمع عليه طوال ساعات العمل أغانيها المفضلة. استأذن
منها فلم ترفض. لم تقبل. انكبت على «التركبو» وكأنها مستغرقة
تماماً فيه، أخرج الميكروفون من جراب الجهاز. تنحنح. ضغط على
الأبيض والأحمر ليسجل. أنا - وتردد - فلان الفلاني، العاقل الكامل
العقل. سيداتي سادتي والآن إليكم الفقرة التالية من برنامج أقوال
الصحف حيث ينتقل الميكروفون إلى إذاعة خارجية للموصف
التفصيلي لمباراة كرة القدم بين الزمالك والكروم. وشك حلوي
كابتن لطيف. أظن كفى. أوقف التسجيل. ضغط زر الرجوع..
أدار الجهاز نفس أغنية وردة: وحشتوني. استمع واستمع ووصل إلى
حيث الرقم الذي بدأ التسجيل عنده ووردة شغالة ولا أثر لصوته.

استمر يسمع، ليس هناك إلا وحشتوني وحشتوني. استمع إلى أن انتهى الشريط ولا أثر. الحقوني.. جرى هابطاً الأدوار كلها. نفس سعاة وعلامات ومصليات كل دور.. في لهوجته داس بكل ثقله على قدم عواطف وكيلة العلاقات العامة الحامل في شهرها الثامن، لم تصرخ ولم تحتج.. وصل إلى الشارع.. على الباب الرئيسي وقف يصرخ بأعلى صوته، الناس تروح وتجيء، لا أحد يلتفت. لا رأس يرتفع. ملأه الغيظ تماماً. والله لاعملها. خلع كل ملابسه، قطعة قطعة وتعمد أن يقذف كل عابر بقطعة، ويزيحها (اللوح البارد)، وينظر إلى أعلى وكأنه غسيل سقط من حبل يلقيه أصحابه.. إنها ملابسي أنا يا حمقى.. أنا هنا واقف عريان كما ولدتني أمي.. ها هو ذا جسدي كله. أنا هنا. يا أولاد الحلال. والله العظيم أنا أه. أنا هنا. يا محسنين أنا هنا. التفتوا حتى. اضربوني. أنبوني.. موتوني. يا أولاد الكلب. أنا هنا. الحق لا بد أبصق عليكم.. استمروا غير مدركين أو مباليين وكأن لا شيء يخجل وكأن لا شيء أبداً يحدث. النجدة. الحقوني يا هوه. لا بد جننت. أو أنكم جميعاً جننتم. زوجتي. المنقذة. النجدة. بيتي. أولادي. عقلي كله لا بد هناك. جرى. انحشر في الأوتوبيس. دفع الناس بغلظة.. خيل إليه أنهما تمايلوا. فقط تمايلوا وكأن لا آدمي هو السبب. أصدر أصواتاً منكرة. لم يسمع إلا الكمساري يقول: تذاكر.. قرص سيدة. لم تتحرك. عضها في ردفها. لم يرتعش لها ردف.. لم يابه أحد. قفز من الأوتوبيس فاستمراره فيه جحيم سيفقده عقله. أمام عمارتهم وقف. تطلع. زوجته تطل من الشرفة. لمحها من أسفل ونصفها

مدلى تنشر الغسيل . نط قلبه من الفرح . لم ينتظر المصعد . أخذ السلالم قفزاً واثنين اثنتين . دق الجرس . . دق ودق ودق . وكان لا أحد هناك . لا جواب . جلس على البسطة وكاد يبكي . لقد رآها تنشر الغسيل . وهي بالتأكيد في الداخل . جاء بائع العيش . دق الجرس فتح له الباب رجل يرتدي فائلة بحمالات وبنطلون بيجاما أحمر . من أنت؟ أنت مين؟ الرجل يسأل بصوت عال : عايز كام رغيف مقمراً؟ اندفع ناحية الباب . . دفع الرجل الضخم الذي لم يتحرك ودخل . رأى زوجته مقبلة . . نط قلبه نطتين . الآن سيعود إلى الكون ويعود إلى الكون اتزانة وعقله . قابلها فاتحاً ذراعيه . . . أطبقهما على الهواء . فالرجل الضخم كان قد أخذ العيش وأغلق الباب واندفعت هي تتعلق برقبتة دون داع مطلقاً وكأنما لتغطيه . جاء طفل يبكي . هل هو ابنه . هو فعلاً عمرو ابنه . حملت الطفل بيد ولفت يدها الأخرى بصعوبة حول رقبة الرجل . زوجها . هكذا فهم . يا مجرمين . هذا بيتي . هذه زوجتي . هذا ابني . فمن يكون هذا الطويل الضخم الهايف؟ هل مات هو وتحول إلى أثير لا يراه أحد؟ ولكن الأثير لا يرى ، هو يرى . الأثير لا يسمع ، هو يسمع . الأثير لا يدرك ، هو يدرك . المجرم يزيح زوجته في تهرم وكأنما هو زوجها وقد بدأ يملها . انه حي . أنا حي . هذه يدي . أعضها فتؤلمني . أليست هذه أصابع تتحرك أمامي؟ أليست هذه ساقاً؟ انها مؤامرة . إنهم قد طلوه بطلاء كالرجل الخفي بحيث لم يعد يراه أحد؟ ولكن منظاره هناك . وهو قطعاً غير حر وغير مكبل . أيقفز في الهواء ويوقف شعورهم رعباً؟ أنا موجود يا كلب أنت وهي . أنت يا ابني أنت ابني أنا . هذا يا عالم بيتي .

فرت الدموع من عينيه. بكى صامتاً. ثم رفع صوته إلى آخر المدى. جعير. كان كفيلاً بأن يفرج عليه الجيران وجيران الجيران والشارع كله. ولكن. وكأنه مات. يبكي ووحده الذي يسمع. يا ربي. عبدك أنا موجود. فأمر عبيدك أن يروا. دخل حجرة الرجل. انتقى قميصاً وبدلة وحذاء ورباط عنق. ارتداها. أكبر وأوسع منه. تصور أنه حين يخرج إلى الصلاة على الأقل سيوقفونه بتهمة السرقة. بنت يا «رقية» أنا عبده حبيبك. أنا «دودة» كما كنت تدللينه. هذا الركن احتوانا. عيناك كم احتضنتاني. حضنك اندسست فيه. عمرو أنا أبوك. أنا بابا. أنا دادي. أنا الذي طالما تعلقت برقبته وطلبت منه الكرة والبسكليتة والشيكولاتة. لم يعد يستطيع. انطلق كالقذيفة فتح الباب. أخذ السلالم قفزاً قفزاً. حتى البواب المؤدب لم يأبه له. تعمد أن يقفز فوق سطح عربة تاكسي. ويزحف فوق المقدمة حتى يغطي الزجاج الأمامي ويعمي السائق. والسائق سائق. لا يتوقف. من تاكسي إلى تاكسي إلى عربة، عاد للمؤسسة، تعمد أن يصفع رجل الأمن صفعة لا بد دوى لها المكان فلم يسمعها ولا جرى الرجل وراءه. في ومضة صعد إلى الدور الأول. ليس هو الأول. لقد كان مقرر رئيس مجلس الإدارة. ولكنه لم يجد رئيس المجلس ولا مقراً له لافتة كانت في مكانها معلقة لافتة شركة «الكودمو» بالعربية والانجليزية. أياكون قد أخطأ؟ هبط. قطع الشارع طويلاً وعرضاً. من المؤكد أنها المؤسسة. هذا هو المستشفى المجاور. هذه هي محطة المترو. هذا هو الكوبري العلوي. عاد يجري، الدور الثاني تعمد ألا يقرأه. الدور الثالث كان فعلاً دوره

أقتلها

الثالث، حيث يوجد مكتبه. الحجرة التي يجلس فيها صغيرة وطالما اشتكى من صغرها ووعدوه بحجرة أكبر، ولكنه على أي حال يجلس في حجرة بمفرده. فتح الباب. انفتح.. الأثاث هو الأثاث. المكتب مكتبه. ولكن الجالس عليه ليس هو. سيدة. شديدة الأناقة مندمجة في حديث خطير مع زبون.. هذه مؤسسة. وليست «بوتيك».. هذا مكتبه. انه موظف هام. والحديث عن صفقة شامبو. لا أقل من عشرين في المائة.. يقف مصعوقاً يسمع. قاوم الزبون. لانت السيدة. وافق الزبون.. تمت الصفقة دون أدنى انتباه له. قبلة على اليد الناعمة انتقلت بسرعة إلى الخد الأيمن، ثم عبرت إلى الأيسر، مارة بالشفيتين.. لا اعتراض ولا مانع.

تكوم في ركن منهاراً ولكن قشعريرة حمى جعلته ينتفض.. لا بد هناك خطأ جسيم ما. انطلق صاعداً هابطاً باحثاً عن رئيسه مدير المستخدمين. لا توجد لافتة واحدة لأي مدير. حجرات مرقمة مختلفة. أبوابها في درجات الأهمية وكأنها حجرات سرية. انتقى أكثرها أهمية. بقدمه وساقه ركل الباب ودخل.

كان اجتماعاً يضم وجوهاً شقراء وحمراء وبعضها أسمر.. المناقشات هادئة جداً. والطريقة مكيفة بجهاز صامت لا صوت له والكلام يكاد يكون همساً: زعق وزعق وزعق وظل يزعق حتى انحسر الصوت في حنجرتة وانحاش صوته وأصبح لا يستطيع سوى مواء كمواء القطط الشريفة الجائعة. أدرك أن لا فائدة..

صعد إلى سطح العمارة. فتح نافذة الدور الأخير العاشر..

دون لحظة تردد مخافة أن يتراجع أو يعدل عن فتح النافذة .

قفز . حين وصل جسده إلى الشارع تكومت حينذاك فقط جثة مهشمة الوجه مدشدة الرأس التف حولها مئات من محبي الاستطلاع واللاحول واللاقوة إلا بالله . كثرت التعليقات . فرق أمناء الشرطة وعساكر الأمن . الناس . جاءت عربية الاسعاف . . فتح محضر . . مجهول الهوية ذكروا . إلى النيابة أحيل الدوسيه . أشار الوكيل . دفنت الجثة .

قيد الحادث ضد مجهول . أخذ الدوسيه رقم ١٩٥٠٢ محفوظات .

٦١١

أنصاف الثائرين

أقنها

في الليل لما خلى إلا منه، ولم يكن الشاكي! وليس حتى ذلك الرضا المؤقت عن النفس بعد عمل باهر. تائه. الهدف مهم، حتى المشاكل حين تقع تصبح هدفاً. المهم ماذا بعد. بكلمة انتهى الإشكال. دقائق معدودة حدث فيها كل شيء حين يجيء الليل وأنت لا تعرف لمن وإلى أين تذهب؟ حين يجيء الليل ويسحب الكائنات كل إلى عشه ومستقره ومقامه، ووجدك تبقى وحدك وحولك لا يوجد سوى الظلام واللاهدف. حينذاك يعود الليل شيئاً آخر. عمى أصاب الشمس أو غولاً ابتلع الدنيا والناس، ولا تتحول أرض النهار كالعادة إلى ليل وقد تغير منها اللون فقط تصبح الأرض المستوية بحراً، ليس مجرد تشبيه، تتحول حقاً إلى بحر، الريح أمواجه والظلام آفاه والإضاءات البعيدة أو القريبة مراسيه ومناراته.

وفي الليل لما خلى إلا من الشاكي، صوت عباس يدندن، يطرد الوحشة، لكن الدندنة تؤكد لها، يعلو الصوت، يغني، يطلب الونس فيتحدث إلى الليل المسكون بالظلام الراسخ العميق. في الليل لما خلى، الجمال الوحيد في صوت عباس أنه يجعلك تتذكر

عبد الوهاب وهو يغنيها، وبحنجرته الحلوة يستأنس كون الظلام،
ويضيء على مدى الصوت الرخي أنيق الشموع.

في الليل والعربة تجار، تصعد، تميل، تتلوى، صندوقها
المغلق الكبير يتأرجح فهي تسلك الطريق الوعر الخالي من أكشاك
المرور وعساكر المرور. فقد سحبوا الرخصة منه من زمن لضعف
بصره، وفي الليل يزداد ضعفاً ويزداد تأرجح اللوري فوق جسور
المصافي غير المهدة وغير المعدة لمرور العربات، أي عربات.

في الليل والعائلة الغريبة منكمشة بجواره، الزوجة وضعها
الرجل لصق الباب غيرة عليها أن تكون محشورة في الوسط بينه وبين
السائق، والأولاد في الدواسة وفوق ركب الأب والأم وفي كل مكان.
في الليل وقد مضى النهار المزدحم، ذلك النهار. قصته الكاملة لو
كتبت لاستغرقت كتباً. بل لا أحد بإمكانه أن يحيط بها كلها.

عباس السائق جذبته الأغنية وغرق في دوامتها. الليل صاحبه
القديم، والليل عمره، بل أصبح قدره، ولم يعد سواء ملجأ يحميه
من النهار، نهار الناس العاديين والقانون العادي، نهار البوليس
والتفتيش والرخص، النهار الذي يضبط فيه كل شيء ولا يفر منه أحد
ولم يعد له سوى الليل ذلك الليل الذي خلا إلا منه ومن محتويات
(لوريه) من بشر وأشياء وخيالات، يستجير به معيداً حتى لا يتخلى
عنه، إذ حتى لم يعد يرى أمامه أي مرفأ.

قطع عباس اندماجه وسأل: مريوط؟ مريوط؟

حجاج الراكب وصاحب الكومة الأسرة فرح، فالسائق في العادة ذلك الذي اعتاد الصمت وقصر حوارهِ دوماً مع الموتور، إذا أجاب مضطراً خرجت الإجابة من أنفه، تكبراً يقولون، تكبر السائقين الذين يعرفون أنهم فوق الناس لأنهم يعرفون ما لا يعرفه الناس، تحت امرتهم سر الصنعة، والآلة اللغز، سلسلة في يدهم، الآلة لغز في عالم يحيا بآلات من الحمير والكارو والجاموس والنهيق. الآلة. أصعب الحضارة البعيدة تخرق الفيافي وتظهر هنا، معجزة ومرعبة، وسيدها عباس أو أي عباس، وحتى لو كان نظره شيش يش لي جعل تكبره على الآخرين أقل شموخاً، ولكنه حتماً يملك ذلك الشموخ.

مربوط، لماذا مربوط؟ وهل يعقل، وفي هذه الساعة أن يطرق حجاج «أفندي» باب أنيس أفندي ولغرض كهذا الغرض؟ مربوط مربوط مربوط، وهذا البغل ذو الكرش المحشو جشعاً ونتاجاً. مربوط يا ابن بائعة الفجل الذي أصبحت صاحب أرض ويفضلي أنا تحولت من «بقجة» القماش تحملها لتبيعها بالمترو والنصف متر في الأسواق إلى صاحب دفتر شيكات ضخمة بقلمك المذهب تستطيع أن تضع أي رقم وتوقع، ولتوقيع قيمة وسمعة، أعظم من سمعة محافظ البنك الأهلي، وورقة دفتر شيكاتك أضمن من الورقة أم مادنة، والمميزة بالصورة المسحورة لأبي الهول مربوط مربوط، يا حسن بن وهيبة بائعة الفجل، يا من سموك يوم ولادتك حسن الكبش، لفرط شبهك به، ثم لما تاجرت وأصبحت صاحب عربة خضار سموك المعلم، وتلاشى الكبش من اسمك، وذاكرة الناس للأسماء

وللألقاب ضعيفة، خاصة إذا كان أصحابها يكبرون والناس تصغر وحسن بك أصبحت، مائة فدان تملكها رغم أنف قانون الإصلاح الزراعي وقوانينه الصارمة لمنع التحايل، ومائة أخرى تستأجرها رغم أنف قوانين الإيجار الحاسمة، مائتي فدان . . الجنان مائة، والخضار مائة. والسراية اسمها الشاليه، والسور الذي يحيط بالمائتي فدان أسلاكه شائكة وفي الليل مكهربة، وماكينة النور تكفي لإضاءة مدينة، وحظك نار، بمائة جنيه لهفتها والأرض فدانها بألف، وصاحبها الخواجة ييكى، فالعمر أضاعه، يصنع من الجنينة جنة، فنواتها بالأسفلت ونقل الفاكهة والخضار يتم بقطار صغير ذي عربات قلابة وأوناش، وخيم للرث وموتورات، وبيلاش أصبحت «بك» ولو كان ممكناً لتخطيت بأرض الخضار ومزرعة الدواجن والبهائم وخلايا النحل وحتى بتقطير زهر الياسمين وحده، رتبة الباشا.

فلتكن مربوط.

الخواجة كان أحسن. ألف مرة أحسن! خواجة على غير الدين والملة لا يكذب ولا يغش ولم يذهب ليحج ومعه حقيبة ضخمة فارغة وعاد بملء عربة لوري بضائع للتجارة والاستهلاك.

الخواجة كان أحسن، وكان في أيامه وطنياً صميماً ووفدياً قحاً، وعباس السائق هذا نفسه كان حين يريد أن يسترضيه يضغط على «سيرينة» العربة النقل لتعزف ذلك الهتاف الموسقى يحيا . . النحاس . . باشا . .

خواجة وأحسن وذمته أنظف ، ولكنه ذهب لأنه كان يمت إلى
جنس كبير حرفته السرقة المنظمة المقننة ، والارهاب بالقتل العسكري
المباح ، والاحتلال طريقته في السطو المسلح . خواجة واحد نظيف
في عصابة قوامها عشرات الملايين من السفلة . وراح .

والجنينة في الحقيقة لا كانت جنينية الخواجة ، ولا جنينة حسن
بك «الكبش» سابقاً حين لهفها لهفاً . الجنينة جنينة حجاج . . جاءها
وبها أربع شجرات «كازورينة» عجاف . جاءها وهي بور . حتى
الحشائش لا تقوى على النمو فيها . ويده . بيده وحده أحياءها ،
بحدائه ينغرز في الوحل ، بالليالي يسهرها حتى الفجر ، لا يزيد الري
جرعة ماء أو ينقص ، ولا يزيد السماء ملليجرام أو يتغير . بالبهايم
رباها . عام وراء عام تحيل بقاياها وعلفها إلى طبقة أرض نيتروجينية
جديدة ، تختلط بالقديمة ، وبالطمي ، آلاف الأطنان من الطمي
والرمل ، من شيء كان كالرأس الأصلع الخالي تماماً حتى من
الزغب ، شعرة شعرة راح يزرع ، وحوضاً حوضاً راح يزحف بالخضرة
والخصب ، حتى ، بعد سنوات عشر ، أصبحت تلك المعجزة التي
تحدث بأخبارها السنة المارين ركوباً في أوتوبيس أو سيراً على أقدام
بجوار الحمير المثقلة .

أصبحت جنة يستضيف الخواجة «شيميز» أصدقاءه ومعارفه ،
وكل من يكاد يعرفه أو يلقاه ، ليريه «ايزابيللا فارم» . كمن اكتشف
المعجزة ، كمن حقق أكثر المستحيلات استحالة ، في شرحه
وحماسة ، ووجناته المحمرة يندمج ، وتنطلق دفعات الكلام من فمه

صادقة أو كالصدق، كأنه هو الذي قام بالعمل وحده، هو الذي غرس، هو الذي قام على «المشاية» وسهر، هو حتى ذلك الذي أقام هذه «الفراندة» الأصلية التي لا مثيل لها ولا لروعيتها. في وسط «ايزابيللا فارم» تماماً تقوم شجرة كازورينا هائلة الضخامة، هي مع الكازورينات الثلاث كل ما وجدته في الأرض حين اشتراها. يندمج تماماً حتى ينسى اسماً أو تاريخاً أو حادثة فيتلفت لحجاج أفندي السائر متواضعاً خلف الجميع، الصامت تماماً دوناً عن الجميع، الذي اعتاد على اغتصاب الخواجة لمجهوده ودوره، حتى لم يعد يزعجه الأمر، فليتكلم ما يحلو له الكلام وليصمت حجاج تماماً، فثمة ألف شيء تتحدث نيابة عنه، كل شجرة، كل عرق من شجرة، كل ثمرة مانجو، كل عنقود عنب، كل زهرة ياسمين، كل نخلة، كل «قرص» عسل نحل، كلها دوماً يراها ويسمعهما بعين غير عين الجميع، وأذن غير أذن الجميع، إذ بأذنه وعينه وحدهما يسمعها، تبثه الشكر والحمد، تغرقه في اعترافها بالجميل ألى درجة أن لو أشار لها بالكف عن النمو لكفت. أن تكف عن انتاج الثمار لكفت. الخواجة له الأرض وله النقود، وله الشاليه المذهل، وله ذهبول الضيوف، وآهات انبهارهم ودهشتهم، ولكنه هو الذي يملك ما هو أعظم من ذلك كله، يملك أجمل وأروع حديقة حياة أرغمه هذا الفحل الأصلع على أن ينشئها فأنشأها.

وكم يشير إلى برج ايفل، يشير الخواجة إلى شجرة الكازورينة، لتكون المفاجأة، اندفع يسرع راكضاً ناحيتها، والركب

والركض يتبعه، وهناك، وكأنما يكتشف في التومعهم، يتطلع ويتطلعون، وفي أعلى مكان في شجرة الكازورينة العالية، حيث أقيمت، من نفس الأفرع غير المهدبة «فراندة» مستديرة مريحة ذات سور تحيط بالشجرة كلها، ومن نفس الأفرع، وعلى نفس حالتها صنع للفراندة مقاعد ومناضد، وكالطفل الذي فقد اتزانه، يبدأ الخواجة شيميز يتسلق السلم المصنوع أيضاً من الكازورينة، وليبدو كأنه مجرد فرع شذبت نهاياته قليلاً. للسلم والدرايزين، وخرطوم المياه الرقيق، وأسلاك النور التي طليت بنفس لون الشجرة، والمصعد ذو البكرات الذي يتحرك حاملاً الطعام أو العجزة الذين لا يستطيعون الصعود أو أجهزة الموسيقى أو ما شاءوا من صناديق الشراب. ولأن الأسئلة حينذاك تنهال بكثرة وبالفرنسية في الغالب، ولأن حجاج أفندي له إلمام بها و«شيميز» يعلم هذا! ويعلم أيضاً أنه قد ظل أنانياً إلى درجة لم تعد تحتل، يتحرك الضمير، معترفاً أولاً بأن برج «الكازورينة» هو فكرة أراد حجاج أن يفاجئه بها حين استضاف وزير الزراعة يوماً، ثم تتوالى اعترافاته، وحتى ما لم يعترف به بينه وبين نفسه يبدأ من تلقاء نفسه يشير إلى صاحب فكرته وخالفها. وتبدأ السيدات تضع النظارات تفحص هذا الصامت العبقري وتأمل أنه هو الرجل المقصود، يصبح ارتباكهم أعظم من أن يحتمل، ولا بد أن يعذر، ان لم يبد وجيهاً أو مقبولاً، فالأمر لا يهم، يختفي حجاج، وتختفي الخواجات والطبقة، وفي أسبوع واحد يبدأ «شيميز» الفرنسي يفكر في البيع، ثم البيع، ثم تهريب الثمن، والأسبوع التالي يجيء عليه وهو في مرسيليا وقد عاد إلى «الوطن

الأم» بينما كان في الحقيقة، وفي نفس هذا الوقت يبكي وقد أحس لأول مرة أنه فقد الوطن الأم حقاً، وقد ينجح «شيميز» وتكون له حديقة وضيعة ومزرعة، ولكنه أبداً لن يجد في ذلك الوطن الجديد. . برج الكازورين، ولا حجاجاً.



كما كان يعامل «شيميز» ظل يعامل حسن بك. لم يكن هناك ما يدعو لاستمساك حسن الكيش بالسيد حجاج هذا. انه من عائلة قوامها ألف رجل، كلهم فقراء، وأولى من حجاج بالعمل والماهية، ولكن أن يقلد الخواجة شيميز الذي اشترى منه المزرعة بإبقاء حجاج «مديراً» للحديقة والمزرعة، بنفس راتبه، ومسكنه في الركن الجنوبي للحديقة، أبداً ليس هو السبب الذي دفعه للاستمساك به، فالبنء الذي ورد في العقد خاصاً بهذا الموضوع كان في ذاته نكتة، بند لا يعني شيئاً ولا يشترط للفساك منه. جزاء كل ما في الأمر أنه يدفع للعجب. أن يتمسك المالك السابق بموظف عنده بهذه الطريقة مسألة لا بد فيها سر. سر حاول شيميز أن يشرحه له أكثر من مرة بقوله ان حقائق كهذه ليست مجرد عقار أو سلعة، انها حيوان ومجتمعات كالبشر، ورعايتها تستلزم كىرعاية أي أسرة. . الحب والرعاية والتفاني والحنان. وحجاج هو ذلك الراعي والأب، وأيضاً، ورغم التكرار والتكرار فحسن بك ظل يؤكد لنفسه أن في الأمر سرأ، وأن الأيام كفيلة بإظهاره. الشيء الآخر أنه بدأ يشرح لحجاج طريقته، وأنه ليس خواجة، وليس «كروديا»، وأنه بدأها من عربة

اليَد، ويفهمها وهي طائيرة، ويعرف في الجنائن وأمورها أكثر من صاحب دكتوراه، وهكذا عليه، إذا أراد أن يستمر «يأكل عيشه» أن يطيع: كذا يعني كذا.. مفهوم ١٩.

يرمقه حجاج بعيون لا ترمش، ولا تريد أن يخفى عليها خافية، نظرة تطول، وتؤوب، إلى رأس ينخفض يفكر. من الآن عليه أن يدرك أن كل شيء قد تغير، ليس صاحب العمل فقط، ولكن عليه هو أيضاً أن يتغير، بل ربما على الأرض نفسها والشجر والزرع أن يتغير.

لقد كان شيميز يشعره أن الأرض وإن كانت له، إلا أن كل ما هو أخضر فيها هو من صنعه ومسئوليته، وهكذا وعمره الآن تسعة وثلاثون عاماً، اعتصر نفسه وشبابه، وأحالتها فاكهة خضراء وثمرات، وبينما أعاد للحديقة صباها وشبابها فقد هو كل صباه، وأصبح من يراه يظنه في الخمسين.

من الآن، عليه، كما فعل شيميز أن يبيع هو الخضرة كما باع الآخر الأرض، وأن يشتري صحته وحياته كما اشترى الآخر عنقه، وما دام حسن بك الكباش يريد أن يكون الصاحب والأمر والناهي والرأي رأيه والتصرف تصرفه، فليكن الأمر كما يريد، وليبدأ ومنذ الآن دوره الجديد، وما دام «المدير» قد ذهب مع الخواجة الذي ذهب، فليكن دوره مع الصاحب الجديد الأمر، دور المأمور المنفذ كذا يعني كذا. حاضر.

حاضر وهي حاضر. الري يعرف أن موعده خطأ، وطريقته خطأ، ولكن تأتية الكلمة: ارو. حاضر. يروي.

وبدأت المسائل ترتبك. ويستشير حسن بك الدنيا كلها، ويعيد ما كان يفعله بأراضيه الأخرى، ناسياً أن لكل أرض معدنها. وشخصية العنب الذي ينمو هنا، غير شخصية بني جنسه ونوعه الذي ينمو هناك، ناسياً أن القواعد العامة شيء، والقواعد الخاصة التي تسنها الخبرة الطويلة شيء آخر. وكثيراً جداً من الأشياء تبدأ ترتبك.

وكان حرياً بحسن بك «الكبش سابقاً» أن يعزو الارتباك، ليس لما يصدره من أوامر، إنما يعزوه كالعادة لتنفيذ الحجاج السيء ويجعل من هذا سبباً وجيهاً لفصله والتخلص منه.

وهو بالضبط ما كان يتوقعه حجاج وظل يتوقعه. ولكنه الشيء الذي لم يحدث.

والذي ظل حجاج يضرب أخماساً في أسداس، متسائلاً عن سبب عدم حدوثه. وأنى لحجاج أن يعرف أن العلة في القلة.

وأنها شربة ماء كانت، ولكنها هي نفسها الشربة التي لولاها ما كان قد أصبح هكذا تائه الليل، في طريقه إلى «أنيس أفندي» عبر قنوات وطرق غير ممهدة إلى مريوط، والليل قد خلا، وسجى، ولا ندم، وكذلك لا فخر، ما حدث حدث ولا بد أن يحدث، بل حتى هناك في هذه الوقفة ما يستحق الفخر رغم أن فيها وسبقها ما يستحق كل خجل.

الثورة محدودة، وحين ثار، كعادته حين كان يشور أيام الخواجة، ويتلقى الخواجة الجانب الموضوعي من ثورته ولا تهمه الطريقة، بل أحياناً كان يستحسنها، كانت الثورة تأتي بنتيجة وفي الحال.

هذه المرة ثار فقد أمره حسن بك بتقليم العنب، والتقليم الآن معناه أن يقتله قتلاً، ولكنه الأمر، وقد تعود أن يرضخ، هذه المرة صمم تماماً أن يقول لا ولكنه لسان حسن بك خرج ولم يعد، خرج طويلاً سافلاً يلعن آباءه وأجداده. احتج. نصف احتجاج، فبنصف عقله الآخر كان يحسبها. فإذا استمر في الأمر فالفصل مصيره، والفصل يعني أن يبحث ليس فقط عن عمل آخر وإنما، وهذا هو الأدهى والأمر عن سكن آخر، فالسكن لمن صناعتهم الزراعة تبع العمل، ويعني أن يلف البلاد كلها طويلاً وعرضاً يبحث عن زملائه من نظار الجنائين ومآميرها ومديريها عن وظيفة ولو وظيفة خولي. بشرط أن يجد المأوى في بيت، ولو في حجرة. وهنا سكت نصف الموافق، وأوقف نصفه الثائر وقلم العنب، ومات العنب.

ومن بركان سفلي بشع خرج غضب حسن بك، يا حمار..
هكذا عيني عينك قالها:

- لماذا قلمت العنب؟

- ولكن هذه أوامرك.

- ومن قال لك أن تطيع أوامري؟

- سعادتك، الذي قلت: كذا يعني كذا.

- ولماذا لم تعارض إلى النهاية . لقد كنت أنا أفكر في التراجع
إذا واصلت أنت المعارضة ، ولكنك وافقت .
لماذا يعرف الخطأ ولا يقول لا ويظل يقولها حتى لو قامت
القيامة !!؟ .

والنتيجة : أنت مرفوت . . بحث لك عن عمل .
- ولكن أولادي . أنا لا بيت لي . لا بد أن أذهب أبحث عن
بيت وعمل وأنتقل إليهما .
- من الغد عفشك بره ، وأنت مرفوت ، وإذا بقيت لحظة
سأسلخ جلدك . وخذ . .
ورمى إليه بعشرين جنيهاً قيمة «المكافأة» .

ولم يكن هناك مناص فأرخص وسيلة هي عربة النقل التي
يملكها عباس الأعمش والتي لا يقودها إلا في الليل خوفاً من ضبطه
بلا رخصة وقد سقط في امتحان النظر ثلاث مرات ، وإلى الطرق
الفرعية المنحنية والمنحدرة والصاعدة والهابطة ، ينشال اللوري
وينحط ، ويميل ويكاد ينهال في الترعة والمصرف ، والعائلة مكومة
في الكابينة ، وعباس ، يراه بعينه ، كلما نقل عصا الفيتيس ، يلمس
ركبة امرأته ، وحتى ابنته ذات الأربعة عشر عاماً ، متعللاً بعصيان
العصا ، والليل قد خلا إلا من جثير الموتور المنهك ، وجعجعة
الدبرياج ولمسات الأعمش .

وأنيس أفندي يخرج من منزله في مريوط مذعوراً في منتصف
الليل يعتذر فهو لا يعرف عملاً . لا يعرف مكاناً للإقامة . زوجته

مريضة وابنه يعاني الحمى، وهو مدثر ببطانية، وأنا آسف يا
حجاج.. آسف. الظروف قوية، والعمل صعب والمزارع والجناين
قلت، ولماذا لم تبلعها يا أخي؟

وحجاج يقول لنفسه: ولماذا؟ ما دام هذا هو المصير كنت لا
أخلع الحذاء وأنهال به على الرأس الأصلع للكباش حتى أدميه،
وعلى الأقل أخرج بكرامتي، ولكنه المصير الذي ينتظر أنصاف
الغاضبين.

والليل قد خلا مرة أخرى إلا من لوري ذي سائق أعمش
وعائلته تبحث عن عمل مأوى أو عن مأوى عمل والمتوريزار،
وعباس يغني في الليل لما خلي إلا من الشاكي، والنوح على
الدوح.. وينسى بقية الأغنية ليمد يده إلى عصا الفيتيس، وإلى ما
أصبح يصل إليه فوق الركبة، ثم يتذكر عباس الأغنية ويجأ بصوته:
للصابر الشاكي.. والليل يمتد ويستشري ومن بحر إلى محيط
يصبح، والعربة بركابها تفرق فيه وتغرق، ولا حتى من نجمة قطب
عند الفجر تشهد.

لماذا لم يقتله؟

لماذا لم يكب راکعاً وأمره إلى الله ويقبل حذاءه؟.

٦٢٧

اقتُلها

أقتلها

الحياة التي يحياها الآن كأنما هي بالضبط ما أرادته طول الوقت دون أن يعي، والكرسي الذي يجلس عليه، والمنضدة الكائنة في الركن - ركنه المفضل، والكم الذي يجرعه من كوب الماء المثلج المضرب البارد، هو بالضبط ما أرادته بلا زيادة أو أقل نقصان. كل نزوة تعن له حتى ولو تجاه امرأة يحيلها إلى نظرة فحظة حتماً تنتهي حسبما أراد لها. كانت مشكلته دائماً أن يحقق ومن أجل أن يحقق أصبح عليه الآن أن يقتنع. لا إيمان مطلق.. لا تسليم. التحقيق هو الحياة، والعمر يمتد مسطحاً أمامه أملس كالزجاج، يدرج البلية ويأمرها أن تقف، بالضبط حيث كان واقفاً عند الخشبة الثالثة بعد المكسورة من السور، بالضبط هنا ففي أيتها البلية وحذار أن تتحركي، فمن الممكن وباستطاعتي أن أهدم الكون فوق رأسك.

في العادة حين نتذكر الشيء أو الحدث نلتزم بالخط الواحد، مذ لم يكن الحدث قد كان إلى أن كان وبعد أن كان. هكذا تصنع بنا ذاكرتنا، فوهي تجذب الماضي وتضمه لحظات معاً غير قادرة على التشتت إلا إذا كنا قد جننا، إما أن تشتت وهي أعقل ما تكون وأثبت

ما تكون. . . إما أن ترتد عينك لتصبحا ليستا نقطتين ترى بهما ما أمامك، وإنماهما شريط بصري دائري يحيط بكل رأسك وترى به أقصى زوايا الكون، وبأذنك وقد امتدتا وتفرعتا ملايين «الايريالات» حتى ليسمعانك نبض الكون الأعماق. . . إذا عن قلب الكون أن ينبض، إذا استعدت الزمان والصوت والمكان - وبلا حدود - واستحضرت الحدث بلا ذرة تتساقط منه وأنت تستعيده، وكل شيء وكأنه لا يتجمع الآن ولكنه بقوة عظمى خافية يتحد ويشكل من الماضي حاضراً في قلب الحاضر الدائر، بل ولأصبح باستطاعتك أن توقف أو تبطئ من دوران أيهما، الماضي أو الحاضر، والاسراع بالآخر لتصنع من الزمن عجينة لها ما شئت من سمك، ومن المكان مساحة لها ما شئت من حيز، الذرة فيها في حجم المجموعة الشمسية، والمجرة فيها تستطيع أن تصغرها بأصبعيك إلى أقل جزيء ممكن.

حين تصنع هذا كله، أو يمكنك صناعته، فإما أن عقلك انتهى تماماً وإما أن عقلاً آخر فيك بدأ يبرز. . . عقلك الأكبر، وويلك إذا انتهى عقلك وبقيت حياً! وويل وويلك إذا بدأ العقل الأكبر وأنت لا تزال سجين وجودك الأصغر. وفي الحالين أنت في لحظة جحيم. . . واسمع سيدي.

وقبل أن تسمع سيدي. . . اكبر أيها الحجم، وتضخم أيها المكان! واقترب أيها الزمان، لا ليس عاماً، بل شهراً، بل عدة أيام أريدك. اقتربي أيتها اللحظة. ليس كما خططت يومها لك ولكن

فاجئني وكوني طويلة طول العمر. فأنت حقاً تساوين عمراً بطوله. أصبح أيها الحدث في قرب وجهها ذي النمش الخفيف. . ذلك الوجه. اقترّب ولو عذبتني أكثر.

عذبك يا مصطفى ذلك الوجه. . الرموش البنية الغامقة انغrustت طويلاً وكثيراً في حبابي عينيك وأنت مستعذب ذلك العمى البني المدبب. أفعلاً أحببت ذلك الوجه؟ أفعلاً كانت صاحبتة تحبك؟. أم هو السجن والجسد الفائر والشبق الموضوع قسراً في زنازين من أقفاص صلبة لا تلين ولا تنكسر؟ اقتربني كثيراً يا لحظات عشتها وعاشتني، فأنتم أنا، ولكنه لأنا المستحيل - أعرف هذا جيداً - التجمع والتكون والعودة للوجود. فلا أنا انتهى عقلي الأصغر، ولا نبت لي ذلك الأكبر المهول بعد.

المسافة قائمة وباقية بينهم في «الدور» الثالث، وبينه على «البسطة» الأولى للسلم الحلزوني الصاعد في قلب العنبر. . والوقت طال وطال، والصبر نفذ. فحين تكون في السجن لا تستعذب أبداً أي صبر، فأنت دائماً في انتظار اللحظة التالية ولو لم تحمل لك أي خير أو حدث. فمن يدري؟ لعلها تحمل! لعل شيئاً خارقاً يحدث! أنت تتصورها وتحشوها بالاحتمالات وتبتهل عساها تأتي مثقلة. كان معهم. . مع الكبار حيث كانوا ولا يزالون في الزنزانة الواسعة بالدور الثالث. دخل عليهم ثم بدا من نظراتهم المتبادلة أنهم يطلبون منه الانصراف. أكان اجتماعاً مدبراً وجاء هو ليفسده؟ أم كان التدبير هو تلك الأسئلة الغريبة التي انهالت عليه ثم كفت فجأة؟ وبدأ تبادل

النظرات، حتى أحس من التيار المرسل والمستقبل بين العيون أن
ثمة كلمة ضوئية تصاغ، أو بالأصح أمراً: قم.. وانتظر.

وقام.

ولم يطلب منه أحد أن ينتظر. فجعل بينه وبينهم ثلاثة أدوار،
وجلس.. فقد كانت الكلمة لا تزال ترن في أذنه: لا تبعد كثيراً يا
بني.

لقد سبقهم إلى السجن، هذا صحيح رغم أنه الأصغر، فقد
جاء متهماً في جريمة قبلة ألقاها في ملهى شارع الهرم. لم يمت بها
أحد هذا صحيح، ولكنها جعلت منه كبيراً وبطلاً ودخل السجن. وكم
عض أصابع يديه العشر ندماً. فقد كانت رعونته هي السبب.. كان
واجباً أن ينتظر إلى أن يعد خمسة ثم يقذفها بقوة، ولكنه استعجل
وقذفها وهو يعد الثالثة خوفاً أن تنفجر في يده، وبظهورها بلونها
الأحمر الغريب المثير المرعب انكفأ الكل على وجوههم، وكل ما
ناله ليلتها قطعة من فخذ الراقصة الدهني الذي جرح ظلت لاصقة
بين ياقة قميصه وجلد رقبته. وكلما حاول استخراجها ضربوه مخافة
أن تكون ثمة حركة مباغته أو بداية عدوان، وهو يحس بها قطعة من
نار الجحيم اللاصقة قد غرزت كاوية جلده، حارقة لحمه حتى نخاع
النخاع. وفقط عند مطلع الفجر ينجح في انتزاعها. يتزعها هي
ولكن أثرها لا يمحي.. يكاد يكون إلى الآن باقياً.

مصيره معروف.. انه يدرك هذا، معروف له وللقاضي وحتى

للسحاذا الذي يدعوله كلما لمحاه هابطاً من عربة السجن إلى المحكمة . . الاعدام .

فليكن! أبداً لم يفكر أن هناك موتاً بمعناه الذي تعارف عليه الناس، ولا خاف مثلهم منه . لكم أحبه قبل الحادث وابتغاه في أثنائه وبعده . كلما غور ببصره في أعماق رحلة الخلد التي سوف يقطعها به إذا استشهد، أحس أن الناس لا بد مجانين لتمسكهم بحياة هي خرقه بالية . . وستبلى أكثر مليئة بالأحوال والأقدار، لا تصلح حتى لتلميع حذاء . وأعظم شيء يصنعه الإنسان بها هو أن يقذفها بأطراف أطراف أصابعه، بعيداً بعيداً كي يزيحها عنه وعن الطريق إلى الخلود .

بل هو حتى أصبح يضيق بتلك المعاملة الخاصة التي تعامله بها جماعته . . المئات منهم الذين جاءوا بعده، ولأسباب مختلفة حين جاء أحدهم مرة وهمس في أذنه يسأله من أين هو وإلى أي أمير ينتمي؟ لم يخبره . وحين تكشف في السجن وبالسجن كل شيء وعرف السلسال من أوله لآخره لم يفرح، بل ولا غير من نظرتة إلى غيرها . فالدين دين الكل . وهو فقط ضد الخارجين ومع كل الداخلين . قابله مرة وكيل وزارة الداخلية يحمل له عفواً وقائمة بأسماء كثيرة الغريب أنها كانت صحيحة تماماً ودقيقة جداً وكأنه هو شخصياً الذي كتبها، وحمل الورقة في يده، ورأسه - رأسك يا مصطفى - في اليد الأخرى، ومجرد توقيع ينقذ هذا الرأس . . توقيع صغير منك يا مصطفى يصنع هذا العمل الكبير . ابتسم للرجل في

طيبة واحتقار ودعا له أن يغفر له المولى ذنبه وأن لا يأخذ ذريته
بخطاياهم . . ومضى .

وأحس بيد توضع أو بالأصح تبارك كتفه، رأسه ارتفع . .
الشيخ الجليل هناك مهيب في وقفته على السلمة الأعلى، ابتسامته
نقية وكأنما عليها آثار لا تزال طازجة من مياه زمزم. وقد خفض
الشيخ يده من كتفه إلى كوعه واصطحبه. وسارا وخيل إليه أن السير
في الفناء قد طال والشيخ صامت لا يقول شيئاً. وحين تكلم سألته إن
كان يريد دخول الجنة، سؤال من هو متأكد مما سوف يكون عليه
الجواب. ولهذا لم يأت الجواب، وإنما فرت من عين مصطفى دمة
وانحنى على كف الرجل وقبلها.

- لا . . لا . . لا تفعل . . لا كلام بيننا الآن . . لقد أعدنا لكل
شيء عدته وسأتي لأبيت عندكم في زنااتكم، وستعرف كل شيء
بإذن الله .

كان مصطفى معجباً بهذا النظام الصارم الدقيق، فكل شيء
يتم بالضبط كما يجب أن يتم، ولهذا فالكلمة هنا ليست كلمة ولكن
في سبيلها يحارب المرء الجيوش، أما حارس الليل فقد تولاه زكريا،
أما رقيب النهار فقد احتاج إلى مائة جنه تسلمتها زوجته بالضبط في
الميعاد.

والليل والزنزاة، والهمس، وانبلج السر الأكبر.

إن معهم في المعتقل، نفس السجن، شيوعيين وشيوعيات،

وللنساء موعد فسحتهن وللرجال موعد، بل هي مواعيد أربعة موعد
لحرمتهم من المسجونات، وموعد للشيوعيات، ثم للرجال منهم، ثم
للشيوعيين الرجال. يدخل هؤلاء ليخرج إلى الفناء هؤلاء. وكانت
الجماعة، حتى قبل أن يلاحظ مصطفى، قد لاحظت أن شيوعية
معينة تتلكأ دائماً لتكون آخر من تدخل قسمهن. وبتبعهم الحذر
الذكي إلى حيث تتجه عيون المتلكئة حددوا الهدف.

مصطفى، ذلك الذي يرتدي جلباباً بلدياً أبيض حليق الشارب
والذقن رغم إيغاله في الإيمان بكل ما تؤمن به الجماعة، الصعيدي
الأفندي الوسيم الذي ترتعش له قلوب العذارى.. أي عذارى، من
هاواي أو من الحبشة، من لوس أنجيلوس أو الأنفوشي.. شاب ذكر
يكاد يكون مصنوعاً كله من مادة رجالية خالصة، وهو وحده الذي لا
يعرف بينما كل البنات والسيدات وحتى الشبان والرجال يعرفون..
ويوقنون. وذائماً كلمة: يا خسارة على شبابه تلمحها أذنه وأحياناً
عيناه، صاعداً عربة السجن أو هابطاً منها، في يده الحديد أو خالياً
من الحديد، قريباً من قفص المتهمين أو همسة تأتيه عالية من بعيد.
حتى القاضي أحس مرة أنه ينظر إليه نظرة حسرة وكأنما حسداً لأب له
كل هذا الابن.. وقلب سوزان يدق. وما أغرب هذا القلب وهو يدق
فكأنما لا مبادئ ولا عقائد ولا نيران تحول بينه وبين الدق إذا أراد
أن يدق، حتى وهو يتعمد ألا يراها ولم يرفع عينه عن الأرض..
طوال الأسبوع الأول كان يدرك أن قلبها كل مرة كان يزداد دقاً.

ولكن خافضاً بصره أو رافعه كان لا بد أن تلتقي العين بالعين

مرة، وهذه المرة دق قلبان. قلب من فولاذ عمره ما دق، وقلب من الوجد كان قد ذات حتى تحول إلى عهن منفوش. . شيعوية رقطاع، ولكن سبحانك ربي توزع الملامح على من تشاء بغير حساب لكانها من بنات حور العين، حكمتك، تؤتي الملك من تشاء وتمنح عيوناً ما وقع عليها وجه إلا وخر صريعاً لمن تشاء. . أنت الخالق ولكل خلق لك حكمة، ولا بد لخلقها هذا من حكمة، ولكنها أبداً لا يمكن أن تكون حكمة أن يدق لها قلبك يا مصطفى. . مستحيل.

عيناه اللتان سمرهما في الأرض يشدهما إلى أعلى مغناطيس أعتى من كل جاذبية، يشدهما في الوقت المناسب تماماً، وفي اللحظة المناسبة لتستمر الومضة، وأمام عينيها تسترخيان، تثقل أجفانهما يتنومان. . يسلبان الإرادة. . يظلان مسمرين.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فالشيء بالشيء حتى الشيء يحس بالشيء، فما بالك والشباب شباب مصطفى والطرف الآخر صاحبة هذا القوام والوجه والعيون. . سوزان! كل هفة ثوب منها تخاريف مجانيين، صواعق مستأنسة، ومستأنسة وترعش الجبال. . ما بالك وقوة أعظم من السجن والمتريلولوزات المصوبة والسور العظيم الذي يفصل بين فناء الرجال وفناء النساء، واستعجال الشاوشية والشاوشات، والصفافير، واختلاف المذاهب وعداء المذاهب، وكل ما يستطيع الكون أن يتآمر به ليبعد كائنين أو شيئين أو قوتين. . كلها قد جربت وفشلت. تساقطت واحدة اثر الأخرى وفي الحال، فعبّر السور العظيم كانت قوة الجذب أعتى من كل القوى، كأن حدثاً كونياً

قد أوقف كل شيء ولخص الزمن والأيام في لحظة تتجمع فيها كل لحظاته، وتلتقي متسائلة محمومة محيرة لا خيرة لها في أمرها أربع عيون كأنها قد تحولت إلى أطراف أربعة لكائن أرقى واحد، كائن سيظل باقياً ما بقيت الحياة على سطح الأرض.

أربع عيون وكل ما سواها عدم، كل شيء... حتى نفسيهما أصبحا عدماً، وإرادتهما عدماً. فالموجود الوحيد صانع الحدث الصاعق هو رعد اللقاء وبرقه، والجذب.. الجذب الذي أبداً لا يقاوم، لتبدأ المرة الأولى الخجلى بصباح الخير تهمسها سوزان، والوقوف الأولى المرتعشة وقفة مصطفى عند ثالث خشبة من بعد الخشبة المكسورة في السور الفاصل بين العالمين.. الأرض ترتعش الأيدي المتشبثة بالخشب ترتعش، وحين جنت مرة وتماسكت الأيدي ارتعشت هي والأرض والخشب والحديد ووصلت الرعشة عنان السماء، بل وكادت أرجل الشاويش المنتظرة والشاويشة المسئولة تضحك ارتعاشاً هي الأخرى فقد تاه الولد في البنت وتاهت البنت في الولد.

وأصبح الحدث هو الحديث الوحيد الدائر بين جانبي السور. وفي اليوم الرابع بعد الحدث، استدعوه، أو هكذا خيل إليه أنه هو الذي ذهب وحده إلى الطابق الثالث. ولم ينزل.

لأيام ثلاثة طويلة طويلة، مضت، حتى اختنق. وفي اليوم الرابع هبط الفناء لأول مرة.

وكانت هناك . . . لكانها مذ تركها آخر مرة لم تغادر المكان مرة،
 لكانها ماتت وعادت تحيا هناك .
 والتقيا .
 ويده عبر السور امتدت .
 وقلبها عبر يدها امتد :
 واستماتت اليد على القلب .
 واستمات القلب على اليد .
 ولولا خوفهما أن يجازى الشاويش والشاويشة وقد طال
 تغاضيهما عن الموقف، ما افترقا .



— توكل يا ولدي على المولى فلقد قتلت فيك كل ما كان فيك
 يا مصطفى، وهي بسبيلها الآن لتأخذ منك كل ما تبقى لنا فيك،
 لتقتلنا هذه المرة كلنا . انها عدوة . . عدوتك وعدوتنا، ولا حياة لك
 أو لنا لدعوتنا إلا مقتلها . لقد جاءوا بها خصيصاً ليطعنونا من
 خلالك، وليصرعونا بعد هذا . . الشاب تلو الشاب، ولقد كانت
 البداية بك فلا بد أن تكون البداية بها . اقتلها يا بني . . اقتلها
 وتوكل .

كانت الكلمات ثابتة، هامسة، كل كلمة منها كفيلة بخرق
 القائم بين الدنيا والآخرة، وبين أي موت وأي حياة . وليس في
 المسائل نقاش، ولكن أمراً كهذا لا بد أن يناقش . وبدأ مصطفى بعد
 ما انصعق سبع مرات في كل مرة يفتح فمه، فإذا بصفحة صوتية تأتيه

- من خلفه ، من عملاق صنديد لا ترحم نظراته كان واقفاً خلفه :
- ألم أقل لك يا مولانا؟ لقد سحرته . . الشيطانة ركبتة .
- قال الشيخ بنفس همسه الباتر الذي لا ذرة هواة فيه :
- أتعرف معنى هذا يا مصطفى؟
- ما معناه يا سيدي وأميري؟
- ما دامت الشيطان قد ركبتك فقد حل دمك أنت قبل أن يحل دمها هي ، فأرادتنا من ارادته ، وأمرنا من أمره ، ومن يعصانا يعصاه ويصبح أشد عداوة لنا من كل أعدائنا .
- ولكني لم أعص .
- فلتطع اذن فالتردد عصيان قادم .
- لست متردداً .
- اقتلها اذن . تقتلها . . أليس كذلك يا مصطفى؟
- من سابع بثر في قراره جاء صوته :
- أقتلها .
- غداً إن شاء الله يا مصطفى .
- غداً إن شاء الله .
- في نفس موعد لقائكما .
- في نفس مواعده .
- على بركة الله يا بني اذهب .

وكانت الخطة أن يطيل قدر ما أمكن في عملية القتل لينشغل الجميع في الحادث ، فقد تم ترتيب أن يهرب سبعة هامون من الكبار

٦٤٠

في أثناء انشغال الكل بالقتل، وضرب عصفورين بحجر..
عصفورين!
أم سوزان وأنت يا مصطفى!



حتى السؤال الذي ظل يلح على شيخه به وكان سرّاً بينه
وبينه:

- ولماذا هي.. هي بالذات؟
- لأنها الأجل..
- ولكن الجمال..
- جمال العدو قوة له وضعف لنا.
- ولماذا أنا بالذات؟
- لأنك المطمع. نقطة قوتنا وأيضاً نقطة ضعفنا.
- ألا يمكن لأحد؟..
- لا يمكن..



النصف الثاني للفسحة يبدأ بعد الذهاب إلى الدورات، السير فيه بطيء دائري في فناء ضيق، أناس يبدون كالمجانين.. دابت ملابسهم.. وبليت أحذيتهم.. ونمت منهم اللحى شباب وشيوخ، وجماعات وملحدون، أنت يا مصطفى لن تفعل في اللحظة المناسبة أكثر من أنك ستكسر عظام حنجرة، عظام مجرد عظام، سوزان الجميلة هي السحر الذي دوخك.

إذ الحقيقة فليس هناك سوى عظمة . . مجرد عظمة هشّة هي التي أصبحت تحول بينك وبين بداية الخلد.

أدخلت كل يد من يديها في ثغرة بين عمودين . أطبقت يديها على رأسه من الخلف في تساؤل ملهوف . جذبت الرأس إلى أمام فجأة فاقشعر بدنه رعباً وبرزت جبهته من ناحيتها . مدت ومطت شفثيها ولمست بهما جبهته لتعرف ان كان محموراً، فقد كان أصفر شاحب الوجه تماماً ويرتجف . ضغطت بشفثيها بكل ما تملك من قوة فوق الجبين حتى شحبت من الضغط أيضاً شفثاها . ولم تعرف ان كانت ما أحست به حمى كانت عنده أم حمى ولّدها ضغط الشفثين . عيناه مفتوحتان إلى آخرهما وموجهتان تماماً إلى وجهه ولكن لا يراها . أوقف السمع والبصر .

بارتجافة أمسكها من كتفيها، ووسط البحر العميق قذف مرة واحدة بنفسه . . التفت كل يد حول رقبتها النحيلة وأطبقت عليها . ذهلت يداها . انتظر انتفاضة انزعاج، إشاحة احتجاج، ولكن الرقبة بقيت ساكنة وديعة بين يديه، بل مالت الرقبة إلى ناحية كي تلمس الساحرة بخدها يده كما تفعل القطة حين تطمئن إلى اليد التي تربت عليها .

غضب . . كما لم يغضب في حياته غضب . احمرت الدنيا . . أنزفها من فرط غيظه كل دم الظهيرة الحمراء، فالشراسة حين لا ترتطم بما يغذيها تفرغ، وفي فزعها تغضب، وكأنما تلاقي أعتى الأعداء . . فعدوها . . عدو الشراسة ليس الشراسة . عدوها الأكبر

أقتلها

والأوحد هو الوداعة . . كأنها كل الشجاعة، الأقوى من الشجاعة،
أعتى أعداء الشجاعة .

ولكن فوراً تموتين الآن يا ساحرة، فهذا غدر، أنت تأخذيني
على حين غرة، أنا مجهز نفسي لمذبحة فإذا بي أواجه بالوداعة . .
كل الوداعة . اقتلها يا مصطفى قبل أن تغدر بك غدراً آخر وتعود
تسحرك، بكل ما تملك من قوة في يديك اضغط واضغط ولا تتركها
إلا جثة . حنان . . أنهار من الحنان الدافق تنسال من الخد الجميل
المائل وتسري في قبضته .

أيقظ كل الوحش الكامن وخنق . . فعلاً خنق . تحت أصابعه
الغليظة رقبته تختلج اختلاجة العارفة التي أدركت .

وهذه المرة فتح عينيه ورآها . اتسعت عيناها اتساع غير
المصدقة أول الأمر، ثم المرعوبة لهنيهة بالكاد لا تصدق، ثم . . ثم
الساکتة الراغبة التي أسلمت لحبيبتها المصير . كل المصير، مرة
واحدة وإلى الأبد . كل شيء تحفل به ملامحها إلا الخوف، لمحة
خوف أو رعب أخرى لم يلمحها، حتى حين ازرق الوجه وبدأت
العينان جحوظهما وانقطع التنفس، لا عضلة رقبة تختلج بالرعب،
ولا عين تدمع ولا لمحة من ملامحها تستعطف أو تستغيث . . بل شبه
ابتسامة بالغة الوهن . ابتسامة يرعب انها ابتسامة سعادة . . سعادة من
يزاول حبيبه الحب معه ويعطيه أخيراً كل ذاته ونفسه . وجسده هو
الذي أصبح يختلج بالرعب وكأن الخائق أصبح المعنوق . نظرات يا
إلهي تطلب الموت، ترجوه تمناه بيديه وعلى يديه هو بالذات،

والدنيا نهايتها تحل، والسعادة كلها تغمر ملامحها، سعادة الحب موتاً والموت حباً تعمر كل الملامح .

وكان الحوشان قد امتلأ على الجانبين وبحر من البشر من هنا يدفع وبحر من الناحية الأخرى يجذب ليبعد .

والسعادة كلها من بشرتها التي توردت زرقه تشرق . سعادة من أخيراً نالت كل ما تتمنى لا تزال تتوهج وتنهمر . سعادة ليس سببها أنه أبقى على حياتها وإنما سعادة أن إحساسها بملمسه وهو يخنقها صنع ما لم تصنعه مثات الكتب والتعاليم، وحول القاتل الحبيب من إنسان إلى مبدأ، أصبح هو ولو للحظة خاطفة كل مبدئها . ومرحبا بالموت يأتي - ولو في الحال - حينما على يديه ومبدئه يأتي، حتى ولو لم يكن يحبها يجيء، فما عاد الحب نفسه يهملها .

ومن بين أحراشه وغاباته بدأ - شيئاً فشيئاً رغماً عنه ثم يرضاه - ينبت، ويصعد، ويكبر، ويعلو، بدا شيئاً آخر غير عقله، حكيماً جداً يحب، عجوزاً جداً يولد، ولكن له قلب أكبر من كل قلوب الكون وأقوى وأعظم، ومن مرتفعه مضى يرقب الحشدين الصاخبين اللذين يتبادلان القتل عيوناً ووعيداً والغضب الفتاك تأجج والصفافير تستغيث، ومدافع السجن قد صوبت إلى الداخل والقيامة أوشكت، بل قامت ترعب من لا في حياته ذاق الرعب مرة .

ولكن الآخر قد تربع وانتهى الأمر، وانتهت القبضة وتراخت الخنقة، ورغم الحشد الهائل فالحقيقة الحقيقة لم يعد هناك

٦٤٤

سواهما، حتى السور العظيم وبالذات عند خشبته بعد الثالثة
المكسورة كان قد أصبح الملاذ، والأيدي الأربع مضمومة في تعانق
متشبت مجنون لا ينتهي .

كان، وكان كتاب آخر يكتب كتابهما، وشاهد عليه يا إلهي!
نفس ذلك السور.

٩٢

٦٤٥

صَح

أَتْلَاهَا

كان واضحاً أن الصبي لا يمت إلى جاردن سيتي أبداً .
 فصبي حاف مثله، جلبابه قديم متآكل، ورأسه محلق
 بالماكينة ومضلع وفيه نتوءات كحبة البطاطس، ووجهه رمادي أصفر،
 وفيه «قوب» . . صبي مثل هذا لا يمكن أن يمت أبداً إلى
 جاردن سيتي حي القصور والفيلات والسفارات .

أما كيف وصل إلى شوارع جاردن سيتي فيبدو أنه أفاق فوجد
 نفسه هنا، أو أنه ضل الطريق، والغريب أنه لم يكن حزيناً ولا مبتسماً
 أو خائفاً . . كان في الحقيقة يبدو منتعشاً طروباً .

كانت الدنيا في ساعاتها الأولى، والشمس تلون الأرض
 وحسب ولا تلهبها، والبنائات غارقة في صمت أرستقراطي مهيب،
 وكل ما يسمع من أصوات إنما كان يأتي من العصافير والبوابين
 الضخام السود الطيبين الجالسين على الأرائك يحرسون القصور،
 ويرتدون الجلابيب البيضاء الواسعة والعمامات المضحكة الكبيرة .

كل ما في الجو كان يوحي بالبشر ويبعث على النشاط والولد

يمضي على غير هدى في الشوارع المشمسة الواسعة، وينظر في شغف إلى البنايات والأشجار والنحاس الكثير اللامع، ويصفر، ويدندن أحياناً ويتوقف، ثم يستأنف المشي بطريقة المقص فيمد كل من قدميه مكان الأخرى، ويسير أحياناً بعرض الشارع، وأحياناً يرفع قدمه ويمسكها بيده من الخلف ويحجل على قدم واحدة، ولسانه يلوك فمه من الداخل فيصنع ضوضاء مكتومة كنفق الضفادع، ويجري إلى الأمام وإلى الخلف، ويحتل وجهه كله تعبير خالي البال المستمتع بكل ما يراه ويفعله، بلا شيء وراءه يفسد المتعة. . لا عمل ولا أب ولا أسطى. .

وتعثر فجأة في شيء ووجعته قدمه، وانحنى فوجد أن ما تعثر فيه كان قطعة حجر بيضاء فرماها بغيظ على الأرض، ولم يكتف بهذا بل دفعها بقدمه، وطار الحجر إلى الأمام مسافة ثم توقف. . وحين وصل إليه ضربه بقدمه ضربة قوية أخرى فطار الحجر واعتلى الرصيف. وحين وصل إلى مكان الحجر انحنى والتقطه وحق فيه ملياً ليتأكد أنه ليس شيئاً ذا قيمة، واستأنف المشي وهو يقذفه إلى أعلى ويلتقطه. وبعد قليل غير الحركة فأمسك الحجر في قبضته ومد سبابته لتلامس الحائط الذي كان يمشي بجواره وظل هكذا فترة. ويبدو أن أصبعه آلمته فقد استبدلها بالحجر. وتلفت مرة فوجد أن الحجر يصنع باحتكاكه مع الحائط خطاً أبيض. . وأعجبته اللعبة فاستأنف المشي وهو يمر بالحجر على الحائط فيرسم خطاً أبيض يبدو واضحاً فوق الجدران الأنيقة الملونة. ورسم خطاً على طول

سراية آل سليمان، ثم مده إلى أن وصل عمارة الفكهاني، ثم فيلا سمعان، وعبر الشارع واستأنف حك الحجر بسور حديقة السفارة الأمريكية.

وكانما أعجبه سور السفارة حين وجده طويلاً لا ينتهي فمضى يجري فيجري الخط بجواره، ويتوقف فيتوقف، ويحرك يده إلى أعلى وأسفل فيتموج الخط ويتعرج، ويسرع ويبطئ، فتتسع التعرجات وتضيق.

وقبل أن ينتهي السور كان قد انتهى شغفه بالخط فتوقف، وحرك يده بسرعة وعصبية فوق الحائط فرسم الحجر خطاً عصبياً متداخلاً فيه نزق وغضب، ورفع يده عن السور ولحق فمه من الداخل فصدر عنه نقيق الضفادع، وهز رأسه هزات كمن يراود نفسه، وهز جسده أيضاً، ثم التصق بالحائط واختار بقعة ليس فيها خدوش، وتخير حافة بعينها من الحجر وأمسكه بحرص في يده، ثم انكب على الحائط وراح يعمل. وحين انتهى كان قد كتب كلمة: «محمد». وحلق فيها، وتراجع إلى الوراء ولحق فمه وتأملها. كانت حروفها عجفاء ركيكة. وعقد يديه خلف رقبته وثنى جسده وركز انتباهه على «ميم» محمد. وكانما أعجبه رأسها المستلقية إلى الوراء في عظمة، فقد عاد إلى الحائط بسرعة واندفاع وكتب «ميماً» أخرى، وضم شففيه ونفخ أشداقه ونظر إليها، ويبدو أنها لم تعجبه فانكب على الحائط من جديد وكتب «ميماً» ثانية جاءت أسفل الأولى بقليل وقريبة منها حتى أنها اشتبكت مع ذيلها. وتراجع إلى الوراء ونظر إليها. وكانما هي

أقتلها

أيضاً لم تعجبه فقد رمى الحجر من يده واستأنف المشي وهو يمتد شفثيه ويلوي بوزه.

وفجأة استدار إلى الخلف بسرعة ونظر إلى اليمين من بعيد، ثم أقبل عليهما بلهفة وبحث عن الحجر بعينه حتى وجده، ومن جديد انكب على السور ورسم خطأ رأسياً بجوار اليمين، والتصق بالسور أكثر، وظل مدة طويلة يعمل وعرقه يسيل ويده الصغيرة العصبية قد تشنجت أصابعها كالكماشة على الحجر، ولما انتهى كان قد كتب: «أمنا الشعب القنال».

وترجع إلى الورا وراح ينظر إلى ما صنعه وهو يلث منفعلأ. وكأنما لم تعجبه الجملة فقد هز رأسه بشدة، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل وهو يغمض عيناً ويفتح الأخرى. ولما انتهى كان قد كتب نفس الجملة مرة أخرى. ودون أن يتراجع إلى الورا كثيراً حلق في الخط برهة قصيرة، ويبدو أنه لم يعجبه أيضاً، ووجد اللام طويلة وشرطة النون غير واضحة والقاف مغلقة والحروف كلها مائلة كالنخل حين تعث به الرياح، يبدو هذا لأنه راح ينفخ في يده الممسكة بالحجر لينفض عنها ذرات الغبار، ثم تخير حافة من حواف الحجر لم يستعملها، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل ويعرق ويغمض عيناً ويفتح الأخرى.

وحين انتهى فبرك يده بشدة كمن أتعبته الكتابة. وترجع إلى الورا ونظر إلى الجملة الأخيرة ملياً، ثم علت وجهه ابتسامة رضاء فعض شفثه السفلى وأخرج من فمه نقيماً ثم عاد إلى الحائط ورسم

علامة «صح» أسفل الجملة الثالثة، وجعل للعلامة ذيلاً مرححاً طويلاً علامة الرضاء الكامل.

وظل برهة يحدق في الجملة كأنما ليتأكد أنها محفورة على حائط السور بطريقة ليس من السهل محوها، وأنها ستظل هكذا فترة طويلة، وسيعرف كل من يقرأها - بطريقة ما - أنه كاتبها. ظل برهة يحدق في الجملة ثم ارتعش نصفه الأعلى كله، وأخرج من حلقه صوتاً كصوت «العرسة»، ورفع قدمه اليسرى وأمسكها بيده من الخلف وانطلق يحجل بقدم واحدة ويمضي في الشارع المشمس الواسع.

٦٥٣

البطل

أقْتَلَهَا

في ذلك اليوم . . مضت ساعات الصباح الأولى دون أن يجد
جديد، فالمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، والأوراق تملأ
الأركان والأدراج وتطل من الدواليب، وفناجين القهوة رائحة غادية،
والسجائر تستخرج خلصة حتى لا يعزم أحد على أحد. وخمسة
موظفين في حجرة، والوجوه كالعادة مقطبة . . مقطبة وهي تنصفح
الجرائد وتغلقها، ومقطبة وهي تحديق في السقف، وعابسة وهي
تطلب الشاي وتلعن طعمه، ومغمومة وهي تنحني على الأوراق
وتعبث بها، وتقضي العمر تدقق وتؤجل وتكتب.

لم يجد جديد في ذلك الصباح مع أن الحرب قامت والطائرات
بدأت تغير، وكل شيء . . كل إنسان يخوض تجربة الحياة والموت،
والعالم لا ينام، صاحياً يرقب الشرق وهو يدمدم ويتحرر، والمكتب
هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، وصبحي جاد هو الذي على
يميني، والغازي أبو بكر على يساري.

غير أنه قبل الظهر بقليل، جاءني الساعي وقال:
- تليفون.

وتليفون من أجلي كان يعني شيئاً من اثنين: إما عبد الخالق فاضي في مكتبه في وزارة الشؤون ويريد أن يصبح عليّ، أو كارثة حدثت في بيتنا ورأت العائلة أن تتصل بي على عجل، وفي كل مرة يطلبني التلفون أقول كارثة وفي كل مرة أجد المتحدث هو عبد الخالق.

وهذه المرة أيضاً قلت:

- عبد الخالق؟ صباح الخير.

وإذا بصوت غريب يقول:

- لا.. أنا أحمد.

- أحمد مين؟

قلتها وأنا أخمن من عساه يكون، فالأحمدات الذي أعرفهم لا يتجاوزون ثلاثة، وإذا به يقول:

- أنا أحمد عمر.

ولم يكن هذا الأحمد من بين الثلاثة، فرن اسمه في أذني رنين الاسم الغريب الذي لم تتعود على سماعه، وخجلت أن أستقصي أكثر، فلا بد أنه يعرفني ويتوقع مني أني لا بد أعرفه. ورحت أسأله كما يحدث في أمثال هذه الأحوال عن الصحة والمزاج والعائلة، حتى أظفر من ردوده بخيط يقودني إلى معرفته دون أن أخرج له أو أخرج نفسي.

ورغم أن مضى يجاوبني بنفس الكلمات التي تعود الناس قولها رداً على أسئلة كأستلتي، إلا أني دهشت فصوته كان مملوءاً بالانفعال

يكاد يلهث، وكان يستعجل السؤال والاجابة كأنما هناك شيء يؤرقه ويود الإفضاء به إليّ، وسمعت منه كلمات عن «مصر الجديدة» و«كتبتنا» و«المعسكر» ولكنني لم أفهم. وسألني مرة إن كنت حقاً أذكره، ومع ذلك لم أعرفه إلا حين سألني عن أخي محمد وصحته، إذ أيقنت أنه لا بد أحمد عمر، ابن جارنا عم عمر. . أحمد صديق أخي الأصغر الحميم.

واندفعت أرحب به وأحييه وقد بدت صورته أمامي واضحة كل الوضوح، فرغم أن عم عمر كهل نحيف إلا أن ابنه أحمد هذا شاب ضخيم، وإذا عرف الإنسان أن سنه عشرون عاماً فقط بدا له ضخماً جداً، فجسده عريض شامق وذقنه خصب غزير شعره أسود متين كذقون الرجال الكبار. ومع هذا فقد كان من ذلك النصف من الشبان الذين يخجلون من مواجهة محدثهم، فلا ينظرون في وجهه أبداً، وتجده إذا تكلم يتعثر في كلماته فلا تخرج من فمه جملة كاملة، وأحياناً يقول الكلمة ويظنها نكتة وينفجر ضاحكاً، وحين يدرك أن أحداً لا يشاركه الضحك يصطبغ وجهه بلون الدم، ورغم كل شيء فالناس لا بد أن تقول بعدما يذهب:

- والله باين عليه ابن حلال. . طيب.

وكان صلتني به محدودة، وكل ما أعرفه عنه أنه كان في مدرسة التجارة المتوسطة، أو الصنایع لست أدري، وأخذ الدبلوم أو لم يأخذه، ثم دخل الجيش حسب قانون التجنيد الإجباري.

وأغرب شيء أنك تحس دائماً أنه. ملآن ولديه آلاف الأشياء

التي يود قولها، غير أنه نادراً ما يفصح عن نفسه . وإذا تكلم فلا يقول شيئاً من عنده إنما يعبث بكلمات غيره، فتقول له مثلاً: ازيك أنت؟ فيرد عليك ويقول: الزاكته . ويضحك ويخجل ويحمر وجهه . كان لا يخاطبني إلا «بحضرتك» على اعتبار أنني الأخ الأكبر لصديقه، وأحياناً كانت تفلت من لسانه كلمة تستحق التأمل، وإذا تأملها الإنسان أدرك أنه ليس بسيطاً كما يبدو، وأن له أعماقاً.

وكان إذا جاء لزيارتنا وفتح له الباب، خفض رأسه وسأل عن أخي . فإذا كان موجوداً دلف إلى حيث يكون مطرق الرأس لا يرفع بصره ولا يتلفت . وكنت أحياناً ألقاه فأحادثه وأحس به شهماً خدوماً . . لو قلت له: ارم نفسك في البحر مثلاً، لذهب ورمى نفسه في البحر فعلاً، ثم عاد إليك في ثاني يوم مبتل الملابس يقطر الماء من شعره، ويقطر الخجل من وجهه ويتهته ويقول:

- أما المية كانت ساقعة بشكل .

يقولها قاصداً بها أن يلومك ويؤنبك، وهذا كل ما في استطاعة أحمد أن يؤنب به أحداً . .

ولم تكن أصدقاء بالمعنى المفهوم، كنت أراه كل ستة أشهر أو كل سنة، وكنت لا أراه على حالة واحدة أبداً، ففي كل مرة لا بد أن يكون قد حدث له أو حدث فيه تغيير، فهو في لقاء طالب . . وفي لقاء آخر متخرج . . وفي ثالث ساخط يبحث عن عمل . . ومرة أراه صغيراً لم تنبت له لحية، وأفاجأ به في المرة التالية وقد فرعني

طولاً . جاء مرة لزيارتنا بملابس الجيش وفوجئنا به حقاً، وأذكر أننا يومها سلخناه عبثاً وتريقة، نقول له يا دفعة . ونضحك على شعره القصير الذي قصه كما تقضي التعليمات، ونسأله لم ربي شاربته هكذا فيقول:

- ح اعمل ايه؟ . ما دام مفيش تعليمات تحدد طول الشنب أربيه كده اياك يعوض عن شعري .

ويمضي يحدثنا بطريقته المتلعثمة ويسخر من نفسه ومن زملائه ومن «اليمك» والطواير المبكرة والبروجي والنظافة، والشاويش الذي يدرهم ولسانه الذي لا يكاد يرى متعلماً من أمثال أحمد حتى ينهال عليه، والتكدير والتزويغ، وتصاريح الأربع والعشرين ساعة، وكيف «يلف» الضابط حتى يأخذها، ويضحك . . بجسده الضخم كله ومن قلبه، ثم يكف عن سخريته وضحكه فجأة ويتنحج ليشعرنا أنه ينوي قول شيء جاد . يتنحج ويقول:

- إنما صحتي كويسة!

وأذكر أنه في زيارة أخرى قال لي انه أخذ النمرة النهائية في التنشين . وسألته وأنا أسخر من العبقرية التي هبطت عليه فجأة عن السر في نبوغه، فمضى يشرح لي نظريته، فقد وجد أنهم يعلمون النيشان في الجيش على علامات ثابتة ثم يمتحنونهم على علامات متحركة، ولهذا فمن أول لحظة كان ينشئ على العلامة الثابتة كأنها ستتحرك فجأة، وبهذه الطريقة كان يضرب بسرعة ويصيب، وبلغ به

الحماس مداه، وبلغت بي السخرية مداها وهو يؤكد لي أن الطريقة التي يعلمون بها الجيش غير مجدية، وأن أهم شيء في الدنيا هو أن يتعود الإنسان أن ينشئ على هدف متحرك.

هذا كله أمر معقول..

أما غير المعقول فهو ما حدث، فلماذا يكلمني أحمد في التليفون؟

صحيح أنني فوجئت به، ولكني أقول الحق فرحت وأحسست أنني افتقدته طويلاً، فهناك أناس يفتقدهم المرء.. يفتقد القيم.. فالشرف في ذهن الواحد منا مرتبط بإنسان، والاخلاص بإنسان آخر. والحنان والمحبة بثالث. وأحمد عمر هذا كان يرتبط في ذهني -ولست أدري لماذا- بشيء يمس من قريب أو بعيد روح شعبنا.. الشعب الضخم الخجول الذي لا يسعده شيء مثلاً يسعده أن يسخر من نفسه وأخطائه.

ولم أسأله لماذا هو في مصر الجديدة، فقد خمنت أن كتيبته لا بد معسكرة هناك تحمي شمال القاهرة، إذ كان الجيش يستعد للدفاع عن العاصمة. أما الشيء الذي حيرني فعلاً فقد كان لهجته اللهجة المتدفقة المملوءة بالانفعال، وصوته المحشو بضحكات موفورة الصحة لا كحة فيها ولا بلغم.

وعجبت.

وسألته كيف يكلمني، وهل عندهم في المعسكر تليفون؟

وأجابني :

- احنا معسكرين قريب من هنا . . وجنبي بقال . . ياه . . داحنا شفنا العجب . . دي حرب بجد والله العظيم . . والطيارات والمدافع تك تم . . تك تم . . تصور حضرتك ما غيرتش الشراب بقالي ست أيام لما بقى شربات . . سامع الطيارات؟

وكنت حقيقة أسمع ضجة خافتة بعيدة، وكنت أعرف أن طائرات العدو تركز ضرباتها على تلك المنطقة «مصر الجديدة» ليل نهار . .

وانتابني شيء يشبه الخزي وأنا أدرك أن أحمد في الميدان وأنا في المكتب، وسلك طويل يفصل بين القتال الرهيب الدائر هناك والمصلحة التي أنا فيها وروتينها ودرجاتها وعلاواتها . .

واندفعت أبته كل حماسي وسخطي وأشجعه .

وقلت له وأنا أدرك أنه لا بد يريد مني خدمة :

- كلنا معاك . عايز حاجة؟ أي خدمة؟ قول . محمد يبسلم عليك .

ولدهشتي أجابني :

- مش عايز حاجة أبداً، سلم لي عليه كثير . على فكرة أنا معايا مدفع اهه، أضرب لك طلقة؟

ولعلمي أنه خجول ومن الصعب عليه أن يطلب مني شيئاً إن كان يريد، عدت ألح وأسأله عما يريد، وإذا به ينفي بشدة أنه في حاجة إلى شيء، وسأله إن كان يريد من عائلته ملابس فقال :

أقتلها

٦٦٢

سلم لي عليهم .

- بس؟

- بس .

- مش عايز فلوس ، هدوم ، أي حاجة؟

- أبداً أبداً .

وازداد عجبي . ومضى يقول :

- اسكت! مش امبارح الله يخرب بيوتهم ضربوا المعسكر

بتاعنا .

وكان يقولها ببساطة دفعته لأن أسأله بنفس البساطة :

وعملت ايه؟ مت؟

وضح التليفون بضحكته وقال :

- أبداً . . خمناهم . قبل ما يضربوا المعسكر سيبناه . . وعلى

فكرة حصلت حاجة هائلة دلوقت .

وإذا كان لبعض الناس كلمات مختارة ، فـ «هايلة» كانت كلمة

أحمد عمر المفضلة ، كل شيء يحكي عنه لا بد أنه هائل . . وعدت

ألح وأستدرجه وأنا متأكد أنه لا بد قد طلبني لأنه يريد شيئاً ، ولكنه

قهقه وقال :

- أبداً . . عاوز حضرتك كويس . . كويسة دي؟ بس على فكرة

حصلت حاجة هائلة خالص .

- ايه . . حصل ايه؟

فقال :

- مش وقعت طيارة؟

فقلت :

- ايه طيارة ورق؟

فقال :

- لأ . . بجد . . طيارة فرنساوي . . كانت فايته قدامنا، قلت للقائد: أضرب يا فندم؟ ورحت ضارب قام جناحها انكسر ومالت ووطت، فالقائد زعق وقال لي خلص عليها يا أحمد . . خلص عليها . . خلصت عليها، وتصور . . تصور وقعت.

واستمر يضحك ويقول :

- سلم لي على محمد. لما يبجي قول له ان أحمد وقع طيارة . . أنا عارف هو مش ح يصدق زي عوايده. إنما والله العظيم وقعتها أه . . محروقة في الرملة هناك. أضرب لك طلقة؟

وأخذت أضحك أنا الآخر. فأيامها كانت مودة أن يقول كل واحد أنه أسقط طائرة، فما بالك وأحمد يخبرني بنفس اللهجة التي كان يعلق بها أحياناً على أشكال بنات الجيران، يخبرني أنه أسقط طائرة.

وحتى وأنا أرى صورته في الجرائد في اليوم التالي أكذب نظري وأعود أتمعن في صورته، وأسمع صبحي جاد وهو يحدق في الصفحة ويقول.

- أما ولدا دا شارب من لبن أمه صحيح! ده باين عليه زي

أقتلها

الوحش يهد الدنيا. شوف بيص ازاي؟ الواحد سنه ٣٥ سنة وما يعرفش يوقع ناموسة، وده يوقع طيارة بحالها! ويوقعها لوحده! حتى وأنا أسمع هذا كله وأراه، كنت أتأمل أحمد الذي في خيالي ولا أكاد أصدق.

لحظة أن كنت أكلمه كان كل همي أن أعرف الخدمة التي يريدونها لأستطيع القيام بها، وأحس أنني بهذا أساهم بنصيب ما في المعركة، فقلت:

- آمال..

وترددت فقد خجلت، ولكنني استطردت:

- آمال بتكلمني ليه؟

وما كادت الجملة تغادر فمي حتى أدركت أنني قلت شيئاً سخيفاً.

وأسرعت أتكلم وأمسح أثرها من الحديث كما يمسح الإنسان كلمة كتبها خطأ، أسرعت أقول:

- قول يا أحمد.. عايز ايه؟ صحيح عايز ايه؟ أنا أخوك مفيش داعي للكسوف. قول لي عايز ايه؟

وسمعت صمتاً في التليفون، وأدركت مدى الخجل الذي كان يعتريه. وطرقت أذني كلمة: أصل.. وأعقبها صمت قصير، أدركت أن أحمد لا بد بعض شفته السفلى خجلاً فتلك كانت عادته، وخنمت أنه سينطلق بعدها كالدفء ويتكلم، فكما كان خجله يجعله

يتعثر في أول الحديث فكذلك كان يجعله ينطلق بسرعة في آخره،
قال :

- أنت عارف . . ادوني ساعة إجازة بعد الحكاية دي . وأنا
معرفشي نمرة إلا نمرة حضرتك، قلت أكلّم حضرتك . دي حاجة
هايلة قوي . . مش كده؟ تصورا طيارة تقع . . أنا أوقعها . . أنا
أوقعها . . أنا مش مصدق . بيتها لي انها وقعت من نفسها، واللا
يمكن حد ثاني وقعها . . سلم لي على محمد كثير .

ثم تلجلج كمن لا يعرف كيف ينهي الحديث . وسمعت
نحنحة خفيفة فعرفت حينئذ أنه ينوي أن يدخل في الجد . . وجاءني
صوته :

- إنما صحتي كويسة . أنا متشكر قوي قوي قوي .
وكانت آخر مراحل خجله أن يضحك، وكأنه لا يطمئن إلى
الغلافين السابقين فيلف كلامه بغلاف ضاحك ثالث .
وحين وضعت السماعة كنت لا أزال غير مصدق أن أحمد
طلبني فقط من أجل أن يخبرني بهذا «الشيء الهائل» . وكانت
السماعة لا تزال تضحك . . ضحكة دسمة موفورة الصحة .

٦٦٩

قاع المدينة

هي . . هي لعبة

الردح كالزغاريد فن مصري أصيل، وكما أن الزغاريد لا تجيدها كل النساء فكذلك الردح هناك متخصصات فيه يحفظن عدداً لا نهاية له من الشتائم والأوصاف، بعضها عادي وبعضها فيه تشبيهات واستعارات وكنائيات، وبعضها أدب خالص. ولا يكفي الحفظ بل لا بد أن يكون في استطاعة الواحدة منهن ان تلضم الكلمة في الكلمة بلا تردد أو توقف، وتصنع من الشتائم سيالا متدفقا لا ينقطع، فاذا انقطع وقع المحال. ولا بد للشتمة المستعملة من وقع وموسيقى، ولا بد أن يكون للصوت المستعمل مقام معين يرتفع في الأماكن المهمة الى «السوبرانو»، وينخفض عند بعض الكلمات الماسة الى «الألتو». فمع أن المسألة شتيمة في شتيمة الا أن هناك على كل حال شتائم لا تبصح، ونحن شعب مؤدب وخجول بطبعه. ثم لا بد للرداحة من موهبة فطرية تستطيع بها أن تخرج أرفع الأصوات وأعلاها بأقل مجهود، حتى لا تستنفد طاقتها وحتى تستطيع الصمود. فالردح مسابقة والفائزة هي من يعلو صوتها ويظل عاليا الى النهاية.

والفنون كالغذاء لا بد من مزاولتها على الدوام . . وكان طبيعيا

اذن ألا ينقطع الردح عن الحارة ليلاً أو نهاراً، ولا يعرف عطلة أو راحة.

وفي ذلك اليوم وشعبان عائد من عمله بعد الظهر بقليل، والدنيا تسبح في أشباه السكون. . في ذلك اليوم ما كاد يضع قدمه في أول الحارة حتى دق قلبه، فقد سمع ردحا عالي الوطيس يواتيه من آخرها. دق قلبه لأنه خاف أن تكون الخناقة مع امرأته. . وامراته غلبانة من الأرياف، وإذا كانت الخناقة معها فعرضه على الله فهي مبتدئة لا تستطيع أن تجاري بطلات المدينة. صحيح انها بدأت في الآونة الأخيرة تتعلم، ولكنها لا تزال (تطبخ) كما يفعل الرجال حين يتعلمون السباحة على كبر. كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تقف في النافذة وتوارب الشيش وتحاول الرد على غريمتها. وتخرج ردودها بعد جهد فهي ريفية خجول لا تستطيع أن تحشوفمها بكلمة فارغة مثلما تحشونساء المدينة أفواههن، ولذلك فمهما قالت فكللماتها تتساقط كأوراق الخريف أمام التيار اللافح الذي يهب عليها من فم غريمتها.

وصدق ظن شعبان فالخناقة فعلا كانت مع امرأته، وكانت واقفة لا حول لها ولا قوة كما توقع وامرأة ابراهيم أفندي قد وقفت في بلكونتهم وصوتها يجيب التائهين. والناس تتفرج بكل قحة، وهي لا تترك شاردة ولا واردة الا قالتها.

وقف الرجل يسمع عله يعثر على سبب للخناقة أو يرى الى أي حد وصل النزاع، ولكنه ما كاد يتوقف حتى فار الدم في رأسه،

كانت المسألة قد وصلت له هو شخصيا وأنت على رجولته ثم تعدته الى أبيه وأمه وذقون أجداده أجمعين .

ودق الباب كثيراً قبل أن تفتح فهيمة امرأته . وامراته سمعها ثقيل وبابهم أصم ولهذا طال دقه . ثم انفتح الباب وما أن رأتة فهيمة حتى شهقت وبكت وأمطرت في الحال دمعا! وكاد يرفع يده ويرنها قلما وهو حائق على خيبتها وقلة محصولها من طول اللسان، ولكنه تردد، فلا بد للخناقة من سبب ولا بد أن يعرف السبب .

وزعق زعيقا هائلا يسأل عن السبب . واعتدلت امرأته واختفت دموعها فجأة كما بدأت وقالت :

- ابنك انقتل!

واشارت الى الكنية . وسقط قلب شعبان بين قدميه وكاد هو نفسه يسقط على الأرض مغشيا عليه لولا أنه حدق في الكنية . . كان ابنه جالسا القرفصاء فوقها ورأسه معصوبا بمنديل، وعلى المنديل بقعة دم كبيرة، وفي وجهه خرايش، وفي عينيه نظرة فأر وقع في المصيدة . . ولم يكن مقتولا على اية حال .

وما كاد الولد يرى أباه ينظر ناحيته حتى تولاه رعب هائل وبكى بصوت عال وقال :

- أنا مالي؟ . . هه . . هو اللي ضربني الأول . . هه . .

وملأ شعبان صدره بالهواء بقوة محاولا كتم غيظه، ولولم

يخرج الهواء ويتنهد لانفجر. القضية كانت قد بدأت تتجسد أمام عيني، فلا بد أن واحدا من أولاد ابراهيم أفندي هو الذي ضربه و ابراهيم أفندي له ثمانية أولاد، لا بد أن الضارب هو الولد الرفيع مثل عود القصب الذي يجري طول النهار بينطلون أصفر قصير وسيقان جافة. . وهو لن يستحمل منه خبطة ولا لكمة. ولكن هل يمد يده على طفل؟ ثم كيف لم يغلبه ابنه الخائب مثل أمه؟ ابنه صحيح أصغر منه في السن وأدق منه في العود، ولكن كيف يغلب أي ابن في الدنيا ابنه؟ وكيف يجرحه ويبطحه؟

وتقدم شعبان. كان لا بد من رؤية الجرح قبل كل شيء، وما أن رآه الولد يقترب حتى انكمش إلى طرف الكنبه ولم يوقفه عن انكماشه إلا انتهائها، وغمغم شعبان وهو يسبه ويلعن أباه ويهدىء من روعه ويطمئنه الى أنه فقط يود رؤية الاصابة. وامثل الولد بعد تهديد وظل يرتعش وأبوه يفك المنديل، وصرخ وهو يجذبه. ولم تكن الاصابة قاتلة أو ربع قاتلة. . كاتنت جرحا صغيرا نصفه في الجبهة ونصفه في الشعر، والدم الذي حوله كثير والبن أكثر. . بن يكفي لصنع ثلاث كنكات من القهوة وتبقى منه بعدها تلقية.

ومع أن شعبان أحس بالجرح يمتد من جبهة ابنه الى قلبه، الا أن وجهه لم يتغير وغيظه كان لا يزال كما هو. وأعاد رباط الجرح وزغر لابنه، وقال وهو يجلد به بلامحه:

- وما ضربتوش ليه يا. . ؟

وبكى الواد وهو يقسم بالقرآن الشريف أنه أشبعه ضربا ولكما
وعضا، ولكنه خانه وضربه بزلطة فجرحه .

وبدأت العاصفة . . فهيمة تريد ابلاغ البوليس وعمل محضر
وقتل ابن ابراهيم أفندي ، وان لم يفعل فستأخذ هدمها وعليه أن
يوصلها الى باب الحديد لتركب القطار وتعود الى البلد حيث للولد
اخوان يستطيعون حمايته والانتقام له . وشعبان ساخط على ابنه
المغلوب يهدده بعلاقة نصفها الموت حالما يطيب، علة تصنع منه
رجلا يعرف كيف يذود عن نفسه ويجرح بدلا من أن يأتيه مجروحا .
ولا يترك لابنه فرصة للنجاة من العلة الا بأن يذهب في الحال
ويجرح ابن ابراهيم أفندي جرحا يمتد من أنفه الى قفاه .

وتمضي ساعة .

وتهدأ العاصفة ، ويستعيد الزوج من الشيطان ومن ساعة
الغضب ، ويجد أن الناس للناس والطيب أحسن ، وأنه لا بد أن
يشتكي الولد لأبيه وهو يعرف ابراهيم أفندي رجل جد لن يرضيه ما
فعله ابنه ، فاذا أدبه كان بها والا فهناك ألف طريقة لتأديبه . وترفض
الزوجة هذا الحل بدعوى أنها جرحت هي الأخرى . . جرحتها طويلة
اللسان زوجة (سي) ابراهيم وفضحتها ، ولا بد من سن بسن وعين
بعين والبادي أظلم . ويطمئنهما الزوج ويعددها بأن حقها سيأتيها به
كاملا غير منقوص ، وأن مقامها محفوظ وظفرها عنده بمليون واحدة
كامرة ابراهيم أفندي .

ويظل جو البيت مشحونا ، وشعبان يخلع بنطلون الشغل

وقمصه ويرتدي الجلباب ويريح يديه من نوبة السواعة التي بدأت في الخامسة وانتهت حين تصلب ظهره وتورمت كفاه وزغللت عيناه. ويسأل عما طبخته الزوجة وهيبته ولا يجدها طبخت ولا هببت، ويلعن العيشة التي لا راحة فيها أبداً. . الشغل أومنيبوس والبيت عربية كارو، وفي كل عودة لا بد أن يجد مصيبة، وكم مصيبة يتحملها العمر؟ والواحد له عمر واحد.

بعد قليل كان شعبان يمسك ابنه المرتجف المرتعش من يده ويدق باب ابراهيم أفندي.

دق مرة فسكتت الأصوات التي كان يسمعها في الداخل. وعاد يدق فماتت الأصوات، وانطلق حينئذ يدق بلا توقف.

وفتح الباب أخيراً، فتح فجأة. . وفجأة أيضاً وجد الأسطى شعبان نفسه أمام صالة وفي نهايتها كومة بشرية هائلة. كان الوقت وقت غداء. . والعائلة كلها جالسة تتناولوه، والمائدة صغيرة ضيقة لا تتسع لهذا العدد الهائل من أفراد العائلة.

كانت هناك الست شفاعات الزوجة، تخينة ومحنية على المائدة ككيس القطن المثني، وكانت هناك الحاجة تبارك والددة ابراهيم أفندي عجوز جدا وناحلة وشعرها مصبوغ بالحناء ولونه أصفر وأحمر وأبيض. ثم كان هناك ثمانية أطفال بدوا من كثرتهم وتجمعهم اثني عشر أويزidon، وكلهم باسم الله ما شاء الله وبلا ضغينة أو حسد أولاد ابراهيم أفندي، وفي الركن وفي مساحة لا تتعدى ورقة البوستة كان

يجلس رجل رفيع رفيع، لونه أصفر باهت ووجناته بارزة كالشرفات، كان هو بلا ريب ابراهيم أفندي عميد العائلة والمسئول عن انتاج هذا العدد الضخم من الكائنات الحية، والمسئول كذلك عن بقائها. وكان الجميع في معركة لا رحمة فيها ولا هوادة، فالطعام قليل والمائدة ضيقة والرغيف مهما كبر لا يحتوي الا على عدد محدود من اللقم، والصراع دائر من أجل البقاء، أو نتش حنة، أو الاعتداء على لقمة أو الحصول على غموس. . . صراع رهيب شمل العائلة كلها وشمل كذلك قططها. فالعائلة - من العز - تحيا معها أربع قطط لها جيش من الأولاد، والقطط وأولادها لا بد أن تأكل، ولا بد لها من خوض صراع أمر وأدهي لتجد فرجة بين ساقين أو ثوبا بين جسدين، لينالها من الوجبة على الأقل لحسة أو عظمة.

وكل شيء يدور في صمت شامل، ولا تسمع الا أصوات الملاعق واحتكاكات الأسنان بالأسنان وجمعجة المضغ واللكنات التي يصوبها الأخ الى أخيه والجار الى الجار القطعة.

وما كاد الباب يفتح ويبدو الأسطى شعبان واقفا على عتبة حتى حدث هرج ومرج كثير، وقام ابراهيم أفندي يعزم، وتضايقت الست شفاعات من هذا القادم في وقت الغداء. وأحس الأسطى شعبان بالخجل وتبذلت عبارات مجاملة كثيرة، وحلفت عشرات الأيمانات والأقسام وتزحزحت مقاعد، وماء ولد وصرخت قطعة.

وأخيرا جلس الأسطى على الكنبه وهدأت الأصوات، ثم التأم شمل الكومة البشرية مرة أخرى وعاد السكون الذي لا تقطعه

سوى أصوات الأشداق والأسنان وهي تمضغ اللقم وتمزقها. مضافا إليها أصوات ترحيبات كان يرددها ابراهيم أفندي وفمه ممتلىء بالخبر وعقله ممتلىء بالتخمينات.

وكان واضحاً أن عاصفة ستهب بعد قليل.. وانتهز كل فرصة الهدوء الذي يسبقها وراح يعبئ نفسه ويستعد.

الأسطى شعبان جالس مكسوف يرتب ما سوف يقوله ويتتقيه، ويجرب بينه وبين نفسه كيف يقوله. وابراهيم أفندي يدرك أن ولداً من أولاده لا بد هو الجاني وهو السبب في الدم الذي جف على منديل ابن شعبان، ولا بد أن امرأته كالعادة تولت علاج الأمر بطريقتها الفاسدة، وأخفت عنه الحكاية ككل مرة وتركته ليوافقه المصيبة وحده. ومع هذا كان عليه أن يدفع أول الأمر ببراءة أولاده أجمعين ويتحدث عن طيبتهم، ويأتي بالبراهين على أنهم أولاد حلال مسالمين. فإن أفلتت البراءة كان عليه أن يتصيد الحجج ويقيم المعاذير ويعد آخر الأمر بالعقاب الباتر.

والست شفاعات نسيت تماماً انها لم تترك أباً لهذا الرجل الجالس أمامها الا ولعنته وطوقته بأبشع التهم منذ وقت قليل، واندفعت ترحب به وفي نفس الوقت تعد ما سوف تقوله دفاعاً عن ابنها، ثم ما سوف تقوله دفاعاً عن نفسها أمام زوجها إن هو سألها كيف أخفت عنه ما حدث. ولم تنس بطبيعة الحال أن تحسب حساب الضرورة القصوى وتعد نفسها لخناقة، وتعد لشعبان سرباً طيباً من الشنائم يليق بوداعه.. والأولاد قلوبهم كانت تدق فالجاني لا بد

منهم، وكل منهم فرح أنه ليس الجاني وأنه سيشهد لتوهِ محاكمة رائعة يلذ له حضورها كشاهد رؤية فقط وليس كمتهم .

غير أن أمل الأولاد خاب، فبعد قليل جلجل صوت أبيهم يأمرهم بالانسحاب . . ويأمر زوجته بإزالة بقايا الطعام .

وجلجلة صوت أبيهم وإن كانت لا تحدث الا نادراً ولا تحدث الا في حضرة أغراب، الا انها أحياناً تخيف ويحسن طاعتها . ورفعت بقايا الطعام، ولم يكن قد تبقى سوى الصحون والملاعق فقط، وللإنصاف ولم تستطع أصابع الأطفال ولا حتى أظافر القطط أن تصل إليها .

وكان في نية ابراهيم أفندي أن يججلجل صوته مرة ثالثة ويأمر زوجته بتركه مع الأسطى شعبان على انفراد، لولا أنه شك في احتمال طاعته، فآثر السلامة والاحتفاظ بكيانه سليماً أمام الضيف لا تجرحه كلمة ولا زغرة أو تعليق .

وهكذا، وليبعدها، أمرها بلهجة رقيقة لطيفة لا يقولها الا زوج غارق في سعادة زوجية دائمة أن تعد القهوة، وأصابته نظرة جانبية مدببة كطرف الابرة أفهمته ان ليس لديهم بن .

وحيثذا افتعل ابراهيم أفندي ضحكة ما، وقال للأسطى شعبان وهو يخبطه فوق ركبته:

- والا تشرب شاي أحسن؟ . . أنا عارف . . أنت تحب الشاي .
كل الأسطوات يحبوا الشاي . . خليه تقيل يا أم نعيمة . .

وبينما كان الشاي يعد كانت أم نعيمة لا تتركهما على انفراد أبدا وكأن في الأمر مؤامرة، فهي غادية رائحة تنقل كرسيا من مكان الى مكان، أو تسأل ابراهيم أفندي إن كان يريد شيئا، ويوله ان كان قد أراد شيئا.

وأخيرا آن الأوان وقال ابراهيم أفندي :

- خير؟ ..

ولم يقل شعبان حرفا، أشار لابنه وسكت.

وقال ابراهيم أفندي وقد ارتسم أسى أكثر من اللازم على وجهه، وكأنه فوجيء برؤية رأس الولد المجروح :

- خير؟ .. ماله؟ .. مالك يا بابا؟ .. مالك؟ ..

فقال شعبان :

- ابنك عوره.

- ابني مين؟ ..

قالها ابراهيم فندي باستنكار ثم أضاف :

- انت متأكد؟ .. يعني واحد من الأولاد اللي كانوا هنا دول هو

اللي ضربه؟ ..

- أيوه ..

- يا ولدا! .. يا ولد انت وهو! ..

قالها ابراهيم أفندي في شموخ وشهامة .

وجاء الأولاد يتدارون في بعضهم البعض ، وكش فيهم الأب :

- أقف عدل يا ولد . . أقف عدل . . شيل ايدك من على كتف أخوك يا قليل الأدب .

ووقف الأولاد وجاءت وقفتهم أقرب ما تكون الى الطابور ، كانوا ثمانية وكانوا يصنعون مع الأرض مثلثا أصغرهم طوله أشبار وأكبرهم أطول من الوالد نفسه بقليل .

وحدق فيهم ابراهيم أفندي وهو يتفحص ليحرز من الجاني ، ويحس بنوع من الثقة لأنه رئيس هذا الطابور كله يستطيع أن يحركه كيف يشاء . وقال لابن شعبان :

- مين فيهم اللي ضربك يا بابا؟

وأشار الولد الى فؤاد الذي يقف في الوسط وقال :

- ده . .

وهنا ضاع زمام الموقف وهاج كل شيء ، وارتفع صوت شعبان يحكي ويعنف وقد ذهب عنه خجله وحرجه ، وبطالب أن يضرب الجاني علقة . . الآن الآن . . أمام عينيه والا كان ما كان .

ورد عليه ابراهيم أفندي بصوت لا يقل عنه علوا ، واشتركت شفاعات بلسانها ويديها ورموشها وعينيها . وتناثر الأولاد في الصالة بعضهم يردد كلمات الأب ، وبعضهم يعزز حركات الأم وبعضهم

يقلد كلمات الأسطى شعبان ويسخر من كلماته، وفي تلك الأثناء
هاجت القطط وانطلقت تموء دون أن يزعجها أحد، وسقطت أشياء
في الحمام، وقرقعت قباقيب على البلاط، ورفع صاحب القهوة
المجاورة مذياعه على الآخر، وأذن المغرب، وبدأت صيحات اللبن
الزبادي.

وآب كل شيء فجأة الى هدوء حين ارتفع صوت ابراهيم
أفندي يقول:

- ولزومه ايه كتر الكلام؟ .. نحقق .. واللي عليه الحق
ينضرب بالجزمة ..

وهكذا بدأ التحقيق.

وبدأ الخلاف، فمن من الولدين يحكي أولاً؟ ..

واستقر الرأي أخيراً على أن يبدأوا برواية المجني عليه
المجروح.

وبدأ ابن شعبان يتكلم، وما أن فتح فمه حتى صمت الجميع
وترقبوا وعم السكون، وحينئذ تلجلج ولم يستطع إخراج الكلمات الا
بعد أن نظر الى أبيه .. وكش فيه أبوه فانطلق يقول:

- كنا .. كنا بنلعب. وبعدين قسمنا قسمنا نفسينا. أنا كنت بدا
بدافع ودهه(وأشـار الى فؤاد دون أن ينظر اليه) ودهه كان
الأسطول .. جه جه يزقني ما قدرش عليّ.

واندفع فؤاد الرفيع يقاطعه:

- أنا ما قدرتش عليك؟ .. مش احنا قايلين مفيش طوب ..
ضربتني بالطوبة ليه؟ ..

وهب فيه أبوه يقول اخرس .. فخرس فؤاد . وخرس ابن شعبان
أيضاً وعم سكون .
وتنحج شعبان وقال لابنه :

- يا ولد احكي كويس . كنتم بتلعبوا ايه؟

ورفع ابراهيم أفندي جذعه ورأسه وذراعيه محتجا على سؤال
الأسطى شعبان ، طالبا أن يترك الولد ليروي ما حدث دون أي تدخل
أو مساعدة .

وقال شعبان وأمره الى الله :

- يا خوانا دانا بس عايز تعرفوا ايه الموضوع ..

ومضى الولد يقول :

- جه يزقني ما قدرش عليّ .. فراح جايب زلطة وحدفني
بيها حت ف .. ف ..

وبدا الولد ينهته لولا أن هب فيه أبوه :

- اكتم يا بن الـ .. انت بنت؟ اكتم أوعى تتنفس .

وفعلت كلمات الأب فعل السحر .

ورفع الابن وجهه لأول مرة، وحدق في الموجودين بجرأة
وأشار الى فؤاد وقال :

- علشان ما . . ما قدرتش علي . . رحت جبت زلطة يا جبان .
 وهب فيه الجميع أن يخرس فلم يخرس . ومضى كالوحش
 الصغير يهيب ويعوي :

- عاملي أسطول؟ . . والله لما تكون انت مليون أسطول . .
 علشان ما قدرتش علي؟ حد كان قالك . . قالك العب . . حد . . حد
 قالك اعمل أسطول؟ . . لما أنت جبان .

وهنا جاءت زغدة (كده وكده) من أبيه فسكت وعم السكون .
 وكان لا بد أن يعم السكون فإن أحدا لم يكن قد فهم شيئا، ثم إن
 ما تبادله الولدان زاد الأمر تعقيداً، وأصبح هم كل والد أن يعرف كنه
 تلك الخناقة بعد أن كان همه أن يعد نفسه للدفاع عن ابنه .

وكان واضحاً أنهما لن يستطيعا أن يستخلصا السبب من
 المتخاصمين والمجني عليه متحفز والجاني ينكر، والحقيقة ضائعة
 بين التحفز والإنكار .

وكان لا بد من التدخل للعشور على الحقيقة . وإبراهيم أفندي
 الذي لم يرض بتدخل شعبان بدأ هو الذي يتدخل ويسأل على اعتبار
 أنه والد الجاني فلن يحابي المجني عليه .

وأطال إبراهيم أفندي رقبته ومد رأسه وقال كأي وكيل نيابة
 مدرب، موجه السؤال إلى ابن شعبان :
 - اسمع يا شاطر؛ قل لي كنتو بتلعبو ايه؟

فأجاب ابنه بسرعة :

- كنا بنلعب لعبة الكنال .

وأسكت ابنه بلعنة وعاد يوجه السؤال للمجني عليه، فقال
الأخير:

- كنا كنا بنلعب . . لعبة الكنال . .

وهز ابراهيم أفندي رأسه وعاد يسأل:

- لعبة الكنال دي ايه . . كوره؟!

فأجاب الولد:

- لا لأ . لعبة الكنال . . قسمنا . . قسمنا نفسينا . .

وهز ابراهيم أفندي رأسه وعاد يسأل:

- يا بني ايه لعبة الكنال دي؟

فقال الولد بفروغ بال الصغير:

- مانا مانا بقولك آه . . قسمنا قسمنا نفسينا . . احنا احنا
الجيش المصري وهم أسطول الانجليز . . وحطينا حطينا خط كده
وقلنا قلنا ده الكنال .

وفي نزق الأطفال، ترك الولد مكانه بجوار أبيه وقد ذهب عنه
تحفظه وخوفه تماما، ومضى الى وسط الصالة يمثل:

- حطينا خط كده . . يعني يعني الكنال . . والجيش المصري
يقف هنا . . وأسطول الانجليز يجي يجي من هنا . . واذا عدوا الخط
يبقى اتغلبنا وياخدوا الكنال .

وهنا غمز ابراهيم أفندي لشعبان عله يضحك، ولكن شعبان لم يضحك، كان وجهه لا يزال جادا ولا يزال يريد أن يطمئن ان ابنه كان محقوقا ليضربه أو صاحب حق ليشهد ضرب خصمه. أما الست شفاعات فكانت ساكنة ترقب الولد اللمض في اشمثناط واحتقار، والأولاد كانوا مشغولين بالتفكير في لعبة الكنال، يقلبون الأمر على وجوهه ليروا الى أي الفرق ينضمون اذا لعبوها.

وأحس ابن شعبان بالجوف فيه هدوء مريب فسكت، ولكن أباه استحثه ورغده وقال:

- هيه.. قول.

فأجاب الولد بفرحة وكأنه أخذ اذنا باللعب في الحارة الى ساعة متأخرة:

- أنا كنت في الجيش المصري.. ع اليمه دي.. فأم سحلول جه يهجم عليّ..

وقاطعه ابراهيم أفندي بلهجته الممدودة:

- أم سحلول مين؟

فقال الولد على الفور:

- دهه.. فؤاد..

ثم استدرك:

- أصل احنا مسمينه أم سحلول.

ونظر ابراهيم أفندي الى ابنه شذرا واستدار الى ابن شعبان
وقال :

- اسمه فؤاد . أم سحلول ايه دي ؟ . .

- وعاد ابن شعبان يحكي :

- وبعدين اذا اذا احد . .

والتفت ابراهيم أفندي فجأة الى ابنه وهو يغلي :

- بقى كده يا وله يسموك أم سحلول ؟ . . اتفرجي على ابنك يا
ست هانم . . اتفرجي يا ست أم سح . . .

وكاد يقولها ولكنه أنقذ لسانه في آخر لحظة والتفت لابن شعبان
وقال :

- كمل . . كمل يا خويا . . كمل يا أم أربعة وأربعين انت
راخر . .

وانطلق الولد :

- وبعدين اذا واحد من الأسطول قدر يعدي الخط تبقى فرقتنا
اتغلبت، أنا كنت مع بندق وخشبة وحسام، وخشبة وحسام اتغلبوا،
فأتلمت فرقة أم سحلول كلها على . .

وقاطعه ابراهيم أفندي :

- قلنا ميت مره فؤاد . . قلنا فؤاد . . ده دي ؟ . .

وتكلم شعبان :

- معلى يا إبراهيم أفندي .. عيال .. خليه براحتة علشان
يحكي كويس ..

وزار إبراهيم أفندي بصوت منخفض وعينين جاحظتين :

- حكي يحكي ، انما أم سحلول ايه ؟ .. قلنا له اسمه فؤاد ..
هي قصة .. ده دي ؟

وهنا أشار فؤاد الرفيع إشارة خفية لابن شعبان معناها :
«طيب .. والله لأوريك» ..

ولكن ابن شعبان لم يتوقف ومضى يقول :

- فضلت أنا وده .. هوه اكمنه أطول مني حب يديني هدر ..
قمت أنا شكيتة مقص راح نازل على سنانة ، فالولاد ضحكوا عليه
وفضلوا يضحكوا ويقولوا : ايدن أه .. ايدن أه .. العبيط أه ..
العبيط أه .. فهو اتغاظ ومسك زلطة وراح خابطني في رأسي .

واندفع فؤاد يقول :

- أبدا والله .. انت ستين كداب في أصل وشك .. والله يا بابا
ما ضربته .. هو اللي وقع .. أنا مالي ؟ .. أنا ما ضربتوش احنا اتفقنا
ان اذا غلبنا منهم اتنين يسلموا .. هو ما رضيش يسلم وقعد يزق
فينا .. واحنا نزق فيه فراح واقع على الأرض اتعور .

وكان ابراهيم أفندي يحاول اسكات ابنه طوال الوقت، ومع هذا فقد تغاضى عنه حتى عثر في كلامه على حجة، وحينئذ أسكته ومط رقبته وسأل ابن شعبان:

- انتوا اتفقتوا صحيح ان اذا اتنين اتغلبوا تسلموا . ؟

وانتظر الجميع الجواب بفارغ الصبر. كان كل من بالحجرة قد نسي من الجاني ومن المجني عليه واستحوزت اللعبة على تفكيره. الأولاد كفوا عن الدوشة، وأم نعيمة يدها في خصرها وأذنها متجهة الى مصدر الصوت والمتاعب، وشعبان مائل الى الأمام يراقب ابنه في حماس، والجدة كفت عن المواء، والقطط هي الأخرى كفت عن الأنين واختفت بين طيات ملابس الجالسين.

وقال ابراهيم أفندي وهو ماض كوكيل النيابة في دوره يستدرج الولد:

- انتوا اتفقتوا صحيح يا حبيبي؟ . .

وتلجلج ابن شعبان ونظر الى ابيه يستشف ما وراء نظره ثم قال:

- احنا احنا أيوه اتفقنا . . بس بس . .

وتنفس ابراهيم أفندي لأول مرة بارتياح وعوج رأسه وقال وهو يكيل السؤال القاضي:

- طيب . . ليه بقى سيادتك مسلمتش زي ما اتفقتوا؟ . .

وواجهه ابن شعبان في دهشة واستغراب وقال:

٦٩٠

- اسلم ازاي؟!
 - فعوج ابراهيم أفندي رأسه الى الناحية الأخرى وقال:
 - زي ما اتفقتوا . . ليه بقى يا سيدي ما سلمتش؟
 - فقال الولد على الفور:
 - ما هو . . ما هو إذا سلمت يبقى اتغلبنا .
 - وأغلق إبراهيم أفندي عينه اليمنى وقال:
 - تتغلبوا تتغلبوا .
 - وازداد الاستنكار في وجه الولد وقال في دهشة:
 - اذا اتغلبنا يكسبوا هم .
 - وأجاب ابراهيم أفندي وهو يغلق العين الأخرى:
 - يكسبوا يكسبوا . . ليه ما سلمتش؟
 - وقال الولد بفروغ بال:
 - مهم كانوا أخذوا الكنال . .
 - فقال ابراهيم أفندي وهو يمط شففيه:
 - ياخدوه يا خدوه . .
 - واندفع الولد بغضب حقيقي يقول:
 - يا خدوه ازاي؟! . . هي . . هي لعبة . . هي لعبة؟!
 - وكذلك اندفع أبوه يقول:

- وده اسمه كلام يا أبو فؤاد؟

وكادت تحدث بواذر ضجة، لولا أن ابراهيم أفندي صرخ:

- هوس.. هوس.. يا اخوانا ايه اللي جرى؟.. دي لعبة
بيلعبوها. قول يا بني ما سلمتش ليه؟.. قول..

فقال الولد:

- أسلم ازاي؟

وقال أبوه:

- يسلم ازاي؟

وقالت أم نعيمة:

- زي الناس يا دلعي..

واندفع فؤاد النحيل يقول:

- شفت يا بابا؟.. هو اللي قلبها جد.. احنا كنا بنلعب
.. هو اللي قلبها جد.. قلنا له سلم قام شتينا وقعد يضرب
فينا عشان منعديش الخط.. والله هو اللي وقعني وقعد يضرب في..
وعضني.. ثلاث عضات.. أهم.. دا كان.. زي المسروع.. دا
مكانش يلعب.. دا قلبها جد.. وكل.. ده.. عشان مش عايز
يتغلب.. وأنا مالي؟.. هو اللي وقع.. ولما وقع اتعور.. أنا
مالي؟.. والله ما لمستته.. دا يدوبي قربت عليه نزل في ضرب.

وانخرط الولد في البكاء.

وهنا استعداد ابراهيم أفندي الشخطة التي شخطها شعبان في
ابنه وشخط شخطة أعلى منها وقال:

- اخرس . . أنت بتعيط زي النسوان؟ . . عمى في عينك .

وصرخت فيه زوجه:

- جرى ايه يا ابراهيم سرعت الواد . . هو قد الشخطة دي؟ . .
وايه حكاية النسوان دي رخره . . ما تقعد معوج يا ابراهيم وتتكلم
عدل . . اتكلم عدل يا ابراهيم .

وقرأ ابراهيم أفندي في الجملة الأخيرة انذارا خفيا، وفعل
الانذار فعله في الحال .

وهكذا ضاع زمام الموقف واختلطت الأصوات . . صوت
الأسطى شعبان تخين وتصاحبه حشرجة كحشرجة الكلاكس حين
يعلق، وصوت ابراهيم أفندي رفيع أخف كأنما يصدر عن طاقة
واحدة من طاقتي أنفه، وصوت أم نعيمة حياني نواعمي طويل كحبال
الكتان، وصوت الجدة أم ابراهيم أفندي كصوت ابنها تماما وكأنها
جد . وكلمات شعبان فيها احتجاج صارخ، وكلمات ابراهيم فيها
دعوة للسلام والمحبة، وما يصحش يعملها الصغار ويقع فيها الكبار،
وكلمات شفاعات عزف منفرد لزمارة كمساوي ترام، وكلمات تقال
وكلمات لا تقال، ولم يسلم الأمر حتما من بضع دعوات خرجت من
فم الجدة واستقرت على رأس العدو، أي عدو .

وآب كل شيء الى هدوء حين قال الأسطى شعبان:

- زاي بعضه . . احنا مالنا بركة الا بعض . . نصطليح نصطليح .

وقبل الجاني رأس المجني عليه . . وتبودلت بضغ نكات تناسب المقام . . وتفضلت الست أم نعيمة وضحكت على نكتة . وتفرق الأولاد وقد انتهت الرواية، وجاء الشاي وشرب الأسطى شعبان وشرب ابراهيم أفندي على حس الضيف . وتكلم الرجلان في السياسة وقال ابراهيم أفندي أن الله معنا وسينصرنا على القوم الكافرين . . وقال شعبان عن الانجليز دول عظمهم دايب من شرب الخمرة . . يدوبك تزق الواحد يقع .

وأخيرا آن الآوان وأخذت الجلسة حقها واستأذن شعبان، وعزم ابراهيم أفندي عليه بالعشاء، عزومة مراكية، ولكن الأسطى أصر ومضى آخذا ابنه من يده .

وقبل أن يهبط شعبان السلالم سمع أصواتا تأتيه من الداخل، وتلكا قليلا فعرف صوت ابراهيم أفندي الأخنف وهو يقول:

- أحرم يا بابا .

- تحرم يا كلب تلعب مع العيال دول؟

وعاد ابراهيم أفندي يقول:-

وسمع شعبان صرخة مبالغاً فيها ثم صوت الولد وهو يقول:

- تحرم تلعب لعبة الكنال ومش عارف ايه؟

وصرخ الولد وقال:

- أحرم يا بابا .

٦٩٤

- تحرم يعملوك أم سحلول يا خايب؟

- أحرم والنبي . .

- تحرم تعمللي أسطول وايدن وكلام فارغ من ده؟

- أحرم يا بابا أحرم . . والنبي حرمت . .

ولعلم صوت أم نعيمة :

- خلاص حرم يا ابراهيم خلاص . . " ما عدشي ح يعملها . .
قطيعة تقطع ايدل وشورته واللي جابوه . . قول تبت يا واد . . قول
تبت . .

* * *

وقبل أن يضع شعبان قدمه على أول درجة من درجات
السلم، التفت الى ابنه وملس على رأسه وعلى المنديل الذي يخفي
الجرح وقال :

- وله . أوعى تكون سلمت في الآخري يا واد . .

ونظر الولد الى وجه أبيه المرتفع، وأمسك يده الضخمة بكلتا
يديه، ثم ألصقها بوجهه الصغير وضمها اليه وتعلق بها، وابتسم ولم
يجب . .

ابو الهول

كنا نعزي في الحاج سعد، والمأتم حابك اذ كان الوقت بعد
العشاء حيث يكثر المعزون. كانت الخيمة على قد الحال فيها من
الثقوب أضعاف ما فيها من قماش، والكلوبات نورها يعاني شحوب
الأنيميا الحادة، ومع هذا كان يبدو في الظلام الخرافي المطبق على
قريتنا ساطعا براقا يعشي جموع الفلاحين القادمين يعزون والذين لم
تعود عيونهم أبدا الضوء في الليل، فما بالك بنور الكلوبات؟ ولهذا
كانوا يتوهون في الخيمة ولا يتعرفون على الناس الا بصعوبة.

وكان الأعيان يحتلون - كالعادة - مقاعد الصدارة ذات القطيفة
الباهتة المتآكلة، والذهب الذي تحول الى جرب، والكسور
والرضوض التي أصابت الأذرع والأرجل على مر الزمان..

وكنت أيامها عميد المتعلمين في بلدتنا اذ كنت طالب طب،
وقد أجمع الناس اجماعا رهيبا على تلقيبي بالدكتور، وتبناني أهل
بلدنا واعتبروني ثروة قومية يفاخرون بها البلاد الأخرى. وتقول نساء
قريتنا لصاحباتهن في الأسواق:

- يا بت اختشي داحنا حدانا دكاتره..

وأمر على الأولاد وهم يلعبون فيكفون عما هم فيه من لعب
ويشير إليّ أحدهم قائلاً للآخرين:

- والنبى ده دكتور حق حقاني يا ولاد.

وإذا مررت على الكبار تترى الدعوات خلفي ممن أعرفهم
وممن لا أعرفهم، تحرسني من العيون وتخليني لأبي وتنجح لي
المقاصد.

وأصبح من حقي وواجبي اذن وقد رفعتني الناس الى مصاف
الأعيان أن أجلس بينهم. ومع هذا كنت أفضل ويفضل معي بقية
المتعلمين أن نجلس مع الغالبية العظمى من أهل بلدنا، الذين كان
يقول عنهم الحاج سعد نفسه - عليه رحمة الله - : «ربنا سبحانه
وتعالى خلق الناس اللي بتفهم من تراب الجنة الناعم، ويعدين
فضلت شوية نخالة خشنة احتار يعمل فيها ايه، فراح راميهما وقال
كوني عبادي الفلاحين، فكانت».

كنا نفضل الجلوس الى هؤلاء حيث لا نتكلف ما لا نطبق من
التأدب واصطناع الرجولة، وحيث نتحدث كما نشاء بلا ضابط أو
رابط أو تشكك، وحيث نجد من يتقبلون كلامنا وكأنه آيات
منزلات..

وفي مآتم الحاج سعد أيضاً جلست في الركن القريب من
الباب ومعى بعض طلبة الجامعة وعدد لا يحصى من «النخالة»،
وسرعان ما تضخمت الجماعة بانضمام بعض الذين يتمسحون

بالمتعلمين وعلى رأس هؤلاء أبو عبيد التومرجي في مستشفى حميات المركز، والذي كان يفضل أن تتواجد «الهيئة الطبية» في مكان واحد، فقد كان هو الآخر يزاول الطب يكشف ويشخص ويعطي الحقن، وله بالطو أبيض نظيف وجلابية «دبلان» وطربوش، والحق أنه كان يبدو بملابسه تلك أوجه منا جميعا.

وكان آخر القادمين الى مجلسنا عبد الله المزين، والرجل كان يقوم أحيانا بعمل حلاق الصلحة ويبدو أنه هو الآخر كان يعتبر نفسه يمت بصلة ما إلى الهيئة، فكان إذا رآنا جالسين أعطى صبيه شنطة الحلاقة وأجلسه بها في مكان بعيد وكأنه يتخلص من شخصيته كحلاق، ثم يهل علينا قائلا للجميع:

- السلام عليكم!

ويلتفت إليّ بسلام خاص قائلا:

- نورتنا يا دكتور.

وكان ينطقها «دكتور» ليؤكد لي وللسامعين أنه رجل فاهم، وليبدأ بها شخصيته كعضو ملحق بالهيئة الطبية الموقرة..

كنا جالسين في صمت نستمع الى الشيخ مصطفى مقررء بلدنا الذي كان قد تسلم دكة الفقهاء، وتسلمنا بعد العشاء مباشرة يصب علينا جام صوته الغليظ القبيح ولا يريد أن يختم أو ينتهي. وكلما تهدج صوته ظننا أن الفرج قريب وأنه سوف يسكت، ولكن يخيب ظننا إذ ما أسرع ما كان يمت رقبتة وكأنه يريد انتزاعها من جسده،

ويكشر جدا ولا ندري لماذا يكشر، ويسد أذنه اليمنى ويخفي عينيه
ببقية أصابعه ويحزق وتمتلىء رقبته الطويلة الرفيعة بالعروق وبالهواء،
وتنتفخ حتى لنخاف عليها وعلىنا من الانفجار، ثم ينعص الشيخ
مصطفى، وتتطاير شظايا صوته مخترقة فضاء الليل الواسع ترج قريتنا
رجا، ويصحو لها نائمون في بلاد أخرى.

وكان الوحيد المباح له الحركة في المأتم هو شيخ
الخفراء وقد شنت البندقية في كتفه وراح ينظر الى الناس كمن يقول:
نحن هنا. ينظر اليهم ويتمشى في الخيمة قليلا، ثم يسرع الى
الخارج يفاجيء الأولاد الذين تجمعوا يتفرجون على المأتم
والكلوبات ونقوش الخيمة الغريبة الباهتة، وينهال عليهم ضربا
بخيزرانتة.

وجاء الفرج وقال الشيخ مصطفى ونحن غير مصدقين: صدق
الله العظيم.

وانهال عليه الناس من كل صوب:

- تقبل الله يا أستاذ.. الله يفتح عليك.. حرما.. الله يفتح
عليك.. حرما.. الله يعمر بيتك.

وكانت الكلمات تخرج من الأفواه حارة لافحة، آخر ما تصلح
له أن تكون دعوات..

وامتلأت الخيمة بعدها بهمهمة الجماعات المتقاربة.. وبدأنا

نتكلم نحن الآخرون ونال الشيخ مصطفى من ألسنتنا الشيء الكثير. ثم بدأنا كالعادة نخوض في سير الأعيان، وانتهينا أخيرا الى ذكرياتنا عن القاهرة. كنا نتكلم نحن فقط وكان بلدياتنا الفلاحون ساكتين يسمعوننا ويضحكون، وينظرون إلينا ويتأملون كلامنا وكيف ننطقه، ويتحسسون بأعينهم جلابيبنا «الزفير» و «البفتة»، ويتفرجون على طربوش أبو عبيد التمرجي وعلى ساعة يدي وبريقها كلما عكست ضوء الكلويات ولا يتكلمون. . وهكذا كان دأبهم دائما اذا جلسوا معنا، نرى في وجوههم السمراء المعفرة اقتناعا كاملا بما نقول، وفي عيونهم اعجابا مطلقا بنا، وفي تأييدهم لنا حماسا منقطع النظير. . وكان يهيمن عليهم دائما وجوم لعله خوف منا، ولعله هوة يحسون أنها تفصل بيننا وبينهم، فكان الواحد منهم لا يخاطب الواحد منا، وانما اذا أعجبه كلام قيل يميل على جاره ويهمس له معلقا أو بلكزه. أما اذا بلغ الاعجاب حد الاعجاز فحينئذ تتصاعد منهم التعليقات رغما عنهم. . كلها متشابهة، وكلها في آن متقارب وكأنما تصدر عن جسد حي واحد خشن كبير.

وحينما أوجد ويوجد أبو عبيد التمرجي، كان ينتهز أول فرصة تسنح له ويخبط سؤالا ما. . ولا بد أن يكون السؤال في الطب. كان يزاوول العلاج ويهمه أن يثبت للفلاحين وللمتعلمين أيضا أنه عالم كبير يناقش «الدكتور» مناقشة الند للند. وكان اذا تحدث معي أو سألني لا يفعل ذلك بلغة بلدنا المحلية وانما بلغة البندر، والا فما الفرق بينه وبين الفلاحين؟. . ولا يسأل السؤال بطريقة عادية

٧٠٠

وانما له أسلوب مؤدب في أدبه برود وتلامة، نفس أسلوبه الذي يعرض به «خدماته» على الناس ويطلب بأتعابه وفوقها «شوية» لبن أو أكلة بامية من بامية الزبائن الحلوة . . ودائما بامية الزبائن حلوة .

وكانت اسئلته تزعجني جدا، فأبامها كنت لا أزال في اعدادي طب اشرح الضفادع وأدرس السديدان، ولا أعلم عن الأدوية والأمراض الا أنني «دكتور» . وكان هو من كثرة عمله في المستشفيات قد حفظ كام اسم مرض وكام اسم دواء . وليلتها استطرد أبو عبيد يتحدث عن مرض الحاج سعد وكيف أخذه للدكتور حنا طبيب المركز وفشل علاجه، ثم وصف له هو حقن ستروميسين وأقراص سلفات يازين ٥×٣×٣ «هكذا كان يقول»، وم، قلوي، ومنعه عن الطعام منعا باتا، ولكن المرحوم هفت نفسه الى الفسيخ يوم السوق والتهم وحده رطلا . . فحم القضاء . .

وغمغم الجمع الذي حولنا، فهنا وفي مجال القسمة والأعمار يستطيعون الكلام:

- بتيجي على أهون سبب . .

- اجله كده . .

- ما حدش بيفوت يوم من عمره . .

- حكمته . .

واذا بدأ أبو عبيد . . فمحال ينتهي . . ولهذا أنشأ يحدثنا عما جرى بعد الوفاة . . فهو الذي استخرج تصريح الدفن رغم عصلجة

الطبيب . . واستخرجه بعد ميعاد العمل الرسمي . وكان واضحاً أن لولا شطارته لبقى المرحوم بلا دفن الى اليوم التالي .

ولست أذكر كيف استطعنا «استخراج» الحديث من أبو عبيد وإدارته بيننا نحن «المتعلمين» ، ولكن أذكر أن المناقشة دارت حول الجثة وعن هل من الممكن أن تبقى أياماً بلا دفن . وبعد أن هدأت حدة النقاش سألني أبو عبيد والاهتمام الشديد ظاهر على وجهه :

- الا قوللي يا دكتور؟

وكان يقول لي «دكتور» ليدو ثمة فارق بينه وبين حلاق الصحة من ناحية ، وبينه وبين الفلاحين الذين يقولون «داكتور» من ناحية أخرى . .

واستدرت اليه أستعد لسؤاله البايخ ، فقال :

- هو التخشب الرمي يظهر بعد الوفاة بعد ايه؟

وصمت الموجودون جميعاً ، المتعلمين وغير المتعلمين ، يحملقون مذهولين في كلمة «التخشب الرمي» وهي لا تزال ترن في الجو وتحوم حولنا ، حتى حلاق الصحة أذهلته الكلمة فراح ينظر الى أبو عبيد في دهشة وحسد وكأنما يستكثر عليه معرفة كلمة كتلك وما لبث أنظار الجميع أن تحولت إليّ تستنجد بي وتنتظر الشرح . وكنت من لحظة أن سمعت الكلمة قد أصابني حيرة بالغة فما كنت أعرف ما تعنيه . ولما وجدت التساؤل حاصرني ابتسمت ابتسامة صفراء وسألته السؤال الذي يكسب به العاجز الوقت :

- فيه؟

فقال وكأنه يطرح قضية عامة للمناقشة :

- أصلي اختلفت النهارده مع الدكتور صبحي الحكيمباشي بتاعنا . أنا أقول نص ساعة وهو يقولي يا أحمد ساعتين بس . .

فإيه رأيك يا دكتور؟

وتصنعت لهجة العلماء وقلت :

- لا . . انت غلطان وهو غلطان . . هي تيجي ساعة كده . . ونظرت الى وجوه الجالسين فرأيتهم يسمعون اجابتي ويتبادلون النظرات ، والكلمة لا تزال ترن في آذانهم ولا يفهمون . وصمتنا ثوان قليلة رحت اتطلع اثناءها الى أبو عبيد لأرى ان كان قد اقتنع أم لا يزال به شك . وكان هو خافضا بصره الى الأرض يحدق في قبضته بأدب جم . وكنت أعرف حركته اللعينة تلك وأعرف أنه يصطنعها كلما ارتبكت أنا حتى لا يخرجني ، اذ لا يصح وهو «المرجي» أن يخرج «الدكتور» . .

غير أنني فوجئت بصالح - الله يعافيه بالعافية - يزر عينيه ويسألني :

- الا يا دكتور ايه خشب الرمه ده؟ . .

وصالح هذا كان فلاحا ولكنه لا يزرع الأرض لحسابه وانما يشغل عند أحد المستأجرين . أظنه واحدا من عيلة أبوشندي ،

يشتغل مقابل طعامه وكسوته وكذا كيلة في العام . وكان لونه لا هو
 أسمر ولا أصفر، لون رمادي كلون التراب . . وكان طويلا هائلا
 يخيف الناس مرآه حتى سموه أبو الهول . وعمرى ما رأته مبتسما ولا
 رأيت عينيه مفتوحتين وكأنما كان يرى برموشه، وكانوا يقولون إن
 قلبه ميت، وانه لا يخاف ولا يزعل ولا يفرح، وإنه أقوى واحد في
 بلدنا لولا أنه لا يحب اظهار قوته تواضعا، ومن خشية الله . وكان
 كلامه بطيئا تحس معه أنه ينتزعه من نفسه انتزاعا، وكان دؤوبا على
 جلسة المتعلمين ولكنه لا يتكلم فيها أبدا . وكان الناس يعرفون عنه
 هذا السكوت ولا يحاولون استفزازه، مخافة أن يثور مرة فيقتل من
 أمامه . . ومع هذا لا يذكر الذاكرون في بلدتنا - على كثرة ما فيها من
 مؤرخين وذاكرين - أنه ثار مرة ولا اشتكى أو توجع .

وكادت جماعتنا تضحك للسؤال المفاجيء لولا المأتم،
 والظاهر أن ابو الهول كان قد عبر بسؤاله عما يدور في الخواطر
 جميعا، فما لبثت الوجوه أن تطلعت إليّ، كلها متسائلة جادة، ما عدا
 وجه أبو عبيد الذي راح يتطلع ناحيتي ويبتسم، ويقول بابتسامته :

- أقول أنا؟

وعبست أطلب منه السكوت وقلت على البديهة :

- أصل يا صالح جسم الانسان ده عجيب قوي . .

وسرحت أحدثهم حديثا عاما عن الجسد، وكيف يجري
 الدم، ويدق القلب . .

وسكت، لأرى ان كانوا قد نسوا أو اقتنعوا. . ولكن صالح زر
عينيه مرة أخرى، وعاد يسألني :

- آمال رمة ايه اللي يقول عليها لفندي؟

وعاد(لفندي) أبو عبيد يقول بابتسامته اللامعة الباردة: تحرم
تعمل دكتور؟ ولما وجدني سكت، والسكوت علامة الرضا. اندفع
يقول:

- بعد اذنك يا دكتور. . أصل بني آدم منا يا اخواننا جسمه من
جوه مليون جبر وحديد وزرنيخ وسليمانى وماركورو كرون. . وطول
ما الواحد منا حي الحاجات دي بتبقى سايحة في الجسم فلما
ينقضي الأجل ويتوفاه الله بتروح عاقدة على بعضها زي ما بيعقد
جالوص الطين في وش البعدا. . تقوم تيجي تحسس على جسم
الميت من دول تلاقيه كنه لوح لطرانه تمام.

وسكت أبو عبيد عن الكلام. ويبدو أن ما قاله كان عجيبا غريبا
لا يستطيع أحد تصديقه دون شهادة مني. . وعادت العيون تنظر إليّ
وتطلب الشهادة، ولم أجد لديّ شيئا يدحض علم أبو عبيد فهزرت
رأسي موافقا، وحينئذ فقط تصاعدت التعليقات:

- يا خبر!

- أترن بني آدم رمة يا ولاد وما هوش داري.

- عجائب والله.

- ما تموت يا واد يا صالح خلينا نعرش بيك الزرية.

- عشان تحمدوا ربنا على لقمة العيش ونفس الهوا يا عالم بذر
كتان . .

وأصبح أبو عبيد نجم الحلقة بلا منازع . . وأخذت العيون
تلتف حوله وترعاه في تبجيل وكأنه هو الذي يستطيع اذا شاء أن يحيل
الواحد منهم الى قطعة من خشب الرمة . .

ولم أحتمل هذا ، فسرعان ما وجدت نفسي أندفع في الحديث
عن الوفاة والجثث حديث العارف الخبير . وأخذت أروي لهم النوادر
والحكايات عما يحدث في مشرحة كلية الطب وكيف أننا نقضي طيلة
النهار والمشارط في أيدينا نقطع الأجساد ونبقر البطون ، مع أنني لم
أكن قد دخلت المشرحة ولا رأيته في حياتي . .

واستوليت على انتباهاتهم كلها . وغاب عن ذاكرتهم أبو عبيد
برمته ، والمأتم وكل شيء .

وفي ذلك الوقت صعد الى أريكة الفقهاء رجل ضخم يرتدي
الجبة والتفطان . وتبينت فيه الشيخ عبد الحميد واعظ المركز ،
وكان الرجل - والحق يقال - نشيطا في اداء وظيفته حتى لهجت
الأسن بذكره . كان لا يترك مأتما في قرية الا ويذهب اليه ويعزي
فيه ، ليس هذا فقط ، بل إنه ما يكاد يجلس قليلا وتخلو دكة الفقهاء
حتى يمضي اليها في بطء وقور ، ويرتل بصوت هادئ : (بسم الله
الرحمن الرحيم) ويعم الصمت المكان وتشرئب الأعناق تتابع درس
الشيخ وهو يرويه بصوت حلو ، ينغمه ويطلق في نبراته الحلقية ،
ويضم الصاد ، وتخرج الراء لها زغرودة ، وتحس اذا ما سمعت

الكلمات المترادفة الممدودة وهي تنهادى من حنجرتة - بينما وجهه مكتنز أحمر، وشاربه مخطط أسود، وعمامته ناصعة البياض - نحس أنه لا بد قد تعشى بخروف دسم قبل أن يلقي الدرس، وأن كلماته تخرج مطمئنة شبعانة لا تشكو قلقا ولا تعباً، وإن لا أولاد له ولا زوجة أو مشاكل وأنه - بالتأكيد - له الجنة .

صعد الشيخ وأخذ يلقي الدرس . . وكان مفروضاً أن أسكت مع الساكتين وأسمعه، ولكني كنت قد طرقت بحديثي باباً لا يستطيع أبو عبيد أن ينافسني فيه . . فالحقن والأدوية والأسماء الغريبة له فيها . . أما الجثث . . فسيرتها لا تأتي الا على السنة الدكاترة وحدهم . . ولهذا مضيت أتحدث . . وانقسم المآثم . . الغالبية تسمع الواعظ . والأقلية تسمعي، وأنا أوزع انتباهي بين كلامي وكلام الواعظ . . كان الرجل قد وصل في حديثه الى العذاب الذي ينتظر العصاة في الآخرة . . وكان قد استولى على الألباب جميعاً . . أقصد الباب «النخالة» . . فالأعيان كنت ألمحهم يتهايمسون ويتشاءبون وينظرون في ساعاتهم ويختلفون على أيها أضبط . . أما أصحاب الأجساد الضامرة البالية فكانوا مسمرين في أماكنهم يسمعون، ووجوههم صفراء ذابلة كأوراق القطن الخضراء حين تصيبها الدودة واللطم، وأفواههم مفتوحة وعيونهم محمرة بالرمم والرماد تحاور الضوء وتداوره لتستطيع أن تتابع الواعظ وهو يتحدث حديث العالم الخبير عما يناله المذنبون، وكيف يتولى أمر كل منهم أربعة من زبانية الجحيم الغلاط الشداد . . يخلعون عنه ملابسه . . ثم

ينهالون عليه ضرباً «بمقرعة» من حديد لها أسنان تنهش لحمه، وتدشده عظامه، حتى إذا ما استوى وشبع أخذوه إلى طابق آخر من النار. . وتولوا إدخاله في مواسير جدرانها من اللهب. . يظل يحرق وهو حي، وكلما ذاب جلده كان له غيره ليتجدد عذابه. . فإذا عطش وطلب ماء سقوه من ماء النار، وماء النار من حميم وغساق. .

الغالبية كانت تسمع الواعظ، ولا تكاد تعرف ما المقرعة، ولا الحميم أو الغساق، ومع هذا فمن طريقة الشيخ عبد الحميد في اللقاء، ومن غرابة الأشياء التي كان يرويها ورهبتها، كان التأثير قد بلغ بالناس حد البكاء.

والأقلية كانت تتابع حديثي، وكنت قد تعديت حدود كل معقول وأخذت أروي لهم تفاصيل دقيقة مزعجة عن حوادثنا ونوادينا مع الجثث، وكيف أننا نتناول طعامنا أحياناً في المشرحة وعلى مرأى من البطون المفتوحة، وأحياناً أخرى كثيرة نلعب «الكوتشينة» على صدور الموتى، وكيف أنني صنعت من العظام والجماجم محابر ومساطر وأقلاماً. . ثم حكيت لهم قصة طويلة عن الذراع الذي اشتريته مرة من فراش المشرحة، وأخذته معي إلى حجرتي، وما أحدثه من هرج ومرج بين سكان البيت. . الخ. . الخ.

وسألني أبو الهول وهو لم يعد يحتمل:

- واشتريت الذراع بكام يا دكتور؟

وتصنعت التذكر وقلت:

- والله خدته من الراجل يومها بريال .

فقال مبهورا :

- أماه . . يا خبر أسود ومنيل . . أمال يا خواتي بني آدم على
بعضه يسوى كام يا داكطور؟ . .

فقلت وأنا أهز أكتافي :

- والله ما اشتريتوش . . انما يسوى له جنيه كده والا اتنين .

وانطلق المستمعون يرددون في ذهول :

- شوف يا أخي . . أي والله . . صحيح . . ما أرخص من بني
آدم . .

- دي عبر لمن يعتبر . .

- لازم دول كانوا عملوا في دنياهم عمل يغضب الله . .

وسألني أبو الهول وقد بدأت ملامحه تتحرك . . وعينه تتفتح ،
وملامحه تعلوها دهشة :

- ويبجيوا الناس دول منين يا داكطور؟ . .

والحق أني ما كنت أعرف . . فزعمت أن هناك متعهدا يورد
للكلية ما تحتاجه من جثث «قياسا على متعهد الضفادع في
اعدادي» . .

وكان الشيخ عبد الحميد في هذه الأثناء قد قارب الانتهاء من

حديثه، والناس قد طال استماعهم الى وصفه الدقيق لما ينتظر العاصين حتى بلغت أرواحهم الحلقوم. فما كاد يستثني من العذاب ويقول: «الا من خشي ربه...» حتى هاج الناس وماجوا يتنفسون الصعداء - وقد عثروا أخيرا على طاقة أمل - ويثبتون أنهم حقاً وصدقاً مؤمنون خاشعون، ويقولون في نفس واحد مبهور: «لا اله الا الله»..

ورأيت الشيخ عبد الحميد يتطلع اليهم بوجهه السمين الذي كسته حبات العرق، ويفرك كفيه مسرورا.. فحماسهم ذاك كان خير دليل على الأثر الخطير الذي أحدثه كلامه.

وتطلعت أنا الآخر الى جمهوري.. كان كل شيء على ما يرام.. وكدت أفرك كفي أنا الآخر.. لولا ابتسامة أبو عبيد الباردة التي لم تكن قد جفت بعد من فوق ملامحه..

وأطلقت آخر سهم في جعيتي، ومضيت أحدثهم عن الملل الذي أصابني من طول الاجازة وعن شوقي إلى تدريب يدي ومزاولة التشريح، ولكي أقطع دابر الشك قلت انني حتى مستعد أن أدفع في الجثة خمسة جنيهاً.. انما.. أنا فين والجثث فين؟..

وخرجت من المأتم يومها مرفوع الرأس.. حتى إن أبو عبيد قال لي وهو يودعني:

- مع السلامة يا بيه..

ولم أراجع نفسي، ولا فكرت بعد هذا فيما قلته، ولا في التخشب الرمي أو مقارع الحديد ذات الأسنان.. كانت في نظري

أحاديث ماتم وجلسات لا أكثر ولا أقل.. تكون اذا قامت، وتنفض معها.

ولكنني استيقظت ذات ليلة على نباح كثير يهدر أمام بيتنا حتى خلت أن كلاب جيراننا تطارد عزرائيل.. وسمعت بابنا يدق.. ولم يفزعني ذلك.. فكثيرا ما كان يدق في أية ساعة من ساعات الليل ويكون السبب مغص مفاجيء أو بول محتبس.

كان الدق يزعج أبي فقط، ويجعله يلعن اليوم الذي أدخلني فيه الطب.. فقد كان يخاف أن أخرج لرؤية مريض مرة فيتربص لي واحد في الظلام ويقتلني. أما لماذا يفكر أحد في قتلي فذلك سؤال لم يخطر لأبي أبدا..

فتحت الباب ففوجئت بإنسان محني يحمل فوق ظهره (زكية) مملوءة لحافتها ويقول:

- مسيك بالخير يا دكتور..

الصوت مألوف، ولكن رغم الليل كان وجود بآخر أنفاسه وشعشة الفجر قد أوشكت، لم أستطع التعرف على صاحبه..

- مين؟..

- اني صالح..

- أبو الهول؟..

- أيوه أبو الهول يا دكتور.. يقالي ساعة اخبط لما الكلاب

كلت رجلية . . وسع شوية . .

وتراجعت الى الوراء قليلا . فاستدار وأنزل الزكية على الأرض
ثم قال :

- الأمانة أهه . .

- أمانة إيه ؟! . .

كنت أسأله وأنا أنظر الى وجهه، وأحاول ادراك ما لم يستطع
قوله . . ولم أر على ضوء «اللمبه السهاري» الا أن - أبو الهول -
يبتسم، وكانت أول مرة أراه يبتسم . . فأدركت أن الأمر أخطر مما
توقعت . .

ونطق أبو الهول وقال انه كان عائدا الى الكفر بعد سهرته في
البلد فرأى جثة غريق طافية في المصرف . . فقال: بس، وأخرجها
من الماء ووضعها على الجسر . . ثم عاد جريا في جري إلى بيت أبو
شندي، وشحت منه زكية على ذمة الطحين، ورجع إلى المصرف
جريا في جري، وعبى الجثة، وحملها، وخرم من الذرة الصيفي
حتى لا يراه أحد . . وتسلسل الى بيتنا بها . .

ووقفت أتابع كلامه، وأنظر الى طوله وعرضه وعيونه الوارمة
وأشم الرائحة الفظيعة التي أدركت أنها تنبعث من الزكية، وأنا
مذهول مذهوش أكاد لا أعي مما يقول حرفا . .

ووجدت نفسي أنفجر فيه . .

وانتظر الى أن انتهيت وقال :

- جرى ايه يا دكتور. . انت طلبك حدانا غالي قوي. . احنا
بداك اليوم. . وان كان ع الخمسه جنيه أني مش عايز خمسات. .
اللي تحط ايدك فيه أني قابله. .

ولم أعد أحتمل ، واندفعت أمره والغيط يخنقني أن يعيد الجثة
كما كانت تماما. .

وصبر علي حتى جئت بكل ما عندي ، ثم برش عينيه وقال :
- وزعلان قوي كده ليه يا دكتور. . بلاش نضرب في
العالي. . هات يا سيدي جنيه والعوض على الله. .
وانفجرت فيه مرة أخرى. .

- انت اتبهلت. . انت اتجننت. . انت جرى لعقلك. .
فرفع يده في فروغ بال وقال :

- الاله يا اخواتي. . بلاش الجنيه راخر. . هات يا سيدي ريال
خلينا ننفض. . عدتها دراع بس يا دكتور. .

وأخيرا جدا. . بعدما ارتفع صوتي ، وبدأ الغضب واضحا تماما
في ملامحي استطاع أبو الهول أن يفهم أني لا أساوم ، وأن عليه أن
يعيد الجثة الى المصرف في الحال. .

وهنا تجمدت ملامحه ، وعادت الى جدها الذي لا ينفك ،
وأغمض عينيه وقال :

- كده. . بقي تعملها في يا دكتور. . هم الأفندية كدايين يا

اخواتي . . تحلف ع المصحف انك ما قلت الواحد بخمسة جنيه . .
تحلف . . قلت والا مقلتش . .

وثار بيننا جدل طويل . . أنا أصر على أنني لا أذكر شيئاً، وهو
يعيد على مسامعي ما قلته كلمة كلمة ويعطي الأمارات والشواهد . .
ولم أوفق في اقناعه بإرجاعها اذ كنت أتعثر وأنا أقنعه في الخجل
الشديد الذي كان يملأ نفسي، ولما لم أجد فائدة هددته بإبلاغ الأمر
للعمة . . وحينئذ اريدت ملامحه وبدا كأنه سيثور ثورة لا يعلم الا
الله مداها وقال:

- كلام ايه ده يا ولاد . . بقى تعملها في كده والآخر تبلغ . .
طب ورحمة ابويا محمد أبو صيام ماني مرجعها واللي معاك اعمله .
وبلغ مطرح ما تبلغ . . انت مش قلت الواحد بخمسة جنيه . . قلت
والا ما قلتش . . بقى تعملها في كده وتبلغ . طب بلغ . ورحمة أبويا
محمد لاسيهالك وماشي . . قلت والا ما قلت .

ويبدو أن صوتنا كان قد ارتفع حتى أقلق أبي . . فقد وجدته
يبرز من باب حجرته ويقول:

- ايه جرى ايه؟ . .

وأسرعت اليه أرجوه الا يزعج نفسه . . وأحاول اقناعه ان
المسألة مغص لا أكثر ولا أقل ولكني كنت متأخراً . . اذ كان قد لمح
صالح واقفا بوجه لا يبشر بخير فقال:

- والواد ده عايز ايه . . دا الواد ده حرامي«والظاهر أن الفلاحين

كلهم حرامية عند أصحاب الأرض» . . دا بيسرق الكحل من العين
وابوه من قبله . . ايه اللي جابك دلوقت يا وله . . عايز ايه . .

كان أبي يقول هذا وهو يتجه الى الباب، والى صالح، ولم
استطع أن أتدخل فيما حدث بعد ذلك . . فقد تعثر أبي في الزكينة،
وكاد يسقط وتساءل غاضبا عم جاء بها، وعم جاء بصالح، وقال وهو
يتحسسها ويحاول أن يخمن محتوياتها:

- ايه ده يا واد يابو الهول . . انت سارق بطيخ يا ابن الـ . .
وجايه هنا ليه يا وله . . والدكتور ماله . . دا مش بطيخ . . أف . . ايه
ده يا خويا . . أعوذ بالله . . أعوذ بالله . .

وصرخ أبي صرخة عالية مفاجئة، وكانت تلك أول مرة أراه
يصرخ والفرع يملأ عينيه والرعب قد تملكه . . واندفعنا اليه أنا
وصالح نسندة حتى لا يتهاولي، وسرت به وحدي الى الفراش
والصدمة قد أفقدته القدرة على السؤال أو الاستفسار أو حتى النطق،
ولكن لم يدم ذلك سوى لحظات . . استرجع نفسه تماما بعدها،
وجلس ينصت لي وأنا أحكي له ما كان من أول ما طقطع الحديث
في المأتم . . ينصت وهو يخطط كفا على كف ويقول:

- مجرم . . حرامي ابن حرام سل مل . .

ولما عدت الى أبو الهول وجدته جالسا مسندا ظهره الى
الحائط ورأسه مائل في تأثر عميق . . وحين رأني وقف وقال:

- سلامته لفندي . . يا خبر أسود ومنيل . . ودي كانت شورة ايه

السودة دي . . سلامته .

وهزرت رأسي وأنا أعد الدش البارد الذي جهزته له ولكنه
كفاني مؤونة الكلام فقد وجدته ينحني على الزكية ويمتحن متانة
رباطها ويقول:

- والنبى يا دكتور أنى عمري ما حلفت برحمة أبويا محمد
باطل انما عشان خاطر والدك . . يا خبر أسود يا ولاد . . دا الواحد
خزيان من روحه . . يا شيخ داني انبليت م الكسفة . . اللهم اخزيك
يا شيطان . ما كنت مروح فى حالك يا وله مالك ومال خشب الرمة
والزفت ده . . انما تقول ايه . . يا خبر اسود ومنيل . . داني كنت بقول
لروحي زمان الدكتور حياخدك بالحضن يا وله . . والختمه الشريفه
عمري ما حلفت بحياة ابويا محمد باطل .

وكان قد أوقف الزكية فالتفت إليّ قائلاً:

- والنبى يا دكتور ولا صغرة تسندها سنده صغيره . . بس أوعى
هدومك . . هه . . يا قوة الله . .

ورفعها بقوة جبارة فوق كاهله، وتمتمت وأنا لا أكاد أستطيع
الكلام:

- معلش يا صالح . . تتعوض . . معلش .

فقال وهو يستدير وتستدير الزكية وراءه ويتجه الى الباب .

- والا عليه . . أهى ان طلعت والا نزلت زكية . . هي يعني
والا المقمعة اللي بيقول عليها سيدنا الراعظ . . أهى ان طلعت والا

نزلت زكية . . حتكون أكثر من اللي بنشيله . . يا شيخ قول يا رب .
 وكان قد خرج من الباب ، وكاد يختفي في الظلام حين فوجئت
 به يتوقف . . ثم يستدير ليواجهني ويقول من تحت الزكية :
 - بس افكر كويس يا دكتور . . بدمتك يا شيخ وديانتك والأمانة
 عليك . . قلت والا ما قلتش ؟ . .

الجرح

فاجأنا الرئيس حين طلب منا أن ننتظر. قالها بلهجته البحرأوية وكان كلامه من لحظة أن عرفناه قليلا. وكان من نوع لا يرحب بالجدل ومع أن كل شيء كان على أتم استعداد، الا اننا سكتنا كلنا ونحن متأكدون أن لا بد هناك ضرورة لهذا الانتظار، غير أن حلمي لم يسكت. . عوج وجهه وأسبل جفنيه وقال للرئيس: احنا مستعجلين. ولزومه ايه الانتظار؟

ويبدو أن كلامه تبدد ولم يصل الى آذان الرجل، فقد كان مشغولا بشيء ما يعدل من وضعه في «القلع». وأخرج حلمي حين لم يتلق ردا على سؤاله فعاد يقول:

- مستنيين ايه يا ريس؟

ونطق الرجل كلمة ولم نتبينها، فقد كان يمسك مسلة بشفتيه بينما يدها مشغولتان. والتفتنا جميعا نحوه فرفع المسلة وقال:

- واحدة ست.

قال حلمي هذا وتمدد، وأحدث تمدده انكماشات في الأرجل
وثنيات هنا وهناك، وأصوات احتجاجات كان مبعثها أننا نعرف أنه لا
يريد النوم بقدر ما يريد أن يرينا سخطه على الوقت الضائع.

وركز الرئيس عليه انتباهه لحظة، ثم ابتسم وقال:

- اسم الكريم ايه؟

فقال حلمي وهو يزفر:

- زفت.

وعاد الرئيس يسأله:

- ودستورك منين؟

واعتمدل حسن وقال:

- منين ايه يعني؟ اشمعنى يا ريس؟

فقال الرئيس وهو يجذب حبلا:

- بسأل.

وقال أحدنا:

مصيبة ثقيله.

وأجاب آخر:

- ع تعطلنا . . ويمكن تودينا في داهية.

ولعب ثالث بيده في الماء ونثر قطرات على الباقيين وقال:

ولا بد أن دهشة كبيرة انتابتنا فقد تمللنا، ونطق أكثر من واحد
مرددين:

- ايه؟ ست؟

واحتج حلمي مخفيا غبطته قائلا:

- ست ايه؟ وده وقته؟ انت مش فاهم والا ايه يا ريس؟

وأجاب الرئيس والمسلة بين أسنانه هذه المرة، تقلب الذال
جيما، وتعطب الكلمات:
- لاجم ناكدها معنا.

وانهالت الأسئلة والاحتجاجات. وانتظر حتى فرغنا وقال:
- أنا حالف بالطلاق لازم آخذها.

وارتفعت أصوات احتجاجنا أكثر فأكثر.

- دي ساقط عليّ الدنيا، ويات مع مراتي عشان تضمن تيجي
لغاية ما حلفت لها يمين الطلاق.

وأتبع كلامه بابتسامة يرضينا بها. كانت له سنة من بلاتين
براق، وكان وجهه نحاسيا أسمر، ورموشه صفراء طويلة، واللاسة
التي تعمم بها من حرير، وفانلته زرقاء من الصوف تنتهي بياقة
مسدودة تحيط برقيته وأكمام طويلة مثنية، وله سروال.

- هه . . أنام أنا يقى .

٧٢٠

- مش ممكن ناخذها.

واتفع صوت يسأل:

- ودي عايزه تروح ليه؟

ونظر صاحب الصوت إلى الرئيس وأعاد نفس السؤال.

ولم يرد الرئيس، وكنا كلنا نتوقع هذا. كان لا يجيب الا على ما يحلوه الاجابة عليه، وأحياناً يكتفي بالتحديق في سائله وهز رأسه.

كان ثمة هدوء على الشاطيء.. هدوء متكاثف ثقيل. والهدوء حين يتكاثف ويستتب يصبح شيئاً مروعا. وكانت الدنيا ليلاً والبلدة ساكنة هاملة بجوارنا، بيوتها أشد سواداً من الظلام، بيوت قديمة متراسة حيطانها لا تحتمل البرد، وطوابقها متآكلة متساندة كجماعة من خفر الليل العواجيز، وتجاهنا شارع واسع جداً يسمح ضيق البلدة باتساعه، وتلمع فيه برك ماء وتتجمع على حوافه أكوام من قشر الأرز الذي تنفته ماسورة طويلة تمتد عبر الشارع وتنتهي في مضرب الأرز، أعلى بناء في البلدة، والبناء الوحيد الصاحي، اذ كان يعمل رغم اطفاء الأنوار والأوامر، وتتصاعد دقات وابوره لب دب، لب دب، لب دب، موحشة كثيفة في البلدة المظلمة، كأنها القلب لا يزال يدق في جثة ماتت وشبعت موتاً.

وكان قاربنا واقفاً على حافة البحيرة وظهر البلد اليه. وكنا اذا التفتنا الى البحيرة ضاعت أبصارنا بين البحيرة الراكدة المظلمة في

السماء، والسماء التي استقرت بنجومها في قاع البحيرة. وكان قلع المركب مطويا نرى بدايته القرية منا، ولا نرى نهايته المذابة في الظلام. وكنا أربعة، والقارب صغير، وحلمي مضطجع، والريس جالس القرفصاء مستندا الى الصاري، والريح نائمة، ودق الواوور يصل الينا بانتظام يضايقنا انتظامه، وأنفاسنا تتقارب وتتباعد، والأحداث كثيرة، وغريبة ومتتابعة، وكلها تحدث في يوم واحد. ونتنفس بعمق فتمتلئ أنوفنا برائحة الزفارة. كل ما في البلدة يضج بها. الأرض والبيوت ورغبات الناس والقوارب. فالبلدة أهلها صيادون، والسماك صناعتهم، وفي كل مكان تجد آثاره، والقارب يهتز اهتزازات خفيفة، يجذبه موج صغير الى الداخل، ثم يدفعه الموج الكبير ليصفع به الشاطئ، والريس كوعه فوق ركبته، ويد من يديه ممدودة الى آخرها، واليد الأخرى فوق الدفة، ورموشه الطويلة مسبلة، وفمه نصف مفتوح، ويكاد شخيرته يتصاعد.

. واهتز القارب، وتحرك واحد، وخرجت في الظلام علبة سجائر، وتناولناها كلنا، وأخذ الريس سيجارة. وضعها بين أصبعي يده الممدودة ورفض أن يشعلها.

ومضى الدخان يتصاعد من أنوفنا وأفواهنا في صمت والبقعة التي نحن فيها أصبحت صفحة سوداء، فيها لطع بيضاء تحدد هيكل القارب، وولعة أربع سجائر تتوهج، وفوانيس النجوم الصغيرة تتأرجح، وناب الريس البلايني يبرق.

وقال حلمي فجأة:

- دأمش كلام؁ ما نرجع أحسن .

قال هذا وهو ينتفض بشدة ويقوم . ومال القارب حتى كاد ينقلب؁ وارتطمت جبهته ارتطاما عنيفا بالصاري حتى إنه صرخ . وما كاد القارب يعتدل حتى كانت يده تتحسس جبهته؁ وحتى كان يقول :
- أنا اجرحت يا جماعه . والله اجرحت؁ ياه ! ده فيه دم . ادوني مندبل .

وحدثت ضجة؁ وتناثرت الشتائم من فم حلمي؁ وكثرت التعليقات . ثم خمد الكلام وانقطع؁ ودلفنا الى سكون لا يعكسه الا صرير الصراصير المتصل الدائم .

ورفع الرئيس رأسه مرة وحدق الى بعيد؁ وتمايل القارب حين اندفعنا كلنا لنحدق .

كانت ثلاث كتل سوداء تتحرك مسرعة في اتجاهنا . . كتلة قصيرة صغيرة في المقدمة؁ والكتلتان اللتان وراءها تحاولان اللحاق بها وتخوضان برك الماء دون جدوى .

ولم يكن القارب قد تحرك؁ أو حتى كان في نيتنا أن يتحرك؁ ومع ذلك كانت من في المقدمة لا تكف عن الصياح :

- أوع تمشي . . أوع تمشي يا خويا . أنا أه . . أنا جيت . .

وفي غمضة عين كانت قد وصلت وقلدت بنفسها الى القارب؁ ولولا أننا قمنا جميعا وتلقفناها بأيدينا لكانت قد هوت الى الماء؁ ومددنا اليها أيادي كثيرة تساعدها؁ وأمسكت بأيدينا في قوة؁ وتحفز؁

وعصبية، وكانت أصابعها حادة صلبة ذات تجاعيد، والقبضة قبضة أم.

وأفسحنا لها مكانا، ولكنها لم تجلس.. ظلت تتلفت في قلق ولهفة ولا تستكين، وتود أن تقول أي شيء وتساءل عن كل شيء.. وحين وصلت الكتلتان قالت بسرعة وحسم:

- روحوا انتم بقي..

قالتها كمن يود رفع الهلب الذي يربطه بالشاطئ لينطلق. وتكلمت المرأتان.. في وقت واحد.. وكلام كثير. واحدة طويلة وعجوزة. وكلامها أيضا طويل عجوز.. والثانية فتاة. لا بد أنها جميلة فصوتها كان فيه رنة من اعتادت الثقة في نفسها وجمالها.. كانتا لا بد أخت وبنت أخت، وكان رد الخالة واحدا حاسما لا يتغير:

- روحوا انتم بقي..

ولم ندر لإصغائنا للحوار سببا. وعقولنا بدت لنا كالصفحة البيضاء التي لم يخط فيها حرف.. وما نسمعه كأنه أول كلام عربي نسمعه.

وأفاق واحد وغمز لجاره:

- مصيبة وجت لنا على الآخر.

وقال له جاره:

- ح تخاف دلوقت وتبهذل الدنيا.

وقالت الخالة مرة :

- روحوا انتم بقى .

وخرجت الجملة دون أن يسبقها أو يعقبها رد من الشاطيء . كنا قد ابتعدنا .

وبدت البحيرة لا نهاية لاتساعها وأصبحنا بالقارب والريس والصاري نقطة تافهة في الوجود غير المحدود . وتلك هي البحيرة فقط ، فما بالك ونحن من لحظة أن غادرنا القاهرة وطريق طويل يسلمنا الى طريق أطول ، والأرض الخضراء على الجانبين . أرض واسعة لا حد لاتساعها أوسع من أي شيء رأيناه ، أوسع من السماء ، فالسما تضييق بسطح الأرض ، فتنحني السماء وتصنع خط الأفق ، والأرض لا ينهيها خط ولا أفق . فبعد كل أفق تجد آفاقاً أوسع .

والقرى كثيرة لا حصر لها ، بين كل قرية وقرية قرية ، وفي كل قرية مئات البيوت ، وكل بيت يعج بعشرات الناس ، وكل هؤلاء مصريون - كلهم مصريون - لا يمكن أن يموتوا كلهم أبداً . ونترك أقليما وندخل اقليما والأرض لا تنتهي والناس لا ينتهون . أناس متشابهون ، وجوه لها لون أرضنا السمراء ، وذقون وشوارب كشوش الأذرة ، ونفس السحنات ، وكأنهم رجل واحد مصنوع من ملايين الرجال . ويقولون ان سيدنا نوح كان طوله ألف ذراع . ترى كم طول هذا العملاق الذي لم نعثر له على بداية ، وظلت السيارات والقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية . حتى حين

وصلنا المطرية، وانتهت الأرض وبدأت البحيرة، لم ينته العملاق بل تحول الى يد ضخمة، يد ذات عشرات الآلاف من الأصابع، يطلقها في ماء البحيرة فتملك البحيرة وتعتصر من مياهها خير ما فيها، وكما يحدث لليد اذا امتدت الى الماء وطال امتدادها، فالناس تصفر شعورهم، وتبهت بشراتهم، ويصبح لعيونهم زرقة الماء. ويتغير شكل الجسد ولا ينتهي العملاق.

كنا قد ابتعدنا.

وكل شيء أصبح مستقرا ما عدا الرئيس . . كان دائب الحركة لا يهدأ. المذارة في يده يغرسها في قاع البحيرة ثم يدفعها بصدرة، وأرجله تمرق من وراء ظهورها وتدور حول القارب، وأصابع قدميه تتشبث بالحافة في حنكة ودراية وكأنها قد تحولت الى مخالب صقر. وحركته تبهرها، وكأنه يقوم بمعجزة، يميل ليدفع القارب أكثر حتى لنعتبره ساقطا في الماء واذا به يرتد، والمذارة قد انتزعها وكأن ألف حبل خفي تصل بينه وبين الصاري، وتحميه من السقوط.

ولم تكن الراكبة الجديدة انسانة، كانت كتلة قلق حية جعلتنا نحس أن روحا جديدة حلت بيننا وبيننا، عيناها تنظران إلينا ولا تتفحصانا، وأيديها على ركبها، وأيديها على الحافة، وأيديها تضرع لإله غير منظور ورأسها يدور ولا يستقر، ويشني فجأة الى الشاطئ، ثم يرتد ويعود ويدور. وما كاد الرئيس يفرد القلع حتى التفتت اليه وقالت:

- مش على طول يا خويا .

وقال الرجل بلكنته البحراوية والمدراة لا تزال تحت ابطه :

- ايواه . . ربنا يسهل . .

وردت الخالة :

- انشالله انشالله الهى يخليك . .

والتفتت الى الجالس بجوارها وسألته :

- وانتو كمان .

فأجاب حلمي ويده تتسلل دون وعي وتنحس مكان الجرح

في جبهته :

- واحنا كمان . .

وعادت تسأل الرئيس :

- ونوصل امتى . . ؟

فقال حلمي :

- حد عارف . .

وأعادت السؤال وابتلعت ، فقال الرئيس :

- يا أمي ربك يعدلها . .

واستمرت :

- يعني بعد ساعة؟ . . إلهي يخليك لشبابك . . بعد ساعة؟

ولما لم يجب الرئيس، التفتت الى حلمي وسألته :
 - بعد ساعة يا بني؟ الهى يخليك . . بعد ساعة والا أكثر؟
 وهنا زعق الرئيس وقال :

- دا بتاع ربنا يا ستي . واللى منه لا بد عنه . هو ما فيش صبر؟
 والصبر هى الكلمة التى كان يبحث عنها كل منا لىسمى
 الرائحة التى أشاعتها الخالة من لحظة أن جاءت . كانت ترتدى
 كمعظم الخالات ثوبا أسود وطرحة سوداء، ولا يظهر من جسدها غير
 وجهها فقط، وثيابها كانت تبدو وكأنها لم تخلعها منذ أيام كما لو
 كانت أردية ميدان . وأشاع قدومها تلك الرائحة، رائحة العواجز التى
 لا يعرف أحد إن كان سببها هو رائحة الصناديق التى تحفظ فيها
 الثياب . أو هى رائحة نسيج الملابس نفسه . المهم أنها تذكرك
 بجذتك، وبالماضى، ومع أنها ليست عطرة الا أنك لا بد تحس
 بالألقة تجاهها، ولا تتأفف .

ولم تكف الخالة عن الكلام منذ جاءت . . ولم نكن نتكلم . .
 والرئيس هو الآخر ساكت . كانت قد مضت ساعات ونحن نترقب،
 كل ما يهمنى هو اللحظة التالية وما يحدث فيها . والكلام لا يدور فى
 جو الترقب، ولا يدور ساعة الضيق . . وكل شيء قد حدث على حين
 بغتة . كنا فى بيوتنا وأعمالنا وقال كل منا للآخر: ياللا، وإذا بنا فى
 الطريق وكان كأن لا ينقصنا سوى الاحتكاك لشتعل . وأصبح أهم
 شيء لدينا أن نرى ونسمع ونجهز أنفسنا للمشهد القادم والكلمة

التالية. . ووصلنا المطرية في الضحى، وانتظرنا الى أن يحل المساء لنعبر البحيرة الى هناك، وقضينا اليوم بطوله نعيش في بلدة الانسان والسمك. . والحياة تمضي من حولنا كما اعتادت أن تمضي طوال آلاف من الأعوام. . الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه البلطي يتزوجون البنات، والبنات شقراوات، أجسادهن لها تناسق «المز» ورشاقة الطوبار، وطعمهن أشهى من السمك الطازج اذا شوي في الفرن وأضيف اليه الفلفل والملح والثوم وعصير الليمون. ولهذا فكل يوم زواج، والأطفال كل يوم يولدون، الأسماك هي الأخرى تتوالد، ثم وتتكفل البحيرة بصغار الأطفال وصغار السمك. صغار الأطفال طول النهار في الماء يألفون الماء المالح ويألف الماء المالح أجسادهم، ولا أحد ينهرهم، ولا يخاف عليهم أب، فالبحيرة للصيادين غول مستأنس.

ويكبر الطفل فيكبر حب استطلاع، ويترك الشاطئ ويتعلم العوم، وصغار السمك أيضا تتعلم العوم. ويصبح طول الطفل متر وطول السمكة قراريط. . ويذوق الطفل طعم السمك، ويذوق السمك طعم الطعم فلا ينسى الطفل حلاوة السمك، ولا ينسى السمك حلاوة الطعم. ويمسك الطفل بسنارة ويخرج سمكة وتهزه الفرحة فقد هزم العالم المجهول الكائن وراء السطح البراق. ويهزمه مرة ذلك العالم المجهول ويعود خاوي الوفاض. ويفهم الطفل أن السنارة نصفها في يده يخضع لإرادته، ونصفها الآخر يعتمد على رغبات مجهولة في العالم المجهول.

ويسمع أباه يقول الحظ، ويردد الكلمة لا يعرفها، ثم يرددها وهو يعرفها ويؤمن بها، يؤمن بقانون آخر يحكم العالم المجهول، قانون لا يخضع لقانون.. ولا يستسلم الإنسان حتى لو كان خصمه قانون لا يخضع لقانون، ويبدأ الصراع الرهيب بين الصياد الصغير والبحر المجهول، ولا بد من أشياء تؤنس وحشة الإنسان في ذلك الصراع. لا بد من علامات تشاؤم وتفاؤل، لا بد من موال، لا بد من حدوتة، لا بد من أمل طويل لا ينقطع، لا بد من الصبر.. الصبر.

رائحة الصبر كنا نستنشقها ونتمثلها والقارب قد اندفع وابتعد عن الشاطئ وأصبحنا في قلب البحيرة، وشعاعات خفيفة متباعدة تنتشر في الأفق وتبشر بطلوع القمر، وهددة.. أصوات هدهدة هي كل ما يسمع والقارب يرفعه الموج الصغير ثم يرقده بحنان على سطح الماء، والموجات تهتز، والنجوم تهتز، والريس عند المؤخرة يهتز، يد على الدفة ويد ممسكة بحبل القلع توجهه ليعترض الريح. والريح شفاف خفيف، والدنيا برد، والبرد يكاد يتحول الى ابر.. ابر طويلة ثاقبة تخرق أجسادنا حتى تصل الى النخاع، والخالة جالسة، لا منكمشة على نفسها ولا منطوية وكأنها نعسانة أو ميتة.

وقال لها حلمي :

- دانة يا خالة؟

فأجابت :

- آه.. باقي كثير.. ييجي ساعة يا خويا؟..

٧٣٠

ونطق الرئيس:

- أنوي المشيئة يا شيخة . . قولي انشاء الله .

فقلت الخالة على الفور:

- انشاء الله يا خويا انشاء الله باذن الله . بعد ساعة؟

وكادت موجة الحاذيث تنتشر لولا أن الرئيس أسكتنا، فالهدوء مخيم، والكلام ينقله سطح الماء المستوي الى مسافات بعيدة، والبحر له آذان.

ورحنا نهمس . قالت الخالة:

- انتم كمان رايعين؟

فقال حلمي:

- أيوه . .

وسألتنا كلنا:

. - ورايعين ليه؟ انتم من هناك؟

- لأ . .

- ليكو قرايب أمال؟

- أبدا .

وقال الرئيس وهو يتسم:

- ما قتللك دول فداوية يا ست . .

وتعلملنا، فلم نكن من الفدائيين أو المحاربين، وهمنا أن ننطق
ولكن الحالة تمنعت فينا وسالتنا:

- انتو صحيح فدائية يا ابني؟

فقلنا:

- آمال ح نكون ايه يا خالة .

وتركت الحديث ووضعت يدها برفق على كتف حلمي وقالت:

- ما تحطش ايدك ع الجرح يا ضنايا لحسن وحش..

وأنزل حلمي يده بعد تردد، واختطف سيجارة من واحد منا
وسألها:

- وانتي رايحه ليه يا ست؟

ولم تجب ولمحنا دموعا تهطل على الفور من عينيها دون بكاء،
واستغربنا، وأعاد حلمي السؤال فقالت:

- رايحة أشوف ابني .

ولم تنطق «ابني» حروفا كانت من دموعها أكثر من الحروف وهي
تنطقها.

- ابنك ماله؟

وأجابت:

- ابني يا خويا : . هناك . .

- بيمعمل ايه؟

- مجروح . . مجروح يا ضنايا وما شفتوش بقالي شهر.

واندفعت تبكي . وشل بكاؤها الستتنا، ولكن حلمي الح :

- مجروح ازاي؟

ومضت تتكلم وتبكي وتتكلم :

- جتله رصاصتين في رجليه . . الهي ينتقم منهم البعدا.

- ليه؟

- كان بيحارب في الهوجه ساعة ما نزلوا.

- كان بيحارب!؟

قلناها كلنا مبهورين، وكأننا نردد أمنية غالية، وكأننا نطلق دعوة. ولم تكن أمنيّتنا وحدنا، كل من قابلناه كان يرددها، وقليلون هم من أتاحت لهم الفرصة، فالمعركة كانت حادة وباترة نشبت فجأة، وانتهت فجأة، ولم تستمر سوى أسبوع وكأنها طعنة خنجر، حتى أصبح في نظرنا البطل هو من كان هناك والمقدس هو من اشترك فيها، أصبح كل من اشترك فيها يحف به في نفوسنا نوع من التقديس وكأنه أسطورة، وكأنه كائن غير موجود، فاذا بالخالة ابنها قد حارب، وجرح، وقلنا لها:

- وزعلانة ليه؟ . . ابنك بطل.

- عايزه أشوفه . .

- دي اصابته بسيطة، ومالك نازله بكاء عليه يا ستي؟

- بقالي زمان ما شفتوش... مشتاقاله وجيت مرة المطرية قبل كده... وركبت القارب... ووصلنا بور سعيد... والانجليز حاشونا ثلاثة أيام وكان الرصاص زي الناموس فوق روسنا وبعدين رجوعنا... ودي ثاني مرة... ح نوصل امتى يا خويا؟... الهى يخليك... عايزه أشوفه... مش قربنا؟

وتناهى السؤال الى وعينا غريبا مدويا. وانطلقت عيوننا نستكشف البحيرة. وفقدنا الابصار في المسطح اللانهائي من الماء، وغابات الحشائش المتناثرة، والسماء ذات الضوء الشاحب والقمر المكسور الذي بدأ يزحف صوب الأفق، ولا شيء سوى هذا... لا شيء سوى الماء الكثير الأسن، الماء الأسير، الباقي بعد الصراع، صراع النيل والبحر الكبير، النيل الهائل الذي أنشب أظافره في البحر وأسر الكثير من مائه، وحاصره، وصنع البحيرة، لا شيء سوى سكون... سكون غامض مثير، مليء بأسرار وألغاز، سكون الأسرى ومعسكرات الاعتقال، سكون مرعب مخيف، سكون البحيرة التي عبدها القدماء.

ولم نكن بعد قد عرفنا الكثير عن ابن الخالة... كنا نود أن نعرف كل شيء عنه من لون شعره لطريقته في المشي.

قالت:

- أبدا يا بني... لما الضرب خصل قال لازم تسافري. قلت ما اسافرش. قال لازم. قلت له يا بني انا ماليش الا انت وربنا. هو

حيلتي من دنياي . . أسيبك ازاي . قال لازم وركبني المركب . ورحت مصر . يقطعني أنا اللي ما استنيت وياه . . يقطعني اللي سبته .

- وحارب؟!

- وحارب وجتله رصاصتين في رجله .

- وعرفتوا ازاي؟

- هو في المستشفى بيعت لنا جواب في الصليب الأحمر يا خويا . . وقال الخدمة زي الزيت ومفيش أكل . يا بني يا حبيبي ! مين يجيب له يشرب اذا عطش؟ مين يسقيه؟ مين يسأل عنه؟

واعتدلنا جميعا .

كان الأمر يتأرجح في نفوسنا بين الشك واليقين، كنا نعتقد أنها لا بد أم قد لسعها الشوق الى ابنها المحجوز هناك وصممت على رؤيته . وقصص البطولة مودة . كل قاطن هناك لا بد اشترك، وكل قاطن بطل، وكل واحد قتل من الأعداء مئات . وتبادر الينا أن الخالة هي الأخرى تود تضخيم الأمر واختلاق المستحيل لتصل الى هناك . . ولكننا اعتدلنا . . فغير الأم لا يستطيع أن يمثل أبدا دور الأم، وأم غير المجروح لا تستطيع أن تمثل أبدا دور أم ابنها المجروح . وكانت في جلستها التي لم تغيرها، والتي يخيّل للانسان اذا رآها أنها واقفة، وواقفة على طراف أصابعها وليست جالسة، وعيونها وهي تنظر الى بعيد ولا تطرف ولا تمل الرؤيا والنظر وكأنها تتشوف إلى حبيب، وكلماتها، والطريقة التي تنطق بها كلماتها، ودموعها التي تغرق

الكلمات وتغص الحلق، كانت بلا ذرة شك مجروحة وأم مجروح.
اعتدلنا ونحن نحس بقشعريرة انبهار.. وكأننا ونحن ننظر اليها نعبد
الخالق أو نصلي للشرف.

وقال حلمي:

- خالة..

- نعم يا خويا.

- انتي زعلانه انه حارب؟

- أنا يا بني زعلانه انه مجروح ودلوقت لوحده.

وقهقه حلمي كمن يود أن يغير طعم الحديث، وسألها في سخرية
غير لاذعة:

- طيب.. افرضي يا خالة انك كنت وياه ساعتها.. كنتي ح

تخليه يحارب؟

وانحدرت دموع كثيرة من عينيها، وقالت في لهجة روتينية:

- أيوه كنت أخليه.

وزام حلمي غير مصدق، فتابعته اجابته بإخلاص هذه المرة:

- كنت اخليه اخليه.. انما لازم كنت أحارب وياه. رجلي على

رجله.

وقال حلمي مستخفا:

- تشيلي البندقية؟!

- أشيلها..

وتدخل واحد وقال:

- طب شيل انت ايدك من ع الجرح يا حدق.

وتنبه حلمي الى أن يده كانت قد عادت الى مكانها فوق الجرح دون وعي منه، فأنزلها، وتوقف برهة، ثم تابع استخفافه ليداري خجله:

- وتضربي نار يا خالة؟

- اضرب ما اضربشي ليه؟ أهم يقولوا ان الستات كانت بتضرب.

وتابع حلمي استجوابه:

- طيب افرضي انه تعور وانتي بتحاربي معاه، تعملي ايه؟ ويكت ولم تجب. وأسكتنا حلمي. ولكنه فعل هذا للحظة ثم عاد يسألها:

- يا ستي دا الحكاية بسيطة.. وهو في المستشفى، وزمانه طاب. ومالك ملهوفة عليه قوي كده ليه. هو انتي لوحذك. ما كل واحد اتعور له أم زيك كده. ما كنت نستنى لما يخرجوا الانجليز وتروحي في أمان بدال ما تعرضي نفسك للموت كده. انتي لازم ترجعي وتستني.

فأجابته بلهجة هادئة ولكنها حاسمة:

- ما اقدرشي استنى.

- ليه؟

- عايزه اشوفه . زمانه لوحده . عايزه اشوفه بعد اللي حصل . دا كان في الحرب يا بني . الهي ما يحرق قلب أمك عليك .
وضحكنا لذكر أمه ، ومع هذا لم يملك كل منا بينه وبين نفسه الا يتذكر أمه ، ثم ينفىها على عجل من ذاكرته .
وحلت لحظة صمت . .

الريح بدأت تتعش ، ونور السماء قد خفف كثيرا من ظلام البحيرة ، والقلع منفوخ ، وفم الريس مفتوح ، وعيونه لا تغفو ، والجو مملوء بالصرير المتصل الذي لا ينضب ولا ينقطع . .

وسألها حلمي بصوت شاعري عمود يقارب لهجتها :

- هو كبير يا خاله؟

فقال دون أن تنظر إليه ، وعيناها هائمتان معلقتان فوق نجمة بعيدة في قاع البحيرة :

- اهو اسم النبي حارسه ييجي قذك كده .

- ومتجوز؟

- خطباله . .

وارتفع صوت حلمي في هزار مفاجيء :

- وزعلانه قوي كده ليه؟ تلقاه كان طول النهار نازل فيكي

شتيمة .

- أبدا والنبي يا خويا . . دا لسانه مفيش أنضف منه .
- وكان بيشتغل ايه يا خاله؟
- عندنا دكانتنا يا خويا . . آمال هو قعد ليه؟ . . قال لي ما أسيش الدكانه للانجليز ينهبوها أبدا .
- وكان بيحب مصر يا خاله؟
- مصر مين يا خويا؟
- مصر بلدنا . .
- وحد يا ضنايا يكره بلده . . الهى يخليك . .
- وصنعت الدموع خططين رفيعين لامعين على وجنتيها، واندفع حلمي يقول في حماس مفاجىء:
- قا ستي ابنك راجل واتعور في معركة رجالة . اتعور وهو بيدافع عن بلدنا وشرفنا . بكره يكتبوا اسمه في الجرائد وينشروا صوره .
- فأجابت وهي تهز رأسها:
- بس عايزه اشوفه، عايزه أشوف ايه اللي جراه . . الهى يخليك يا ريس . لسه كثير؟
- ولم يجب الريس .
- وهز حلمي رأسه في يأس، ثم تنبه فجأة وقال بالانجليزية وكأنه عثر على كنز كبير:

- أتعرفون لماذا هي مصرة على رؤية ابنها؟

وقال له واحد بالعربي:

- ليه؟

فقال:

- انها تدرك بغريزتها أنه لا بد قد تغير بعد المعركة. تريد أن تبين ما حدث له من تغير وكيف أمكن لابنها الذي ربه ورأته طفلا، كيف أمكنه أن يحمل السلاح ويحارب. وتريد فوق هذا أن تطمئن الى أنه لا يزال ابنها بعد أن حارب كالرجال وحمل السلاح.

وضرب واحد يد حلمي التي كانت قد تسلفت مرة أخرى الى جبهته وقال بالانجليزية أيضا:

- يا مغفل أهم شيء هو القوة الرهيبة التي تجذب الأم الى ابنها. القوة التي لا يقف أمامها حائل.

ولم يظفر التعليقان بتعليق، كل ما حدث أن الحالة ظلت تنظر اليهما وهما يتكلمان، ثم التفتت إلينا وسألتنا:

- أما انتورايجين ليه يا خويا؟

فأجابها حلمي:

- مش قلنا لك فدائية. مش مصدقة والا ايه؟

وكدنا نضحك لولا أن سمعنا الرئيس يقول:

- اسمعوا .

فسكتنا برهة . . وعاد يقول :

- سامعين ؟

وأصغنا أسماعنا . ومن بعد سحيق تلقفنا صوت هدير غريب
على السكون المستتب . .

وقال الرئيس :

- دا لنش .

فقال حلمي على الفور :

- لأ . . دي طياره .

- بقولك لنش .

- أقطع دراعي ان ما كانت طياره . .

وخيل الينا أننا ظللنا ساعة ننتظر النتيجة ، وكان الرئيس يتكلم :

- الانجليز عملوا استعدادات جامده ، طياره ام مروحه رايحه
جايه على البحيرة ، تشوف القوارب وتعرف اذا كان فيه صيادين واللا
لأ . وبعدين قبل الشط بشويه تقف والا تضرب بالنار . وبعدين قارب
بيجي يفتش . انما دا صوت لنش ما فيش كلام .

وظل الصوت يهدر من بعيد ويقترب حتى رأينا في الضوء
الشاحب نقطة فاتحة تتحرك ، وكانت تتحرك في نفس اتجاهنا .

وقال الرئيس بنبرة فيها انتصار قليل:

- مش قتللكم؟ دا لنش. وجاي من ناحية المنزلة كمان.
عارفني رايح فين؟..

وابتسم حتى توهج نابه وأردف:

- علي هناك برضك.

وسأله حلمي بسخرية:

- ايش عرفك؟

فأجاب:

- ايش عرفني؟ أنا عارف قوي.. وما تزعلش.. تلاقي فيه
ناس كمثلكو برضه.

وتغيرت لهجة حلمي واهتز طرباً وقال:

- كده.. طب تيجي ننادي عليهم يا جماعة.

وانهالت الأصوات تعترض. وقال الرئيس:

- خليهم يا محترم في حالهم واحنا في حالنا. خلي كل حي في
سكته.

وكان اللش أسرع مناه، فسبقنا وأوغل في التقدم حتى تبدد
صوته. وقال الرئيس وهو يضرب ركبته المثنية بيده:

- يا خويا ايه الحكاية؟ دا المراكب بطلت صيد. أنا واحد م

الناس ليلة مبارح وليلة أول وكل ليلة عمال أحول في ناس زيكو
كده. صفوف ورا صفوف عماله تروح على هناك. هو هناك ايه؟
مولد؟.

وقاطعته الخالة قاتلة لحلمي :

- يا حبيبي شيل ايدك من على الجرح.. عمال نحس عليه ليه.
شيل يا خويا.

وجمدت يد حلمي وكأنا ضبط متلبسا.. ثم أنزل يده وهو
يداري ابتسامة خجل ويتمتم :

- لا.. دانا أصلي بس حاسس أني سخن..

وما لبث أن انثنى الى جاره قائلا :

- والنبي تحط ايدك تشوفني سخن والا لأ.. يا أخي شوف.

ولم يترك الجار الا بعد أن أطاعه ووضع يده فوق جبهته.

وكنا قد دخلنا منطقة خالية من جزر الحشائش، والريح بدأت
تقوى حتى أن الرئيس ربط حبل القلع في مؤخرة القارب، وأمسك
بالدفة فقط، ولكنه ظل مقطب الملامح، عابس القسمات. صامتا لا
ينطق وكان أمرا كبير يحيره، أو حزنا مفاجئا داهمه، وكان جالسا ظهره
الينا. وظل على هذا الوضع لا يغيره، وكنا قد تعبنا من التفكير
والكلام وحتى من مجرد التحديق في السماء والماء، فسكتنا، وماتت
الحركة على ظهر المركب تماما حتى لم نعد ندري أهو واقف أو
يتحرك؟ وهل نحن نائمون أم مستيقظون؟

وانثنى الرئيس ناحيتنا فجأة حتى تهطلت اللاسة التي كان يتعمم
بها من عنف الحركة، وقال:
- قولولي يا سيادنا..

وقبل أن نسأل ماذا يريد أو نتحرك، قال بنبرات حاسمة وكأنما
يتخذ قرارا خطيرا:
- انتو مش فداويه؟..

ولا ندري لماذا دقت قلوبنا بعنف، وكأنما كنا نسرق وباغتنا
الرئيس.

وظللنا وقتنا طويلا صامتين، صمتاً حائراً مضطرباً، صمت
العاجزين. وكان حلمي أول من تكلم، وقال:
- آمال احنا ايه؟ بنلعب؟!

وحقق الرئيس فينا مرة أخرى وقال:
- عليّ الطلاق بالتلاته انتم ما انتم فداوية.
وقال حلمي ساخرا مرتبكا:

- أما حكاية!.. آمال رايحين نعمل ايه يا بلدينا؟
فأشار الرئيس بكفه وهو يقول:

- ما هو ده اللي محيرني. رايحين تعملوا ايه؟. رايحين ليه؟ هو أنا
عيل؟. دانا افهمها وهي طايره. والناس بتبان. الواحد ياما شاف

فداوية وظباط وجن أحمر. انما اللي محيرني انتورايحين ليه؟ ..

واستمر حلمي ساخرا مرتبكا:

- طيب .. رايحين ليه؟

فأجابه الرجل:

- أنت بتسألني انا .. اسألوا نفوسكم! ..

ولم نكن حتى تلك اللحظة قد سألنا أنفسنا أبداً أو ناقشناها. ولم يكن أحد قد سألنا. كل من علم أننا ذاهبون كان يتمنى لنا حظا سعيدا ولا يستغرب. بل ان كل من قابلناه أو رأيناه كان يتمنى أن يأتي هنا. وكنا نأخذ الأمانة على أنها شيء طبيعي لا غرابة فيه، كمن يقول: نفسي آكل، أو نفسي أشرب.

طوال صمتنا كانت الخالة ساكنة: ولكنها لما رأت الصمت طال قالت:

- يه .. آمال يا خويا رايحين ليه؟ ..

وتكلمنا كلنا في وقت واحد:

- انتي صدقتي الرئيس؟ إحنا فداويين صحيح ..

- أهو رايحين كده .. نتفرج ..

- أصل يا ستي فيه مقاومة شعبيه هناك .. و ..

- لنا قرايب يا خالة بس من بعيد رايحين نطمئن عليهم.

ولم يدخل ما قاله كل منا في عقله، ولا في عقول الآخرين، ولا حتى في عقل الخاله.

ومضت تحقق مع حلمي وتساءل وتدقق عن الأسباب التي تدعونا للذهاب وحلمي يحاور ويداور، والريس يتسم ابتسامة من فقس الفولة، ونحن ساكتون..

أحيانا يفيق الانسان فيجد نفسه متجها الى مكان معين، هكذا، بلا وعي أو تفكير. وقد جعلنا سؤال الريس نفيق. وحين أفقنا كان كل شيء أمامنا له سبب.. الخالة ذاهبة لتري ابنها، والقارب يتحرك لأن الريح تدفعه، وحلمي جرحته جبهته لأنه ارتطم بالصاري، أما نحن فلماذا نحن ذاهبون؟

رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا، لأول مرة..

ولم نجد جوابا معقولا أو مقبولا. كل ما وجدناه كان احساسا كبيرا لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال. احساس ان شيئا هائلا مؤلما قد حدث هناك وأنا يجب أن نكون بالقرب مما حدث.

وانتهى نقاش الخالة مع حلمي حين ارتفع صوتها وكره غضب:

- بقي. تموتوا ارواحكم كذب في نصب. لا انتم فداثية ولا حرس ولا حاجة ورايجين تموتوا ارواحكو. انتو مالكووش أمهات؟ النبي يا ريس اعمل معروف رجعهم.. رجعهم اعمل معروف.. تكسب ثواب ما تخليهم يهوبوا على البر. الهي ما تحرق قلب أم على ولدها يا رب:

وقال الرئيس:

- ما تتعبيش نفسك يا امى . . اللي عقله في راسه يعرف خلاصه . لازم في نيتهم حاجه . خليه يا ستي كل حي في سكتة . وكان يقول الجزء الأخير وهو يقف ويتمغط ويتشاءب . ولكنه كف عن ثأؤبه وقال بإرءاق كثير:

- بصوا . .

واتجهنا كلنا الى حيث أشار . . وهناك . . عند نهاية الأفق، وفي ضوء الفجر المشبع بالبرودة، كانت توجد غمامة كثيفة داكنة فيها أضواء قليلة صفراء معطوبة تكاد تذبذب . .

وقال الرئيس:

- أهه . . خلاص . . وصلنا .

وتركت الحالة ما كانت تهمس به لحلمي وقالت بفرحة منفجرة:

- والنبي؟ والنبي يا خويا؟ الهى يخليك لشبابك، الهى يسعدك.

وفي الحال انتفضت على وجناتنا عروق . وفي الحال مضت تدق، شيئاً كدق الحرب ورحنا ننظر وقد تركزت أرواحنا في أبصارنا وامتلات صدورنا بدفء مفاجىء، ورغم احتجاجات الرئيس وصرخاته وتمايلات القارب وقفنا جميعاً، وتكاتفنا لتساند وتأمل الغمامة الرمادية البعيدة ذات الأضواء . كانت رهيبه كثية كنموسية غامقة مسدلة على مجروح . مستحيل أن تكون ناموسية مسدلة على مجروح . لا بد

هناك أناس.. مصريون. لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبدا..
ابدا..

انفعالات تفور وتنسكب، والرمادية تختفي لتأخذ مكانها سمرة.
أرض سمراء أوسع من السماء. والغمام ينقشع في أذهاننا ويبدو وجه
الشمس.. أجمل شمس. وعلى ضوئها تبدو ملايين السحنات التي
رأيناها طوال الطريق وكأنها وجه عملاق كبير مصنوع من ملايين
الوجوه، وعلى رأسه مليون طاقية، ومليون عمامة ولاسة وكوفية،
والعدو أيضا هناك وراء الغمام، عدو بشع كثير، ونحن القادمين
قبضه، لماذا لا يأتي كل الناس؟ لماذا لا يتحرك العملاق كله وينقض؟
متى يتحرك العملاق؟

وأقوى من أي انفعال وأعظم، كان شغفنا الخارق أن تنتهي
المسافة ونصل الى هناك، ونزيع لفافات الغمام لنرى ما تحفيه..

وفطنا بعد وقت الى أن الرئيس يتكلم ويقول:

- لغاية هنا وما أقدرشي أتقل ولا خطوة.. الشط مليون مدافع
ودواهي. انتم بقى تتوكلوا على الله من الناحية دي البحيرة مش
غريقة.. دي لحد الركبة بس. تخوضوا من هنا على طول.. ح تطلعوا
جنب التربة. الصراحه كويسة وبذمتي وديني لو كنت أقدر كنت وديتكو
انما العين بصيره واليد زي ما انتو عارفين.. اتوكلوا على الله.

ووقفنا برهة.. تلك البرهة التي تسبق العمل الخطير. الشاطئ
أمانا هادى هدوء مرييا كهدهو البركان قبل اندلاعه، والغمام كثيف

يجب كل شيء.. والخط الممتد أمامنا لا بد كله فوهات بنادق
ومدافع، والسماء كأنها تدوي بأزير العشرات من قاذفات القنابل.
بل سمعنا بأذاننا طلقات رصاص.. بعيدة ولها أنين.

وقفنا برهة وترددنا. تلك هي اللحظة الحاسمة.. اللحظة التي
ادخرها كل منا ليختبر نفسه وشجاعته. هناك حيث كنا نعيش لم يكن
أحد يستطيع أن يميز بين الجبان وبين الشجاع، فكلاهما متاح له أن
يعيش. حتى الشخص نفسه لا يستطيع أن يدرك معدنه. في لحظة
كتلك يعرف الإنسان نفسه، واللحظة حادة وفاصلة، وقلوبنا تدق،
وعيوننا ترقب الشاطئ، وأجسادنا متقاربة، ونظرات مختلصة بصورها
الواحد إلى نفسه والواحد إلى جاره، والبرد قد اشتد فجأة، ولم نعد
ندري أهو صادر من البحيرة أم من أعماقنا، والسماء تنبهرت وتبهت،
وطيور النورس تنقض على سطح الماء ثم تعود وترتفع وفي منقارها
سمكة، وتكاكي وتتقاتل، والصوت الذي تحدته هو الوحيد الذي
يسمع.

وقطعت اللحظة ثممة الرئيس:

- اما وليه غريبه! طب تقول كتر خيرك..

ثم ارتفع صوته أكثر:

- مش من هنا يا ست.. خدي يمينك شويه لحسن الحجة اللي
قدامك غريقة.

وأدركنا أن الخالة غادرتنا ومضت دون أن تفتح فمها بكلمة،
وكادت تصبح على مرمى البصر.. تخوض الماء، وتتمايل، ، وتتوقف
برهات، ولكنها لا تتلفت، ولا تكف.

وارتفعت أصواتنا:

- استني يا خاله.. استني شويه..

وفوجئنا بها تفق وتستدير إلينا وتقول:

- لآ.. روحوا روحوا انتم بقى.. مع السلامة.. والنبي ينوبك

ثواب ما تسيبهم يا ريس.. روحوا انتم بقى.

واستدارت على عجل، وأسرعت كالملهوفة الخائفة أن يفوتها
قطار، وأخذ سواد ثيابها يختلط بالضباب والشحوب، ويقترب من
رمادية الشاطئ.

ومرة أخرى دوت في آذاننا طلقات الرصاص البعيدة التي تصدر
عن مكان غامض.

ورغم كل ما كان يدور في رؤوسنا من خواطر واحتمالات،
فنحن لم ندر لماذا أسقطناها كلها فجأة، وركزنا انتباهنا وكأننا أطفال
سذج على يد حلمي التي كانت وقد عادت تتحسس مكان الجرح
بطريقة تلقائية غريزية لا تمت إلى عقل أو منطق.

وخبط الريس بكفه على خشب الصاري وقال:

- هيه يا سيادنا؟

وقال حلمي : أحسن طريقة نستني لما النهار يطلع ..

وسمعنا طرطشة الماء، أيقنا ان واحدا لا بد قد هبط.

وقال حلمي :

- أهم شيء ان احنا ما نندفعش . قليل من العقل .

وطرطش الماء مرة أخرى وهبط واحد ثاني. وقال حلمي

بعضية :

- هو أنا بكلم مجانين؟ ما تفهموا أنا بقول ايه . .

وهبط الثالث . .

وضرب حلمی الهواء بیده وقال:

- هی شطاره یعنی؟ .. طب هه ..

ثم هبط . .

وواحد وراء الآخر رحنا نخوض في الماء وقد انتظمنا صف
متباعدا الوحدات، وكأننا أصابع عملاق كبير تتحرك في اتجاه
الشاطئ، وكل ما يهمننا أن ننتزع أرجلنا من الماء والطين، والبحيرة
تشخس حولنا، والنورس ينقض ويستغيث، والماء لله لله لله +
٢ = - ٥ لله ٠ لله ÷ لله × لله +، لله ١٠ لله ÷ لله × ١٥ لله
ومن البحيرة، ولم يعد هناك سوى نجمة الفجر، وقوى القاهرة وراء
الستار تجذبنا الى الجرح الكبير وتعشينا.

... قاع المدينة

- ١ -

يكاد يكون من المستحيل ان يفقد الانسان ساعة يده . فهو اذا خلعها لا بد يضعها في مكان يثق فيه ، واذا ارتداها فلها جلدة أو «أستيك» يطبق على معصمه ولا يستطيع أمهر نشال أن يفكه . ولهذا فأغرب ما قد يحدث لانسان ان يقلب يده ليعرف الوقت فلا يجد ساعته في المكان الذي تعود أن يجدها فيه . هو حينئذ يقول لنفسه : لا بد اني نسيتها في مكان ما ، ولا بد أن يتذكر أين ، فالأمكنة التي يضطر الانسان لخلع ساعة يده فيها أمكنة محدودة جدا ومن السهل تذكرها . وهذا بالضبط ما حدث للقاضي . ففي الجلسة دفعه الملل من المرافعات الطويلة ومناكفات المحامين إلى النظر في ساعته ، وفوجيء حين لم يجدها . وبينما كان محامي المدعي عليه يسوق دفعا فرعيا كان عقل الأستاذ عبد الله القاضي يعمل بسرعة فائقة ليتذكر أين يمكن أن يكون قد نسي الساعة . وخطر له احتمال أكيد . أن يكون قد تركها في عجلة الصباح فوق التسريحة في حجرة النوم ، ولكنه لم يطمئن الى الخاطر وقرر أن يسأل فرغلي الحاجب . وسؤال فرغلي هو أول ما يتبادر

الى ذهنه حين ينقصه شيء أو يحتاج الى شيء أو يشكو من شيء . اذا لم يجد القلم ففرغلي هو المستول، واذا تاه دوسيه فهاتوا فرغلي، واذا كان لديه صداد فأول من يعلم هو فرغلي . ورفع الجلسة أمر سهل . . كان محامي المدعي عليه لا يزال يفصل في الدفع الفرعي . وحدث أن توقف ليتلعل ريقه وفي الحال قام القاضي واقفا وانتهاز الفرصة وقال: رفعت الجلسة . وانتفض كل من بالمحكمة واقفا بينما مضى المحامون يتهايمسون ويتساءلون فيما بينهم عما يمكن ان يكون السبب، وهل لبلاغة محامي المدعي عليه علاقة برفع الجلسة يا ترى، أم أن المحكمة أرادت أن تستشير قانون عقد العمل؟

وحين أصبح الأستاذ عبد الله في حجرته كانت يده تدق الجرس . وجاء فرغلي قبل أن يدق الجرس . . ورمقه القاضي فوجده كالعادة منتصباً أمامه في أدب وقد صنع من أعوامه الخمسين عاموداً حياً لا انحراف فيه ولا اعوجاج، فكرشه قد شفته تأدياً، وطربوشه قد مال الى اليمين في اتزان وقور حتى أصبح الزر فوق الأذن اليميني تماماً وأطرافه تداعب أعلا الأذن، والوجه جامد كله احترام، والرأس معوج قليلاً الى أمام لتستطيع الأذن أن تلتقط أدق الهمسات، واليدان مضمومتا القبضات متحفزتان لأية إشارة . وليس هذا كل شيء، فأفندم تعقب الوقفة، وتخرج كل أفندم مثل الأخريات فيها خناقة تدل على التواضع، وخفوت يدل على الاستكانة، وقصر يدل على استعداد تام للقيام بأية مهمة .

- أفندم . .

ورمقه القاضي وتعجب . وسأله عن الساعة .

وانتفضت فتل زر الطربوش واصطكت بجداره الأحمر في عنف ،
وفرغلي ينفي نفيا أنه رأى الساعة أو له بها أي علم . وكان الأستاذ عبد
الله يتوقع اجابته تلك اذ إن فرغلي لا يمكن أن يكون قد رأى الساعة
أو له بها علم . كل ما في الأمر أنه كان لا بد أن يسأله حتى ولو ليقول
لا .

وأيقن حينئذ أنه لا بد قد نسيها فوق التسيحة في حجرة النوم .
وحين عاد الى البيت كان أول ما فعله أن ألقى على التسيحة نظرة
خاطفة . وانقبض حين لم يجد الساعة فوقها ، وأيقن تماما أن لا بد قد
ضاعت أو سرقت . من أين جاءه ذلك اليقين ؟ لم يكن يدري . لعله
تشاؤم كامن في النفس لا يبرز الا في أوقات مثل تلك ! لعله وهم ! ومع
هذا انطلق يبحث عنها في الأدراج والكومودينو والدولاب وتحت
المكتب . ولعل مبعث حماسه للبحث كان فقط لتكذيب ذلك اليقين
المفاجيء الذي انتابه وأكد له أن الساعة قد ضاعت ما في ذلك أدنى
ريب .

وقلب الأستاذ عبد الله البيت رأسا على عقب دون أن يعثر
للساعة على أثر . وجلس .

كان اثناء عملية البحث قد خلع بنطلونه وسترته وبقي بالقميص
والخذاء والجورب ليستطيع الانحناء والنظر تحت الفراش والكراسي ،
وأكياس المخدات ، وكل تلك الأمكنة التي ما أن يضيع من الانسان

شيء حتى يتبادر إلى ذهنه على الدوام انها لا بد تحت كنبه أو كرسي أو فوق دولاب. وفي الغالب لا يجد في تلك الأماكن سوى أكوام الغبار والعناكب. ومع هذا كلما ضاع منه شيء بادر اليها، وكأنها مخازن أمل يبقياها الانسان ليلجأ اليها حين يخاف أن يستحوذ عليه اليأس.

جلس الاستاذ عبد الله على الكرسي، ووضع ساقا عارية بيضاء فوق ساق، وراح يفكر ويستغرب. وانسان مثل الاستاذ عبد الله تعترضه مشاكل من كل نوع ولون، ولكن أن تضيق ساعة يده، مشكلة غريبة ربما لا تحدث - اذا حدثت - الا مرة واحدة طوال حياته.

وكان للمشكلة وجهان. فمن ناحية كان ضياع الساعة حدثا ضخما يطرق حياته التي أصبحت مملة ورتيبة. ثم أن تختفي الساعة من البيت، بل من حجرة لها جدران أربعة صماء شيء يجعل من المشكلة لغزا كتمارين الهندسة المستعصية يحلو له أن يحله ويجهد فيه عقله.

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو الوجه العادي لها، اذ كان منقبضا لضياع الساعة لا لأنها أثرية أو ذات قيمة أو هدية حبيب أو شيئا من هذا القبيل. أبدا، كانت ساعة عادية جدا لا ذهب فيها ولا بلاتين، (أنكر) ١٥ حجرا كان قد اشتراها قبل الحرب وقضت معه سني الحرب وبقيت ملازمة له بعدها، بقيت كالشريك المخالف كل يوم لها حادث، زميلك ومسح وزجاج وتروس، حتى صرف عليها ثمنها وزهق منها وأصبح منظرها يثير. لم تكن ثمينة اذن، ولكنه ما كاد يوقن أنها

انها ضاعت حتى انقبض. ان الانسان لا يعرف قيمة الشيء الا اذا فقدته. طالما هو معه فهو معتاد عليه بل قد يكون ضيقا به، ولكنه ما يكاد يضيع حتى يحس الانسان وكأن جدارا في نفسه قد انهار، وتبدأ حينئذ قيمة الشيء الحقيقية تأخذ مكانها في نظره.

كان منقبضا. لو كان هو الذي ألقاها بيده من النافذة لما أحس بلمحة أسف، ولكن ضياعها هكذا عنوة، ورغم عنه، شيء يستثير الضيق والتحدي.

كيف تضيع الساعة من فوق التسريحة بكل بساطة؟

القيمة المادية هنا لم تكن ذات وزن. فالأستاذ عبد الله على كل حال، لا يمكن يؤثر في مجرى حياته ضياع ساعة. هو رجل مبسوط، بل كان طول عمره مبسوطا. ولد مبسوطا، وتعلم مبسوطا، حتى وهو طالب في كلية الحقوق كانت له عربة «توبولينو» صغيرة، وكان والده المرحوم على قيد الحياة، وكان ينفق عن سعة وكان وكان.

انه قاض، ولم يتزوج بعد ومع هذا فشقته فاخرة الأثاث، وحياته مليئة بالأرقام ٣٤٤٥، ٢٩٩٨٧٦، ١٠٠٣١، ٦٦، ٨٣٤٥ وهي أرقام عربته وثلاجه وبوليصة التأمين على حياته، وشقته ورقم حسابه في البنك.

ولا يتسرع أحد ويخمن أن الأستاذ عبد الله فاحش الغنى. هو رجل متوسط الحال، بل يكاد يكون متوسطا في كل شيء. فهو ليس طويلا، ولا يمكن أن تقول إنه قصير، وكذلك لا هو بالرفيع أو التخين، ولا بالأبيض أو الأسمر. بالاختصار اذا أخذنا مائة رجل من جميع أنحاء

العالم وأخذنا متوسطهم في الطول والوزن والبشرة لوجدنا أمامنا الأستاذ عبد الله . . حتى الشاي ، تقول مدام شندي وهي توزع السكر: كام حنة يا عبد الله بك؟ وفي العادة تستدرك نفسها وتقول: آه . . أنا عارفة . . انت بتجبه مضبوط . . حنة ونص . . مش كده؟ ويتسم هو حينئذ ويقول وهو يستعد «للتربت» في البريدج: انتي عارفه يا مدام . . أنا رجل معتدل . ويضحك الموجودون وكأن الأمر نكتة، فنكت القاضي هي الأخرى دائما مضبوطة ومعتدلة الحلاوة.

وليس معنى ذكر البريدج ومدام شندي انه مغرم بيبتها أو مدمن على الذهاب اليه . ان زيارته لعائلة شندي ليست بالكثيرة التي تضايق ولا بالقليلة التي تجلب العتب . انه ايضا في هذا «جنتلمان» كما هو في أي مجال آخر . . جنتلمان له ابتسامة دائمة يتحدث بها الى الغرباء ، ولا يبدأ في ازالة ما بينه وبينهم من كلفة الا اذا بدأوه هم . وحين يتحدث يتحدث في ببطء قليل ، وحديثه دائما متوسط العمق فهو لا يحيط بأي موضوع احاطة كاملة ، ومع ذلك لا يترك موضوعا دون تعليق اذ لا بد أن يقول شيئا ، ولو كلمة ، ولو نوعا من جبر الخاطر .

وبمثل ما نكون تعاملنا الحياة ، والحياة تعامل الأستاذ عبد الله في اعتدال هي الأخرى ، فلم ترفعه مرة فجأة ولم تهو به ، فمن الكلية الى النيابة الى المحكمة كما قدر لنفسه ، وكما قدر له أبوه من قبله ، كالقطار الذي تركبه في القاهرة وأنت متأكد تماما أنه بعد قليل سيكون في بنها ثم في الاسكندرية .

أجل! ماذا يفعل ضياع الساعة في حياته؟

كأن المسألة من التعقيد بحيث يستدعى حلها سيجارة. والأستاذ عبد الله لا يدخن ولكن لديه علبة سجائر يحتفظ بها في درج المكتب ليعزم منها على الزوار. وفي أحيان قليلة يدخن، مرة كل شهر مثلاً أو كل شهرين. قام ليتناول سيجارة، وعاد إلى جلسته وإلى ساقه الموضوعة فوق ساق. واكتشف بحركته تلك أنه عاري أو يكاد، وأسرع يرتدي البيجامة قبل أن يراه أحد، مع أنه لم يكن في الشقة أحد، فهو يقطن بمفرده إذ هو أعزب. كان قد حدد لنفسه سن الخامسة والثلاثين ليتزوج، وكان في الثانية والثلاثين أي باقي على انقضاء الحكم الذي أصدره على نفسه ثلاث سنوات. أما لماذا حدد الخامسة والثلاثين بالذات ليتزوج فالأمر لا سر فيه ولا يحزنون، إذ هو قدر أنه سيعيش سبعين عاماً، ربما لأن والده توفي وهو في السبعين، وأمه في الثامنة والستين، وجدته في الخامسة والسبعين، ربما هذا، وربما قرر أنه سيعيش حتى السبعين عاماً لسبب لا يدريه أحد. ولهذا قرر أن يتزوج في منتصف عمره تماماً. وهو ليس أبلاً كما قد يظن البعض، إذ أن كثيراً من الناس يقررون أشياء خطيرة في حياتهم اعتماداً على أشياء غامضة لا أساس لها في عرف أو عقل مثل تلك.

دخل الأستاذ عبد الله في البيجامة، وعاد يجلس على الكرسي الهزاز الموضوع بجوار الراديو الضخم. جلس وهو قد استبعد نهائياً أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة، فهو قد يشك في نفسه ولكنه لا يستطيع الشك في جعفري أبداً. هو خادم العائلة أبا عن جد، بل يقولون إن أحد أسلافه مات وهو عائد من الفرن بصينية «حمام

بالفريك» التي كانت طعام جده المختار. وضمن ما ورثه الأستاذ عبد الله كان جعفرى. وهو انسان طيب جدا، ساذج جدا له ولاء الكلب واخلاصه. هو من أولئك الناس الذين لم يكتفوا بالقناعة بمصيرهم بل عبدوا ذلك المصير ويجلووه. كلمة «سيدي» عندهم لها قداسة ووقع، وحاجة السيد كمحاجة الله أرفع من أن تمتد اليها يد. كان معه في بيت المنيرة وحين انتقل الى سكنه الحالي في شارع الجبلالية انتقل معه. وكان يقيم في الشقة، وكان هذا سبب ضيق الأستاذ عبد الله منه.

لم تكن هناك أسباب واضحة لهذا الضيق. . فجعفرى أمين نظيف دقيق لا يكاد يتلفظ طوال اليوم بكلمة، والأستاذ عبد الله يحب الصمت، وإذا كان هناك كلام فليكن باعتدال، وليكن أيضا في المليون. تضايق منه وكان ذلك من عامين، لأن جعفرى كان حجر عثرة، اذ هو ينجل منه وهو خادم العائلة الذي شهد أباه وشهد أمه والذي رآه وهو طفل وحضر كل ما أحرزته العائلة من أمجاد، فلم يكن من اللائق، ولا مما يرضي مزاج الأستاذ عبد الله الحساس أن يدخل عليه مرة مثلا ومعه فتاة. وكان الوقت قد حان، وسنوات العمر تمضي كالرياح، والثلاثين قد ولت، وحياة العزوبة تتسرب من بين يديه دون ان يفيد منها شيئا. والأستاذ عبد الله كان مستقيما، لا لأن غير الاستقامة حرام، أو لأن هذه «الأشياء» لا تصح، أو أو الخ، ولكن لأنه ذات مرة سوداء اشترك مع طالب زميله في الكلية، والتقطا فتاة من الشارع في عربة زميله الكبيرة وأخذها الى طريق الاسكندرية. وروع

عبد الله ثاني يوم بأعراض خطيرة، وصحيح أنه عولج وشفي تماما ولكنه أقسم بينه وبين نفسه أنه لن يقرب امرأة أبدا الا اذا تزوج. كانت اية امرأة في نظره عبارة عن ميكروب يرتدي جوارب نيلون ويضع على شفثيه روج ويلدغ كل من يقترب منه. وكان ممكنا أن يدفعه هذا للزواج، ولكنه كان قد قرر منتصف العمر ليفعل هذا. وظلت الخطة سارية بنجاح تام الى ما بعد الثلاثين وقد بدأت الخامسة تطل برأسها. وهنا ثار الأستاذ عبد الله على نفسه وحياته وصمم أن يودع - كما يقولون - حياة العزوبة. من أجل هذا حث جعفري على الزواج، بل ساعده، ولما تزوج أخبره أنه لا يريد طوال اليوم، عليه فقط أن يأتي في الصباح ويغادر الشقة بعد أن يعد له الغداء. وكل هذا ليخلو له المسكن ويصبح حرا يستطيع ان يودع عزوبيته كما يشاء.

وبرغم أن الشقة خلت وذاق حلاوة الوحدة التي كان ينشدها، وانزاح جعفري بوجوده الدائم، الا أنها بقيت خالية الا منه، فقد كان يظن أنه حالما يذهب عنه الرجل ستمتلئ الشقة بالنساء، كيف؟ لم يتعب نفسه ويفكر. ولكنه اضطر الى التفكير، فهو قد أمضى فترة طويلة من شبابه دون احتكاك بالنساء حتى تغلبت رغبته العارمة آخر الأمر، ونسي حكاية الميكروب، وقبل الأمر شكلا وأصبح على استعداد للمجازفة، ولكن أين المرأة؟ عزلته طوال تلك السنين كانت قد حالت بينه وبين الطرق التي تقبل منها النساء، ثم إنه كان قد أصبح قاضيا في تلك المدة. صحيح أنه شاب لا يزال صغير السن نوعا، ولكنه قاض عليه «أو هكذا خيل اليه» أن يحافظ على كرامة المنصب، ولا يدع أحدا

يأخذ عليه مأخذاً أو يضبطه في موقف حرج. ثم انه لا يستطيع أن يفضي برغبته لأحد، وكل أصدقائه ومعارفه رجال كبار محترمون، مستشار في مجلس الدولة، وكيل نيابة درجة أولى، محام على الأقل من محامي النقض والابرام، أساتذة في الجامعة، المنهراوي بك صاحب محلات الموبيليا الذائعة الصيت، صلاح شوشة ابن اعتماد هانم. . . أناس لا يمكن أصلاً التحدث معهم في أمر كهذا. حتى زملاؤه من دفعته، والذين كانت عربته الصغيرة سبباً من الأسباب التي منعتهم أن يعرف منهم سوى عدد قليل محدود، حتى هؤلاء الزملاء تفرقوا وتزوجوا وأصبح لهم أولاد، وإذا قابل أحدهم تبدو المقابلة أول الأمر عاصفة ذات تهليل وعناق وسلامات، وبعد خمس دقائق يكتشفان أن كل ما بينهما من كلام قد انتهى ويصبح الحديث مجرد ترديد أجوف: . . . والله زمان. . . وحشتنا. . . فين أيامك؟ أو عادة مكررة لذكريات تاريخية قديمة عن مدرس كانت له طباع شاذة.

هذا عن الرجال. . .

أما النساء فكان مقطوع الصلة بهن تماماً. كانت هناك قريباته. . . بعضهن كان لا يطيقهن شكلاً ولا موضوعاً، وبعضهن جميلات كان يخاف منهن، فهن أما متزوجات أو طامحات في الزواج، والعين كانت عليه وهو العريس «السقع» الذي يسيل له اللعاب. غير أنه كان قد صمم تصميماً لا نقض فيه ولا ابرام الا يتزوج من قريباته أبداً ولو قطعوا رأسه. أما لماذا؟ فهو نفسه لا يدري سبباً لهذا التصميم. كانت أية محاولة للتقرب منهن ممكن أن تؤخذ

اذن على محمل الاستحسان وقد تنتهي بورطة ودبلة، وقد تنتهي بزواج. أما غير قريباته فكانت هناك مدام شندي، أرملة في الخمسين مولعة بالبريدج الى حد الجنون، ولها أصدقاء من كبار رجال الدولة، ولها صالون ومجلس وتجيد الحديث وإدارته، وتجيد الابتسامات الفاهمة والاصغاء الى المتاعب. سمراء غامقة السمار تكاد تكون صعيدية من قلب الصعيد وتقول عن نفسها انها تركية، وكثيرا ما تزورها نساء متزوجات، ولكن كل منهن شخصية قائمة بذاتها. وصحيح أنه يتحدث معهن كثيرا ويناقش شتى الموضوعات ويعلق أحيانا على حذاء أنيق، أو تسريحة جديدة، ويقص عليهن طرائف مما يحدث له مع المتهمين والمفتشين والمحامين، ولكن حديث مثل هذا شيء، وحديث خاص ينتهي بلمسة أو بقبلة شيء مختلف تماما. فهو ليس وسيما، وهو يعرف أن هذا غير مهم في الرجال، ولكنه يعرف أيضا أن وجهه كالصفحة البيضاء لا معالم بارزة فيه، ملامحه عادية جدا ليست جميلة أو قبيحة، ولا تثير إعجابا ولا تبعث على الاشمئزاز ولا يحس لها الناظر بأي انفعال. ليته كان قبيحا! كثيرا ما يتمنى لو كان مشوها حتى. ثم إنه عالم تماما بخفة دمه ولباقة، فهو يرى الناس يتحدثون، يأتون في كلامهم بأشياء تبرز وتضيء الكلام، وتضيء وجه السامع بابتسامة أو ضحكة أو لمعة أسي. وهو ينصت الى أناس وهم يحكون فيجد لحكاياتهم وقعا لذيذا وكأن كلامهم محلى بالتوابل وفاتحات الشهية. وكان أحيانا ينصت الى نفسه وهو يتحدث ويحاول أن يجد شيئا، شيئا واحدا فقط، كلمة ذكية أو إشارة

مليحة، أو حتى طريقة طريفة لرواية ما يقول، فلا يجد. كلامه مجرد كلام. يسمعه الناس اكراماً له، واکراماً للفظه القاضي اللاصقة به. لا يعني هذا أنه كان عيباً إذ إنه لم تخنه الكلمة أبداً. ليتها خانتة مرة اذن لحدث لكلامه شيء غير عادي.

لهذا فحديث خاص الى واحدة من السيدات في صالون مدام شندي شيء لم يخطر له على بال، خاصة وهو لم يتعود أمثال ذلك الحديث، ولم يجرب مرة واحدة ايقاع امرأة. وكان طبيعياً اذن أن يبدو في الصالون مؤدبا خجولاً يملؤه الرعب من النساء المثبات من حوله.

وما أن ذهب جعفر وبدأ يثور على نفسه ويكبت الثورة أحيانا ويطلقها، حتى بدأ يتقدم ثم يتأخر ويعود الى الاقدام. وشتمة واحدة مرة، وقبلت واحدة أخرى دعوة إلى السينما، ورحبت بسهرة في الاوبرج، ولكن ما كاد يلمس يدها حتى انسحبت وتركته يكاد يغمى عليه. وأخيرا دفعته إلى تجربة مدام شندي نفسها. . ولم يجد لديها حماساً كثيراً، وكذلك لم يجد معارضة تذكر، وكانت استجابتها له فيها روتين وتعود، وعاملته كأنه طفل كبير شفي. وظل بعدها ثلاثة أيام يكظم خجله واشمئزازه، ولم ينس أبداً أنها في الخمسينات، وأنه فعل هذا وهو قاض.

والانسان حين يفشل لا يسكت. . انه لا يكف عن المحاولة أبداً وبمضي الوقت قد يصادفه النجاح. وهكذا استطاع أن يستصحب

نانا الى الشقة بعد مضي ستة أشهر على خروجه معها .

والخروج مع فتاة مثلها كان بالنسبة اليه أمرا صعبا يؤديه كالضريبة الباهظة المفروضة عليه ، فهو لا بد أن يختار مكانا بعيدا عن القاهرة ، ولا بد أن يذهب اليه قبلها ليتأكد أن واحدا من معارفه أو أصدقائه أو المحامين لا يعرفه ، ثم يستصحبها اليه ، ويظل في قلق عظيم وهو جالس معها ، ولا ينزاح الهم عن صدره الا حين تهبط من عربته بعدما تقررصه في يده قائلة : باي باي .

وأخيرا جاءت معه وكان نصرا أن تجيء ، ومع هذا لم يستطع معها الكثير ، فهي فتاة وهو خجول ، ولولا أنها لا تعد جميلة لما كانت قد رُضيت بالمجيء . . ودعك من الهدايا والتحف . وهكذا ظلت العلاقة بينهما في أخذ ورد حتى ذهب الخجل وقل العناد ، وبدأت تنمو عواطف مبهمة تجاهها حتى فكر مرة أن يخطبها فهي بنت ناس ، ولطيفة ، وتحب القانون ، ولكن مسألة قبولها المجيء معه كانت تقض مضجعه وتجعله يرفض مبدأ الخطوبة رفضا باتا . غير أنه ما لبث أن صرف النظر عن التفكير في الخطوبة والزواج ، فقد استطاعت علاقته بنانا أن تعلمه أشياء كثيرة ، ويكفي أن تعرف فتاة واحدة لتدرك منها الكثير من أسرار الفتيات أجمعين ، وتصبح جسورا بعض الشيء ، وتستطيع اذا آن الألوان أن تثني على ذوق صاحبة لها ، ثم تنتقل من صديقة الى صديقة ، وتتعلم أكثر ، وتنمو لديك الخبرة ، وتستطيع أن تجيد نوع الكلام الذي تحبه الفتيات ، وتعرف دقائق الفروق بين لون فستان ولون فستان وكشكشة وكشكشة ، وأين

يكمن السكس آبيل في نظرات جريجوري بيك . وتستخدم خبرتك تلك في الأحاديث، ثم لا يعدم الأمر بعض القفشات والنكات والكلمات ذات المعاني، وابتسامات مطعمة بدعوات، ونظرات آخر ما يقصد بها أنها نظرات، وإذا بك قد وصلت، وإذا بالأستاذ عبد الله يصبح لديه ثلاث أو أربع فتيات . . واحدة لدعوات السينما، وواحدة كانت تعلمه الرقص أو على الأصح تجدد معلوماته عن الرقص، فأخته كانت قد علمته وهو لا يزال «صبيًا»، وواحدة تأتي وأخرى تذهب، حتى إنه ذهب إلى كباريه مرة وتعرف هناك بشلة، فوجيء أن بينها أكثر من واحد من الأسرة القضائية، وتعرف براقصة أو على الأصح هي التي عرفتة بنفسها، وجلست معه وفتح لها زجاجة «السينالكو» ذات الثمن الغالي، وفتح المحفظة وأصرت هي وهما عائدان متشيان أن تفتح بنفسها باب الشقة .

مستحيل أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة .

لا بد انها شهرت .

كان احساس الأستاذ عبد الله بالفرحة لأنه وجد موضوعا عجيبا يملأ حياته يكاد يطفى على أي احساس آخر، أحس أيضا أنه لا يستطيع السكوت على هذا الموضوع الكبير وحصره في نطاق تفكيره الخاص. أحس أنه لا بد من مناقشة ما يدور في رأسه من خواطر وافتراضات مع أحد، لا بد من شرف، وقام الى التليفون وطلب نقابة الممثلين .

وكان من يراه وهو يدير القرص والحماس يطل من عينيه، يحسبه يود مفاجأة صديق بخبر مثير أو أنباء سارة. كان الخط مشغولا، ومع هذا ظل يدير القرص وحماسه لا يفتر. انه لن يجد في العالم كله من يصلح لمناقشة هذا الموضوع معه سوى شرف، ولا بد أن شرف في نقابة الممثلين ولا بد أن يعثر عليه . . هذا اللعين شرف صديقه مذ كانوا يقطنون في بيت العائلة في المنيرة. شرف أيضا كان يقطن هناك ولكنه كان من عائلاتها الفقيرة، ولهذا ولأمر ما كان الأستاذ عبد الله لا يحس أمامه بأي تعقيد ولا يخجل أن يقص عليه أدق خلجات نفسه دون أن يحس بكرامته تهان أو بتأنيب ضمير. كان

يقول له ما لا يستطيع قوله لأصدقائه الأغنياء وأقاربه، ولهذا فقد كان يحبه أيضاً أكثر من كل أصدقائه الأغنياء وأقاربه. هذا برغم أنه لا يحتل مثله أحد مناصب الدولة المهمة أو غير المهمة، فقد ترك المدارس وعمل في عشرات الأعمال، ثم احترف التمثيل الذي كان يهواه دائماً وأصبح ممثلاً في الاذاعة وأدواره كلها قصيرة، وأطول دور كان ثلاث كلمات، ورغم ذلك فهو يعتد بنفسه كفنان اعتداداً كبيراً، وله آراء في الفن والمسرح والحياة، ومكانه الدائم في نقابة الممثلين.

ورغم ما كان بين الأستاذ عبد الله وبين شرف من حب فقد كانت العلاقة بينهما لها طابع غريب نوعاً. الأستاذ عبد الله لديه مشاغل كثيرة، ولكن أحياناً تتبخر كل مشغوليته ولا يجد ما يعمل به وتصبح الدنيا خاوية مملوءة بفراغ متائب لا نهاية له. حينئذ يأتي دور شرف. يدق التليفون في نقابة الممثلين وهو التليفون الوحيد الذي يدق ويطلب شرف الدين: تعال يا شفشف. هكذا كان يناديه الأستاذ عبد الله. ودون أن يسأل شرف من، يأخذ طريقه الى شارع الجبلالية أحياناً راكباً تراماً، وأغلب الأحيان سائراً على قدميه. هناك كان يجد شقة أنيقة عالية مطلّة على النيل، وماء مثلجاً وطعاماً وعلباً محفوظة، وأحياناً زجاجات بيرة، وكرسياً مريحاً يسترخي عليه ليؤدي دوره.

ودوره كان دور المستمع. كان ينصت لصديقه عبد الله وهو يتحدث. وإذا تحدث شرف مع عبد الله فلا بد أن يكون الحديث كله عن عبد الله. وأشخاص قليلون جداً هم الذين يستطيع الإنسان أن

يحدثهم طويلاً عن نفسه دون أن يفكروا في قطع حديثه ليتكلموا هم عن أنفسهم، وكان شرف من هؤلاء. كان عبد الله يشرق ويغرب ويسرد أدق الخواطر والأشياء التي لا تدور إلا بينه وبين نفسه، وشرف ينصت ولا يمل، وكان فناناً في انصاته. فهو لا ينصت وهو ضيق بالحديث، أو متعجلاً لنهايتها، ولا وهو فقط متابعاً الكلام يهز رأسه وينفخ دخان سيجارته. أبداً حين ينصت بحماس، وتبرق عيناه حين يتأزم الموقف، ويتسم حين يحتاج الحديث إلى ابتسام، ويقهقه حين يستدعي الموقف قهقهة، وتحس وأنت تتحدث إليه أنك تحدث انساناً يهمه أمرك، ويحفل بكلامك مهما كان، احتفالاً كبيراً.

وأحياناً يعثر الانسان على مستمع كهذا تماماً، ولكنه يكون عالماً أنه ينصت ويتحمس وينفعل مجاملة له لا أكثر ولا أقل، غير أن شرف لم يكن من هؤلاء، كان حماسه حقيقياً، ومشاركته في الحديث مشاركة ايجابية، فهو يستمهل ويستوقف ويناقش ويسأل عن تفاصيل أخرى.

ولا بد أن لحظات حديث الانسان عن نفسه تمتعه ويسعد بها، خاصة إذا كان لهذا الحديث مستمع كهذا. لا بد. لأن عبد الله كان يحس براحة عظمى بعد هذه الأحاديث. ففي حياته العادية كانت تمر عليه أوقات كثيرة لا يرى نفسه فيها سوى انساناً تافهاً لا قيمة له ولا وجود، خاصة حين يجد نفسه في مجتمع غاص، والجميع يتكلمون بانطلاق وانتعاش وهو وحده الذي يخرج كلامه باهتاً معقماً كالماء المقطر لا طعم له ولا رائحة. كان في جلساته مع شرف ينطلق ويحس بكلامه يخرج موزوناً له ثقل، وفيه حكمة غريبة عليه،

وبلاغة.. حتى فكر عبد الله ذات مرة أن يشتري جهاز تسجيل ليسجل به أحاديثه تلك ويعود ليستمع إليها بعد ذهاب شرف، ويسمعها لأصدقائه ومعارفه، ويربهم أنه ليس به عيب وإنما العيب فيهم وفي مجالسهم. في حديثه مع شرف كان ينطلق وينطق بأشياء معجزة، وإلا لماذا كان يقوم شرف ويقعد لدى سماعها ويطلب منه اعادتها كما يطلب المستمعون من المقرئ إعادة التلاوة وقد بلغ بهم الاستحسان مداه.

كان يبلور في أحاديثه تلك كل فلسفته في الحياة وآرائه في الناس. والانسان اذا وجد في حضرة الجماعة وكان عليه أن يدلي برأي في موضوع فإنه في العادة يقول ما تواضع الناس على قوله. يفعل هذا احتراماً للجماعة أو خوفاً منها، أو استسهالاً، فقد يجره رأي مخالف الى نقاش قد يخرج منه مهزوماً مهيبض الجناح. قليلون فقط هم الذين يملكون آراء شخصية، وأقل منهم أولئك الذين يستطيعون الجهر بآرائهم تلك دون وجل في حضرة الناس، ونادرون هم أولئك الجريثون الذين يستطيعون الذود عن آرائهم إذا هوجمت، وأقل القليلين هو من تتفق له الجرأة والمنطق فيستطيع ليس فقط أن يعبر عن رأيه ويدافع عنه اذا هوجم، ولكنه يستطيع فوق هذا اقناع الناس به. نادرون جداً أولئك الناس، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة، والحقيقة أن كلا منا حكيم في حدود، ولكن ليس كل منا قادراً على التبشير بحكمته.

وكان عبد الله كأي انسان له حكمة استخلصها من تجاربه وما

مارسه، وكان يفلق عليها نفسه ولا يفتحها إلا في حضرة شرف، ولا يبشر بها إلا له وحده.

والغريب أنه لم يكن يؤمن بحكمته تلك. كان شرف هو الوحيد الذي يقتنع بكل آرائه، أما عبد الله فكان لا يقتنع بها ولا ينفذها ويفضل أن يتبع آراء الآخرين، فأن نعتنق آراءنا عملية في حاجة الى جرأة هي الأخرى.

ودخل شرف..

كان طويلاً نحيلاً له شعر مهوش وملامح طويلة ممطوطة، تحس إذا ما رأيته أنه لا بد «فنان» من الفنانين، له ابتسامة خجولة يحتار دائماً أين يداريها. وإذا ابتسم برز له ضب صغير لا يكاد يلحظه أحد.

وكعادته توجه الى المطبخ فور دخوله وعاد ومعه كوب من الماء المثلج ظل يرتشفه على قطرات، ثم خلع جاكته وعلقها على المسند وتمدد. ولم ينس وهو يمدد نفسه أن يضع ساقاً فوق ساق ويتناول سيجارة من العلبة التي قدمها له عبد الله.

ظل القاضي يراقبه حتى انتهى من عملية جلوسه ونظراته ترتجف باللهفة، وكأنما يختزن في جوفه بركانا.. وكان واضحاً أن شرف قد أدرك هذا وتعمد المغالاة، ولكنه نطق أخيراً وقال وهو يحدق في ملامح عبد الله ويحاول ان يستشف الأمر.. وهل هو احساس بالوحدة هذه المرة، أم حب جديد، أم رأي طازج عن نشأة الجريمة بين الأحداث.

- ما وراؤك يا همام؟

فقال الأستاذ عبد الله :

- حصلت أبداع حاجة النهارده .

- خدت الدرجة الرابعه .

- لأ . . شهرت سرقت الساعة . .

- شهرت مين . . الرقاصه . .

لم تكن هي الرقاصه، ولا صديقه أخرى لنانا، ولا تمت بصلة الى هذا الصنف من النساء كله . . أنها هدية فرغلي الحاجب .

وبدأت المسألة في ثورة من ثورات الأستاذ عبد الله على نفسه، أو بمعنى أدق على صديقاته . لم يكن يستريح أبدا لعلاقاته بهن . كان هناك شيء ما يحد من سلوكه أمامهن، كان لا يستطيع أن يطلق نفسه على سجيتهن أمام نانا أو غيرها . لا بد أن يكون مؤدبا ولا بد من الرقة والكلمة الحلوة ولا بد من ابتسامة لا تذبل يضعها في عروة فمه طوال الوقت الذي يقضيه مع الواحدة منهن . كان من فرط احساسه بقله مواهبه أمامهن يحاول قدر طاقته أن يكون خفيفا كالنسمة وأن يرضيهن ما أمكنه . ولم تحاول واحدة منهن ارضاءه أبدا وان حاولت، كان يحس أنها تفعل ذلك لسبب، وأن وراء الارضاء ما وراءه .

وفكر مرة في شيء جديد على حياته . لم لا

واصطنع الديمقراطية . ووقف فرغلي الحاجب أمامه في حجرته قبل الجلسة، وظل هو يشكو من أزمة الخدم وكيف أن الرجال لصوص والنساء العواجيز متعبات ولا يستطعن العمل . وكان فرغلي لا

يكف عن احناء رأسه علامة الموافقة على كل كلمة ينطقها القاضي، بل أحيانا يحني جسده كله ليدل على الموافقة التامة. وفي يوم آخر بدا على القاضي الضيق الشديد وادعي أمام فرغلي أنه طرد الخادم الجديد. وأبدى فرغلي أسفه البالغ وراح يصب اللعنات على الخدم أجمعين، وعلى ذلك الخادم المطرود بالذات وكأنه كان يعرفه ويعلم أنه جدير بكل تلك اللعنات.

وفي المرة الثالثة قالها القاضي صراحة، وسأل فرغلي أن يعرف امرأة أمينة مخلصمة تقبل العمل عنده. . واشتراط أول الأمر أن تكون كبيرة في السن. . وهز فرغلي جذعه مؤمنا على الشرط. ولكن سعادة البية تصنع تفكيراً عميقاً ثم قال له وكأنه يعدل عن رأيه: الأحسن ألا تكون عجوزة جداً ويستحسن أن تكون نصفاً. وهز فرغلي جذعه موافقاً. ثم عدل عن رأيه مرة ثانية وقال: والا أحسن تكون شابة تستطيع أن تقوم بشئون البيت خير قيام، ثم أن سلم الخدم مرتفع والشقة في الدور السابع. ولم يكتف فرغلي بهز جذعه موافقاً ولكنه ابتسم هذه المرة ابتسامة المدرك الفاهم المقدر.

وكان اليوم التالي يوم جمعة وهو الميعاد الذي اتفق مع فرغلي على المجيء فيه. وكانت الساعة الثالثة ودق الجرس. ولم يكن جعفرى موجوداً بطبيعة الحال، كان قد أدى عمله ومضى، فقام الأستاذ عبد الله بنفسه وفتح الباب. ووجد ابتسامة فرغلي تملأ فتحته. . كان فرغلي اذا ابتسم يفتح فمه ويغمض عينيه علامة الانبساط. وكان يرتدي بدلة ملكية غير بدلة الحجاب، بدلة لا بد قد

أنعم عليه بها قاض سابق، فقد كانت قديمة وواسعة متهدلة لم تعرف المكوى أبدا طريقا اليها. وكان للبدلة قميص كان يبدو كالجلباب الذي له ياقة لا أول لها ولا آخر. ومع هذا يصر فرغلي على إحاطتها برباط عنق من كثرة استعماله أصبح كفتلة الدوبارة، وأصبحت عقده رفيعة متينة كعقدة الحبل.

ابتسم فرغلي وقال:

- الطلب موجود يا سعادة البيه.

ورنت موجود رنينا حلوا في أذن الأستاذ عبد الله وقال بلهفة:

- فين . .

- تعالي يا شهرت.

وجاءت شهرت . . ودخلت. لم ينظر اليها الأستاذ عبد الله أول الأمر، فقط لمحها. وأحس بخجل حين رآها ترتدي ملاءة لف، وخاف أن يكون أحد من سكان العمارة قد لمحها وهي داخلة شقته. وحين أغلق الباب استراح. ووقفت في ركن من الصالة قريباً من الباب، ودخل هو وفرغلي حجرة المكتب. وجلس وأمر فرغلي أن يجلس، ولكن الرجل أصر على الوقوف وتشبث، وأصر القاضي على أن يجلس. ومع هذا حين رضخ للأمر وجلس أحس القاضي بنوع من خيبة الأمل، وكأنه شك أن يكون قبول فرغلي الجلوس في حضرته ولو بناء على أمره، يعني أنه بدأ يتساهل في احتراماته. وازداد اضطرابه وأصبح يكسوه مزيج من الخجل والتردد والحيرة. لم يكن قد رأى وجهها بعد

فقام - وانتفض فرغلي لقيامه - وغادر الحجرة الى الحجرة الأخرى، ورمقها بنظرة، وكان في نيته أن تكون خاطفة حتى لا تدرك انه يتفرج عليها. ولكن نظرتة تلكأت طويلا عند وجهها وكادت الا ترتد لولا ان انتزعها انتزاعا. لم تكن بالصورة التي تخيلها. كانت تبدو كأمرأة بلدي مثل غيرها من آلاف النساء. المرأة تحس انها زوجة وأم ولا تبدو عليها أبدا سمة الخادومات. الشيء المحير ان وجهها كان يبدو مختلفا غريبا، يلزمه أكثر من نظرة ليستطيع أن يحدد ملامحه. ويعرف ان كانت جميلة أم عادية الجمال. ولكنه وافق. . . وحين عاد الى فرغلي سأله عن الأجر. ورفض فرغلي رفضا باتا ان يتحدث في هذه الماديات. ان أعجبته فليعطها ما شاء وان لم تعجبه فغيرها موجود. ومع أنه لم يحس بالارتياح لما قاله فرغلي الا أنه أعطاه سيجارة. وكانت الخطوة التالية هي التخلص منه، ولهذا ناوله خمسين قرشا اجر المواصلات. واحتج فرغلي بملامحه يقبل يده. .

وأخيرا ذهب. .

كانت لا تزال واقفة في الصلاة وكان هو قد عاد الى حجرة المكتب وجلس فقال لها:

- م تيجي. .

وجاءت والملاءة لا تزال ملتفة حولها، ووقفت تواجهه وتسند ظهرها الى الباب المفتوح. وعبرها بنظرة أخرى. . كانت ملامحها قوية ناطقة، وكان وجهها مشربا بحمرة، وتحت ستار

ملاحظتها القوية أنوثة لا تستطيع أن تحدد موضعها . وقال لها وهو
يتعمد الخطأ :

- اسمك عفت . .

فأجابت :

- خدامتك شهرت . .

ولاحظ أن صوتها له رنين أنثوي مبحوح يدغدغ الأذن . ثم إنها
نطقت خدامتك بلهجة أقرب إلى التأدب منها إلى الذلة والاستسلام .

- متجوزة؟

وسكتت قليلا ثم قالت :

- أيوه . .

- ومخلقة؟

فقالت :

- بنتين وولد . .

وعاد يرمق وجهها بعيون جريئة لا ترمش ولا تخجل . كان
يبحث عن شيء ما ، ذلك الشيء الذي علمته خبرته ان يبحث عنه
كلما التقى بامرأة ، الشيء الذي يعني ان لا مانع لديها مثلاً . ولكنه
لم يجد . فقط فطن الى انها لا تزال ممسكة بالملاءة وقبضتها شديدة
فيها . وسألها وكانت الساعة الثالثة :

- اتغديتي؟

وأنزلت وجهها الى الأرض وقالت:

- الحمد لله . .

وفهم انها لم تفعل، بل خيل اليه انها لم تتناول افطارها أيضا.
وأمرها أن تذهب إلى المطبخ فهناك بقية من طعام، وغمغمت
تصر على ان الحمد لله، ولكنه ألح وأغلظ، وحين وجدها لا تعرف
مكان المطبخ قام وأراها الطعام. وعاد الى الحجرة وجلس يفكر. لم
يكن يتوقعها هكذا! فيها قوة تلك المرأة. . انها غلبانة وترتدي الملاءة
اللف، ولكن ما يضيفي على شخصيتها مهابة قل ان تتوفّر لامرأة
مثله، لعله ما يصيغ ملامحها من براءة. هل يستطيع؟ إنه خائف. ان
البراءة تحتاج الى جهود صعبة للتغلب عليها. وأحس من حركتها انها
انتهت من تناول طعامها، فاتجه الى المطبخ ووقف على بابه، وكان
يود أن يبدأ حديثا:

- انتي اشتغلت عند حد قبل كده؟

- لا . . دي أول مرة.

ولم يصدقها. . انها تريد أن تبدو في نظره من ربّات البيوت
اللاثي دفعتهن الحاجة الى العمل. . تمثيلية قديمة. . وانتهى عند
هذا الحديث وكان لا يريد له ان ينتهي. ووجد موضوعا وأمرها ان
تخلع الملاءة وكانت لا تزال تلفها حول نفسها. وخلعتها واحتارت
اين تضعها وكل ما في المطبخ أنيق ونظيف لا تجرؤ على وضع

الملاءة فوقه . ووضعتها على السجادة في ركن الصالة ، وكانت ترتدي
تحت الملاءة فستانا من الحرير الباهت جدا .

وقال لها وعلى فمه ابتسامة ماكرة :

- تعرفي عملي قهوة ؟

فأجابته وهو تنظر في وجهه باستقامة :

- سكر ايه ؟

النظرة صريحة ، والطريقة التي تنظر بها اليها فيها أنوثة قوية ،
فأجاب في ببطء :

- م . . م . . مطبوط .

وضحك دون سبب يدعو للضحك . وأضاف دون ان يكون في
نيته ان يضيف :

- واعملي لك فنجان .

وأجابته وهي مشغولة في اعداد الكنكة :

- كتر خيرك .

وتملكه ارتباك غير قليل . أحس كما لو كانت هذه المرأة
شهرت تعرف كل شيء عن نواياه ، والدافع الذي حدد به الى أن يكلم
فرغلي ، وتعرف لماذا ضحك من ثوان ، ولماذا هو واقف أمامها الآن
يحاول أن يتمحك فيها ، ولا بد أنها بينها وبين نفسها تسخر منه ،
وتضحك على القاضي الفاضلي .

وتملكه عناد. ولوا فليكن هذا! فلتكن تعرف كل شيء! لم يعد أمامه أي خيار.

كانت شهرت في ذلك الوقت واقفة أمام الموقد وممسكة الكنكة بيدها ورأسها منحني، وعيناها مستغرقتان(أو على الأقل هكذا كانا تبدوان) فيما أمامها. فغادر مكانه عند الباب واقترب خطوات ثم قال:

- واثني ساكنة فين؟

قال هذا دون أن يحفل بالجواب، وقاله وهو يضع يده على كتفها، بل قاله ليستطيع أن يضع يده على كتفها. ولم يعلم بماذا أجابت لأنه في تلك اللحظة كان يحاول أن يقيس بأصابعه مدى استجابتها. وأحس بكتفها تحت أصابع يده يتململ ولا استسلام فيه. واقترب منها بلا وعي متحديا تلك المقاومة، وأصبح واقفا خلفها مباشرة وأحس بجسدها كله ينتفض أمامه ويتململ. واقترب منها أكثر وجذب كتفها ليمنع حركتها، وانتفض جسدها انتفاضة كبيرة استدارت اثناءها وسألته:

- الفناجين فين؟

ونبتت نقط عرق فوق جبهته.

وحاول ان يبتلع ريقه الجاف.

وأمرها بلهجة حادة ان تنظف الشقة بعد ان تنتهي من القهوة. وعاد الى الكرسي الهزاز. وأحضرت له الفنجان في أدب ووجهها

جاء. وفي أقل من ثوان كانت الشقة كلها يغمرها الماء ولا شيء على أرضها، وكانت هي منحنية تنظف وتمسح في نشاط زائد. وكان وهو في مجلسه يلمح جسدها المنحني كلما أصبح في متناول بصره. وكانت سيقانها من الخلف بيضاء محمرة، ومن خلال ثوبها المتآكل كان يلمح بعض جسدها. وكان منظر تلك الدوائر من اللحم الحي وهي تطل من النوافذ المبعثرة في ثوبها تفور له دماؤه.

وقام من مجلسه واقترب منها مدعيا أنه يشرف على عملية التنظيف. . وأخذ يأمرها: الحته دي لسه. . كمان هنا. . وطبي شوية عشان تطولها. ووجهها الى الأرض وجسدها كله طوع نظراته. وانتهت من عملها.

وسألته ان كان هناك شيء آخر؟ وأجاب بالنفي. وحينئذ سألته عن الوقت الذي يجب عليها أن تحضر فيه؟ وقال لها: - كل يوم الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

وكان هذا مناسبا جدا، ففرغلي يذهب في الثانية.

وراودته نفسه أن يحاول معها محاولة أخيرة في ذلك اليوم، ولكنه خاف من فشل آخر فأجل المحاولة. ولفت هي الملاءة حول نفسها ومضت بخطوات قوية فيها مهابة وجلال.

وظل الأستاذ عبد الله يلعن ضعفه بعدما ذهبت. امرأة مثلها لا يقدر عليها؟! امرأة آتية بإرادتها، والشقة خالية، وهو مهما كان شاب ذو مركز، ولا يستطيع؟!!

- ٣ -

وكانت تأتي بعد هذا في الثانية والنصف تماماً . وفي كل يوم يفكر . وفي كل يوم يؤجل . الى أن كان يوم وكانت تعيد تنظيم الفراش بناء على أمره (اذ كان جعفري يقوم بهذا في الصباح) وأطبق عليها فجأة وأخذها بين ذراعيه ، وحاولت أن تتملص وتقول أنا في عرضك وأنا في طولك ووالنبي . ولم يأبه هو بهذا ولا لمقاومتها، وفي الحقيقة أتعبه كثيرا حتى أجبرها على السكوت .

وما كاد يجبرها حتى انتابته موجة فرح غامرة . وود ان يعرف ان كانت ساكنة لأنها لا تملك شيئا أمام قوته القاهرة ولا تستطيع دفعه ، أو ان كانت ساكنة لأنها قد سلمت وخضعت أخيرا . فكف عن اجبارها ولكنها لم تقاوم ولم تدفعه ، اذ ما الفائدة بعد كل الذي حدث ؟!

وتركها .

وعاد اليها بعد قليل . كان يود أن يحدق في ملامحها القوية ويرى ما حدث لتلك الملامح ، ويرى ما جرى للحمرة التي تلون وجهها . وفوجيء بعينيها محتقتان وخدودها تلمح . وتضايق وسألها :

- مالك؟

وكان يتوقع ان تغمغم كعادتها بشيء مثل: ولا حاجة. ولكنها
سكتت. فكش فيها:

- مالك؟! فيه ايه!

وحدقت في الفراغ وسكتت.

وهز كتفها هزة يختلط فيها قليل من الاشفاق بكثير من الضيق:

- مالك؟

فقالت:

- أصلي عمري ما عملتها.

وانهمرت الدموع من عينيها.

ولم يصدقها أبدا. تمثيلية قديمة أيضا تجيد أداءها تلك المرأة
ذات الشخصية. تريد أن تضحك عليه وتوهمه أن تلك أول مرة.
حسبته عبيطا أو ساذجا، أو لا بد تريد زيادة.

غير أنها لم تطلب زيادة في أجرها، ولم تسمح لعينيها بعد ذلك
أن تلتقي بعينيها، كانت تحدثه وقليل ما كانت تحدثه، وهي إما
خافضة بصرها الى الأرض أو متشاغلة بشيء.

وكانت قد أعجبه. ولعل ما أعجبه في التجربة أنه أخذ كل
شيء بذراعه هو. لم تكن نقوده ولا أدبه ولا مركزه هي التي
انتصرت، كانت قبضته وقوته هي التي جلبت له النصر. وكان النصر

حببها لأنه قد أنهى به ذلك الصراع الخفي الذي دار في أعماقه بين صلابتها وضعفه، اذ إنه كان يحس على الدوام أنها أقوى منه، وأنها لو لم تكن خادمة وكانت سيدة صالون مدام شندي لما استطاع إليها سبيلا. كان النصر حلوا يغري بتكراره.

وفي المرة التالية كانت هناك مقاومة أيضا، ولكنها مقاومة الياثسة من المقاومة.

وتبدأ الأحداث عاصفة ثم لا تلبث أن تؤوب الى هدوء واعتياد. وكان وجود شهرت في البيت حادثا. . كان مجرد أن تظهر على الباب بملاءتها ويبدأ شبيبها يدق الباركيه شيئا يستيقظ له إذا كان متناوما، ويعتدل اذا كان جالسا، ويبدأ يفكر. . ترى هل يفعلها أو يؤجلها للغد؟ تراها كيف تبدو وماذا تقول عنه؟ وهل يعجبها؟ وهل يبدأ الآن أم الأنسب بعد تناولها الطعام؟ كان لا يستريح. وكان صوت الأطباق وهي تغسل، أو هفهة المقشة وهي تعمل، أو اذا سألها سؤالا وهو جالس في حجرة بعيدة وجاء صوتها ذو الرنين الأنثوي المثير يجيبه. . ممدودا طويلا يلف أرجاء الشقة ويداعب أذنيه، كانت أصوات مثل تلك لا تنقطع، وكان وجيب قلبه لا ينقطع أبدا. كانت المسألة في نظره مغامرة دائمة فيها قلق الترقب ولذة المفاجأة. ولكن الأيام والأصوات - مهما كانت - فالانسان سرعان ما ينساها ويسلاها، وسرعان ما يعتادها ويصبح ما كان يجعله يقشعر لا يكاد يشير انتباهه بالمرة.

وكان كل همه أول الأمر أن يشل مقاومتها تماما حين يكون

معه. ثم انتهى عهد المقاومة وأصبح الأمر لا يكلفه أكثر من أن يمسك بيدها مسكة ذات معنى، أو يحدثها عن أي شيء ويتسم بركن فمه ابتسامة محملة، أو يسألها عن، أو يسألها عن «صحتها» ويضحك. وكانت تحاول حينئذ أن تتعد عنه، فإن كانت في الصلاة وأطبق عليها تملصت منه بخفة وتوجهت إلى حجرة النوم. ولم يكن يدري لم تفعل هذا وهي تعلم أنه إن آجلاً أو عاجلاً سينالها؟ كل ما يحدث أنه كان يستثار أكثر، وبعد أن كان بادئ الأمر على سبيل المداعبة إذا به يتشبث ويقلبه إلى حد يسارع في تنفيذه.

وكانت ما تكاد تلمح رغبته وتبدأ تراوغ، حتى ترسم على وجهها ابتسامة شاحبة فيها خجل ضعيف، قليل من الفتور، وكثير من التسليم بالأمر الواقع والقضاء والقدر. غير أنه كان ما يكاد ينتهي منها حتى تنقلب هذه الابتسامة إلى شيء آخر، وكأنما تسخر منه، وكأنما تقول له: ولو!

ما كاد يصبح الأمر عادة حتى بدأ هو الآخر تفعل العادة فعلها فيه وينطلق على سجيته أكثر. كان يترك نفسه معها إلى آخر ما تستطيعه نفسه. لم يعد يدقق كثيراً ولا يصطنع ابتسامات. وأصبحت هي بالنسبة إليه شيئاً كالمرتبة الحية التي يتمرغ عليها ويشاءب، ويتمطى ويعري ساقه ويستريح. وحين بدأت العادة تفقد التجربة ما كان لها من إثارة، بدأ يبحث عن إثارات أخرى. . . بدأ يهمس في أذنها بكلام وقع لتردده له، ويتعمد أن يكشف عن نفسها كل غطاء حتى يطلع على كل مكنوناتها، حتى تلك الأشياء القليلة التي تستحي

أي أنثى محترفة أن تفرط فيها.

وبعد أن سار في الطريق كثيرا، اقتنع آخر الأمر أنها لم تكذب عليه، وأنه كان أول رجل في ينالها بعد زوجها. ومن قد لا يقنعه الكلام فالتجربة والمشاهدات اليومية والتصرفات التي تحدث دون وعي، وتلك الأشياء الصغيرة التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لها اسما أو حتى يملك وصفها، هذه الأشياء تكشف على الندام الحقيقية، وتقنع. وذات يوم سألها وهو يضمها إليه ويواجهها ليستطيع أن يستشف كل خلجة من خلجاتها:

- انتي بتحبيني يا شهرت؟

لم يكن يدري الدافع الذي حدا به الى هذا سؤال كهذا. ولكن السؤال على اية حال كانت له نفسه جذور قوية، ولم يأت صدفة أبدا مع أنه فوجيء بلسانه وهو ينطقه. كانت حاجة في نفسه قد ألحت عليه.

هذه المرأة لها زوج وأولاد. وهي حلوة، وتعرف أنها حلوة. وقد جاءت تدفعها الحاجة الى العمل، ثم نالها. وهو ينالها كلما أراد. أهى تقبل ذلك فقط لمجرد أنه سيدها ورب نعمتها كما يقال؟ أم لأنها تريده وتتمناه؟ وهل اذا كانت تريده، من أجل منصبه وعيشته الفاخرة أم من أجل ذاته والرجل الذي فيه؟

كانت هذه النقطة تؤرقه. كان يتمنى - ولو مرة واحدة في حياته - أن يكون رجل امرأة - أية امرأة - ولو كانت شهرت. وظل

يتلمس الشواهد . ولكن الشواهد لم تفده . إنها لا زالت تفرح كلما ترك لها باقيا من نقود . انها أحيانا تسأله أن يقرضها ريالاً أو نصف ريال . هل الحاجة هي حقيقة ما تدفعها أم هي ترغيب فقط في تغفيله وابتزاز نقوده؟ وهل مواظبتها على أرضائه هو من أجله ومن أجل رجولته؟ أم هو تماماً كمواظبتها على تنظيف الشقة ومسحها؟

الشواهد لم تفده . أوقعته في حيرة ، لا لأنها متعائلة الجوانب ولكن لأنه أيضاً لم يكن يفكر في شهرت بكل ما حولها وبكل ما يربطه بها الا فقط في تلك الدقائق التي يريد فيها . كانت حياته تمضي كما اعتادت ان تمضي . . العمل ، والقضايا ، والحشيات المتأخرة ، والبريدج ، ومدام شندي ، ولقاءات مع فتيات أخريات ، ونزهات بالعربة وغيرها وغيرها مما يصنع حياته . كانت الأسئلة تشغل باله في تلك اللحظة التي يخفق قلبه ويدق حين يخطر في باله ذات لحظة أن ينالها . ولهذا لم تشغل الأسئلة تفكيره كثيراً .

ولماذا اللف والدوران؟ قل انه سألها لمجرد العبث أو لمجرد حب الاستطلاع ، أو لأنه كان يتمنى فعلاً أن تكون قد أحبه .

وسكتت شهرت أسبلت جفونها ، وجفونها المسبلة ليست شيئاً جديداً عليه . فبرغم ما في عينيها من جمال كانت لا تكاد تحدثه الا وجفونها مسبلة .

وضحك وضغط عليها وضحك وقال :

- هيه . . بتحبيني؟!

فابتسمت وتساءلت :

- هو اللي بيحب حد يقول له أنا باحبك؟

وخرجت كلماتها ساذجة بسيطة . ولا بد أن الكلمات البسيطة تنبع من الصدق لأنها تنفذ مباشرة الى النفس بطريقة لا يستطيع الانسان حتى أن يرجع اذنيه ليتشكك في صدقها .

وجعلته اجابتها يحتار . من أين أتت تلك المرأة بهذه الاجابة؟ انها تذكره بمحاورات سقراط وأفلاطون . هؤلاء الناس البسطاء كيف يفكرون بمثل هذا الصدق والحق؟ لو كانت متعلمة لكان قد قال لنفسه أنها لا بد قد قرأت تلك الاجابة في كتاب ، ولكنها غير متعلمة بل هي لا تعرف القراءة والكتابة . وأعجبه الحديث فمضى يحاورها :

- ازاي؟ طبعاً . . لازم يقول له أنا باحبك .

فأسبلت جفونها وقالت :

- ده لما يقول كده يبقى عايز يضحك عليه .

- يضحك عليه ازاي؟

- الحب في القلب واذا طلع على اللسان يبقى مش حب .

وأعجبه الحديث جداً . ترى ماذا تعرف تلك المرأة عن الحب؟

وما الحب في نظرها؟ انه يقرأ عن الحب ، ولكن الذين يكتبون عنه أناس مثقفون وحكماء . وهو يخوض المناقشات حول معنى الحب ومصدره والدافع اليه ولكنه يخوضها مع أمثاله من المتعلمين ،

ويا لها من فرصة تلك التي أتاحت له أن يناقش امرأة خام مثلها في الحب . وسألها :

- قللي لي يا شهرت . . الحب ده ايه؟

فانثنت وأشاحت بوجهها وقالت :

- يوه . . أنا عارفه بقى . . .

وأخذ يرجوها أن تعجب ويلح في الرجاء ، فقالت :

- أنا عارفه . . . أهم طول النهار يقولوا الحب الحب .

فقال بعصبية :

- لأ . . . أنا عايز رأيك انتي . . . يعني في نظرك الحب ده ايه؟

- الحب ده حاجة من الله .

- يعني ايه من الله؟

- يعني لما ربنا لما يريد الواحد يحب .

- يحب يعني ايه . . . يبقى عايز ايه . . . يحس بايه؟

- والنبي يا بيه أصلك رايق .

وسكتت . وكان يبدو ان سكوتها لا لأنها لا تجد اجابة ما ولكن لأنها لا تستطيع أن تقولها .

* * *

والانسان قد يبدأ الشيء لمجرد التسلية، وإذا به يتحمس له وينقلب الأمر الى جد خطير. وهكذا أثارت له تلك المناقشة مشكلة. انه لا يعرف زوجها، ولا حتى يذكر اسمه ولا يعرف ان كان صالح أو محمود. سألها عنه مرة وأحيانا تردده أمامه، ولكنه لم يعلق بذهنه. . بل انه لا يعرف ماذا يشتغل هذا الزوج. ولكنه زوجها على أية حال وخلف منها أطفالا ثلاثة، فلا بد أن بينهما شيئا. ترى ما هو؟

ولم يسأل الأستاذ عبد الله نفسه هذا السؤال الا لأنه كان قد وضع نفسه بين شهرت وزوجها. ترى هل تحبه أكثر من زوجها، أم تحب زوجها أكثر؟ مشكلة لو كان قد فكر فيها في أي وقت آخر لما كان قد أقام لها وزنا، ولكن في الظروف التي كان يدور فيها الحديث بينه وبين شهرت بدت المشكلة مهمة جدا في نظره. ولهذا قال لها وقد احتواهما الفراش:

- شهرت. .

فقالت:

- نعم!

- انتي بتحبيني أكثر والا جوزك؟

خجل من نفسه حين نطق السؤال، وكاد يغير الموضوع، ولكنه ما ان نطق به حتى بدأ قلبه يدق وكأنه ينتظر نتيجة امتحان. أجل! هل تحبه أكثر من زوجها؟

وكان ما غاظ الأستاذ عبد الله أنها سكنت . . لم تفتح فمها .
فقط اسبلت عينيها وابتسمت، وخجلت وسكتت . ماذا كان يعني
سكوتها؟ بالتأكيد لو كانت تحبه أكثر لأخبرته ولو من قبيل التظاهر،
ولكنها لم تجب . وملاه غيظ صبياني . . هذه الحقيرة ماذا في زوجها
الذي لا يستطيع الانفاق عليها ويجعلها تفضله عليه؟ أيحسم الأمر
ويطردها، فعلا يطردها . ولكن الخطوة كبيرة ولا يستطيع تنفيذها الآن
وهو قد تعود عليها، ثم إنها عرفت مزاجه وما يرضيه وما يسخطه وهو
يستريح لوجودها، ثم هذا الشيء الذي لا يمكنه تحديده والذي يشده
اليها . . والمسألة مسألة زمن . لقد أمضت مع زوجها سنين ولم تقض
معه سوى أيام معدودات . لا بد أن يعلمها كيف تحبه، هذه المرأة
ذات الملاءة اللف الغلبانة ألا يستطيع أن يعلمها كيف تحبه؟
وأمضه التفكير في هذا . كيف يجبرها؟ كيف يستولي عليها؟
كيف؟

وازداد غيظه حتى كاد ينفجر .

ولكنه لم ينفجر، بعد ساعة واحدة كان جالسا الى المكتب
غارقا في خضم أربعين قضية عليه أن ينظرها في الغد، وقد نسي كل
شيء تقريبا عن شهرت وزوجها والمشكلة الي أثارها بنفسه، حتى إنه
حين أمر شهرت أن تعد له فنجانا من الشاي أمرها بنفس اللهجة التي
يستدعي بها فرغلي شاهدا من الشهود .

- ٤ -

كانت التجربة في أول الأمر يلفها التزامت والجسد،
يستدعيها بخطة وإصرار ويرهب وجودها، ويرهقه ذلك الوجود وتشغل
بale كل حركة من حركاتها. غير أن الموضوع كله لم يلبث أن أصبح
عادة، ثم أصبح عادة مملة.

لم يعد في وجه شهرت ما يخيف أو يجبر على الرهبة، أصبح
وجهها وجه امرأة عادية تحت أمره في كل وقت وكل لحظة وأصبح
جسدها في يده كالورقة المهملة التي يستطيع متى شاء أن يكورها
ويلقيها في سلة المهملات.

وحين وصل الأمر إلى هذا الحد امتلأت نفسه بنشوة الفوز.
لقد انتصرا! ولم يعد يفكر في شهرت كثيرا أو قليلا. أصبح وجودها
في الشقة شيئا عاديا مثل «الفاز» الموضوع في ركن «الأنثريه»، كل
الفرق بينها وبينه أن زهور الفاز تتغير كل يوم أما شهرت فملاصحتها
كالزهور الصناعية التي لا تذبل ولا تنضّر ولا يتغير تفتحها.

غير أنه في أحيان قليلة جدا كان يساءل نفسه: ترى هل
انتصاره هذا حقيقي؟ ترى هل استحوذ على شهرت تماما؟ ترى هل

أنساها زوجها وأحبته؟

في معظم الأحيان كان لا يحفل بالاجابة على تلك الأسئلة . الأمر لم يعد يهمه ، فحتى لو كان قد أخذها كلية أم لا تزال لغيره ، فسيان . ولكنه في نوبة من نوبات تلك الأسئلة تحمس وشغله الأمر حيناً فقرر أن يجري تجربة .

قرر أن ينقص ماهية شهرت ، فإن كانت قد تعلق به فستقبل الأمر حتماً ، فإذا لم تكن فستتركه . ولم يخالجه أدنى خوف أن تتركه ، بل كان في الواقع يتمنى أن تتركه . . وقد بدأ كلما سأل فرغلي متملقاً عن الحال يعقد وجهه ويحدثه عن أخطائها الكثيرة ، ويحوم حول عيوبها ، وملاءتها ، وعدم قدرتها على القيام بعبء الأعمال في البيت . . كان يريد شيئاً جديداً .

وفي أول الشهر نفذ الفكرة وأنقص جنيهاً . واحمر وجه شهرت وهو ينهي إليها بالخبر . . احمر جداً حتى خيل إليه أنه لأول مرة يشاهد احمراراً حقيقياً في وجهه . احمر وجهها وتلقت منه الماهية ووضعتها في حافظتها الصغيرة الكالحة ولم تنطق بحرف .

وفي ثاني يوم لم تحضر . وقلق الأستاذ عبد الله وأنبه ضميره قليلاً ، ولكنه لم يشأ أن يؤلم نفسه أكثر فنفض عن نفسه مهمة التفكير والتأنيب وقرر أن يطلب من فرغلي أن يبحث له عن «طلب» آخر ، ولكنه نسي أيضاً أن يكلم فرغلي ، اذ كان تلك الأيام قد شغله موضوع مهم . . فقد رأى نانا ذات مساء خارجة من سينما راديو بصحبة شاب ، وظل يتبعها ويسأل ويستقصي حتى عرف كنه ما

بينهما من علاقة . وحينئذ تجدد كل ما دار بينه وبين نانا بشكل حاد، وأصبحت استعادتها هي كل ما يشغله .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة كان عائدا الى بيته داخلا بالعربة الى الجراج الذي يحتل بدروم العمارة التي يقطن فيها، واذا به يجد شهرت جالسة على الأرض بجوار باب الجراج .

لمحها وتضايق، وقرر أن يتجاهلها ولهذا صعد من الباب الصغير الذي يصل الجراج بمدخل العمارة مباشرة، ولكنه وكما توقع تماما سمع الجرس يدق بعد دخوله الشقة بقليل .

وفتح وكانت شهرت . وابتسم ابتسامة صفراء وسمح لها بالدخول .

لم تتكلم هي، وكان لا يدري ماذا يقول . وراح يراقبها باستخفاف وهي تمضي الى المطبخ وتخلع ملاءتها وتعمل .

كان جالسا في حجرة المكتب فنادى عليها وجاءت . وصحيح أنه كان خجولا ولكنه أصبح لا يخجل من شهرت، بل انها الشخص الوحيد في العالم الذي أصبح لا يخجل منه أبدا قال لها :

- جيتي ؟

فاجابت وهي تنظر الى أصابعها المبللة :

- واحنا نقدر نستغني .

فازدادت جرأته وقال :

- مال كنتي مشيتي ليه؟ عشان الفلوس نقصت يعني؟
وتملكته وهو ينطق السؤال بعض المرارة، فقد تذكر أن انقاص
الماهية كان امتحاناً لتمسكها به وأنه فشل في الامتحان. وأجابت:

- أصل البنت كانت عيانه وخذتها المستشفى .

ورأى في اجابتها كذباً لا يوصف .

غير أن نسمة اشفاق هبت، لعل مبعثها كانت ملامح شهرت .
كانت شاحبة بعض الشيء ووجهها يلمع وفيه استسلام وملامحها كلها
ذابلة ومدلاة الى أسفل، وكأن كرامتها قد استحالت الى سائل ذليل
يقطر من أنفها وفمها وذقنها . . فقال لها :

- هي التلاته جنيه مش كفايه والا ايه؟

فقالت :

- نعمه . . . بس منعهم أصله ساب الشغل .

- منعهم مين؟

- جوزي .

- آه . . وساب الشغل ليه؟

- بيقول توفير والا مش عارفه ايه .

- هو بيشتغل ايه؟

- دباغ .

- دباغ ايه؟ .. فين؟

- في المدبغة في المدبح .

وزام الأستاذ عبد الله ولم يجب، وأحس في التوبكره هائل لا يدري لمن يوجهه . وكلما نظر اليها ورأى الشيء اللامع يتساقط من ملامحها وآها مستكينة، ووراءها زوج عاطل وأولاد، كان يزداد ما يحس به من كره وغثيان . وبلغ الغثيان مداه حين علم أن زوجها يعمل في مدبغة، وتختلط في ذهنه أشياء . جلد قذر ورائحة بهائم وغراء وعناق شهرت وفراشه، فينفجر

- طب روجي .

ومضت عنه .

ولعن الأستاذ عبد الله نفسه مرارا بعد هذا الحديث فقد جر عليه مشاكل . كانت المرأة أول الأمر مغلقة لا تفتح فمها بكلمة فبدأت تشكو . اليوم زوجها عثر على عمل في محل ألبان، وغدا ترك العمل، والبنت عندها حمى وإسهال، البنت ماتت، صاحبة البيت تطاردهم ودوشة كبيرة جرّها على نفسه بلا أدنى سبب .

وأصبحت شهرت عالة .

وأصبح التخلص منها ضرورة .

ولكنه نخجول، وليس هذا كله شيء فهو انسان على اية حال، وهل يقبل على انسانيته وهم يجتازون هذا الكرب؟ من أين يأكلون؟

كان عليه أن يحتمل والاحتمال له حدود، لذلك كانت ما تكاد تفتح
فمها بالشكوى حتى يقفله.

ثم إنه رجل وشهت لا تزال المرأة التي أعجبتة يوما ولا تزال
أمامه مشاكل الجسد رغم أنه يأنف من عمل زوجها السابق في
المديعة.

وفوجيء الأستاذ عبد الله ذات يوم بضحكة . . ضحكة رنت في
أذنيه رنينا غريبا مختلطا أذهله وحيره .

كانت شهت رغم كل ما مر بينها وبينه امرأة ذات وقار. كان
يراها دائما في ملاءتها . . جسدها ملفوف وقامتها طويلة ولا انبعاث
في أعضائها أو ترهل، وكان وجهها جادا في أغلب الأحيان ولكنه
ذلك النوع السمع من الجد، وفي أحيان قليلة كانت تبسم . .
ابتسامة كل ما تفعله أنها تزيد الساحة في وجهها وتدفع ببريق معين
الى نظراتها.

وكان رغم كل ما بينه وبينها يكن لها نوعا من الاحترام كانت
هي بالتأكيد مبعثه . فلا يذكر أنها لوثت لسانها مرة بخطأ، ولا قللت
من احترامها له، ولا طلبت منه مطلبيا باهظا، وكانت مطالبها كلها
متواضعة بسيطة ولا تلجأ الى سؤاله الا في أحوال نادرة.

غير أن تلك الضحكة أزعجته. كانت فيها ميوعة واستهتار وهو
لم يعهد فيها ميوعة أو استهتارا. ونادى عليها:
- يا شهت .

- نعم .

- وخيل اليه أن «نعم» تخرج أكثر طراوة من فمها .

وجاءت . لم يدر ماذا تقول يقول لها أو لماذا ناداها . ووجد نفسه يسألها ان كانت تخلصت من الصرصار الذي في المطبخ ، وكان قد رآه وأمرها أن تقتله . وابتسمت له وقالت وهي تتدلل :

- ده لقيته لايف على صرصراية .

وأطلقت ضحكة رفيعة ، واشمأز منها وحقق فيها ، وخيل اليه انه يلمح في وجهها أشياء لم تكن موجودة ، أو أن وجهها ينقصه شيء كان موجودا . كانت أيام أن جاءت امرأة مصرية بلدي تنظر في وجهها فلا تجد فيه غير زوجة لها أولاد ، واذا به يراها الآن . . أجزاء قد غارت من ملامحها وأجزاء برزت ، وعيناها داخلتان في وجهها وحولهما دوائر وعلامات غير بريئة ، علامات تدل على تحول أصابها . حتى ابتسامتها لم تعد بسيطة ساذجة كعادة ابتسامتها ، أصبحت تحمل جزءا صناعيا ملحقا بها ومفتعلا .

وراعه ما وجدته من تغيير .

وظل الأمر يشغل باله . هل هو مسئول عما حدث؟ وهل هو فعلا الذي أحدث فيها هذا التغيير؟ وهل هو الذي انهال على ملامحها المخلصة المتزوجة فأحالتها الى ملامح امرأة تباع وتشتري؟

وفي الواقع أحس بنفسه مسئولا ولكنه تجاهل احساسه بتأنيب

الضمير. ان الانسان لا يؤنب نفسه الا اذا خاف من عقاب يتبع فعلته، وهو لم يكن خائفا من أي عقاب.

السبب الحقيقي الذي شغل باله كان شيئا بدأ ينهش صدره.. خوف غامض محير. ترى هل وحده هو وحده المسئول عن ذلك التغيير أم ان شهرت قد أنشأت علاقات أخرى مع أناس آخرين. أحس بالغيرة.. غيرة من نوع مطروق. ليست غيرة الحبيب على الحبيب ولكنها غيرة السيد على خادمته، أو غيرة السيد على نفسه. كان خائفا جدا أن تكون شهرت قد ساوته بصبي مكوجي أو بائع خبز، ولهذا كان قلقا، ولهذا تزايد قلقه.

وفيما توالى من أيام كان لا ينظر الى شهرت الا والشك يملأ عينه. واذا أرسلها الى قضاء حاجة يستجوبها بدقة بعد أن تحضر، ويحاول أن يستغل فراسته كوكيل نيابة سابق وكل معلوماته عن علم النفس الجنائي لإدراك ما اذا كانت تخدمه أم تقول له الحقيقة.

وكان يسمعها تتضحك أحيانا وهي تصعد السلم فيسألها حين تدخل، مع من ولماذا كانت تضحك؟ ثم ينتهز أول خطأ ويعاقبها بشدة.

وكان يعجب ويستغرب فقد تحولت شهرت.. كانت أول ما جاءت لا تكاد تستطيع أن ترفع عينها في وجهه فاذا بها الآن كلما نهرها حدقت فيه وغضبت ولولا بقية من حياء لقات: وأنت مالك؟ ثم بدأ يلاحظ أن قسوة ما قد صارت لها، وأن شخصيتها تخدم فيها

روح الزوجة الأم وتتصلب وتأخذ شكلا فيه حدة وعصبية وجمود. كانت تناقشه وهي التي لم تكن تجرؤ على نقاشه، وترد على حججه بحجج. وكان يلعن ضعفه، وأحيانا ينتهز نفسه ويسألها: ما الذي يمنعه من طردها؟ ولكنه منذ أن بدأت تقوى بدأ ينكمش، وأحيانا لا يستطيع الاستمرار في مناقشتها.

هل كان خائفا منها؟

هل كان يخاف إن هو أغضبها ان تفضحه مثلا وتسود سمعته؟

أم كان فقط يخجل من مجابتها وهو العليم بلسانه المتواضع؟ لعله كان يخجل. ثم انها كان لها منطق، ومنطقها كان دائما قويا دامغا. كان هو يعتمد في مناقشته لها على أوهام وافتراسات وتخمينات مبعثها ما يدور في رأسه عن سلوكها، وكانت هي تعتمد على حقائق تكاد تدفعها في وجهه دفعا.

والغريب انها كانت كلما اشتطت في موقفها منه ازداد هو أدبا، بل أحيانا كان يتملقها. لا لم يكن ذلك النوع من الملق الذي يزفه كعادة المرؤوسين للمفتشين وكبار رجال الوزارة الذين كانت تربطه ببعضهم العلاقات. لا، نوع آخر أكثر تخفيا. مثلا بدأ يسألها عن زوجها بشكل منتظم وعن أولادها. وكان الزوج يحيره. . كانت شهرت لا تكف عن الشكوى منه وتلعن اليوم الذي دخلت فيه بيته، وسب كسله وخيبته. ولكنها كانت تتلفظ بالشتائم من فوق لسانها فقط وكأنها تنهر ابنها البكر ولا تعني ما تقول. كان أياما يعمل وأياما كثيرة لا يعمل، وهي على الدوام تعمل. وأولادها باستمرار موضوعا مفضلا

لأحاديثها، وهي المسئولة عن كل شيء أمام صاحب البيت. وحتى أمام صاحب العمل الذي يشتغل عنده زوجها. ويعمل زوجها بمسمط يوما، وفي يوم يوزع جبنة على الزبائن، وأحيانا قهوجي، وأحيانا تجهز له هي عجينة الطعمية ويقف على رأس حارتهم يقلبها ويبيعها. وكان يأخذ له في كل عمل يومين ويولي. وكان الأستاذ عبد الله يتولاه الدهول كلما فكر في تلك العائلة التي تحيا معلقة بين الأرض والسماء، ويتساءل.. ترى كيف تحيا لو لم تكن شهرت بعمل عنده؟ ولكنه يفكر في كل ذلك كما يرثي الانسان لزلزال يحدث في الملايو ويطيح بالقرى. رثاء.. مجرد رثاء يقضي عليه الملل الذي بدأ يتسرب اليه من شهرت ومشاكلها وعائلتها.

وجاءته في منتصف شهر تطلب منه جنيها، ولم يكن صدقة أن تطلب منه في ذلك اليوم التالي ليوم نالها فيه. وحز طلبها في نفسه وسألها:

- كم؟

فقالت وهي تضحك وتتمادى وتتدلع:

- سلف.

ورمقها فوجدها تنظر اليه بعينين لا تردد فيهما ولا خجل. فخجل وأعطاهما الجنيه. وصمم أن يكون هذا شهرها الأخير. وقال لها بابتسامة فاشلة:

- وتجيبه امتي؟

فأجابته:

- نقسطه .

وأعقبت اجابتهابضحكة ارتعشت لها أذنه .

وفوجيء بها بعد أيام وقد حضرت لأول مرة دون ملاءة .

كانت ترتدي «جيب» من قماش كاروهات رخيص، ولكنه جديد، وترتدي فوقه خرفة قديمة ممكن تسميتها مع كثير من التجاوز «بلوزة»، ولم يكن يغطي شعرها شيء. كان رأسها عاريا، وكان ثمة أحمر خفيف - لعله صنع بقلم كتابة أحمر - على شفيتها. وكان منظرها يبعث على الاشمئزاز.

كان الملاءة تضيء عليها جدا وتجعل لها منظر الأم. أما هذا الزي، صحيح لم يكن فاضحا ولكنه ليس رداء أم بأية حال من الأحوال. ثم إن رأسها حين كشفته غير من وجهها وشعرها، وأظهر ما كان خافيا في وجهها وشعرها وأصبح لملامحها تعبير عمومي. كانت ملامحها فيما مضى لها طابع خاص ونكهة تميزها عن أية امرأة أخرى، ولكنها بدت مجرد امرأة ذات شعر خشن لم ينسكب عليه طلاء أو نعمة زيت، وقد أصبح مفضوحا لا يحجبه منديل ولا تحفظ عليه كرامته ملاءة.

وقال لها باستغراب حقيقي :

- عملتي في نفسك كده ليه؟

فأجابته بصوت كأنما كشف عنه الغطاء هو الآخر فأصبح مبحوحا ذا نبرة غريبة :

- أصلي بانكسف من الملاية لما باجي العماره .

وأضافت وهي تخطر أمامه :

- مش كده أحسن؟

قالت هذا وهي تنظر إليه عبر كتفها وتلفت خلفها بعينين فيهما
نفس الجراءة والاستهتار .

ومط شفتيه علامة اليأس وقال لها :

- جوزك يا ترى قال ايه؟

وطرقع شيء في فمها وقالت :

- يا أخي دا اهدى . . هو حد بيشوفه .

- ليه سافر والا ايه؟

فقالت وقد تغيرت ملامحها :

- بقاله بسلامته ثلاث أشهر قاعد في القهوة .

- ليه .

- فنش شغل . .

وضحكت ضحكة ذات شهقة، وقالت وهي تغير الموضوع

وتخطر أمام مرآة الأنثريه :

- مش بدمتك أحسن من بتوع السيما يا بيه؟

وأقسم في سره أن يكون هذا شهرها الأخير . .

وعوجت وسطها وقذفت بيدها في حركة تمثيلية متراخية على
وجهها في المرأة وقالت:

- مش أنفع يا بيه اشتغل في السيما؟

ومضت تصنع «البوزات» وتعقص رقبتها. ولما لم يرد قالت
وكانما ترد على نفسها:

- الناس بيقولوا اني أنفع في السيما.

- ٥ -

وثاني يوم حضرت بالملاءة. وسألها عن السبب وهو يضحك
بسخرية. فقالت وهي واجمة أن البلوزة التي كانت ترتديها لا تصلح
وأنها في حاجة الى بلوزة جديدة، وقد اشترت القماش ولكن يلزمها
جنيه آخر للترزي.

وصمم أن لا يعطيها أي مليم. صمم والأمر يشغله. . ترى
لماذا هذا التغيير؟ ولماذا تصر على ارتداء ملابس كتلك وهي تبدو
أجمل بالملاءة. ولم يفترض حسن النية وهو يجيب واستمر يتساءل:
ترى ماذا تفعل بعد انتهائها من عملها عنده؟ وكيف يأكلون؟ لا بد
أنها تخرج في الشارع، وذوي الملاءات لا بد أن سعرهن قليل ولهذا
تريد الجيب والبلوزة ليرتفع ثمنها.

ومع يقينه في صدق ما يخمنه الا انه راح يستنكر أن يكون ما
يفترضه هو الحقيقة. ولم يشأ أن يتعب نفسه. . كانت شهرت بالنسبة
اليه قد انتهت. بضعة أيام فقط ويطردها بلا رجعة، فلتفعل ما يحلو
لها.

وألحت في اليوم التالي وهي تطلب منه أن يقرضها الجنيه

مدعية أن البلوزة قد تم تفصيلها. ورفض بجفاف. كانت قد استنفدت كل ما لها من نقود. وأي سلف لن يسترده، وهو قد صمم على ازاحتها ولن ينتظر إلى آخر الشهر. غدا يقول لها مع السلامة.

ولكنه كان يحدث نفسه بهذا كل يوم. وكل يوم ينسى. يخرج من الشقة في الصباح وفي نيته أن يفعل، ثم يهبط إلى الجراج ويدور حول العرببة ويتأكد من نظافتها، ولا بد أن يجد فيها شيئاً يستحق أن يلوم صبي الجراج من أجله. ثم تتهدى به العرببة إلى المحكمة، وما أن يصل حتى تدب الحياة في بنائها. تحيات من اليمين ومن اليسار، وقيام وقعود، وهرولة وهرجلة. وفرغلي ما يكاد يلمح العرببة حتى يقبل لاهثاً ويفتح بابها وينحني ويلفع الشنطة ويتبعه من بعيد، والناس من حولهما راكعة الرؤوس ولا مجال للكلام. ويدخل حجرة الانتظار. بعض القضايا لم يكن لديه مجال في وقت لمراجعتها وقد أشبعها تأجيلاً ولا بد من مراجعتها قبل بدء الجلسة. ويدخل الكاتب عجوزاً وله منظار وبطوئه أكثر كآبة من منظاره، ويأخذ أكثر من خمس دقائق ليقول صباح الخير ويتلکأ، وتأتي القهوة ويفرد دوسيهات القضايا. ويحس بالوقت يمضي بسرعة والساعة تقترب اقتراباً جنونياً من العاشرة، والجمهور في القاعة يتململ وقد بدأ يسمع بأذنه أصوات الاستنكار والهمس الخافت حين تعتريه موجات ارتفاع فيغادر مكتبه. وفرغلي واقف على الباب وتدوي كلمته: محكمة! تكاد من فرط علوها وصلابتها أن تصنع قوس نصر ينفذ من تحته القاضي إلى كرسيه.

وتبدأ القضايا . . سريعة متلاحقة يهتم بتتبعها أول الأمر، ثم
يؤجل تتبعها ويسرح أو يحدق في وجه أعجبه أو لم يعجبه لشاهد من
الشهود، أو يستقل دم محام، أو تطرق بآله أحياناً فكرة أن يستقيل
من الحكومة ويعمل محامياً.

ويتهيئ اليوم، وتمضي به العربة ويتركها على باب الجراج
ويصعد. وما أن يفتح الشقة ويجد ملاءة شهرت راقدة في الأنتريه
كالراية السوداء حتى يذكر أنه نسي أن يفتح فرغلي في أمر طردها.
ويصمم أن لا ينسى في اليوم التالي . . وينسى في اليوم
التالي .

انتهى الأستاذ عبد الله من سرده وهو يخطط كفا على كف .
كانت المسألة في غاية الوضوح . . شهرت أخذت الساعة لتبيعها
وتدفع . ثمن البلوزة بعدما رفض اقراضها وبعدها أحست أنه ينوي
طردها . وكانت المسألة من كثرة وضوحها تدعو الى الغيظ . لماذا
الساعة بالذات ؟ ولماذا اليوم بالذات .

وكان شرف لا يزال ممددا قبالته يستمع ، ويبدو أن طول ما رواه
عبد الله قد عمل عمله فجعل عقل شرف يسترخي . كان جالسا يكاد
يكون لا حول له ولا قوة .

ويلغ الغيظ بالأستاذ عبد الله متناه وقد أحس بنفسه يجابه
الموقف وحيدا . جاء بشرف ليعينه فاذا به فاطر الحماس والأمر لا يكاد
يهمه . خادمة مثلها تأخذ ساعته عيني عينك وهي تعلم أنه حالا
سيعرف . انها ليست سداجة منها أن تفعل ذلك ، إنها وقاحة وتحد .
وانفجر يحدث شرف ويتحول كلامه الى صباح . كان منفعلا وكأن
كرامته هي التي سرقت ، وامرأة فاجرة هي التي سرقتها
لتحترف بها . إنه لن يسترجع الساعة فقط ولكن شهرت لن تنفذ من

يده . . سوف يريها أنه ليس بالضعف والطيبة التي تتصورها وأنه ليس من الطير الذي يؤكل لحمه .

وأخذ الرجلان يكدان تفكيرهما ويتشاوران فيما يمكن عمله .
شرف جالس ممدد الساقين .
وعبد الله يروح ويجيء ولا يستقر في الحجرة .

كان يومها يوم الأحد وهو اليوم الذي تعودت شهرت أن تأخذ فيه اجازة، وهي لم تتعود، هو في الحقيقة الذي عودها . لم يفعل ذلك أول ما جاءت بل هو تقليد وضعه مؤخراً بعدما ضاق بشهرت ولم يعد نوالها يكفي شغفه، وأصبح لا بد من العودة إلى الطريقة القديمة وإخلاء الشقة لزوار آخرين .

وفكر أول ما فكر أن يبلغ البوليس، ولكنه راجع نفسه، وراجع كل ما نظره في حياته من قضايا وكل ماسمع عليه فلم يجد أن البوليس قد أفلح مرة في إعادة مسروقات صغيرة كتلك . ما أن يبدأ البوليس يتدخل حتى تغوص المسروقات في سابع أرض، وليس هذا كل شيء، فإبلاغ البوليس يحتم عليه أن يقر - وهو القاضي الأعزب - أنه يستخدم عنده امرأة . ثم قد تتوقع شهرت وتفلت منها ألفاظ، ولهذا كان من المستحيل عليه أن يبلغ البوليس .

وكان فرغلي أول من خطر له هو مفتاح القضية . لا بد من استدعائه وشرح ما حدث له وتحميله المسؤولية باعتبار أنه ولي أمرها وهو الذي أحضرها . ثم عليها بعد هذا أن يكلفه باستدراجها والحصول على الساعة منها . ولكن شرف لفت نظره الى شيء . .

شهرت ليست بالسذاجة التي قد يتصورها ولن تقع هكذا من أول هجوم. ثم من يدري؟ لعل حب الاستطلاع يدفع فرغلي الى توجيه أسئلة ما تؤدي الى أسئلة أخرى. لا بد أن يكون هو المتحدث اليها بنفسه حتى يستطيع أن يرد في الوقت المناسب ويزن الأمور.

ولكن... كيف يقابلها؟

هي الآن في بيتها - والساعة الثالثة - وهو لا يعرف بيتها. فرغلي هو الذي يعرفه، وفرغلي الآن في بيته، وإذا صبر الى الغد فلن يضمن بأي حال أن تبقى الساعة تنتظره. إنه مؤمن إيماناً راسخاً أن لو أمكنه بطريقة ما أن يفاجئ شهرت في بيتها الآن فسوف تروع وتعترف وتناوله الساعة. ولم يفلح شرف في زلزلة هذا الايمان واضطر في آخر الأمر الى متابعة أفكاره والى أن يبحث معه مشكلة العثور على فرغلي.

وظل عبد الله يعمل فكره. وتذكر شيئاً. تذكر انه نسي المفاتيح مع فرغلي مرة ثم استطاع العثور عليه وعلى بيته واستعاد المفاتيح بطريقة ما. ما هي تلك الطريقة؟

وكان الرجل في قمة توتره، كان عقله يعمل بسرعة وقوة لم يعمل بها منذ سنين، وذهنه حاضر لامع متدفق، وثمة دافع جبار يتفجر في نفسه ويغذيه بالنشاط ولا يكف عن تغذيته. كان كقائد جيش يعد للهجوم في الفجر ويعمل حساباً لأدق الاحتمالات. وتذكراً أمراً. صبي الجراج. تذكر أنه كانت له علاقة باستعادة

المفاتيح . وفي الحال استدعى البواب وأمره أن يستدعي صبي الجراج . واستمر يروح ويجيء حتى دق جرس الباب ودخل الولد وفي أعقابه البواب الضخم الأسمر .

كان الصبي شاباً قمحي اللون مهلهل الملابس يبدو الريف على سيماء ، بل يبدو أنه هارب من أهله في الريف . وظل الأستاذ عبد الله يسأله على الأقل خمس دقائق قبل أن يستخلص منه شيئاً . كان يبدو على الشاب أنه مروع باستدعائه أمام القاضي ، مذهول بالشقة والناس المتطلعين إليه .

وأخيراً هدأ الشاب بعد أن حاول ابتلاع ريقه الجاف وكاد يتلع حنجرته . وسأله عن فرغلي ، وأنكر الولد انكاراً تاماً أنه يعرفه أو له به صلة . وحاول القاضي أن يسترضيه بسيجارة ولم يشأ أن يزيده اضطراباً ويأمره بإشعالها أمامه ، وعاد يسأله وهو يطمئنه وبربت على كتفه . وبعد جهود اشترك فيها شرف والبواب ، تطوع الشاب أن يحاول تذكر بيت فرغلي والبحث عنه . وكفي تتوفر السرعة الواجبة أمر القاضي البواب أن يستصحبه ويأخذها تاكسيا ولا يعودان إلا بفرغلي . وأعطاه جنيهاً يدفع منه مصاريف الانتقال .

وافترض الأستاذ عبد الله أن فرغلي قد جاء ومضى يكمل الخطة .

إن الموقف صعب . فرضنا أنه عثر على شهرت وواجهها . هل يضمن نفسه؟ انه هنا - وهي في بيته وهي خادمتة - كان في أحيان

كثيرة لا يستطيع أن يقي عينيه في عينيها طويلا، فما بالك في ظروف كهذه؟ ولم يستقر خاطر في ذهنه لحظة. كان الغضب يجتاحه ويؤكد له أنه قادر على مواجهة مائة شهرت وأنه ما أن يراها حتى يصبح في مكانه أن لا يتزع منها الساعة فقط ولكن يتزع روحها أيضا.

ولكي يطمئن كان لا بد له من الاستعانة بأمر آخر. اذا عن لها أن تكابر وتنكر، واذا استطاعت أن تتماسك أمامه فلا بد من تهديدها. وهو لا يملك وسيلة لتهديدها سوى تخويفها بالبوليس والسجن. ولكي تخاف من البوليس يجب على الأقل أن تراه بعينها. وهو يعرف معاون بوليس قسم ثان الجيزة، ويمكن أن يستصحبه الى بيتها فقط لمجرد تهديدها وإخافتها. ثم إن معاون البوليس هذا شاب مرح لطيف يستطيع أن يشرح له الأمور اذا تفوهت شهرت بأقوال تشين. ولكن ماذا لو رفض المعاون أو اعتذر، وبيت شهرت بالتأكيد ليس من اختصاصه. . الا يكون قد كشف نفسه دون داع؟

ولا يدري كيف ساورته الفكرة، ولكنه صافح شرف في التو وهو يهنيء نفسه على ذكائه واكتشافه حلا عبقريا. لكاذبا لا يقوم شرف بدور الضابط، والاثنان يتعاونان على اعادة النظام الى شعر شرف المهوش حتى تصلح رأسه لضابط.

ودق الجرس.

وخرج الأستاذ عبد الله ووجد فرغلي واقفا يلهث وقد رفض

البواب ان يجعله يصعد في الأسانسير وجاء به من يده عن طريق سلم الخدم. وفرغلي ببذلة الواسعة القديمة المعتادة، وطربوشه الغامق المائل والعرق ينز من وجهه. وفي كلمات مقتضبة قليلة أنهى اليه القاضي بما حدث.

وما كاد فرغلي يتحقق حتى تراجع الى الراء كالمذعور، وقال وهو لا يزال يلهث:

- ازاي؟ ازاي؟ ازاي بنت الـ..

وظل يردد الجملة لا يغيرها وثلاثتهم. يهبطون السلم.

وركبوا العربة.

القاضي أمام عجلة القيادة في المقدمة، وشرف بجواره، وفرغلي جالس على أطراف الكرسي الخلفي يكاد يقف لو كان سقف العربة يسمح. وكان هو أيضا الذي يتكلم طوال الوقت أو بالأحرى يسب ويستنكر ويعد القاضي أنه سيخرب بيتها ويتم أولادها، ويطردها من الحنة.

وكان فرغلي يتكلم عن «الحنة» كما لو كان القاضي يعرفها. وسأله الأستاذ عبد الله عنها فقال فرغلي بلهجة الواثق:

- جنب حارة الروم على طول.

وعاد القاضي يسأل وفرغلي يجيب بأسماء لم يسمع عنها القاضي ولا حتى شرف. وأدرك الاثنان أخيرا أن «الحنة» التي يقصدها فرغلي هي الحارة السد التي تقع في مكان ما وراء الجامع الأزهر.

بدأ الأستاذ عبد الله الرحلة وهو في قمة انشراحه. ضمن الوصول الى شهرت، وضمن المفاجأة، وضمن العثور على الساعة، وضمن الخطة. بدأ الرحلة تماما كالتلميذ المجتهد الذاهب الى امتحانه وهو متأكد من النجاح وعلى وجهه اشراقة النصر. ولم يكن منشراحا فقط بل كان أيضا نشوان، ففوق أنه سيستعيد ما أخذ منه غدرا، فقد كان في الطريق الى اختبار ذكائه ومقدرته على التفكير. والمغامرة في حد ذاتها لذيدة. . مغامرة جديدة رائعة أن يضبط شهرت بنفسه ويضبطها متلبسة، ويراقب انفعالاتها بدقة، ويرى ارتباكها ورجفتها وانكارها. أو قد يحدث حادث مفاجيء لم يعد له حسابا ولكنه لا بد سيكون ممتعا وسيكون التغلب عليه أكثر امتاعا. المغامرة رائعة حافلة في كل خطوة منها متعة، وفي رواية تفاصيلها بعد ذلك لأصدقائه سعادة.

الأحاسيس الدافئة كانت تملؤه والخواطر السوداء كان يطردها. فقد لا تكون شهرت هي السارقة رغم دقة ذكائه، أو تكون قد تصرف في الساعة، أو يفشل في مواجهتها ومفاجأتها.

وتتأمر عليه عشرات الاحتمالات ولكل احتمال منها وجهاته، ويحس برأسه يكاد ينفجر. منذ أن عاد من المحكمة وهو لا يكف عن التفكير، والانسان له عقل واحد، وعقله قد تحمل فوق طاقته وما عاد في استطاعته المضي.

وقرر أن يوقف التفكير في شهرت والساعة - وما قد يكون - في الحال - ولم يستطع. في كل مرة يظهر طرف سؤال أو احتمال ثم لا يلبث ان يتكامل... ويصبح مطالبا ببحثه والاجابة عليه. ولهذا قرر أن ينصرف عن الموضوع كلية، ولم يجد أروع من أن يجعل عقله يسترخي ولا يفعل شيئا سوى استقبال ما يتتابع أمامه من مشاهد وتأملها وحصر نفسه فيها.

ومن تلك اللحظة بدأ يحس بنفسه ينزلق ويتوه ولا يستطيع أن يحدد واقعة بذاتها، أو يتذكر دقائق حدث معين، أو يعثر على سبب واضح لما اعتراه... وكأنما قد حدث كل ما حدث وهو نائم يحلم أن شيئا مما رآه لم يحدث. إنه لا يزال يذكر علامات باهتة للبداية، وكان في شارع الجبلية والشارع طويل نظيف تحفه أشجار مقلمة فروعها ومرسومة، والمساحات واسعة والعمارات شامخة وعالية وكل عمارة لها نمط وشخصية والمارة نادرون... والهدوء مخيم والسكون تام لا يسمع فيه الا حفيف العربات السارية، وكلها من ماركات فاخرة وموديلات حديثة، والهواء مفتوح النوافذ يسري ناعما رقيقا في حرية، وموج النيل يمشي على أطراف أصابعه حتى لا يعكر قدسية السكون المستتب.

والعربة تمضي وكأنها تمضي فوق بساط من حرير، وصدوره

ممتلىء بأحاسيس جياشة وحواسه تستعد للمشاهد المثيرة المقبلة،
وشرف بجواره يدخن في صمت ولذة ويبتسم كلما تذكر دوره،
وفرغلي جالس في المؤخرة متشبث بالمسند الأمامي يكاد يشم رائحته
ورائحة بدلته، ورذاذ كلامه يتطاير ويغرق أذنه اليمنى . .

وعند أول الكوبرى تلتقي العربى بأسراب العربات القادمة من
الزمالك والجزيرة والدقي والجيزة، أسراب جديدة رائعة الألوان
كأسراب الطيور تعبر الكوبرى وهي تكاد تطير . . وفي دوامة ميدان
قصر النيل تتسرب الموديلات القديمة وعربات الأجرة ويوزع الميدان
محتوياته ويملأ بها شوارع المدينة حيث الحركة دائبة والاتساع أقل،
والبنايات متلاصقة متقاربة، والأصوات قد بدأت تشغل الأسماع،
والألوان تتعدد، والماشون على أرجلهم قد بدأوا في الظهور. وفي
العتبة تختلط العربى بالأوتوبيسات وعربات الترام والمارة والكارو،
وتبدأ الجلابيب، وتعنف الحركة، ولا يبقى ثمة نظام . .

وحين يدلفون الى شارع الأزهر يصل الصراع الى قمته.
ويختلط في بطن الشارع الحابل بالنابل، والراكب بالماشي. وعويل
العجلات وصراخ الكلاكسات، وزمامير الكمسارية وزئير الموتورات،
وسرعة أجراس الأحصنة وصفافير عساكر المرور، وزعيق الباعة
والمارة، والحرارة تصل أوجها والازدحام منتهاه، ويصبح لا مكان
لفرد وكل شيء بالجملة، الركوب بالجملة والشراء بالجملة
والحوادث أيضاً بالجملة، والآلات هي التي تتصارع والبقاء للأكبر
وبين الحين والحين تسمع: حاسب . . كالصرخة الأخيرة لقتيل
يغرق.

وتصبح قيادة العربة عذاب، وروحه تبلغ الحلقوم، والمارة لا يكفون عن سبه. وفرغلي لا يكف عن رد السباب بأحسن منه، وتصميمه على تأديب شهرت يزداد. لم يعد كافيا أن يخيفها ويستعيد الساعة. لا بد من الانتقام لكرامته. آه لو يخنقها. أجل يلف أصابعه حول عنقها ويظل يضغط ويضغط على النفير، ولا يسمع له صوتا ويشدد من ضغطه والضجة تمتص الأصوات وتمنع الصرخات، والازدحام هائل، والتقدم بطيء يفجر المرارة، وجامع الأزهر يبدو عاليا مغبرا أحجاره كبيرة - الحجر يبنى بيتا - وجداره متين تملأه الخرابيش والحفر ولا يهتز بما حوله، ويشهد الصراع القاتل من مئات السنين ولا يحرك ساكنا ولا يستطيع ساكن أن يحركه. وتنحرف العربة إلى اليمين.

ويتركونها بناء على نصيحة فرغلي وتحت مسئوليته، ويكملون الرحلة سيرا على الأقدام. وبعد خطوات قليلة يحس بفراغ في رأسه وكأنه أصبح وحيدا في مكان عريق مهجور. والضجة ماتت والهدوء قد أصبح شيئا ملموسا وكل ما حوله قد بدأ يهوي أمام ناظره. إنه مصري مائة في المائة، أبوه من المنيرة وأمه من العباسية وله أقارب فقراء في الصعيد، وسافر ورأى وانتقل وحقق ولمس بنفسه أقصى درجات الحاجة. وهو متأكد انه لا يزال في القاهرة لم يغادرها، وأن المكان الذي يمشي فيه حي من أحيائها، ولكن المراثيات تتابع كلما تقدم ويحس بالذهول وبأنه يدلي بحبل في بئر لا قرار له.

الشوارع أول الأمر مستقيمة ذات طول وعرض وأسماء

مشهورة . . وأسفلت واضح وتلتوار . . والبيوت على الجانبين مزدحمة ومكدسة . . ولكنها بيوت لها أرقام وبلكونات ونوافذ بشيش وزجاج وبوابات ذات زخارف، والحركة مائجة هائجة . . والدكاكين لها أصحاب ومكن وعمال ويفط مكتوبة بخط أنيق، والمارة وجوهم حليلة فاتحة فيها دماء، وملابسهم كاملة زاهية ذات ألوان وتفصيل، واللغة راقية مكونة من جمل وكلمات، والجو تملؤه رائحة الوقود المحترق والمانيفاتورة والعطور . .

ويتقدمون . . وتضيق الشوارع وتقل شهرتها، وتفقد البيوت أرقامها وتنقص أدوارها، وتصغر أبوابها وتصبح نوافذها بلا شيش، وتحول الدكاكين الى حوانيت صاحبها هو عاملها ويدها هي المكنة، وتشحب وجوه المارة وتزداد سمرة، وتبهت ألوان الملابس ويتقدم بها العهد، وتحلل اللغة وتصبح كلمة ونداءات وشتائم، وتهب رائحة العطارة والجلود والغراء والخشب المنشور.

ويتقدمون . . وتضيق الشوارع وتضيق وتفضي الى حارات تصك أسماؤها الآذان، وتأخذ مكان الأسفلت كتل صلبة من الأحجار، وينتهي التلتوار. وتتقادم البيوت ويفصلها عن الحاضر أحقاب وأحقاب، وتصبح النوافذ فتحات ليس فيها غير الحديد. وتخفت الحركة، وتندر الحوانيت وتتقطع ويصبح بين البقال والبقال مشوار . . وتتضخم الملامح وتغمر الوجوه وتنبث اللحى وتغزر الشوارب وتتناقص الملابس ويصبح البنطلون بلا قميص والجلباب بلا سروال، وتفتت اللغة الى أنصاف كلمات وأرباع وتعبيرات لا

يفهمها سوى أصحابها، وتخفي روائح الدكاكين وتمتلىء الأنوف بروائح الثقيلة والملوخية متصاعدة من البيوت . .

ويتقدمون . . وتتعرج الحوارى وتتداخل وتؤدي الى أزقة لها أسماء تضحك غرابتها، وتصبح الأرض من التراب وعلى التراب أوساخ وماء وطنين . وتموت الحركة وتخفي الحوانيت وتنتقل البضاعة الى عربات يد أو صناديق معلقة في الحيطان . . وتفقد البيوت ما فوقها من طلاء وما في نوافذها من جديد . ويقل المارة من الكبار ويظهر الأطفال ويتكاثرون وكذلك يفعل الذباب، وتتضخم الملامح وتورم وكأنما قرصتها دبابير، وتتهراً الملابس وتتمزق وتفقد الكثير من أجزائها . ويظهر أناس بلا لباس، وتصبح اللغة سرسعة وأصوات وحروفا تتصاعد من حناجر شديدة البروز، وتملأ رائحة الطين والقدم الأنوف .

ويوغلون في التقدم . . وتتلوى الأزقة والمسالك وتؤدي الى مكان ليس له كيان، كل ما فيه يختلط بكل ما فيه، الأرض المرتفعة المكونة من أجيال متعاقبة من القاذورات والأتربة، بالأبنية المنهارة التي ناءت بما فوقها من أكوام وأعمار، ولون الأرض ذات الطين بلون الجدران ذات التراب، والملابس بالخرق المبعثرة في الطريق، ورائحة الناس برائحة الأرض برائحة البيوت، والهمهمات المتقطعة بهبهة الكلاب بالأبواب الكبيرة وهي تزيق وتفتح، والحركة البطيئة الميتة بالهوام الزاحفة، والمساكن المنخفضة المتربة بالقبور التي ترقد على مرمى البصر، وفرغلي المخلول لا يتغير احترامه ويسبقه بنصف

خطوة لا يريد أن يسبقه كثيراً ولا أن يتأخر، ولا يريد أن يوليه ظهره، ولا يستطيع أن يسير ووجهه الى الخلف، ويجامله بعقد ملامحه اذ المهمة التي جاءوا من أجلها خطيرة تستدعي عقد الملامح، والناس تحييه وهو يرد تحيتهم في اقتضاب. الناس تحييه وتساله عن الأحوال ويحف به احترام هو الحاجب الذي لا حول له ولا قوة، ولا أحد

يعرفه في شارع الجبلالية هو القاضي الذي له الحول والقوة.

ويمضون وحولهم خراب وبيت تتساند حتى لا تنهار، والناس هي الأخرى تتساند حتى لا تنهار. والعجوز يتحامل على شاب، والأعمى يسحبه صبي، والعليل يسنده جدار، والنبي وصي على سابع جار، وخيط خفي يجمع الكل ويربطهم معا وكأنهم حبات مسبحة وكأنهم روح واحدة تحيا في أجساد كثيرة متفرقة، والزمن لا قيمة له، فالطفل الرضيع على كتف أمه هو الطفل الذي يجبو ويختلط بأكوام الزباله، هو الطفل الماشي الذي يتمنطق بالأحجية خوفا من العين، هو الطفل الميت أو الذي عاش، هو الصبي في ورشة أو محل، الغادي الرائح يقلد الممثلين والأراجوز ويتهجد ألفاظ السباب، هو الشاب في عفريته أو جلباب يجذب أنفاس السجائر المصنوعة من السبارس، هو الرجل العامل أو الرجل العاطل، هو الغائب عن الوعي بجوار حائط، هو الدائخ من الأفيون والبطالة والسيكونال، هو الشيخ الذي يقضي النهار يصلي ويدعوا للأولاد ويترحم على ما فات ويجمل لنفسه الآخرة.

والبنت العروس المخطوبة، هي الأم ذات الأطفال، وصاحبة
المنديل بأوبية هي المتشحة بالسواد، وضاربة الطفل هي المضروبة
من الزوج، والطابخة هي الملهوفة التي تبحث عما تسد به الأفواه.
ويأتيه صوت فرغلي وهو يشير الى البيت الوحيد المتماذك
ويقول:

- بيتي .

ويعزم بقوة ويشدد ويلعن شهرت التي جعلت رقبته
كالسمسة.

ويسأل عن الحارة السد ومتى يصلون؟ ويجيب فرغلي أنهم
فيها، في الحارة السد. وأن بيت شهرت قريب بعد خطوات.
ويمضون وتحف بهم نظرات مستغربة تتوجس، وراء كل نظرة كلمة
غريب. ووراء الغريب تساؤل، ووراء التساؤل خطر. .

والنساء الجالسات على العتبات ينسجن من السامة أحاديث
ومن الأحاديث مقدمات حزن، يرونهم فيتعجبون وتميل الرؤوس على
الرؤوس ويتقل الهمس من عتبة الى عتبة، وكأن بين العتبات
أسلاك. . ويقول بعضهن: بوليس. وتتحشرج الأصوات وهي تنطق
الكلمة. . وأخريات يتفعلن ويقلن: صحة. ثم يرين فرغلي ويتحققن
منه فتتخفف الهمسات أكثر.

وأطفال وأطفال، وأطفال يتجمعون أمامهم وخلفهم
وعلى الجانبين، عيونهم ذابلة فيها رمد وعماص، ووجوههم صغيرة

تحمل كل ما فوق الطريق، وتتوافد معهم جيوش الذباب. ويصرخ
طفل وهو يقذف فرغلي بطوبة ويقول:

- محكمة!

ويلعنه فرغلي وينهره بلين. ويلتفت الباقيون الى اللعبة،
وتصبح «محكمة» على كل لسان، ويطير فرغلي وراءهم فيهربون
ويهج الذباب، ثم يعودون الى التجمع ويعود الذباب الى الطنين.

ويتأكد فرغلي من بيت شهرت ويسأل احدى الجالسات فتشير
الى بيت قريب، وينتقل الاسم على كل لسان وكل لسان يضيف
كلمة وتخميناً. . ويترك الجالسات جلوسهن ويضمهن موكب الأطفال،
ولا يصبح فارق كبير بين سواد النساء وسحنة الأرض وزعيق الأطفال
وهمهمة الكبار، والشمس تصب أشعتها وتجعل كل ما فوق الأرض
يغلي ويفور وتتصاعد منه الروائح، والنهار يظهر كل شيء ولا يخفي
شيئاً، يظهر عن عمد واصرار وكأنه ينتقم ويشمت.

وينتظر فرغلي وشرف على الباب وحولهما الركب، ويصعد هو
وحده البيت مظلم وبابه كفوهة العجوز الأترم وعود الكبريت لا ينفع
ويهوي الى أرض المدخل، اذ الأرض منخفضة ولزجة وكلها طين،
والمدخل واسع كقبوة الفرن المهجور. وشهرت في الدور الثاني
- هكذا قالوا - والدور الأول سواد في سواد، والرائحة لا تطاق،
والجدران متآكلة وكأنما نهشتها أفواه ثعابين. وعليها تموجات رشح
وأملح وكأن النيل فاض وأغرق البيت ثم انحسر، وامرأة جالسة على

عتبة حجرة في المدخل تغسل وساقها بيضاء مكشوفة تضفي في الظلام تحديق فيه وتتوجس خيفة، وتنعقد يداها فلا تترك الغسيل ولا تغطي فخدها العاري، والسلم متآكل ومتداع وخشبه مخوخ ودرجاته تنقص درجات، والقدم تزيق، وخطر السقوط محقق. وعود كبريت عاشر ينطفئ.. تطفئه ريح تهب من مكان خفي لا يرى، ريح باردة رطبة والجو في الخارج حار، ريح باردة تنفذ الى النخاع فتخرج النخاع. والدور الثاني لا هو دور ولا هو ثان، عروق عارية كضلوع هيكل عظمي تصنع السقف بينها مهاوي وحفر، وحيطان شاخت ومالت وانحنت، وباب قريب من السلم.. باب مكون من ألواح قديمة غير ممسوحة ولم تجر عليها فارة، والخشب قد تغير لونه وأصبح رمادياً أزرق، وعلى الباب عجين جفاف، وبراز طيور وحيوانات، وكف دم بنية، ووجه رسمه طفل بالطباشير كوجه جنه.

ويمد يدا لا تريد أن تمتد، ويدق بابا لا يحتمل الدق، ويطل وجه يقولها بها «عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط عليه كشاف في أول الأمر، ما أن يراه حتى يشحب ويظل يشحب ولا يكف عن الشحوب، والعينان صافيتان أول الأمر يعكسهما ارتباك مفاجيء وخوف، ثم يمتد الشحوب الى بياضهما ولا يستقر للحدقتين قرار. هي شهرت قد رحبت به. وخرج صوتها متداعياً منهاراً كله ذهول وحيرة واستغراب. وتفتح الباب ويبدو جسدها يلفه جلباب رجالي قديم فيه شق يقسمه بالطول، والشحوب قد وصل الى قدميها وجعل أظافرها تبيض. ويضطرب. هذه المرأة المرتعشة سرقت ساعته.

الساعة معها لا بد فماذا يمنعه من خنقها؟ ولماذا لم يعد لديه الحماس الأول؟ وعقله يتأرجح بين التقدم والتأخر. لقد جاء وانقضى الأمر.

وكما دبر تماما ها هو ذا يقولها ولكن بغير اللهجة التي دبر ان يقولها بها «عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط كشف أصفر، وتخاف، وتدعوه للدخول، وتحاول أن تمحو ارتباكها وتبتسم، وترتعش شفتها وتفشلان في اداء الابتسام. يدخل هو ويعد العدة للتراجع، فمممكن أن يحدث أي شيء، قد يقتلوه أو يسرقوه أو تصرخ شهرت وتستغيث. ومن مكان في الحجرة يندفع اليها أطفال ثلاثة، بنت في العاشرة طويلة ورفيعة جدا وسمراء وعيونها ضيقة وسوداء كالحرير، ووجهها رفيع وجامد ميت لا ينفع ولا يتحرك ولم يعرف الضحك، وشعرها أسود يلمع، ورائحة جاز، وضمفيرة مجدولة وأخرى سائبة، ومشط خشبي مغروز في قمة الرأس، وطفلان آخران. . بنت وولد أو بنتان أو ولدان تشبشا بأمهما وأمسكا بثوبها، ومن الظلام المشبع برائحة الجاز تنصب عليه أربعة أزواج من العيون المستغربة تتطلع وتتساءل ويرتعش. وابتلع ريقه ويردد كالأسطوانة المعبأة:

.. عايزك في كلمة.

وتفنيق شهرت وكأنما أعطيت حقنة.

وتطرد الأولاد وتغلق الباب، ومع هذا يتشبث الأولاد بالباب المغلق وتبدو عيونهم لامعة من خلال الشقوق كعيون الصراصير ترقب ما يجري في الحجرة. ويلهث ويدور برأسه، الحجرة ضيقة

كالصندوق الذي ضاع مفتاحه ، والضوء يختنق وهو يتسرب اليها من نافذة علوية ، وسرير قديم كالح ذو عمدان رفيعة كالבوص ، وحديده كله صدأ ، ومرتبته أغمق من الصدأ ، وفي ناحية شيء كالدولاب قديم ، وجوال فيه ثقب مملوء لحافته ومركون بجوار الحائط وعلبة أرنب ، ومرتبته في الركن الآخر وكراكيب وصفائح وأخشاب متناثرة ، وعلى الحائط صورة الامام علي يشق بسيفه رأس كافر ، والكافر رأسه مشقوق ومع هذا لا يزال ممتطيا حصانه واضعا قدميه في الركاب ، وعلى المرتبة يتحرك شيء ، وإذا بالشيء رجل . . رجل طويل أسمر نائم ورأسه كالزلعة الراقدة بجوارها ، وعلى وجهه رغم نعاسه تكشيرة ، وجبهته معقودة ، ممدد بطوله على المرتبة وحزامه مفكوك ، وملابسه الداخلية قديمة سوداء وظاهرة من فتحة بنطلونه ، وللمرة الثالثة يقول :

- عايزك في كلمة . .

ويعود الكشاف الأصفر ينصب على وجهها وتقول :

- خير . .

وتخرج الكلمة مرتعشة معتقدة تماما أن لا خير هناك . ويقول كالمنوم :

- الساعة فين ؟ . .

ويتخشب جسدها وتذب على صدرها بيدها ، وتنكر برموشها ، وتقسم بازدياد شحوبها . ويعيد السؤال ، وتغلظ في القسم ، وتصير

على الانكار، وشيء رفيع ثاقب يخرج عقله ويؤكد له أنها السارقة. ويمضي كالمحكوم عليه في الخطة يكيل لها الكلمات ويركز الاتهام. وتختنق وهي ترد، وتتحشرج الكلمات على فمها وهي تنكر، وتأخذ دور وكيل النيابة وتأخذ دور المتهم. ويصبح صاحب حاجة وتحاول أن تكون صاحبة كرامة، ويصرخ كالسيد المسروق وتتمسكن كالخادمة السارقة. ويطنى على الحوار صرخات تأتي من الباب.. البنت الكبيرة تبعد اخوتها وهي تسمع ما يوجه الى أمها، والطفلان لا يريدان ترك مكانهما، وكأنما يدركان بغريزتهما أن أمهما شهرت في خطر ولا يستطيعان تركها تواجه وحدها الخطر.

وتزداد عصبيته ويهدد بالبوليس وبأن ضابط المباحث على الباب، ويبدو عليها عدم التصديق، فيفتح الباب ويعوي الباب وهو يفتح، ويأخذها الى النافذة وتطل ويطل، ويقول:

- يا حضرة الضابط.

ويقول شرف:

- أيوه يا سعادة البيه؟

ويغمز بطرف لسانه ويكاد يضحك. ثم يذهب الهزل عن وجهه فجأة.. وتتجمد ملامحه ويخاف عليه أن تنكشف النمرة، فيرتد عن النافذة. وتراجع شهرت الى الحجرة ويتبعها ويقول:

- يا الساعه ياسنة سجن.

وترتجف خطواتها ويعود فيقول:

- وانتي عندك أولاد يتبهدلوا.

ويلاحظ توقفها عن المسير وهو ينطق الأولاد، فيردد ما قاله ويشدد على الأولاد.

وتحاول أن ترغم نفسها على البكاء وتعتصر عينيها، فلا تبكي ولا تهبط دمعة واحدة، ويتقلب الرجل النائم ويغمغم وكأنه يحلم. وتصيح شهت:

- جوزي ..

ويزداد عصبية وتتوتر أعصابه ويهمس بالتهديد، وشيء في داخله يهمس .. الأم تدافع عن وجود العائلة، والزوج يائس نائم .. ويزداد حدة، ويكسي وجهه بقناع مخيف، ويطلق تهديده الأخير. وتتعلق عيناها بعينيها، وعيناها ليس فيهما ذرة رحمة، وليس في نفسه ذرة قسوة، ولا يدري لماذا يهدد ولماذا هو مصر ولماذا لا يرحم ولماذا لا يزداد قسوة، وتقول له:

- فتش.

ويتأكد لديه انها السارقة. ويندفع يفتش بقدمه .. الجوال مملوء «بقوالح» الأذرة، وتحت السرير عروسة خشب وخرق قديمة كالجلابيب، والعطن يملأ خياشيمه، وعدة أحذية متهاكة لا تصلح للارتداء فوقها غبار كثير، وماسورة حديدية، والدولاب طوله متر وطلاؤه بني وفوقه طبقة سوداء سمكية .. وداخله حبة بطاطس مسلوقة عليها صرصار، وبصلتان وورقة ملح لم تفتح، وعند الجزء الأسفل

منه لمعت عيناه فقد وجد أشياء تخصه ، علب ملابس ذات زخارف ،
وصندوق خشبي مطعم ، وأقلام حمراء ورصاص وغطاء قلم حبر ،
ونصف ولاعة قديمة ، وتجيئه غمغمة شهرت تفسر وقد أدركت سر
لمعة عينيه وتقول :

- للأولاد . . يلعبوا بيها .

ويجد جورباً من جواربه ممزقا وقديما وفيه رقع ومغسول ،
ويحس بخجل يهبط بقلبه الى قدميه ويرتفع بدمه الى رأسه . ويثور
في نفسه بركان ، ويخرج فحيحا ملتهبا من ملامحه وفمه ولسانه ،
ويسألها لآخر مرة عن الساعة .

ويتململ الزوج ، ويدفع الباب بيد نائمة ، وتعلو ضجة الأولاد
عند الباب ، وتفتح شهرت فمها وتطبقه ، وتخرج من حلقها أصواتا ،
وشعرها منكوش ، ورعها ينكش شعرها أكثر ، وجسدها يهتز في
الثوب الرجالي الواسع ، ويدها مشلولة على يدها الأخرى ، وعيناهما
تبرقان في سرحان تائه ، وهو أحيانا يفيق لنفسه ، ويدرك انه يمثل ،
أنها لا تمثل ، وأنها تستحق . وأنها لا تستحق ، وأن ملامحها القوية
التي أذلته تجف أمامه من العذاب ، وأنه لا يحس بنشوة النصر ، وقوى
عديدة تتجاذبه ، ويزداد تحديقه خطورة . وأخيرا تفر دمعة واحدة من
عينيهما ، وتفر من فمها كلمة ، وتتبع الدمعة دموع ، والكلمة تتبعها
كلمات ، ويتبين انها تقول :

- أنا لقيتها والني وكنت ناوية أرجعها .

السادجة! يا للسهولة؟! كيف تعترف بمثل هذه السرعة؟! لقد
أعد نفسه لمعركة طويلة.

وتتحرك وتمد يدها الى الدولاب المفتوح، وتستخرج من رفه
الأعلى كوبا زجاجيا مكسورا، وتمد اصبعين يرتجفان داخل الكوب،
ويخرج الأصبعان ببطء وبينهما الساعة. . ساعته! وتمدها اليه دون ان
ترفع بصرها، ويهبط عليه ماء صاعق بارد، ويهدأ كل شيء في
صدره، ويحس بصدره يضيق، وبالحجرة نتنة بشعة، وتبرق الساعة
في اليد الممدودة. ويجذبه البريق ويتناولها ويتفحصها، ويفرح بها
فرحا صبيانيا كما يفعل الأطفال، ويزجر نفسه ويفرح، ويقلب الساعة
بين يديه ويضعها على أذنه ويجدها دائرة، وحشرجات رقاصها لم
تزل كما هي، ويجدها مضبوطة وتشير الى الرابعة وخمس وعشرين
دقيقة، ويجد نفسه على السلم.

وينتبه ويتوقف، ويركبه احساس خفي أنه أخطأ، وينادي
شهرت، وتبدو عند بابها قائلة نعم، وأولادها قد عادوا يتشبثون بها،
والبنت الكبيرة عيونها سوداء رهيبة واقفة ترقب أمها بوجه جامد ومن
بعيد ويدها ممسكتان بالضفيرة السائبة. وهي - شهرت - ثابتة في
مكانها لا يتحرك لها رمش أو ذراع. ويتردد، ويسألها لماذا أخذت
الساعة؟ وتجيبه وتقول:

- الماهية ما تكفيش. . وحضرتك. . مرضيتش.

- ويسألها فتقول:

- البلوزة . . كنت عايزة ادفع حق خياطتها .

فيسألها فتقول :

- الملايا تكسف .

وعيناها لا أثر فيهما لأي انفعال، محدقتان في الفراغ، تهبط
منهما الدموع بلا بكاء، كالسماء حين تمطر بغير سحب. وتجيئه
الاجابات ملفوفة في ضباب، ورأسه يهتز رافضا أن يصدق، ويسألها
وكأنه يشارك في حل مشكلتها: لم لم ترهن السرير أو تبيعه بدل
السرقه؟ وتسيل دموع كثيرة من عينيها وهي تقول ان السرير ليس
سريرهم .

- آمال سرير مين؟

- سرير أم هانم .

- أم هانم مين؟

- شريكتنا في الحجرة .

ويكاد يوقف الكلمات ليفكر فيها قبل أن تلمس آذانه، ولكنه
يبتلعها ويتركها تغيب في لا وعيه .

ويرتفع صوت خشن من الداخل يسأل عن الضجة والحكاية
ويشاءب .

وتستدير لتجيب، وتستدير هوليهبط على عجل .

وحين يصل الى الحارة يتنفس بقوة، وينطلق غير عابىء

بالواقفين أمام البيت، ويسرع والهمسات تنمو وتبلغ أسماعه وتنتشر،
ثم تبرد وتذبل وتأخذ مكانها همسات جديدة.

ويستحثه فرغلي وهو يتسم في قبح بشع:

- هيه؟!

ولا ينطق بحرف، ويمضي وأناس من حوله تمضي، واسئلة
تتري، والعيون المنصبة من الجانبين تتكاثر. . عيون واسعة عميقة
مستفهمة تزيج رموشها في ثقال مريض وتتساءل عما فعل الأفندية
القادمون بواحدة منهم؟ وتلتقي النظرات عبر الطريق تكاد تصنع أمامه
أسوارا شائكة توقفه وتقيده، والحاح فرغلي لا ينقطع، والرذاذ
المتطاير من فمه لا يكف، ويحس بالناس تكاد تطبق عليه حبا في
الاستطلاع. فيخرج الساعة من جيبه ويلفها حول معصمه ويقفل
الابزيم. وتتصاعد الهمهمات من خلفه. ويزعق فرغلي ويسري
الخبر. وتتلاصق النسوة وتنخفض الهمسات، وفي أعقابها ترتفع
دعوات تطلب للولاياء الستر. ويزمجر الرجال ويتضاحك الصبية
وينتشر الحادث من نافذة الى نافذة وعبر السطوح، ويحس بشهرت
تتمزق وتهلhel وتتقاذف الأفواه أشلاءها، وهي شاحبة صامته خائفة
مستسلمة لا تملك من أمر نفسها شيئا.

ويدرك العربة وكأنها طوق النجاة، ويتبين أن شرف غير
موجود. ويسأل عنه فرغلي فيقول انه نفض يده من الأمر كله فجأة
وقال إنه لم يعد يستطيع ومشى. ولا يحس بأية غرابة وكأنه كان يتوقع

من شرف هذا. ويهرب من اعتذارات فرغلي التي يعقبها بو عبده وتهديداته وكأنه سارق الساعة، وكأنه المسئول عن الكون وعمدة الحطة. ويدلف الى العربة ويضغط على محركها كأنما يضغط على ضمير يؤلمه، وتندفع الى الأمام.

وتعود الشوارع تنتظم وتتسع ويصبح لها طول واستقامة، وتعود الملابس تتكامل وألوانها تجدد وتزدهر، والذقون تزال، والشوارب تنمق، والملاحم تصغر وتذق، وتختلط العربات بالسابلة. . عربات كارو أول الأمر، ثم أجرة مستهلكة، ثم أجرة وملاكي وأوتوبس. ويتسع صدره وكأنما انزاح عنه كابوس ويزداد اتساعا، وينخف الهواء ويخف، وتقل أحماله وتكبر رفعة، والدنيا تتفتح وتتفتح.

ويجد نفسه في ميدان قصر النيل.

والنسمات بدأت تهب، والوجوه تفيق من حر اليوم، والكوبري يمتلئ بالمتنزهين، والماء كثير كثير، والعمارات بعيدة بيضاء كأبراج الحمام، والمدينة جميلة جميلة، أجمل من أية مرة رآها فيها، والمنظر ضخم وحاشد، وأنفاسه تتلاحق في نهم، ورأسه يدور.

وما يكاد يصل الى الدور السابع من عمارته بشارع الجبلية حتى يسرع الى الشرفة ويتهاوى على مقعد، ويسند رأسه ويحاول أن يستعرض من جديد كل ما مر به.

٨٣٠

- ٨ -

بعد ساعات قليلة كانت حجرة المكتب لا تزال كما هي ، ولا
تزال لها نفس شرفتها الشاهقة المطلة على النيل .
وكانت الشرفة تشهد - كعادتها كل ليلة - ما يطرأ على القاهرة
من تغيير ساحر مذهل .

النور القوي الذي كان يضيء المدينة طيلة النهار أخذت حدته
تهدم ، ولونه يشحب ويتغير ، وكأن يداً خفية قد امتدت إلى شعلة
الشمس الموقدة ومستها . واصفر الضوء فاصفرت المدينة . .
وانطلقت من خلالها آلاف من شعاعات الشمس الغاربة وزجاج
يعكسها ويزغلل بها الناظر .

واحمر الضوء .
وتلبدت السماء وحدها بالحمرة . أما المدينة فقد كستها رمادية
مغربية زرقاء .

ثم اسودت الأرض .

وأظلمت السماء .

١٦٤

وكاد الليل يبتلع المدينة لولا ملايين من أضواء صغيرة بذرت فوق سطح الأرض، وما لبثت أن نبتت وتغذت على الظلام وترعرعت، وأصبحت أنواراً براقاً تلمع وتبرق.
ثم نضجت الأضواء وتفتحت لها أزهار، وانتشرت في جو المدينة أنوار حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء ذات أشكال وأسماء وأنواع.

واستحال الظلام إلى كرنفال.

كانت الشرفة وحدها هي التي تشهد التغيير رغم أن الأستاذ عبد الله كان لا يزال جالساً فيها، مستلقياً على الكرسي المريح، رأسه ثابت لا يتحرك، وعينه ساهمتان مثبتتان كعيني ميت، وعقله هائم تائه غير مكترث بالنهار الذي ولى أو الليل الذي أقبل. يحدق في الفراغ المطبق المظلم، ويجوب - دون أن يحرك رأسه - سماء المدينة ذات المحصول الوافر من الأضواء، ويهيم ويحاول أن يركز انتباهه وبصره في نقطة تائهة في ظلال الليل، بعيدة عن الأضواء، واقعة لا بد هناك. . هناك في أقصى المدينة وراء مثذنة الأزهر. يهيم يهيم وبين الحين والحين يبرق معدن الساعة الملفوفة حول معصمه فيخطف بصره، ويجذب عينيه الغارقتين في الظلام. ويحس بشيء ملتهب ينبثق في صدره كالنزيف، ويكز على شفتيه دون أن يدري كنه ما يملكه، وينفجر في رأسه خاطر ملح: أن يخلع الساعة ويرميها على طول يده في النيل.

* * *

غير أنه لم ينفذ الخاطر أبداً . . وطبعاً لم يقض الليل في الشرفة . وفي الصباح كان يتوجه إلى عمله كالمعتاد فقط كان قد عاوده ذلك الصداق الملعون .

* * *

ولا تزال الساعة حول معصم الأستاذ عبد الله ، كلما رآها تذكر تلك الرحلة الغريبة ذات الكابوس وازداد اعتزازاً بساعته وبنفسه ، بل إنه ظل يريها لأصدقائه ومعارفه وكل من يلقاه أياماً كثيرة . وكان يفعل هذا كمقدمة لا بد منها لرواية ما حدث له . وكان يغفل في قصته . كثيراً من التفاصيل ، ولكنه كان ما يكاد يصل إلى الحارة السد حتى يعاوده ذلك الاحساس بالنزيف ، فيندفع ببتروالوصف وينتقل إلى الجزء التالي من القصة ، ويصف الهجوم الخاطف الذي انهال به على شهرت فتهافت أمامه وناولته الساعة .

ولم يسمح لفرغلي أبداً أن يتحدث أمامه عنها ، ورغم هذا كان يسمح لأذنه أن تلتقط منه بعض أخبارها وما يوجهه إليها من سباب واتهامات ، مبيناً كيف فسدت وأصبحت ذات سمعة وسمت نفسها أميرة .

كل ما حدث أنه ذات يوم رآها . . رأى شهرت في شارع الملكة وهو مار بعربته . فأبطأ من سيره . . كانت واقفة على محطة الأوتوبيس ، وكان واضحاً أنها لا تنتظر الأوتوبيس ، وكانت تصبغ شفيتها بروج حقيقي وترتدي الجيب الرمادي الذي كانت تأتي به . وأهم شيء أنها كانت ترتدي فوق الجيب . . بلوزة جديدة .



النداهة

٨٣٧

النَّذَاهَة

.

النداهة

. حين دفع «حامد» الباب وفوجئ بالمشهد الهائل المبروع مات . . بالضبط مات . وجد نفسه فجأة قد سكنت فيه كل خلجة أو حركة أو فكرة ولم يعد يرى أو يسمع أو يشعر، والدنيا من حوله هي الأخرى سكنت تماماً . . وماتت، وانتهى كل شيء .

. كانت «فتحية» زوجته راقدة على أرض الغرفة، والولد الصغير ملتصق برأسها العاري ينتحب مرعوباً وهو يجذب شعرها بشدة، بينما هي عارية الرأس، عارية الساقين والفخذين، عارية كلها أو تكاد . . وفوقها يرقد أفندي بجاكتة وبلا بنطلون أو سروال، وإنما مؤخرته العالية قد ذابت في عري «فتحية» وانتهى الأمر .

مشهد صامت، غارق في ظلام الظهر الذي اعتاد الحجرة واعتادته . . لا صوت فيه ولا صراخ ولا مقاومة . الصوت التالي تماماً، وكأنه جاء بعد عام، كان صوت شهقة . . شهقة بشعة هائلة البشاعة، شديدة اللهفة، مشحونة بالذعر والدهشة والرعب . . شهقة كأنها صادرة عن كل الجسد بأقوى ما يستطيعه من استنكار:

- حامد!

شهقة انتفض لها الطفل خائفاً وراح بأعلى ما يستطيعه من صراخ يبكي، ومع هذا فلم يعد أحد يسمع صراخه، إذ أخذ كل شيء يشحب ويصفر ويبيض. حتى الظلام، أبيض وعاد مثله مثل كل شيء في الحجرة أو البيت أو الدنيا كلها إلى مواته، وظل ميتاً وكأنما لعام آخر، إلى أن عادت الحركة إلى الحجرة. وكان أول من تحرك فيها هو الأفندي، إذ في قفزة واحدة كان قد رفع بنطلونه وأصبح خارج الحجرة وفي القفزة التالية كان البنطلون في مكانه المعتاد وكان هو خارج البيت!

وحينئذ فقط تحرك «حامد»، لأن الحياة حين عادت لم تعد لعقله إنما عادت فقط لأقدامه، فإنه وجد نفسه يقفز هو الآخر وقد أودع القفز كل حياته. قفزة حملته خارج الحجرة، وفي القفزة الثانية كان قد أصبح مثل الأفندي خارج البيت، ولكنه وصل متأخراً قفزة.

وهكذا حين وصل إلى الشارع كان «الأفندي» الواحد قد أصبح عشرة، أو عشرين، كلهم بجاككات، وكلهم ذوو مؤخرات تغطيها البنطلونات، ومعظمهم يمشون بأسرع من الجري وأوسع من القفز، وكل منهم في اتجاه!

في تلك اللحظة - فقط - كانت الحياة قد عادت لعقل «حامد» وأفكاره، وأحس - من أول وهلة - أنه لم ينطلق في أثر الأفندي إلا لأنه انطلق ولأنه كان عليه أن يقفز خلفه. فمنذ الثواني الأولى وهو

يعرف ان هدفه ليس الأفندي أبداً - ولا أي أفندي - ولا في الشارع كله أو حتى المدينة بأسرها. هدفه في حجرته . . في زوجته، بل يكاد يكون في ذلك الجزء منها الذي طالما عمر بيوتاً وخرب بيوتاً واقتتل من أجله الناس، جنة الخلق وجحيمها ومشواها.

وهكذا استدار . . هذه المرة لم يقفز فقط استدار، ورفع قدمه بادئاً خطواته وكاد يبقها في الهواء معلقة . . فعقله والحياة حديثة العودة إليه يأبى أن يعمل إلا كما يعمل عقل طفل صغير واجهته مشكلة، ومشكلته هذه اللحظة أنه خائف، بل مرعوب تماماً. أن هدفه هو أن يعود إلى بيته - الحجرة - هذا صحيح، ولكن ليس في كيانه كله ذرة رغبة واحدة في العودة. كيف يعود ليواجه زوجة نصفها الأسفل عار، جسدها مبسط لا يزال يحمل آثار كتلة الأفندي وبهيميته؟ أي إنسان في الدنيا، أي زوج يمكن أن تطيعه قدمه ليخطو بها تجاه مشهد كهذا؟

ولكن . . لأن رعبه هذه المرة هو الذي يحركه للعودة، لحظة فيها ألف لحظة! أقواها وأقساها جميعاً لحظة غدر أحس فيها أنه أخذ غدرًا. لم تغدر به «فتحية» فقط أو الأفندي ولكن الدنيا كلها بأرضها وسمائها أخذته غدرًا. وحينما تغدر بنا الدنيا ونحن صغار فإننا نلجأ لأمهاتنا لنجد في أحضانهم ما يعيد إلينا الثقة في الوجود، وإذا غدرت بنا وكنا كباراً سارعنا إلى زوجاتنا ليؤدين لنا نفس المهمة. فإذا كان الغدر هذه المرة مصدره الأم - ذاتها - أو الزوجة، فويلك يا «حامد»! حينئذ وأنت مشدود مصلوب ممزق بين رغبتك أن تفر من

«فتحية» ومن الدنيا كلها فلا تعود تراها أبداً. . ورغبتك في أن تسرع بأقصى ما تقدر وترتمي في أحضانها وتشكو إليها حتى لو كانت هي المشكو منها. . رغبتك أن تستجير بها من الدنيا لتجد أن الأولى أن تستجير بالدنيا منها. . بما هو أبشع منها.

أجل! أحس «حامد» أن «فتحية» امرأته، زوجته نصفه الأنثى. . تلك التي كان يعرفها كما يعرف ويضمن يده ورجولته وشهامته، «فتحية» قد تحولت، بل انتفض منها كائن غريب مرعب كأنما سخطت وحشاً راوغه ثم نهشه من ظهره وهو آمن مسلم مستسلم. . وحش من فرط رعبه منه لا يجد ملجأ آخر سواه. ولو كان «حامد» قد قتلها في تلك اللحظة - وفكرة القتل نبئت منذ أول ثانية عاد إليه فيها عقله بل ربما قبل عودة عقله، ورغم أي شيء آخر ظلت تدور في رأسه منفصلة تماماً، تعمل عملها باستمرار ولا يريد أن تفارقه أو يفارقها لحظة - لو كان قد قتلها في تلك اللحظة بالذات لكان قد فعل هذا ليس لأنها خانتة أو انتقاماً لشرفه المهدر، أبداً، لا بدافع الغضب أو الجنون أو الحق، إنما ومعها جميعاً - بل وفي أحيان قبلها بكثير - بدافع الرعب المروع منها، كأنما هي قد استحالت في نظره إلى غول أو حية رقطاء تقتلها قبل أن تقتلك، تقتلها ليس دفاعاً عن شرفك وإنما دفاعاً عن نفسك أولاً، كتماً لأنفاس ذلك الوحش الذي غافلوك ونهشك وخانك. . ومن يخونك يقتلك، ومن يقتلك لا مأمّن لك إلا بقتله. بل أحياناً ما هو أكثر! أحياناً يصبح الاحساس الممض القاتل ان شيئاً في الكون قد اختل،

ولا نجاة إلا بواد الخلل في مكانه ولحظته . ان شيئاً حدث لذمة الدنيا والعالم ، وملكوت السماء والأرض ، فخربت . . ثقت فجأة ، وما لم نسارع بسد الثقوب لفغرت الأبدية فاها وابتلعتك أنت والكون الخرب .

كان مرعوباً حقاً حتى لقد بدأ يرتجف وتصطك أسنانه ويحس أكثر وأكثر بالطعنة القاتلة . ثمة سكين صويت بيد تعرف تماماً خباياه وأسراره وأصابته فيه أعز ما في داخله . ألم الطعنة لا يزال لا يحسه فالسكين ما تزال سارقاه . ان ما يحسه هو الثقب العميق الغائر الذي خلفته الطعنة ، والذي كلما حلق فيه داخ وأحس أن في أعماق هذا الجرح نهايته . بغموض ودوشة وازدحام كان يحس بأن حادثاً خطيراً وقع داخله ، وبالضبط حين وقف على عتبة الباب المفتوح .

وكانت «فتحية» قد قفزت قفزتها الأولى ، وأحست وهي تفعل وكأن آلافاً من قطع الزجاج المكسور تستجمع نفسها وتشكل وتقفز . . قفزة لم تفلح في رفع جسدها إنما فقط استطاعت بالكاد رفع يدها والامساك برأس السرير الضيق المنخفض . ولقد أرادت بالقفزة الثانية أن تجري مغادرة الغرفة ، أو تقف ، أو حتى تجلس ، أو بالقليل تجلب ثيابها وتغطي ما تعرى من جسدها ، وهو كل ما استطاعت . دون ما أرادته جميعاً . أن تفعله ، إذ كان «حامد» قد وصل إلى العتبة ووقف ممسكاً بالكالون الباب ينظر أول ما ينظر إلى الطفل الذي كان قد سكت وانطرح أرضاً وبدا أنه نام أو يغالبه النوم .

هو واقف ممسك بالكالون ، وهي ممددة مفتوحة الساقين مبعثرة

الجسد تستنجد برأس السرير ممسكة به.. وهو ينظر إلى الطفل وكأنما قد أصبح أهم شيء عنده، وهي تتجه بوجهها إلى السقف ولكنها لا ترى إلا عيني «حامد». هو ليس في عقله.. مشهد واحد لم ير منذ أن عادت إليه القدرة على الرؤية سواء وكأنما انطبع في عقله وأبى أن يزول. مشهد مؤخرة الأفندي العارية وعري «فتحية»، وقد اندمجا في كتلة بيضاء واحدة.. وهي ليس في عقلها إلا نظرة «حامد» - أول وآخر نظرة تراها منه - لحظة اكتشاف حضوره.. نظرة قد استحالت في رأسها إلى كابوس لا يرحم تكاد تصرخ من هوله مستنجدة، ولكن قوة قادرة قاهرة تخرس صرخاتها وتكتمها. كابوس ترى فيه عيني «حامد» وقد استحالتا إلى سيخين من حديد محمي إلى درجة تطاير الشرر تقتربان بسرعة ثابتة مستمرة من عينيها الاثنتين وحالاً وحتماً هما مخترقتاهما.

كل الفارق بينهما أن «حامد» - كما هي العادة دائماً - مطالب أن يكون صاحب البادرة الأولى. أجل لا بد رغم كل الفجيعة والموت والرعب والطعنة والتأمل أن يعمل شيئاً ويعمله حالاً وفي التو.. إذ إن أي تأخر يفسده ويلغيه ويقضي عليه. وهي خلاص - وصل كل شيء إلى منتهاه ووقع المحذور الذي كانت تخشاه وطول عمرها تخشاه، ولم يبق سوى العقاب. ما أجمل أن يسرع به «حامد»، فكل إبطاء منه يهدد بأن يمضي بها التفكير فتأمل ما كان وما حدث! وأبشع عقاب في الدنيا أهون ألف مرة من أن تعود مرة أخرى لتفكر أو تتأمل أو تستعيد ما حدث.

كانت فكرة القتل قد دفعت نفسها من قاع عقله إلى سطحه، كبيرة الآن مكتملة لا يمكن تجاهلها. لو قتلها فأقصى ما سيناله من عقاب هو الحبس سنة. . . أو ربما أقل أو يقولون براءة. فهل يقتلها الآن؟

هل يتناول عصاه التي كان يسميها «الزقلة» من تحت السرير وينهال بها عليها حتى يتطاير مخها قطعاً؟

هل يفعلها الآن. . . الآن؟ أو يستجوبها؟. . . أو لا يقتلها أبداً؟. . . السؤال رهيب مستمر دائر لا يتوقف في خواطره أبداً.

والشيء الذي كان يغيظه ويكاد يكتم أنفاسه حقاً أن انفعالاته المحيية المميتة الصاعقة الأولى قد مرت، وأنه الآن في لحظة أخرى. . . لحظة لا يرى فيها إلا المشهد الذي تسمر عنده بصره لا يريد أن يبرحه بينما عقله يقلب فكرة القتل مغيظاً. فقد كان القتل يبدو هنا شيئاً لا يمت إلى اللحظة أو المشكلة أو الموضوع أو المشهد الدائر في عقله ولا علاقة له به. . . وليس الحل الهدف ولا ما يريده تماماً. كيانه كله في واد آخر مشغول بما هو أهم وأخطر، والقتل يبدو شيئاً خارج الصورة تماماً كما لو كان يواجه خطر قطار السكة الحديد وهو قادم يريد أن يسحقه وعقله مشغول بتقليب فكرة الدواء الذي وصفه له حكيم المستوصف، وهل الأجدي أن يأخذه قبل الأكل أو بعده؟ الآن لا يريد لها أن تموت، وهو قطعاً لا يريد لها أن تحيا. . . وليست مشكلته أبداً أن تحيا أو تموت أو حتى كل هذا الطوفان من

الأحداث الذي داهمه منذ دفع الباب وفتحه . . مشكلته الحادة الملحة في نفسه في هذا الجرح الغائر العميق الذي لا قاع له، في هذا النزف الهادر الذي انهمر داخله ولا يزال متزايداً متعاضداً يقربه في سرعة رهيبة من النهاية . . نهايته . . إذ ها هو ذا يراها تقترب اقتراباً حثيثاً مربعاً حتى يجعله يحس أنه في اللحظة التالية تماماً سيموت وينتهي «حامد» الذي يعرفه ينتهي تماماً نهاية مفاجئة غادرة ترصد له وراء اللحظة التالية، بينما عقله الهائف الغبي لا يريد أن يتزحزح قيد أنملة عن فكرة هل يقتلها أو يؤخر القتل إلى ما بعد الاعتراف؟ وهو يعلم تماماً أنه غير قادر الآن على قتل بعوضة، وبعد غمضة عين لن يكون قادراً على أي شيء بالمرة، إذ سيكون بمثل هذه السرعة المروعة التي يمضي بها قد انتهى .

الغريب أن النهاية نفسها هي المسألة التي كانت مستولية على عقل «فتحية» تماماً في هذا الوقت بالذات . . ولكنها نهاية لا رعب فيها ولا خوف متزايد من خطر ساحق ماحق يقترب في سرعة خرافية، نهاية لا تخاف منها وتقشعر وترتجف مثلما كان يحدث «لحامد» . بالعكس! هي هنا تطلبها وتريدها وتتمناها، والمهم أن تأتي حالاً حتى تجهز عليها قبل أن يمتد الوقت ومضة أخرى وتجد نفسها مضطرة أن تفكر . . وبالذات أن تعود ترى نفس النظرة في عيني «حامد» . وبمثل ما كان «حامد» يتشبث تشبث المستميت ليمسك بآخر أهداب الحياة حتى لا تفلت منه قبل أن يستمر في مواجهة الموقف، فهي بكل إرادة الحياة فيها كانت تمنى أن تنتهي هذه

الحياة وتموت قبل أن يحدث أي شيء آخر.

إما الموت الداهم السريع وإما أن تحدث المعجزة - أجل المعجزة - وتمحو كل ما حدث وكأنما تمسحه «بأستيكة» وكأنه ما حدث، وتعود الحياة إلى مثل ما كانت عليه قبل ساعة، أو بالدقة قبل شهر، لا بل لا بد أن تعود كما كانت من خمسة أعوام مضت، بل حبذا لو عادت إلى العمر الذي بدأت فيه تعي وتهتف لها الهواتف. انها على استعداد لأن تملأ بحر النيل دمعاً، مستعدة أن تظل تبكي وتستغفر من يومنا هذا إلى يوم القيامة في مقابل - ليس حتى أن يغفر لها الله، ولا أن يمحو تماماً كل ما حدث، وإنما في مقابل أن يجعلها تعيش و«حامد» ليوم واحد، بل لساعة واحدة، بل للحظة واحدة. . واحدة يا رب وكأن شيئاً مما حدث لم يحدث. ولكن المؤلم. . المؤلم ألباً لا يحتمله بشر أن شيئاً مما تمنى لن يكون، وأن السهم قد نفذ، وأن ما حدث كان وانتهى وقضى القضاء. فالمصيبة الكبرى أن هذا الذي كان ودار ليس غريباً عليها، فلقد شاهدته بعيني رأسها. . كله. . يحدث، طوال الأعوام الخمسة الماضية، وبالذات طوال العام الكئيب الماضي. . والفكرة تراودها وتطاردها، والهاتف يهتف بها، ونفس هذا المشهد الذي دار بنفس تفاصيله الدقيقة، صحيح لم يكن نفس الأفندي، ولكنه أفندي، وينطلقون مخلوع، ورقدة، والباب يدفع ويدخل «حامد». . كله بالضبط رأته وكانت متأكدة تماماً أنه سيحدث، ولهذا هي تعيش هذا كله كما تعيش الحادث المعاد وكأنه جرى قبل هذا مرة، بل ربما جرى مرات. . لم يحدث شيء واحد

غريب عنها أو عما كان في رأسها وما رآته لسنين . . بل إن هذا الأفندي كان دائم التربص لها . . وأيضاً يترقبها في حقل مشغولياتها اليومية الكثيف . . فجأة والطفل على صدرها ترضعه، والآخر فوق كتفها ينهش شعرها طلباً للطعام، والطعام على النار، ويداه مشغولتان بطهوه، وعقلها مشغول بتدبير كساء الشتاء ومطالب رمضان . . فجأة يخرج لها الأفندي عارياً إلى منتصفه . . باركاً فجأة فوقها حتى لتموت رعباً، وفي اللحظة التالية تماماً يفتح الباب ويقف «حامد» على عتبة . . تماماً مثلما وقف، ويتم كل شيء مثلما تم الآن كل شيء .

أتكون شيخة؟ أفي أعماقها التي أصبحت نجسة مدنسة ترقد قديسة مكشوف عنها الحجاب . . ترى المستقبل؟

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف تم هذا كما رآته مراراً وعاشته؟

إنه لأمر فوق قدرتها على التفكير والفهم . إنه لشيء يتوه فيه العقل وقد تاه فيه عقلها وضل . . حتى تاه عن تحديد ذنبها إن كانت مذنبه . . فقد كانت تؤكد لنفسها إذا هتف بها الهاتف وارتسمت الصورة أنها بجماع نفسها ستقاوم وستموت حتماً قبل أن يستطيع - أنسياً كان أو أفندياً - أن يلمسها . ومع أن الهاتف نفسه كان يؤكد لها أن مقاومتها لن تفلح، وأنها حتماً ولا بد في النهاية سترضى وتستسلم بحيث تقع الكارثة ويكون المقدور . . إلا أنها كانت تقاوم

وسوسة الهاتف نفسها وتقسم، وتموت غيظاً مؤكدة لنفسها أن شيئاً مما يقوله لن يكون، ليعود الهاتف يؤكد لها أنه حتماً سيكون، برضاها أو بعدم رضاها سيكون، بل هو كائن وحادث فعلاً ودائم الحدوث. إن هي إلا لحظة يغيب عقلها في أدغال مطالب حياتهم ومشاكلها لتفاجأ - كمجيء يوم القيامة - بالأفندي يخرج لها عالياً لترتجف منه وترتعش ارتعاش ستنا مريم... وتقع لها الواقعة!

إنها لم تكن معتوهة أو ذات لوثة وليس في سيرها أو سلوكها ما يخدش... أنها بنت طيبة من بنات ريفنا ذات عقل راجح... نفس العقل الذي جعلها تفضل «حامد» على «مصطفى»، مع أن «مصطفى» خفير نظامي ماهيته مضمونة... خمسة جنيهاً وتسعون قرشاً، ويزرع نصف فدان أيضاً، وله «عجلة»... بينما «حامد» ليس «حيلته اللضى» وأكبر من «مصطفى» في العمر بخمسة أعوام على الأقل، وأسمر غامق السمرة... ولكنها تظلم عقلها أي ظلم إذا قالت أنه هو الذي اختار، فمن وراء عقلها كان دائماً أصبع يشير... أصبع ضبابي غامض يكاد يهمس لها ويصر ويطالبها أن تأخذ «حامد» وتترك «مصطفى»، «فحامد» يعمل في مصر وهي على يقين دائم أن حياتها في بلدتهم محدودة، وأنها حتماً بطريقة أو بأخرى سيكتب لها أن تعيش في مصر، ذلك المكان الرائع الواسع «أم الدنيا» الفخم الفاخر الذي يجلو الصدا عن الجلد ويحيل من يعيشون فيه إلى «سناير». ألم تعد منها «فاطمة» بنت خالتها التي كانت تعمل «خادمة» وهي كالخواجهات بالكاد استطاعت أن تتعرف عليها وهي هابطة من القطار

بالفستان والشنطة؟ فما بالك وهي لن تكون «خدامة». وإنما زوجة وزوجة لبواب يسكن في عمارة أعلى من السماء من عشرة طوابق؟

يا الله ان الهاتف الذي يهتف بها ويؤكد أن مقامها سيكون في القاهرة عنده حق، فهي - كما يؤكد لها الكل - ليست مخلوقة لتنغرر من طلعة الشمس إلى مغيبها في الطين. إن جسدها الأبيض الناصع البياض مخلوق للبندر وحلاوتها من حلاوة مصر، فبمقاييس القرية كانت «فتحية» حلوة، بل من أحلى البنات، فقد كانت بيضاء وكأنها ابنة أحد الأغنياء، إذ الأغنياء وحدهم هم البيض. بيضاء طويلة نحيفة هذا صحيح. . ولكنها نحافة سببها الزيت والأذرة. غداً حين تأكل العيش الخاص الغلة وتغمس بالسمن «ستسمن». مقامها لا بد في مصر. . هكذا راح يؤكد لها هاتف، والغريب أنه لم يكن من خارجها وإنما من داخل نفسها ذاتها كان يوسوس ويهتف. هناك تقيم حيث الشوارع الواسعة الحلوة النظيفة التي تنام على أسفلتها دون أن تعلق بك ذرة تراب واحدة حيث النور الكثير البراق في الليل يحيل الظلام إلى نهار ساطع بل إلى ما هو أحلى وأروع من النهار الساطع. . هناك حيث الستات حلوين وكأنهن من أوروبا، والرجال حمر الوجوه أغنياء يركبون العربات ويصرفون بالجنيه الكامل في اليوم الواحد دون أن يحسوا والنقود تغادر جيوبهم بلذعة الحسرة. . هناك حيث الطعام الكثير والكباب والروائح الحلوة واللوكاندات وبحر النيل الأعظم حيث يبدأ النيل وينبع.

هناك في تلك الجنة سيكون مقامها، هكذا كان يؤكد لها

الهاتف الخفي باستمرار، ولهذا لم تعجب أبداً والأمور ترتب نفسها و«حامد» يتقدم لها وأهلها يترددون ولكنها هي التي تتحمس وتوافق.

وبعد أسبوع واحد تسافر وتصبح أخيراً وكما حلمت ألف مرة ومرة في قلب مصر، وفي العمارة التي طالما حاولت تصور أدوارها العشرة.. صحيح أن مقامها لم يكن في دور منها وإنما في حجرة «حامد» التي بناها له صاحب البيت على عجل تحت «السلم».. بناها بتحريض من زوجته على أمل أن يجدوا في زوجة «حامد» حين يتزوج «خادمة» تحل لهم مشكلة الخدم.

ولكن.. معلش.. الحجرة فسيحة رغم كل شيء، وفيها سرير. بمرتبة حقيقية، ودولاب صغير وتضاء بالكهرباء، واللمبة لها «زر» تدوس عليه هكذا فإذا «بتك» ويغمر النور الوهاج الحجرة.

وصحيح أن «فتحية» الحلوة في قربتهم بدت غريبة في القاهرة، وبدت لسكان العمارة كعروس من مسرح العرائس. فقد كانت بيضاء طويلة، هذا حقيقي، وملامحها جميلة في حد ذاتها، عيناها جميلتان وأنفها صغير جميل لا يمكن أن يكون أنف فلاحية وفمها دقيق بالضبط كخاتم سليمان، ولكن المشكلة أن ملامحها تلك تبدو غير مناسبة مطلقاً لقامتها ولحجمها وكأنها وجه طفلة صغيرة ورأسها قد ركبا لامرأة.. أو كأن الرأس قد صغر بطريقة ما ووضع فوق جسد عادي..

ولكن المهم.. أن «حامد» راق مزاجه وانقلب من «الكلب

الكشر» الذي يعوي طول النهار ويصيح، إلى إنسان مرح ضاحك كالنحلة، صاعد هابط، واقف قاعد، يحيي، ويوصل، ويلبي الطلبات.

أما «فتحية» فقد قبعَت في مكانها المواجه للباب من الحجرة ثرب المدخل العريض الواسع، والباب الضخم الزجاجي.. باب العمارة. ثرب مصر، أو بالضبط ذلك القطاع من الشارع المواجه الذي يكون «مصر» في نظرها.

قبعَت منكمشة على نفسها تتفرج وهي لا تزال أسيرة الرحلة من باب الحديد إلى العمارة التي واجهت فيها لأول مرة ذلك الحلم الذي عاشت تحلم به، ويهتف بها الهاتف من أجله.. مصر! مصر التي وجدتها أروع بكثير مما تخيلت أو استطاعت بنت خالتها أن تصف، أروع وأكبر وأعظم ألف مرة.. مليون مرة. أيمن أن تكون الدنيا بهذا الازدحام، أو الشوارع بذلك العرض، أو الميادين بهذا الاتساع؟

أيستطيع الناس أن يعيشوا وسط هذا الحشد الرهيب من العربات التي تمضي بسرعة البرق، بحيث تلهفك احداها حتماً إذا سهوت وتلفت خلفك مرة؟ والدكاكين، والمحلات، والصور، والنور.. النور ذو الألوان السبعة الذي ينطفئ ويولع بالكهرباء وعلى «الواحدة» كالمزيكة.. والهيصة، والدوشة، والمولد.. لقد خيل إليها حين أفلح «حامد» بعد جهاد أن يجرها إلى وسط ميدان باب

الحديد وهي مروعة مذهولة تكاد تجن.. أنه لا بد في مصر عيد أو مولد أو شيء آخر لا تعرفه يزدهم له الناس كل هذا الازدحام، وتصدر عنه كل هذه الضجة الهائلة التي ترتجف لها الأذن. فقال لها «حامد» وهو يضحك ضحكة العارف العالم: «انها حال كل يوم». فيا لها من مدينة تلك التي يحيا الناس فيها كل يوم في مولد وعيد!

ولكنها في منكمشها خلف باب الحجرة الموارد وهي ترى من بعيد هذه المرة وتأمل.. بدأت ترى في مصر، تلك التي تلخصت في قطاع الشارع المقابل أشياء لم تتصور مطلقاً أن تجدها في المدينة الحلم. رأت فقراء.. فقراء تماماً وجوعى وشحاذين، حتى في قريتهم نفسها لا يوجد الفقر فيها على هذه الدرجة من البشاعة. وفيها كذب أيضاً وشتيمة وقلة أدب وحرامية ونشالون. حرامية هم السبب في وجود أمثال زوجها الذي يحدثها عنهم وعن حوادث السرقات المجاورة والبعيدة. وستات مصر اللاتي تصورتهن أول ما رآتهن خواجات سنايير، فيهن قبيحات كثيرات.. بل معظمهن قبيحات لولا الأحمر والأبيض والطلاء الذي يطلين به وجوههن فتحمر كالأحذية اللامعة، وتترك صاحباتها أشد قبحاً.. سيدات بدأت «فتحية» من كثرتهن تحس بنوع من الرضا عن نفسها.. تلك التي اعتقدت أول الأمر أنها لن تصلح في سوق النساء في مصر إلا خادمة لأقل سيدة من سيداتها. ووصل الغرور إلى درجة الاعتقاد أنها لو لبست مثلهن لأصبحت محط أنظار الناس جميعاً، ولاعتبروها مثلما كانوا يرونها في البلدة ملكة من ملكات الجمال. حتى «حامد» نفسه

وعمله ذلك الذي لم تفهمه تماماً حين قالوه لها . . انها تصورته شيئاً كخفير نظامي للبوابة عليه حراستها في الليل ، له نفس احترام وهيبة الخفير ذي البندقية في بلدهم . ها هي تراه شيئاً أقرب ما يكون إلى الخدام ، ينحني لهذا ، ويسرع في تلبية طلبات الست «أم فلان» ، ويشخط فيه صاحب البيت ويؤنبه ويشتمه بألفاظ غريبة لعلها ألفاظ الشتيمة في مصر ، ألفاظ لم تعرف لها «فتحية» مطلقاً أي معنى مثل يا «أحمق» أنت «مياس» ! حتى موقفه يوم ألح صاحب البيت عليه أن يجعلها تعمل عندهم ورفض هو بإباء وشمم مقسماً أنه لو حكمت ألا يعمل عندهم أو عند غيرهم . لم تستطع أن تهضم ذلك الموقف وهي ترى الحال البائس وترتيبهم في «سلم» الناس في العمارة أو خارجها لا يسمح بهذه «العنجهية» التي لا يقفها إلا إنسان على الأقل في جيبه خمسة جنيهات . تلك فرصة لأكل العيش ولهدمة كستور تلبسها في الشتاء ، ولأكلة حلوة نظيفة من المحتمل جداً أن ينالوها بين الحين والحين ، ولكن «حامد» يرفض ويركب رأسه . وحين تفتح فمها لتناقشه يصرخ فيها وكأنه صاحب البيت وهي ساكنة الدور الثامن عنده .

والحقيقة أنها في رغبتها للعمل كان أكل العيش حجة . كانت في الواقع تريد أن «تتعرف» على أهل مصر أكثر ، وأن تدخل بيتاً من بيوتهم وتحادث ناساً منهم . إذ هي في حبستها في الحجرة هكذا لن تمكنها طبيعتها الخجول المنطوية أن تفعل شيئاً من هذا ، بل لا تملك إزاء نظرات سكان العمارة التي تمتد عابرة المدخل مقتحمة

الباب راقمة إياها أنى تكون، مستطلعة شكلها وجلستها وزيتها باسمه أو مغممة أو ساخرة.. لا تملك إلا أن تزداد انغلاقاً وانكماشاً وتزداد القيود حولها أحكم.. قيود من صنعها، فليس سكان العمارة فقط ولكن المدينة من حولها حافلة متحركة مائجة. كل شيء فيها يجري ويختلط مكهرباً ويكهرب. وهي إلى درجة ما وزوجها «حامد» لم يكن باستطاعتها ليس فقط أن يتركا أنفسهما للمدينة وحركتها تفعل بهما ما تفعل بالآخرين، وإنما هذه الحركة الهائجة المائجة نفسها لا تفعل أكثر من أن تخيفهما وتروعهما وتدفعهما للانكماش أكثر.. أو بالأصح تدفعها هي. «فحامد» - وبالتحديد منذ أن تزوجها وجاءت - استطاع وبطول العهد أيضاً أن يتحرر بعض الشيء ويتحرك ويذهب إلى السيدة زينب ويجوب شبرا مصر ويعرف أن تغير إذا كنت ذاهباً إلى الحسين. وليست حركة فقط إنما فهم أيضاً ودردحة.. فقد بدا «لفتحية» وكأنه أصبح إنساناً آخر غير «حامد» الأسمر شاب بلدتهم الصامت الخجول الذي يدير وجهه إلى الناحية الأخرى إذا قابل موكب حاملات الجرار في الصباح. الآن باستطاعته أن يهزر مع عمال الجراج، ويضحك، ويجمع إيجار العمارة كلها ويحسبه بالمليم، بل وأصبح له أصدقاء من أهل مصر نفسها ومن غير بلدياته وأقاربه. هي وحدها الباقية أسيرة الحجرة.. أسيرة حتى ذلك الشرخ المحدود الذي ترى عالم مصر منه، شاعرة أنه ليس عالماً أو مدينة إنما هو بحر لا بر له ولا قرار، تسير هي على حافته إن سهت مرة وزلت قدمها فقل عليها السلام. والمخيف أنه بحر ليس هادئاً أو

ساكناً أو يأخذ منها نفس موقفها منه، إنما هو بحر جبار صفيق تمتد منه آلاف الأيدي وتطل منه آلاف الابتسامات كابتسامات الجنيات والنداهات، خادعة تدعوها وتسهل لها خوض الماء.. أجل! كلها أيد مأكرة وابتسامات خبيثة. حتى نداء ذلك الساكن الملهوف والنقود في يده والبقال قريب، يد تمتد من البحر تجعل شلل الخوف يجمدها في مكانها لا تتحرك، يد تمتد في مكانها تنكمش أكثر وتزداد انكماشاً وكأنها ما رأت أو سمعت، ملتفتة إلى الناحية الأخرى أو مخفية رأسها هرباً تتمنى أن تحدث معجزة وتنقذها من الموقف. بينما الساكن حين ييأس يصبوب لها نظرة لا تراها إنما تحسها رصاصة تخترق رأسها. كثيراً ما يتبع نظرتة بغمغمة لا تخطيء أذنها فهم ما بها من سباب.

ولكن خجولاً فلتكن، منغلقة، منكمشة، فلتنكمش ولتنغلق، فللحياة قوانينها التي لا مناص منها ولا مهرب. وهكذا مع الحمل الأول كانت «فتحية» قد غادرت الحجرة واتسع عالمها فاحتوى المدخل. ومع الطفل الثاني الذي أعقب الأول بأشهر كان قد اتسع حتى شمل الرصيف الملاصق بل والمواجه.. والشارع إلى ناحيته من هنا، وإلى الميدان الذي يؤدي إليه من هناك.. والآن أصبحت «فتحية» ترد بل وأحياناً تثير النقاش، وتلبى الطلبات وتستطيع أن تفرق بين عربة المدارس القادمة تحمل ابن الدكتور، من العربة القادمة تحمل ابن الموظف في الإذاعة، وكل قصص السكان عرفت من «حامد» ومن غيره. بل وبلغ بها الأمر أنها أصبحت هي مصدر

«حامد» في معرفته لأخبار السكان وأحوالهم، وزائر منتصف الليل الذي يطرق شقة البك الموظف في الطيران، بالذات في الليالي التي يكون فيها «نوبتجيا» في المطار. بل ولم تكن هذه آخر ما بدأت «فتحية» تعرفه عن مصر السفلى وأحوالها وأخبارها بحيث أصبحت تدرك أن تحت مصر الوجهية الغنية المؤدبة الوقور، هناك مصر أخرى مليئة بالفضائح والمخازي والأشياء التي لا يعرفها إلا البواب، أو من هو أدهى في هذه الأمور وأمر، زوجة البواب خاصة إذا كانت رغم صغر عينيها ترى كثيراً وبالذات في الليل، ورغم دقة رأسها تستطيع أن تعرف الفرق بين أخت الزوج الذي تصيف زوجته بأولادها في الاسكندرية بينما هو يا عيني غرقان في الشغل، في مصر، وبين إخوته الحقيقيين الذين يزورون الأسرة طول العام.

والغريب أنها كلها أشياء لم تفسد الحلم في عقل «فتحية» تماماً. صحيح نالت منه كثيراً ولكنها أبداً لم تضيعه. بقيت مصر العظيمة هي مصر العظيمة في نظرها والشر في كل مكان. هكذا كانت دائمة الرد على «حامد» حين يجيئها بين كل حين وحين لاعتناً مصر وأبو مصر وأهل مصر، الذين فعل أحدهم به كذا أو كيت. وإذا كان الشر والوحل والقبح في القاع فالنجاة في العوم.

وهكذا تعلمت «فتحية» أن تفعل مثلما يفعل آلاف وملايين الناس الذين تحفل بهم مصر الكبيرة ويكونون حركاتها الجبارة الهائلة وتعم مثلما يعومون. كل ما كان ينغص عليها حياتها أحياناً هي تلك الانتفاضات التي كانت تفاجئها على هيئة كمين، يخرج لها منه من

بين مشاغلها التي أصبحت كثيرة وكثيفة ذلك الأفندي العاري كاليد المهولة الممتدة، مهددة أن تجذبها إلى القاع مباشرة حيث الوحل والقيح والطين. خرج لها ذلك الهاتف اللعين الذي طالما أكد لها وصدق أن ستكون القاهرة مآلها ليؤكد لها أنها واقعة في المحذور مع الأفندي لا محالة ومهما فعلت، مسألة تترك «فتحية» وهي تكاد تنفجر بالغيط والضيق والاستنكار والتصميم أيضاً. . تصميم قاطع مانع أن أبداً لن يكون حتى لو دفعت حياتها ثمناً، فأبداً لن يكون. . وبيننا الأيام يا مصر.

* . * . *

وفي مدينة كبيرة كهذه مليئة بالذئاب. . ذئاب الليل وذئاب النهار. . ذئاب الأوتوبيسات وذئاب العربات. . وحتى الأرصفة وطواير الجمعيات الاستهلاكية لها ذئاب، وفي عمارة كبيرة كهذه لا يمكن أن يسلم الأمر من وجود ذئب.

والحقيقة أنه كان فيها أكثر من ذئب من العبث التصدي لهم جميعاً، فيكفينا ذلك الشاب الأبيض الحليوة قاطن الشقة الوحيدة بالدور الأرضي، أخف سكان العمارة دماً وأكثرهم حيوية وتواضعاً. كما أنه خدوم شهم يجيد احترام الآخرين ورفع الكلفة معهم. وكل هذا طبعاً لا يعني أنه ليس بذئب، فالحقيقة أن هذا السطح البراق الخاطف للبصر كان يخفي ليس ذئباً فقط، إنما يخفي صبعاً شريراً لا

ذمة له ولا ضمير. . فهو مجنون بالنساء جميعاً، وفي سبيل أن يظفر بالواحدة منهن مستعد أن يفعل المستحيل. مستعد أن يكذب أو ينافق أو يسرق أو يقتل أو يستعمل القنبلة الذرية لو كان يملك واحدة. والمرأة عنده ليلة واحدة يقضيها معها وبعد هذا يبحث عن الثانية، وكأنه أخذ نساء الأرض جميعاً مقاوله وعليه أن ينتهي منهن قبل أن يفرغ عمره. وعمره الآن خمسة وثلاثون عاماً، وسمعته كالذهب، أو عبقريته أنه استطاع أن يخفي حياته الأخرى هذه عن المجتمع الذي يحيا فيه، بحيث يمشي مع الشرفاء مرفوع الرأس لا يعرف ما بداخله سوى ضحاياه. وحتى ضحاياه كثيراً ما غفرن له. . بل وبعضهن أحبه وتعلق به وذاق من العذاب أهوالاً. بالطبع كان قد انتهى من كل من رقن في عينيه من سكان العمارة، وبالضبط وهو عائد ذات يوم من عمله، وبعد ما حياه «حامد» بطريقة البوابين التي كان قد أتقنها والتي كان يستطيع بها أن يوهمك أنه وقف بينما هو في الحقيقة لم يغادر مجلسه، و«فتحية» أمام باب الحجرة جالسة قد احتوت رضيعها تمنحه ثديها الأبيض الناصع الشديد البياض الضامر أيضاً، الضامر إلى درجة لم يكن يملك معها الإنسان العادي إذا رآه إلا أن يرثي لصاحبه!

ولكن أفندينا - الساكن - لم يرث. ألقى عليها نظرة، ثم بالتفاتة مقصودة أو غير مقصودة ألقى نظرة أخرى على «حامد» الذي عاد يمد ساقه النحيلة فوق الساق الأخرى بحيث يمكنه أن يمد ذراعه ويسند إليه يده ويداعب مسبحة رخيصة ناقصة الحبات، بينما وجهه الأسمر

الحافل بحفر تشهد أن الجديري قد زار طفولته . وجهه ذاك قد عادت تحتله ابتسامة طيبة مليئة بسعادة ساذجة البراءة ، وبدا كما لو كان يعود لينهي - بحماس فاتر - ابنه الأكبر عن تخطيط رخام المدخل بقطعة طباشير عثر عليها . وكان سعيداً بابنه وشقاوة الذكورة فيه سعادة تجعل لسانه ينتقل في نشوة من تأنيب ابنه ونهره إلى مداعبة «فتحية» ومطالبتها بابن ثالث عله يطلع هادئاً وديعاً كأمه .

استوعب الأفندي الساكن هذا كله في الزمن القليل الذي استغرقه ليصل إلى باب شقته ويضع مفتاحه في قفلها . وفي ومضة كان عقله المركب بطريقة لا بد غريبة بالغة التعقيد ، فمشهد كهذا كان يمكن أن يهز بعضهم رأسه لرؤيته أو يبتسم في رثاء مثلاً أو حتى إذا كان شريراً فأقصى ما يفعله أن يسخر بينه وبين نفسه من هذه العائلة الطيبة المسكينة السعيدة . . أما هو فقد كان موقفه أن اتخذ في الحال قراراً لا رجعة فيه ، أن يلتهم «فتحية» ويضمها إلى قائمة الضحايا . . هو ليس إذن ذنباً عادياً . انه ضبع ، أشد ما يجذبه إلى الضحية هو بالضبط نفس الأسباب التي تدفع غيره من الذئاب لأن يبتعد . إن أسعد مغامراته . تلك التي انقض فيهما على أرملة في نفس ليلة وفاة زوجها العجوز ، أو تلك التي بدأ بها تاريخه حين ضاجع أم زميله الذي كان يذاكر معه . . أما تلك الخائفة المنكمشة على نفسها التي ما خاطبها مرة إلا واستدارت بعيداً مبتعدة أو هاربة ، ذات الثدي الأبيض الضامر وزوجة الأسمر الطويل الفلاح «حامد» فلا علاج لانكماشها على نفسها وخوفها منه ومن مصر والمصاروة . . إلا بأن

يأتيها عساها تكف عن الانكماش وتأنس إلى ناس المدينة .

وعبقريته، ولكل عبقريته الخاصة، أنه ما ان يتخذ قراراً كهذا حتى يبدأ عقله يتفتق عن أفكار جهنمية وعن طرق ووسائل لا يمكن أن تخطر على عقل بشر، فهو خامل كسول ممتعض الابتسامة إلى أن يحدث وتقع عينه على الواحدة منهن ويقر قراره، في الثانية التالية تجده قد استحال إنساناً آخر دبت فيه طاقات الحياة، وتفجرت في عقله الأفكار والخطط وأقبل على الحياة بشهية مفتوحة وأصبح كائناً آخر . لا تكاد تعرفه .

وقبل أن يدير المفتاح كانت يده قد خبطت جبهته علامة الألم للنسيان، وكانت المحفظة قد أخرجت وخمسة جنيهات قد فردت أمام عيني «حامد»، وعلبة سجائر كليوباترا يا «حامد» نسيت شراءها . هاتها أنت من تحت الأرض بأي ثمن ولو بثلاثين قرشاً، والورقة بخمسة جنيهات معك . لا تعد إلا بها يا «حامد» حتى لو ذهبت إلى شبرا البلد .

يا لمكره وهو يفتح «لحامد» باب الاختلاس المحدود على مصراعيه! الاختلاس المغري بالغياب وادعاء التعب . ويا لطيفة «حامد» وهو يبتلع «الطعم» في الحال ويقرر حتى قبل أن يبرح مكانه، أن ثلاثة قروش على الأقل ستدخل جيبه من هذه الصفقة وعليه أن يبرهن أنه استحقها . أما أنت يا ست منكمشة - فبعد ما

تأكد من ذهاب «حامد» ها هو ذا يعود فاتحاً باب شقيقته الذي لا يبعد عن باب حجرة «السلم» إلا بضعة خطوات - مش تشرفينا؟ «فتحية» فعلاً وأنت «فتحية». وابنك الرضيع هذا؟ «سلطان؟» عاشت الأسامي. والثاني «عنتر؟» ياه! عيلة أبطال صحيح. . . والثالث؟ ما فيش ثالث؟

من هنا نبدأ. . . ونبدأ بلو كنت من «حامد» لكان الثالث على الأبواب. . . وعلى هذا الباب الأخير مضى الولد القاهري «المزق» يدق دقاً اكتشف أن «فتحية» بالكاد تعيه. أغباء هذا أم استغناء؟ على أي الحالين عليه أن يغير الأسلوب. . . المال؟ إن هذا النوع لا يقدر قيمة المال، فلا يعرف قيمة المال إلا من يعرف كيف يصرفه، إلا المتعامل بالمال. . . الحب؟ إن هذا الصنف أيضاً لا يتطلع إلى الحب، أو بالذات حبه. . . هم لا يرفعون عيونهم أبداً إلى ما فوق الحواجب، ولا يتطلعون إلا لحب من في طبقتهم. . . أو ربما إذا تطلعوا في أعلى منها بقليل. أما هو البيه الوسيم الذي يعامل الخمسة جنيهاً بهذا الاستهتار فمحال. من أين «أكلك» إذن يا «بطي» النحيفة المعضمة؟ بخطة بعيدة المدى لا بد. . . خطة تجعل هذه الخائفة المنزعجة المذعورة تطمئن إليه أولاً وتكف عن الخوف منه، ثم يتقدم خطوة ويرفع الكلفة معها، ثم ينتهز الفرصة أو يخلقها خلقاً ويحاصرها حصاراً لا تملك معه إلا السقوط.

وما كاد يبدأ التطبيق حتى أدرك أنه رغم كل ذكائه وفهلوته قد خائنه فراسته هذه المرة. . . فهو ما كاد يبدأ الخطوة الأولى لتطمينها

بالحديث معها حتى أدرك أنه ليس أمام إنسانة وإنما هو أمام حيوان كحيوان القواقع . ما تكاد تحس باقتراب صوت أو خيال حتى تنكمش وتنكمش حتى لتستحيل إلى كتلة صماء من اللحم والعظم غير قادرة على الارسال أو الاستقبال . إنه للآن لم يرها رأى العين . إن هي إلا مرة رأى فيها وجهها وما كادت تدرك أنه يراها حتى كان وجهها قد اختفى . . واختفى وهي أمامه لم تبرح مكانها ووسامته من أقوى أسلحته وقد كان يريد لها أن تراه، كان متأكداً أنها إذا رآته مرة وتطلعت إليه ملياً فإن شيئاً ما سيحدث لها، تماماً مثلما كان يحدث للعشرات اللاتي سبقنها . ولكن كيف تراه وهو كلما هم بالتحديث معها أحس أن شيئاً في داخلها يمنعها أن تسمع . . وإذا سمعت يمنعها أن تعي ، وإذا وعت يمنعها أن ترد أو تجيب . . أو حتى تتطلع لتعرف من الذي يتحدث؟

وقد كان من الممكن أن يحدث هذا «لفتحية» في أول مقامها بالعمارة، أما بعد أن خرجت وجابت الشارع وأصبحت تتعامل مع السكان وغير السكان فهو موقف إذن من الأفندي وحده . «فتحية» في الحقيقة لم تكن تفعل معه هذا اعتباطاً، فهي ليست غيبة ولا فقدت الحذر، وحين تلا حديثهما العابر البريء الأول بحديث أحست به مصطنعاً مفتعلاً استقيظت فيها فجأة كل مخاوفها القديمة تجاه مصر والبحر والأيدي الممتدة، وملأها الرعب من ذلك الأفندي الذي كثيراً ما هتف به الهاتف . . صحيح أن الهاتف لم يحدد شكل الأفندي ولكنه أفندي تحس أنه عن عمد يتقرب إليها . أليس هذا كافياً لكي

يجعلها تحس أنها أصبحت بين أنياب الخطر، وإن هي إلا كلمة تفلت منها أو لين تظهره تجاهه حتى تنتهي هي وينتهي كل شيء . لقد أصبحت من فرط حذرها بالكاد تنام الليل . . ووجود «حامد» نفسه لا يطمئنها، والباب الذي تغلقه وتؤكد أكثر من مرة أنه مغلق لا يفلح في كبت مخاوفها . . فمصيبتها الكبرى أن الهاتف يؤكد لها أن ما يوسوس لها به سيقع . . برضاها سيقع . . برغم رضاها سيقع . إنها تكاد تجن، فلتجن أو فلتمت أو ليحدث أي شيء ولكنها ستقاوم، ولن تسمح لصلة أو حتى كلمة أن تكون بينها وبين ذلك الأفندي، ولتدر المعركة في داخلها في صمت رهيب لا يعلم بها مخلوق . . ولا تستطيع أن تبوح بها لمخلوق .

وبالوسع تصور مقدار الفجعة التي أصابت ذئبنا الضبع وهو يرى جهوده ووسامته وذكاءه تذهب سدى أمام جبوت هذه الفلاحة البيضاء، وانطوائها على نفسها واغلاق ذاتها دونه . حتى لقد استحالت المسألة عنده من مغامرة كان يعتقد أنها بسيطة عابرة إلى خوف من الهزيمة واهتزاز كامل بالثقة بنفسه حتى أصبح عليه لا أن يخوض مغامرة وإنما أن يثبت لنفسه أنه لا يزال ذلك القادر الذي ما استعصت امرأة عليه قط ولا فشل مرة .

الأيام تمضي بسرعة مذهلة، حتى لقد مضى على قراره شهران وهو لا يزال قراراً لم ينجح لخطوة صغيرة واحدة في طريق تنفيذه . وتفكيره في المغامرة، وفي «فتحية» دائب صباح مساء حتى أصبح هذا الموضوع أهم ما يشغله في حياته، بل لم يعد في حياته سواه .

أحياناً كان يفيق لنفسه ويستنكر أن تكون هذه حاله وأن يكون هو نفسه الذي جاب مملكة النساء بسمائها وأرضها ونجومها، وجربهن جميعاً من الأميرات إلى الغسالات بل والسائلات، هو نفسه الذي يهب كل ذلك الوقت والمجهود والتفكير لامرأة كـ «فتحية»! إن هناك خطأ في الموضوع لا يعرف سره، ومن المحال أن يفشل حتى لو كلفته هذه المغامرة عمره. وأحياناً يفيق ليواجه سؤالاً لم يوجهه لنفسه أبداً: أيكون قد أحب «فتحية»? إذا قيس الحب بمقدار الكم من الوقت الذي يقضيه المرء يفكر في حبيبته فهو إذن ليس في حالة حب فقط ولكن في حالة حب عظيم نادر، فلم يحدث من قبل أن تفرغ إنسان للتفكير في إنسانة كما يفعل هو مع «فتحية». بل وها هو ذا حين يجد صدها له كاملاً حاسماً نهائياً وليس ابن يومه فقط أو لحظته، وإنما من الواضح أنه سيظل هكذا إلى الأبد.. حين أدرك هذا ويشس تماماً من كل محاولاته أصبح كل همه وأمله أن لا يحدثها أو تحدثه، ولا حتى أن يحلم أن يوقعها، وإنما أن يراها.. مجرد أن يراها. وحتى هذا الطلب البسيط الشديد التواضع أصبح عسيراً هو الآخر صعب المنال، فلقد تزايد خوف «فتحية» وتزايد بالتالي حذرهما إلى الدرجة التي أصبحت نادراً ما تغادر فيها الغرفة، حتى إذا غادرتها مضطرة فلتعود إليها مسرعة لهفى وكأنما في أثرها سرب من التماسيح. وأصبح على ساكننا لكي يراها أن يلجأ للصدف وحدها تدبر له الأمر، ولكي يزيد احتمالات الصدف كان عليه أن يمضي أطول وقت في المدخل أو في باب العمارة أو قريباً من باب شقته، وأن يفعل

هذا و«حامد» موجود مسألة لا بد تدعو للشك ولهذا كان عليه أن يرسله في مشاوير. ولكيلا يفعل هذا بكثرة تثير رييته وبحجج دائماً وجيهة ومعقولة كان عليه ألا يرسله كثيراً، وبالتالي يقلل من احتمال وجوده قريباً من باب حجرتهم. مشكلة عويصة كانت تستنفد من وقته وجهده الأيام الطوال لكي يتمكن فقط من أن يراها، وحتى لم يكن يراها، كان فقط يلمحها. . يلمح شيئاً يرتدي الجلباب الأسود الذي عادت إليه صاحبتة تتحصن فيه بعد أن كانت قد خلعتة ولبست مثل أهل مصر. . الملون والمشجر.

* * *

وفي ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف في وقت القيلولة تماماً، وقد انتظر أسبوعاً بأكمله ليتمكن من ارسال «حامد» إلى مشوار في شبرا، كان الحب والوجد والقلق قد استبد به إلى درجة لم يعد يحتمل فيها الأمر لثانية أخرى. كان قد انتهى تماماً وأصبح مستعداً لأي شيء من أجل أن يظفر ولو بكلمة واحدة منها، مستعداً أن يسوح لها بحبه وأن يعرض عليها الزواج وأن يتزوجها في الحال، وأن يقتلها إذا رفضت، وأن يقتل «حامد» إذا تعرض له، كان قد بلغ مرحلة اليأس الكامل المطبق ولم يعد أمامه إلا أن يقتحم عليها الحجرة وليكن ما يكون.

ولقد فعل.

ولأن الطفل الكبير كان قد فتح الباب الذي أغلقته أمه وخرج إلى الحارة الجانبية ليلعب، فما كاد يدفع الباب حتى انفتح، وحتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمامها، وكانت واقفة تحمل الرضيع بجوار رأس السرير. وبرغم كل ما كانت تحفل به نفسه من هموم وقرارات ومشاكل، برغم الكلام الذي كان قد جهزه ليحاصرها ويمطرها به، فإن كل شيء ما لبث أن تبخر من عقله تماماً، لا لمرآها، وإنما لما حدث لها لحظة رؤيته. فالأشباح نفسها إذا ظهرت لها ما كان يمكن أن تحدث نفس الأثر، لا حتى ولا الموت نفسه لو رآته مجسداً! لكننا رأيت شيئاً أعتى من الشيطان والموت والأشباح وكل شرور الدنيا. لقد كانت مطمئنة اطمئناناً كاملاً إلى كل الاجراءات التي اتخذتها لتصبح في مأمن منه. كانت شيئاً فشيئاً قد بدأت تثق أنها انتصرت على الهاتف والقدر والمكتوب، واثقة أنه قد أصبح مستحيلاً على الواقعة أن تقع ما دامت قد أحاطت نفسها بسياج الاحتياطات تلك حتى أصبح مستحيلاً على ذلك الأفندي مجرد رؤيتها. أما أن تلتفت فجأة لتجده أمامها وجهاً لوجه، في حجرة خالية، بينما «حامد» بعيداً جداً في شبرا البلد. أما أن تحس أن قدمها قد زلت بغتة من مكانها الحصين المرتفع وأنها في طريقها إلى أن تهوي إلى سابع أرض. إلى القاع، أما أن تدرك أن إرادة الهاتف انتصرت على إرادتها، وأن الأفندي ها هو، كأنه القدر، كأنه المقدر، كأنه النداهة من دم ولحم ووجود. فهي الصاعقة التي انقضت على عقلها فصعقته. لا. لم تكن إنسانة مرعوبة تلك الواقعة، إنما هي إنسانة

مصعوقة، مشلولة، منتهية، في ومضة واحدة انتقل لونها من البياض إلى الصفرة الرمادية الكاملة، صفرة الموت الرمادية، ومن إنسانة ترى وتسمع وتشعر إلى إنسانة أصابها الصمم وتوقف اللسان في حلقها وتضخم حتى كاد يملؤه. صاعقة بترت تماماً صلتها بالحياة. . كأنها الصاعقة التي انقضت على «حامد»: حين رآها، والموت الذي تلا كان كالموت الذي داهمه، وبتلقائية غريزة البقاء وحدها مدت يداً قد بدأت ترتعش ارتعاشاً ظاهراً يرعب مشاهده، تمسك برأس السرير تتشبث بها، بينما الطفل من فوق صدرها ينزلق، وبالغريزة وحدها تحميه بيدها من السقوط المفاجيء فيصل إلى الأرض سالماً قد بدأ يبكي وينتحب. وما كاد هذا يحدث وتطمئن الأمومة حتى لم يعد للحياة نفسها أو التماسك قيمة، فبدأ الجسد يتمايل ويدوخ وينزلق مهدداً بالسقوط، بل سقط سقطة لم تتم، إذ في الحال وبجهد خارق، كان ذئبنا الضبع هناك يتلقاها بيديه الاثنتين وقد فغر فاه بالدهشة، فأخر ما كان يتصوره أن يحدث هذا وأن تسقط الثمرة من تلقاء نفسها بين يديه دون مشقة أو تعب، دون كلمة، دون حتى حركة واحدة أقدم عليها أو جهد ولو ضئيلاً بذله. لقد جاء وفي نيته أن يحارب معركته الأخيرة بكل قواه، واستعد ليواجه ليس فقط «فتحية» أو «حامد» وإنما العالم كله، استعد لأي شيء، للفضيحة أو القبض أو القتل، جاء وهو يائس تماماً أن يظفر منها بشيء. . فالتى تضمن عليه بمجرد أن يلمسها أو يراها، هل من المعقول أن تنيله مهما فعل شيئاً أكثر من هذا؟ أكثر من أن تتاح له فرصة أن يراها،

مجرد أن يراها، ولو كان ثمنها فضيحتة أو مصرعه، فإذا بها بين يديه طرية كالخرقة، مستسلمة تماماً متاحاً له منها كل ما يمكن أن يحلم به، إذا بها أقرب ما تكون إلى جثة، جثة لم تفعل أكثر من أنها أيقظت فيه ذلك الضبع القديم الذي يسيل لعابه لمراى الجثث. الضبع الذي كان قد اختفى في أعماق شخص بلغ به الحب والوجد والشوق إلى «فتحية»، مستوى رفعه إلى مرتبة المحبين الكبار. . محب مدله جرب السهد والسهر والغيرة والشك والعذاب، العذاب الذي نال منه وأوهن جسده حتى رق ودق وارتقى بمشاعره حتى أصبح يحس ويفكر ويتصرف كشاعرا فجأة نفّض الضبع الكامن الذي يكاد يختبئ ويموت تحت ما ترسب فوقه من مشاعر وطبقات. نفّض عن نفسه هذا كله، وانتصب تلمع عيناه بريق الفوز ويرتجف جسده ترقباً لمائدة المتعة الأكيدة المرتقبة، لا يفصله عنها إلا لحظة زمن يريد بكل ما يملك من شر وجشع أن يختصره حتى ليلغيه تماماً ويبدأ يلتهمها ويتلمظ.

وهكذا، ومنتهاً فرضة الغيبوبة الكاملة العابرة كان قد أرقدها على الأرض ودفع الطفل بغل فأبعده، وأطلق الطفل صراخه مذعوراً عالياً لا يأبه له، بل انه ليضيف كثيراً من البهار إلى المائدة الجثة. ويبد حديدية مدربة طوقها، ويبد مرتعشة بالرغبة مبهورة بالانتصار الساحق السريع تكاد لا تصدق نفسها أو ما يحدث، دفع بنطلونه دفعة واحدة تعرى على أثرها تماماً، وبنفس اليد مزق ملابسها وهو يحس بالصوت الصادر عن التمزيق بنشوة دونها أي نشوة أخرى على وجه

الأرض، وحتى لو كانت في طريقها إلى الموت على أثر نزيف مثلاً أو سكتة لكانت من غيبوبة الموت الحقيقي قد استيقظت، فللغريزة الحارسة للغريزة سلطان على الجسد أقوى من أي سلطان آخر.

وهكذا ما كاد يحاول أن يصل بانفعاله إلى آخر مدى حتى كانت، وكأنما مسها تيار مكهرب موقظ قد صحت، ومع أن الصحة كانت صحة عقل وإدراك إلا أنها بجماع ما تملك من طاقة وقدرة، بآخر رمق، بذلك الكم الضئيل من القوة التي يدخرها الجسد ليقول بها آخر «لا» في حياته، قاومت.. تململ جسدها يقاوم مقاومة لم تفعل أكثر من أنها استدعت إلى الوجود كل قوى الذئب الضبع الكامن وحشدها في ساقيه وذراعيه حتى التفت حولها كقيود من فولاذ لا يرحم، وبآخر ما تملك أيضاً تململت، وبكل ما يملك أطبق. وكان ممكناً أن تصرخ تستنجد بالناس أن يقاوموا لها ولكنها رفضت وأبت فالمعركة معركة وحدها ولن يفعل ادخال الناس أكثر من فضحها إذ السهم الآن نافذ فعلاً، والمكتوب قد حدث، وقد يمنع الناس استمرار حدوثه ولكنهم أيضاً سيكونون شهود حدوثه، وتلك هي الكارثة التي تواجه الموت أو السقوط الخاص الذي لا يعرفه أحد، ولا تواجهها.

وحين فتحت عينيها - وقد ذهب الرعب وحل الغضب - تريد التفرس في قاهرها واتسعت عيناها دهشة وحقدًا وخوفًا، فعلى بعد قراريط من وجهها كانت ترى وجهه لأول مرة وتتفرس فيه، فهي أبداً

لم تر وجهاً مثل وجهه حليقاً ناعماً أحمر وسيماً، وعينه خضراوان لهما رموش طويلة، ورائحة حلوة، وأسنان بيضاء مرصوصة بدقة، وفمه حلويتمنى أي فم أنثى أن يقبله، وابتسامة كبيرة. . ابتسامة فوز وفرح تحتل الوجه كله وتظهر له غمازتين عميقتين على جانبي الوجه وطابع حسن. . ابتسامة داعية ناعمة كأنها واحدة من آلاف الابتسامات التي كثيراً ما حلمت بها هي والأيدى الممدودة تدعوها في لطف وإصرار إلى ترك بر الأمان والغوص إلى القاع حيث الأشباح والطين. . ابتسامة ما أن رأتها حتى بدأت تتملل مقاومة من جديد إذ أحست وكأنها ابتسامة القاع نفسه، يدعوها ويخبت ونعومة ودهاء يريد التفرير بها. . مقاومة لم تفعل أكثر من أنها مكنته تماماً منها حتى أصبح كل جزء فيها ملتصقاً وملتحمماً بكل جزء فيه. لقد ظلت تخاف من العفريت حتى طلع لها، ومن وسوسة الهاتف حتى تحققت. ظلت تصمم وتصبر وتحتاط حتى نفذ السهم ووقع المحذور وانتهى كل شيء، والخوف المستمر الدائم والهاتف والحلم والحقيقة كلها قد التقت الآن في لحظة واحدة. . لحظة غريبة مفعمة مليئة محشودة بآلاف اللحظات والخلجات. لحظة أخطر ما فيها أنها تدرك أنه لم تعد هناك فائدة. حتى الرعب والخوف أصبح لا فائدة منهما، والمقاومة لم يعد لها داع بالمرة، فالسهم نفذ.

ولم يعد أمامها إلا أن ترجوه وتستعطفه. لم يعد أمامها إلا وسيلة العاجز. . أن تبكي. ولقد بكت. . وأن تتذلل. . وأنا في عرضك، أنا صاحبة عيال. دموع وكلمات لم تكن تفعل إلا أن

تضيف إلى الأكلة كل ما يتمنى الضبع العجوز إضافته من شطة وسلطة وعصير ليمون وخل، وحين استمرت تبكي وقد ازدادت حرقة البكاء ولوعته لم تكن تريد به مزيداً من رجائه واستعطافه، إنما كانت في الحقيقة تبكي من أعماق أعماق قلبها على نفسها وعلى عجزها..
بكاء.. يا للعجب! لم يستمر طويلاً.

فقد بدأت تحس بأشياء غريبة عجيبة تنفذ إلى ذاتها وجسدها.. أشياء جديدة مذهلة كبريق مصر الخاطف.. أشياء أحست معها كما لو أن كل النيون الأحمر والأزرق والبنفسجي ومهرجان الأضواء والألوان، كل الوجوه الحلوة الحليقة والملابس الغالية الأنيقة، كل الروائح العطرة المنعشة المخدرة، والشوارع الواسعة المزدهمة النظيفة، والمتنزهات، والأشجار.. حتى الأشجار مجففة الأوراق مقصوصة كتسريحات السيدات، كل الترميمات والعربات الفارحة، والسينمات والوجوه الخارجة من السينمات، والكباريات والراقصات، كل الأطفال الأصحاء النظيفين والأمهات والأجزخانات والأرستات، كلها تتجمع وتسرب إليها.. إلى داخلها المرتعش الخائف المهزوم المبهور، وهي حتى في عجزها وإدراكها ويقينها بالهزيمة التامة الساحقة بكل ما أوتيت من قدرة تقاوم ولا تكف عن المقاومة، والأشياء الغريبة الكثيرة لا تكف عن التسرب فتعود تقاوم مستميتة أكثر.. تقاوم مدينة بأكملها تتسرب إليها ورغماً عنها تتسلل إلى كل خاف فيها ومستتر، وكان لا بد في النهاية أن تكف عن المقاومة نعباً ويأساً، ثم يقيناً تاماً من اليأس، ويأساً تاماً من

أن معجزة ما لم تحدث وتنقذها في نهاية الأمر، وإن بإرادتها وبغير إرادتها تماماً كما كان الهاتف يؤكد، قد حدث كل شيء. أما ما لم يذكره الهاتف ولا كانت تتصور للحظة أن من الممكن أن يحدث. أما أن تبدأ تتحول من استسلام مغلوب إلى استسلام مستمتع.. فهو رغم حدوثه الشيء الذي كان لا يمكن حتى وهو حادث أن تصدقه، فالمشكلة أنها ما كادت تبدأ تحس بهذا حتى كان الباب قد فتح، وعلى عتبه وقف «حامد» طويلاً رفيعاً. مصعوقاً أسمر غامق السمرة.

* * *

طالت وقفة «حامد» عند الباب الذي كان بلا وعي قد أغلقه. و«فتحية» مستلقية لا تزال يدها متشبثة برأس السرير وجسدها مفتوح الساقين مغطى وليس في عقلها سوى رغبة ملحة لا تنتهي أو تتزحزح.. أن يصنعها «حامد» وينتهي. انه الطريق الوحيد الذي لا بد يمتد إليه المقدر والمكتوب، فبعد كل ما حدث كيف يمكن للحياة أن تستمر؟ وكيف باستطاعة أي شيء أن يعود كما كان؟ إن الأمور لا يمكن أن تستقيم، ومستحيل أن يهجع أي منهما أو يرتاح راحته الكبرى إلا بأن تموت «فتحية»، ويبد «حامد» لا أقل.

لا حل للموقف كله إلا بأن يقتلها «حامد» ويستريح، وتستريح، ولكن الغريب أن الهاتف كلما وصل إلى هذا الحد كان يعود يطل برأسه ويؤكد لها أن «حامد» لن يقتلها، وأنها لن تموت، وأنها سيكون لها مصير آخر..

وتعب «حامد» من الوقوف الطويل المتفرس وجلس، وجاء الولد من الخارج «بزيطة» وطلب ملحّ للطعام، وحين أحس بالصمت الملمغم المستمر انتابه غير قليل من الخوف فسكت، وما لبث أن نام. وأظلمت الدنيا وأصبح ظلام الحجرة تاماً شاملاً. ولم يجسر أحد أن يضيء النور.

بقى «حامد» على جلسته عند الباب يدخن من علبة السجاير الصغيرة التي اشتراها بما توفر له من نقود الأفندي.

و«فتحية» بهدوء شديد تجلس، ثم ترقد، ثم تعود إلى الجلوس، وتنتظر من «حامد» أن يفعلها وينتهي. كل ما كانت ترجوه بينها وبين نفسها ألا يأخذها على سهوة، إنما بطريقة أو بأخرى يرحمها، يندرها، فلم يعد في جسدها ذرة واحدة قادرة على تحمل المفاجأة.. أية مفاجأة. ويكفيها ما رأت من مفاجآت.

حاولت مرة أن تتكلم فأسكتها «بزومة» منه.. «زومة» حيوان جريح.

وحين غفت عيناها لبرهة وصحت على نهضة رجالية منخفضة مكتومة كادت تجن، غير مصدقة أخيلتها. هل هو «حامد» الذي يشق ويبكي؟ أيبكي؟

أكان صنع هذا لو كانوا في بلدهم؟ أأصيب هو الآخر باللعنة وهزيمته مصر ورخرخت إرادته وطبيعته حتى لم يعد قادراً على قتل زوجته وهو يضبطها متلبسة مأخوذة؟ أصبح لزلتها يبكي؟

كادت تزحف إليه راجية أن يكف مطالبة إياه أن ينتهي فوراً عن بكاء النساء ويعود رجل القرية الذي عرفته، ويريحها، ويقتلها. كادت، لأنها حين فتحت فمها ترجوه تصاعدت صرخة كزئير أسد غاضب، سمرتها مكانها بلا حراك.

وفعلاً لم يقتلها «حامد»، وإنما في الفجر كانت العائلة الصغيرة تغادر باب العمارة الضخمة المهيّب، وكان «حامد» يحمل عزالهم كله وقد لفه في ملاءة سرير صفراء حملها «بالزقلة» على كتفه، وباليذ الأخرى كان يسحب الطفل الكبير نصف النائم، بينما «فتحية» في المقدمة تحمل الطفل الآخر. وبرغم أنهم خارجون إلى مصير مجهول لا تعرفه فقد كان ما تخافه في تلك اللحظة هو أن يرد الولد فراحت تحوطه بذيل ثوبها الذي رفعته، ومضت تلفه به وتشتد في ضمه بينما نداء أخرس يرتفع منها ويهيب «بحامد» أن يخرج البطانية من اللفة ويحيط بها الطفل الآخر. نداء أبداً لم يغادر فاهما، إذ هما لم يتبادلا منذ أمس كلمة.

وسيراً على الأقدام مضت القافلة الصغيرة تحتمي من برد الصباح الباكر بالجدران، ويتركها ظلام عمارة لتسلمها ظلال عمارة أخرى إذ كان قمر الفجر قد طلع.

قافلة صغيرة تتسلل منسحبة من المدينة الكبيرة الراقدة في صمت ولا مبالاة، لا تحس بهم ولا بما تحفل به صدورهم من أهوال، نائمة تشخر في براءة وضمير مستريح وكأنها ما فعلت شيئاً،

حتى لقد بلغ الغيظ «بحامد» إلى حد التفكير في أن يلقي «بصرة»
العزال جانباً وينهال «بزقلته» ضرباً ودشدة وتكسيراً على فتارينها
المضيئة، وعرباتها اللامعة المستكنة، وحتى أسفلت شوارعها
المغسول. كان من جماع قلبه قد أصبح لا يطيق حتى مشيه في
شوارعها وهو يغادرها، لم تعد في نظره مدينة. . لقد أصبحت كابوساً
خائفاً بشعاً!

وفي أول قطار قطع لهم «حامد» التذاكر.
لكنه عاد لبلدتهم وحده.

. فقد غافلته «فتحية» في ازدحام القادمين والراجلين في باب
الحديد وهربت..

عادت إلى مصر. . بإرادتها هذه المرة، وليس أبداً تلبية لهاتف
هاتف أو نداء نداءة. .

٨٧٧

مسحوق الهمس

النداهة

حين هدأت أتأمل الروعة في المسألة، وجدت نفسي أمامها كالطفل الصغير الأبله الذي وقف يحدق في الجسد العاري تماماً لسيدة ناضجة الأنوثة. . وهو غير قادر على الربط بين ما يراه وبين ذاته، أو حتى بين رغباته ومشتهياته الخاصة وبين هذا الجسد، المستسلم العاري الذي أصبح فجأة أمامه وملك ناظره، ويديه، وحواسه.

كنت باندفاع وتهور وجنون فرحاً، ولكنه فرح لا أدري ماذا أفعل به أو لماذا اعتراني أصلاً؟ كاد اليوم يمر مروره الأزلي الخالد لولا أنه قبل «التمام» ربما بساعة، «ترت ترت» فوجئت ببائي يفتح، وبعد الفتاح الطويل الرفيع الأسمر يظهر. وقبل أن ينطق كانت عصاه الخيزران التي تفتت نهايتها على ظهور «النبطشية» تدق كعصا «النقران» على باب الزنانة، دقات كمزاج صاحبها في النهار عصبية متعجلة ملحة :

- يا لله! لم عزالك يا الله! بسرعة يا الله! شيل نزامك «نظامك» . .
برشك وبطانيتك وتعال بسرعة! «النزام» بسرعة بسرعة! يا الله بسرعة!

كلماته الخارجة كتكتكة مفرقة متلاحقة لمسدس أطفال، ودقات العصا «النقرزانية» وازدياد تفتتها، والإلحاح المزعج واللهفة والسرعة، وفي ومضة كنت أحمل كل ما يخصني في الزنزانة حتى «جردل» البول حملته فقد كان جديداً يوفر عليّ مئونة الحبس مع «جردل» قدر، وتبعته واضطراب الفرحة يبعثر خطاي. أعرف أنه مجرد «عزال» لا أفراح فيه ولا زيادة أو حتى أمل في أي منهما، ولكنه حدث هائل يقع، إذ هو جديد لم يحدث بالأمس ولن يتكرر غداً. إلى أين؟ لم يكن مهماً. . حتى لو كان مع «الاخوان». لم أستطع ملاحقة خطوات «الأومباشي» عبد الفتاح السريع المضحك الذي يبدو به وكأنه يخوض سباقاً للأرجل الخشبية، وبدأت المسافة بيني وبينه تتسع وأنا أجاهد ولا أستطيع، وكأنني من طول الجلوس نسيت المشي. بعد بضع خطوات بدأت ألثت وأتساءل جاداً هذه المرة عن وجهتنا، إذ كنا قد غادرنا السلم الهابط إلى أسفل، والثاني الصاعد إلى أعلى، وتركنا منطقة «الاخوان» والمحبوسين احتياطياً وتحت التحقيق، ولم تعد سوى أمتار قليلة وينتهي «العنبر». أتكون وجهتنا نهاية «العنبر»؟

بالضبط، عند باب آخر زنزانة وجدت «الأومباشي عبد الفتاح» يتوقف، ويستدير بسرعة إنسان انفلت عياره ويمضي جسده يتململ ويتشنج ضيقاً بتخلفي وراءه:

- بسرعة! بسرعة بسرعة! التزام. . نزامك بسرعة!

- يا أومباشي أنا مش. .

- من فذلك! من فذلك! ما فيش كلام! ما فيش كلام النزام!
بسرعة خش أودتك.. بسرعة بسرعة!

وبسرعة بسرعة دخلت، و«ترت ترت» انغلق الباب ورائي
بالمفتاح، ووجدت نفسي جالساً فوق «النظام» مسند الظهر إلى
الحائط، نفس جلستي من دقيقتين.. دقيقتان هذا صحيح، ونفس
الجلسة، ولكن يا له من فارق! فارق جعلني أخبط جبھتي بيدي
خبطة ارتج لها عقلي. إن الزنزانة الجديدة التي انتقلت إليها وإن
كانت تقع في نهاية «العنبر» لكن «العنبر» لا ينتهي بها، إذ هي في
الحقيقة تقع في منتصفه، فالنصف الثاني كله مخصص لسجن
النساء.

النساء!

من قال إن السجن هو فقط مصادرة حرية الإنسان؟ إن فقدان
الحرية ليس سوى الاحساس السطحي الأول، فالإنسان يظل يفقد
أشياء كثيرة جداً.. كل ما يملكه أو باستطاعته امتلاكه، كل قدراته
ومكتسباته، كل صلاته وقرباته وأحلامه وطموحه، كل ما ينفرد به
كشخص وكل ما يتساوى به مع المجموع.. كلها بعد معارك استماتة
وتشبث طاحنة، لا يلبث أن يجدها رغباً عنه وأمام ناظره وبقوة
الحبس والعزل القاهرة، تتسرب واحدة وراء الأخرى وهو لا يملك
لها رداً ولا منعاً، حتى الأمل في خروجه من ذلك «الليمان» والإفراج
عنه بعد أيام طويلة من المراودة والمطاردة والالاحاح، إلى درجة أن
يفسر كل فتحة باب على أن الشاويش قادم بأمر الإفراج، وكل حذاء

ثقل يدق أرض «العنبر» على أنه حذاء المأمور أو المدير جاء يحمل قراراً خاصاً بالافراج. كل شعاع شمس يدخل على أنه آخر صباح، كل غروب أحمر مخنوق شنقت نافذة زنزانتة شعاعاته وخنقتها على أنه آخر غروب، حتى تصل الأزمة أحياناً حد تهديد العقل، وفي مرات تطيح به، ثم يصحو الإنسان ذات يوم وهو يحس بالراحة الكبرى وقد انتهت الأزمة، ومات الأمل تماماً وحل اليأس الكامل. حين ذاك فقط تبدأ حياة السجن الحقيقية. حياة أخرى مختلفة عن حياة الناس. حياة لا أمس لها ولا غد، وإنما طولها يوم واحد بالتحديد ذلك اليوم الذي تحياه. يولد المسجون مع صاحبه ويحيا أحداثه وكأنها أحداث حياة بأكملها عريضة وافرة الغنى. إن مد فترة الذهاب إلى دورة المياه من ١٠ دقائق إلى ربع ساعة تعادل في الفرحة بها قرار يصدر بمنحه إجازة ثلاثة أشهر يقضيها على حساب المصلحة في أجمل مصايف أوربا. إن تغيير «الحلاوة الطحينية» في العشاء بالعسل الأسود يتجاوز في أثره واحتفال المسجون به قراراً استثنائياً بمضاعفة مرتبه إلى حد ينقله من طبقة تتعشى بالعسل الأسود إلى الطبقة التي تتعشى «بالكافيار والرومي». إن العثور على قطعة ورق من جريدة قديمة حتى لو كان تاريخها يرجع إلى أعوام مضت وقراءة أي خبر فيها عن أي شيء ولو كان العثور على لقيط بجوار مستشفى «أبو الريش»، يعادل الدهشة والذهول الذي ينتاب إنسان الحياة العادية حين يفاجأ بالجرائد تنشر على صدرها بالبنط العريض نبأ اكتشاف سر الحياة. بل كانوا يحضرون لنا الطعمية في الصباح

ملفوفة - زيادة في تعذيبنا بمنع أي متعة عنا ولو كانت قراءة الأخبار القديمة في الصحف العربية - في جرائد ألمانية لا أعرف من أين استطاع المتعهد الهمام أن يعثر على كل تلك الكميات منها .

وكانت جرائدي اليومية هي تلك القطع المشبعة بالزيت من أوراق الصحيفة الألمانية التي لم أعرف لها اسماً . أما وقد انقطعت عنا تماماً أخبار العالم الخارجي فقد كانت أخبار الصباح بالنسبة لي ليست أحداثاً أو «مانشتات» أو حروباً وثورات واكتشافات، كانت أخباري أن أنجح رغم بقع الزيت في قراءة كلمة ألمانية كاملة ونطقها . كل صباح كنت لا أترك الورقة حتى أنجح في قراءة كلمة، وحينئذ أضع الورقة جانباً وأتنهد بأعظم وأعمق ارتياح . أقسم أنه كان أعظم وأعمق من ارتياح قد يحسه إنسان قرأ مع افطاره كل جرائد العالم وعرف أخباره واطمأن أن كل شيء فيه على ما يرام . أما المتعة الكبرى . . المتعة التي لم يظفر بها إنسان، فهي تلك التي أحسها حين أنجح مستعيناً باللاتينية التي أعرف بعضها وبالانجليزية والفرنسية وبالفهلوة المصرية أن أعرف معنى كلمة نجحت في قراءتها . وأبداً أبداً لا يمكن للزمن أن ينال من فرحتي ذلك الصباح الذي نجحت فيه في معرفة معنى كلمة «فريدان» وخمنت أنها «الحرية» .

النساء!

تلك الحياة المسجونة الثانية التي تجد نفسك تحياها وتخضع لقوانينها . . حياة كحياة المشلول أو من أصيب بالعمى أو فقد بعض

عقله - أضيّق قليلاً من حياة الناس - ولكنها أيضاً مزدحمة، بل حتى أناسها ليست لهم شخصيات جديدة لا بد تختلف بدرجة أو بأخرى عن شخصياتهم التي يعرفهم بها الناس في دنياهم العادية. تفاجأ أحياناً بمن كان طبعه الضجر والملل والتكشير وقد تحول إلى «بلياتشو» وأصبحت شهرته أنه «ابن نكتة» ومجلسه «مجلس أنس»، والمخيف المرعب وقد تحول إلى فأر مذعور، والمتواضع الغلبان وقد انتصب من داخله شجاع عنيد. وأحياناً يضاف إلى كل منهم «لحسته الخاصة».. إطلاق الذقن مرة، أو الاغراق في الصلاة، أو موهبة قول الشعر وكتابة القصص وقد نمت فجأة وبلا سابق انذار.. وتتجمع فئات تلك الحياة الموازية الخاصة وتستدير كي تصنع حياة تكاد تكون كاملة، أقول تكاد لأن أمراً حيويّاً واحداً يظل ينقصها.

النساء!

بعد ما تنتهي من إعادة تذكر كل قصص الحب والعلاقات بالنساء في حياتك وتجترها مراراً، بعد ما ترتوي ما شئت من أحلام يقظتك ومن تصورك لكل ما استحال عليك بلوغه ممكناً، وكل وقائع فشلك وقد انقلبت إلى معارك فوز وانتصار.. بعد ما تستमित دفاعاً عن كنوز ذكرياتك تلك ضد العدو الأوحده.. السجن وعمله في النفوس، تبدأ تحس أنها رغم استماتتك تتسرب من قبضتك المطبقة عليها وتتركك وقد بدأت تنسى أنك رجل، إذ قد تلاشى من وعيك كل ما كان يذكرك برجولتك واختفت من عالمك الجديد كل لمحة أو ساردة تعيد لك الذكرى، وهكذا تحيا ونفسك الجديدة تعمرك بكل

شيء من آيات الحياة إلا منطقة منها محددة مجدبة قفراء لا أمل لها في ماء أو نماء.

هكذا جلست أحرق في الحادث المروع الذي وقع والذي نقلني فجأة من عالم اندثرت فيه الذكورة والأنوثة من زمان وانمحت، إلى وضع أنا فيه أرتكن إلى حائط ليس وراءه إلا نساء في نساء.. كبيرات وصغيرات، وسمينات ورفيعات، وبيضات وسمراوات، وعلى كل لون وبأي شكل تشتهي وتريد.. أحرق مروعاً مشتتاً، عاجزاً عن أن أصنع أي شيء بالمرة.

إنني في الزنزانة التي يتقاتل المساجين عليها ويقدمون الرشاوي «لشاوشية» الأدوار كي يمنحهم إياها.. في الزنزانة الشهيرة التي لا يزال السجن يتناقل جيلاً بعد جيل قصة الواقعة التي جرت فيها يوم أن احتلها أحد «اللومانية» الذي قضى عشر سنوات في «الليمان» وكان لا يزال أمامه على الإفراج عنه عشر سنوات أخرى، وكان ماراً على السجن في «ترحيلة»، واكتشفوا في الصباح أنه استطاع بجبروته والاستعانة «بمطواته» التي مهما فتشته لا تعثر لها على أثر، أن «يثقب» الحائط المبني من «الدبش» والكائن بين زنزانه والزنزانة المجاورة في سجن النساء، بحيث أمكنه أن يصنع «ثغرة» نفذ منها بجسده إلى جاراته المسجونات الثلاث اللاتي تقبلن الحفر والثقب واللومانية دون استغاثة بل يقال أنه «ضاجع» حارسه الليل نفسها حين جذبت انتباهها أصوات عدم الاستغاثة.. منذ ذلك اليوم أقامت إدارة السجن حائطاً ثانياً سميكاً جعلت موته من الأسمنت هذه المرة

من المحال أن ينجح أحد في ثقبه حتى لو كان قادماً من حرمان مؤبد.

أذكر الحادثة لأنها بعد مدة - وعقلي أبيض منتفخ بفكرة حظي الهائل.. ساكن لا يملك حراكاً - حين بدأ يتحرك كانت حركته الأولى هوجاء مجنونة على هيئة فكرة أن أثقب الحائط، وحيث أن المونة من الأسمنت فلا بد من استعمال أصبع من الديناميت أكلف أحد العساكر بشرائه، وما داموا يهربون كل شيء إلى السجن حتى المخدرات.. فلماذا يستعصي الديناميت؟ ويصنع لي فتحة أدخل بها إلى بيت اللحم المجاور، اللحم الشهى الحي الذي لم أذق طعمه من سنوات؟

ومع أنني رحت أخرف وأبذر في تخريفي على تلك الصورة وأنا أحس بنفسى سعيداً منتشياً سكران بالنشوة، إلا أنه عاجلاً أو آجلاً كان لا بد أن أبدأ أتبين الوضع على حقيقته، وأدرك بجلاء ووضوح وثبات أنني أصبحت في مكان ليس بيني وبين ما لا يقل عن أربعمائة امرأة فيه إلا خطوة - حتى لو كانت على هيئة حائط فهي لا تعدو كونها خطوة - تأملاً بدا مخي معه يسخن وترتفع حرارته حتى يبدأ يفرز عرقاً داخلياً غزيراً على هيئة رذاذ من الأفكار المتلاحقة.. وكنت أعرف أنه مهما تنوعت أفكارى وتشتت فلا بد أن أبدأ بعد «التمام» في الخامسة، أدق..

* * *

إن الحياة الحقيقية للمساجين لا تبدأ إلا بعد أن يزول ارهاب العيون الأمرة الناهية التي لا عمل لها إلا أن تمنعك من كل ما تملك حق منعه، وكأن السجن في الحقيقة ليس إلا كلمة «ممنوع» كبيرة وشاملة. ممنوع كل شيء إلا ما يبقى عليك الحد الأدنى اللازم كي لا تموت، لا لأنهم يريدون لا سمح الله لك البقاء، ولكنهم يريدون لك أن تحيا حياة الموت معها أرحم، إذ ممنوع عليك فيها كل ما يجعل من الحياة متعة، والمباح فقط هو كل ما يجعلها عبثاً وعذاباً وقيداً ثقيلاً تتمنى لو تخلصت منه واسترحت بالموت. ولكن الغريب أنهم لم يستطيعوا، وأعتقد أنهم أو غيرهم لن يستطيعوا مهما اتخذوا من احتياطات وبالغوا في قائمة الممنوعات أن يخلقوا ذلك السجن الكامل الذي يحلمون به، فقد استطاع الإنسان دائماً أن يجد حرية داخل كل قيد على الحرية، وأن يخلق داخل كل ممنوع ما هو مباح. ولهذا لا تبدأ الحياة الحقيقية إلا بعد زوال حراس المنع من ضباط وشاوشية، والعهد بالرقابة إلى حرس الليل العزل، وهؤلاء كالمساجين تماماً ما أن تزول عنهم الرقابة حتى - في معظم الحالات - ينطلقوا على سجيتههم. ما أن يدق جرس «التمام» ويطمئن المأمور أن العدد مضبوط ولم ينقص واحد أو يهرب واحد حتى يفرج كل مسجون عن نفسه، فيبدأ يتكلم مع من يشاء من جيرانه، ويسكت حين يشاء، ويزعق إذا عن له، ويغني متى أراد، ويقول رأيه في أحداث اليوم، ويشتم ويسب. . أجل ويسب، وما أكثر كمية السباب التي تغادر الأفواه بعد «التمام» وكأن السباب غريزة ومزاولته ركن من

أركان الحرية . وهكذا لا يبقى من السجن الكامل الذي أرادوه إلا جدراناً صماء هي الوحيدة المحبوسة داخل مساجين يشبعونها دقاً وضغطاً واختراقاً بأحاديثهم وصراخهم دون أن تجسر على منع أو اعتراض .

وكانت حريتي وما هو أكثر من الافراج في رأيي ، أن تأتي الخامسة وتقوم الضجة لأستطيع محتمياً بها أن أبدأ أدق وأعلم الجارات بوجودي ، إذ من لحظة الوعي فقط سيبدأ أروع وأهم حدث في حياتي تلك . .

وقلت وأنا أدلل الاحتمالات تدليلاً لا يحدث إلا والهدف العظيم في جييك تداعبه متلذذاً مستثيراً لشهيتك : ربما هن لم يعدن بعد . . ربما هن في الحمام أو في المنسج . ولكن أشعة الشمس أصبح بينها وبين السقف في زنزاتي ما لا يزيد عن العشرة السنتيمترات بما معناه تعديها الخامسة والنصف ، وأنا أدق ولا أحد يجيب . ربما سمك الحائط؟ . . بقوة أكبر «بالجرذل» نفسه ، بقدمي وقوة الساق الهائلة رحت أدق . . وفي الحقيقة لم أكن أدق بقدر ما كنت أطرده بشدة احتمال أن تكون نتيجة هذا الاحتشاد والفرحة إلى درجة الوصول إلى تدليل الاحتمالات أن الزنزانة المجاورة خالية تلك الليلة . ومن يدري ربما غداً أيضاً ولليال كثيرة مقبلة . كنت أطرده بشدة لعلمي أن البله الذي قابلت به المسألة أول الأمر كان راجعاً إلى أنها من الضخامة بحيث لا تصدق ، وأني حين صدقتها فعلاً وبدأت أتصرف كانت قد غورت في كياني وعقلي وأحلامي إلى درجة

أصبحت معها خيبة الأمل إذا حدثت شيئاً بشعاً شريراً لا يتحمله بشر.

في السادسة توقفت عن الدق. لم تكن أول مرة أقرر فيها التوقف ولكنها كانت المرة التي قررت فيها التوقف بلا عودة. لم يعد لديّ أدنى أمل في استجابة أو رد بل حتى الأمل في ذلك. الأمل كان قد انتهى وأصبح عليّ أن أعتبر الموضوع كأن لم يكن، وأن أجهز نفسي لقضاء الليلة في زنزانتني الجديدة تلك مثلما كنت أقضي الليالي في الزنازن القديمة. أفكر بلا هدف في لا شيء حتى تتزغلل قوى عقلي وتنهار فأنام. انها لكارثة محققة.

فصحيح أنه لم يكن قد مر أكثر من ساعتين منذ عرفت الخبر. لكن المشكلة ليست أنه استثارني أو هيج كامن أشجاني. المشكلة أنني لم أعد أنا. أني فجأة وجدت نفسي أمام إنسان آخر انتفض من داخلي مارداً عملاقاً رهيباً، لا علاقة بينه وبين الإنسان الذي كتته طوال ذلك اليوم والأيام الكثيرة التي قبله. الإنسان الذي كنت قد اعتدته وعرفت حدوده وخصاله ومزاياه. لم أدرك أنه كان على تلك الدرجة من الموت إلا حين انبثق ذلك الآخر. إلا حين أحسست وكأنما أرى بعيني الحياة تتدفق - لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة في ذهني - غريزة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء. تنهال على سطح البحيرة الأسن الراكد البليد الذي ألت إليه بجسدي وأفكاري وأحلامي وانفعالاتي. مجرد وقع الكلمة على

الأذن «النساء» بذلك التضاد القاهر المكهرب معك، المناقض تماماً لك، الذي تحن إليه وترغبه وتريده كما تريد الحياة نفسها. . مجرد تصورك لأجسادهن المختلفة، لانبعاثاتها المثيرة، لملايسهن - حتى ملابس السجن الواسعة، لروائحهن الخاصة. . دائماً خاصة كبصمات الأصابع، لأصابع أقدامهن الصغيرة كالجرذان الوليدة المنكمشة على نفسها، لأياديهن النحيقة زرقاء العروق، للعيون. . عيونهن واحساسك أنها عيون امرأة ورموش أنثى. . ترسل نظرات تدرك أنها نظرات أنثوية منتزعة من أعماق امرأة ومرسلة إليك مضمخة بأنوثة تلون حتى شعاعات البصر - المرأة - الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة الرقيقة والأفخاذ التي يفقد بينها الرجل صوابه. بركان تفجر لا سبيل إلى إيقافه، قوى وافدة، غريبة، ملايين من شحنات كهربية حية أحسست بها من منبع خفي في جسدي تتفجر كالنهر الغاضب في فيضانه يكتسح. جن وعفاريت وأفكار مجنونة حافلة بذكاء لامع براق وطموح هائل وأحلام شهية تتولد وتتكاثر وتغمر الدينا بأسرها. هكذا لا بد فتك ذلك اللومانيجي بالحائط فقد كان باستطاعتي ساعتها أن أثقب الجدران أو أهدها أو أحطم المعبد. قوى لم أعد أقوى على السيطرة عليها فأصبحت حرة تستطيع أن تفعل ما تشاء، تقدم على الفرار أو تقتل حارس الليل، أو تضاجع الحجر. العشاء التهمته في غمضة عين ودار حارس الليل على الزنازن يلم لي ما بقي من طعام، وبنهم جشع رحت أدخن حتى أتيت على نصيب الأيام القادمة الذي قسمته بعناية وادخرته.

أحياناً كنت أمسك رأسي بيدي وأضغط عليه بشدة مخافة أن ينفجر وكل أمني أن تأتي ساعة النوم وأهدأ، ولكنني كنت متفائلاً جداً،
فها هو برد الزنزانة يشتد، والظلام يقل علامة طلوع الفجر. وليس في
عيني أو كياني كله لمحة نوم واحدة.

* * *

في اليوم التالي لم أنتظر «التمام» النهائي في الخامسة. . في
ساعة القيلولة دقت دقات عنيفة مختلطة يائسة. وفي نهاية اليوم
دقت وكثيراً ما منعت نفسي أن أدق الحائط برأسي غيضاً غير متصور
أبداً أن يكون حظي بهذه النعاسة، وأن تظل الزنزانة خالية أيضاً لليوم
الثاني. والمضحك أن أسبوعاً بأكمله مضى وأنا كل يوم أدق، وأفعل
هذا مع أن حرتي في الدق كانت محدودة بتلك الدقائق التي تعقب
«التمام» مباشرة حيث بعد السكون الشامل المفعم تنطلق في أنحاء
العنبر ثمانمائة حنجرة تصرخ كلها في وقت واحد، ويزاول أصحابها
متعة الكلام بعد اجبار طويل على السكوت. ومع انتهاء الضجة
تنتهي محاولاتي وفرحتي، ومع هذا فما أكثر ما غامرت ودقت في
ساعات الصمت وأنا أحاول بكل قواي أن أكتم الصوت، بل أحياناً
كنت أستيقظ من النوم لأجد نفسي قبل أن أفيق تماماً أدق. .

ولا أذكر كيف فقدت الأمل، فقد كان لا بد طال الوقت أم
قصر أن أفقده. كان واضحاً أن «عنبر» الحرير يشكو قلة الزبائن،
وأنهم يؤثرون هناك أن يجعلوا المنطقة القريبة من «عنبر» الرجال آخر

ما يستعمل . وعلى غير ما كانت البداية حادة ومتفجرة وعنيفة كانت النهاية بطيئة طويلة ممتدة، وكأنما عن عمد . . . وكأنما رفضاً للفقدان التام للأمل، والتلكؤ لعل وعسى تحدث المعجزة .

وحتى تلك النهاية التي بدت كالحدث الفاجع أول الأمر، انتهت هي الأخرى كنهاية، ومع الأيام ذابت كي يعود الموات إلى كل شيء وتصبح البحيرة الراكدة أهدأ ما تكون وآسن ما تكون . كل ما في الأمر أن طعماً مريراً ممتداً . . طعم الفشل، كان قد أضيف إليها . . طعماً كنت متأكداً أنه هو الآخر لا يلبث أن يزول، ولا تلبث الحياة أن تعود بي إلى ذلك الإنسان الآخر الذي كنته .

بالاستطاعة إذن إدراك هول الزلزال المفاجيء الذي هز أركان نفسي . . حين سمعت - أجل سمعت - بأذني هذه دقائق تأتيني عبر الحائط السميك . . في ضجة ذات «تمام» .

وشكراً للسجن الانفرادي أن أحداً لم يرني ساعتها وأنا أقفز في الهواء وأدق الحائط من أعلى ومن أسفل، ثم أستجمع كل قواي وأثب وثبة هائلة أتعلق بها في حديد النافذة وأصرخ وأغني وأقلد طرزان وأتشقلب . . رأسي إلى الأرض وساقاي في الهواء، وأعوي . . بأعلى صوتي أنادي جاراتي جميعهن ناعتهن بألفاظ لا تخطر على بال سكران، وأعود أدق وأدق فقط كي أدق وأنا فرح فرحاً حقيقياً أحس به . ونحن في الحياة العادية التي نتعامل فيها مع الفرح والحزن والاكتئاب والتفاؤل نفقد الاحساس بهذه الانفعالات بكثرة المزاول . .

«نعرفها» . . بحيث لا نعود نتوقف عندها أو نكتفي بها . إذا نجح فينا أحد يجد نفسه يكاد لا يحس بالنجاح ساعة وقوعه إذ هو على الفور يبدأ يتساءل عما بعده، عما يفرح أكثر، فالنتيجة أننا لا نفرح في السجن حين يحدث ما يفرح من طول افتقادنا للفرحة، نحس بها . . نلمسها وتضطرب بها أجسادنا وتحفل بطاقات من نشاط الفرحة الغامر، ونرى أبواب أمل واسعة في صدورنا تفتح، وتنهر بالنور الكثير يكتسح أمام أعيننا الظلام الكثيف الرابض داخلنا . . فعلاً نفرح، لا يهمنا كثيراً ما بعده بقدر ما يهمنا أنه جاء وأننا نحياه . لكأن كلما ضيقت علينا الحياة اتسع احساسنا بها، وكلما قلت كميتها أصبح لكل دقيقة من دقائقها وقع أروع وأثمن .

ولم أفطن إلى زوال ما بعد «التمام» إلا حينما بدأت أعي أنني الوحيد الذي يحدث ضجة، وكما كان على «العنبر» أن يشوب إلى هدوئه الليلي كان عليّ أن أبدأ بروية أكثر . ها بعد طول صبر وبأس وانتظار قد غمزت السنارة . . وهأنذا متأكد أن صيداً سميناً كبيراً على الناحية الأخرى . . صيداً قادماً من تلقاء نفسه، وهو الذي بدأ، وعليّ بكل ما أوتيت من قدرة وحذق أن أظفر به كاملاً . وبانتظام بدأت أدق وأرهف أذني - وهذا هو الأهم - كي أسمع الرد . كانت تأتيني أصوات خافتة بعيدة كالقادمة من أعماق بشر، وكانت أذناي تلتقطها وترجمها وتنقيها وتحولها من دقائق إلى لغة . . ومن لغة تتكلمها اليد إلى لغة يحسها الشعور ويدركها العقل . إنها مثلي بمفردها، وهاتان الدقتان السريعتان المتصلتان معاً هما أنها قلقة هي الأخرى، خائفة

مثلي أن يحدث ما يقطع الاتصال. تلك الدقة الوحيدة التي لم ترفع
اليدين عن الحائط بعد دقها. . إنها ابتسامة اطمئنان، المحها. فمثلما
يطمئنني قلقها لا بد أن قلقي يطمئنها. ما أعذب هذا! ما أروع أن
أعثر في وسط صحراء مترامية الأطراف، في آخر الدنيا هنا، حيث لا
حضارة ولا أنس ولا بشر، حيث انتهى العالم من زمن، أعثر على
أنثى، أدق لها فتدق لي، وأضطرب خوفاً من فقدانها فتبتسم لي في
حنان واطمئنان. لقد عرفت الحب أكثر من مرة. . الحب المحموم
المجنون الذي ينهش الصدر ويعتصر الروح، الحب الذي ينسبك من
تكون وما كنته وما يجيء به الغد، الحب الذي من طيبته خرجت
قصص الغرام الكبرى، وجن قيس وانتحر فترت وماتت جوليت. بعد
الحديث القصير الذي تم بالأيدي أحسست وكأنني عثرت على سيدة
عمري، أحسست أن حبي الثالث ذلك الذي لا يقاس بجواره أول أو
ثان، ذلك الذي طالما حلمت به وخشيت وطالما هفوت إليه وأرعيني
مجرد التفكير فيه، عرفت أنه هكذا ودون كلمة أخرى قد بدأ. إن
قصتي مع المرأة حرب دامية طويلة بدأت من يوم مولدي ومع أول
امرأة عرفتتها. . أمي! حرب انتهت بخوفي من المرأة إلى درجة
عبادتها، والحقدها عليها إلى درجة الرعب المقيم أن يتحول الحقدها إلى
حب فأودعه كل شوقي المريض إلى المرأة منذ أن كانت أمي إلى أن
أصبحت غريمتي وعشيقتي، وأفقد في تلك المعركة. . في الحب. .
نفسى تماماً. وهكذا بمقدار تعطشي للحب كانت محاولاتي للهروب،
ولكنني هذه المرة بإرادتي المدلهة أختاره حتى لو كان فيه - وحتماً

فيه - هلاكي . هذه المرة لا صراع ولا محاولات مستمرة للتراجع .
إني أندفع بكل قواي وأدق وأكاد أموت متعة وتلذذاً ، والرد يأتيني دقاً
أنثوياً واهناً مبوحاً . أرى اليد التي ترسله بيضاء صغيرة ذات شعر
ميكروسكوبي أصفر ، وأظافر بلون دم الغزال الشاحب ، يد أعرفها
وأقبلها وأقبل كل أصبع فيها . . وبلساني ألثم ما بين الأصابع .

وأصبح واضحاً من دقاتنا المتتالية المتشنجة أننا في حاجة
لاقترب أكثر . لم تعد لغة الأيدي القاصرة قادرة على ترجمة ما يغلي
داخلنا من انفعالات . كان لا بد أن نتكلم ! وللمساجين طريقتهم
الشهيرة في التخاطب عبر الجدران هي وضع «كسرولة» الطعام
الفارغة من ناحية فتحتها على الحائط وتقريب الفم من قاعها
للتكلم . . أو الصاق الأذن به للاستماع . ورحت من خلال
«الكسرولة» أتحدث وأحاول الانصات . . ولم أعجب حين بدا وكأن
لا صوت هناك . كنت أعرف أن الجدار سميك ، وهكذا رحت بأعلى
وأحد ما أستطيع أهمس محاذراً أن يسمع الحارس همسي ، والوقت
يمضي ومحاولاتي لا تكف ، وحنقي وضيقني قد بلغا درجة أصبحت
معه لا أحفل حتى أن يسمع الحارس . كانت تعاستي تكاد تذهب
بعقلي وأنا أرى نفسي لا يفصلني عن الأنثى التي استجابت لي
وبدأت معها مغامرة العمر الثالثة إلا جدار عمره ما وقف حائلاً بين
مسجونين . . أقرب ما تكون مني . . أبعد ما تكون عني ، وأنا بين
النقيضين مشدود أتمزق غيظاً وألماً .

ولم يكن لي من منقذ إلا أن تحدث معجزة فيتفق وضعي

«للكسرولة» مع وضعها بحيث تلتقيان عند نفس النقطة من الحائط فيمر الكلام مباشرة من إنائها لإنائي . وكيف لي أن أعلم أنها هي الأخرى وصلت إلى نفس استنتاجي وبدأت تبحث عن مكاني مثلما بدأت أبحث عن مكانها . ويا له من مشهد ذلك الذي كان مقدراً أن يراه الرائي لو أتيح له أن يشاهد كلينا في نفس الوقت بحيث يتابع تلك اللعبة الخالدة الدائرة ربما منذ بدايات الخليقة، ذلك البحث الدائب عن ملتقى بين اثنين أقرب ما يكونان وأبعد ما يكونان، لا يفصلهما سوى بضعة سنتيمترات من حجر أو طبقة أو جنس أولون .

أناديها بأعلى وأقوى ما أستطيع من همس :

- سامعاني؟

وتناديني دون أن أسمع لها صوتاً:

- أنت فين؟

وكلانا أعمى محموم بالرغبة، يتحسس بالغريزة وحدها والسليقة طريقه إلى الآخر، وأبداً أبداً لا يفقد الأمل . وكم بدت المهمة سهلة أول الأمر، إن هي إلا بضعة أمتار مربعة باستطاعتي أن أمسحها طولاً وعرضاً وحتماً سأنتهي بالعثور عليها . ويمضي الوقت بطيئاً، قاتل البطء، وتستحيل الأمتار القليلة إلى غابة مترامية الأطراف من المحال أن تلتقي برفيقك أو يلتقي بك بمجرد بحثك عنه وبحته عنك .

ولكن، حتى بقانون الصدفة المحضة كان محتماً أن نلتقي فما بالك وثمة قانون مقدس أعلى كان يحكمنا في ذلك الوقت، قانون

الأنثى والذكر. ولم أكن في تصوري أطلب المستحيل وأعتقد أنني سأستطيع التحدث إليها عبر الإناءين بحيث تسمعني وأسمعها في وضوح. كان يكفيني مجرد أن أسمع صوتها الأنثوي. . . مجرد أن أستطيع تمييز نطقها المخالف وأطمئن بالدليل المادي إلى أنني لا أحلم ولا أتصور ولا أبني انفعالاتي على وهم، وإنما هناك وراء هذا الحائط أنثى حقيقية من دم ولحم. وحين حدث اللقاء وبدأت أذني المنتبهة أدق انتباه تلتقط ما يأتيني عبر الحائط، كدت أصاب بخيبة الأمل، فقد جاء الصوت وكأنه ليس نافذاً من خلال الحائط وإنما كان الحائط، أو ما هو أثقل بكثير من الحائط. كأن جبلاً بأكمله قد مر على كلماته وحروفه فسحقها كما كان القطار يسحق ما نضعه فوق قضيبه من مسامير ونحن صغار فيحيلها إلى رقائق معدنية كحد موسى. لم تكن كلمات أو حروف وإنما مسحوق همس لا تستطيع تمييز جملة، تهشمت ودكت بحيث استحالت إلى أصوات متصلة أو متقطعة، كالأنين مرة وكالصفير مرة أخرى. . . كسين طويلة بطول السطر أو كمائة دال متتابعة، وأيضاً لا تعرف حتى نوع الصوت الآتية به فهو أحياناً غليظ كأصوات الرجال وأحياناً دقيق رقيق كأن مصدره عصفور كناريا. ولا بد أن صوتي هو الآخر كان يصلها على نفس الصورة. ولكن كما لم تستطع الجدران أن تحول بين قانون الذكر والأنثى وبين أن يأخذ مجراه فكذلك لم تقف اللغة المهشمة والهمس المسحوق حائلاً، بل مثلما أحلنا الجدار الذي كان مفروضاً أن يفصل بيننا إلى وسيلة اتصال، فكذلك أحلنا اللغة المهشمة إلى أداة تفاهم.

وبالهمس المسحوق رحنا نتحدث، حديث المحبين الخجول
المتعثر المفضي دائماً إلى الحديث عن النفس، والاعتراف، وكان
كل منا قد وجد القلب الحنون الذي يهدد على كلماته ويغفر
أخطائه ويجد المبرر لذنوبه وعثراته.

ومن همسها المسحوق راحت تتجسد لي، وكما يستطيعون في
الطب الشرعي أن يعيدوا صنع الإنسان بأكمله إذا عثروا على أصبع
من أصابعه مثلاً أو جزء من أعضائه، إذ لا بد لكل أصبع من اليد
التي تناسبه، ولا بد لليد من الذراع والجسد والأقدام التي تناسبها،
وكل أنف له الأذن والعين والوجه الخاص به. وهكذا يعيدون تركيب
الإنسان ليصبح صورة طبق الأصل للضحية. واستطعت من همسها
المسحوق أن أراها كاملة، وأقربها، وأضمها، وأعانقها، وتصل
منابت شعرها إلى أنفي إذ هي أقل مني طولاً، وعيناها سوداوان
غامقتا السواد، وعلى جانبي وجهها المستطيل ينهدل شعرها الأسود
الناعم، ومن خلال جلاباب السجن الأزرق ينفر ثدياها متباعدين بلا
«سوتيان» كثديي بكر، ولا بد بأزميل فنان صنع فخذيها فهما طويلتان
ممتلئتان تتوجهما تلك الاستدارة الطرية الملساء الكاملة. اسمها حتماً
فردوس وفي عروقها دم بدوي، وعلى ذقنها بالضبط فوق الغمازة وشم
لا يتعدى ثلاث نقاط رمادية باهتة، وفمها ليس صغيراً كفم البنات
ولكنه ممتلئ مقلوب الشفة العليا لا تملك لحافتها المشرعة إلى
أعلى.. مقاومة، لها في السجن ثلاث سنوات، كان زوجها

يستخدمها في تهريب المخدرات وضبطت بالبضاعة في ديزل الاسكندرية.

وككل إنسان . . كثيرة هي المرات التي يخوض فيها تجربة الجسد مع النساء، حتى لو كان الجسد لحبيبة، ولكني ما حييت لن أنسى كيف استطاع الحديث بيننا أن يرتفع بدفته درجات مقرباً ما بيننا، حتى بدأت أحس بأجسادنا تتلاصق وتتداخل صانعة البداية لأروع متعة ظفرت بها في حياتي . وأنا من خلال ذلك التيار الصوتي الدائر بيننا أحيل جسدي كله وذكورتي كلها إلى أصوات أنفثها عبر الوعاء الألومنيوم ويسحقها الحائط، ولكني أحس بها تغادره أكثر حدة والتهاباً تخرق وعاءها المعدني وجسدها وتصل إلى مكمن الحياة فيها . وبدوري أتلقف أنوثتها الذائبة في الصوت المطحون المبحوح القادم يثن عبر الحائط، أجذبه وأمتصه، وأجذبها هي نفسها وأمتصها حتى منديل رأسها، ويعنف أكبر تغيني هي في نفسها حتى أظافر القدم .

ولم ننم ليلتها.

ولم أتحرك من زنزائتي طوال اليوم التالي ممدداً فوق «البرش» أجتز سعادتني، وأحس وأنا في أقبح مكان في الكون بجمال للعالم وطعم للدنيا لم يذقه بشر. أشعر أنني أصبحت أقوى من سجنني وسجائتي ومن سجنوني . كل لحظات الضعف واهتزاز الثقة راحت وتبخرت والرجل فيّ قد عاد للحياة تماماً فعاد للحياة سحرها

ومعناها. والرجل في حالة حب. . حب لم يذقه في كل ما سبق من قصصه، فقد كانت تجارب للصراع المحموم وكبح النفس والاحساس بالخجل وتأنيب الضمير. ولا أدرك أنه كان حباً إلا هناك حين ينتهي كل شيء وتعود الحياة إلى بلادتها. الآن ومنذ اللحظة الأولى أعترف وأستمتع وأعيش للحب وسعادتي الكبرى أن فردوس تحبني. قد تكون غير متعلمة أو مثقفة أو تجيد استعمال الماكياج وأخذ المواعيد من التريزي. قد لا تستطيع أن تدرك معنى أنني شاعر أو تفهم تماماً سبب سجنني، ولكن حسبي أنني رجلها وأنها أنثا وأن كل ما حدث لي أو حدث لها قبل لقائنا وبالذات قبل ليلتنا الماضية كان سراباً وخداعاً، وأنا منذ أمس فقط بدأنا لأول مرة في حياتنا نعيش.

وجاء المساء.

هذه المرة لا جنون ولا استعجال إنما هو الاطمئنان العظيم يغلف كل شيء، وبمثل ما كان للقلق والخوف والترقب من متعة، فللاطمئنان متعة أكبر وأشهى وأعمق.

قبل أن يحل «التمام» وجدت أنني لا أستطيع الانتظار، وقررت ما دام الكلام مستحيلاً أن أكتفي بالإنصات لعلني أسمعها تكح أو تغني أو حتى تستعمل «الجردل». ودهشتي كانت أنني سمعتها تتحدث. . عبر الحائط أتتني أصوات استطعت تمييزها وإدراك أنها لأكثر من شخص. وفي الحال أحسست بغصة حادة وكأنما حدثت

كارثة. إنها ليست بمفردها إذن، هناك مسجونات معها يتحدثن ويضحكن ولا بد أنهن ينمن بجوارها. وأحسست بالغصة تندك في أعماقي أكثر. مجرد أن يزاملها أحد حتى ولو كن نساء مسجونات متاحاً لهن منها ما ليس متاحاً لي. . نساء يستطعن أن يرينها رأي العين أو يعانقنها ولو أردن. . احتمال لا أستطيع قبوله، يخنقني ويلهب غيظي. وما يغضبني أكثر أنها بدورها تحادثهن، فلا بد أنهن يحتلن من تفكيرها جزءاً، بأي حق تسمح لنفسها بهذا وأنا بكل جزء من عقلي ونفسي وجسدي لها وحدها؟ بلغ غيظي مداه. وحين حل «التمام» ودققت، ومضت لحظة قبل أن ترد، لم أعد أستطيع الصبر وانهلت على الحائط لكاماً وكأنما لتدرك أنني إنما أوجه لها هي اللكمات.

ثم جلست في الركن البعيد غاضباً أنفوس عن غيظي بإشعال نصف السيجارة من نصف السيجارة متجاهلاً تماماً دقاتها وهي تستحيل من العنف إلى الإلحاح، إلى السكون لحظة، إلى الغضب القصير إلى العودة مرة أخرى بلين ورقة، وكأنما ترجو وتلح في الرجاء. . رجاء لم أستطع معه المقاومة فعدت إلى الجدار أدق أنا الآخر دقات الصفح والصلح، ومن خلال الوعاء أهمس همس العتب، وتتعانق الهمسات وتتعانق أجسادنا خلال الهمسات، وأقبلها في فمها الكبير ذي الشفة المقلوبة إلى أعلى، أقبلها قبلة لا نفيق منها إلا على دقات تنهال على الحائط في احتجاج وكأن زميلاتنا يطالبن باحترام وجودهن.

ولكننا رغم هذا لم نستطع أن نحترم ذلك الوجود، وفي حضورهن ورغم كل شيء قضينا ليلة غرام أخرى.

وعدت إلى نفسي ذات لحظة بعد الأيام القليلة التي تلت لأجد أنني لم أفعل شيئاً طوال تلك الأيام إلا التفكير فيها. لم يدرب عقلي خاطر واحد أو أحلم بشيء آخر خارج نطاقها ونطاق علاقتي بها. إنه الحب إذن بأكمله صورته. وإذا كان الحب في الخارج يستولي على المحب تماماً ويعزله عن الحياة وينفرد به، فما بالك وأنا هنا منعزل ومعزول ولا عمل لي سواه. إن الحدث الصغير التافه الذي قد لا يعلق بالذهن مطلقاً في الخارج. . حتى لو كان ذهن محب، يبدو هنا مهماً خطيراً لا بد من الوقوف عنده طويلاً والعودة إليه مراراً والتفكير فيه وربطه بغيره، والخروج باستنتاج بل باستنتاجات قد تؤدي إلى افتراضات ونتائج لا بد أن تؤدي بدورها إلى عودة للتفكير والتأمل.

وهكذا عرفت عنها - من تلقاء نفسي وتأملاتي لهما - المسحوق - في أيام قليلة ما لم يكن باستطاعتي أن أعرفه في الخارج بمعاشرتها واحتكاكي المباشر بها في شهور. كل شيء عنها، بطفولتها بأجدادها وعرق البداوة فيها، بالأغاني التي كانت «تبدندن» لها جذتها بها قبل أن تنام، بتفاصيل ما دار لها ليلة دخلتها، بالجهود التي بذلتها أمها كي تنزف دماء يسلم لها الشرف الرفيع ويزف على رؤوس الأشهاد.

وقد يستنكر البعض أن يحدث هذا كله دون أن يتبادل كلمة

سليمة واحدة وأن أستطيع أن أدرك كل هذا من خلال همس مسحوق. ولكن فليسأل المستنكر كل من أحب إن كان قد أخطأ مرة في تفسير مواء الحبيبة، أو إن كان قد عجز - أقل العجز - عن الإحاطة بكل ما يقوله أئينها مهما تشعب ما تقول. ما حاجة المحبين إلى لغة إذا كان الصوت وحده مهما كان مسحوقاً ومن خلال جدار يكفي؟

حتى فعل الزمن في الحب بدأت أستعذبه وأستمع بحدث الغرام الهائل وقد تحول إلى عادة، وتحولنا من غريبيين محبين إلى قريبيين، بل ما هو أكثر من زوجين محبين. هذا الاحساس بأنها لي وبأنني لها طول الوقت، بالأمس واليوم وغداً أيضاً ستكون لي. هذا الضيق الشديد بالساعات التي تباعد بيننا، هذا القلق المفزع للدقائق التي فصلنا عن اللقاء، اليقين الذي أصبحت معه أستطيع أن أحدد دون بحث بالضبط أين ستضع وعاءها لأضع وعائي، وأين ستحدث لأصغي، ومتى تنضج رغبتها للإصغاء كي أتحدث. هذا الهاتف الذي يوقظنا معاً لأدق دقة وتدق دقة، ونقول بهما: صباح الخير. أو بالضبط متى تبدأ تتشاءب لأقول بعدها: يا الله ننام! تصبحي على خير!

غير أنني وأنا أحيا أطوار الحب كلها وأنعم بها لم يخطر ببالي طور آخر ما أعددت له في نفسي أبداً وما تصورت إمكان وجوده أو حدوثه، فهو في الغالب كالعدو الغادر يدهم فجأة، ومن أول دقة دقتها ولم يأتني الرد في الحال قال هاتف في نفسي: انتهت علاقتنا

إذن ولن أسمع عنها بعد الآن أو تسمع عني . حدث هذا مع أن تأخرها أو تأخري في الرد كان مسألة عادية تحدث في اليوم عدة مرات .

في الحال أيضاً أخرست الخاطر إذ اني أعرف ذلك الهاتف المتشائم أبداً . الرابض خلف كل انعطافة حدث يبشر بالفاجعة والنهاية . ولم تكن تلك أول مرة يجار بهتافه ، فمنذ قصتنا معاً وكلما واثته الفرصة هتف . ولكن علامات التفاؤل لا تلبث دائماً أن تظهر وتفحمه . هذه المرة مثلما خمنت لم تأت العلامات ، وبينما علا عواء الهاتف سعيداً يتحقق فأله ، بكل ما أملك من قدرة رحت أكافح وأستدعي إلى الذاكرة أسباباً وتعللات تبرر تأخر الرد ، أو حتى غيابه كلية ليلتها لو حدث ، ربما هي في التأديب . . ربما في المستشفى . . إن هي إلا ليلة أو على أسوأ الفروض ليلتان وتعود .

ولكنه كان تمسكاً بأهداب وهم أوهى من نسيج العنكبوت . كانت حقيقة قد ذهبت تماماً ، هكذا أكدت الأيام والليالي الطويلة التالية . حتى حين - بعد أكثر من أسبوع - جاءني رد على دقي ، أشحت عنه في اشمزاز وضيق . فقد عرفت على الفور أنه ليس دقها ، ليس لها ، ليس صادراً عن يدها البيضاء الطويلة الأصابع ذات الشعر الميكروسكوبي الأصفر .

وفي كل مرة انتهت لي فيها قصة حب كنت - حين أتأكد من النهاية وبرغم اطباق المأساة - أحس بنوع من الراحة وكأن حملاً ثقيلاً

انزاح عن كاهلي . ولكن حتى ذلك الشعور لم يعتريني أو يخفف عني ، بل ليت ما اعتراني أخذ شكل الحزن القاهر الواضح الحادا إن هو إلا ذهول مستمر ذو نوبات . . فجأة تتوقف اللقمة في حلقي ، وأنا - وكأنما لأول مرة - أدرك أن ما حدث لن يعود ، وأني أبداً لن أسمع مرة أخرى ذلك الحفيف الواهن الداق يأتيني صادراً تماماً عن القلب إذ أحس به تماماً في قلبي . انتهى وجودنا معاً ، وأصبحت وحدي نصف شيء لا يصلح للبقاء ، ألم مستمر متصل لا ينقطع ولا يزول .

المؤلم أكثر أنني كنت متأكداً أنه حتى ذلك الألم وتلك النوبات مصيرها إلى زوال . ومصيري إلى العودة إلى حياة السجن ذات اليوم المستمر الواحد ، ولن أعود أنعم بالتذكر حتى لو جاء على هيئة غصة أو ألم .

المؤلم أنني مستمر . . والحياة مستمرة ، والكون كله قائم وموجود ومستمر . . وما أبشع أن يستمر هذا كله بغيرها . . بغير وجودها وحديثها وروحها وظلها .

بعد مرور تلك الفترة من أيام الحدة الأولى ، كان شغلي الشاغل هو تلك الرغبة العارمة التي لم أكن أستطيع مقاومتها . . الرغبة في الحديث عنها لإنسان . . لأي إنسان ، وإن لم يكن بالذات عنها فعلى الأقل عنهن جميعاً ، عن المسجونات النساء ، أو حتى عن النساء بشكل عام .

وجاءت مرة فرصة حين انتهت النوبة وجاءت نوبة جديدة،
وأصبح «الأومباشي عبد الفتاح» العصبي الرفيع ذو العصا حارساً لليل
في الدور الذي أحتل إحدى زنازينه .

جاءت الفرصة لأنني أعرف أن عبد الفتاح العصبي المتعجل في
النهار غيره عبد الفتاح حارس الليل، حيث لا توجد عيون الشاوشية
والضباط، وحيث لا عصا، وحيث يعود إلى طبيعته الصعيدية البسيطة
ويصبح الطريق إلى قلبه كوب شاي مصنوع على السبرتو المهرب،
والطريق إلى لسانه سيجارة بلمونت .

وعبر باب زنانتني المصنوع من عمدان حديدية متينة وقفنا بعد
العشاء ندردش ونتحدث، وبمهارة قدت الحديث إلى قصة اللومنجي
الذي ثقب الحائط ضاحكاً، قائلاً إنني أنا نفسي طالما فكرت أن
أصنع مثله . . وشخشيخ صدر عبد الفتاح وهو يضحك ويقول:

- بس المرة دي ح يطلع نقبك على شونة. أمال . . على
شونة .

وسألته: كيف؟

فقال:

- دول خلاص عزلوا. كل الحريم راح القناطر . . كله كله
عزل . . كله . . كله .

ودق الخاطر في رأسي، إذن هذا هو السبب في رحيلها
المفاجيء لا بد .

وقلت لأتأكد :

- أظنهم نقلوهم بقى من حوالي عشرة أيام كده؟
فعادت إليه العصبية وهو يقول :

- لالا.. . عشرة أيام إيه؟ أنت نايم حضرتك؟ دول من
زمان.. . زمان خالص.. . من ثلاثة أشهر.. . لالا.. . ييجى من أربعة
أشهر!

وكدت أتوقف عن التنفس .

وكالتائه سألت :

- الله.. . بس ده فيه ناس في «العنبر»؟
فقال :

- آه! فيه ناس أيوه.. . بس دول تراحيل ، مرة رجالة مرة سناات .
تراحيل ، يومين ، أسبوع ، أسبوعين وأنت وحظك .

وكدت أقهقه قهقهة من فقد العقل ، وفي ألف ناحية جرى
عقلي يفكر: أليس من الجائز رغم آلام الحب المروعة ألا تكون
هناك فردوس بالمرة ، بل من يدري؟ أليس من الجائز أن الهمس
المسحوق كان همس رجل ، ربما كان يعتقد أنه يخاطب به أنثى؟ أو
ربما فعلها أو فعلتها للتسلية وكسر الملل في وقت طويل.. . طويل
متشابه؟

ليلتها ، قبل أن أنام قلت لنفسي : أليس هذا أروع ختام لقصة
ذلك الحب؟ إنه على الأقل سيعفيني من آلام النهاية ومرارتها .

غير أن الشيء المذهل الغريب . . الشيء الذي لم أتوقعه أبداً
ولا يمكن أن يصدقه إنسان، حتى أنا نفسي لا أكاد أصدق، أن
القصة ظلت تعتريني وظل الألم ممدوداً طويلاً يعكر طعم الحياة في
نفسي، وظلت «فردوس» حية في خاطري أكثر حياة من كل من
عرفت من النساء.

٩٠٩

ما خفي أعظم

الندامة

لم يكن أحد قد رأى وجه امرأته رأي العين . كانت إذا خرجت ترتدي فستاناً لامعاً أسود . . طويلاً إلى حد يجرجر خلفها على الأرض، وطرحه سوداء ملتفة حول الرأس والوجه ومن نسيج ضيق لا يظهر أبداً ما وراءه، وإذا خرجا سوياً لا يسير بجوارها إنما أمامها بمشوار يسير، وبعد أمتار كثيرة تجدها وراءه كظله الأسود الذي انفصل وتجسد ودبت فيه الحياة . ولكنها لم تكن تماماً كظله، فقد كانت سمينة تخينة مدكوكة وكأنها أربع نساء أدمجن معاً . وكان الشيخ «فقر» بعد فصله من الأزهر لرفعه الكرسي على أستاذه، وبعد صرمحته زمناً وإدمانه «للدومينو والكوتشينة» إلى آخر ملهم ورثه عن أبيه، وبقائه في البلدة يقتات من النفحات حتى ضاق به الكرام قبل اللثام، قد أخذ في وجهه وصمم على أن يذهب للعمل في الاسكندرية . وقد ظل أسبوعاً يجمع في أجرة السفر، ثم ذهب ولكن أخباره لم تنقطع كلية عن مواطنيه . . بين كل حين وحين يفد إلى البلدة عنه خبر، مرة أنه عمل كاتباً في الميناء، ومرة فتح «كشكاً» للسجاير، ومرة ربح ورقة يانصيب بعشرين جنيهاً . ومضت سنوات وأخيراً فوجئوا به وقد عاد، ولكنه لم يكن وحده . لقد تزوج وجاءت

معه زوجته، وما كاد يهبط من المحطة وهي خلفه ويراهم الناس حتى كتموا الضحكات، فرغم لثامها الشامل التام الذي أحالها إلى شبح أسود، فاللثام والسواد لم يستطيعا أن يخفيا تخنها بل ربما أسهما في فضحه أكثر. . تخناً لم يره أحد من قبل أو من بعد. فساء القرية عجفاوات كعيدان القطن الجافة، وهذه «باسم الله ما شاء الله» ككيس القطن، أقصر منه قليلاً إنما في تخنه بل ربما أتخن. . ولا يدري أحد سر هذا الأمر بتاتاً. فما يكاد الإنسان يراها إلا ويتصور الشيخ «فقر» معها في فراش واحد، بعصبيته التي لا حد لها، وعصاه الغليظة التي يسميها «الحكمدار»، وغضبه الذي ينشأ كالظواهر الكونية بلا سبب، وينفث كالظواهر أيضاً بلا سبب، ووجهه المملوء بحفر قديمة نصف مردومة من آثار هجوم جذري قديم فاشل، تنبت بينها شعرات ذقن قليلة متباعدة ولكنها كأشجار السنط البرية ناشزة مسنونة. وما يكاد الناظر يتصورهما معاً في فراش واحد على هذا النحو. . هي بتخنها وهو بحدته وعصبيته حتى يظل يضحك ربما إلى أن يصاب بالمغص. والشيخ «فقر» لم يكن طبعاً اسمه الشيخ «فقر» إنما كان اسمه الشيخ رابع، وحتى لقب الشيخ كان تجاوزاً فهو لم يكن يرتدي عمامة، إنما كان يمنحه الناس له أو بالأصح يصبر هو على أن ينادى به. وكأنما إمعاناً في انتصاره على مدرسه السابق بالأزهر، ذلك الذي أكد له أنه أبداً لن ينجح في حياته أو يربح أو يحمل لقب شيخ من هنا إلى يوم الدين.

وإذا كانت حياة الشيخ رابع معروف أمرها للناس جميعاً، فقد كانت النساء هي علامة الاستفهام الكبرى في حياته. إذ كان دائماً

يذكرهن بحقد خفي غير معروف المصدر، وإذا مرت من أمامه امرأة نقرها - أول ما ينقرها - من نهاية سمانة ساقها عند اتصالها بالقدم، ثم يصدر عليها بكل قسوة وبلا تردد حكماً جائراً بأنها «...» غير قابل لأي نقض أو تعديل. ولهذا كانت المفاجأة الكبرى أن يتزوج الشيخ «فقر»، ويتزوج من تلك الكتلة اللحمية الكيسية القطنية الاسكندرانية التي ما أفلح السواد أو اللثام المضروب بعناية حولها أن يخفي أنها امرأة... وامرأة من نوع يصدر عليها أي إنسان حكمه دون حاجة إلى نظرة يلقيها على «سمانة الرجل» عند اتصالها بالقدم.

وكانما كانت عودة الشيخ رابع وزوجته على هذه الصورة إيذاناً باندلاع حرب خفية بينه وبين بلدياته حول رؤية وجه امرأته، إذ كان يبدو وكأنما أصدر لها أوامر حازمة باترة مصحوبة بتلوينة مروعة من عصاه «الحكمدار» بأن معنى من يرى أحد - سواء كان رجلاً أم امرأة في الطريق - وجهها الهلاك المحتم لها، وإذا كان قد قدر لك أن ترى الشيخ «فقر» وهو يهدد وقد انقبض وجهه واحتقن واسود، وتدببت أشجار السنت في ذقنه وتقنذت، والتقى الخطان العميقان في جبهته على هيئة عقدة دون حلها رابع المستحيل، لآثرت السلامة حتماً وفضلت أن تطيع أوامره. ولكن أوامره مهما بلغت من قسوتها فلم تكن لتحول بين الناس وبين رغبتهم التي تتزايد يوماً بعد يوم لرؤية وجه امرأته المخفي دائماً وراء الطرحة، ولا محاولاتهم المستميتة للعثور على ثغرة في النقاب، أو حتى لضبطها مرة واقفة في حوش منزلهم القديم الواسع أو فوق سطحه الآيل للسقوط، سافرة. ذلك

أمر لم يحدث أبداً، وبدأ مصراً على عدم الحدوث إلى درجة أياست الناس تماماً فسلموا أمرهم وحب استطلاعهم إلى الله ونفضوا أيديهم. أما الذي لم ييأس أبداً ومضى مصراً وبكل ما يملكه من تزمت فهو الشيخ رابع، ليس فقط على اخفاء وجه امرأته. . بل بعد هذا على اخفائها نفسها عن أعين الجميع وكأنها «بضاعة. . والناس جواعة». . بل على أن يمضي في هذا الطريق إلى آخر المدى. فالشيخ «فقر» رغم غضبه السريع والعنجهية التي تستبد به في أحيان، إلا أنه كان دائماً وأبداً قبل ذهابه إلى الاسكندرية إنساناً مرحاً ذا ضحكة وإن كانت أقبح ضحكة ممكن أن تسمعها إلا أنها دائمة الحدوث وبسبب وبلا أي سبب ودائماً تغري على الضحك، بحجوحاً لا تفوته النكتة، وإن فاتته انقلب على نفسه وفقره وحياته وأسرته الكبيرة يسخر منها - ويحتد في سخريته - حتى إنه هو الذي أطلق على نفسه الشيخ «فقر». ولكنه حين عاد بهذه الزوجة عاد إنساناً آخر، ضاق خلقه إلى أبعد مدى، وحول ضحكاته إلى نظرات نارية جادة يخوف بها القريب والبعيد، وكأنما كان يتصور أنه لو فرط لحظة واحدة في حديثه لاستهان الناس به ومن ثم بامرأته وكشفوا عنها النقاب والغطاء. كان بمثل ما يرهبا ويفرض عليها الحجاب فرض عزيز مقتدر يريد أن يرهب الآخرين ويفرض عليهم غض النظر حتى لو كان النظر إليه، وكأنما التحديق فيه مقدمة مسترة للتحديق فيها. أصحابه القدامى هجرهم ولم يعد يجلس إلا مع الكبار الوقورين ي الدم الثقيل، حتى هو نفسه أصبح «كقرد قطع» وحيداً صامتاً

معقود الجبهة لا يطيق الناس - من تلقاء أنفسهم - رؤيته .

إلى أن كان يوم لا يزال الرواة يتذكرونه ، فقد كان يوم شتاء والمطر قد أحال البلدة إلى برك وطين ومستنقعات ، وكان الوقت منتصف الليل أو بعده بقليل ، وكانت «طوبة» وبردها القارس . وكان صراخ إلى عنان السماء تصاعد في الليل من بيت الشيخ رابع ، وظن الناس أول الأمر أنه يضربها ، ولكنه أبداً ومنذ قدومه إلى البلدة لم يسمع أحد أنه ضربها ، وما حاجته إلى الضرب إذا كانت سحنته تكفي ؟ فقط حين طال الصراخ وتزايد ، أدرك الناس أنها لا بد تلد . وكانت مفاجأة فأمر حملها كان كالسر لا يعرفه إلا أقرب المقربين من الجارات ، فتخنها كان كفيلاً بأن يختفي في طياته عشرة أطفال دون أن يبدو لهم أثر . . ولهذا كان طبيعياً جداً أن يكون معرفة الناس بالحمل ساعة الولادة معرفة لم تفعل إلا إطلاق الألسن المكتومة التي تتربص بالفرص للضحك وإشفاء الغليل . وهكذا ظل أناس كثيرون ساهرين يسمعون الصراخ ويتضحكون تارة على عملية ولادتها نفسها ، فداية القرية كانت مريضة ، والمرأة غريبة لا أم لها ولا قريبة ، والشيخ رابع رأسه وألف سيف إلا أن تلد في بيتها وبمساعدة «أم الخير» الحارة العجوز . مضى بنفسه يشرف على عملية الولادة مزمجرأ في كل من تحدثها نفسها من النساء بأن تقترب أو تدق الباب عارضة المساعدة ، خالعاً جلبابه ، باقياً في عز «طوبة» ، بالفانلة والسروال الطويل يتفصد العرق الغزير من وجهه وكل مكان في جسده ، مشغولاً مشغولية عظمى وكأنه يشرف بمفرده على معركة حربية ليس لها نظير . . وتارة

تنطلق الألسن منددة - قبل مجيئه - بالجنين المقبل، معترضة أن الحمل لم يحدث من الشيخ رابع وإنما تم على أثر وصفة اشترتها المرأة من قرداتي تحتوي على نطفة قرد، فليس من المعقول أن يخلف الشيخ رابع وقد بلغ من العمر أرذله! وما يبدو مستحيلاً أكثر أن تخلف هي! وتارة تركز الألسن إلى قليل من الجد وتتساءل عن أخبار عملية الولادة، تلك التي طالت على غير العادة حتى أصبحت صرخات الاسكندرانية تتلاحق وتشق كالسكين الحامية سكون الليل. مسألة لا بد أنها كانت تدفع الشيخ رابع إلى ما يقرب من الجنون، فإذا كان يرى في وجه امرأته عورة فلا بد أن صوتها لديه عورة أخطر، وتضاعده في الليل على هذه الصورة جريمة أكثر، فلا بد أن القاضي والداني الآن يسمعه، وكيف يمكن أن يقبل الشيخ رابع أن تسمع الأذان.. أذان كل من هب ودب صوت امرأته ذلك الحرم المقدس الخاص به وحده، الذي لا يصح أن تسمعه أذان أحد سواه. لو كان الود وده لخنقها حتى يسكتها، أو للف في القرية يسد أذان أهلها بالطين.

المهم أنه. قرابة الفجر، روعت القرية حقيقة حين انفتح باب الشيخ رابع بقوة وخرج منه الرجل حاسر الرأس بالفانلة والسروال، يتصبب عرقاً ويجري كالمجنون يدق أبواب الجيران طالباً الغوث والعون، باكياً - هذا الجبار - مستحلفاً طين الأرض - إذ كان طوبها كله قد تحول إلى طين - طالباً من الجميع مساعدته، فالجنين قد خرج نصفه وانحشر نصفه الأعلى لا يريد الخروج، وأمنية حياته

الكبرى - تلك التي أخفاها عن الجميع إلى تلك اللحظة . كانت أن يخلف ولداً، والجنين ولد رآه بنفسه وتأكد منه ولكنه محشور، ولا بد ما لم تتداركه العناية أنه مخنوق ومقتول . . وأنا في عرضكم يا ناس، في عرض الصغير فيكم قبل الكبير، والحافي قبل اللابس، انقذوا الولد وساعيش عمري عبدكم الدليل .

يا الله! . . لم يصدق أحد عينيه أبداً ولا أذنيه، فلا يمكن أن يكون المتدلل الباكي هذا هو نفسه الشيخ رابع صاحب «الحكمدار» والنظرات المقطرة سماً، مستحيل أن يكون . ولكنها دهشة لم تدم طويلاً فسرعان ما اختفى الاستغراب وكتمت الضحكات لتحل محلها الشهامة المعتادة .

وكانت المشكلة أنه لا بد من نقل الوالدة فوراً إلى المستشفى، وطلب الاسعاف وانتظاره مسألة لا يمكن أن يفكر فيها عاقل بالمرة . أي اسعاف هذا سيأتي في الفجر والأرض موحلة؟ . . إنه في أثناء النهار وفي الطرق المرصوفة نفسها لا يأتي إلا بعد ساعات، فما بالك في ليلة كهذه وفي ظرف كهذا . . الدقيقة فيه - كل دقيقة - لها ثمنها الفادح؟ وبينما الشيخ رابع قد تهاوى إلى جوار الحائط غير عابىء بالوحل والطين، تاركاً أمر التصرف في الموقف لأولاد الحلال الذين تجمعوا بالعشرات والمئات داخل بيته وخارجته، كما الناس قد قرروا أن يتولوا بأنفسهم نقل الوالدة إلى المستشفى، وبدلاً من النقالة قرروا أن يستعينوا بسلم يضعون عليه مرتبة ويرقدونها فوقه، ويحملونها - جرى من جرى - إلى المستشفى الذي لا يبعد عن البلدة

إلا بكيلو مترين، وانتشرت موجة الشهامة وعمت القرية كلها حتى استيقظت عن بكرة أبيها. فالقرية ليس فيها إلا شيخ رابع واحد، ورغم كل شيء فالشيخ قضى عمره كله يسلي بغضبه الناس ويضحكهم، ومن المحال أن يتخلوا عنه في ورطة كهذه. أكثر من «كلوب» أشعل وجيء به إلى البيت والساحة التي أمامه، وفشت القرية كلها بحثاً عن سلم متين ورجال أقوياء، فالحمل الذي سيحمل حمل غير عادي، والسرعة المطلوبة سرعة غير عادية أيضاً. وأخيراً تم في دقائق قليلة اعداد كل شيء، وبقي أصعب شيء. فالوالدة جاءها المخاض وهي نائمة في «المقعد» فوق السلم، والسلم المؤدي إلى السطح سلم عادي كالسلم الذي ستحمل عليه، ولا بد لكي تهبط سليمة من حملها في وضع أفقي، وانزالها على هذه الصورة سلمة سلمة وبحرص شديد. . والدنيا وحل، والأقدام والسلالم زلقة، وهي تخينة سمينية في ثقل حجر الطاحونة وربما أثقل، ومشاكل كثيرة وعويصة هندسية وميكانيكية وعضلية كان عليهم أن يحلوها قبل أن تهبط حرم الشيخ رابع إلى الأرض سالمة. أما الشيخ رابع نفسه فما كادت اجراءات الحمل تبدأ حتى انتفض من انهياره واقفاً وليس أمامه سوى مشكلة واحدة قاهرة ملحة أن يفرد فوق امرأته الملاءة السوداء التي أحضروها من بيت العمدة، بحيث تغطيها تماماً، وبحيث تحدث عملية الهبوط كلها والحمل إلى المستشفى دون أن يبدو من جيدها قلامة ظفر. وفعلاً كان الرجال جميعاً مشغولين بحملها بالمرتبة التي ترقد عليها ووضعها فوق السلم ثم

حمل السلم والهبوط به من فوق السلالم الناقصة أكثر من سلمة، وكان هو مشغولاً تماماً بضبط الملاءة فوق كل بقعة من جسدها. ولقد نجح في هذا إلى أن وصل جسدها المحمول إلى رأس السلم حيث بدأ الارتباك الأعظم، فالحمل ثقيل جداً والأقدام تتزحلق، والمسافات بين خشب السلم متباعدة، ولولا لطف الله لكانت قد تهاوت بمن حملوها أكثر من مرة، وصرخاتها أقوى من صفارات قطار أي بضاعة أو أكسبريس تنطلق بمعدل عشر مرات في الدقيقة، وتولول مستغيثة مربكة حاملها. وبمحاولاته المستميتة لتغطيتها كاد يؤدي الشيخ رابع إلى سقوطها أكثر من مرة، حتى بدا واضحاً استحالة أن تهبط مغطاة، أو على الأقل وثمة أحد - حتى لو كان زوجها - يمسك بأطراف الملاءة، ولم يكن أمامه إلا أن يستسلم في النهاية ويفرد عليها الملاءة، تاركاً أمر بقائها أو انحسارها للحظ والقدر. وكان أهل البلدة في الحوش يتطلعون بقلق إلى محاولات الانزال، ويرى كل منهم في المشهد عشرات التفاصيل التي تضحك وتميت من الضحك فينجح في كتم بعضها وفي أغلب الأحوال يفشل. وعلى أضواء خمسة «كلوبات» من كل الماركات قوية مسطرة على السلم المستعمل كنقالة وسلم الهبوط بحيث تحيل البقعة إلى ما يشبه المسرح المضاء بشدة، وتحت وقع الرذاذ الخفيف الذي بدأ يتساقط منذراً بقرب عروق مطر سخية - بدأت عملية الانزال. . أو بالأصح الارتباك المهول في الانزال، والأوامر الكثيرة التي يصدرها الجميع إلى الجميع، وصرخات الاستغاثة، وآهات الألم حين يتزلق

أصبع أو يدوس أحد على قدم أحد، والهرولة تكثر، والسلم المهدد الذي حفل بعشرات المتسابقين إلى حمل السلم الآخر وابقائه أفقياً، وعشرات الأيدي تمتد لتحفظ الوالدة فوق محفتها، والملاءة لم تنزلق فقط عن جزء من جسدها ولكنها سقطت تماماً من فوقها ولاكتها الأرجل والأقدام في الطين. . . بحيث ان الشيخ رابع ذلك الذي كان خوفه الأكبر أن يرى أحد وجه امرأته، قدر له أن يرى بنفسه الناس - مئات الناس - كل أهل القرية وهم يشاهدون، ليس وجهها المكشوف أو ذراعها أو جزءاً من ساقها، وإنما جسدها كله بكل ما هو ظاهر فيه أو مستتر، وبالجنين يطل منه، والأضواء قوية مسلطة تتيح للأعمى نفسه أن يرى ما شاء لأي وقت يشاء، فالمسرح بلا ستارة، والزوجة بلا غطاء ليس فقط كما ولدتها أمها ولكنها عارية عري أمها نفسها وهي تلدها، والأعين كلها مجبرة على تصويب نظراتها لكي يمكن انزال المرأة وانقاذها، والغريب أن هذا كله حين وقع لم يكن يحتل من تفكير الشيخ رابع واهتمامه إلا أقل القليل. فجزعه الحقيقي كان خوفاً من أن يموت الجنين، وجزعه الثاني من أن تموت الوالدة. جزع كاد يذهب بعقله، جزع كان يدفعه لأن يصرخ بأعلى صوته في الرجال طالباً من هذا أن يمسكها من فخذها حتى لا تسقط، ومن الآخر أن يحتضنها من أعلى حتى لا تنهوى، ومن ثالث أن يمد يده بين فخذيها ليबाعد بينهما حتى لا تهشما الجنين بضغطهما. مرة واحدة فقط أفاق ورمى الجمع الحاشد الذي تنصب نظراته كلها على جسد زوجته، فأحس بالأرض تميد به. .

ولكنه في الحال طرد الخاطر. فمن أعمق أعماق نفسه كانت تتصاعد
خواطر أكثر قوة وحدة، وأمان كثيرة غير محددة، فهو مستعد والله أن
يحدث ما هو أكثر، بشرط أن تكون النتيجة أن ينقذ المولود وتنقذ
الوالدة.

وبين عشرات الأشياء التي كانت تدفع الرجال ليقطعوا من
أطوالهم ضحكاً، وعشرات الأشياء التي كانت تتطلب منهم العزم
والقوة والجديّة، وعشرات المربكات والمثبطات والمشجعات،
والوحد والمستنقعات والمطر الشديد الذي بدأ يهطل. . من خضم
هذا كله هبطت الوالدة وكأنما بمعجزة إلى الأرض، وانطلق بها
الموكب الجاري الحافل إلى المستشفى، عشرة يتكاتفون في
حمل السلم يسقط منهم تعباً وانهاكاً من يسقط، ويتهاوى من
يتهاوى. . ويلعن في سره بأعلى صوته الليلة والشيخ والوالدة
والمولود من يلعن، إذ كانوا وكأنما يحملون جاموسة سميّة ومعلوفة
أصابها (عرق الأنس) وليس امرأة مثل غيرها من النساء.

ولكن الموكب وصل والطبيب جيء به من حيث يقطن،
والعملية أجريت، وحين صدر عن الولد أول صراخ. . بنفسه زغرد
الشيخ رابح، وطبلوا له ورقص، وارتفعت من صدر طال عليه
الإغلاق قهقهات عمرها أعوام وأعوام.

وحين عادت الزوجة إلى البلدة لم يكن قد تبقى للشيخ «فقر»
ما يخفيه عن الناس وقد رأوا جميعاً ما رأوا. ودون حاجة إلى أوامر أو

القاء تعالىم أو تهديدات أصبحت الاسكندرانية تمشي في طرقات
البلدة وشوارعها بوجه سافر مكشوف، وأصبح الشيخ «فقر» لا يسبقها
أو يتخلف عنها إنما إلى جوارها تماماً يمشي . كل ما في الأمر أن
أحداً لم تواته الجرأة يوماً على التطلع في وجهها - ليس تعففاً أو تأدباً
وإنما خجلاً - إذ ليتهما ظلت مستترة خلف اللشام والطرحة والنقاب،
ذالناظر إليهما معاً كان يفضل دائماً أن ينظر إلى وجه الشيخ رابع ذي
الحفر القديمة نصف المردومة، واللحية النابتة كالسنط . فالنظر إلى
وجه كوجهه كان - والله - أرحم .

٩٢٣

المرتبة المقعّرة

الندامة

في ليلة «الدخلة» و«المرتبة» جديدة وعالية ومنفوشة، رقد فوقها بجسده الفارع الضخم، واستراح إلى نعومتها وفخامتها، وقال لزوجته التي كانت واقفة إذ ذاك بجوار النافذة:

- انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

ونظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

- لا . . لم تتغير.

- فلأنم يوماً إذن.

ونام أسبوعاً، وحين صبحا كان جسده قد غور قليلاً في المرتبة.

فرمق زوجته وقال:

- انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

- لا . . لم تتغير.

- فلأنم أسبوعاً إذن.

ونام عاماً، وحين صحا كانت الحفرة التي حفرها جسده في
المرتبة قد عمقت أكثر، فقال لزوجته :
- انظري . . هل تغيرت الدنيا ؟
فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت :
- لا . . لم تتغير .
- فلأنم شهراً إذن .

ونام خمس سنوات، وحين صحا كان جسده قد غور في
المرتبة أكثر، وقال كالعادة لزوجته :
- انظري . . هل تغيرت الدنيا ؟
فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت :
- لا . . لم تتغير .
- فلأنم عاماً إذن .

ونام عشرة أعوام، كانت المرتبة قد صنعت لجسده أخدوداً
عميقاً، وكان قد مات وسحبوا الملاء فوقه فاستوى سطحها بلا أي
انبعاج، وحملوه بالمرتبة التي تحولت إلى لحد وألقوه من النافذة إلى
أرض الشارع الصلبة .

حينذاك وبعد أن شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتى مستقرها
الأخير، نظرت الزوجة من النافذة وأدارت بصرها في الفضاء وقالت :
- يا إلهي ! لقد تغيرت الدنيا .

٩٢٧

معجزة العصر

النداهة

قال لي صديقي الذي لم أره من عشر سنوات، والذي كان
مقدراً أن أنقذه:

هذه المرة، هل رأيت معجزة العصر؟
بلا دهشة سألته: أية معجزة؟

لم يجب... ولم نضيع الوقت في التخمين وكأن اتفاقاً بيننا.
لف ذراعه حول ذراعي وجذبي وتبعته صامتاً. حاولت أن أعرف إن
كانت المعجزة هي الوصول إلى القمر، أو ظهور المهدي المنتظر،
فكاد يغلق فمه تساؤلاً... قائلاً:

- لا تخمن فلن تستطيع أبداً ادراكها، ولو عرفتها من تلقاء
نفسك لكانت معجزة العصر أنك عرفتها.

وبحماس جذبي بقوة أكبر، وبعد خطوات كنا على البلاج.
كانت الدنيا شتاء والشمس صفراء تسقط شعاعاتها المريضة على
الرمال فيبدو مجرد لون أنيمي شاحب... جو تتوقع أن يكون البلاج
معه فارغاً غير أنك تفاجأ به عامراً مزدحماً وكأننا في أغسطس. الناس
مكدسون على الرمال بالأكوام، والباعة ينادون على جيلاتني طوية..

وسحلب بثونة بدندرمة أغسطس . ولو أغلقت العين لحسبته مجرد خطأ في ورقة النتيجة، فأصوات الصيف هي هي، وصخب الأطفال هو هو، حتى ذلك الاحساس الخاص بالصيف . . ذلك الذي تحس وكأن الحياة به أكثر حلاوة كان موجوداً . . إذا غضب الله على قوم أمطرهم صيفاً، فماذا يكون موقفه تجاههم إذا جعلهم يصيفون في الشتاء؟ من الممتع أن تشحذ عواطفنا مشاكل الظواهر الكونية، فحين أسخط على الدنيا تهطل الأمطار، وحين أحظى برضاء حبيبي تشقشق في الكون ملايين من عصافير الكناريا، وإذا كرهت جاري أطبق على المدينة ضباب حتى لا تكاد ترى - وأنت واقف على بابك - باب جارك. والجار أولى بالشفعة، إلا جاري الذي لم أره من يوم أن قطنت عمارتنا . . فكلانا وحيد، وكلانا في المدينة المزدهمة قد فقد الونس حتى أصبح الازدحام مجرد جبل معقود يهدد احتواء رقبتك فأنت مرعوب منه، وخائف حتى النخاع. نفس الاحساس الذي شعرت به وازدحام البلاج يحويني، كتل من اللحم البشري مقسمة إلى أذرع مختلطة وسيقان. ويا لمشهد الجسد البشري بعد العشرين حين يكتنز بالشحم وتبرز له الكروش ويبدأ التفكير في صبغ الشعر أو توزيعه ليغطي الصلعة! حتى الجسد يهجر ويهرب منك. وفي هذه الوحدة المزدوجة لا بد أن يهزم الإنسان سريعاً، فنحن كائنات أرضية لا تنمو بصحة إلا معاً، إلا كمحصول واحد، فإذا ما زرع كل نبات منا بمفرده أكله «الفلت» وخنقته الطفيليات.

أتكون المعجزة هي الحصول على دواء يشفي الغربة ويعيد

جمع الناس؟ باء تخميني أيضاً بالفشل، وفقدت عين الحكمة مع أن الحكمة ثرثرة، لابد حسب قوانين التبادل والتوافق أن ينتظم بعضها على هيئة أقوال رائعة النضج. ولكنني سعيد وكأن مجرد رؤيتي الموشكة للمعجزة سيسلحني بطاقة إخفاء أو بخاتم سليمان قادر على تحقيق المطالب. الغريب أن الزحام لم يكن ازدحاماً للتجمع، كان تجمعات للتفرق، فكل مجموعة مكدسة بكليتها إلى شيء مشترك يخصها وحدها، أو ربما تبحث لنفسها هي الأخرى مثلما نبحث عن معجزة عصر، فأنت تقبل على تجمع يشبه من بعيد شكل الكازينو الذي أقيم على عجل، ولكنك حين تقترب لا تجد كازينو أو حتى مكاناً للجلوس. فالناس إما وقوف منحنون أو في حالة رقاد، والكل في شغل عنك بما يبدو وكأنه مأساة داخلية طاحنة. لا أحد يلتفت إليك، الأيدي تلوح في عصبية، والنقاش حاد كطلقات الرصاص. . . وبعضهم بمجهود عظيم يضع يديه الاثنتين معاً على فمه محاولاً أن يكتم الضحك فلا يستطيع، وتكون النتيجة أن تفلت الضحكة رغماً عنه. حسبت الصديق يضحك، ولكنه كان يتوقف ويتطلع حوله ثم يحاول أن يخفي نفاد صبره، والعرق رغم الهواء الساقع قد نبت على جبينه، والحيرة الكبرى تملكه، ويأسه شامل، يكاد لولا الحياء أن يستنجد بالناس ويسألهم أين الطريق لمعجزة العصر!

حسبته يضحك ولكنه كان. . . فجأة يلكنني ويشير إلى كازينو قريب قائلاً وقد تهللت ملامحه وكاد يقفز منها الأمل: وصلنا.

ولم تكن فرحتي هذه المرة لأننا نوشك أن نصل، فرحتي كانت

لأننا نوشك أن نصل إلى كازينو حيث نستطيع الجلوس وشرب الماء المثلج والشاي بعد هذا الكدح الطويل من الشاطبي إلى سيدي بشر والمنتزه.

ولكن ما أبشع ما خاب أمني حين لم ينكشف الكازينو إلا عن ازدحام آخر، واحد من عشرات الازدحامات التي كان يحفل بها البلاج! نظرت بحدة إلى الصديق وإلى عينيهِ اللتين كانتا قد احمرتا تعباً، أو من يدري؟.. ربما غيظاً، وربما لهذا انطبقت شفته في حدة راسمتين في خطوط قاطعة شكل فمه.

أين رأيت ملامح كهذه مرسومة بحدة كتلك الحدة يا ربي؟.. أين؟ والهمهمة الصادرة عن هذا الازدحام نفس هذه الهمهمة وثيقة بنفس الملامح. وأيضاً بشيء يشبه المعجزة، أين ومتى حدث لي هذا يا ربي؟ لا أعرف، هذه اللحظة عشتها قبلاً، بالتأكيد حدث هذا. ولا بد أنه ذلك الشعور الذي دأب على زيارتي في الفترة الأخيرة.. الشعور بأن الكون يكاد ينتهي، والصمت المطبق بدأ يحل.. صمت سيمتد إلى آلاف وملايين السنين المقبلة، آخر علامات الحياة تختنق، الحركة الهائلة التي حفل بها الكون طوال وجود الإنسان قد انقرضت، وسيعود السكون الأبدي ولا يبقى إلا الشمس والقمر، والليل والنهار، والريح والرمال. الأجساد متراصة موزعة مختلطة لا تكاد تستطيع تمييز ساق الرجل من ساق المرأة، تبدو في أحيان كثيرة خالية من الشعر، والجميع كأنهم يبحشون عن ابرة سقطت في قلب الرمل، ليسوا منحنين فقط ولكنهم ممددون تماماً وقد استندوا بأذرعتهم إلى الأرض، وانكفئوا على الرمال عيونهم

تكاد تخرج من محاجرها بحثاً عن شيء لا بد أنه مخبأ بطريقة ما في الرمل.

الأطراف كثيرة، كل حركة منها تثير نائرة الرمل فيملاً العيون ويسد الأنوف، وتتصاعد صرخات الاحتجاج لأن شخصاً وقف أو سار أو تحرك، وأثار بحركته زوبعة صغيرة في ساكن الرمال. المعجزة.. معجزة العصر.. الشيء الصغير الكائن والموجود في حياتنا منذ وجودها الأول، إنما لكونه صغيراً فالجميع يعبرون به دون أن يحسوا له بأي انفعال أو احتفال، أقدامهم تدميه أو تصطدم به دون أن تشعر أو تحس أنها صدمت شيئاً أو تعثرت بشيء، والشيء دائم الصراخ والعويل، إنه كائن وموجود، دائم الرجاء أن يحظى منها بالتفاتة، أن يتلقى إشارة واحدة من طفل أبله تفيد أنه رآه أو سمعه أو أحس به بلا فائدة. الناس انغماسهم في مشاكلهم أقوى وأكبر من أن يدعهم ولو للحظة يفيقون إلى ما حولهم ويتأملونه بنظرة خالي البال. إننا لم نعد أحراراً في رؤيتنا. أصبحت أنظارنا قصيرة موجهة إلى ما تعرفه أو إلى ما تود معرفته.. أي اننا لم نعد نرى ما ينعكس من داخلنا إلا ما يعكس اهتماماتنا وتفكيرنا وأحلامنا، فقدنا تلك القدرة البكر على تلقي ما هو خارج النفس كما هو، بروعته وتلقائيته وعمقه وبساطته والانفعال له أو عليه، وبناء آرائنا ومعتقداتنا من خلاله، لا نرى إلا لكي نثبت أو نبرهن به أننا على صواب، ولكن في العادة دائماً ما يحدث شيء.. حدث يعرض مصادفة.. شيء لا بد رغم إرادتنا يرغمنا على أن نلوي أعناقنا وننظر فنفاجأ أننا أمام حدث خارق

للعادة، أننا أمام شيء وإن يكن صغيراً إلا أنه بالغ الدلالة، وحينئذ تفلت من أحننا صرخة الإدراك الأولى ومعها تجر الانتباهات إلى انتباهات ليصبح ذلك الشيء بعد يوم وليلة محور اهتمامنا الأول ونكتشف ونذكر كم نحن بحاجة إليه، وكم كانت تفتقده حياتنا، وكم هو لازم حيوي لها. وندفع حينئذ اندفاع من فقدوا العقول نهتم به اهتماماً مبالغاً فيه، ويصبح أمل الإنسان منا أن يحظى منه بنظرة، أو نراه رأى العين. هل أصبتم بخيبة أمل؟ أنا نفسي حدث لي ما حدث لكم، ولدى الإدراكة الأولى كدت أهيم على وجهي يائساً خائب الأمل. لنحاول إذن ألا نخطيء خطأنا الشهير الأول.. الشيء خارج ذواتنا، الشيء لا كما نريده وإنما كما هو موجود وقائم وكما كان يمضي الناس عنه غير مهتمين أو مدركين. إنه ليس حشرة غريبة أو قطعة من معدن نادر. كان في الحقيقة بشراً مثلي ومثلك له أذنان وعينان وأنف وفم وأسنان ولد بها جميعاً والمفروض أنه لا يزال إلى لحظتنا هذه يمتلكها. أنا لا أهزل أو أقول غير الحق، فآلاف المواليد تخرج كل عام على هيئة مواليد شاذة، بعضها ملتصق ببعض في أحيان، وأحياناً بطن واحد بصدرين ورأسين من أعلى، ومن أسفل بحوضين وأربع سيقان وأرجل.. كل الاختلاف أن الشيء في حالتنا هذه كان جنيئاً صغير الحجم، وهذا كل ما هنالك.. لا.. لم يكن في حجم كرة القدم ولا حتى في حجم البرتقالة، إن شئت الدقة كان في حجم نصف عقلة الأصبع، ومع هذا فهو كامل الأعضاء متناسبها باستطاعته أن يصرخ ويرقص ويرضع، كل ما هنالك أنه يصرخ

بصوت لا تستطيع سماعه . عليك لكي تسمعه أن تقربه كثيراً من أذنك، وحيداً لو وضعتة كله داخل أذنك لكي تسمع صراخه أوضح ما يكون، صراخ عصبي متشنج يحاول النص نص «هكذا سوف نسميه» أن يفرض إرادته علينا وعلى الحياة . كان صغيراً إلى درجة أن أمه لم تلاحظ أنها ولدته، انزلق منها مع الماء الذي كان يملأ الرحم دون أن تحس به . وحسبته الداية قطعة من المشيمة ولكنها حين تناولته وتاملته صرخت صرخة أرعبت سكان المنزل جميعاً ولم تسقط . فاقدة النطق وإنما إلى الأبد فقدت النطق .

* * *

وما أتعس الأم ! كانت قد حملت به بعد أربعة عشر عاماً من العقم . وطوال حمله كادت تجن وهي تصلي إلى الله أن يجعله ولداً يقربه عين أبيه . وعلى هذا لم تجرؤ على اطلاعه عما أتت به وزعمت له أن الحمل كان كاذباً . . وبعد أن كانت قد قررت أن تلقي بالجنين مع الماء القدر صعب عليها الضنى وأخفته تحت الوسادة، وبالحقنة الرفيعة كانت تستطيع العثور على فمه وتغذيته . . وضبطها الزوج ذات يوم وهي ترضعه، وانهارت واعترفت، وبعد أن تاب الأب إلى رشده وأيقن أن الخطأ - إن كان هناك خطأ - ليس منه أو منها وأنه يجب أن يرضى بما قسمه الله، رضي وسكن . تلك كانت ظروف ولادته . . أما كيف تربي وتعلم؟ فتلك قصة أخرى . فلقد سبغ الأب ذات يوم أن السلطان يهوى جمع التحف النادرة، وأنه يدفع مكافأة

سخية لكل من يحضر له تحفة أصيلة ما امتلكها أحد قبله .

ولم يكن في قلب الرجل «النص نص» حب أي حب، فحب الابن مسألة يتعلمها الوالد ويكتسبها مثلما يتعلم الولد المشي أو النطق . وكما يعلم الأب ابنه كيف ينطق فالابن يعلم أباه كيف يحبه . فكيف يستطيع «النص نص» أن يعلم أباه، وأبوه يحتاج إلى عدسة كي يرى وجهه أو يعرف بطنه من رأسه؟ الأم وحدها هي التي كانت تحبه، ولهذا كان على الأب أن يساهيها ويأخذها وأن ينفق جزءاً من المبلغ الذي أعطاه له السلطان في شراء ملابس لها ومصاغ . أما السلطان الذي كان يعاني من الفراغ الممتد في حياته وأمور بلاده يسيرها وزيره ورعيته هادئة سلسلة، فقد وجد في «النص نص» غايته ومبتغاه والشيء الذي يستطيع أن يكرس له كل نفسه ووقته ويجد في هذا كل المتعة .

كان عليه أن يعلمه كيف يتكلم وينطق، ثم بعد هذا كيف يقرأ ويكتب واعتبر أنه لو حقق هذا لأصبح يمتلك تحفة معجزة يستطيع أن يفرج عليها خلانه وأصدقائه، وأن يمنحهم ويمنح نفسه بهذا متعة دونها أي متعة أخرى .

كل خوفه كان أن يكبر «النص نص» بمضي الزمن ويصبح عند البلوغ مثلاً أو إذا أصبح رجلاً مجرد قزم ضئيل الحجم . ربما يكون أقصر الأقزام وأقلهم حجماً، ولكنه حتماً سيفقد أهم ميزاته . غير أن «النص نص» كفاه مثونة القلق، فلم يكن ينمو مع الأيام أو يزداد

حجمه أو حتى تتغير ملامحه، بل إنه حين قارب سن الرجولة لم يحدث له أدنى تغيير سوى أن لحية نبتت له فجأة، لحية فيها بالضبط عشر شعرات ما كان أسعد السلطان وهو يخلقها له بنفسه، أو وهو يجتث منها خمس شعرات ويترك خمساً لتنمر وتكون ذقناً بديعة صغيرة كذقون العلماء.

وتعلم «النص نص» النطق فأصبح يحسن استخدام الجهاز الترانزستور الذي كان يضحخ صوته ويجعله مسموعاً، وفي نفس الوقت يقوم بمهمة الأذن له بحيث يخفف من موجات الصوت ويهذبها كي تصل إلى أذنه الدقيقة وتصبح في متناول سمعه.

بهذا الاتصال الذي تم مع «النص نص» أمكن للسلطان أن يعلمه القراءة والكتابة وأن يبدأ معه سلم المعرفة الطويل. وفيما عدا ساعتين كان يقضيهما «النص نص» في تناول الافطار والتريض رياضة عنيفة، يسير في أنثائهما فوق المسطرة القدم من أولها إلى آخرها ويقطعها في رقم قياسي لا يتعدى نصف ساعة، أو يزاول العوم لمدة ساعة وأكثر في كوب الماء، ويستطيع أن يدور حول محيطه ثلاث مرات وأحياناً أربع مرات.

فيما عدا هذا كان كل وقت «النص نص» متروكاً للدراسة والتحصيل. . . وقد أتاح له السلطان أساتذة كباراً مما جعله ينتهي من المرحلة الابتدائية وهو لم يبلغ الخامسة. وفي العاشرة انتهى من الدراسة الثانوية واستعد لدخول الجامعة. . . هنا فقط بدأت امكانيات

«النص نص» المعجزة تظهر، فقد وجد أن منهج كلية العلوم التي اختارها ليدرسها أقل بكثير من أن يستغرق كل وقته، بل إن الطب والعلوم والزراعة معاً كانت أقل من وقته فأخذ بجوارها الآداب والقانون والفنون. وفي السنة الثانية مثلاً نجح في تشريح ثانية طب وميكانيكا ثانية ميكانيكا وكهرباء ومدني ثانية كهرباء ومدني، وكل القوانين المقررة على ثانية حقوق، وفي البكالوريوس قدم في جميع بكالوريوسات الجامعة وليسانساتها. . وبتفوق نجح فيها جميعاً حتى أن خطابات التعيين جاءت له ليعين معيداً في أربع عشرة كلية في وقت واحد. وحين ذهب فرحاً ليتسلم مهام أول مناصبه بدأت أشباح مأساته تتراءى، إذ لم يجد أحداً يأبه له أو يعيره اهتماماً، أو حين ينجح في إثارة اهتمامه والحديث معه ينجح في اقناعه بجدية طلبه. كان الجميع ينظرون إليه نظرتهم لا إلى إنسان دفعه حظه السيء إلى أن يكون صغير الحجم ليس إلا، وإنما باعتباره ظاهرة شاذة وكأنه حشرة قد نجحت في النطق كالآدميين.

ظاهرة تدفع إلى الاستنكار والاشمئزاز مثلما نستنكر جميعاً أن تقوم الحشرة بدور الإنسان في الوقت الذي لا نستنكر فيه مطلقاً من أي إنسان أن يقوم بدور الحشرة. وعاد مهموماً إلى ولي أمره السلطان الذي أدرك كل شيء بنظرة، والذي كان قد رتب للأمر. ومن اليوم التالي كان «النص نص» يحضر لدراسة الدكتوراه. كان قد انتوى أمراً خطيراً، أن يدرس أربع عشرة دكتوراه في نفس الوقت. وبينما كان زملاؤه يؤدون أعمالاً روتينية ويبدوون في لعن الروتين والسخط

على قوانين الاستخدام، وفي الوقت الذي كان بعض آخر منهم قد يش من كل شيء ووهب نفسه كلية التلهيس وعب ملذات الحياة عباً. نذر نفسه هو للدراسة، وفي ثلاث سنوات كان قد أكمل استعداده، ولأول مرة في تاريخ الجامعة - بل في تاريخ الجنس البشري كله - تجتمع أربع عشرة لجنة لأربع عشرة مادة مختلفة، من الرياضة العليا إلى هندسة الانتاج إلى الجراحة الخاصة لمتحن «النص نص» في نفس الوقت. ومن أجل هذا الحدث غير العادي غيرت الجامعة من نظام المناقشة وأجلست «النص نص» في منتصف الحجرة وحوله تناثرت مقاعد الممتحنين الذين لم يبد عليهم أي استنكار لحجم «النص نص» أو شكله، فالمجتمع لا يهمه شكلك وأنت تدرس أو وأنت تمتحن، إنه فقط يبدأ يدقق ويفحص ويختار حين تتقدم إليه تطلب العمل!

ولأربع عشرة ساعة راح الممتحنون وأعضاء اللجان يناقشونه، ولم يكتشفوا لدهشتهم أنه قد هضم واستوعب تماماً كل مادة من مواد الامتحان إنما اكتشفوا أكثر أنه بلغ من استيعابه للمواد أنه وصل إلى نظريات عامة جديدة تماماً في علاقة ألوان العلوم والمعارف بعضها ببعض. نظريات أوصلته إلى قوانين خطيرة تكشف شيئاً فشيئاً عن جذور المعرفة البشرية والقوانين الموضوعية للمادية وأشكالها المختلفة، بحيث أنه كان يتوصل معهم إلى القانون الأول الذي يحكم علاقات الكون كله. وتحول النقاش حينئذ من لجان متحن «النص نص»، إلى تلامذة يخرج لهم «النص نص» كنوزه ويحدثهم

عما وصل إليه وهم حيارى مدهولون، قد أدركوا فجأة ليس فقط أنهم أمام عبقرى من طراز نادر، ولكنهم اكتشفوا أنهم قضوا حياتهم عبثاً، وأن دراسة الكون كأجزاء منفصلة والإغراق في التخصص قد سلبهم القدرة على النظرة الكلية، وأن خير وسيلة للدراسة والمعرفة هو ما فعله «النص نص»، هو أن يعود العالم مرة أخرى مثلما كان الحال أيام ابن سينا وابن رشد عالماً في كل شيء ليستطيع أن يصل إلى المفتاح السحري للعلم، ذلك الذي يفتح كل باب مغلق. وأيضاً كان لا بد أن يحدث ما حدث، فرغم ما كانوا غارقين فيه من ذهول، ورغم أفواهم الفاغرة تتلقى من «النص نص» وكأنها تتلقى درس الحياة الأول، ما كادوا ينتهون من نقاشه أو بالأحرى ينتهي هو من اللقاء الدرس عليهم حتى عادوا يغرقون في المناقشات الحامية حول ما أسموه «الظاهرة النص نصية»، وهل هي معجزة فردية لا سبيل إلى الوصول إليها، أو هي أسلوب وطريقة باستطاعة أي إنسان أن يستعملها ويصل بها إلى نفس النتائج. ولما بح صوت «النص نص» وهو يحاول استخراجهم من النقاش ولفت أنظارهم مرة أخرى إليه، وهم مستغرقون في عملية انقسموا تجاهها أيضاً هل يمنحونه أربع عشرة دكتوراه منفصلة، أو يمنحونه درجة علمية جديدة يسمونها دكتوراه الدكتوراهات؟ انسل «النص نص» من وسط الجمع لا يشعر به أحد أو ينتبه إليه أحد أو يولييه اهتمامه، انسل وحيداً، مهموم القلب وقد عاد مرة أخرى إلى مواجهة واقعه الحزين وحظه السيء، وعاد إلى بيته ليفاجأ بالمأتم قائماً ومنصوباً. كان ولي أمره السلطان

قد مات، وكان منذ الغد عليه أن يرحل. ورحل لا يمت إلى أحد ولا يستطيع حتى أن يمت إلى مكان، فلا صاحب بيت يرضى أن يؤجر له بيتاً، ولا مدير فندق يرضى أن ينزله بفندقه، نفس الاندهاش والتقزز تمتلئ به نفس من يخاطبه ويتفرج عليه برهة ثم لا يلبث - كالطفل حين ينتهي من لعبته - أن ينفض منه يده ولا يعود يأبه له أو لتوسلاته.

نفس الأساتذة الذين كانوا يشيدون بعبقريته حين كان يلقيهم منفردين في مكاتبهم، كانوا لا يملكون له سوى هز الأكتاف وإلا بتبصيره بالعقبات التي تشل أيديهم وتمنع الواحد منهم أن يعهد إليه بعمل - أي عمل - لا كدكتور حتى أو كعالم. وإنما كإنسان تجارب عرض نفسه على أستاذ علم الأمراض كي يبقيه في قسمه، مجرد عينة علمية وظاهرة ممكن دراستها للكشف عن هرمونات النمو وأمراضه، اعتذر له الرجل قائلاً: ان قانون الجامعة لا يبيح الاحتفاظ إلا بحيوانات التجارب فقط من أمثال الفيران، والخنزير الغيني، والأرانب. ولكن القانون لا يوجد به مادة تبيح الاحتفاظ بإنسان تجارب. . لو فعلها لحاسبه ديوان المحاسبة حساباً عسيراً ولعاقبته الجامعة. حتى الصحف والتلفزيون والإذاعة حين شاعت قصته في الأوساط العليا جرى مندوبو الصحف يبحثون عنه حتى وجدوه عند أستاذ من أساتذة الجامعة، وأخذوا له عشرات الصور الفوتوغرافية، وأعطى عشرات الأحاديث، وعملوا معه أكثر من لقاء. في التلفزيون، وأمامه وعيني عينك كانوا يحضرون بعض أساتذة الطب

ليقولوا رأيهم فيه، وفي الاستديو كان حين يتكلم يحس بالدنيا كلها منصته إليه، ويبدأ يتفاعل ويفتح لهم صدره ويطلب منهم أن يجدوا له عملاً يتناسب مع مركزه العلمي ومؤهلاته، وكان ما كان يذكر حكاية العمل وحاجته إليه ويطلبون منه أن يقترح عليهم نوع العمل الذي يريده، وما يكاد يذكر كلمة مدرس أو معيد أو حتى محاضر في معمل حتى ينفجروا ضاحكين مقهقهين، مشيرين إليه وإلى حجمه، وسادرين في الضحك عليه لا بد. وكالعادة لم تستمر موجة الاهتمام به كثيراً، بعد أسبوع أو أقل فتر الحديث عنه ولم يعد ظهوره في التلفزيون حادثاً كبيراً كما كان الأمر في أوله، إلى درجة أن أحد منتجي القطاع الخاص كان أثناء موجة ازدهاره قد فكر أن ينتج عن حياته фильماً. خبر أسعد «النص نص» وأفرحه فهو على الأقل سيأخذ ما لا يقل عن شهرين أو ثلاثة من العمل والاستعداد، غير أن هذا الأمل نفسه ما لبث أن خاب حين وجد نفس المنتج أن فكرة الفيلم ممتازة هذا صحيح، ولكن المستحسن أن يقوم اسماعيل يس ببطولتها ويسمونه اسماعيل يس في الجامعة!

وبالعدول عن فكرة الفيلم وانتهاء الحديث عنه في وسائل الاعلام وجد «النص نص» نفسه بين يوم وليلة يحيا في فراغ كامل تام. وجد كل الأبواب التي كان يتخيل أنها مفتوحة على مصاريحها في انتظاره تغلق دونه الواحد وراء الآخر بلا سبب معلوم، وكأن هناك مؤامرة خفية هدفها أن يفقد عقله أو يرتكب عملاً أحمق. وكان قرر أن يرتكب هذا العمل وينتحر، فقد ضاقت به الدنيا حتى أصبحت

أضيق من «نحي» جبل المشنقة .

ولم يتطلب منه الأمر تفكيراً كثيراً، وعلى الفور شرع في اتخاذ طريقه إلى مبنى المجمع في ميدان التحرير، وعلى قدميه صعد الطوابق الكثيرة إذ هو لم يكن يستطيع أخذ الأسانسيرات أو ركوب الأوتوبيسات مخافة أن يفحصه أحدهم دون أن يحس أو يشعر. خرج إلى سطح المبنى وأشرف على حركة المرور الهائلة في الميدان.. وراجع حياته وما ينتظره عله يجد قشة أمل يتعلق بها في لحظاته الأخيرة، ولكن كان واضحاً تماماً أن قصته مع الناس قد انتهت، وأنه لم يعد بإمكانه أن يعيش بالطريقة التي يريد، كان يستطيع أن يعيش على هامش الحياة مثلما يحيا الآلاف والملايين غيره، يأكل كيفما اتفق، ويسكن كيفما اتفق، ويوجد كيفما اتفق، ولكن كنوز المعرفة التي نهل منها جعلته يرفض أي حياة أخرى إلا الحياة التي يريد. . . إلا أن يفرض على الحياة حياته، فإذا فشل في هذا الفرض كان عليه في صمت وبطولة أن يموت. وأغلق عينيه وقفز من حافة السور الصغير المقام فوق السطح، وأحس بنفسه يهوي ويهوي، وبوعيه يبهت ويبهت كأنه الشمعة تتعرض لتيار هواء قوي. حالاً ستطفىء الشمعة، ويفقد الوعي تماماً وإلى الأبد، غير أن اللحظات طالت حتى جرؤ على فتح عينيه فوجد نفسه يقترب من الأرض بسرعة فعاد يغمض عينيه، وفي اللحظات التالية بدلاً من فقدان الوعي اصطدم بالأرض ولم يتحرك من مكانه منتظراً الموت، غير أن الموت لم يأت. كل ما في الأمر أحس بالأم هائلة. آه! كيف فاته وهو العالم

الكبير أن سقوط من في وزنه لا يمكن أن يؤدي إلى وفاته أو حتى كسر عظامه؟ هذه المرة غضب . . وفي غضبته راح يبحث بسرعة عن وسيلة أخرى يقضي بها على نفسه . لم يكن أمامه إلا أن ينام فوق قضيب السكة الحديد وينتظر القضاء تحت عجلات القطار . ولكن القضاء لم يحل ، فالهواء الناتج عن القطار القادم تكفل بنفخه حتى طار من فوق القضيب واستقر كالريشة على الزلط . حتى الغرق في النيل جربه ، فوجد نفسه وفقط بحجم ما يرتديه من ملابس يطفو على سطح الماء ، ولم يفكر في خلع ملابسه مخافة أن تفشل الوسيلة فيضطر إلى أن يعيش عارياً وهو مصير لم يكن يتصوره .

تكفل فشل هذه الوسائل جميعها برد بعض التعقل إليه ، وكأن نية الموت لها حد محدود بحيث بعد محاولة أو محاولتين لا يصبح الإنسان قادراً على أن يظل متويماً الموت . وهكذا وهو طاف على سطح ماء النيل بعد فشله الثالث قرر أن يحيا ، أن يكافح ليحيا كما يريد ، وينتزع الحياة بأظافره وأسنانه ما دام الناس لا يستطيعون أن يقدموها إليه على طبق من الفضة . ولكي تقرر أن تحيا عليك أن تقرر أيضاً ماذا تفعل بحياتك . . وهكذا في نفس اللحظة كان «النص نص» قد قرر أن يحل بحياته القادمة المقبلة كل ما استعصى على البشرية حتى ذلك اليوم حله .

ونفس الشيء الذي كان يقف حائلاً بينه وبين حقه في الحياة كالآخرين ، نفس صغر حجمه توسل به كي يحيا كما يريد . الآن

بإستطاعته أن يختار أفخر مكان يريد الإقامة فيه وأحسن مكان يعمل فيه ويجرب. . واختار هيلتون ليقيم فيه، أما رقم حجرته فهو رقم أي حجرة لا يشغلها قاطن، وإن كان الفندق كله مشغولاً فهو رقم حجرة أجمل قاطنة من قاطنيه على شرط أن يصحو قبلها، مخافة أن ترفع البطانية وتكتشف شريكها في الفراش ويغنى عليها من الرعب. . أما العمل فقد اختار معامل الكليات جميعها بعد انتهاء اليوم الدراسي حيث تصبح كلها تحت أمره. والآن وقد توفر له السكن والمعمل والأدوات لم يعد أمامه إلا أن يستغل ما يحفل به عقله من كنوز المعرفة ويعمل. وكان أول موضوع اختاره وأراد أن يلقي به درساً على كل هؤلاء الذين تجاهلوه وازوروا عنه، كان الوصول إلى القمر. وبعد أبحاث لم تستغرق سوى بضعة أسابيع كان قد اكتشف الطريقة، لا لم يستعمل الصواريخ ولا الوقود، استعمل طريقة أبسط من هذا بكثير، فقد اكتشف كنه الجاذبية وأدرك أنها شحنة نوعية. . بمعنى أنك إذا استطعت أن تشحن مادة بنفس شحنة الجاذبية الأرضية فإنها تتنافس مع الأرض وتصعد إلى أعلى. وهكذا استطاع أن يشحن مركبة الفضاء الصغيرة التي صنعها في معمل الميكانيكا بكلية الهندسة بواسطة جهاز صغير مركب داخل السفينة، وبتشغيل الجهاز تنافرت المركبة مع الأرض، وبتقوية الشحنة أمكن أن يسرع بها إلى درجة أنها قطعت المسافة بين الأرض والقمر فيما لا يزيد عن الساعة. وحين اقترب من القمر أعاد شحن السفينة بنفس جاذبية القمر. وهكذا تعادلت قوة تنافرها مع القمر مع قوة اندفاعها الأولى،

وهبطت على سطح القمر بسلام . وطور بعد هذا اختراعه ليستطيع أن يسافر إلى الكواكب الأخرى . وهكذا كان يكفيه أن يشغل الجهاز بحيث يمنع عن السفينة الجاذبية الأرضية ، وفي نفس الوقت يشحنها بجاذبية مضادة لجاذبية المريخ أو الزهرة أو أي كوكب يختاره ، فإذا بجاذبية ذلك الكوكب تتفاعل مع جاذبية السفينة ، ودون حاجة إلى بوصلة أو ملاحه فضائية أو مرشد كانت السفينة تنجذب تلقائياً إلى الكوكب بقوة عظيمة ، حتى لقد استطاع أن يصل بالسرعة إلى مليون كيلومتر في الثانية وهي أضعاف سرعة الضوء . وهكذا كان يستطيع الوصول إلى القمر في نصف ثانية ، وإلى المريخ في ٢٥٠ ثانية .

وهكذا وضع قدمه على الطريق للسفر إلى العوالم الأخرى التي تفصلها عنا مئات السنوات الضوئية ، إذ هو لم يجد حياة على المريخ كما كان يتوقع . وبدراساته وتلسكوباته الرادارية أمكنه أن يكتشف أن هناك قانوناً أساسياً من قوانين الكون ، قانون التماثل ، بمعنى أن كل مجموعة نجمية توجد فيها الشمس والأقمار بنظام واحد ، بمعنى أن المجموعة الشمسية المقابلة لمجموعتنا في الكون الآخر لها هي الأخرى شمس مثل شمسنا ، وعلى نفس البعد منها يوجد مريخها وزهرتها وأيضاً على بعد ٥٣ مليون ميل منها توجد كرتها الأرضية ، وهكذا . . فالحياة لا توجد إلا في الكرة الأرضية الموجودة في المجرة المقابلة لمجرتنا ، وهي كرة تبعد عنا بحوالي ٥٢٥,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل ، ويستغرق

الإنسان في قطعها ثمانين مليون سنة ضوئية. فإذا عرفنا أن المسافة بين الشمس والأرض ٩٣ مليون ميل يقطعها الضوء في ثماني دقائق ونصف دقيقة، لأمكن أن نتصور المسافة الهائلة التي لابد تفصلنا عن زميلتنا الكرة الأرضية الأخرى، والتي من أجل الوصول إليها كان على «النص نص» أن يصل إلى جهاز يستطيع أن يولد قوة جاذبية تصل بسفينة الفضاء إلى سرعة أسرع بكثير من سرعة الضوء، وإلا لاستغرق ثلاثين مليون سنة ضوئية للوصول إليها، ونفس المدة في العودة منها. وهكذا أمكن أن يصل بجهازه إلى سرعة توازي مليون مليون مرة سرعة الضوء، وبهذا أمكنه أن يذهب إلى الكرة الأرضية المقابلة ويعود منها في بحر ٧٤ يوماً فقط، وهو شيء خارق للعادة كما ترى.

غير أن بناء هذا الجهاز كان سيستغرق وقتاً إذ هو يقوم به بمفرده دون مساعدة من أحد، ولا بد أن يصنعه متيناً قوياً مزوداً بكميات من الأوكسجين والوقود تكفي لهذه الرحلة الطويلة. ولهذا وفي انتظار أن يتم صنع مركبة فضائية واصل العمل في بحوثه الأخرى فاكشف «كورس» الأربعة عشر يوماً للوصول إلى درجة العبقرية. ذلك أنه بدراسته للإنسان وللحيوان اتضح أن الذكاء والقدرة العقلية مبعثها هرمون خاص مسئول عن تغذية وتشغيل خلايا المخ. ومع أن طاقة المخ البشري طاقة جبارة إلا أن الجزء المستخدم منها قليل جداً، ذلك أن هذا الهرمون يفرز بكمية قليلة في حين أننا لو زدنا من كميته لاستطاع العقل البشري أن يعمل أضعاف أضعاف ما يعمله الآن

ودون جهد يذكر. وهكذا بواسطة الأربع عشرة حقنة تؤخذ على مدى أربعة عشر يوماً أمكنه أن يصل بالعقل البشري إلى أن يصبح له قدرة شكسبير الشعرية والمسرحية وذكاء اينشتين وحساسية بتهوفن الموسيقية. إنه يضع الإنسان بواسطة هذا «الكورس» على أعتاب العبقرية، ولكنه لا يستطيع أن يصنع له شيئاً آخر إذ الباقي عليه هو وحده أن يقوم به وينتجه. بل إن بحوثه في هذا الاتجاه أوصلته إلى طريقة تركيب الخلية العصبية، وبالذات طريقة تركيب الأحماض الأمينية التي تكون الكروموسومات داخل نواة هذه الخلية، وهي الأحماض الأمينية المسئولة عن صنع الحياة، إذ هي تستطيع أن تحيل المواد العضوية وغير العضوية إلى مواد حية قادرة على الانقسام الذاتي والحركة. كل المشكلة أن العلماء الذين سبقوه لم يستطيعوا الوصول إلى هذا التركيب لأنهم كانوا يدرسون على «خلايا» الجسم الإنساني والحيواني، في حين أن خلايا الإنسان والحيوان مهما كثر عددها ليست سوى أجزاء من الكائن الحي، ولذلك اتخذ هو حيواناً ذا خلية واحدة ولكنها كبيرة الحجم جداً بحيث تسهل دراستها، اتخذ البيضة. . بيضة الدجاج باعتبارها وحدة حية قائمة بذاتها، وبواسطة الميكروسكوب فوق الألكتروني الذي ابتكره - وهو ميكروسكوب قادر على التكبير إلى مليون ضعف - أمكنه أن يرى جزيئات الحمض الأميني، بل أمكنه أن يرى هذه الجزيئات وهي تتكون من تلقاء نفسها وتتركب، ولم يكن عليه بعد هذا إلا أن يقلد العملية. وهكذا استطاع بواسطة محاليل من الكربوهيدرات والمواد النيتروجينية والكبريتية،

وبإمرار تيار منشط عبارة عن سيل متدفق من الأشعة فوق البنفسجية،
 أمكن لهذه المواد أن تختار النسب التي تتحد بها مكونة البروتوبلازم
 الحي ولأنها مواد معلومة الوزن، وقد أمكنه أن يعرف نسب هذه
 المواد التي دخلت في تركيب البروتوبلازم، أمكنه أن يصل إلى هذا
 اللغز المعقد ويعرف سر تركيب المادة الحية. بل أمكنه أن يخلق
 خلايا حية في كأس زجاجية، الخلية منها في حجم البيضة،
 تتفاعل بالضوء وتنجذب أو تنكماش لدى اقتراب الخطر، وقادرة على
 تغذية نفسها، بل وأن تنقسم في النهاية إلى خليتين. وكان يعتقد قبلاً
 أنه لو وصل إلى هذا الحد لتكشف له سر الحياة ولأمكنه أن يصل
 إلى تركيب كائنات أرقى بكثير من كائنات الخلية الواحدة، ولكن
 المشكلة التي واجهته جعلته يكتشف أن هناك لا بد سرّاً آخر غير
 مجرد التركيب الكيميائي، ذلك السر الذي يبدو وكأنه كامن في
 الخلية الحقيقية يجعلها لا تنقسم ولا تتكاثر وتتحرك فقط، ولكن
 يجعلها - وهذا هو أهم شيء - تتطور لتأخذ باستمرار أشكالاً أخرى.
 الخلايا التي أوجدها لها نفس تركيب الخلية الحية الكيميائي، فماذا
 إذن يجعل الخلية الحية قابلة للتطور بينما خلاياه هو خاملة لا تتطور؟
 ذلك هو السؤال. سؤال كان يبدو عويصاً إلى الدرجة التي جعلته
 يؤجل الإجابة عنه ليبتكر للبشرية بعض الأشياء التي تحتاج إليها بشدة
 مثل السرطان وعلاجه. ولكي يعالجه كان عليه أن يعرف سببه. وقد
 اكتشف السبب من نفس تجربته السابقة، إذ هناك خميرة معينة داخل
 الخلايا الحية مسئولة عن انقسام تلك الخلية وتكاثرها. حين يصل

الحجم بالخلية إلى درجة معينة، أو يصل بها العمر إلى زمن معين محدد، تعطي الخميرة الإشارة وتبدأ الخلية تنقسم. هذه الخميرة ليست مستقلة في عملها ولكنها خاضعة لاحتياجات الكائن الحي ككل، بحيث حين لا تستدعي الحاجة يستطيع الجسم أن يؤجل التكاثر والانقسام، أو يشرع به إذا استدعت الضرورة وذلك بواسطة هرمون معين، والسرطان ليس سوى تحرر خمائر الانقسام الموجودة داخل الخلايا من أثر هذا الهرمون، بحيث تبدأ تتكاثر أوتوماتيكياً دون هرمون يجرها أو يوقفها عند حدها. وعلاجه لا يتعدى تزويد الإنسان بجرعات من هذا الهرمون تعيد اخضاع الخلية للمراكز العليا واحتياجات الجسم.

وهكذا حل «النص نص» مشكلة السرطان. أما السل وبقيّة الأمراض فلم ينفق وقته في إيجاد علاج لها كل على حدة، وإنما توصل إلى معرفة نوع من المنشطات الحيوية، تلك التي تفرزها الخلية الحية إذا أشرفت على الموت قبل موتها بثوان، وكآخر سلاح لديها تطلق الخلية خميرة سماها العلماء المنشط الحيوي تقضي على كافة أعداء الجسم من ميكروبات وتنقذ المريض في آخر لحظة. استطاع «النص نص» أن يتوصل لمعرفة نوع منها قادر على الفتك بأية ميكروبات مهما بلغت قوتها، بل وبواسطة قرص واحد منها يأخذه الإنسان كل أسبوع يستطيع أن يضمن الإنسان بقاءه سليماً معافى من كل الأمراض. . حتى الأمراض الاجتماعية. وبواسطة لتر من الأنتي كابتال يوضع في كل مليون متر مكعب من ماء الشرب،

يستطيع هذا العقار أن يغير من أفكار الناس بحيث لا يعودون يطبقون الجشع الرأسمالي، ويصبحون أكثر حساسية في كل ما يتصل بالغير بحيث لا يرضون ظلمه أو الجور عليه، حتى روح الحرب والعدوان يستأصلها إذ هو يضحخ مركز الغيرية في المخ، ذلك المركز الذي تصدر منه كافة الأفعال والتصرفات الإنسانية، وتهدف إلى المحافظة على النوع من خلال المحافظة على المجموع. عكس المركز الآخر الذي يضمّر بأنتي كاييتال ويدوي، مركز المحافظة على النوع من خلال الذات. حتى السينما والتلفزيون استطاع «النص نص» أن يبتكر عدسة التصوير وعدسة العرض التي تجعل الفيلم يبدو حياً بنفس أضواء الحياة وطعمها وتجسيماتها.

وأخيراً توج «النص نص» أبحاثه في خلال بضعة شهور، بأن استطاع اكتشاف نظرية جديدة لتركيب الكون، إذ كان الناس يتصورون الكون من خلال تصورهم للجزء الذي يستطيعون رؤيته منه، أو حتى من خلال الجزء القادرين على تصور مقياسه، والتصور البشري يبدأ من تصور جزء على عشرة مليون جزء من المليمتر إلى ألف مليون سنة ضوئية، تلك هي المسطرة التي كنا نقيس بها الكون، في حين أن هذه المسطرة لو وضعت على المقاييس الحقيقية للكون لبدت وكأنك تضع مسطرة طولها قدم واحدة على المسافة بين الأرض والشمس. فهناك مقاييس نسميها أصغر بكثير من الجزء على مليون جزء من المليمتر، ومقاييس أكبر بكثير من الألف مليون سنة ضوئية.. أصغر إلى ما نسميه المالا نهاية وأكبر من المالا نهاية

المزعومة، في حين لا توجد المالا نهاية. والذرة ليست سوى كون كامل يشبه مجرتنا، والالكترون الموجود في الذرة ليست سوى كرة أرضية بأكملها، وداخل هذا الالكترون توجد مجموعة الكترونية عبارة عن نواة وحولها أجسام تدور وكل جسم منها عبارة عن فلك كامل، وهكذا إلى أن تصل إلى دقائق تنجذب إلى بعضها البعض بسرعة فائقة حتى تصل إلى الحد الأدنى من القرب، وحينئذ تبدأ تتنافر وتتباعد. وهذا هو نبض الكون، إذ نفس هذا النبض يحدث وبنفس السرعة للأكون الكبيرة التي تتجاذب إلى الحد الأدنى من المسافة، لتعود تتنافر وتفقد تكوينها مكونة السديم الذي يبدأ يصنع منه التجاذب الأصغر فالأكبر فالأكبر حتى تتكون المجرات والأفلاك ويحدث التجاذب من جديد. سرعة نبض الكون ثابتة ولا يوجد أكبر أو أصغر، فطريق التقائه ليس سوى تجمع لذرات نراها نحن من داخلها في حين أنها من الخارج قد تكون جزءاً من مادة، أو حتى جزءاً من جزئيء داخل في تكوين كائن حي من الصعب تصور حجمه. القانون الواحد الذي يحكم هذا الكون كله هو قانون التجاذب للتنافر أو التنافر للتجاذب، على أساسه يمكن تفسير كل شيء، حتى تفسير نشأة الحياة وتعدد الأنواع. فالجزيئات تظل تتجمع وتكبر إلى أن تصل إلى الحد الأعلى، فتتنافر وتنقسم وتتحدد مكوناتها الجديدة مكونة أنواعاً أخرى من الجزيئات حتى يؤدي التجميع إلى الانقسام. وإعادة التكوين إلى جزئيء الحمض الأميني الذي يتجمع على هيئة خلية واحدة تظل تنمو إلى الحد الأعلى، ثم

تنقسم ليحدث بين مكوناتها المنقسمة وبين مكونات خلية أخرى مختلفة معها قليلاً نوع من التزاوج، يؤدي إلى ظهور الحيوان عديد الخلايا. ويتكرر العملية تتعدد الأنواع حتى تصل إلى القرد والإنسان الذي يتطور بعد هذا بسبب تطور العلاقات الاجتماعية التي تحكم الصلة بين أفرادها.

وعشرات غيرها من الاكتشافات والاختراعات. . حتى انه اكتشف فيما اكتشف دواء لمعالجة الدمم الخربة لأصحاب البيوت، بحيث ان ملعقة منه قبل توقيع العقد تستطيع أن تجعل صاحب البيت يتنازل بمطلق إرادته عن جميع الشروط الواردة بالعقد، وكلها للأسف حقوق لصاحب البيت لدى المستأجر.

وأن يعمل ويكتشف كان مسألة سهلة كان باستطاعته أن يصل إلى ما هو أخطر، وأن يكتشف أشياء أهم بكثير من تلك، ولكن المشكلة التي كانت تؤرقه أنه لم يكن يستطيع أن يفعل بهذه الاكتشافات شيئاً. كان يحملها ويذهب بها إلى أصحاب الشركات وأساتذة الجامعة والمسؤولين فينظرون إليه نفس نظرتهم إلى حيوان غريب ويضحكون. وأحياناً يقبضون عليه ويحملونه في جيوبهم ليفرجوا عليه زوجاتهم ويجعلوا الأولاد يلهون به بعض الوقت. وذان يوم ضاق به أحدهم إلى الدرجة التي أمسكه وقذف به من النافذة فسقط فوق رأس فلاح ما كاد يراه حتى استبشر وقال: ياما أنت كريم يا رب، وأخذه إلى بيته في القرية وأبقاه محبوساً ستة أشهر حتى يحين موعد القطن كفال حسن. وحين لم يزد المحصول كما

كان يتوقع أقسم أن يطعمه لحماره، ولم ينقذه في اللحظة الأخيرة إلا زوجته حين راحت تستحلفه أن يبقيه لكي يجلب لأختها العاقر الحمل. وبالتأكيد لم يستطع أن يجلب شيئاً ولكنه أفلح في الهرب ووصل إلى حيث المعمل ومركبة الفضاء التي كانت قد تمت، وبغيط أدار الجهاز، وبعد سبعة وثلاثين يوماً كان في الكرة الأرضية المقابلة. وحين هبط فوجيء بأعظم وأروع فرحة في حياته، فقد وجد الناس هناك في مثل حجمه، ورحبوا به وطافوا به أنحاء الكرة وممالكها باعتباره «إنسان الأرض» الذي ترقبوه طويلاً، ولأنهم كانوا يمرون بنفس الطور الحضاري الذي تمر به كرتنا الأرضية فقد زودهم باكتشافاته التي طبقوها في الحال وجعلت من حياتهم جنة، فأقاموا له التماثيل، وكاد قسم كبير من سكان تلك الأرض يقدسونه ويعبدونه من دون الله سبحانه. ولكنه كان في شغل عن التكريم والتقديس والعبادة بالشوق الغريزي الشديد الذي كان يحسه لكرتنا الأرضية وقاهرته، ومصر، شوق جعله يكتشف قانوناً آخر من قوانين الكون وهو أن المادة الحية تحن إلى المواد الخام المخلوقة منها، وهكذا يحن الإنسان إلى مسقط رأسه، ويحن الجزء من الشيء إذا انفصل عنه للجزء الأكبر، حتى سفينة الفضاء تحن إلى المعمل الذي صنعت فيه. وهكذا جاء عليه اليوم الذي لم يعد يطيق وتحايل حتى وصل إلى سفينة الفضاء؛ وبكل ما يهزه من شوق شغل الجهاز، وما أروعها من أرض كروية وما يغطيها من سحبات تلك التي طالعت في صباح اليوم السابع والثلاثين! ما أروعها من شريط رفيع ينحني ويتهادى

وبرفق يصب في بحره الأبيض! ما أروع مصر التي هبط في صحرائها حيث غادر المركبة قرب أهراماتها، وما لبث أن ضاع في زحمة مدينتها يقيم حيثما اتفق ويأكل وينام كيفما اتفق، وسعاده كلها أنه يحيا على الأرض. . أرضه حتى لو كان قد تخلق عن كل طموحه.

الشيء الذي لم يحسب له «النص نص» حساباً قط هو أن يستخدم أهل الأرض المقابلة معلوماته التي أعطاها لهم إلى درجة أن يصنعوا مراكب فضاء مثل مركبة فضائه، وأن يفاجأ أهل الأرض ذات يوم بسرب من هذه المركبات وقد ظهر يحوم حول مدن الكرة الأرضية الكبرى ويرقب الحياة التي تموج فيها. . ولا تحدث عن الحمى التي اجتاحت الدنيا لهذا الحادث الخطير ولا عن الصحافة والإذاعة والتلفزيون - خاصة في أمريكا - وقد خرجت تتحدث عن غزو الأرض وتطلب من حكوماتها إخراج ما لديها من قنابل ذرية وإيدروجينية لاستعمالها ضد الغزاة «تماماً نفس العقلية التي كانت تصنع أفلام الفضاء»، ولكن قبل أن يحدث شيء من هذا كان سرب المركبات قد هبط فوق جبال سويسرا وخرج منه سكان الأرض الثانية في حجم عقلة الأصبع، يستعملون أجهزة الترانزستور في تضخيم أصواتهم إلى الآخرين وفي استقبال أصوات الآخرين، واندفعت إلى سويسرا جموع هائلة من الصحفيين والمخبرين ومحبي الاستطلاع يريدون الوقوف على أسرار تلك الحضارة الراقية التي غزت الفضاء بمثل ذلك الإعجاز وغزت الأرض. . وكانت المفاجأة المذهلة حين ذكر رجال الفضاء هؤلاء أن سفن الفضاء تلك ليست من ابتكارهم إنما

هي من ابتكار واحد من أهل الأرض اسمه «النص نص» من بلد اسمها مصر، كان قد زارهم في مركبة مماثلة منذ عام مضى وزودهم بمعلومات هائلة عن المادة والحياة والأحياء من ضمنها هذا الجهاز الذي أمكنهم به أن يتغلبوا على جاذبية أرضهم وأن يسافروا بتلك السرعة المخارقة في الفضاء حتى يتمكنوا من الوصول إلى بنت عمته الأرض.

وهكذا في أقل من ساعة كان الناس قد فقدوا الاهتمام بأهل الكوكب الآخر كلية حتى لم ينتظر أحدهم ليودعهم وهم في الطريق مرة أخرى إلى كرتهم، واندفعوا في أعداد هائلة يحجزون الأمكنة في الطائرات إلى القاهرة حتى اضطرت شركات الطيران إلى تحويل خطوطها جميعاً إلى القاهرة.

ولم ينتظر المصريون وصولهم، فهم منذ اعلان تلك الأنباء وجموعهم في حالة بحث دائب عن «النص نص». ولأول مرة يعترف أساتذة الجامعة الذين امتحنوه، ولأول مرة يذكره أولئك الذين ذهب يطلب منهم العمل وهزءوا به، والجميع من سائل إلى مستول قد ركبته حمى البحث، والكل يحاول أن يتبع الخيط، وكل خيط ما يكاد ينمو وينمو معه الأمل حتى ينقطع فجأة وعلى غير انتظار - حتى الفلاح الذي احتفظ به كفال حسن وقصته معه - ثبت خيط تتبعه الناس إلى أخت زوجته العاقر ثم انقطع تماماً. ولكن كان لا بد أن تنتهي مرحلة الفوضى التلقائية تلك، فالأمر جد خطير للعالم كله، ولا بد من العثور على «النص نص» ومن الشرق والغرب جاء خبراء

البحث والتقصي، وأعيد استجواب كل من سبق وكان له «بالنص نص» أي اتصال لمعرفة الأماكن التي يحبها، أو أين كان يمضي وقته، حتى خدم السلطان الذين أصبحوا مرشدين سياحيين في قصره الذي تحول إلى متحف استجوبوهم بدقة، وكانت النتائج دائماً مخيبة للآمال. فقد بدا أن باستطاعته أن يوجد ويعيش في أي مكان بالقاهرة أو غيرها من المدن، في أي اثني ستمتر مكعب يمكنه أن يبقى إلى الأبد مختفياً. النتيجة الإيجابية الوحيدة التي خرج بها الخبراء المحليون والعالميون من بحثهم واستقصائهم أنه قال ذات مرة: انه يحب أن يمشي على بلاج الاسكندرية، خاصة في الشتاء. وإلى هذا البلاج تحول البحث كله، ليس فقط بحث الأجهزة والاختصاصيين وإنما بحث الناس العاديين. ناس.. آلاف الناس المزدحمة صيفاً وشتاء لا يطلبون أسرار قوانين الكون والحركة والجاذبية، وإنما يطلبون أشياء تبدو أسهل بكثير.. الأصلع يريد دواء ينبت له الشعر، والآخر الذي يريد القضاء على الشيب، والسيدة العاقر التي تنام وتحلم بالولد، والمقطوع الساق والأعمى والأعور، والأبرص والذي به داء استعصى على الشفاء.. جيوش لمرضى من أيام موسى وعيسى. ومحصول النوايا.. القاهرة التي تفيض بها أضرحة المشايخ وأهل البيت، ورسائل المحبين إليهم بعدد سكان الأرض وسكان مصر، لكل كونه المفقود الذي يبغى العشر عليه، عالمه الطلسمي الذي يود لو عرف قوانينه، والجماعات - جماعات وأفراداً - في حالة بحث دائم، في الصيف وفي الشتاء، في الربيع وفي الخريف، إلى

أقصى ما يستطيع أن يصعر كل منهم خده ويكبش من الرمال ويغربل . . . عله هذه الكتلة، عله تحت هذه المحارة، عله في كومة حشائش البحر تلك، عله من تلقاء نفسه يظهر غداً، ومن كل صوب تنهال الاتهامات: السبب أساتذة الجامعة الذين لم يعيروهم اهتماماً، السبب البيروقراطية والبيروقراطيين الجالسين فوق المكاتب يمنعون العبقرية عن الظهور، بل كلنا مسئولون . . . هكذا كتب صحفي كبير عن الجريمة، كلنا أهملناه واحتقرنا شأنه، وها نحن اليوم نقلب الأرض بحثاً عنه . . . كلنا مسئولون .



وعن الجماعة التي اتجهنا إليها صدرت صيحة وكأنها صيحة رعب، تلتها اندفاعات وصرخات واستغاثات كأصوات الهنود الحمر حين تهجم أو فرق الصاعقة، وفجأة أيضاً وجدنا المجموعة وقد استحالت إلى كتلة بشرية منكورة، كتل متضاربة متصارعة صارخة مولولة ممزقة ممزقة. لا تحسبن أنهم عثروا عليه، فهكذا الحال دائماً. أنه واحد منهم خيل إليه أن قطعة الطين التي اصطدمت بها يده هي «النص نص»، وتسبق الآخرون ينتزعونه منه. تلك كانت آخر كلمات صديقي، ليس في ذلك اليوم فقط وإنما في كل الأيام، إذ ما لبثت الكتلة البشرية أن راحت تتضخم وقد فقد الكل عقله، ولم يكن هناك أحد ليتابع. فمنذ اللحظة الأولى يتحدد الوقت وقد كتب عليك الصراع: إما صراع من أجل الحصول على «النص نص»

المزعوم، أو صراع من أجل استخراج نفسك من كثرة البشر المتزايدة المتضخمة المهددة بفحص كل من يقربها أو تقربه. وفجأة تطلعت فلم أجد صديقي، كانت الكرة قد ابتلعت ولم أره إلا في اليوم التالي بين عشرات الجثث الممدة فوق رمال الشاطيء.

لم تكن آخر كرة بشرية تتكون أو أول كرة، فهكذا الحال دائماً وكل بضع ساعات أو أيام تحدث الصرخة التي يعقبها التدافع والتكور والفحص.

أما «النص نص» فمنذ أن عاد إلى الكرة الأرضية ووطيء بقدميه القاهرة فلم يعرف له أحد مكاناً، البحث قاد حقيقة إلى مركبة فضائه التي استعملها، أما أين وكيف يعيش الآن؟.. فذلك لغز لم يستطع أحد ولن يستطيع حله، من يدري ربما يكون هذه الكتلة البارزة من الرمل أو من التراب. ربما تحت هذه المحارة أو أسفل كومة الحشائش، ربما في جيبك أنت.. وأنت لا تدري.

٩٦١

النقطة

النداهة

القضبان الحديدية غير شاهقة العلو، كقبة عالية من الرمل والزلط والأخشاب والحديد. الشريط الحديدي طويل طويل موغل في الطول، ينتهي وراء الأفق إلى رمادية صفراء. لا تلبث أن تدكن وتدكن بحيث لو أمعنت النظر فيها وأصررت على المضي في الرؤية لاستحالت إلى سواد. شريط حديدي طويل يدخل المشهد منحنيًا انحناءة قوس عظيم وكأنه القوس الذي تفتح له لتضع داخله ثلاثة آلاف مليون إنسان، سكان الأرض بحياتهم وهمومهم وكل ما دار بخلدهم منذ أن كانوا بضع كائنات إلى أن أصبحوا آلاف الملايين، ويخرج الشريط من المشهد أيضاً منحنيًا نفس الانحناءة الخفيفة الموهلة ذات الجلال.

غير بعيد شجرة في حالة خريف دائم، أوراقها مصفرة الاخضرار، مخضرة الترابية، معلقة بغصنها برباط ما. . . واه. شجرة كلما هب الريح انتزع منها أكثر من بضع أوراق حتى لتخالها في نهاية اليوم ستقف جرداء عارية، ولكنها أبداً هكذا لا تنقص أوراقها ولا تزيد، دائمة الخريف مستمرة الاخضرار المصفرا المترب، لا ثمر

لها ولا زهر. . . ولا اسم. . . شجرة. . . ومساحة، تلك التي تكون دائرة الأفق تتسع إذا وقفت، وإذا صعدت الشريط الحديدي اتسعت أكثر، وكلما علوت اتسعت حتى لكان باستطاعتها أن تشمل - لو أمكنك العلو الكافي - الدنيا بأسرها.

المشهد صامت ساكن إلا بين كل حين وحين، حين تهب الريح هبات متقطعة غير ملموسة لا تعرف كيف تبدأ. إنما شيئاً فشيئاً تسمع الأوراق وهي توشوش في خفوت ثم وهي تثز ويستطيل الأزيز. وتتطاير بضع أوراق ومن فوق الأرض يشور بعض الغبار حاملاً معه عيداناً ماهرة من قش أرز قديم، ثم يسكن الصوت والحركة إلا من اختلاجة أخيرة لورقة، ثم يثوب كل شيء إلى صمت. . . صمت غير داكن ولكنه في نفس الوقت غير مضيء. صمت هو بالتأكيد كالضوء في المشهد إذ الشمس غير موجودة والنور غير مباشر وقليل، ولكنه مستمر على نفس الدرجة لا يشتد أو يخف ولا حتى تعثره هزات الحركة، إنما هو كالشريط الحديدي الطويل سادر في وجوده وشموله واستمراره، ضوء كضوء عصر ضيق مترب، يومه التالي يوم القيامة. وأنا موجود داخل المشهد لا أعرف مكاني على وجه الدقة. ولكنني أرى المشهد بزاوية ما، ومهما غيرت من وقفتي أو اتجاهي فأظل أرى المشهد من نفس الزاوية.

إنني في انتظار القطار القادم مع أن المكان ليس بمحطة، واحساس طاغ كبير أنني لا أنتظر القطار لأركبه، إنما فقط أنتظره بالضبط. أنتظر اللحظة التي فجأة - تماماً لا بد أن تكون فجأة - تظهر

رأس القطار من كرة الأفق، سوداء فلتكن ولكن لا بد أن تظهر. . تنبثق فجأة فيدق قلبي هلعاً أو رعباً أو فرحاً، وأوجد وأعيش. أشعر أنني لأول مرة آخذ نفسي. . الشهيق. . وأني حي. . وأني بدأت أعني بالوجود. غير مهم بعد هذا أن تستحيل النقطة المفاجئة إلى شرطة، والشرطة إلى خط، والخط إلى جسد القطار الطويل تتوجه سحابة الدخان المتعمدة المتصلة، غير مهم أن يقترب أكثر وأكثر وأن يصبح أمامي. . غير مهم أي شيء، المهم هو ذلك الظهور المفاجيء المروع للنقطة.

أنا لا أنتظر، فالإنسان لا ينتظر إلا شيئاً يتوقعه أو واثق من حدوثه أو حتى علم أو أخبره أحد أنه لا محالة واقع. أنا رأيت قبلاً قطاراً يمر ولا البقعة محطة ولا أنا مسافر، ولا شيء على الإطلاق. . على الإطلاق لا علاقة بيني وبين القطار إلا علاقة أنني أرى قضباناً، وما دام هناك قضبان فلا بد أن يكون هناك قطار، حتى لو كانت القضبان تلك التي أراها صدئة صدأ سميكا استحال من طبقة إلى قشرة. ولكن رغم كل الصدا فمن المؤكد أن قطاراً بل لا بد قطارات مرت فوقها. لا بد قطارات مرت من هنا. وإلا فإيم القضبان؟ أتكون خطأ فرعياً أقامته السكة الحديد ونسيت أمره؟ أتكون خطأ حديدياً أقامه الحلفاء في أثناء الحرب وضاع من الخريطة؟ فلتكن أي شيء فالمشهد مستمر وأنا موجود داخله. أرى مهمات سرت أو غيرت موضعي بزاوية، والنور غير مباشر وداكن، والشريط طويل محني بجلال، طويل. . والشجرة قائمة خريفية كأنها نبتت من بذرة

خريف، وبين كل حين وحين وبلا بداية أو نهاية محسوسة تهب قبضة الهواء فتتحرك الورق في الشجر، وقش الأرز المترب في الأرض، ثم الاختلاجة الأخيرة لورقة شجرة أو عود قش، ثم الصمت المستمر الساكن.

المشهد. مستمر، والأشياء فيه تتعاقب باستمرار، وحتى كم الحزن الموضوع بطريقة ما في صدري لا يتغير هو الآخر حجمه، ولا تشتد أو تخفت وطأته. حزن لا بد جاء من المشهد إذ تحس لا بد أنه مشهد نهاية ما، نهاية العالم، نهاية الحياة على الأرض، نهاية الفرح أو الأمل، ربما حتى نهاية الأحزان. ولكنه بالتأكيد نهاية، نهاية حقيقية كنهايات العلم حيث لا نهاية، إنما النهاية خيط متصل من الشيء ذاته، من السكون ذاته، من الشريط ذاته، من الضوء ذاته، من الخريف المشجر ذاته، من هبات الهواء ذاتها، من الترقب ذاته.

المشهد دائم ومستمر، واحساسى به دائم ومستمر، وحزن النهاية - ولو كانت نهاية الحزن - دائم ومستمر. لا أذكر كيف بدأ ولا أين أو متى؟ وجدت فيه لكأني وعيت أو حتى ولدت داخله، وسأظل فيه إلى أن تنتهي حياته. كل شيء فيه هو هو لا يتغير أبداً، لا يزيد، لا ينقص، لا ينتهي، لا يبدأ. بل حتى تلك النبضة المتباعدة التي بين النبضة فيها والنبضة التالية مسافة أو زمن كأنه ألف عام، حتى لو كانت تتم في ثانية فهي ثانية طولها ألف عام، نبضة ضعيفة واهنة كالاختلاجة الأولى لجنين القلب داخل قلب الجنين حين دق لأول

مرة، خافثة واهنة ندق على استحياء شديد وبغربة زائدة. دق مذعور يكاد الذعر يسكت نبضه ودق قلبه. نبضة خاطر، إذ فجأة تنبثق النقطة بادئة هناك من لا نهاية الشريط، فجأة أحرق وأجدها، وغير مهم أبداً ما يحدث بعد هذا أو يكون.

المشهد والاحساس والحزن وحتى النبضة مستمرة الحدوث، وأنا فيما عدا هذا غير حزين أو خجلان أو نائم أو مستيقظ. أنا أنا، هكذا أيضاً. . باستمرار طويل لا ملل فيه ولا تبرم ولا تغير مطلقاً في الزمان أو المكان أو درجة الوعي. كل ما في الأمر أنني لدي كل نبضة خاطر، قبلها بقليل وكأنما قبل الحدث الكوني الهائل. . وأثناءها. . وبعدها أحس بقلبي أنا. . قلبي الحقيقي يدق في انفعال حي، انفعال خافت مبهور ولكنه حقيقي وملموس. بالضبط قبل وأثناء وبعد الخطر يكاد جسدي كله يرتعش، وتكاد صرخة تنطلق مني هاتفة: أنا حي. وكأنها اكتشاف، ومع أنها هي الأخرى مستمرة ودائمة ولا تتغير إلا أن فرحتي بها لم تفقد أبداً، حتى لو كان المشهد قد بدا مع بداية الخليقة واستمر إلى نهايتها لم تفقد أبداً طعمها، بل هي لحظتها فقط، تلك اللحظة المتباعدة التي كان بينها وبين التالية أو اللاحقة لها ألف عام لحظتها فقط، هي كل ما يربطني بالحياة.

أجل! أحرق فجأة فألمح، هكذا بمعجزة، النقطة. وغير مهم بعد هذا أن تصبح النقطة شرطة والشرطة خطأ طويلاً لا نهاية لطوله. أبداً غير مهم.

٩٦٩

العملية الكبرى

النداهة

- ١ -

ما كن أصعب أيامها - وبالذات لحظتها - أن يشك . بل هو لا يزال لا يعرف كيف ، كالبخار المتكاثف ، بدأت تتجمع السحب . فالمهمة على غرابتها الشديدة بدت أول الأمر مجرد مهمة أخرى من المهام الكثيرة التي كان يوكل إليه بها . كل ما في الأمر أنها طريفة وعلى وجه الدقة مثيرة لعجب طريف لا بد تمط له شفتيك أو نهز كتفيك . فمع انتهاء العملية الكبرى ، والجميع في قليل من الوجوم يتهيؤون للانصراف ، جاءه الأمر من الأستاذ الكبير أن يبقى بجوارها حتى تموت . ولأن لا طبيب بلا ممرضة فقد ترقب همسة «الأخت تريزا» التي ستحدد الاسم ، وما كاد يسمع «انشراح» التي نطقتها «انشراح» حتى وجم وكاد يغضب ويدفعه لطلب آخر . ثم رن في أذنه المثل «خسرانة خسرانة» ، وأصبح مناسباً جداً في نظره أن تكون «انشراح» بالذات هي شريكته في انتظار الموت .

وحين «صفصفت» الحجرة عليهما ولم يعد هناك إلا هو وهي والموت الرابض على صدر السيدة ، بدأت المهمة تتحول من روتين

إلى نوع من الواجب الثقيل. لو كانت شريكته في انتظار النهاية ناهد مثلاً أو سهير أو مديحة أو حتى كاميليا لانقلب الواجب إلى متعة، أما المتوحشة البراوية «انشرح»، الغاضبة أبداً، المتممرة تكاد «تخانق ذباب وجهها»، فأبي أمل له في بعد ظهر هاديء حتى؟

بعد ظهر كان قد بدأ من زمن، وقفزات عقرب الدقائق في الساعة التي تتوسط الحائط من احساسك ببطئها تبدو كل مرة كما لو كانت تفاجئك بحدوثها. بعد ظهر أصبح خوفه أن يطول ويطول حتى ليصل الظهر بالمساء، ومن يدري ربما بالليل أيضاً؟ وما دامت ميتة ميتة فلماذا هذا العذاب كله؟ وما دامت هذه الأنفاس المأخوذة على هيئة شهقات - مفاجئة أيضاً كقفزات العقرب - خارجة بسرعة كالزفرة. ما دام هذا هو تنفس «طلوع الروح» فما الداعي لعذابها باستمراره واستمراره؟ ما الداعي «يا ست انشرح» بلا أي «انشرح»، العاقدة ملامحك وكأن المسجاة هي السيدة والدتك، المنكبة حضرتك على ابر التريكو بأصابعك القمحية الرفيعة الطويلة كإبر التريكو تنجسين بداية «البلوفر» التي لم تزد رغم آلاف الغرز مساحتها، وكأنما حضرتها - لتغيظه - تنسج غرزة وتفك غرزة؟ ما الداعي؟..

لوانفتت إليه لحظتها أو رفعت رأسها لكان - ودون نظر لأي اعتبار - قد بدأ الشجار، ذلك أن غيظه بعد انتظار دام إلى الآن ساعتين وبضع دقائق كان قد بدأ، وهو على وجه التأكيد ليس غيظه. فأبي شيء كان يمت إلى الجراحة من قريب أو بعيد مهما تقبله الآخرون بضيق أو تبرم، ما كان ليأخذه هو إلا كآلام الحب لها نفس

مذاق المتعة . الغيظ إذن غيظ وافد لا يزال لا يدري مصدره . . غيظ يبدأ عند وجه « انشراح » الجميل حتى في تنمره ، ليتزايد كلما انتقل بعده إلى مجال آخر ، وكلما اصطدمت عيناه أو اصطدمت حواسه بشيء من آلاف الأشياء التي تحفل بها الحجرة .

بدايات غيظ جعلت روحه بالتدريج تنسحب من اندماجها التام في دورها الجراحي المحبب ، ومن اختلاطها الكامل بكل شيء تحفل به حجرة العمليات - مهبط الوحي عنده وقدر الأقداس - لتبدأ تتخذ موقفاً محايداً وتعود ترى وكأنها لأول مرة ترى ، ولتبدأ دهشة كدهشة الإفاقة من حلم تعتريه . لا ليست هذه حجرة العمليات أبداً . أنها مكان مرعب كئيب لم يره من قبل . فأي معركة شيطانية دارت ولا تزال آثارها طازجة . لا يزال الدم أحمر لم يغمق لونه بعد - دم واصل حتى السقف الأبيض راسماً خطوطاً متقاطعة ومتقاربة ومتفرقة . . خطوطاً مكونة من مئات النقاط رسمها لا بد دم تفجر تحت ضغط شديد . انفجارات دموية كثيرة لا بد دارت هنا . . إلى أعلى وإلى الجوانب ترسم على جدران الحجرة الأربعة ، وفي كميات تملأ زجاج الشفاط وتكون بقعاً كبيرة تلتطخ المرايل والبلاطي البيض الملقاة هنا وهناك . دم يلوث كل مكان حتى الأحذية المطاطية ذات الرقبة ، حتى الأرض الكاوتشوك ، بل لم يسلم منه أيضاً زجاج الأضواء الكاشفة البراق والمصفر .

دم كثير من المحال أن تعتقد أن هذه السيدة النحيفة الراقدة يحفل وجهها بسلام كسلام أطفال نائمين . . مصدره . ولكنها بلا شك

كانت المصدر الوحيد، والواضح أنها الطرف المغلوب .
أ يكون الغيظ الذي يعتريه الآن غيظاً حقيقياً؟

أ يكون ما يراه الآن خدعة أو بداية، أو بالأصح بداية شعور أنه
ضحية خدعة شيطانية من المحتم لو صحت أن يفقد لها أثبت العقول
وأصلبها الصواب؟

أخذت السيدة شهقة . . قبل أن تكتمل ركبت فوقها شهقة
أخرى، وكانت النتيجة شهيق طويل جداً اضطربت له جفونها
المسدلة حتى كادت تفتح، وحتى تصور أنه في الشهيق التالي حتماً
سيعود إليها الوعي، ومن يدري؟ ربما تحدث المعجزة الكاملة وتعود
للحياة.

ولكن رغم دقة القلب العالية الزائدة التي دوت في صدره
انفعالاً. فقد بدأ السؤال يلح من جديد: أ يكون قد خدع الخديعة يا
تري؟

- ٢ -

ويحدث هذا أين؟ . . في نفس حجرة العمليات التي شهدت
منذ بضعة شهور أعظم لحظات حياته، اللحظة التي وعى فيها لأول مرة
بالحياة . . حياته، وأدرك عن يقين لماذا يريد أن يعيش .

لقد بدأت مشكلته بعد أن تخرج وأصبح طبيباً، واستهلك في
بضعة أسابيع كل متع الفرحة بالتخرج والاحساس الغامر الجميل بأنه

انطلق من عقل تلمذة طالت وعليه أن يحب من متع الحياة الصغيرة التي حرم منها طويلاً. واجهته حينذاك مشكلة ماذا يريد أن يكون؟ لقد دخل الكلية بالمجموع وواصل الدراسة ونجح بالرغبة الغريزية في التفوق على أقرانه، وها هو ذا الآن بعد التخرج يستعرض أمام عينيه كل فروع الطب فلا يجد في نفسه مثقال رغبة في أي منها. بل انه حتى بعد أن تخرج وأصبح يزاول المهنة لا يجد في نفسه أي رغبة فيها أصلاً. وكاد يصبح الأمر كارثة، فإنها لمهزلة أن تبدأ بعد وصولك إلى هدف ما قضيت في الوصول إليه أعواماً طويلاً، أن تكتشف أنه ليس هدفك، وأن عليك أن تبحث عن آخر.

ولقد ظل هذا يحدث وهمّ البحث يورقه، حتى انتقل إلى العمل بقسم الجراحة. حين دخل ذات صباح باكراً هذه الحجرة، ومر بالطقوس المعتادة من ارتداء ملابس العمليات والاغتسال والتعقيم وإحاطة رأسه ونصف وجهه بالقناع الأبيض المشهور، هنا حيث رأى أستاذ الجراحة الكبير لا يصف الدواء ويترك. للعمليات الغامضة في الجسم أن تعمل عملها وتشفى، وإنما بأصابعه الطويلة الحادة القوية يقطع ويصل ويستأصل ويعيد التشكيل. هنا حيث بإرادتك أنت وحدك وبقدرتك يتم الشفاء. يدخل المريض يتلوى من شدة الألم أو من اليأس، وبعد ساعة يخرج وقد شفي تماماً وانتهى ألمه. هنا حيث يختلط دور الجراح بدور الساحر القديم، والعلم يصبح حرفة ترتفع إلى مصاف الفن، والعملية السحرية كلها تدور في ذلك المكان البالغ النظافة، الشاحب الضوء، المعقم... بصمته القدسي الكلمات

في تتحول إلى همسات تختلط بالفحيح الصادر من أجهزة التعقيم، وتنسجم مع الحركة الصوتية المتتابعة لتنفس المريض من خلال جهاز التخدير. بالسكون المضمخ بروائح اليوسول واليود والأثير، السكون الحي النابض بدق القلب وهو يتحول إلى إشارات موسيقية ضوئية. . السكون الذي يتنفس تنفساً خاشعاً منتظماً. هنا اكتشف الجراحة كعلم وكسحر، واكتشف أن ها هنا يوجد أمله ومن الآن سيصير هدفه من الحياة.

وكان طبيعياً وقد اكتشف الهدف أن تأخذ السعادة عنده شكل الهوس. . حيث لا يعود يأكل أو يستريح أو يحلم إلا وهو يقوم بشيء من أجل عمله الذي أصبح حبه الأكبر. سماه زملاؤه مجنون الجراحة، وكانوا يغيظونه بقولهم إنه إنما يتفانى ليرضي الأستاذ وليتكتك لينال وظيفة «نائب الجراحة» حين تخلو، مع أنه يعلم وهم جميعاً يعلمون ألا أمل له في هذه الوظيفة إذ أن درجاته لا تؤهله. ولكنهم معذورون فالعمل عندهم مرتبط بالمصلحة، ومن المحال أن يستطيعوا هضم أن يعمل الإنسان لأجل متعة العمل نفسها.

ولقد كان يعمل ويتفانى بلا كلمة تشجيع واحدة، وحتى وهو يدرك أن رئيسه النائب. ينسب معظم الأعمال أمام الأستاذ لنفسه. فماذا يهمه أن يعرف الأستاذ اجتهاده؟ إنه لم يكن يعمل ليرضيه بل ليرضي ذلك الشيء المركب فيه الذي لا يرضى أبداً نفسه.

بل بدلاً من التشجيع كان بالضرورة يناله كمّ غير قليل من شتائم الأستاذ الدكتور أدهم أستاذ الجراحة. . وليس هذا رئيس القسم

فقط، إنه كبير أساتذة الجراحة في المستشفى كله. والجراح في المستشفى يحتل مكانة لا يحتلها زميله طبيب الأمراض الباطنية أو طبيب الأطفال مثلاً. إنه له بجانب العلم مكانة دنيوية، فهو ليس عالماً فقط ولكنه عالم يزاوِل العلم أمامك. . وأمامك يحيي ويميت. ولأن المهنة هي التي تفرض الخلق والتصرف فعند الجراح أسهل الطرق البتر، وأي كلام ليس له فاعلية المشروط وحسمه هذر فارغ لا يقال، وما دامت إرادته هي نفسها الدواء فإحساسه بنفسه يتعاضد، وكلمته مهما تكن أمر واجب النفاذ. وليس صدفة أنهم يسمون حجرة العمليات بمسرح العمليات، فالجراح في هذا المسرح هو الإرادة الكبرى والعقل المفكر، والحاضرون جميعاً من بشر أو أجهزة أو عقاقير ليسوا سوى أدوات في يد تلك الإرادة تصنع بهم الشفاء. ولأن إحساس الآخرين عند الجراح غير مهم، إذ المهنة تحتم عليه أن يلقي شعوره بإحساسهم إذ هو لو شعر أن جرحه يؤلم لارتعشت يده ولربما نفق مريضه، ولهذا هو أيضاً لا يهتم بوقع كلماته عند الآخرين حتى لو جاءت شتائم ولعنات. . فمُسؤوليته الخطيرة أن تنجح العملية، وملعون أية حركة أو خطأ يحول دون هذا النجاح.

كانت شهرة الأستاذ أدهم إذن كرئيس لا يرحم تكاد تعادل شهرته كأستاذ جراحة ممتاز، ولأن أطباء الامتياز يحتلون أدنى مرتبة في سلم المستشفى الطبقي فنصيبهم من شتائمه ولكزاته وافر، ومعاملته لهم أسوأ بكثير من معاملته للممرضات أو التمورجية. وويل لمن يفكر في الاحتجاج أو الذود عن كرامته فمعنى هذا نهايته، فهو لا يجرد عداوته

أو غضب رئيس القسم فقط، ولكن الدكتور أدهم كان أيضاً كبير الأساتذة والقائم بعمل عميد الكلية ومستشار وزارة الصحة .

ورغم كل ذلك، ومن فرط الحب والانتماء للجراحة وكأنها المبدأ أو العقيدة التي ظل يبحث عنها، فقد راح ينظر للأستاذ أدهم باعتباره قائده لهذا المبدأ ووسيلته للوصول . وليس مثلها سعادة تلك التي يجد الإنسان مبدأه فيها وقد تجسد على هيئة قائد وعقل أكبر . وليكن الأستاذ أدهم شيطاناً مرعباً في نظر الآخرين، ولترتجف له الأوصال إذا حضر وحتى إذا غاب، ليكن! فقد وجد فيه الأستاذ الكبير والراعي والعالم، ويبدو أن الأستاذ أدهم هو الآخر قد وجد فيه نعم التلميذ، فقد راحت شتائمه إليه تقل حتى انتهت وحتى أصبح يناديه باسمه الأول وفي هذا من التكريم ما لم يحلم به أحد، وليأخذ حياته كلها بإشارة منه لو أراد فلم يعد في الحياة شيء يجلب السعادة قدر أن يتلقى عبد الرؤوف الأمر، أي أمر، وقدر أن يفني نفسه تماماً لتنفيذه، وقد أصبح رضا الأستاذ أدهم من رضا الضمير، من رضا الله، الله المتجسد بكل قواه وخيره وكماله .

- ٣ -

ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما .

ورواة الحواديت يقولون : كان فيه امرأة . . وكان فيه رجل . . ثم يحدث الحدث . . ويتساءلون : الحق على المرأة أو على الرجل ؟

ولكن لا الأقوال المقدسة، ولا الأساطير قد تعرضت بذكر للموقف الذي هو فيه، فهو الرجل صحيح، وانشراح المرأة. . ولكن ثالثهما هو الموت.

وصحيح أنهما ينتظران معاً نهاية السيدة المسجاة أمامهما، وإلى الآن وكل منهما ينتظر الموت بمفرده، فهي منكبة على ابر «الريكو» وهو منكب على خواطره وبينهما ما هو أكثر من الموت. . الحياة نفسها وكل ما سمعه أحدهما عن الآخر. وما سمعه عنها أشياء مرعبة لا تشجع أبداً، فلقد أخطأ أحد زملائه وهو يعمل معها في ظلام غرفة الأشعة مرة وحاول لمسها، وانفتح فمها لتكتسح ظلام الحجرة ومن بعدها ضجة قسم الأشعة كله وممرات المستشفى وعنابره، حتى ان المسكين لم يجرؤ على أن يرى وجهه لزملائه أو للعاملين بالمستشفى إلا بعد إجازة عشرة أيام، وكان لا يزال وجهه محمراً بالخجل حين عاد منها.

ولابد أنها هي الأخرى سمعت عن عبد الرءوف وعن انكبابه المجنون على العمل، ذلك الذي كان له تفسير واحد عند الممرضات والحكيمات والسسترات: أنه متكبر، وأنه وهو طيب الامتياز المفصوص يتخلق بأخلاق الجراحين الكبار، وبالذات يصنع كما يصنع الأستاذ أدهم، ويضرب بالشلوت أحياناً.

والحقيقة أن قولهم هذا لم يكن يخلو من الصحة، فقط لاحظ عبد الرءوف على نفسه أنه كثيراً ما يعبس، وأنه لم يضبط مرة متلبساً

بضحكة أو كلمة هزل مع طيبة أو حكيمة من التي تقال همساً في أركان المستشفى وما أكثرها من أركان. وإذا كان قد تعلم أن يعبس بوعي فما أكثر ما نضح إليه من خصال الأستاذ أدهم بغير وعي منه، ودون أن يلحظ أصبح يبدأ الجممل من نهايتها كما يفعل أستاذه، وتخرج كلماته الأولى مهمات صعبة التمييز، وبنفس طريقة أدهم يترك محدثه يتكلم ثم يفاجئه في منتصف كلامه بتحديقة فاحصة مخترقة من عينيه الواسعتين بحيث يرتج دائماً على المتحدث أو ينهار لو كان يكذب، حتى لازمة أدهم المعروفة: يا اسطى! أصبحت لازمته.

والغريب أنه قد بدأ يتكون له بهذه التصرفات نفسها، ومهما قيل في أصلها - مركز متميز بين زملائه أطباء الامتياز، وأوامره أصبحت تقابل باحترام لا يمت بصلة إلى هز الأكتاف الذي تقابل به أوامر الآخرين التي كثيراً ما تأخذ شكل الرجاء. ولكن السبب الأهم في الحقيقة هو تفانيه في العمل في وسط يتعبر فيه العمل واجباً ثقيلاً مفروضاً ولا هدف منه سوى الماهية، وما دامت مضمونة فما الداعي لوجع الرأس.

وكان يومه الأكبر - حلمه الدائم طوال أيام الأسبوع - هو يوم العمليات.

كان يصحوله من الرابعة صباحاً، ويحس بالسعادة الكبرى بكل عمل يقوم به لتجهيز المرضى للدخول إلى الغرفة المقدسة. ولا يكتفي بواجبات الطبيب إنما بنفسه يشرف على استحمام المرضى

وعلى إزالة شعورهم وعلى تجهيز أوراقهم وأشعاتهم . . . ويكفيه شبح ابتسامة رضا سريعة تلوح على وجه الأستاذ. كانت الانفعالية التي تحدث له في أعقاب هذه المكافأة التي ربما لا يلحظها أحد أروع عنده من كل الشهادات والوظائف والعلاوات .

وكان اليوم يوم العمليات، وناهيك عن العمليات الصغيرة التي ستكون من نصيبه ونصيب زملائه، والتي سيقوم بها النائب والمدرس ومساعد الأستاذ. همه كله كان موجهاً لتلك الحالة النادرة التي جاءت إلى العيادة الخارجية منذ شهرين وأبدى الأستاذ اهتماماً خاصاً بها، فلقد زاول - الأستاذ - الجراحة حتى أصبحت العيادة الخاصة تدر عليه دخلاً يكفيه مستمتعاً مدى الحياة. ولم يكن يأتي إلى المستشفى الحكومي الكبير إلا ليلتقط بين الحين والحين حالة تشبع مزاجه الخاص، كجراح أصبح لا يزاول الجراحة لشفاء الآخرين بقدر ما أصبح يزاولها لفن الجراحة نفسه، ليضيف إلى أمجاده فيها مجداً جديداً، ويصل إلى أرقام قياسية لعدد ما أجراه من عمليات. وحبذا لو استطاع أن يجري هنا في مصر عملية لم يسبقه إليها جراح آخر، ويتيه بعرض ما قام به في المؤتمرات، ويتلذذ وهو يقرأها منشورة في مجلات الجراحة في أوروبا وأمريكا. ولا أحد باستطاعته أن يستغرب هذا أو يلومه. . . فقد وصل إلى مكانة أصبح فيها هو الجراحة، وما يقوم به ليس مجرد تطبيق وإنما هو تجارب يضيف بها إلى العلم وإلى تراث البشر، ولا ضرر أن يفعل هذا لمجد ذاتي يناله، فما من فائدة للعلم أو للبشر إلا والدافع إليها متعة ذاتية .

هذه السيدة بالذات جاءت إلى العيادة بشكوى بسيطة، مجرد خذل في ساقها واحساس بالتعب السريع إذا مشت طويلاً.

ويومها أزاح الأستاذ أدهم النائب وهو يقوم بفحصها، وفي دقائق كان قد انتهى من فحصها، وكعادته نطق بالتشخيص: ورم خبيث في العمود الفقري. . وعلى وجه الدقة سرطان في الغضروف مكانه بين الفقرات الرابعة والخامسة للبطن. كان من رأيه أن الاعتماد على الفحوص والمعمل في التشخيص مسألة تحيل الجراح إلى آلة حاسبة، أما الجراح الحقيقي فهو الذي بمجرد الفحص يشخص، وإذا لجأ إلى المعمل أو الأشعة فإنما ليتأكد فقط من تشخيصه وليكتسب الثقة بنفسه أكثر وأكثر.

وهكذا أدخلت الحالة ليس لعلاجها أساساً، وإنما لإجراء الفحوص وليثبت بها الأستاذ أدهم لنفسه ولمجموعة الأطباء التي تعمل معه أنه كان على حق وأن رأيه أبداً لا يخيب.

ولم تكن هذه أول حالة تدخل القسم لهذا السبب، فما أكثرها من حالات لا يتعجب أحد لإدخالها لمجرد البرهنة على صحة التشخيص! فالأستاذ أدهم لا يفعل في الحقيقة إلا أنه يزاوّل حق التميز. . ذلك الحق الذي يحلم جميع العاملين معه - جميع الطلبة والخريجين - بالوصول إليه.

ومكثت السيدة بالقسم شهرين وأجريت لها عشرات الاختبارات والتحليلات وصور الأشعة، ومع هذا ظل الورم الصغير الذي بالكاد

تلمسه الأصابع في قاع بطنها لغزاً لا حل له . ولم تكن قد بقيت إلا وسيلة واحد لحل اللغز، أن تجري لها عملية استكشاف فيفتح البطن ويفحص الورم ويصل الأستاذ في أمره إلى قرار.

- ٤ -

في العاشرة كانت كل العمليات الصغرى قد انتهت، وفي ثوان كان المسرح الجراحي قد نظف تماماً وأعيد ترتيبه، وجيء بالسيدة مخدرة وحملت ووضعت فوق منضدة العمليات الرئيسية وسلطت على بطنها العاري أنوار الكشافات القوية، والكل في موقعه مستعد للبدء، بينما «سستر العمليات» الإيطالية تراجع للمرة الثالثة كالتلميذة قبل الامتحان كل ما تتطلبه العملية من أدوات، وكان الأستاذ يغتسل ويتعقم.

في العاشرة وعشر دقائق كان رأس المشرط ينغرز قريباً من «السرة» محدداً نقطة البداية، ثم في خط مواز لمنتصف البطن تسحب اليد الشهيرة التي أصبحت جزءاً من تاريخ الجراحة في مصر سحبتها السحرية، وفي ومضة ينقض المساعدون بالملاقط يغلقون بها كل الأوعية الدموية الصغيرة التي تفتحت وبلا زمن يربطونها بالخيط الخاص، والجرح قد أصبح نظيفاً بلا نقطة دم يكشف عن دهن ما تحت الجلد.

ولابد أن لحظة رضاء قد مرت بالأستاذ وهو يستمتع بقيادته

لهؤلاء الناس، فهو لم يعد بحاجة أن ينطق بكلمة، فقد تعلموا تماماً أن يفهموه. . حتى والفكرة أو الأمر لا يزالان مشروعين في رأسه كانوا يستطيعون التقاطهما والشروع في تنفيذهما.

حتى ارتدادة عينه من فوق القناع إلى طبيب التخدير ترمقه في هذه اللحظة بالذات، يفهمها الطبيب في الحال، ويمد يده إلى مفتاح الغاز في جهاز التخدير، وترتخي عضلات السيدة تنفيذاً للأمر الذي تلقاه بنظرة العين.

العاشرة والنصف:

لا بد أن يده الآن تلمس الورم، ولا بد أنها بحركتها طويلاً وعرضاً تتحسسه وتحدد حجمه وامتداده، ولقد ظل مساعده الأربعة - وعبد الرؤوف لسعادته الكبرى ودوناً عن بقية زملائه يقوم بدور المساعد الرابع - يكادون يكتمون الأنفاس استعداداً لكلمته التي سيصدر بها حكمه على الورم، وحين أفلتت شفتاه كلمة: غريبة! لم يجرؤ أحدهم حتى أن يسأل.

وقبل أن يطلب الملقاط القاطع الذي يستخدم لأخذ العينات الحية، كانت يد السستر تضعه في يده المفتوحة. وحين تم أخذ العينة كان على عبد الرؤوف أن يطير بها إلى قسم «معمل الأمراض» لتفحص بالميكروسكوب ويصل الاختصاصي إلى قرار بشأنها. وحينذاك فقط عرف الجميع أن الأستاذ لم يصل بعد إلى معرفة كنه الورم.

وكالعادة لم يجد عبد الرؤوف الاختصاصي في مكتبه. . كان قد

ذهب إلى الإدارة لأمر لعله المطالبة بتسوية حالته . وكان عبد الرؤوف يستغيث رجاء في التليفون ولم يصل إلا بعد ربع ساعة، وأخذت عملية اعداد الشريحة واعداد الميكروسكوب والبصاغة وضبط النور ربع ساعة أخرى . حتماً ستطير رقبتة وبالذات حين قرأ في النهاية التقرير الذي كتبه الاخصائي بخط لا يقرأ وأدرك معه أنه لا يستطيع الجزم إن كان الورم نابعاً من العظم أو الغضروف أو أي نسيج آخر، وكذلك من الصعب تحديد إن كانت الخلايا خبيثة أو حميدة . . كارثة!

وظن أن خللاً قد حدث في نظام الكون حين لم يقابل بكلمة لوم واحدة والوجوم الشديد موجود ولا شيء سواه، فقط حين أمسك بالورقة قريباً من عيني الأستاذ وقرأ الأخير التقرير تفجر بركان الغضب وانهارت الشتائم بادئة بالمعידين أجمعين، مارة بالجامعة والكلية وخراب الذمم والفساد والملعون الأخصائي . أما هو عبد الرؤوف فقد نالته لكزة غليظة من كوع الأستاذ.

وكان الغضب قد تسرب إلى الحاضرين جميعاً، وإلى الحجرة كلها بكل ما تحتويه يكاد جوها يرعد ويبرق والتوتر وصل إلى أقصى مداه . ولم يكن أحد يستطيع في وسط هذا كله أن ينطق بكلمة أو يشير برأي، وإنما التصرف كله والرأي والحل لابد أن ينطق به الأستاذ حتى وهو في هذه الحالة . . فهو لا يزال الإرادة العليا . وعليه كان المفروض أن تؤخذ عدة عينات أخرى ثم يغلق جرح البطن وتكون عملية الاستكشاف قد تمت بنجاح، فما دمت لا تعرف كنه

الورم فمن غير المعقول أن تعبت به أو تمد يدك لاستئصاله مثلاً .

ولكنهم - حتى قبل أن يصدر أوامره - كانوا يعرفون أن من المحال أن ينكص وأن يكتفي من الغنيمة بقفل الجرح . وهكذا حين كظم غيظه لحظة ومن بين شفثيه المطبقتين صدرت الغممة المعتادة تقول :

- إيه رأيكم؟ الفتحة وافتحت، والورم مش كبير وشيله مسألة سهلة .

لم ينطق أحد كالعادة ولا هو انتظر أن ينطق أحد . . واصل كلامه بحماس مفاجيء :

- شوف النبض كام؟ وضغط الدم؟ والتنفس؟ . . ممكن بنج ساعة كمان؟ جهزوا نقل الدم وعقموا الآلات الزيادة . . بسرعة .

بأسرع سرعة تفرق الجمع الملتف حول المريضة الراقدة بلا حول، وتلاحقت سلسلة الأوامر تبعثرهم في كل اتجاه، بينما باشمئناط خلع الأستاذ أدهم قفازه وطلب سجائره وولاعته وانتحى ركناً قريباً من غرفة الاغتسال، ومضى في حجرة العمليات يدخن، والسستر الطليانية ترقبه بغضب لا يراه .

وفي هرج ومرج عقلت الآلات بسرعة وبطريقة بدائية بأن صبوا عليها الكحول وأشعلوا النار، وجلبت أسطوانة أوكسيجين لم يتمكن أحد من فتحها فدفعها الأستاذ بساقه دفعة أسقطتها وأحدث سقوطها دويّاً كالقنبلة . . وجيء بأخرى . أما الدم فقد اكتشفوا أن فصيلة دمها

لم تحدد بعد، وكان على طبيب نقل الدم أن يحضر معه زجاجات من كل مجموعة . . وأخيراً ركبت الزجاجاة في الحامل، ولكن قبل أن تسرب منها نقطة واحدة إلى وريد المريضة كان الأستاذ أدهم قد عيل صبره، وكان قد أمسك بالملقط والمشروط بينما مساعدوه الثلاثة - وقد أخرج منهم عبد الرؤوف - يفتحون له الجرح ويزيحون أعضاء البطن ومصارينه بالمزيحات المعدنية، كاشفين الورم بقدر ما يستطيعون .

كانت العملية الكبرى، عملية الاستئصال قد بدأت .

وعلى مجال رؤية تقريبي بدأ الأستاذ يستأصل الجزء الأعلى من الورم، وبالمشروط والملقط يفصله عن العامود الفقري من الخلف والغشاء، البريتوني والكلية والطحال من أمام، وبدأ أن كل شيء رغم كل ما حدث يسير على ما يرام، والصمت يخيم والرقاب مشرّبة عليها تلمح الورم أو تستطيع بطريقة ما أن تلقي نظرة على البقعة التي تعمل فيها المشروط والملقط .

وفجأة تفجر من فتحة البطن عامود دموي حاد، وارنطم الدم المنبثق بزجاج المصباح الكشاف . . عامود مفاجيء غير متوقع أبداً شحبت له الوجوه جميعاً فهو يعني أن شرياناً قد انقطع، وفي تلك المنطقة التي كانت تدور فيها عملية التشريح لم يكن ثمة شريان آخر غير أضخم شرايين الجسم . . الأورطي . أتكون قد حدثت الكارثة، كارثة أبشع من قطع شريان الرقبة، أيكون الأورطي قد قطع؟

- ٥ -

حين أوغل بعد الظهر في تقدمه، وراقب قفزات عقرب الدقائق حتى ملها وأصبحت الساعة تقترب من الخامسة وقد مضت أكثر من ساعتين على العملية الكبرى، بدلاً من الغيظ انتابته فجأة موجة استخفاف. أحس بلا مقدمات أن القداسة تذهب عن كل شيء في محرابه المقدس، وأن حجرة العمليات تتعري عن ذلك الغموض المعقم الساحر الذي كان يصبغ كل شيء فيها. بل وزحف استخفافه ليشمل ذلك الشيء السخيف تماماً. المضحك جداً. الموت. الذي ربما يبدو مأساوياً رهيباً حين نسمعه كخبر ابن لحظته، وندرك في ومضة أن فلاناً الحي قد مات وانتهى. أما حين يصبح الموت حدثاً يدور أمامك، ويمثله وتنتظر أن ينتهي فلا تبدو له نهاية، حين يصبح لحظة تتكرر ودائمة التكرار، تذهب رهبته تماماً وتصبح شيئاً كالحياة التي لا معنى لها، وأقصى ما تشعر به حينذاك أن تحس بالملل. ولا بد أن ذلك الملل هو الذي دفعه للاستخفاف، ليدفعه الاستخفاف أن يقرر رغم أي اعتبار آخر - أن يحدث «انشرح».

- سمعت آخر نكتة؟

توقفت أصابعها المكوكية وحدثت تجاه عبد الرؤوف وجحظت عيناها قليلاً، ثم حين رآته يعني ما يقول جحظت عيناها أكثر.

- سمعتها؟

- هي إيه يا دكتور؟

عجيب صوتها، أول مرة يسمعه وإن كان كثيراً ما سمع عنه،
هاديء ومؤدب . . أم هو تمثيل وتأدب؟
- النكتة . . آخر نكتة .

حركت تحديقها في وجهه ورمقت السيدة المسجاة، ثم أرخت
عينها وقالت بصوت منخفض:
- حرام يا دكتور! حرام! ده وقت نكت؟
- آمال وقت تريكو؟

واغمق وجهها القمحي الشاب خجلاً، وكفت أصابعها عن
الحركة في الحال، وجمعت الكرة والنسيج والإبر في يد أسقطتها
بجانبيها، ثم بعد ثبات في مكانها برهة انسلت قائمة متحركة ببطء
ناحية النافذة العريضة ذات الزجاج المصنفر، وفتحت ضلفة منها
وأطلت برأسها، ثم ما لبثت أن ارتكزت بذقنها على يدها. اعتقد أنها
تفعل هذا خجلاً في حين أنها - كما أخبرته بعد هذا - كانت تحاول
أن تكتم عنه نوبة الضحك الشديدة التي انتابتها.

ولكنه لحظتها، وبوقوفها ومشيتها وارتكازها، تحول انتباهه إلى
الشيء الوحيد الذي غاب عن عينيه طيلة الوقت: انشراح الأنثى.
الآن وجهها مخنف وجسدها الخلفي بكامله أمام عينيه. وبمثل ما
يرى الإنسان أول ما يرى وجه المرأة من أمام، تسقط عيناه أول ما
تسقط حين يراها من الخلف على ساقها . . وجهها الخلفي. وجه
نادر الجمال . . نادر أن تلتفت الساق بلا ترهل أو نحافة، وتتسق مع
الوسط والأرداف والكتفين.

كيف استطاعت حواري شبرا المختلفة بازدهامها أن تنبت هذا
 الجسد السميري المتسق الفارع؟
 أيكون تنمرها وتوحشها علامات أنوثة يسيء الرجال فهمها؟
 وأي طراز من الرجال يا ترى تفضل؟ مهما كان طرازها
 فبالتأكيد لا يمكن أن ترى مثله في الشاب النحيف الطويل ذي الشعر
 الأصفر والعينين الملونتين الذي - وإن كان يعجب أغلب البنات
 والسيدات - ولكنها هي بالتأكيد مختلفة، ومزاجها مختلف.
 أيحاول بلا مقدمات أن يجس النبض؟
 أم يحترم نفسه كما ظل يحترمها ويقنع بالسكوت؟

- ٦ -

الدم المندفع المفاجيء معناه غلطة . . وغلطة لا يرتكبها طبيب
 امتياز أو حتى طالب طب، فكيف ومرتكبها هو كبير أساتذة الجراحة؟
 كان واضحاً أن هناك سرّاً وأن شيئاً غير عادي لابد يحدث . ولأنها
 ليست على ما يبدو غلطة، ولأنه حقاً كبير أساتذة الجراحة، فلم
 يستغرق الانفجار سوى ومضة . إذ في ومضة كانت يده قد امتدت
 وانتزعت قطعة كبيرة من الشاش المطبق، وبدقة شديد كتم بها مصدر
 الانفجار وكف الدم عن التسرب تماماً.

وصحيح أنه لم يقل في لحظتها السبب، ولا أحد استطاع
 التخمين، ولكن لم يكن من الممكن أن يستمر الغموض طويلاً، فقد

اتضح أن الورم قد أحاط بالأورطي وابتلعه داخله، وأنه في محاولته فصل الورم جرح الأورطي .

والتفت إليهم بعد لحظة هدوء، وقد عادت شخصية الأستاذ الكبير تسيطر:

- الجراح الناجح هو اللي ما تهزوش أي مفاجأة تحصل حتى لو انجرح الأورطي . الجراحة أعصاب، واللي ما عندوش أعصاب يدور له على شغلة تانية يا أسطوات . المسألة حلها بسيط زي ما شفتهم . . وقفنا التزيف، بعد كده نخيط الجرح .

ولرأب الجرح الذي حدث للوعاء الدموي الكبير فلا بد من إحاطته بغرز يضمها خيط واحد تجذب طرفيه وتعهده فتتعلق الفتحة كما تتعلق فتحة كيس النقود .

ولقد تولى الأستاذ المساعد مهمة كتم الجرح ريثما ينتهى الأستاذ من إحاطته بالغرز بإبر خاصة، ويخيط خاص . ولكنه ما كاد يجذب طرفي الخيط ليعلق الفتحة حتى تفتت الجدار من حول الجرح وتفجر الدم في نافورة غزيرة مروعة . هذه المرة كانت قد اتضحت الحقيقة المرة . . جدار الأورطي قد تهرأ حين ابتلعه الورم ولم يعد يحتمل غرزة، وقد حاول ربطه كلية وإذا به ينقطع تماماً ويتفجر بحر من الدماء اندفع هذه المرة في كل اتجاه يغرق أنحاء الغرفة ويلطخ الوجوه ويملا العيون ويعمي لابسى النظارات ويحيل الأقنعة

البيضاء إلى حمراء قانية . دم كثير وكأن عشرة رجال ينزفون معاً ،
تعجب كيف أن مصدره الوحيد هو هذه السيدة النحيلة الغائبة عن
الوعي .

وكما أصاب الدم الموجود فسوى بين ملامحهما تكفلت
الفوضى والارتباك بإحالة الحجرة إلى مكان انتهى منه النظام تماماً . .
مليء بالصرخات العصبية والتخبط والجري في كل اتجاه والتعثر في
كل خطوة ، تلمع الكلمات كالشهب بلا صدى . . نقل الدم ، رباط
ضاغط ، ضاغط ، يا ابن الكلب ، يا بهائم ، امسحوا الدم اللي في
عيني ، يا غجر امسحوا الدم .

وامتدت كل يد تستطيع الامتداد إلى بطن المريضة وليذهب
التعقيم إلى الجحيم . وأخيراً وبلغة قطن بالغة الضخامة وتحت ضغط
ثمانى أيد أمكن سد فيضان البحر المكتسح سداً مؤقتاً ، فالنزيف كان
لا يزال مستمراً وبمعدل أسرع من زجاجات نقل الدم الأربع المفتوحة
صماماتها إلى آخرها ، والجميع وقد أطار عقولهم ما حدث لا يرجون
إلا فرصة واحدة - ثانية - لالتقاط الأنفاس .

وحين جاءت الفرصة وأحكم الضغط على الأورطي تماماً
بحيث كفت الدماء عن التسرب ، كان الخاطر الذي هبط بثقله على
الجميع هو أن السيدة قد حكم عليها - هكذا - بالموت ، وأن العملية
التي بدأت لعبة واستكشافاً قد انقلبت إلى مأساة ، وأن لا حل .
- أظن ما فيش فائدة .

قالها الأستاذ المساعد باستسلام .
والمفاجأة كانت حين ارتفع صوت الأستاذ :

- ما فيش فايذة إزاي؟ الكلام ده يحصل مع واحد ثاني غير
أدهم شفيق . مش أدهم شفيق اللي تموت منه عملية . . الأورطي
انقطع حا نشيله كله ونشيل الورم كمان ونحط بداله وصلة من شريان
الفخذ . اطلبوا كل الدم اللي في المستشفى وهاتوا اللي في الاسعاف
السريع كمان . «تيريزا» إبر خياطة الشرايين وحرير ثلاثة زيرو وشغلوا
الشفاط وامسحوا الدم ده كله . . ولا نقطة أشوفها .

كانت أوامر كهذه تهبط عليهم دائماً وكأنها أوامر السماء
تفكيرهم الوحيد هو كيف ينفذونها وبأكمل وجه كأنه كان يخاطب
خشباً مسندة هذه المرة . صحيح أنهم تفرقوا يجهزون ما أمر به
ولكنهم كانوا كأنهم فقدوا الإيمان بما يقول .

ولقد تم كل شيء كما أراد ، وربط الأورطي بعيداً عن أجزائه
المتهرثة ، واستؤصل الباقي مع الورم ، وامتد الجرح إلى الفخذ
واقطعت من شريانه أوسع قطعة وصل بها الأورطي ، ودار كل هذا
ولا أحد يكاد يصدق أنه يدور فكأنه يحدث في منطقة وراء العقل ، أو
انقلبت الحجرة بهم إلى فندق تحول فيه الواقع إلى كابوس ،
والأشخاص والأشياء إلى رموز ، والجو ملبد مشحون .

وكان الجميع - وربما بما فيهم الأستاذ نفسه - يتوقعون أن تنتهي
السيدة قبل أن تنتهي العملية ، ولكن أغرب شيء أنها رغم كل ما

نزفت وضاع من الدماء، رغم ضغط دمها الذي كان كالبندول يتأرجح ويقترب عشرات المرات من منطقة العدم، والقلب الذي كان ينبض ثم يكاد يكف ليعود ينبض، رغم كل هذا لم تمت مع إدراكهم جميعاً والعلم معهم أنها لا بد أن تموت. إلا أنها - وكأنما سخرية بهم - لم تمت. ولعل هذا هو الذي شجع الأستاذ في الثالثة، وبعد العملية التي استغرقت خمس ساعات طوال أن يقول:

- اللي عليّ عملته، وما كانش يخرج من إيد أي جراح في العالم أنه يعمل أكثر م اللي عملته. إنما حنعمل إيه بقى لوزارة الصحة؟.

فالمستشفى في رأيه خال من الخيوط الحريرية ذات السمك المضبوط، والإبر أصغر مما يجب، وغرفة العمليات ليس بها أجهزة تكييف هواء تساعد على هدوء الأعصاب.

- واهو كده أو كده كان الورم حاي موتها، يبقى العلم اللي كسب. فمصر كسبت عملية عمرها ما اتعملت، وعملية ناجحة قدامكم أهه، والست لسه عايشة أهه، ولو كانت الإبر مضبوطة والخيوط مضبوط كانت تعيش عشرين سنة كمان. . إنما حظها كده.

* * *

والحقيقة أن لا الإبر ولا الخيوط ولا أجهزة التكييف هي السبب، والسيدة ما زالت لم تمت - هذا صحيح - ولكن الدم يتسرب

من مكان الوصلة وبكميات ضخمة، فليس هكذا توصل الشرايين بالشرايين، فالطريقة خاطئة والفكرة من أولها خاطئة. والخطأ ممتد وبإدء من اللحظة التي قرر فيها أن يحيل عملية الاستكشاف إلى عملية استئصال كبرى، بل الخطأ - هكذا يدرك عبد الرؤوف الآن - يمتد إلى أبعد، إلى ذلك اليوم الذي أصبحت الجراحة عند أستاذه تزاوُل من أجل الجراحة، وأصبحت العمليات وأصحابها وهم غالباً من الفقراء الذين بلا حول، ميداناً لإثبات القدرة والأستاذية.

- ٧ -

الشيء الذي لم يعمل له حساباً قط هو الذي يحتل عقله الآن تماماً. ليست هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ميتاً يحتضر أو يسمع ذلك الشخير المتصل. . ولكنها الأولى التي يعيش الموت فيها ليست معاشة متفرج، ولكنها معاشة متأمل مترقب ليرى متى وكيف تكون النهاية، أو بالأصح نهاية النهاية؟ وكلما تأمل وترقب وانتظر أحس أنه يغوص أكثر وأكثر في التجربة، حتى بدا وكأنه هو نفسه يعاني نزعات الموت. ولكن حب الاستطلاع يعود يجذبه ويعود يعيش المشهد بكل خلجاته ليرى كيف بالضبط يموت الناس. وإذا كان المشاهد في المسرح أو السينما وهو يعرف أن ما يراه خيالياً في خيال ينتفض انفعالاً في انتظار النهاية، فما بالك والمشهد هنا حقيقي والموت فيه

حقيقي؟ واسم النهاية معروف، ولكن طريقة حدوثها شيء لا يمكن أن يعرف أحد كيف تحدث. أنت هنا لا تضطرب بين اليأس والأمل! إنك تحفر بتفكيرك وترقبك في أعمال اليأس لتصل إلى انتهاء، وكأنك تتوقع أن تموت هذه السيدة الطيبة التي أسلمتهم نفسها بثقة فيهم وفي عملهم ما بعدها ثقة بطريقة لم يسبقها إليها أحد، ما دامت قد اجتازت هذه العملية الكبرى وعاشت بعدها وبطريقة لم يسبقها إليها أحد.

ولم يدرك أنه الآخر قد بدأت تنهد فيه أشياء وتموت مثل الجسد الواهي المسجى أمامه إلا متأخراً. هذا الشهيق المتباعد يبدأ ببطء ويصل إلى انتهاء ببطء ليندفع بعده الزفير فجأة مرة واحدة. هذا التنفس الغريب الذي يسبق الوفاة والذي طال أمده وامتد وانتظم حتى أصبح كالنبض، وانقلب من دليل مؤكد على الموت القادم إلى نبض منتظم.. ليس نبض الحياة وإنما نبض الموت ودقاته تهوي كل نبضة منه كالطرقة الخرافية البشعة تهد وتسحق الجسد غير الواعي. ولكن الأهم أنها أصبحت تهوي عليه نفسه، وعلى مراكز الحياة فيه فتهدم وتهوي وتتساقطة حتى أصبح وكأنما كلما أمعن في انتظار لحظة النهاية أقشعر بدنه، مخافة أن تأتي معها بنهايته هو الآخر.

وكالفأر الذي أطبقت عليه المصيدة مضى بكل ما يملك من قدرة على الهرب يستنجد بالخيال.. وبأحداث اليوم.. و«بانشر»

وجسدها الفائز. ولكن الذكريات والخيالات وحتى الحقائق نفسها كانت تهرب منه وتفر من حضرة أخلد حقيقة عرفها الإنسان - الموت - أقوى الحقائق كلها، الأقوى حتى من حقيقة أنك حي .

وكالاستغاثة الأخيرة ترك مقعده واتجه إلى حيث تجلس «انشرح» ووضع يده على كتفها، ليجد أن جسدها هو الآخر يرتعش وكأنها هي الأخرى قد بدأت تحتضر.

ضمها عساها أن تكف عن الارتجاف فإذا به يبدأ هو الآخر يرتعش، ويمد يده يتناول يدها فإذا بها باردة. . مينة بغير شك، برودتها أبداً ليست من صنع الجسد وإنما هي وافدة من مكان بعيد سحيق، نفس المكان الذي يقبل منه الموت! تضغط على يده، وبكلتا يديه يعتصر يدها، وتنتقل برودتها إليه وبرودته إليها. . فالسيدة كان رأسها قد بدأ يتململ، وشخيرها يضطرب، وأجفانها - مرة واحدة - تفتحت إلى آخرها وبرزت من خلفها عياناً واسعاً محدقتان بلا نظرات. كان واضحاً أن شيئاً مهولاً يقترب، أما النهاية التي انتظراها حتى أوغل الليل في تقدمه، وأما المعجزة. . وكلاهما مرعب مخيف. فالموت حولهما وفي كل مكان، وهو لا يمكن أن يتراجع! فإذا لم تمت هي فلا بد أن سيكون الموت من نصيبهما.

الموت الكثيف الذي تضرب له جو الحجرة وثقل هواؤها وأصبح النور كالخيوط المنعزلة المخنوقة. .

ماذا بالضبط بدأ وفي قوة عارمة يتدفق في جسديهما؟ . . أبدأ
ليس خاطراً، ولا انفعالاً، ولا احساساً ولده الخارج أو اندفع من
الداخل. وحتى ليس دفقة الحياة الأخيرة حين ينتاب الإنسان ذلك
النوع الوحيد من الرعب الذي لا يحسه المرء إلا مرة واحدة في
عمره، الرعب من الموت، الذي يصل إلى درجة أن يميت هو إذا
غاب الموت أو اختفى سببه.

ليس جنوناً أيضاً أو فقدان سيطرة.

الحقيقة ليس شيئاً أبداً قابلاً للإخضاع والمناقشة والتفسير.

والعجيب أنه كان يحدث لهما معاً وفي نفس اللحظة، كالآيتين
تعزفان نفس النغمة، أو كأنهما أصبحا جسداً واحداً وكائناً متكاملًا.

اشتد التصاقهما حتى وقفا، وتراجعا إلى حافة المنضدة حيث
اقتربا، وتفتحت أذرع أربع لتضم الجسدين.

وكأنما هو مسروق بها وهي مسوقة به وكلاهما مسوق بقوة أكبر،
دفعاً معاً «التروولي» المجهز لتحمل عليه السيدة بعد وفاتها ووضعاه
حتى أصبح امتداداً لمنضدة العمليات، وبدأ ألا قوة على سطح
الأرض تستطيع منعهما. ومعاً خلعا ملابسهما، وبمساعده صعدت
فوق «التروولي» وصعد هو الآخر، والسيدة كفت عن التلفت
والتحديق واستقرت عيناها - لا تزالان متسعيتين أيضاً وبلا
نظرات - على الجسدين العاريين تماماً أمامها.

وغير مهم إن كانت ترى أو لا ترى. . المهم أنها استمرت

تحقق حتى حين عاد إليها نبض الموت وعادت تتنفس شخيراً منقطعاً
غير منتظم .

والتهب جسده وأحس بها بين ذراعيه تلتهب وكأنهما
محمومان، وضمها بشدة، واستماتت هي متعلقة به وكأنما بألف ساق
وذراع .

ومضى هو يرد على تحديق العينين المبتتين عليهما بتحديق
كأنما يدفع به الموت المنصب من عينيها، وبتحديق هائف يقول له
للموت: لا . . إلى اللحظة التي بدأ فيها وكأن نبض الحياة قد اتحد
بنبض الموت، وأصبح للكائنات الموجودة بالحجرة - ميتة وحية
ومترددة بين الموت والحياة - نبض واحد متسق لا نشاز فيه .

وقبل أن يفقد وعيه بوجودها أحس أن السيدة لابد قد استردت
وعينا للحظة، فقد بدا من نظراتها أنها، لأول مرة تراهما رأي العين
وتدرك تماماً ما يدور . . وأنها ما كادت تسترد الوعي حتى انتهى ،
ولكن اللحظة كانت كافية لتصنع ملامحها شيئاً كالابتسامة . . ابتسامة
مندهشة قليلاً كابتسامة طفل فتح عيناه لأول مرة على الحياة فيدهشه ما
يرى .

وما كاد يستعيد الوعي ويعود يحقق في السيدة حتى وجد أن
كل شيء لا يزال كما تركه، وابتسامة الدهشة القليلة لا تزال قائمة
وموجودة، والعينان أيضاً مفتوحتان على آخرهما بأوسع اتساع . شيء

١٠٠٠

واحد فقط هو الذي غاب . . نبض الموت، إذ قد انتهى الشخير
والشهيق والزفير والتنفس .

* * *

وكأنه أيضاً للحظة قد توحد كل شيء، واشتبكت اغماء النهاية
باغماء البداية، أول البداية ونهاية النهاية . . لحظة خروج الحي من
الميت والميت من الحي، لحظة كأنما أبت السيدة الطيبة إلا أن
تحتشد وبآخر ما تملك تسجل بشبكيتها للمشهد صورة . . صورة تبقى
في عينيها وتخلد إلى الأبد .

١٠٠١

دستور.. يا سيدة

النداهة

المربع الأول

الظهر.. ظهرها كله أصبح مربعات كبيرة محمرة داخلها
مربعات أصفر، فيها ألم. بالراحة.. بالعقل.. بالحنية.. أبداً أبداً
ليس هكذا أرادت أو تريد، لا بد أن تهتف صارخة دافعة إياه بكل
غلظة:

حاسب.. اوعى.. اوعى!

مفاجأة لم تكن متوقعة! المفروض أن يتحول إلى وحش..
إلى كائن مرعب يخضعها. ولكن على نصف جانب.. وثنية رجل
ويد شبه مرفوعة في الهواء حيرى ماذا تفعل؟ سكن. العيون.. عيناه
مفتوحتان في دهشة، والملامح تنطق بشعور طفل أذنب رغم أنفه
ويريد البراءة. ماذا حدث؟ سألها خائفاً أن يقترب أو يلمسها. لم
تجب.. ماذا تقول؟ كيف تجعله يفهم أشياء هي نفسها وإن كانت
تحسها لكنها لا تعرف كيف تصوغها كلمات محددة مفهومة. أهذا
وقت التراجع والعدول النهائي؟ كيف؟ وما تصورته الأفظع والأبشع
والمستحيل قد تم..

١٠٠٤

أحسست في قمة الغضب التعس بيده تقترب، كقطة متلصصة
تعرف أن ما تريده ليس من حقها. دفعت اليد جانباً بقوة وقسوة لم
تردها أبداً، ولا تخصها. . لكانها قسوة امرأة أخرى داخلها، امرأة لا
تعرفها.

صمت.

أما التسليم المطلق أو إعلان الفشل وإحالاته من شعور إلى
واقع.

صمت أيضاً.

اختفت من خلاله وفي كشافته حشزجات السوق والشارع
وصراع الأطفال العابث اللاعب، وأزيز الدنيا.

أتعاقبها السيدة زينب؟

أقشعرت.

أتفقد العقل؟ أتصرخ؟ أتجري شبه هاربة هكذا وتقول لكل
الناس أنها أم فلان البيه وفلان المدير ومع هذا تفعل ما هي الآن
تفعله؟

أتقتل نفسها؟

وذاب عقلها في ضياع. وقبل أن تفكر في أي شيء آخر رمقته
بحدقة عينيها فقط، ودون أن تتحرك كرة العين في المحجر ربع
نظرة. . انتهت بعدها تماماً. . تماماً.

١٧٠

بلا صوت، أو اعتصار لذاته، أو احتشاد، أو حتى تغيير
لوضعه، كانت جفونه مسبلة ومن بينها يتساقط دمع بطيء تلمع آثاره
على الوجنة، وبقيته تتوالى نقطة عزيزة بعدها نقطة.

من جديد - وكالإعصار - تحرك ذلك الاحساس الطافي الذي
ينسيها أي شيء إلا أن تنتفض هالعة مقبلة عليه، محيطة إياه بذراعين
تثلجتا بالحنان، وبقبلات منهمة مذعورة تركزت فيها كل قدراتها
على الفعل ودفع الشر تغمره وتغسل وجنتيه وتلحق أجفانه، ولقصر
رغبتها تستعذب طعم الدموع.

لقد انتهت! فليكن أجرم فليجرم! فليكن الثمن حياتها نفسها
فلن يبكي مرة أخرى. انها المقادير. . مقاديرها وحظها رتبت كل
شيء. الازدحام عند باب السيدة زينب، والدفعة التي جاءتها فجأة
من الخلف وفي نفس اللحظة التي كانت ساقها لا تزال لم تصل بعد
إلى الأرض. واعتقدت تماماً أنها ساقطة لا محالة، وأصبح رجاؤها
كله ألا يرتطم رأسها بالبساط المربع الكبير. ولكنه الترتيب
المحكم. . وبالضبط وهي تهوي وقد سلمت بالكارثة المحققة،
تأتيها اليد وكان ليس لها صاحب، يد من السماء ربما توقف لولا
سقوطها، وحين تفقد التوازن كنتيجة لهذا تأتيها الذراع قوية مشمة
تلتف حولها، ولومضة. . لومضة سريعة تشعرها، ربما منذ زمن بعيد
حتى قبل أن يموت زوجها، أنها في أمان كامل. . ذلك الأمان.
لم تسقط ولم يكسر لها ساق أو قدم.

ولكن السيدة - أم هاشم وأم العواجز - على حق. أنا محقوقة

لك يا سيدة حقك عليّ . الشنطة ! ها هي اليد الأخرى تقدمها . وحين ذاك فقط تبدأ تدرك أن يده الأولى لا تزال تحيطها وتحضنها . ومع الشكر والتراجع وارتباك الإفاقة من مصير محتوم . . ماذا قال؟ لا تعرف . في النهاية نظرت في وجهه ، والمفاجأة . . أنها كانت طوال الوقت تخاطب وتعامل وتشكر رجلاً . ولكن هذا . . إنه . . إنه بالكاد له شارب .

- بتعيط ليه؟ أنا عملت حاجة؟ أنا زعلتك؟

- زقتيني .

- ودي تزعل؟

- أيوه بقوة وكره . انتي بتكرهيني . انتي عايزة أفندي واللا بيه غني ومعتبر . وأنا فقير والفقير عندكم ما عندوش احساس . وتفجرت رغماً عنه ، أوروبما برضاه ، دمعة . واحتضنته .

إنه لا يفهم .

مستحيل أن يفهم .

كيف يفهم؟

بأي قوة تستطيع أن تطلعه على ذلك الشعور الذي لا يقاوم والذي جعلها تنسى أي شيء إلا أنها وجدته ، وأنه في تلك اللحظة بالذات أعز عليها من الدنيا بما عليها .
- أعمل إيه علشان تصدقني؟

- ما تزقنيش .

- بس أنا يا ابني زي أمك .

- أمي ماتت من عشر سنين . أنا زي ما أنت شايقة يتيم .

واختنق حلقه بدموع تريد التحول إلى كلمات، وكلمات تصدر عن احساس في نفسه . . احساس كبير كالقصر المهجور الذي دبت فيه الحياة فجأة . في نفس اللحظة التي أحاطها بذراعه وأحس بجسدها، وإن لم يكن سميناً رجراجاً إلا أنه «هوانمي» طري، ناعم حتى من خلال ملابسها الكثيرة الحريرية السوداء . كان ممكناً أن يتقبل الشكر ويمضي ولكنه توقف . . تلكاً . . تمنى لثانية أن تحتاج إليه .

والخطوة التالية لم يرتبها القدر . . صحيح أن قدمها التوت، ولكن كان باستطاعتها احتمال الألم الخفيف والسير بمفردها .

لماذا إذن - حين حاولت الخطو - بالغت في التألم والعرج؟

أتكون قد لاحظت أنه تلكاً، وأنه يا للغرابة يبدو أنه يحتاج منها أن تحتاج إليه؟

دون كلمة عرض أو إيماءة قبول كان بجوارها . . ويده تحت ابطها . . بكل ما يستطيع من رقة يساعد في حمل الجسد، رقة حنون افتقدتها من زمن، رقة حنون كرقعة الأبناء الأطفال قبل أن يصبحوا رجالاً وينقلوا رقتهم تلك إلى حبيباتهم وزوجاتهم .

كان مفروضاً أن يتوقف موكبها لدى أول محطة ترام أو أوتوبيس

أو عند أول تاكسي ولكن الموكب استمر . لم تطلب . لم يسأل . . بل
ولا حديث إلا بين الحين والحين : تعبتك؟ فتجيئها إجابته مستنكرة ،
مغارقة في الاستنكار لدى كل مرة تالية :

- أعمل إيه عشان أقنعك إني بأعزك قوي ؟
- ما تزقيش .

- بس أنا يا ابني زي أمك . . عيب !

إنها دائماً تعود إلى موضع الألم . ولكن الطريقة التي تنطق بها
كلمة أمك كأنما تعنيها ولا تريده أن يصدقها . لقد حرمت أمه بموتها
من نفسها ومن النساء . هذه «الست» تعيد إليه كل شيء مرة واحدة
وكأنه في حلم . إنه يكتشف الآن فقط أنه جوعان محروم ضائع ، يكاد
يجن وهو يحس بها تركز على يده ارتكازة جسد أليف محب . لو
تكون محرومة من الخلفة وتبتناؤه وكل يوم تركز عليه بهذه الألفة !
ولكن ذراعه بدأت وكأنما تحيا حياة أخرى بعيدة عن كل أفكاره !
فالجسد الذي تحتويه بدا من فرط ما فيه كالزبدة يسبح . ذراعه
الممزقة عنها «الأوفرول» في أجزاء ، تشركه رغماً عنه ، وتنقل له من
خلال ملابس غالية - وإن كانت أكثر مما يحتمل الجو - ذلك
الاحساس ، ونعومة جسد الأم تفقد كل صفاتها الأخرى ولا يبقى فيها
سوى تلك الرجرجة الشحمية المرتاحة . . رجرجة الستات
المرتاحات . . رجرجة تبقي السيدة أنثى ولو وصلت إلى الستين ،
ولكنها لا يبدو أنها وصلت أبداً إلى الخمسين . . بل إن ما فيها من

أنوثة أكثر بكثير من زوجة جارهم سائق التاكسي التي تبدو بعد عامها السابع من الزواج وكأنما جف فيها كل ما يمت إلى النساء بصلة.

- تعبانة؟

- شوية .

- كده أحسن .

وبكل ذراعه أحاطها حتى أصبحت في حضنه، وأصبحت في حارة، وأصبحت تعرف أنه في الثامنة عشرة، وأنه يعمل مع أبيه في تصليح البوتاجازات، وأنهما يقطنان قريباً، وأنه وحيد، وأن أمه ماتت في عملية.

وأيضاً أصبحت تعرف سبب غضب السيدة زينب منها. فليست هذه أول مرة تأتي إليها مضطرة.

بعد المشوار الطويل . . بعد أن تصبح جدة للمرة الرابعة، وأماً لمدير عام شاب لامع، ولدكتور في جامعة يؤكدون أنه الوزير القادم، والثالث تاجر سيارات مستعملة وأغناهم جميعاً، وبنت تزوجت وتعمل أيضاً في الخارجية.

سعادة الاكتفاء موجودة ولا حد لها. المهمة تمت بنجاح ساحق رغم أن المرحوم مات في ثلاثة أرباع الطريق. الجميع يتوجونها أماً مثالية، ويأتي أولادها كل عيد، وكل مناسبة، وانتي، وانتي، وانتي . . ولكنها كلمات.

الرجال والابنة الذين لم يعودوا في حاجة إليها . . يدللونها

ويهزلون معها ويبدءون يسخرون من الأشياء القديمة المتراكمة في الشقة، تلك التي نموا وهم يحملون لها الحب والتقدير. صحيح أن هناك روابط كثيرة تجمعها بهم وتجمعهم بها، نفس الروابط التي تنزعج لها إذا علمت بمرض أحد، وينزعج لها الأبناء أو جزع الابنة إذا ارتفع لديها معدل الضغط أو نسبة السكر. ولكنه جزع مخالف تماماً لمثيله أيام كانوا أولادها وأيام كانت فعلاً أمهم. جزع على اللعبة القديمة ذات الشعرات البيضاء التي نحاول أن نحفر في صدرها كلما ضممناه عسانا نعثر على قطرة واحدة من نبع كان يروينا، وكانت تتعاطم بنا وبها السعادة إذا روانا جزع الزمالة ربما في المجتمع الأكبر الذي أصبحنا فيه أولاداً وبنات وأمهات وزملاء، وإن كانت تفرق بينا بعض السنين. حتى غداء الجمعة، من الصباح الباكر تكدح لتصنع مع خادمتها العجوز لكل منهم ما يفضله. وبزينة وابتهاج يبدءون يقبلون والابن الواحد الذي لا تزال تذكرهم به كان نحيفاً شاحباً وهو طفل صغير أصبح اليوم زوجاً، زوجاً قديماً له أولاد وبنات ينادونها بيا «تانت» ويا «تيزة» ويا «جدتي». أصبح الولد عائلة بأكملها وأصبحت له أسراره الخاصة وهمساته وغمزاته مع زوجته أو مع أخيه الآخر، وهي الوحيدة البعيدة عن اللعبة. ويوضع الطعام ويأكلون، وبينما في أعماقهم قد أدركوا من زمن أن طعام أمهم من الأحسن لها ولهم أن يبقى ذكريات حلوة، ومذاقاً يعطيه حاجز الزمن قيمة ومتعة. فالواقع الحاضر أنهم قد فقدوا الرغبة تماماً فيه، وأنهم بالكاد يزدردونه، فلقد جاءت الزوجات معهن بأطعمة أخرى،

وبأصناف لم تخطر للآم على بال، حتى الطعام وتعليقاتهم البالغة في استحسانه أصبحت عادة قديمة تبتلعها على مضض، فإنها لتحس بالأمر كله، ويوم الجمعة وكل ما يحدث فيه تمثيل في تمثيل يجيء فيه الأبناء ليروا أبناءهم تحضنهم الجدة العجوز، ويتسلون بتدريهم على نطق اسمها، وربما يشير اليوم في نفس أحدهم ذكرى أو حادثة طفولة. تمثيلية سرعان ما يمل الممثلون القيام بها، فإذا بكل واحد قد انزوى مع زوجته في ركن أو على فراش، أو قد اجتمع أربعة منهم يناقشون موضوعاً لا صلة لها به. كل ما في الأمر أنه بين الحين والحين، وربما على دقائق جرس ضمير بطيء المفعول، يتعطف عليها أحدهم بكلمة، أو بثناء، أو بقبلة سريعة، لا تلبث أن تدرك أنها وهي في بيتها تأويهم وتطعمهم قد أصبحت عبئاً هم مضطرون للخلاص منه بعد قليل. فسرعان ما تبدأ سلسلة الاكتشافات، وينظر أيهم في ساعته ثم يشهق مروعاً: أنا نسيت ميعاد المحاضرة. وما أتعسها من دقائق أو ساعات تلك التي يقضيها الباقون وتقضيها معهم وهي محرجة تدرك أن كلاً منهم لا بد يبحث لنفسه عن اكتشاف جديد أو عذر وجيه. حتى الأطفال ملوا سماع حواديتها ويطالبون بالتلفزيون. بل - امعناً - تذهب إلى المطبخ أحياناً لتجد الملاذ في الخادومات، فإذا بهن هن الأخريات مشغولات بتبادل أنباء فضائح الأسياذ والسيدات والجيران، وأحدث الزيجات والطلاقات بين نجوم الغناء والسينما. وفي النهاية. . وبعد كل الضحيق الهائل والازدحام تصبح مرة أخرى وحيدة تماماً في الشقة الكبيرة ذات السقف العالي.

فحتى الخادمة العجوز تأخذ بعد ظهر اليوم نفسه إجازتها.

لا لوم! فهكذا الدنيا. . وأولادها لم يعودوا بحاجة إليها إلا كديكور أم محنط في شقة «العيلة»، ولكن الأم فيها لم تنته بعد. . لم تمت! ما زالت تدق داخل قلبها الكبير. وحين مات المرحوم لم تفكر لحظة في الزواج أو في تغيير حياتها مع أولادها، فلقد كانوا هناك. . صبية صغار وبنات لا يسمحون لها أن تغيب عن أعينهم لحظة لشدة حاجتهم إليها، ولا تسمح هي لنفسها أن تتغيب لحظة لشدة ما تريد أن ينهلوا من صدر أمومتها ويروون بذلك النبع الأخضر الريان في أعماقها. سعادتها الكبرى أن تعطيهم، وكان طبعياً جداً أن يأتي اليوم الذي لا يعودون بحاجة إليها وقد أصبحوا بدورهم آباء وأمهات يريدون هم أنفسهم البذل لأولادهم والعطاء. ماذا تفعل والأم فيها لا تزال قادرة موجودة يقظة، فقد تزوجت صغيرة وخلفت صغيرة ولا تزال بعد لم تصل إلى الخمسين.

- يا ريت تزوري السيدة!

وكانما هبط الاقتراح كالحل العبقري لمشكلة أبناء يريدون فرض اليأس والشيخوخة على أمهم فرضاً: يريدون فرض اللا حول واللاقوة والسكون والسلية التامة. . فرض الموت عليها فوق سطح الأرض انتظاراً للحظة الانتقال إلى باطنها. أبناء يريدون هذا وكانما ليزيحوا عن خواطرهم الواقع الحي الناطق أنها بعد لم تصبح شيخة. صحيح أنها لم تعد شابة مثلما كانت حين مات أبوهم، ولكنها بالقطع والتأكيد لم تعد تصبح - وباستماتة تأبى أن تصبح - في القريب

العاجل شيخة. وليست الشيخة أيضاً كي يفرضوا عليها الشيخوخة فقط، إنما لكي - وهذا هو الأهم - ويفرضوا عليها الوحدة. فالوحدة إذا كانت حراماً على الأنثى أو الشابة فهي حلال على الشيخة، وما لم تصبح شيخة فعليهم أن يحلوا هم مشكلة وحدتها، ومن هنا يعتبر اقتراح زيارة السيدة إذن حلاً عبقرياً.

- ان شالله يا سيدة.

أجل، يوم الجمعة بعد الغداء الحافل، بعد أن تستمتع بهم مرصوصين حول مائدة الطعام الفخمة. . الرجال من أبنائها والبنات مع زوجها، وبعد أن تحمل أحفادها كل بدوره وتهدهده وبأسماء تدليه. عليها أن تذهب للسيدة وتقضي بقية اليوم تدعو وتتعبد. وفي العام القادم بإذن الله تحجين وأمانة عليك أن تقرئي لنا الفاتحة يا ست الحبايب، ولا تنسي أن تدعي «لمنى» بالنجاح، «ولحمادة» بالشهادة، ولابنك - أنا - باستقالة رئيس مجلس الإدارة ليفرغ منصبه.

- وإيه رأيك يا ستي؟

والتفت الكل إلى الأخ الصغير فقد بدا وكأنه وجد الضالة المنشودة:

- الجمعة السيدة، وإن زهقتي يبقى الاثنين الحسين، وإن حبيتي يبقى سيدي الحنفي الخميس.

واحنا مستعدين.

أجل! هم دائماً مستعدون لكي يحولوا العواطف والمجاملات

والواجبات إلى معادلة نقدية، ربما لأنهم أصبحوا يمتلكون النقود..
بينما لم يعودوا في حاجة إلى العواطف والمجاملات.

بالتأكيد مشروع سقوطها كان من غضب السيدة عليها، فهي
أبداً لم تذهب بدافع من ذات.. تريد، إنما مدفوعة لا إلى زيارة أو
قراءة فاتحة وإنما إلى مصير لا تملك دفعه.
- ياه! احنا مشينا كثير. أنا اتأخرت.. نشوف تاكسي؟
- زهقتي؟

وتطلعت.. هذا الوجه، تلك الملامح الطفلية التي يسكب
فيها سن الثامنة عشرة أول كم من عصير الرجال فيصبح
لها - للسن - جمالها الخاص بحيث يضيء وجه كل فتى وكل فتاة،
حتى المحرومين من الجمال، بنور جميل طازج.. نور تلك السن.
شاربه النبات المحلوق الذي تكاد تعد جذور الشعر فيه شعرة شعرة،
بينما الذقن تتسلل من الصدغين هابطة على استحياء. ولكنها في
وسط الذقن تماماً، وحول وداخل طابع الحسن تنطلق فجأة..
كنافورة شعرية مستديرة. العينان فيهما نظرة، ليست لها صفاقة
نظرات الرجال أو مجال أبصارهم الخاضع للإرادة والوعي
والتحديد.. وليس فيها شقاوة الصبية إنما هي نظرة بدأت تدرك وجود
الآخرين، وكما ترى الناس باستطاعة الناس أن يروا ما بداخلها..
داخلها المليء في تلك اللحظة إلى الحافة بنداء أقوى ما رآته عيناها
من نداء.. ألا تذهب.. أن تبقى. نداء حقيقي صاعد ربما رغم
أنف صاحبه، شتان بينه وبين نظرة الدكتور أو المدير ابنها وهو يقول

بينما هو يستعد لإغلاق الباب خلفها بعد انتهاء زيارتها:
- وحياتك . . وحياتك يا ماما تفعلدي تتعشى معانا .

- حضرتك عايزة تروحي؟ مش تستريحي شوية . . على بال
الوجع ما يخف؟

عادت ترمق النداء قوياً ملحاً في عينيه، لا تملك عصيانه . نداء
يخرجها . . فهو لا يتبع بكلمات تلح الإلحاح الكافي، إنما هو يترك
لها هي الرأي والقرار . . يترك لها أن تضغط بكل ما تملك من رغبة
على كل ما تملك من مقاومة، وتسال:
- أنا الحقيقة تعبانة . . بس أستريح فين؟ لازم أروح .

ولكنه وبحدافة أهل حي الحنفي قدم الحل البديل، فأبوه في
الدكان، وعلى بعد أمتار يوجد بيتهم المكون من حجرة واحدة وصالة
صغيرة. أيليق بالمقام؟

أي مقام والساذج لا يدرك أنها، منذ أن استقبلت النداء قوياً
صادقاً مجتاحاً قد أصبح له على الفور المقام الأعلى، وأصبح أقصى
ما تتمناه أن تعمل وبكل ما تملك لإسعاده. منذ النداء قد انتفض
داخلها مارد قادر على كل شيء، حي نابض بالحياة، مارد تجاهلته
وحاولت قتله، وتجاهله أبناؤها وكل من حولها وبكل ما يملكون من
قيم وعظمت وحكم ومثل، حاولوا خنقه أو سجنه ليموت جوعاً
واهماً وحراً. . مارد حين انتفض يرتد من النقيض إلى النقيض،
ويعود بها وكأنما ببساط سحري إلى أرض شابة حية مدمدمة بحركة

الحياة، وكل ما فوقها وعليها وداخلها ينبض.. أرض.. مرعبة..
مرعبة تماماً.

النظرة ليست كلها احتياج، هناك وراءها مكونة مركزها وقلبها
رغبة، رغبة ملتهبة صامته كأنها العواء بلا عواء، ولكن فليكن وراءها
جهنم نفسها، إنها هي وإرادتها الكفيلتان بأي شيء، بأن تأخذ من
النظرة ما تشاء وترغمه على التخلي عن أي شيء آخر. إنه طفل..
ليس سوى طفل حتى وإن بدا أطول منها قامه، حتى وإن أطل لها
كالصص بصيص من ذات ذاتها يحاول أن يرى في الفتى كل ما ليس
بطفل فيه، كل الأشياء التي يمكن أن تتلصص عليها المرأة.. أية
امرأة.

مخاطرة فلتكن واثقة من أن رأيها هو الرابع، واثقة أنها في
النهاية ستعطيه أمماً ولو لساعات، وستأخذ منه ربما رغم أنفه ابناً ولو
لدقائق، وأنها أبداً أبداً لم تعد تستطيع الهرب من ذلك القدر.

الغريب، وذراعه لا تزال تحت ابطها تسندها، والعيون في
شارع الحنفي كثيرة لا عمل لها سوى التحديق بحثاً عن لمحة
إثارة.. الغريب أن العيون لم تستنكر، حتى الجيران اعتبروها الخالة
الغنية لا بد تبحث - بالوفاء - عن أقاربها من الفقراء. والناس في
تسليمهم بكل ما تواضعوا عليه أبداً لا يبدؤون هم بالشك. قريباً من
رأس السلم المؤدي إلى شقة السطوح حيث يقطنون، انزلت يده
التي تسندها وتحتضنها: متحسسة الظهر.. يد اكتسبت - بطول
الاحتكاك - بعض الجراءة.

ولم تشأ للوقت أن يضيع فيما لم توطن نفسها عليه . أفهمته بلطف أنها إنما جاءت معه لا لكي تستريح وإنما لأنه حرك أمومتها «وكان طبيعياً جداً أن تكذب هنا وتقول إن السبب أنه يشبه ابنها الذي فقدته في مثل سنه بالوفاة» فإذا كان هو يتيماً ماتت أمه فهي العكس تماماً، الأم التي كف الأبناء أن يثيروا فيها أو يحتاجوا إلى أمومتها . ستكون أمه إذن لبعض الوقت، وإذا أساء الفهم فإنها من هنا وقبل أي خطوة ثانية ستعود .

وطبعاً استنكر وأكد وقبل، واثقاً أنها تعني حقيقة ما تقول . مقررأً بينه وبين نفسه أن يطاوعها ويستمتع أولاً بالأم فيها، وحبذا لو فاز بعد هذا بالمرأة أيضاً .

- يعني أنا زي ابنك دلوقتي ؟

- وأنا زي أمك .

- فكرة والله . . طب وحا نعمل إيه بقى ؟

- اللي بتعمله الأمهات .

خلعت فستان الخروج الأسود وبقيت بثوبها الداخلي الرقيق، وبينما الماء يغطي أرض الشقة التي لم تنظف من أجيال وهي بكل همة - ورغم الألم - قد انحنت تمسح وتنظف، كان هو يخرج ويدخل هائصاً يغني . . باختصار . . سعيد . وأرسلته «بالسبت» والنقود وعاد ملهوفاً باللحمة والخضار، وبدأت رائحة «التقلية» تتصاعد، وبينما كان «البوتاجاز» القديم يطهر الطعام على مهل وفي حجرة قد نظفت تماماً ونظمت، كانت هي في الحمام منخرطة في غسل الملابس، كل ما

تحويه الشقة من ملابس حتى «الأفرو» الذي يرتديه أصرت أن يخلعه لتغسله وعليه أن يبقى بلباس داخلي انتقته له من «سرة» ملابس القديمة وهو طفل لا يزال .

وبالغسيل يكاد ينتهي ، ورائحة الطعام قد نضجت ، وغناؤه قد علا وتخللته قهقهات لأتفه الأسباب ، كانت سعيدة سعادة لم تذوقها ربما في شهر غسلها الأول نفسه . فلم تكن قد تزوجت حبيباً ، إنما تزوجت كما كان يفعل الناس في أيامها من عريس جاء عن طريق قريب . ولولا العشرة الطويلة والخلفة والطباع الحلوة لكانت كرهته ، ومن يدري ربما كانت قد أحبه ، أو على الأقل جربت شعوراً ملتهباً غير مستقر يجعلها تبرد وتغلي وتتفجر بدلاً من هذا الاحساس المتصل الطويل لا تعلو له قمة ولا يهبط إلى قاع ، سعادة لم يذوقها الفتى وأمه نفسها عائشة ، فقد كانت رغم قبالتها الطويلة الخائفة لا تناديه إلا مسبقاً بلفظ سباب ، وإذا احتوته جرحته مشاعره البضة شوكات حنانها الخشنة . حنان ما حاولت مرة تليينه أو اعطاءه نعمة الأم الأنثى إلا وغلب عليها الطبع في النهاية وعادت إلى طبيعتها الخشنة . إنه الآن يكاد لا يذكرها ، يكاد ينسى كيف كان موقفه حيالها ، فلحظة الحاضر جاءت تغرق كل ما فات ، وها هو بكل نزق وضحك وجري ودلال وشقاوة ، يعيش كما لم يعيش أبداً ، كما لم يحلم بعيش كهذا من قبل . وقد صبح ما توقعته تماماً ، فالأم فيها أعادت إليه الطفل ، والطفل فيه أعاد لأومتها لمسات وملامح ذبلت وجفت وماتت من سنين . لكانها تصبح أما لأول مرة .

واندفع بنزق صبياني يرفع غطاء الحلة ويلتقط بعض قطع اللحم الملتهبة التي لا تزال في طريقها إلى النضج. ونهرته ووضعته أمام الأمر الواقع، فقد أصبح كل شيء نظيفاً ما عداه. ولا بد أن يستحم.. وأيضاً قبل الطعام. ويا له من شعور لذيذ انتابه وهو يحاول مماطلتها وتأجيل «علقة» الحمام إلى ما بعد الغداء، وهي تصر اصرار أمومة ناعم تحسبه قابلاً للتعديل، ولكنك لا تلبث أن تدرك أن نعومته أشد صلابة من اصرار يملؤه النهر والسباب.

بدلع قال:

- يبقى تحميني.. مش أمي؟.. أمي تحميني.

وكان يعرف أن الاقتراح مرفوض، فما هو بالرضيع أو الصبي، ولكنه ربما قاله ليسبر الغور ويعرف إلى أي مدى أصبحت أمّاً، وإلى أي مدى استترت المرأة. وفي دفعتها له من ظهره لتدخله الحمام وتجذب الباب أحس أنها ليست أبداً دفعة استنكار شديد، هي تمضي في سياق واتساق مع لعبة الابن والأم وما وراءها غامض كل الغموض.

- ادعكي لي ظهري.. من يوم ما ماتت أمي ما حدثش دعهولي.

ولو أوتيت كل قدرات العالم النفسي لما استطاعت أبداً أن تدرك لماذا قبلت، ولماذا صرخت قبل أن يدخل تطلب منه الجلوس القرفصاء وإعطاء ظهره للباب، وماذا بالضبط كان شعورها والليفة

المتآكلة لا تمنع يدها من تلمس جسده، والاحساس بعضلات صلبة
بمثل ما لم تكن تتوقع، متناسقة، تجعل من كومة اللحم الحي
المنحنية على نفسها تصدر العواء والأصوات كتلة مجهولة ذات
خطر، كتلة شاب كبير الجسد دافئه.

وتسأله إن كان قد غسل خلف أذنيه بالليفة، وتكتشف بعد
سلسلة من الأسئلة أنه لا يعرف بعد كيف يحمي نفسه، لا أحد قد
علمه. أنه ليس يتماً واحداً ما يصاب به الصبي، إنه يتيم من الحب،
من الصدر الحنون، من الالحاح عليه بالافطار، من تنظيف كامل
وأمين لجسده.. ألف يتم.

وحين انتهت من مهمتها، والماء ينصب ويتلوى الفتى
لأنصبابه، وكأنها فجعت ودهشت، روعتها النظرة الخاطفة حين ألفتها
فكشفت لها عن معالم الرجل فيه. وفي الحال واجهت نفسها - فالأمر
لم يعد يحتمل الخداع - لقد كانت لساعات طويلة توهم نفسها بابن
حبيب عثرت عليه اليوم صدفة، ولكن هذا الشاب الممشوق الجسد
وما به من رجولة ليس أبداً ذلك الابن، إنه غريب عنها، جسده كله
جاء من امرأة أخرى، وله أب لم تره في حياتها، وحياة طويلة قبلها
لم تر منها إلا عرض أصبع.

ومضة! ولكنه أدرك.. وفهم، واعتراه الارتباك في نفس لحظة
ذهولها وارتباكها. وشتان بين احساس تلقائي مناسب كجداول الطبيعة
بالنبوة والأمومة وقد انقطع - بترته النظرة العابرة - ليكملا الدور بعمد

هذه المرة، وبارتباك وبإشراك هائل للإرادة، محاولاً هو فيه أن يخفي علامات الرجولة فيه، ومحاولات دائمة منها ألا ترى سوى الطفل، محاولات كانت لا تزيدهما إلا ارتباكاً. . محاولات أنهت الحمام فجأة وفي خفوت متعمد، وكأنه كان السبب في مأساة.

وعجيب حقاً أن تتسع نفسها بعد كل هذا المزيج المتناقض من الأحاسيس بإحساس جديد مرق كالشرارة، إحساس بفرحة صغيرة. . فرحة أي أم حين تكتشف في ملابس ابنها الداخلية ذات يوم أنه بعد لم يعد طفلاً، السؤال المعلق - وقد بدأ المساء يحل في دكان أبيه - سؤال لم تنطقه، ومع هذا فقد جاءها الجواب بغير عناء: انه مع أصدقائه في حي «الباطنية» مجتمعين حول «الجوزة» ويشدون أنفاساً تقهقه لها «الجوزة» ويقهقهون، ويشوبون بعد القهقهة العنيفة إلى سعال طويل. جلسة لن تنتهي قبل أن ينتصف الليل. ودون سؤال منه فالسؤال كان لنفسها جاءتها الإجابة: إن شيئاً لا ينتظرها سوى جدران الشقة الكبيرة العالية، الفارغة وسجادة الصلاة، ولا شيء بعد هذا أبداً.

- أنا بردان. . باين الوساخة كانت مدفياني!

ضحكت للنكتة وظننته يدعي.

ولكن أسنانه فعلاً بدأت تصطك.

واندفع إلى «الكليم» المهري الذي يغطي أرض الحجرة، الوحيدة.

واصطكت أسنانه بشدة، وعطس أكثر من مرة.

لو كانت هناك مدفأة أو أخشاب لأشعلتها، ولكنها في بحثها الدائب المنخلع القلب عما يمنع عنه البرد والرجفة، ورعبها أن يمرض لم تجد هناك سوى نفسها، وأدارت ظهره إليها واحتضنته دافعة بساقيها وتقوسات بطنها وظهرها لتشمل انحناءات جسده كله، وأصبحت يداها تضمانه بشدة.
وشيثاً فشيئاً كف ارتماشه.

وشيثاً فشيئاً بدأ يحل بجسده احساس غامر شامل بالراحة والسلام والأمن. وهي في نفس الوقت نشوي وحضنها قد فعل فعله، نشوة أم أرضعت ابنها كل ما يؤرق ثديها من لبن.
وليس أبداً لأن جسده استكان تماماً إلى دفئها.

إنما - هكذا - وربما في نفس اللحظات بدا حضنها نفسه ينسبه المرأة فيها. . ويمر عابراً بالأم. . ويستقر عند أول الطريق إلى شعور آخر مخالف تماماً، جديد تماماً ذلك الذي يجعل القلب يدق. . لا من الرغبة وإنما بما هو أقوى. . بالانفعال، بالعاطفة.

وكان مفروضاً أنها بعد أن استكان إلى حضنها وشبعت أمومتها أن يبدأ قلبها هو الآخر يدق، لكل ما هو غريب في فتاها وليس لكل ما هو قريب.

ولكنها ولفرط ما هي خائفة كبتت الشعور.
وهكذا بينما - رغم التصاقهما الشديد - بدأت تنمو وتترعرع ضباة عاطفية تغطيها تماماً وتربطهما تماماً، يفرزها جسداهما لتثير

كل ما لا باستطاعته أو يملك الجسد اثارته .
أيكون الحب؟

المربع الثاني

ليكم ، فإن كان المقياس المعزّة ، فإن أحداً على ظهر الأرض
حتى أولادها أنفسهم ليسوا بأعز عليها منه . أما هو فقد استكان إلى
ملجأ غريب لم يجربه أبداً . . أحس معه بكل ما عاناه ويعانيه ، بكل
شظف العيش مع أب حشاش عجوز ، ونساء يشتهينه حتى ليلتصقن
به عامدات فوق السلم الضيق ، بكل شيء كأنه ما كان ولن يكون ،
كأنه يولد هذه اللحظة ولادة تحف بها كل أحلامه ، كل ما حرم منه ،
كل ما سوف يحرم منه .

ليكن الحب!

لتكن الجنة!

لتكن أقصى سعادته الآن أن يستسلم للأحلام التي بدأت
تخلعه من الواقع وتحمله بتؤدة إلى النوم . ولتكن إغفائها هي الأخرى
علامة شبع بعد مائدة انتظرتها ، جوعى تتلوى لسنوات .

ليكن ! لولا أنه مع الدفاء ويعيداً عنهما تماماً وعن العقل
والأحلام والمتعة المتخيلة ، بدا ثمة جسد يحس بجسد ، مباشرة وبلا
واسطة ، تاركة العقول تسبح فيما تشاء ، عاقدة هي وبلا أي قوة
تستطيع إيقافها الصلة والاتفاق .

والأجساد لا تتخيل وتحلم، انها لا تعرف للتعبير عن نفسها إلا
الالتحام والاحتواء، بينما الأحلام تلتقي وردية لقاء الخيال والعالم
اللاملموس.

وبدأ الجذب.

رغم ارادتهما معاً.

هو - بحركات لا يمكن رصدها - يكور ويصغر نفسه أكثر وأكثر
وكأنما لو ترك لعنانه لأحال نفسه إلى طفل يستكن في بطنها
كالجنين.

وهي - بإيجابية السلب المطلق، بالقدرة على الاحتواء -
تضمه، بادئة بيده التي أنقذتها من حادث محقق تعصرها بين
أصابعها، إلى وجوده الجسدي الكبير الغريب المتكور، إلى حياته
كلها وأبيه وحجرته وملابسه المعلقة تجف، تحتويها كلها، وتضمه
وكأنما لتعيده إلى حيث يجب أن يكون، إلى بطنها وذاتها.

عاطفة الحب التي بدأت لا جسدية بالمرّة وكأنها من صنع
الخيال، ما ان بدأت الاجساد تتقارب حتى استحالت إلى قوة تلهب
الجذب، وتشرك فيه الاحساس والمعنى والخيال.

ولو كان ملاكاً وكانت هي قديسة.

ولو كان الجزاء الموت حرقاً أو فوق خازوق.

ولو اجتمعت الدنيا كلها لتوقف قوة الجذب الخارقة لوقفت
عاجزة.

فما يحدث كان في الواقع سره من سر الحياة، وقوته من قوتها.

الحياة حين يصبح هدفها الأوحـد من البقاء والوجود والاستمرار أن تتحد.

الحياة حين تخلق العاطفة قوة تجذب، فإذا تلامس الحيان فلا شيء بإمكانه أن يفرق بينهما. لقد استعانت بأولياء الله ومشايخه، وبالسيدة، وبصبرها الذي طال عشرين عاماً، بابتسامة أبيها الحنون، بأمها المرحومة ذات العشر حجات، بالفاتحة وآية الكرسي وكل ما يطرد الشياطين. واستعان هو بشيخ طريقته، وتعاليمها، وكل ما تراكم في ذاكرته من أوامر ومحرمات. . ولكن جوع الجلد إلى الجلد، جوع الضلوع إلى الضلوع، وظماً الفم إلى الفم، والسيقان لتلتف حول السيقان كان هو الذي كل مرة ينتصر، ويقهر.

جذب من جذب ذلك الكون الشاسع القادر على تعليق كوكبنا، بل شمسنا، وملايين غيرها. . في فراغه المخيف بلا شيء سوى جذب التجاذب وجذب التنافر. جذب لا يدري للآن أحد سره. . ذلك الذي يجذب المرأة إلى رجل بالذات لتستعمله كوسيلة تحصل بها على نسخة من صنعها هي لهذا الرجل. على ابن ما أروعه لو جاء تماماً كأبيه لتستमित في حبه. وجبذا لو أبيع لها أن تختار هذا الابن نفسه لينتج لها ومن ذات نفسها أيضاً ابناً آخر. . أكثر قرباً لما تريد وتهفوا.

جسدان راقدان متجاوران متلاصقان هذا صحيح، من ساعات

كانا مجرد كائنين مثلهما مثل الملايين الأخرى من الكائنات، ملتصقان وكأنما بفعل مغناطيس قانونه الأوحده أن يتجاذب قطباه حتى لو كان أحدهما في الخمسين والآخر لم يبلغ العشرين، بل حبذا لو كان أحدهما في الخمسين والآخر دون العشرين.

جسدان خلفتهما قوانين حياة لا تقهر. قوانين أكثر تعقيداً وهولاً من كل نزعات الانسانية للتخلص منها. قوانين غريبة سارية تحيل الفراغ بينهما، ان كان قد بقي فراغ، إلى جحيم من الانفعالات المكبوتة، والقاهرة المنطلقة، والمناطق المحرمة التي شيئاً فشيئاً تستباح، وهي مستميتة تشبث بخط دفاعها الأخير كأم لأولاد مقربين ناجحين متعلمين، تستحضرهم بكل ما لديها من بأس لتمنع بهم المشهد القائم، أو توقف التحرك إلى المشهد الفاجع التالي. لينفذوها على الأقل من كهارب وتيارات وأحاسيس تشل إرادتها شيئاً فشيئاً، وتعمق لديها احساس الأم. ليسوقفوا الحضر الدائب داخله وداخل قدرتها على العطاء حتى لا تبلغ هذه القدرة على العطاء والمنح أقصى مداها، بحيث - أعوذ بالله، أعوذ بالله - تنقلب بفعل أي دفعة أخرى بسيطة إلى رغبة في الأخذ والاستقبال، وتمضي قدماً في خط الأمومة لتصل إلى أقصاها حيث الأنثى، ومن رغبة إلى الشاب إلى رغبة ملحة في الحصول على صفاته وملامحه، وعليه كله، مصغراً وفي حجم بويضتها المتربصة المنتظرة.

بينما تبلغ به رغبته فيها كأم إلى حد لم يعد يحتمله، إلى حد يصبح كل أمله ومناه أن تكون أمه وحده. بحيث تنغل على دون

سواه من البشر أو الأخوة أو الأزواج والأبناء. تبلغ به الرغبة حداً يجعله يحتاج إليها كأم إلى الدرجة التي لا يعود يكتفي فيها بمعالم الأمومة الظاهرة، إنما يبحث وإلى آخر رفق حتى يصل ويستولي على كنه الأمومة فيها، على الأنثى فيها. فالأم دائماً أكبر من أي ابن، ولكن الأنثى لا ينالها إلا رجل واحد وتكون له وحده.

ومهما كانت الردود وفعل الردود، والاقدام مرة والخجل مرة، بحضور تاريخ طويل من النواهي والأوامر مرة، واختفائه خلف قوانين الحياة العظمى مرة أخرى، به حين يبدأ يتصرف كشاب فتنهره كأم، وبها حين تضمه مؤملة أن تسكته بأمومتها فتتحول الأمومة بفعل النار الموقدة إلى أنوثة. بالأربعة معاً الابن والأنثى والأم والشاب في صراع لا رحمة فيه بين بعضهم البعض، وبينهم وبين أشباح الآخرين الحاضرة وأشباح غابت ومقدسات لها مفعول الأزل، بهذا كله ترتفع الحرارة حتى يتشعب اللهب، وعلى لهيبها تحترق أشياء كانت لا تقبل الاحتراق، وتذوب النواهي، ويذوب كل ما كان وكل ما سيكون، ولا يبقى سوى المرأة المحتمية بالأم فيها، والابن التائه يبحث عن أنثاه المختفية داخل المرأة الأم.

ولو الأمر أمر الأجساد وتلقائيتها لانعكس التيار الصادر عنها يعطيه الأنوثة أمومة، إلى تيار يستقبل العطاء ويحيل البنوة ذكورة.

ولكن الانسان ليس جسداً فقط. . انه ليمتلك في جسده عضواً غريباً ساحر المفعول اسمه العقل، ودون اشراكه وموافقته فلن يصدر

عن الجسد فعل أي فعل . . أو يتحرك مستقلاً قيد أنملة .

وباستماتة، وكأنما استجابة لدعائها الحار بالأولاد وقد استجمعهم كالجيش «العرموم» حولها يتواثب منه أحفادها ويستنكرون مسلك الجدة بينما آباؤهم يتطلعون بعيون زوجاتهم اليها، حيث استحضر المرحوم هو الآخر وسنوات الكفاح والرفض المستميت للزواج من بعده، حين حشدت التاريخ الماضي كله ليمنع لحظة فاصلة . . حدثت المعجزة، واستعادت الأم والأرملة العذراء سيطرتها، وانتابتها من هول ما هي فيه رعدة وأفلتته .

ولكن ربما لقصر في تاريخه، ربما بحكم السن، لم يستطع هو أن يعود للحاضر أو يخفي عنها أو عن نفسه رجولته ولا رغبة الرجل في الأنثى . . أي أنثى التي أصبحت تعميه . كان قد وصل بشعوره إلى نقطة لا عودة فيها، بنفس استحالة أن تحدث أصبح المستحيل تماماً أن يعود .

المربع الثالث

المربعات التي تآكلت سطوحها فبرزت حوافها الملتصقة، مربعات الدبش الأبيض الكبير التي تكون أرض الحجرة والشقة، المربعات التي لا يفلح «الكليم» الرقيق الرخيص في تغطية حواف الدبش وعلاماته . المربعات والكنبة الكبيرة العالية، والمنضدة المعدنية ذات الأرجل الثلاث، ونافذة الحجرة الحافلة بغسيله المنشور، كان

الشهود ليسوا شهوداً على شاب في الثامنة عشرة قد جاءت معه
بقدمها - ولو ملتوية - امرأة إلى حيث يقطن حتى وإن كانت قد بلغت
الخمسين، لا ولا بين طرف رافض وطرف يرغب، ربما الأدق أنها
كانت معركة بين كل منهما ونفسه، معركة مبهمه غير واضحة، فثمة
سحب كثيرة من خجل ذي درجات تلفها وتشمل المكان كله،
درجات تبدأ بالخجل البسيط، خجل الأم أن يكتشف ابنها أنها أنثى،
وخجل الابن أن تكتشف أمه أنه رجل. فجأة يثور فيه الشاب فيحتوي
الرقبة ويقبلها قبالات شابة محمومة.

وبحسب تهمس:

- عيب أنا زي أمك.. أنا.. ولادي أكبر منك.. أنا جدة
والله..

فلتكوني جدة أوجنية فالمهم أنك الآن أمامي أنثى، وأنا الذكر
حتى ولو كنت أمي نفسها وأوصلتني إلى هذه الدرجة فلا تتوقعي أبداً
أن تجدي في الابن.

يصبح الكلام بلا فائدة فتستعمل اليد.. يدها، وتدفعه برفق
دفعه الأم لابنها المناكف، فيعود يقبل عليها بإصرار الابن المناكف.
تريه الشعر الأبيض في رأسها ليصدق.. ليكتشف هو وتكتشف معه
أن ناره لا تزيد إلا اشتعالاً، وأنها كلما قربت نفسها من صورة أمه أو
حاولت أن تستثير فيه الابن، لا يفعل هذا كله إلا أن يؤجج الشاب
الذي بدا وكأن ما أصبح يثيره فيها أنها أم، أمه. بل وصلت إلى ما

هو مرعب أكثر، انها هي كلما شعرت وأقنعت نفسها أنه لا يعدو كونه ابناً، كلما أحست ومنها له انطلقت من أعماقها الأنثى . . أنثى ترعبها فهي أبداً ليست تلك التي عاشت ابنة مطيعة ورباها أب وأم وعلمهاها وزوجاها وأنجبت أبناء أنجبوا بدورهم أبناء . . أنثى أكثر أنوثة من كل ما تصورته في حياتها عن نفسها كأنثى . . أنثى حبيسة شيطانية تدمم مهددة بانفجار لا يعلم سوى الله مداه . . . أنثى كأنها الأذرع الطويلة القوية لأمويتها تختلج متحركة في كل اتجاه، وتريد ارادة لا وسيلة لقهرها أن تطبق على الشاب الصغير اطبافة تبتلعه فيها وتحتويه ليعود مرة أخرى جزءاً منها. الشاب الذي - وأولادها حاضرون محققون شاهدون - تراه هو الغريب أكثر قرباً وبنوة منهم جميعاً. الشاب المضطرب بين خجله منها ورغبته فيها، الخجل حتى من ذكورته، بل خجل أكثر من أنوثتها. الشاب الذي وكأنما يريد اعتصار الأمومة فيها إلى حد الأنثى، أو يريد لها كأنثى إلى درجة اعتصار كل ما قد يكون فيها من أمومة تخصه وحده دون سواه. ظمآن إلى المرأة من زمن . . أمأ أو أنثى. لم يعد يكفيه أن يطوقها أو يرقد ساكناً في حضنها وإنما يقترب منها بكل ما يستطيعه من اندفاع كي ينتمي إليها كما يذوب فيها ويتلاشى وكأنه الكوكب يعود بعد طول دوران إلى أمه النجم.

ولكنها رغم هذا كله كان هناك في داخلها شيء لم يكف عن الصراخ أبداً أو إشعارها بوجوده، شيء يقول بأعلى صوت ومذ كانا على عتبة السيدة . . لا . . لا . . لا . . شيء قد يضعف أو يخفق

ولكنه أبداً لم يمنح ولم يكف ولم يتوقف للحظة، بل ظل يستجمع نفسه بكل قواه إلى أن انتفضت مرعوبة ملتاعة دافعة إياه وبكل ما تملك من قوة وعنّف بعيداً عنها. دفعة كالصخرة ارتطمت برأسه فأفاق، وأحس أن كل ما راوده أحلام، وأنه لا يزال ذلك اليتيم المنبوذ.

وحينذاك . . . حينذاك فقط ورغماً عنه بدأت الدموع تتجمع في مآقيه وتطفّر، بينما عيناه تنظران إلى أمام . . . تلك النظرة الملتاعة المفجوعة المتأكدة أنها وبلا أمل، قد فقدت حقيقة الأم.

نظرة اليتيم حين يرمق طوابير الرجال والنساء مقبلة تعانق أطفالها ويتقافز حولها الأطفال، وهو الوحيد الذي ليس له بينهم أم، بل وأب أيضاً.

تلك النظرة الغارقة في الدموع التي لمحتها بربع عينها وأحست بعدها أنها انتهت تماماً، وأن على أي شيء أن يحدث ولكنها أبداً لن تجعله يشعر ببيته الثاني .

نظرة الأم لابنها في لحظة خطر يهدد أمومتها له أو بنوته . وكان هذا الاندفاع والاحتضان والقبلات تغسل بها دموعه وتهدهد بها فوق ملامحه الكسيرة .

- آمال بتزقيني ليه؟

- مش ح ازقك .

لم يكن رداً . . كان قراراً، وإلى جهنم مباشرة فلتذهب .
 - تعال . . تعالالي .
 وجاء . . ولم تحتوه أو يحتوها، انما فقط ذابت المسافة التي
 استمرت طويلاً بينهما، وذاب الزمن .
 وبين القطبين الأعظمين تمت شرارة الالتحام الصاعقة .
 صاعقة تزلزل لها بلاط الحجرة المربع واصطكت نوافذها ولو
 استمرت أكثر لتهدم البيت كله .

المربع الرابع

وحين عادت إلى شقتها الكبيرة وجدتها صغيرة، وفي المرآة
 طالعتها تعبير لم تراه في وجهها منذ ثلاثين عاماً .
 وحين جاء يوم الجمعة فوجيء أولادها جميعاً بالشيخة التي
 أرادوها وقد تفجرت فيها دفقة حياة جعلتها تبدو أكثرهم حركة ونشاطاً
 و طاقة على خلق المرح، وكأنها عادت شابة .
 - مش قلت لك آدي بركات الست ظهرت !
 والأعجب أنها كانت أول من استأذن، والحجة جاهزة، فالسيدة
 لا تستطيع الانتظار .
 وأشياء كثيرة كانت تختل في الكون وفي الدنيا وفي نظام
 البشر، ولكن لم يحدث أبداً أن اختلت مواعيد زيارتها للسيدة . بعد
 أن تشبع بطونهم من الطعام وتغذيتهم بحنان غريب وكأنه اندفاع

البتروء في بئر مهجورة وترعاهم، وتغمرهم بأمومة أصبحت ربما أكثر من طاقتهم على الأخذ، تستأذن وتزور السيدة.

وفي كل مرة وبرهة ترمق الضريح مبتعدة وتتمتم: دستورك يا سيدة، وكأنما أيضا توقف بها الزمن وفعل الزمن عند ذلك اليوم. ولم يتحرك إلا في يوم كانت على الدوام تحسب حسابه وتتوقع مجيئه، ولكن في الحق فاجأها حين جاء، وظلت في مكانها مشدوهة لا تريد أن تصدق أن اليد لم تعد هناك، وأنها لن تقودها هذه المرة إلى حجرة المربعات في الحنفي.

ثم حين تمضي الساعات ولا يجيء تبدأ تقدم رجلاً وتؤخر رجلاً إلى الدكان القائم غير بعيد عن الجامع والضريح. ولكنها قبل أن تصله تتوقف. كان هناك وقد أصبح صاحب الدكان بعد ما مات الأب. ولكنه لم يكن وحده.

أمام الدكان كانت فتاة في الثامنة عشرة ربما، أو أقل، فقد كانت لا تزال محتارة كيف تلف الملاعة بإتقان حول جسدها. وكان يساومها على تصليح البوتاجاز.

مساومة ذات معان، تبدأ من «الفونية» إلى المفتاح، والفرن ونار الفرن.

والفتاة تضحك.. وهو يبتسم..
وهجة نظرت إليه من جديد.

نظرة، وكأنها ثاني مرة تراه فيها بعد المرة الأولى، المرة الأولى . .

كان انساناً آخر تماماً . . كانت قد أصبحت له ذقن غزيرة غير حليقة نابذة وسوداء كثة، وكان صوته قد غلظ وضحكته قد أصبحت رجالية خشنة، صوت له ارادة ونظراته لم تعد تستقبل العالم وتدهش له . أصبحت فقط تراه لتحدد مسارها فيه لا غير .
لقد أصبح رجلاً كبيراً، هذا واضح .
أصبح واحداً من قافلة الرجال . . والأمهات على الرجال عبء .

وقبل أن تثن أو تدور بها الدنيا .
أحست أنها لا تريد الأنين، وأن باستطاعتها أن توقف الدوار .
فهي ليست عاتبة أو حزينة أو مندهشة أو حتى حاقدة على الفتاة أو عليه . أدركت - من خلال احساس غير واضح وبلا ضغينة - أنها هي الأخرى لم يعد لديها ما تعطيه أو تمنحه، لا فائض أمومة ولا فائض عواطف، والبركان الأخضر الريان لم تعد به قطرة واحدة .
وفي مرآة حقيبتها رأت البياض في شعرها واضحاً تماماً رغم الصبغة، والتجاعيد كثيرة حول جفونها ورقبتها .
وتحركات . .

مبتعدة . .

ومقتربة من المسجة . .

واستأذنت في سرها، وكأن جاءها الإذن . . ففي خشوع وتسليم

ورغبة دخلت، وإلى المقام اتجهت . .
 ووقفت طويلاً لا تعرف ماذا تقول أو تفعل .
 ثم . . وكأنما بالوحي أو السليقة اقتربت من السور النحاسي
 المقام حول الضريح ، وأمسكت مع الممسكين والممسكات بحلقة
 من حلقات النحاس الناعم الذي أثخنه كثرة الاستعمار . أمسكت
 بالحلقة وضغطت عليها وتشبثت تماماً بها وكأنما الأرض تحتها .
 تنفتح لتبتلعها .

لا أحد يحتاج إليها الآن .
 ولم تعد هي بحاجة إلى أحد .
 انها الوحدة الحقيقية كما لم تتصور وقوعها يوماً .
 ها هي مثل بواذر الشتاء وبلا ضجيج ، قد جاءت .

وحدة حقيقية لا مهرب منها . الوحدة الفاصلة بين الابن وبينه
 هو نفسه حين يصبح أباً، وبينها وقد نفذت أمومتها أو ما تبقى منها
 وبين عودتها من جديد لتصبح هي نفسها ابنة . . ابنة لأم لا وجود
 لها، وربما لهذا سموها أم العواجز . فالإنسان لا يستطيع البقاء انساناً
 إلا ابناً كان أو أباً، فإذا انتهت رجولته وأبوته عاد ابناً، وإذا انتهت
 أمومتها عادت ابنة، قاعدة ليس لها شواذ . ولكنها الآن في لحظة
 واحدة فاصلة، كوحدة السيدة زينب نفسها وقد تجمع حولها وأمسك
 بحلقات ضريحها أناس كثيرون، رجال ونساء، وكلهم وكلهن
 وحيدون ووحيدات مثلها . كلهم وكلهن قد أصبح أملهم أن يعودوا
 أبناء وبنات، وحبذا لأم العواجز . . الوحيدة في قبرها رغم ما حوله

١٠٣٦

من ازدحام، يحاول كل متزاحم أن يتشبث إلى درجة البكاء والعويل
 بحلقة من حلقات الضريح، وكأنما ليلغي ما بينه وبين صاحبة
 الضريح من مسافة، وينجح في النهاية أن يخرج من وحدته ويحس
 بها أمه، ولو كانت أم الجميع. فهي أيضاً رغم كل شيء وحيدة.
 وحيدة في قبرها.
 وحولها يتشبث الوحيدون والوحيدات.
 والفاخرة لها ولهم.

«تمت».

٢٠٢

المحتويات

٧.....	بيت من لحم
١٥٧.....	لغة الآى آى
٣٣١.....	العنب على النظر
٤٥٣.....	أنا سلطان قانون الوجود
٥٥٥.....	أقلها
٦٦٩.....	قاع المدينة
٨٣٥.....	النداهة

رقم الإيداع ١٩٥٨ - ١٩٩٠
الترقيم الدولي ٢ - ٤٠٥ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروقة

الطبعة ١٦ شارع حوراد حبي - طاب ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨
بيروت، ص ١ - ٨٠٦٤ - طاب ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧٦٣

یوسف ادریس

الفقه في الفقه